الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
سلسلة الجوائز
٤١

رواية

جويس كارول أوتس

الشلالات

ترجمة : عمرو خيري

مراجعة : دكتورة أماني توما

أوتسى، جويس كارول.
الشلالات: رواية/ تأليف: جويس كارول أوتسى؛
ترجمة: عمرو خيرى؛ مراجعة: أمانى توما.ـ
االقاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.
٥٨٤ ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ٥ ٨٤٠ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص.
أ ـ خيرى، عمرو. (مترجم)
ب ـ توما، أمانى. (مراجع)
ج ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٩٥١٧/ ٢٠٠٩
I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 840 - 5
ديوى ٨٢,٨٠٨

الشلالات

رواية

جويس كارول أوتس

ترجمة

عمرو خيري

مراجعة

دكتورة أماني توما

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

● الكتاب: **الشلالات** The FALLS

● تأليف: **جويس كارول أوتس** Joyce Carol Oates

● ترجمة: عمرو خيرى

● مراجعة: دكتورة أمانى توما.

● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.

"Published by arrangment with ecco, an imprintop harpercollins publishers".

● **الطبعة الأولى ٢٠٠٨.**

● **طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.**

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

الجزء الأول: شهر العسل

شهادة حارس البوابة: ١٢ يونيو ١٩٥٠

فى وقت كان فيه ما زال مجهولاً لا اسم له، ظهر الشخص الذى سيُلقى بنفسه فى شلالات هورسشو لحارس بوابة جسر جزيرة جوت المعلق؛ حوالى الساعة السادسة والربع صباحاً.. وكان أول عابر اليوم.

هل عرفت على الفور؟ ليس بالضبط، لكن بالنظر لما جرى، نعم، كان يجب أن أعرف. ربما كنت لأنقذه لو عرفت.

باكرٌ هكذا! كانت ساعة الفجر لولا جدران الضباب والرذاذ المتناثر والمتصاعد فى سحابات ترتقى فى موجات من شلالات ـ نياجرا البالغ ارتفاعها ١٨٠ قدماً تحجب الشمس، لابد أن الموسم كان بداية الصيف، إلا أنه بالقرب من الشلالات كان الهواء هائجاً رطباً مطحوناً كبرادة الحديد فى الرئة.

تبين حارس البوابة أن الشخص المشتت المسرع بشكل مريب جاء عبر بروسبكت بارك مباشرة من أحد الفنادق العريقة الفخمة فى شارع بروسبكت، لاحظ حارس البوابة أن الشخص له "وجه شاب عجوز متغضن".. "جلد دمية شمعى".. "عينان غائرتان متأملتان" نظارته رفيعة الإطار تعطيه مظهر الفتى المدرسى نافد الصبر، كان طويلاً بمقدار ستة أقدام يشوبه الهزال، محنى الظهر، "مدور الأكتاف نوعاً وكأنه كان منحنياً على مكتبٍ طيلة حياته".. مضى مسرعاً فى إقدام وكأنه لا يرى، وكأن

هناك من يناديه باسمه، كانت ثيابه مُحافظة كئيبة، لا شيء فيها يشبه ما يرتديه سائح شلالات نياجرا، قميص أبيض قطنى مفتوح من عند الحلق ومعطف داكن مفكوك الأزرار وسروال بسحّاب محشور "وفيما يبدو أن المسكين ارتدى ثيابه سريعاً فى الظلام"، وكان حذاء الرجل حذاءً رسمياً، من الجلد الأسود اللامع وكأنه يرتديه فى زفاف أو جنازة" .. وكاحلاه يلمعان ببريق أبيض شمعى، بلا جورب.

بلا جورب! على حذاء فاخر كهذا.. إهدار.

صاح إليه حارس البوابة: "أنت!" ولكن الرجل تجاهله، لم يكن أعمى فقط، بل أيضاً أصم.. المهم أنه لم يسمع، من الواضح أن عقله فى حالة تركيز وكأنه قنبلة على وشك الانفجار؛ كان عاقداً العزم على المضى إلى مكان ما، وبسرعة.

صاح إليه حارس البوابة بصوت أعلى: أنت يا أستاذ.. التذكرة بخمسين سنتا، ومن جديد لم يبد على الرجل أدنى علامات السمع، وفى خضم يأسه بدا غير مدرك لوجود كشك التذاكر، تقدم بوتيرة قريبة من الجرى، وليس برشاقة.. فى خطوات مترنحة، وكأن الجسر المعلق يتمايل تحت قدميه، كان الجسر على ارتفاع حوالى خمسة أقدام فوق المياه البيضاء سريعة التدفق وأرضيته الخشبية مبتلة، غادره، وحتى أنه قبض الرجل على الحاجز ليحفظ توازنه وليدفع بنفسه إلى الأمام، انزلق حذاؤه ذو النعل الناعم، نظارته الدائرية اللامعة انزلقت من على وجهه وكادت تسقط لولا أنه دفعها على أنفه. شعره فيرانى اللون وقد نحل عند أعلى رأسه تتطاير فى خصلات شاحبة مبتلة حول رأسه.

حينئذ قرر حارس البوابة أن يهجر الكشك ليتبع الرجل المهتاج.. صاح: "يا أستاذ! يا أستاذ!".. "يا أستاذ، انتظر!" فقد رأى حالات انتحار فى الماضى، أكثر مما يود أن يتذكر.. لديه خبرة ثلاثين عاماً من العمل بمجال السياحة فى الشلالات، لم يستطع اللحاق بالرجل فقد أشرف على الستينات من عمره، أخذ يرجوه: "يا أستاذ! لا! اللعنة، أرجوك، لا تفعل!"

كان الأحرى به أن يتصل برقم الطوارئ الموجود فى كشك التذاكر، لكن لم تعد العودة أدراجه مجدية.

لم يتوقف الشاب عند الحاجز ليحدق عبر النهر إلى الشاطئ الكندى، ولو توقف لتأمل المشهد المضطرب الهائج، كما يفعل أى سائح طبيعى، لم يتوقف ليمسح وجهه المبلل، أو ليبعد شعره المتفرق عن بعض عن عينيه.. *ضحية سحر الشلالات ولعنتها، ما كان ليمنعه أى من البشر الفانين.*

إلا أن عليك التدخل، أو أن تحاول. لا يمكن أن تدع رجلاً ـ أو امرأة ـ ينتحر.. الخطيئة غير المغفورة.. أمام عينيك المحدقتين.

تقدم حارس البوابة بأنفاس لاهثة ورأس يدور وخطوات عرجاء وراء الشاب وهو يصيح فيه، أما هو فيمضى فى طريقه المستقيم إلى الطرف الجنوبى للجزيرة الصغيرة، "تيرابين بوينت"، فوق شلالات هورسشو إلى الركن الأخطر فى جزيرة جوت، وهو فى الوقت نفسه الأجمل والأكثر سعرًا.. ها هنا تمضى المياه سريعة مجنونة.. مياه بيضاء رغوية تندفع من على ارتفاع خمسة عشر قدماً فى الهواء، الرؤية شبه معدومة.. الفوضى كابوسية.. شلالات هورسشو عملاقة ارتفاعها نصف ميل من قمتها، ويتدفق عبرها مايقرب من ثلاثة آلاف طن من المياه فى الثانية الواحدة. والهواء يزأر فى زلزلة والأرض تحت الأقدام ترتعش. وكأن الأرض نفسها على وشك التمزق متحللة إلى جزيئات، إلى قلب كوكب الأرض الذائب، وكأن الزمن توقف.. الزمن انفجر، وكأنك اقتربت كثيراً من قلب الوجود المجنون المشع الممدودة خيوطه.. ها هنا تنفرط أوردتك وشرايينك وأعصابك بتمامها ودقتها.. فى لحظة. عقلك الذى تسكنه، مُتنفسك الفريد هذا، ينسحق إلى عناصره الكيميائية.. خلايا المخ، والجزيئات، والذرات، ويُمحى كل ظل وصدى لكل ذكرى.

لعله وعد الشلالات.. السر!

وكأننا نشمئز من ذواتنا.. يا الجنس البشرى.. هذا هو طريق الخلاص، وقليلون هم من لديهم البصيرة والرؤية.

على بعد ثلاثين ياردة من الشاب رآه حارس البوابة يضع قدماً مترددة على القضيب السفلى من السور، موضوعة على الحديد الزلق المشغول، لكن أمسكت يدا الرجل بالقضيب الأعلى، بكلتا قبضتيه، بقوة.

ـ "لا تفعل هذا! يا أستاذ! اللعنة.."

غرقت كلمات حارس البوابة فى الشلال.. عادت تضرب وجهه كبصقة باردة.

كان هو نفسه على وشك الانهيار، سيكون هذا الصيف صيفه الأخير فى جزيرة جوت.. آلمه قلبه، وأخذ يخفق مرسلاً بالأكسجين إلى مخه المذهول، وآلمته رئتاه، ليس فقط الرذاذ اللاذع المنبعث من النهر، بل أيضاً المذاق المعدنى الغريب لهواء المدينة الصناعية الزاحفة شرقى وشمالى الشلالات، التى عاش فيها حارس البوابة طيلة حياته. *تذبل.. ترى الكثير.. كل نفس يؤلمك.*

أقسم بعدها حارس البوابة إنه رأى الشاب يلوح مودعاً قبل أن يقفز بلحظة.. تحية ساخرة، تحية بها من نوع من التحدى ، كالتى يؤديها صبى مدرسى صفيق متحاذق لشخص بالغ؛ ليستفزه.. ولكن فى الوقت نفسه وداعًا صادقًا، كالذى تودع به غريبًا، أو شاهدًا لا تضمر له أذى، تتمنى أن تعفيه من أقل القليل من الذنب الذى قد يتحمله، لأنه سمح لك بالموت حين كان بوسعه إنقاذك.

فى اللحظة التالية، كان الشاب الذى استحوذ على كامل انتباه حارس البوابة، وببساطة.. قد رحل..

فى خفقة قلب رحل.. من فوق شلالات هورسشو.

ليس أول أولاد الحرام المساكين الذين رأيتهم، لكن أرجو الرب أن يكون الأخير.

حين عاد حارس البوابة المذهول إلى كشكه ليتصل بخدمات طوارئ مقاطعة نياجرا، كانت الساعة تشير إلى السادسة وست وعشرين دقيقة صباحاً، بعد الفجر بحوالى الساعة.

العـروس

ـ ١ ـ

-"لا.. أرجوك يا رب.. ليس هذا"

الألم.. إحساس المهانة، العار الرهيب، ليس الحزن.. ليس بعد، الصدمة فورية لم تصل لإحساس الحزن بعد.

حين اكتشفت الورقة المحيرة التى تركها لها زوجها قائمة على المرآة فى حجرة نوم جناح شهر العسل فى فندق «**رينبو جراند أوتيل**» فى منطقة شلالات نياجرا بولاية نيويورك؛ كانت آريا متزوجة منذ إحدى وعشرين ساعة، وحين عرفت بعد ظهر ذلك اليوم من شرطة شلالات نياجرا أن رجلاً يشبه زوجها «**جيلبرت إرسكين**» ألقى بنفسه فى شلالات هورسشو باكراً فى الصباح وابتلعته المياه.. "اختفى بلا أثر له حتى الآن".. وراء منطقة حفرة الشيطان النهرية، وهو اسم منطقة الجذب السياحى أسفل الشلال؛ كانت زوجة لما يقل عن ثمانى وعشرين ساعة.

تلك هى الحقائق الفاصلة القاسية.

- "أنا عروس أصبحت أرملة فى أقل من يوم".

تكلمت «**آريا**» بصوت مسموع.. بصوت مذهول، كانت ابنة قس من الكنيسة المشيخية.. لابد أن يكون لهذا حساب عند الرب، كحال السلطات العلمانية؟

ضربت "**آريا**" وجهها فجأة بقبضتيها، أرادت أن تكلم عينيها وتسودهما لأنها؛ رأت الكثير.

- "ساعدنى يا ربى! لست قاسياً هكذا، هل أنت كذلك؟"

نعم. أنا كذلك أيتها المرأة الغبية. من أنتِ حتى أشملك بعدلى؟

كم جاء الرد سريعاً! سخرية تردد صداها بوضوح فى جمجمة "آريا"، وكانت نصف مصدقة أن هؤلاء الغرباء المشفقين يسمعون.

لكن السلوى فى أنه حتى يتم العثور على جسد "جيلبرت إرسكين" فى النهر ويتم التعرف عليه، فموته نظرى وغير رسمى.

"آريا" ليست أرملة بعد، ما زالت عروساً.

-٢-

..أفاقت ذلك الصباح من نومها على الحقيقة الوقحة التى لا جدال فيها أنها - تلك التى نامت وحدها طيلة حياتها - عادت وحيدة صبيحة زفافها. أفاقت من نومها وحيدة وإن لم تعد الآنسة "آريا جولييت ليترل"، بل السيدة ""جيلبرت إرسكين" ولم تعد الابنة العانس للمبجل "ثيودوس ليترل" وزوجته من تروى بولاية نيويورك معلمة البيانو والغناء بأكاديمية تروى للموسيقى.. بل أصبحت عروس المبجل "جيلبرت إرسكين"، الذى نُصب مؤخراً قساً للكنيسة المشيخية الأولى فى باليرا بولاية نيويورك.

أفاقت من نومها وحيدة وفى تلك اللحظة عرفت، لكنها لم تتمكن من التصديق، كان كبرياؤها عظيماً، لم تسمح لنفسها بالتفكير فى: إننى وحيدة.. ألست كذلك؟.

صخب أجراس العرس تبعها إلى هنا.. مئات الأميال، رأسها يطن بالألم وكأنه جاءها بالنيابة، أمعاؤها مضطربة وكأنها متآكلة متعفنة.. فى السرير الذى لم تعتده بملاءته الرطبة وبجسدها المبتل وفى يأسها. أين، أين هى، ما اسم الفندق الذى جلبها إليه، فردوس العرائس فى شهر العسل، وشلالات نياجرا عاصمة شهر العسل فى العالم، نبضة فى رأسها عنيفة حتى أنها لم تتمكن من التفكير، بما أنها متزوجة منذ فترة وجيزة للغاية فهى لم تكن تعرف إلا القليل عن الأزواج، ولكن بدا لها معقولاً

(فآريا كانت تقول لنفسها هذا كطفلة مذعورة تتلو على نفسها قصة لتبعد بها الضرر عن نفسها) إن "جيلبرت" قد انسل بهدوء من الفراش وأنه الآن فى دورة المياه، رقدت فى سكون تنصت لأصوات الصنابير، صنبور الدش، والسيفون، تتمنى السمع وأعصابها الحساسة تقاوم الإنصات، الإحساس بأنها خرقاء، الحرج، الخزى من تلك الحميمية كانت غريبة عليها، مثل حميمية الزواج. "فراش الزوجية"، لا مكان تختبئ فيه. زيت شعرها نفاذ الرائحة وعطر ماء السوسن خفر العذوبة فى تصادم. "آريا وجيلبرت" الذى لا يناديه أحد باسم "جيل" على سبيل الاختصار، وحدهما مبهورا الأنفاس ويبتسمان بقوة ومصممان على أن يكونا مرحين عذبين لطيفين مع أحدهما الآخر كما كانا قبل أن يجمعهما العرس فى رباط مقدس، فيما عدا أن "آريا" كانت تعرف أن ثمة شيئًا خطأ، وأفاقت من سباتها العميق على صدمة هذا اليقين.

رحل.. لقد رحل، لا يمكن أن يكون قد رحل. إلى أين؟

اللعنة! كانت عروسًا جديدة خجولة.. هكذا أدركها العالم ولم يكن العالم مخطئاً، عند مكتب الاستقبال فى الفندق وقعت لأول مرة باسم السيدة "آريا إرسكين"، وتوردت وجنتاها. عذراء فى التاسعة والعشرين من العمر، غير مُجربة مع الرجال بقدر قلة تجربتها مع أى جنس آخر من الكائنات، وهى راقدة يدمرها الألم لم تجرؤ على مجرد التمدد بحرية فى السرير الواسع خشية أن تلمسه.

لم ترغب فى أن يسىء فهم لمستها.

تقريباً كان عليها تذكر اسمه. "جيلبرت".. لم يطلق عليه أحد اسم "جيل". لا أحد من أقاربه من أسرة "إرسكين" الذين قابلتهم، ربما أصدقاء له فى المعهد الدينى فى "ألبانى" كانوا يسمونه جيل ولكن كان هذا جانبًا منه لم تره "آريا"، ولم تتمكن من افتراض معرفته، وكأنه مناقشته فى الإيمان بالدين.. نُصب قساً مشيخياً فى سن صغيرة للغاية؛ ولهذا كان الإيمان نطاق معرفته المهنية وليس هى، فكرة مناداة رجل كهذا على سبيل

التدليل باسم "جيل" لمحة قد تألفها "آريا"، خطيبته التى أصبحت لتوها زوجته.

بأسلوبه الصلب الخجول ناداها: "عزيزتى آريا"، ونادته هى "جيلبرت"، ولكنها كانت تخطط كيف أنها وفى لحظة رقيقة معينة، كما فى أفلام هوليوود الرومانسية، ستبدأ بمناداته بـ "عزيزى"، ربما حتى "عزيزى جيل".

إلا أن كل هذا تغير.. تلك الإمكانية.

احتست كأس شمبانيا فى حفل العرس، وكأسًا أخرى أو اثنتين فى حجرة الفندق الليلة السابقة، ولا شىء أكثر، ولكنها لم تشعر بهذا الكم من الخدر من قبل قط، ولا بأنها محطمة هكذا، كانت رموشها مُلصقة ببعضها وكأن هذا بفعل الصمغ، وفمها بمذاق الحمض، لم تتحمل الفكرة.. فكرة أنها كانت نائمة هكذا، فى حالة غيبوبة، بفم مفتوح كسمكة.

هل كانت تشخر؟ *هل سمعها "جيلبرت"؟*

حاولت أن تسمعه فى دورة المياه، مواسير دورة المياه القديمة تصل وتقعقع، ولكن ليس قريباً من الحجرة، إلا أن جيلبرت كان فى دورة المياه بلا شك، على الأرجح يجاهد للحفاظ على هدوئه، دخل دورة المياه فى الليل، حاول إخفاء أصواته، فتح صنبور المياه للإخفاء.. أم لعلها كانت "آريا" التى فتحت الصنبورين على الحوض فى يأس؟ "آريا" فى ثوبها الليلى الحريرى العاجى الملطخ تسير مترنحة وتحاول ألا تتقيأ، إلا أنها أخيراً تقيأت فى الحوض وهى بتشنج.

لا.. لا تفكرى فى هذا، لا يمكن لأحد أن يجبرك.

فى مساء اليوم السابق الباكر عندما وصلا، شعرت "آريا" بالدهشة؛ لأنه وفى شهر يونيو كان الهواء بتلك البرودة، بتلك الرطوبة. كان الهواء مُشبعاً بالرطوبة والشمس فى السماء الغربية وكأنها مصباح فى الطريق يصلها نوره من وراء المياه، "آريا" التى كانت ترتدى فستاناً قطنياً قصير الكمين ترتجف وتحتضن نفسها بذراعيها. "جيلبرت" قطب جبينه للنهر، ولم يلتفت إليها.

قاد "جيلبرت" السيارة طوال الطريق من "تروى"، مسافة سبعمائة ميل إلى الشرق، أصر على هذا، أخبر آريا أنه يتوتر حين يجلس كراكب فى سيارته الخاصة، والتى كانت من نوع "باكارد" سوداء لامعة موديل ١٩٤٩. مراراً وتكراراً طوال الرحلة استأذن قبل أن يتمخط بصوت مرتفع، وكان يشيح بوجهه بعيداً عن "آريا"، وكان جلده متورداً وكأنه يعانى من الحمى. غمغمت "آريا" عدة مرات متمنية ألا يكون فى طريقه للإصابة بنزلة برد كما تنبأت السيدة "إرسكين" ـ أم جيلبرت ـ وحماة "آريا" الآن، وهم فى مأدبة الغداء.

يتعرض جيلبرت كثيراً لالتهاب الحلق والأمراض التنفسية والصداع.. كذا أخبرت السيدة "إرسكين آريا". معدته "رقيقة" لا تتحمل الأطعمة الحريفة، أو الإثارة.

عانقت السيدة "إرسكين" آريا، التى استسلمت بجمود لذراعى السيدة الأكبر سناً القويتين. رجت السيدة "إرسكين آريا" أن تناديها بـ "أمى"، كما يفعل "جيلبرت".

غمغمت "آريا" حاضر.. حاضر يا ماما "إرسكين".

فكرت ماما! ماذا؟ ألا أصبح هكذا أنا وجيلبرت، أخًا وأختًا؟

حاولت "آريا"، كانت مصممة على أن تكون العروس المثالية، وزوجة الابن المثالية.

صخب أجراس الكنيسة.. صباح الأحد!

فى فراش غريب.. فى مدينة غريبة.. ضائعة.

صوت نسوى يؤنبها فى أذنها ورائحة نهد الأم "إرسكين" برائحة بودرة الأطفال.

إذا لم تكونى تشربين أى شىء أقوى من عصير التفاح الكحولى الحلو يا "آريا"، فكيف تحسبين أنه من الحكمة احتساء كأس شمبانيا ثانية، بسرعة هكذا بعد الكأس الأولى؟

الأرجح أنها لم تكن أم "جيلبرت" بل أم "آريا" أو لعلهما الاثنتان فى أوقات مختلفة.

عروس ضحوكة مرتجفة. ترتدى الساتان والشرائط الشانتيل، أزرار صغيرة براقة لؤلؤية، غطاء كشميرى وقفاز ناعم يصل إلى المرفقين، الذى وبعد أن خلعته بعد المأدبة، ترك آثاراً ضئيلة على هيئة الألماس فى جلدها الحساس مثل طفح جلدى غريب فى المأدبة، التى أُقيمت فى بيت "آل ليترل" الكبير المظلم الطوبى المجاور للكنيسة، راقبت الأعين العروس وهى ترفع كأس الشمبانيا بعصبية إلى شفتيها مرات عديدة.. أكلت القليل، وكانت يدها ترتجف حتى أنها أسقطت ما فى شوكتها من قطع كعكة العرس، وكانت عيناها الصغيرتان اللوزيتان الخضراوان غائمتين دوماً وكأنها تعانى حساسية ما، استأذنت عدة مرات لتذهب إلى دورة المياه.. جددت أحمر الشفاه الذى كان أحمر كالمصباح النيون.. ووضعت بودرة على أنفها كثيرًا، وكان يمكن تمييز حبات البودرة من على مسافة قريبة منها، ورغم محاولتها التحلى بالرشاقة إلا إنها فى واقع الأمر خرقاء وبعيدة عن اللباقة، وكأنها طائر لقلق.. مرفقان محدبان، وأنف ناحل.. ما كنت لتحسبها أبداً مطربة قديرة، وصوتها مخدوش يكاد لا يسمعه أحد، ورغم هذا قال البعض عن "آريا" "ساحرة" و"عروس جميلة"، لها نهدان مستديران صغيران! كانت تعرف أن الجميع يحدقون فى نهديها الملفوفين فى صداريتها الشانتيل الناعمة نظرات شفقة. كانت على دراية تامة بأن الجميع يشعرون بالشفقة على جيلبرت إرسكين؛ لأنه تزوج عانساً عجوزاً.

كأس شمبانيا أخرى؟

رفضت بلباقة، أو ربما أخذتها. بعض الرشفات القليلة لا أكثر.

كشفت السيدة "ليترل" - أم العروس - بقدر متعادل من الراحة والتوتر، "لآريا" أنه أجل، ربما يبدو الأمر غريباً عليك، ارتداء كورسيه لاحتواء النهدين الضئيلين بمقاس "٣٢ - أ" والخصر بعرض ٢٢ بوصة، والمؤخرة بعرض ٣٢ بوصة، أجل لكن هذا عرس، واليوم الأهم فى حياتك، والكورسيه يعمل كرباط لجوربك الطويل الشفاف لأقصى حد.

ضحكت "آريا" فى جموح، وقبضت على شىء.. قصاصة حرير من الخيّاطة المذهولة، وتمخطت فيها.

إلا أنها أطاعت بالطبع، ما كانت "آريا" لتتحدى السيدة "ليترل" فى تفاصيل بروتوكول نسائى كتلك.

صباح الاحتفال، ألبستها السيدة "ليترل" والخياطة، ثيابها وهى تدعو فى صمت يا ربى العزيز، *لا تدع الجورب يترهل عند الكاحلين، ولا فى أى موضع مرئى آخر.*

ومع بدء الاحتفال دعت: *يا ربى العزيز، لا تجعلنى أعرق، أعرف أننى بدأت أعرق.. أشعر بهذا، لا تدع أنصاف الدوائر تظهر تحت إبطى فى هذا الفستان الجميل.. أرجوك يا ربى!*

تلك الدعوات، دعوات الفتاة المتلهفة، بقدر ما تعرف "آريا".. تمت الاستجابة لها.

كانت تشعر بأنها أقوى بكثير، حملت نفسها على أن تهمس: "جيلبرت" كما تهمس النائمة لزوجها، حين أفاقت من نومها صباحاً. "جيلبرت، أ.. أين أنت؟" لا مُجيب.

نظرت بعينين نصف مغلقتين فلم تجد أحدًا فى الفراش إلى جوارها.

وسادة معوجة.. غطاء وسادة كتانى مجعد.. ملاءة سرير مسحوبة قليلاً للخلف، وكأنها مسحوبة بعناية، لكن.. لا أحد.

حملت "آريا" نفسها على فتح عينيها. متأوهة!

فى الطريق المقابل للحجرة منبه ألمانى خزفى على رف المدفأة بأرقام مُذهبة لامعة لم تعن شيئاً لثوانٍ قليلة شاقة على عينى "آريا" المتفرستين. ثم أسفر وجه المنبه عن أن الساعة السابعة وعشر دقائق، الضباب خارج نوافذ الفندق ينقشع، وبدا أن الوقت صباحاً وليس فجراً.

لم يفت اليوم "آريا" إذًا.

لم تفقد زوجها.. ليس بهذه السرعة!

لأنه وعلى الأرجح إن لم يكن «جيلبرت» فى دورة المياه فإنه فى مكان آخر من الفندق، أعلن "جيلبرت" بهذه الطريقة أنه يستيقظ من نومه باكراً. خمنت "آريا" أنه بالطابق السفلى فى البهو بديكوره الفيكتورى الكابى، ومقاعده الجلدية وأرضيته الرخامية اللامعة.. أو لعله يتناول القهوة فى الشرفة الواسعة الفخمة المطلة على "بروسبكت بارك"، وعلى بعد من ورائه، نهر نياجرا وشلالات نياجرا. مقطباً جبينه وهو يتصفح صحيفة نياجرا جازيت أو "بافالو كورييز إكسبريس". أو.. بقلمه "المونوجرامى" الفضى فى يده -وهو هدية عيد ميلاد من آريا -يضع علامات وهو يتصفح الإعلانات السياحية والخرائط والكتيبات بعناوين من قبيل: **شلالات نياجرا العظيمة.. إحدى عجائب الدنيا السبع.**

ينتظر أن ألحق به، ينتظر أن أضع يدى فى يده.

رأت "آريا" زوجها الشاب بعين الخيال. كان جذاباً بطريقته الصارمة، تلك النظرة الغمّازة، وفتحتى أنفه المتسعتين على نحو غير طبيعى والعميقتين، داخل أنفه الطويل. كانت "آريا" تبتسم له بمرح، وترحب به بقبلة طويلة على الوجنة، وكأنهما يتعاملان مع بعضهما هكذا، بهذه الألفة وهذه الحميمية، منذ فترة طويلة، ولكن "جيلبرت" سيفسد الحالة المزاجية بالوقوف سريعاً وبشكل أخرق فيهز المائدة الخشبية ويسكب القهوة، لأنه تدرب على ألا يبقى جالساً فى حضور امرأة "آريا! صباح الخير يا عزيزتى".

- "أعتذر على التأخير.. أرجو.."

- "أيها النادل فنجان قهوة آخر من فضلك".

فى مقاعد هزازة بيضاء ساحرة، جنباً إلى جنب.. الزوج والزوجة فى شهر العسل، مع مئات غيرهما من الأزواج والزوجات فى شهر العسل فى يونيو، عند الشلالات، النادل الزنجى فى زيه الرسمى يظهر مبتسماً..

أجفلت "آريا"، وهى تنزل من على السرير. كان سريراً فيكتورى الطراز بأربعة قوائم نحاسية ومظلة مشغولة بالكروشيه مثل شبكة للبعوض، والمرتبة مرتفعة بشكل غير معتاد عن الأرض، مثل مخلوق مكسور الظهر فى عدة مواضع، تحركت فى حذر ممسكة بإحدى حمالات منامتها الحريرية كانت قد سقطت، أو أسقطتها يدٌ، من فوق كتفها (وكم كان كتفها متقرحاً، وكم كان شاحباً.. ندبة برقوقية اللون تشكلت فى الليل)، وانفك رباط رمشيها، وإن قليلا، كانت هناك بقايا مخاطية فى عينيها مثل الرمال. وذلك المذاق الحمضى القبيح فى فمها.

- "يا ربى!"

أخذت تهز رأسها لتصفى ذهنها.. وكانت تلك غلطة. زجاج تحطم! شظايا المرآة تتحطم وتنزلق وتلمع فى عقلها.

كما أسقطت مرآة يد لؤلؤية، كما فعلت الأسبوع الماضى، على الأرضية المغطاة بالأبسطة ومنها إلى الأرض الخشبية لحجرة نوم والديها وتشققت وتكسرت فى لحظة.. العروس الخائفة وأم العروس المذهولة تحدقان فى فزع فى نذير الشؤم الذى لم يكن مسموحاً لها باعتبارها مسيحية مشيخية مخلصة بأن تعتقد فيه. قالت "آريا" فى هدوء: "آسفة يا أمى"، وهى تفكر فى حياد تأملى: سيبدأ الآن.. عقابى.

والآن ولج رعد الشلالات المكتوم إلى نومها.

والآن ولج رعد الشلالات المكتوم، المشئوم كتمتمات الرب غير المفهومة، إلى قلبها.

تزوجت رجلاً لم تحبه، ولا يمكنها أن تحبه.. الأسوأ أنها تزوجت رجلاً تعرف أنه غير قادر على حبها.

كان الكاثوليك، الذين يروق دينهم للبروتستانت ويبهرهم، يؤمنون بوجود الخطايا المميتة، هناك خطايا مغفورة ولكن الخطايا المميتة هى الخطايا الخطيرة. كانت "آريا" تعرف أنه لابد أن هذه خطيئة مميتة يُعاقب

عليها باللعنة الأبدية، أن تفعل ما فعلته هى و"جيلبرت". ارتبطا برباط الزوجية المقدس، فى عقد قانونى مُلزم مدى الحياة، وفى الوقت نفسه، وهذا ممكن، كانت هذه ممارسة معتادة فى "تروى" بنيويورك، وفى أماكن أخرى، كان شيئاً "يتم التعود عليه مع مرور الزمن".

(تعبير مدلل من السيدة "ليترل" أم "آريا" اعتادت النطق به مرة واحدة على الأقل يومياً، وبدا أنها تراه رأياً مرحاً).

وقفت "آريا" تترنح على البساط الداكن الوردى الفخم، كانت حافية القدمين، تتصبب عرقاً وفى الوقت نفسه ترتجف، بدأت تحك جلدها فجأة. تحت إبطيها الرطبين وبين ساقيها، حكة ملتهبة مثل هجوم نمل أحمر صغير فى منطقة ما بين الفخذين.

عقابى.. تساءلت "آريا" إن كانت عذراء، حتى الآن.

أو إذا كان وفى اضطراب الليلة، وسط هذيان العرى الجزئى وملاءة السرير، والقبلات بأفواه مفتوحة واللهاث، وتحسس الزوج الشاب المسعور، كانت قد أصبحت.. ربما وبطريقة ما أصبحت.. حاملاً؟

ضمت "آريا" مفاصل أصابعها إلى فمها.

- "لا يا ربى، أرجوك".

لم يكن هذا ممكناً، ولن تفكر فيه.. *هذا ليس ممكناً*.

بالطبع أرادت "آريا" أطفالاً، وهذا ما قالته.. وهذا ما أكدته للأم "إرسكين" ولأمها مرات كثيرة، امرأة شابة عادية تريد أطفالاً، تريد أسرة.. امرأة مسيحية صالحة.

لكن أن أرزق طفلاً!.. تراجعت آريا فى اشمئزاز.

- "لا، أرجوك".

طرقت "آريا" فى خجل على باب دورة المياه، إذا كان "جيلبرت" بالداخل فهى تريد بقوة أن تقاطعه، لم يكن الباب موصداً.. بحذر فتحته..

مرآة مستطيلة خلف الباب تأرجحت ناحيتها مثل كرتونة تهزأ بها.. كانت هناك امرأة غير مهندمة شاحبة الوجه فى منامة ممزقة، أبعدت عينيها سريعاً، وتحركت شظايا الزجاج المحطم داخل جمجمتها، وأخذت تلمع مصحوبة بالألم "يا ربى!"، لكنها لم تجد فى دورة المياه أحداً. حجرة فخمة رحيبة متألقة البياض بأدوات حمام نحاسية، وصابون مُعطر فى أغلفة مبهرجة، ومناشف صغيرة مرتبة بأناقة، وحوض بورسلين أبيض هائل الحجم فارغ بقاعدة على هيئة مخالب (هل استحم "جيلبرت" فى البانيو؟ هل استحم واقفاً؟ لا أثر للبلل فى الحوض) رائحة الحجرة قىء بالحجرة، ومناشف بيضاء وبرية سميكة مُستخدمة. إحداها ملقاة على الأرض. وفوق الحوض الخزفى الأنيق العميق، كانت المرآة على شكل قلب.

التقطت "آريا" المناشف المستخدمة وعلقتها على رف.. تساءلت إذا كانت سترى "جيلبرت إرسكين" ثانية قط.

رأت أنثى شبح تحوم فى المرآة، لكنها لم تواجه نظرتها نظرة الشفقة، تساءلت إذا كانت قد تخيلت كل شىء: الخطوبة ("حياتى تغيرت حياتى أُنقذت.. شكراً لك يا ربى!")، وحفل العرس فى كنيسة والدها، وعهود الزواج المُقدسة، فيلم "آريا" المفضل هو "فانتازيا" من إنتاج "والت ديزنى"، والذى شاهدته عدة مرات وكانت خطوة كبيرة أن تنتقل من "فانتازيا" إلى الزواج.

إذا كنت الابنة العانس للمبجل والسيدة "ثاديوس ليترل" من "تروى" بنيويورك.. يا لك من حالمة!

- "جيلبرت" رفعت صوتها المتهدج.. "هل أنت هنا فى مكان ما؟"

صمت.

بالإضافة إلى دورة المياه، كان جناح شهر العسل (روزبد) كما كان يُسمى - يتكون من حجرة النوم والاستقبال، ودولابين، وفرش الجناح غارق فى الطابع الفيكتورى بالوسادات ذات اللون الخزامى، والمشاجب، والأباجورات، والسجاد، وكانت هناك بعض الوسادات تتخذ شكل القلب.

وفتحت آريا الدولابين، وهى تجفل من ألم الرأس (لماذا تتصرف بهذه الغرابة؟ لماذا يختبئ "جيلبرت" فى دولاب؟ لم ترغب فى التفكير) رأت ثيابه، مرتبة بأناقة على مشاجب الفندق، معلقة فى مكانها الصحيح، لا شىء يزعجها، إذا كان قد هرب، ألم يكن ليأخذ ثيابه معه؟

لم ترغب فى التفكير فىَّ إذا كانت السيارة "الباكارد" غير موجودة، كانت هدية من والدىّ "جيلبرت" إليه، منذ عدة أشهر.

الاستقبال! ذكرى سيئة تحوم ها هنا، على مائدة رخامية الطاولة كانت هناك زهرية فيها زهور حمراء ذابلة بعض الشىء وزجاجة شمبانيا فرنسية فارغة، كلاهما هدية من فندق رينبو جراند، هدية للسيد والسيدة "جيلبرت إرسكين"! الزجاجة راقدة على جنبها، شعرت "آريا" بدفقة من الخزى، مذاق حلو حامض يتصاعد مثل العصارة فى فمها. لم يزد "جيلبرت" عن الارتشاف من كأس الشمبانيا الخاصة به.. بحذر، نادراً ما ابتلع، وهو يطلق عليها اسم الكحول، حتى فى مأدبة العرس اقتصد فيه، ولكن ليس "آريا".

آثار الشرب، هذه هى حالتها، لا شك ولا حيرة فيها.

آثار الشرب! صبيحة زفافها.

يا للعار. حمداً لله إلا أحد من الكبار يعرف.

لأن "جيلبرت" لن يخبر أحداً أبدًا، لن يخبر الأم "إرسكين" التى تحبه .

شىء مقزز. بصراحة أنت تثير اشمئزازى.

أبدًا.. كان بالغ التهذيب، وكان لديه كبرياؤه.

كان رجلاً مهذباً، وصبيًا غير ناضج أيضاً، الرجل المهذب لا يضايق زوجته أبداً، خاصة لو كانت زوجة سريعة الاهتياج والاستثارة على نحو خاص، عروسة منذ أقل من عشرين ساعة، إذاً لابد أن "جيلبرت" فى مكان آخر من الفندق، بالأسفل فى الاستقبال، أو فى المقهى، أو بالخارج فى

الشرفة يطل على الممشى العشبى، أو يتمشى فى الفندق، فى انتظار أن تنضم إليه "آريا". (لا يمكن أن يكون "جيلبرت" قد خرج ليشاهد المناظر الطبيعية بعد، حيث الشلالات، دونها). مازال الوقت مُبكراً، لم تصل الساعة للسابعة والنصف بعد. كان قد أخذ ثيابه وحذاءه وارتدى ثيابه سريعًا فى ردهة الجناح متوخيًا الحذر حتى لا تستيقظ "آريا" التى يعرف أنها مُتعبة للغاية، لم يضئ النور، تسلل حافى القدمين.

يرغب فى الهرب بشدة، دون أن يكتشف هربه أحدٌ.

- "لا! لا أصدق هذا".

غريبٌ أن تكونى وحيدة للغاية هكذا، حتى صوت "آريا" فى هذا الجناح فخم الديكورات بدا وحيدًا. افترضت أن الزواج سيحدث اختلافاً.

تبدئين بأمنية، وتتحقق الأمنية، ولا يمكنك إيقاف تدفق الأمنية. مثل "تلميذ الساحر" الفيلم الكابوسى المُتمم لفانتازيا، لاقى "ميكى ماوس"، بصفته تلميذ الساحر، نهاية سعيدة لقاء خطأه، حين عاد الساحر إلى البيت وأنهى أثر التعويذة.. ولكن موقف "آريا" شديد الاختلاف.

البيت.. أين بيت "آريا"؟ سوف يستقران فى "بالميرا" بنيويورك، فى بيت طويل كئيب من الطوب حصل عليه "جيلبرت" لدى تعيينه قساً. لم تفكر بصفاء فى المسكن، ولن تفكر فيه الآن.

الآن: أين كان الآن؟ شلالات نياجرا؟

من بين كل الأمكنة! نكات سوقية، وكأن "آريا" و"جيلبرت" يتمنيان أن يكونا زوجين جديدين أمريكيين نموذجيين.

فى الواقع كان "جيلبرت"، ويا للعجب، هو الذى أراد الذهاب إلى الشلالات، كان مهتمًا منذ فترة بمسألة "التاريخ الجليدى القديم"، و"جيولوجيا ما قبل التاريخ"، فى منطقة شمال نيويورك. وكان أحد لقاءاتهما فى متحف التاريخ الطبيعى فى "ألبانى"، ولقاء آخر كان عند شلالات "هيركمير" حيث كان لدى "كولونيل" جيش متقاعد.. مجموعة من

الحفريات وأدوات الهنود الحمر القديمة، وكان يعرضها على العامة، ومن خلال نقاش لجيلبرت مع أبيه على العشاء، وكان أكثر حيوية وإثارة بكثير من نقاش "جيلبرت" مع "آريا"؛ استنتجت أن "جيلبرت" يعتقد أنها ربما كانت "مهمته التى أوكلها إليه القدر" أن يربط الدلائل المزعومة من اكتشافات الحفريات فى القرن التاسع عشر بقصة خلق الأرض الإنجيلية.

ضحك المبجل "ليترل"، ذو الفك المربع والجسد "الربع" وفى أواسط عمره ويبدو جاداً كـ "تيدى روزفلت"[١] فى صوره الفوتوغرافية القديمة، ضحك على هذه الفكرة، كان أحد الأشخاص الذين يعتقدون بأن الشيطان ترك الحفريات فى الأرض حتى يكتشفها الحمقى سريعو التصديق.

أجفل "جيلبرت" من هذا القول، وباعتباره رجلاً مهذبًا، لم يعترض.

منهج العلم ومنهج الإيمان، وشعرت "آريا" بالإعجاب بخطيبها بسبب طموحه هذا.

دائماً ما فسرت سفر التكوين على أنه نسخة عبرية من قصص "جريم" الخيالية، فى أكثره كان تحذيرًا: "إذا عصيت الرب والأب فسوف تُطرد من جنة عدن، ويا ابنة حواء عقابك مزدوج: بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك»[٢]. كان هذا واضحاً بما يكفى!

لم تكن "آريا" تنوى أن تخوض مناقشات دينية مع "جيلبرت" أكثر مما خاضته مع أبيها. لندع هؤلاء الرجال يفكرون كما يشاءون، هكذا قالت "آريا" لنفسها، فهذا لصالحنا أيضاً.

قررت "آريا" الاتصال بمكتب الاستقبال.. بشجاعة التقطت السماعة البلاستيكية الوردية واتصلت بـ "صفر" ستسأل إذا كان هناك شاب جالس فى الاستقبال؟ أو.. فى الشرفة؟ أو فى المقهى؟ أرادت أن تتكلم إليه، من فضلك شاب طويل نحيف وزنه أقل من مائة وخمسين رطلاً، وجلده شاحب

(١) الرئيس الأمريكى في الفترة من ١٩٠١ إلي ١٩٠٩.

(٢) الكتاب المقدس، سفر التكوين ١٦ ـ ٣ (المترجم).

يبدو مشدودًا على عظام وجهه، ونظارته مستديرة، وملابسه أنيقة، مهذب، له طريقته الخاصة فى صبره على المتعة، أو تكتشف كيف هو عطوف، وكم هو مستعد للتضحية بتوقعاته، ويفكر فى سره فى أنه غير مسرور، ولكن حين قالت عاملة التليفون بسرور: "صباح الخير يا سيدة "إرسكين"، كيف أساعدك؟" أُصيبت "آريا" بالخرس عليها أن تعتاد اسم السيدة "إرسكين". ولكن الصدمة الأكبر كانت أن تدرك أن غريبة تعرف هويتها، لابد أن لوحة المفاتيح لديها تكشف عن رقم حجرتها، قالت "آريا" فى وهن: "كنت أتساءل عن حالة الطقس.. أريد أن أعرف ماذا أرتدى هذا الصباح".

ضحكت عاملة التليفون بطريقتها الودودة العملية.

- "رغم أنه شهر يونيو يا سيدتى، إلا أنك فى منطقة الشلالات.. ارتدى ملابس تبعث على الدفء حتى ينقشع الضباب".. ثم سكتت للحظة لتوحى بالتأثير الدرامى: "هذا إذا انقشع".

-٣-

الساعة السابعة وخمس وثلاثون دقيقة و"آريا" لم تكتشف بعد رسالة الوداع المكتوبة على ورقة من أوراق فندق "رينبو" الوردية الداكنة، المطوية بأناقة والقائمة على مرآة حجرة النوم الفاخرة، كانت مرآة صغيرة إطارها مطلى بالذهب، ولم تقدر "آريا" أن تجبر نفسها على النظر فيها وهى فى ابتلائها.

ربى، لا.. اعفنى. ماذا رأى "جيلبرت" وأنا نائمة؟

بالطبع، كان من الباعث على الراحة أن "جيلبرت إرسكين" ليس بالقرب.

بعد زحام الأمس المحموم، والوجوه الكثيرة الخانقة التى اقتربت منها، وجنون الابتسامات الكابوسى، وحميمية الفراش المشترك..

حمام. الاستحمام سريعًا قبل عودة "جيلبرت"!

كانت "آريا" لتستحم على أية حال، بالطبع كانت فى العادة تستحم كل ليلة قبل النوم، ولكنها لم تستحم ليلة أمس، إذا فاتتها ليلة تستحم فى الصباح التالى دون استثناء أحياناً وفى حرارة الصيف اللزجة الرطبة فى شمال نيويورك، فى العهد السابق على أجهزة التكييف، كانت "آريا" تستحم مرتين يومياً، ولكنها لم تقتنع يوماً بأن ليس عليها رائحة عرق.

لا شىء يعجبها أكثر من الاستحمام، حمام ساخن تغرق فيه فى البانيو الفاخر، الذى لن تضطر لتنظيفه بعد الاستحمام بمنظف هولندى وتحكه بالفرشاة.. رائحة الحمام وفقاعات الصابون بملح الاستحمام "الليلكى"، هدية من فندق رينبو.. فاضت عيناها بالدموع إحساساً بالامتنان.

ـ امنحنى فرصة أخرى يا ربى، أرجوك.

بالطبع هناك أمل، ما زال قائماً، فلم تعتقد "آريا" جدياً أن "جيلبرت إرسكين" قد هرب.

حيث إلى أين يمكن لقس مشيخى يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، وهو ابن وزوج ابنة قس مشيخى، إلى أين يمكنه أن يهرب؟

- "إنه محاصر.. مثلى تماماً".

فتحت "آريا" صنابير البانيو النحاسية الكبيرة حتى غطى البخار كل مرايا الحمام. هواء زكى الرائحة خانق فى عطره! ومياه ساخنة بقدر ما يمكنها التحمل، لتبعد عنها العرق الجاف والبقع الأخرى على جسدها، روائح جسدها وجسده أيضاً، حيث لامسته بشكل أخرق.. بالصدفة، أو على نحو ما وسط الارتباك حكت جسدها به، أو ضغطته بجسدها.. لا تتذكر على وجه الدقة. وأيا يكن ما حدث، أى سائل أبيض انساب من "شىء" الرجل المطاطى على بطنها وإلى ملاءة السرير.

لا إنها غير قادرة على التذكر. صيحة الرجل الصادمة العالية صيحة وطواط.. رعشاته، نشيجه بين ذراعيها، لم تتذكر ولم يكن عليها اللوم.

ستغسل "آريا" شعرها بالشامبو أيضاً، كان معقوداً متشابكاً لزجاً عند منبت عنقها. شعرها الذى كان متموجاً ضعيفاً بلونه الأحمر الباهت، رفيع ورقيق يتطلب الرعاية المستمرة "يُربط" ببكر الشعر وبكرات الشعر المطاطية الرغوية (جلبت بعض هذه معها فى شهر العسل، مُخبئاً فى حقيبتها من الواضح أنها لن تتمكن من ارتداء أى من هذه الفخاخ فى الفراش) لن يكون لديها وقت هذا الصباح لتلف شعرها، ستصففه للخلف بالطريقة التى تطلق عليها السيدة "ليترل" (الضفيرة الفرنسية الأنيقة)، وتبسط خصلاتها الأمامية الهزيلة على جبينها، وتتمنى أن تصبح شبيهة براقصة الباليه أكثر من شبهها بموظفة المكتبة أو المُعلمة العانس.

ستضع رباطاً وردياً على شعرها تُدخله فى الضفيرة الفرنسية. وتضع زينة خفيفة، وليس قناع المكياج الذى اضطرت إليه بالأمس، ولا أحمر الشفاه البراق، بل أحمر شفاه وردى.. *نوع مختلف من الأنوثة.. إغراء.*

وهكذا حين يرى "جيلبرت" "آريا" ثانية، فى قميص منقوش عليه الزهور، وكنزة صوفية بيضاء على كتفيها، وشعرها فى ضفيرته الفرنسية الأنيقة وأحمر الشفاه المحتشم على شفتيها الرفيعتين المزمومتين؛ سيعجب بها ثانية، سيمتلئ إعجاباً بها ثانية (ألم يمتلئ إعجاباً بها من قبل مرة؟ لبعض الوقت؟ الابنة "التى تميل للموسيقى" للمبجل "ثاديوس ليترل"، بهالتها.. هالة البلدة الصغيرة بلدة العائلات؟) سيبتسم لها فى خفر، ويعدل من وضع نظارته، سيغمز لها وكأن هناك نورًا لامعًا ينبعث من عينيه.

أغفر لك يا "آريا". رغم إثارتك لتقززى ليلة أمس، وإثارتى لتقززك.

لا يمكننى أن أحبك.. لكنى أغفر لك.

تركت "آريا" منامتها الحريرية العاجية ذات الحمالات العريضة المزركشة والصدر المزركش تسقط فى كومة ثعبانية متهدلة على بلاط الأرض، كانت ثمة بقع مخاطية جافة عليها.. وبقع داكنة لن تنظر، كانت ممتنة للبخار المندفع فى موجات الذى حجب عنها الرؤية، صعدت إلى البانيو مخلبى القاعدة فى حذر، ما زال لم يمتلئ بأكمله.. "آه!".. المياه

حارة، لكنه ستتحملها.. البانيو أكبر وأقل غلظة من بانيو "آل ليترل" القديم فى البيت حوض شرب للأفيال وليس نظيفاً متألقاً كما رأته.. حلقات ضيقة من الصدأ حول أدوات الحمام النحاسية، وشذرات من الشعر الزغبى المفتل الصغير تطفو فوق المياه الرغوية.

استقرت «آريا» بحذر فى البانيو كانت رفيعة العظام، وبدت كأنها تطفو.. لا تنظرى.. لا حاجة بك، جسدها الشاحب المصاب بالندوب.. نهدان صغيران جافان مثل كمثرى خضراء. حلمتان صغيرتان مُحكمتان على النهدين مثل أغطية مطاطية.. عليها أن تتساءل إن كان "جيلبرت" قد شعر بخيبة الأمل.. عظمة الترقوة عالية على جلدها الشاحب شبه الشفاف الممتلئ بالنمش، وهى فتاة أقدمت "آريا" على وخز صُرتها بإصبع متسائلة إن كان ما تفعله يعتبر "ذراً" مثل أفعال كثيرة للغاية متصلة بجسد الأنثى.

عند مفرق ساقيها بقايا مجزوزة من ذلك الشعر المسمى شعر العانة.

يا للإحراج! منذ سنوات قليلة وهى تدرب التلاميذ فى بروفة موسيقية مدرسية، تلعثمت "آريا" فى كلمة عامة، وبدا أنها تنطقها عانة وبسرعة صححت نفسها.. "عامة". كانت تخاطب جمهوراً معظمه من آباء وأقارب وجيران تلاميذها، ووجهها متورد خجلاً، وكل حبة نمش من كوكبة النمش على وجهها تلمع كنجم نارى.

لحسن الحظ لم يكن "جيلبرت إرسكين" بين الحضور تتخيله يجفل، وعيناه تضيقان من الأركان.

بدافع من الشفقة لم يذكر أحد زلة لسان "آريا".

(لكن لابد أن الناس قد ضحكوا فى السر، كما تتخيل "آريا" نفسها تضحك حين يزل شخص غيرها ويقع فى خطأ كهذا).

فى "تروى" بنيويورك، بدا أن الكثير متروكٌ لم يذكره أحد، بدافع من اللباقة والعطف.. بدافع من الشفقة.

أخذت "آريا" تتفحص ظافراً مكسوراً. كان يقطع فى لحم إصبعها الناعم.

خدش على كتف "جيلبرت" ربما؟ أو على ظهره، أو..

اليس "جيلبرت إرسكين" صغيرًا عليك بعض الشىء يا "آريا"؟.. لم يسأل أقارب وأصدقاء "آريا" من الفتيات هذا السؤال قط أثناء الشهور الثمانية التى قضياها فى الخطوبة ولا حتى فى براءة لعوب، لم يسأل أحد.

ستتساءل إن كان هناك من سأل "جيلبرت" *اليست "آريا ليترل" كبيرة عليك بعض الشىء؟*

كانا متناسبين! هما فى نفس السن، معظم الوقت فى نفس مستوى الذكاء، ونفس الولع بالقراءة، ونفس التوتر، وربما نفس الحساسية المفرطة تجاه كل ما يمس ذواتيهما، والميل إلى نفاد الصبر، والغضب السريع. يميلان إلى رؤية أنفسهما على أفضل حال وأن الآخرين أقل منهما (وإن كانت آريا تعرف كيف تخبئ هذه الخصال، بصفتها ابنة متحملة للمسئولية).

وافق على هذه الزيجة زوجان من الآباء ومن القلب.

يصعب قياس مَنْ مُنْ الكبار الأربعة كان الأكثر راحة؟ السيدة "ليترل" أم السيدة "إرسكين" أم المبجل "ليترل" أم المبجل "إرسكين".

فى أى من الحالات، أصبحت "آريا" مخطوبة فى اللحظة الأخيرة، فى التاسعة والعشرين تقترب من حافة الهاوية.. الثلاثون، كانت "آريا" تزدرى هذا التفكير التقليدى، ولكن سنوات العشرينات تمر، عبرت سن الخامسة والعشرين المتوسطة، بينما جميع من تعرفهن أو كانت تعرفهن تتم خطبتهن، ويتزوجن، ويرزقن بأطفال، شىء مفزع كابوسى.. يا ربى العزيز أرسل شخصاً ما لى.. دع حياتى تبدأ.. أرجوك! مرت عليها أوقات، وتخجل من الاعتراف، حين كانت آريا ليترل، عازفة البيانو الماهرة والمطربة ومعلمة الموسيقى لتقبل بسرور مبادلة روحها لقاء خاتم الخطوبة، بهذه البساطة. الرجل نفسه شىء ثانوى.

ثم وقعت المعجزة.. الخطوبة.

والآن فى يونيو ١٩٥٠، العرس. مثل المسيح مع الأسماك وأرغفة الخبز، أفضل من إحياء المسيح لـ "أزاروس" من الموت، الحدث الذى بدا لآريا بمثابة معجزة، لن يتعين عليها أن تبقى "آريا ليترل" ابنة القس، "الفتاة" التى اعترف جميع أهل تروى أنهم يحبونها، والآن يمكنها أن تتباهى بأنها زوجة قس مشيخى شابٍّ طموح، يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً لا أكثر، وكنيسته فى "باليرا" بنيويورك.. تعدادها ٢١٠٠ نسمة.

أرادت "آريا" أن تضحك فى وجوه صاحباتها حين رأين خاتم الخطوبة لأول مرة.. "لم تحسبن أبدًا أننى سأُخطب، اعترفن بهذا!" أرادت أن تثير غيظهن، أو تتهمهن لكنها لم تقل شيئاً بالطبع. كانت صاحباتها ينكرن ما تقوله.

حفل العرس نفسه مر كالحلم.. بالطبع لم تتناول "آريا" الشمبانيا قبل مراسم الكنيسة، لكنها سارت فى خطى غير متزنة، ومالت على ذراع والدها القوى وهو يصحب ابنته الطويلة الشاحبة حمراء الشعر على الممشى ووهج من النور يعميها، أنوار نابضة كالنجوم اللامعة. هل تقسمين يا" آريا ليترل" على أن تحبى وتصونى وتطيعى حتى مماتك؟ هل..؟ لا شمبانيا بالطبع، لكنها ابتلعت بعض أقراص الإسبرين مع مياه غازية، وهو علاج منزلى تتناوله كثيرًا. جعل قلبها يختلج وفمها يجف، الأرجح أن هذا لم يعجب "جيلبرت". واقف إلى جوارها عند مذبح الكنيسة أطول منها قامة، ساكناً متأهباً، محاولاً ألا يصدر صوتاً من أنفه المزكوم ويتلو جزئه الخاص من المراسم بصوت متأنٍ مُتجهم. أتتخذك يا "آريا" زوجةً شرعيةً لى.. شابٌّ وشابةٌ يرتعشان على المذبح يتلقيان المباركات مثل شاه على وشك أن تُذبح على يد جزار.. يربطهما الرعب وفى الوقت نفسه تائهان عن أحدهما الآخر.

ما كان ينتظر "آريا".. تلك المحنة "البدنية" فى ليلة عرسها، وفى الليالى التالية.. أخذت تنكمش مبتعدة عنه فى انتظار. لم تكن أبدًا فتاة تراودها أفكار محرمة كثيرًا، ولا أفعال محرمة كذلك. وإن كانت تتمتع بقدر كبير من العاطفة المتأججة وهى تعزف بقوة حركات سوناتات بيانو بيتهوفن العظيمة، أو تغنى أغانى لشوبرت، كانت "آريا" فتاة جامدة خجولة فى معظم التجمعات. كانت وجنتها تتورد بسهولة، وتنكمش بعيدًا عن اللمسة التى تقربها. عيناها الخضراوان الضيقتان تلمعان بذكاء ولكن ليس بالدفء، وإن كانت قد صادقت رجالاً من قبل، فهم رجال مثلها، يشبهونها.. فتية مثل "جيلبرت إرسكين" الذى كان شاباً/عجوزاً وظهرهم يميل للانحناء فى فترة المراهقة. بالطبع كانت آريا تستشير طبيب آل ليترل من الحين للآخر، ولكن الطبيب العجوز لا يمكن التعويل عليه فى استخدام المعدات الخاصة بطب النساء بأية طريقة متطرفة، ودائماً ما كان ينهر آريا حين تتأوه من الألم أو الضيق، أو تركله فى ذعر. وبدافع من الرقة الأنثوية والإحساس بالخجل تجنبت السيدة ليترل مناقشة مسألة فعل الزواج، وبالطبع كان المبجل ليترل يموت ولا يتحدث مع ابنته المتوترة العذراء عن مسائل "حميمة". ترك تلك المهمة الصعبة لزوجته، ولم يفكر أكثر فيها.

أصاب الحمام الساخن آريا بالدوار.. أو لعل تلك الأفكار جعلتها تشعر بالدوار. رأت ثديها الأيسر يطفو فى الماء، لونه قريب من الاصفرار وكأنه فى الظل.. وقد اعتصره وقرصه. افترضت أن هذه ندبات على الجزء السفلى من بطنها وفخذيها. وبين ساقيها المحكوكتين كان الإحساس أقل، وكأن جزءاً من جسدها غفا نائماً.

صيحته تلك صيحة الوطواط! وجهه وجه الصبية اللامع المتورد يتجعد مثل وجه بوريس كارلوف فى فيلم فرانكشتاين.

لم يقل أحبكِ يا آريا.. لم يكذب.

ولم تهمس له أحبك يا جيلبرت كما تدربت على القول، وهى راقدة بين ذراعيه. إذ كانت تعرف أن تلك الكلمات ستضايقه فى ذلك الوقت.

وهى راقدة فى الحمام، والمياه تفقد حرارتها البخارية وتبدأ رغوة الصابون فى الطفو، بدأت آريا تبكى فى صمت. دمعات تضرب عينيها المحتقنتين بالفعل، وتجرى على وجنتيها إلى مياه البانيو. تخيلت كيف وهى تستحم ستسمع الباب الخارجى يُفتح ويُقفل، وصوت "جيلبرت" المرتفع.. "آريا؟ صباح الخير!" لكنها لم تسمع أى باب يفتح ويقفل. لم تسمع صوت جيلبرت المرتفع.

راحت تفكر كيف أنه وقبل أن تقابل جيلبرت إرسكين بكثير، وهى ما زالت فى المدرسة الثانوية، نظرت لنفسها فى الحمام بالبيت و"تفحصت" نفسها بعد الاستحمام فى المرآة الصغيرة. كادت تفقد وعيها! رأت بين فخذيها الرفيعين، وداخل شعر العانة الرطب المجعد المجزوز، نسيجاً ضئيلاً مرفوعاً كاللسان، أو كأحد تلك الأعضاء الزلقة التى يجب إزالتها من الدجاجة قبل تحميرها، وبينما هى تحدق فى ذهول رأت ثقبًا صغيرًا ضيقًا عند قاعدة ذلك النسيج، أصغر من صرتها. كيف يمكن أن يدخل "شىء" الرجل فى هذه المساحة الضيقة؟ *الأسوأ، هو كيف يخرج الطفل من هذه المساحة الضيقة.*

ترك هذا الاكتشاف آريا واهنة يملؤها الفزع والرهبة والتقزز طوال الساعات التالية. ربما لم تتعاف من صدمتها تلك بعد.

ـ ٤ ـ

ها هى. الورقة. ملفتة للنظر واضحة. قائمة على المرآة الفاخرة. لن تعرف آريا أبداً كيف أو لماذا لم تلاحظها من قبل.

مكتوبة على ورق الفندق الوردى، فى كلمات منقوشة سريعاً ما كانت آريا لتتعرف فيها على خط يد جيلبرت، كانت تلك الكلمات:

"آريا" آسف.. لا يمكننى..

حاولت أن أحبك

سأذهب إلى حيث لابد أن يأخذنى كبريائى

أعرف.. ليس بوسعك الغفران

لن يغفر الرب

بكلامى هذا أحلك وأحل نفسى من عهدينا

وعلى البساط تحت الورقة كان هناك قلم فضى مونوجرامى. لابد أنه ألقاه بإهمال وانزلق إلى الأرض.

لفترة طويلة (خمس دقائق؟ عشر؟) وقفت آريا ثابتة فى مكانها، الورقة فى يدها المرتعشة. عقلها أبيض فارغ. أخيراً بدأت تبكى، نشيج أجش قبيح يدمر جسدها.

وكأنها، على كلٍ أحبته؟

الباحث عن الحفريات

اركض، اركض! اركض فراراً بحياتك..

أخيرًا جاء الفجر.. طوال الليل والنهر الراعد يناديه، وفى الليل وهو يدعو الرب أن يستجمع قواه ليفعل ما عليه فعله، والنهر يناديه. *تعال! لك هنا السكينة*، نهر الرعد كما أسماه "التوسكاروراس" منذ قرون، وشلالات الرعد أطلق عليها هنود الأونجيارا "المياه الجائعة" تلتهم من لا ينتبه لها.. والقرابين، هؤلاء الذين يلقون بأنفسهم فى مياهه المغلية يُحملون إلى النسيان، إلى السكينة.. كم من الأرواح المعذبة تبرأ منها الرب فوجدت السكينة فى هذه المياه، وكم منها غُفر لها وعادت للرب، ليس بوسعه التخمين، بالطبع هناك المئات مثله، بل الآلاف ربما.. منذ بداية التاريخ المُسجل لهذا الجزء من أمريكا الشمالية، فى القرن السادس عشر. الكثير منهم كانوا وثنيين، لكن يسوع سينعم عليهم بعطفه، يسوع سينعم عليه بعطفه.. يسوع سيمنحه النسيان، كما عُرض عليه هو ذا الذى كان معلقاً على صليبه أن يُمنح النسيان إذا شاء، لكنه لم يطلب تلك السلوى؛ لأنه كان ابن الرب وولد دون خطايا أو القدرة على الخطيئة أو الميل للخطيئة. لم يمس امرأة قط، ولم يصرخ فى نشوى استسلاماً للمسة المرأة الخشنة.

كان الوقت فجرًا، حان الوقت. عاش طويلاً للغاية.. سبعة وعشرون عاماً وثلاثة أشهر! كانوا يعتبرونه شابًا، ويعدّونه أعجوبة، لكنه كان يعرف أكثر منهم، عاش طويلاً، هل تتخذ هذه المرأة زوجة شرعية لك حتى يفرق بينكما الموت، وهكذا لم يتحمل ساعة أخرى، انسل من الفراش.. انسل من

الملاءة التى كانت عليها رائحة جسديهما، حيث كانت المرأة التى كانت السيدة "إرسكين" الزوجة الشرعية تنام نوماً ثقيلاً، على ظهرها وكأنها سقطت من مكان مرتفع، فاقدة الوعى، عقلها توقف، ويداها مرفوعتان فى تعبير ينُم عن الذهول، وفمها مفتوح مثل فم السمكة ونفسها يعلق بمؤخرة فمها فى أصوات رطبة مزعجة بلهاء أثارت جنونه، وجعلته يريد أن يطبق أصابعه حول حلقها ويضغط.. اركض، اركض! لا تنظر خلفك.. أخذ ثيابه وحذاءه وسار على أطراف أصابع قدميه إلى ردهة الحجرة؛ حيث يكشف النور الشاحب البارد المنبعث من النوافذ عن الحجرة ثقيلة الديكورات وردية اللون، *جناح شهر العسل، فردوسٌ لاثنين.. الرفاهية والخصوصية. عطلة رومانسية لن تنساها أبدًا!* أخذ يربط الأزرار، ويغمغم لنفسه وهو يرتدى ثيابه فى عجلة، ودفع قدميه الحافيتين بالقوة فى الحذاء نصف المربوط، وهرب.

اركض، اركض! اركض فراراً بحياتك.

لم يطق انتظار المصعد وهبط على سلم الحريق. نزل خمسة أدوار، ونظر فى ساعته البولوفا (وهى هدية من والديه الفخورين به منحاها إياه حين تخرج أول دفعته فى معهد ألبانى الدينى)، والتى لم ينس ربطها بمعصمه، إذ كان «جى» يراعى طقوساً يومية فى حياته حتى وفى الساعة الأخيرة منها، رأى أن الساعة تجاوزت السادسة صباحاً بقليل، استقبال الفندق شبه خالٍ.. بعض العاملين فى الفندق فى زيهم الرسمى لم يلتفتوا إليه، فى الخارج كان الهواء بارداً وشديد الرطوبة. يونيو.. شهر العرائس، يونيو.. موسم حُب اليافعين، يونيو.. المهزلة، لكن إن لم تكن ساعة "جى" تشير إلى أنها ساعة الفجر، كانت سماء نياجرا توحى بأن الوقت زمنٌ غير محدد، مسربلة بالضباب، متوهجة مثل قاع قدر مغسول ورائحتها رائحة الكبريت والمعدن.. نياجرا! عاصمة شهر العسل فى العالم، لعله كان يعرف منذ البداية، لم يخدع نفسه قط.. تم تعريفه بالمرأة حمراء الشعر، متلهفاً على تعزيز مكانته عند والدها المبجل ثاديوس ليترل "قس تروى" بنيويورك،

تم تقديمه للمرأة حمراء الشعر التى كانت شفتاها الرفيعتان ترتعشان فى تردد وتكشفان عن ابتسامة أمل، وعيناها الخضراوان الصغيرتان تحدقان فيه فى بريق وصلابة كالزجاج، وقال لنفسه فى حماقته وزهوه ويأسه: أخت فاضلة! إنها مثلى.

راح يسير فى خطوات سريعة.. حافى القدمين فى حذاء رسمى جلدى، وكعباه ساخنان. كان خطأ ألا يرتدى جورباً لكن ليس لديه وقت، كان بحاجة لبلوغ النهر، كان بحاجة لأن يكون هناك، وكأنه، وبوجوده هناك فقط، يمكنه التنفس.. المماشى الواسعة لشارع "بروسبكت" تتخللها برك المياه الصغيرة إثر سقوط الأمطار، الطريق المرصوف بالبلاط الصغير يلمع بالبلل. خطى إلى الشارع ومن حيث لا يعرف ظهر فجأة ترولى مسرعًا نحوه وانطلق بوقٌ صارخ، فخبأ وجهه حتى لا يتعرف عليه أحد بعد ذلك فى الصحف المحلية، إذ كان يعرف أن تصرفه فى خزيه ويأسه سيبقى بعدما يرحل هو، وستُطمس شجاعته، لكنه لم يهتم لأن الوقت حان، الرب لن يغفر له أبداً لكن الرب سيمنحه حريته، كان هذا وعد الشلالات.. فى الليل سمع زئيرًا يهدر وفى الهواء الطلق سمعه بمزيد من الصفاء، وأحس بالأرض تحت قدميه تهتز فى حضور قوته.. تعال! لك هنا فقط السكينة.

أى فخر، أى ظفر متقد.. قبلها بعشرة أشهر.

على الهاتف أعلن فى صوت ظافر: لقد خطبت يا "دوجلاس". وتكلم إليه صديقه فى دفء وأريحية: مبارك يا جيل! وقال فى نبرة يشوبها التباهى: هل ستحضر عرسى؟ سوف يُعقد فى يونيو القادم.. قال دى(*): بالطبع يا جيل هذه أخبار سارة، إننى سعيد لك للغاية، قال جى: أنا أيضاً سعيد. أنا.. سعيد، قال دى: جيل؟ وقال جى: أجل ما الأمر يا دوجلاس؟ وسأله دى: من هى؟ وللحظة لم يتمكن "جى" من التفكير، وقال متلعثماً: من؟ وقال دى ضاحكاً: خطيبتك يا "جيل".. متى سأقابلها؟

(*) "دى" هو اسم التدليل لـ "دوجلاس" مثلما جيلبرت وجيل وجى هى أسماء لـ "جيلبرت إرسكين" القس الشاب (المترجم).

انبهر دى (ألم ينبهر؟) حين عرف من تكون خطيبة صديقه، ابنة لـ.. معلمة موسيقى وعازفة بيانو ومطربة.

وفى المعهد الدينى كانا شخصيتين مختلفتين للغاية. لكنهما كانا يتكلمان فى حرارة حتى وقت متأخر من الليل، عن الحياة والموت والحياة الفانية والأبدية، ولم يتكلما عن الانتحار قط، لم يشعرا باليأس. فالشاب المسيحى الذى يدرس استعداداً لمنصب القس.. لِم يشعر باليأس؟ كانا حاملين للأنباء السارة. وكانا يتكلمان بحرارة المراهقة المتأخرة عن الحب .. "الحب الناضج".. "الحب بين الرجل والمرأة".. "ما يجب أن يكون عليه الزواج المسيحى فى منتصف القرن العشرين" وبالطبع تكلما عن إنجاب الأطفال.

كان يلعبان الشطرنج، وكانت لعبة دى.. كان يخرجان للتريض، وأحياناً يبحثان عن الحفريات فى الوهاد الغنية بالأحجار وقيعان الأنهار الجافة، وكانت لعبة "جى" منذ الصبا.

لم يتمكن "دى" من حضور عرس جى. وتساءل "جى" إن كان سيحضر جنازته، إذا كان يمكن أن تكون هناك جنازة بلا جسد؟ إذ ربما لا يعثرون على جسده أبداً.. ابتسم لهذه الفكرة. أحياناً بعد أن يرمى المرء نفسه من فوق الشلالات يضيع جسده إلى الأبد. حتى القوارب الصغيرة التى تسقط فيه تتحلل أجزاؤها بحيث لا يمكن التعرف عليها أو استعادتها أبداً.

سكينة النسيان.

لم يترك "جى" ورقة لـ "دى" ترك ورقة بخط يده لـ "أيه"؛ زوجته، بدافع من الإحساس بالمسئولية لم يوح ـ كما يتمنى، فهو ليس قاسياً ـ بأى من المتاعب التى تركها للمرأة، لكن "دى" سيسامحه. هكذا اعتقد.

"دى" فى بساطته وطيبة قلبه مسيحى طبيعى بفطرته.. سيحزن على "جى"، لكنه سيسامحه.

أصبحت لـ "دى" حياته الخاصة المنفصلة الآن، منذ سنوات وهو يساعد قس كنيسة كبيرة غنية فى سبرينجفيلد بولاية ماساشوستس، كان زوجاً فخوراً وأباً لتوأم من البنات فى الثانية من العمر.. أن يجعل من "دى" شريكاً من الدرجة الثانية أو الثالثة خطيئة.. أن يجعل من "دى: شريكاً فى سرٍ مخزٍ كذلك.. لولا أنه سرٌ بالغ الجمال، لا يمكننى أن أحب أية امرأة، ساعدنى يا ربى لقد حاولت، ليس بوسعى إلا أن أحبك.. انضم "دى" إلى "جى" فى مسيراته الطويلة بحثاً عن الحفريات، بدأ كصبى يجمع رءوس أسهم الهنود وأدواتهم، ولكن "الحفريات" أثارت عجبه أكثر، هذه البقايا الرقيقة المورقة لزمن ضائع يصعب تخيله كان قبل تاريخ البشر، مثل أعمال فنية غامضة كانت آثاراً عظمية لكائنات كانت لها حياتها يوماً فى حقبة تبلغ من العمر ملايين السنين.. خمس وستون مليون سنة لا يمكن إدراكها أو الإحاطة بها!.. قبل المسيح، عالمٌ زمنه بطىء فيه الألف سنة بلحظة، والستون ألف سنة زمن وجيز لا يكفى أن يُقاس بطرق القياس الجيولوجية لتأريخ الحفريات. وهو صبى فى الثالثة عشرة صنع شبكة مربوطة بإطار خشبى يمسح بها قيعان الأنهار الضحلة ويتفحص بها الطمى الأسود الناعم بحثاً عن بقايا من أحجار الحفريات وعظامها، وأسنان أسماك القرش القديمة وأسماك الورنك، والحبار القديم المتحجر داخل أحجار الكهرمان، وفى قلب البر حتى تروى بنيويورك! لم يصدق جى - مثلما كان يعتقد والده –أن الشيطان زرع تلك الحفريات فى الأرض لتضليل الجنس البشرى.. لإلقاء الشك على قصة الخلق حسب سفر التكوين.. فى أن الرب خلق الأرض والنجوم وكل كائنات الأرض فى سبعة أيام وليالٍ، ليس أبعد من ستة آلاف عام مضت (ستة آلاف! كان "جى" يبتسم حين يفكر فى الرقم) لكنه قاوم فكرة "التطور" عمى، حادث. لا! ليس ممكناً.

ولكن: هل حقاً تسع وتسعون فى المائة من كل أصناف الكائنات من نباتات وحيوانات التى دبت على وجه الأرض قد انقرضت، وأن أجناس الكائنات ماضية دوماً إلى الانقراض؟ يومياً؟ لماذا خلق الرب كل هذه

الكائنات ليدعها تتشاجر محمومة مع بعضها البعض سعياً للبقاء، ثم تمضى إلى النسيان؟ هل سيختفى الجنس البشرى أيضاً ذات يوم؟ أهذه خطة الرب؟ بالطبع هناك خطة، لابد أن تحاول المسيحية أن تفهم، وأن تشرح. والد "جى" يرفض نقاش هذه المسائل مع "جى". منذ زمن طويل وهو يرى أن العلم ليس إلا ديانة خاطئة ضحلة وأن الإيمان والتسليم العميق هو ما يهم فى نهاية المطاف، "سترى يا بنى، مع مرور الزمن" بعض معلمى "جى" الشباب فى المعهد كانوا أكثر انفتاحاً وتقبلاً لنقاش تلك المسائل، لكن هؤلاء الرجال كانوا بدورهم محدودين فى إجاباتهم، وموحدين فى خلفياتهم. بالنسبة إليهم كانت الاختلافات قليلة بين ست وعشرين ألف سنة وخمس وستين مليون سنة وخمسمائة مليون سنة. الإيمان.. الإيمان! اشتكى "جى" لـ "دى" قائلاً: "ما فائدة الإيمان إذا كان قائماً على أساس من الجهل؟ أريد أن أعرف"، إلا أن "دى" قالت: "انظر يا جيل.. الإيمان يومى مؤقت، مسألة عملية.. لا أشكك فى وجود الرب ويسوع بنفس عدم تشكيكى فى وجود أسرتى، أو فى وجودك، ما يهم هو كيف نراهم وكيف نربط بينهم.. وهذا كل ما يهم".

أثرت هذه الإجابة فى "جى". بساطتها، وسلامة ذلك التوجه الواضحة.. لكنه شك فى أن تشبعه دائماً ما يريد المزيد..

- "ربما هذا مصيرك الخاص يا "جيل". أن تتبين طبيعة تلك الأشياء.. أن تربط بين العلم والإيمان.. هل فكرت فى هذا يوماً؟"

بدا "دى" بالغ الجدية وهو يقول هذا، بدا أنه يفكر أن "جى" خريج المعهد الدينى البروتستانتى شمال نيويورك، بلا خلفية علمية، قادر على تولى هذه المهمة.

لا أحد غير "دى" كان يحلم بطموحات كهذه لـ"جى".

لا أحد غير "دى" أطلق عليه يوماً اسم "جيل".

انتهى هذا الآن، سيهجر جى مجموعة حفرياته وراءه، فى بيت والديه، فى حجرة صباه، فى الأدراج والصناديق الورقية.. فى المدرسة الثانوية بدأ

يحضر حفرياته ليريها لمعلميّ العلوم، اللذين حاولا تخمين تاريخها. هل كان معلموه يعرفون أكثر مما يعرف جى؟ كذا سأل نفسه. أراد أن يعتقد هذا، أكدوا له أن هذه الحفريات تبلغ من العمر ملايين السنين على الأقل، مئات الملايين من السنين؟ كانت من العصر الكمبرى، ومن العصر الكريتياكوسى. حفريات من منطقة شمال نيويورك قد تعود إلى العصر الجليدى.. عصر الديناصورات.. عصر إنسان نياندرتال. ألهبت حماسته فكرة أن هذه الأشياء الغامضة انتهى أمرها فى حوزته. ليس ثمة أخطاء أو حوادث فى خطة الرب، وكان يعرف أن الرب أراد له أن يكون قساً؛ لأن الرب سمح له بالعثور على هذه الحفريات أيضاً، فلابد من سبب يربط بين الأمرين، ذات يوم سيعرف ذلك السبب، كان ينوى دراسة علم الحفريات النباتية وعلم الحفريات الحيوانية فى جامعة مرموقة مثل كورنويل.. ولكنه لم يفعل قط.. تساءل إذا كان يخشى ما قد يتعلمه.

أن ليس لك قدرك الخاص.. ليس أنت، وليست البشرية.

فى تلك الساعة المبكرة من صباح الأحد كانت المدينة شبه مهجورة، لكن وكأن أجراس الكنائس تدق بلا توقف، صخب وضجيج.. أراد أن يضرب بيديه على أذنيه، لم يلحظ أبداً كيف كان إيمانه تطفلياً، ها نحن ذا! المسيحيون! نحيط بكم! نجلب إليكم أخبار الأناجيل! أخبار جيدة! تعالوا وانعموا بالخلاص! كم أحس بزئير الشلالات متكرر الوتيرة وحيدها أكثر إغراءً.

حمل نفسه وهو يلهث على السير بخطى طبيعية، إذ ماذا يحدث لو رآه ضابط شرطة وخمن نيته.. وجهه، وجهه الخرب، وجهه الصبيانى الذى كبر سنوات فى ليلة وحيدة.. عيناه الغائضتان فى وجهه. كان يخشى أن تظهر نيته واضحة على وجهه، ذلك الخلاص من التعاسة الذى يسعى إليه.

إلا أنه كان من الصعب عليه أن يتصنع الهدوء.. أحس كأنه وحش برى مُلجم، إذا اعترض أحد طريقه أو حاول أن يوقفه، إذا حاولت المرأة أن توقفه، كان ليطيح بها جانباً فى ثورة من الغضب.

لم يكن ما يشعر به يأس، ليس كذلك بالمرة.. اليأس يؤدى إلى الضعف والسلبية والاستسلام. إلا أن "جيلبرت إرسكين" لم يكن ليسلم أى شىء، رجل غيره كان ليعود إلى جناح الفندق، إلى الزوجة الشرعية.. إلى الفراش، خصلة العانة صدئة الاحمرار.. فم السمكة المتأوه والعينان اللتان تدوران إلى مؤخرة الرأس والأطفال الذين سيأتون لا محالة، ورائحة الحفاضات النتنة، هذا هو مصير "جيلبرت إرسكين" الحق، البيت الطويل الكئيب فى "بالميرا" بنيويورك، الطوب بلون الطين وألواح السقف المتعفنة ومجموع ما يقل عن مائتى شخص، معظمهم فى منتصف العمر ومن الأكبر سناً، الذين يجب أن "يثبت" لهم القس الشاب نفسه، يكسب ثقتهم، احترامهم، ثم بالتالى حبهم. أليس كذلك؟ لكن لا.

ليس "جى". كان يتصرف بدافع من الشجاعة، من الاقتناع.. لن يغفر له الرب، لكن الرب سيعرفنى على ما أنا عليه.

زئير الشلالات مثل زئير الدم فى الأذنين، يخترق مخه المحموم، كما كان راقداً شاعراً بالأرق فى ذلك الفراش يتذكر زهو لقائهما الأول، رأى فى المرأة "أختاً".. يا لها من مزحة قاسية فظة، كيف تقابلا؟! يعرف الآن خطط الكبار للقاء، تبين هذا الآن، كان الأبوان فى أشد الحرص على زواج العانس المتزمتة غير الجميلة، وأبواه فى أشد الحرص على زواج الأعزب المتزمت غير الوسيم (الأرجح أنهما كانا قلقين على رجولته.. المبجل "إرسكين" على الأقل) وهكذا لم يكن كل من "آريا وجيلبرت" إلا قطعتين على رقعة شطرنج تخيلا نفسيهما لاعبين!

ليلة أمس مرت حياته أمامه وكأنه يغرق فى النهر بالفعل، محطمة مثل دمية بلاستيكية رخيصة تسقط فى الشلالات، إلى جواره المرأة ذات الشخير فى غيبوبتها.. المرأة الثملة.. فى ليلة عرسه والمرأة ثملة.. اركض، اركض! عليه أن يلقى بنفسه فى الشلالات الأكثر توحشاً، شلالات. هورسشو، لا شىء أقل منها يكفى، فى إحساسه المتضخم بنفسه كان يخشى النجاة، كان يخشى أن يتم انتشاله من المياه الرغوية أسفل الشلال،

بعد أن يتحطم ويتشوه، هل ستكون فرق الإنقاذ فى دوامها فى هذه الساعة المبكرة من الصباح؟ تمنى الانطفاء التام، المحو.. أن يُمحى للأبد من ناظريه الوجه الطماع الملطخ لتلك المرأة حمراء الشعر.. عفيفة عذرية باردة الملمس كالثلج فى شهور الخطوبة الطويلة، وتلك الابتسامة رفيعة الشفتين والسلوك الأخرق.. لقد خدعته مثل من يخدعه الشيطان تعرض للخداع.. هو، "جيلبرت إرسكين"! الأكثر تشككاً بين طلبة المعهد الدينى. أكثرهم "حرية فى التفكير" كان يفخر بإفلاته من حبائل النسوة الماكرات الساذجات لسنوات، كن يائسات فى بحثهن عن الزواج، جميعهن يائسات فى بحثهن عن "الخطوبة"، طماعات بلا خجل يسعين إلى خاتم ليرتدينه، ليقدمنه فى فخر للعالم، أترون؟ هناك من يحبنى، لقد أُنقذت، لكن "آريا ليترل" بدت له مختلفة للغاية، من جنس آخر، شابة قد يحترمها كزوجة، امرأة من نفس مستواه الاجتماعى وتكاد تصل لمستواه الفكرى.

كان يشعر بالمرارة لأن "دى" لم يسأله: هل تحب هذه المرأة يا "جيل"؟

كان قد خطط أن يقول لـ "دى": بقدر ما تحب زوجتك.

لم تسنح الفرصة، وفى الواقع لم يسأل أحد "جى" هل تحب هذه المرأة؟

ربما قال لها "جى" فى صوت خفيض أن أجل هو يحبها، ربما، وقد اعتلاه الخجل. الإحراج، وتكلمت المرأة بدورها بأسلوبها الصلب وإحساسها بكل حركة وكلمة منها، وهى تطرف بعينيها فى سرعة.. عيناها الخضراوان الزجاجيتان تفلتان من عينيه، ربما قالت له رداً على قوله فى همس، وأنا.. أنا أحبك.

وهكذا قُضى الأمر.. وضع الخاتم فى إصبعها الرفيع.

اركض، اركض!

بلل الرذاذ وجهه مثل البصاق.. زئير الشلالات يزداد صخباً فى ثبات، نظارته يكسوها البخار لا يكاد يرى منها الرصيف، أمامه ذلك الجسر.

جسر جزيرة جوت المعلق.. احبنى، لماذا بربك لا يمكنك أن تحبنى. هيا، هيا! جزيرة جوت هى التى يريدها. وضع عليها علامة على الخريطة بالقلم الفضى الصغير التى أعطته إياه، وكتب عليه حروف اسمه الأولى "جى. إس."، كبرياؤه فى جمال عمله! هناك من يحبنى، لقد أُنقذت.

قبلاتهما الخجول المتلمسة بأفواه جافة.. جسدها الصلب، هيكلها العظمى الضئيل الصلب فرد جسدها مستقيماً حين لمسها، ولفها بذراعيه، كما يفعلون فى الأفلام. "فريد أستير"، و"جينجر روجرز"، هيا نرقص! الرقص سهل للغاية.

كان يعرف أنها لم تحبه. بالطبع كان يعرف. لكنه كان يعتقد (يكاد يعتقد!) أنه يحبها سوف يحبها، زوجته الشرعية، مع مرور الوقت. كما أحب أبوه أمه، كما يفترض. كما أحب كل الرجال زوجاتهم. ألم يفرض الرب على الجنس البشرى أن يتكاثر ويتناسل؟

اركض! خزى ما جرى سيشله إن لم يركض.

شمبانيا فى حفل العرس، وفى حجرة الفندق، لم يكن يعرف.. لم يخمن.. هذه المرأة رقيقة العظام تشرب فى ظمأ كأنها عامل باليومية، تتجاهل إيحاءاته بأنها ربما قد شربت ما يكفى. تضحك وتمسح فمها المبتل على ظهر يدها، تركل حذاءها من قدميها، وحين حاولت أن تقف ترنحت برأسها الثمل.. هرع إليها ليثبتها، كادت تسقط، ودفعت نفسها إلى ذراعيه، كم يختلف هذا عن طباع ابنة القس التى كان يعرفها. "آريا ليترل" فى قمصانها البيضاء الفضفاضة، وياقاتها الشبيهة بياقة "بيتر بان"، وفساتينها المكوية جيداً والتنورات الصوفية، حذاء بكعب عالٍ لامع وقفاز أبيض.. فكرة أن "آريا" كانت أكبر سناً من "جى" بثلاثة أعوام تسره سراً، كأنها ورقة رابحة، فهو يعرف أن عليها أن تشعر بالامتنان لأنه اختارها، ولم يرغب فى امرأة غير ناضجة ليتخذها زوجة، وكان يفهم أنه سيكون الزوج غير الناضج، ستعتنى "آريا بجيلبرت" كما فعلت أمه المحبة طوال سبعة وعشرين عاماً، إذا تعرض للأذى أو عبس أو تقلب مزاجه أو أحس

بالحسرة، ستفهم "آريا" وتغفر له. وإذا انفجر غضبه بطريقة طفولية ستغفر، كل هذا يتوقعه وينتظره، قس طموح شاب يحتاج إلى زوجة ماهرة ناضجة مسئولة. جذابة لكن ليست بالغة الجاذبية. وكانت "آريا" موهوبة، على طريقة البلدات الصغيرة، بموهبة خاصة، فقد بهرته قدرتها على العزف على البيانو، وجودة صوتها الحاد، وفى حفل إنشاد فى الكريسماس راحت "آريا ليترل" تغنى "ليلة صامتة، ليلة مقدسة" بجمال تراها معه جميلة، الجلد الشاحب يتألق! العينان الباردتان الضئيلتان تتوهجان بالاخضرار كالياقوت! الفم المزموم الصغير مفتوح بجمال يشكل كلمات جميلة، ليلة صامتة ليلة مقدسة.. "جى" الجالس مع المبجل "ليترل" والسيدة "ليترل" استولت عليه الدهشة، توقع الاستمتاع بالإنشاد ولكن ما إن اعتلت "آريا" خشبة المسرح وأومأت لعازف البيانو المصاحب لها وبدأت تغنى، حتى أحس بدفقة قوية من.. شىء ما، كبرياء؟ اشتياق؟ انجذاب جنسى؟ هذه الشابة الجميلة فى اتزانها البارد تغنى لجمهور من المعجبين، فى تنورة طويلة مخملية بلون النبيذ، وعلى كتفها وشاح، قميصها طويل الكمين أبيض حريرى.. عيناها مرفوعتان إلى السماء.. أصابعها النحيلة تضغط على صدرها كأنها تصلى.. الشعر الذى يكون فى الليالى العادية باهتاً حائل اللون منهكاً أصبح براقاً فى ضوء المسرح، بقعٌ رقيقة من الاحمرار تبث الحياة فى وجهها، كل شىء هادئ، كل شىء براق.. "جى" وقد كور قبضتيه يقول نعم، نعم، سيحب هذه المرأة غير العادية. سيجعلها ملكه.

اركض فراراً بحياتك.

مر حفل العرس فى غيمة من الضباب، وكأنه قطعة أرض تراها من نافذة عربة مسرعة. وإن لم يحضر "دى"، ولم يتمكن من الحضور، فقد أصّر "جى" على رؤيته بركن عينيه، دى يبتسم ويؤمئ مشجعًا، أجل! جيد! فعلتها يا "جيل"، وكذلك يمكنك أن تفعلها أنت! فى حفل العرس بدأت تشرب وفى الطريق من "تروى" إلى شلالات "نياجرا" سقطت نائمة،

ورأسها يميل على كتفها بطريقة أزعجته، كانت مألوفة له قريبة منه وفى الوقت نفسه فاقدة للوعى، لا عقل لها، وفى حجرة الفندق أجهزت على معظم زجاجة الشمبانيا التى كانت فى انتظارهما، راحت تثرثر فى عصبية وتوتر بكلمات غير مترابطة. ضحكت ومسحت فمها. أحمر شفاه على أسنانها، وملابسها غير مرتبة، نهضت فأحست بالدوار وفقدت توازنها، وهرع إليها ليثبتها، "آريا يا عزيزتى!" وهى تحضر نفسها للفراش ضحكت وتجشأت وتعثرت فيه، حين مال عليها ليقبل شفتيها الرطبتين المفترقتين عن بعضهما تذوق الكحول والذعر، أخذ قلبه يخفق ويضرب فى قوة، كان الفراش كبيراً على نحو مبالغ فيه، والمرتبة عالية عن الأرض، وأصرّت "آريا" على أن يرفعها، وسائد مخملية على شكل قلب فى كل مكان، أغطية فراش مثل الشباك التى تصطاد السمك غير المنتبه. كان هذا مقاماً لـ.. لماذا؟ رقدت "آريا" فى الفراش مثل كلب بحر أخرق فى قميص نومها العاجى الحريرى، تتجشأ وتضع قبضتها فى فمها محاولةً ألا تنفجر ضاحكة، أم هل كان ذلك بكاءً هستيريًا.

لم يعرف ما يتوقعه، ولم يرغب فى التفكير فى المستقبل، لكن بحقك يا ربى العزيز، لم يتوقع هذا، سحبته ليرقد إليها وهى فى استثارتها ورعشاتها وكأنها فى حلم محموم بالانحلال الفاحش، وتحت جسده المتردد أخذت تتلوى وتتأوه، وفجأة قبضت بيديها على عنقه.. بقوة!.. بقوة كأنها أيدى أخطبوط.. وقبّلته بملء فمها على شفتيه، هل كانت تلك "آريا ليترل" ابنة القس العانس؟ مغرية على نحو أخرق، تهدل إحدى جفنيها على عينها، لم يحتمل هذا، يداها الساخنتان تمتدان إليه فى عمى، كانت تأن باسمه، بدا فى فمها قذراً.. تتلمس صدره وبطنه ومفرق فخذيه.. قضيبه! أن تلمسه أية امرأة فى هذا الموضع، هكذا.. فى أنين أجش ترجوه احبنى، لماذا لا يمكنك أن تحبنى بحق الله. هيا! هيا! لثتها المكشوفة التى كشرت عنها أسنانها الرطبة، خصلة شعر مجزوز أشعث بلون الصدأ بين فخذيها المسكين به، كانت قبيحة بالنسبة إليه، مثيرة للغثيان، اللعنة عليك ما

مشكلتك، هيا افعلها! تضرب مفرق فخذيها فيه، حوضها العظمى.. أراد أن يضربها بمجمع قبضتيه، ويوسعها ضرباً حتى تفقد وعيها ولا تدرك عنه شيئاً بعد هذا أبداً، أخذ يئن هو الآخر ويرجوها كفى! لا! إنك تثيرين اشمئزازى. وفى الواقع لعله صفعها، ليس براحة يده، بل وهو يدفعها عنه فى رد فعل تلقائى مدافعاً عن نفسه، ليسقطها على ظهرها بين الوسائد الكبيرة، لكنها لم تزد عن الضحك، ما لم تكن تبكى.. أخذ الفراش النحاسى يهتز ويصدر أصوات صرير ويميل ويترنح مثل قارب مخمور، مرفقه مدفوع فى نهدها، ثمة شىء عدوانى وقذر فى هذين النهدين الصغيرين الصلبين، فى الحلمتين المشتعلتين، صاح وتناثر الرذاذ من فمه وهو يأمرها بأن تتركه لشأنه ولكنها وفى عماها أخذت تتحسسه، وتمسك به، وأصابعها القوية قابضة على قضيبه كما فى أشد خيالات الجنس لدى المراهقين جموحاً، أثار فزعه أن صيحة مرتعدة حادة أفلتت من بين شفتيه وبذرته اللبنية تقفز منه حلوة.. لاذعة كأنها سرب من نحل العسل، انهار عليها حينها لاهثاً، وعقله مطفأ، كالشعلة التى انطفأت، وقلبه يخفق بقوة تبلغ درجة الخطورة، وجسداهما المغموران بالعرق اللزج متعانقان.

بعدها سيسمعها تسد فمها وتتقيأ فى الحمام.

اعترته حمى النوم مثل مياه رغوية نجسة. وفى هذيان الحلم ربما تخيل أنه يرى نفسه يقتل امرأة لا يذكر اسمها. زوجة شرعية. حتى يفرق بينكما الموت. كسر رقبتها. كتم أنفاسها فى ملاءة السرير ذات الرائحة المتغيرة. كانت مربوطة ومجروحة بين فخذيها. أخذ يحاول أن يشرح لأبيه، ولصديقه دى، الذى خانه. لم يتحمل. لا يمكن لهذا أن يتكرر.

اركض، اركض!

كان يشعر بالألم فى قدميه الحافيتين داخل حذائه الجلدى، وهو يعبر الجسر الخشبى فوق مياه النهر المتدفقة تحته سريعة، ارتدى ثيابه فى عجلة، وبإهمال، وكان سحاب سرواله محشوراً. وصوت يرتقى فى وعيه.. "يا أستاذ؟ التذكرة بخمسين سنتاً" كان هناك من ينادى عليه.. خمسون

سنتاً! لم يلق "جى" نظرة خلفه حتى.. له سمعته، ويفخر بنفسه على سمعته فى المعهد الدينى حيث كان معروفًا بالعزلة، بل وحتى بالغرور، كان "دى" صديقه الوحيد، "دى" كان مسيحيًا مخلصًا صالحًا، "دى" كان ليفهم يأسه ويغفر له حتى إن لم يغفر له الرب، ليس معه سنت واحد للتذكرة. وإلى حيث يمضى فليس به حاجة إلى سنت واحد، والأرجح أن هذا هو الشيطان يداعبه متنكراً فى هيئة حارس البوابة رمادى الشعر، وربما كان الشيطان هو الذى كان يداعب الجنس البشرى بوضعه "الحفريات" فى الأرض، يغريه لكى يلتفت إلى الخلف، يغريه فى خسة، لكن "جى" فى اندفاعه لن يستسلم، فقد أقسم "جى" على إتمام ما سيفعله كاملاً، أقسم للرب. أقسم ليسوع المسيح (الذى تخلى عن خلاصه منه) فى ساعة الليل الأخيرة قبل الفجر، وساعته "البولوفا" تشير إلى أن الساعة تقترب من الخامسة، مال على بلاط أرضية الحمام الرخامى الصلب بشكل مؤلم، يحمل نفسه على تحمل رائحة المرأة، قىء وعرق.. رائحة لحم أنثوى غير طاهر، عرى روحه على خالقه، حتى يقتلعها من جذورها، إذ لا حاجة به إلى روح الآن. ما سيفعله هو عملية صلبه.. موت لرجل وليس لجبان رعديد.. سيرى "دى". سيرى العالم أجمع.

سيتحطم قلب "دى" أخيرًا.. سيتحطم قلب العالم.

ولا احتمال للنجاة.

راح حارس البوابة يصيح من خلفه، لا يكاد "جى" يسمع صوت الرجل فوق هدير الشلالات، وإلى يساره نهر "نياجرا" يجرى جامحاً يصم الآذان.. يخال المرء، كما اعتقدت القبائل الهندية المحلية، أنه كائن حى لابد أن يُمنح القرابين.. نهر جائع، لا يشبعه شىء، لابد أن منبعه غير معروف والشلالات الهائلة إلى الأمام.. الشلالات تمتد فى انحناءة على شكل حدوة الحصان، على امتداد ما ترى العين بين ستائر الضباب والرذاذ المرتقى (أقواس قزح صغيرة شقية غمازة تظهر وتختفى وسط الرذاذ، مثل الفقاعات أو الفراشات تغرى من يشاهدها أن يحدق فيها بدهشة وإعجاب

وتغرى من يشاهدها أن يبتسم.. جمال لا نفع منه، وسط هذا الدمار!) لا يكاد "جى" يرى لكنه كان يعرف أن الشلالات أمامه، وهو موقع يدعى "تيرابين بوينت" على ما يعتقد، ويعرف من الخريطة أنه الطرف الجنوبى للجزيرة الصغيرة، كانت الشلالات صاخبة حتى أنها سحرته، وهدأته.. رذاذ متطاير يعميه، ولكن لم تعد به حاجة للرؤية، نظارته الملعونة تنزلق على أنفه، دائماً ما كره النظارة، الموصوفة له على قصر نظره وهو فى العاشرة. مصير "جى"! وفى حركة لم يجرؤ عليها طيلة حياته أمسك بالنظارة ورمى بها فى الفضاء، تحرر رائع! اكتفيت منك!

فجأة بلغ السور.

عند "تيرابين بوينت".

سريعاً هكذا؟

أمسكت يداه بأعلى قضيب للسور وقبضت عليه.. رفع قدمه اليمنى فى حذائه ذى النعل الزلق، وكاد يفقد توازنه لكنه صحح وضعه، ومثل لاعب أكروبات تمركز فوق السور وجزء من عقله يتراجع غير مصدق ويتعجب مفكراً لا يمكن أن تكون جاداً! هذا شىء سخيف، تخرجت الأول على دفعتك، ومنحوك سيارة جديدة، لا يمكن أن تموت، لكنه وبدفعة من كبريائه تجاوز السور إلى المياه، ومضى على الفور إلى الأمام مع التيار القوى وكأنه قطار، وفى ثوانٍ معدودة تهشمت جمجمته، وانطفأ عقله وصوته الخالد الذى لا يكف.. إلى الأبد، وكأنه لم يكن يوماً، وخلال عشر ثوانٍ توقف قلبه، مثل الساعة التى تحطمت آلتها، وانكسر عموده الفقرى وانكسر مثل سلسلة ظهر ديك رومى يمسك بها أطفال يلهون وسقط جسده الميت كدمية قماشية عند سفح شلالات هورسشو، وارتقى وسقط وارتقى ثانية وسط الصخور ومضى إلى الأسفل فى خضم المياه الفائرة وأقواس قزح القزمة الغمّازة، وتلاشى مفسحاً المجال للشاهد الوحيد عند سور "تيرابين" بوينت، وإن كان سيندفع بعدها بقليل من قاعدة الشلالات

مع التيار ثلاثة أرباع الميل متجاوزاً منطقة الدوامات السريعة وإلى دوامة الشيطان، حيث سيختفى عن الأنظار بعد أن تشفطه المياه للأسفل ويدور فى المياه، سيدور الجسد الميت مثل قمر لا حيلة له فى مداره، حتى ـ وبرحمته ـ سيمنحه الرب معجزة التعفن الرمى فيمتلئ الجسد بالغازات، ثم يطفو إلى سطح الدوامة الفائرة، ويتحرر.

أرملة عروس الشلالات

البحث

ملعونة.. هكذا ستقول عن نفسها.

أجل، كنت قادرة على رؤية هذا.. فى عينيها، يا للمرأة المسكينة!

لا أحد من العاملين بفندق" رينبو جراند" تمكن من تحديد وقت ظهورها الأول بالطابق السفلى فى الاستقبال على وجه الدقة.. المرأة ذات الشعر الأحمر التى ستُعرف بعد قليل، وفى الخيال الشعبى، باسم أرملة ـ عروس الشلالات. كانت الساعة العاشرة والنصف صباحاً تقريباً، يوم ١٢يونيو من عام ١٩٥٠ حين بدأ بعضهم يلاحظون وجودها، لكن دون الانتباه إليها على نحو خاص، كان استقبال فندق "رينبو جراند" فخماً ومزدحماً، ربما وطأ خادم من الفندق بقدميه على مسارها وكاد يصطدم بها، ثم اعتذر سريعاً، ولكنه سرعان ما مضى فى طريقه، نادلة من المقهى ستتكلم عن رؤيتها.. "أو واحدة شبيهة بها بالضبط".. فى ذلك الوقت تقريباً، لكنه كان يونيو، موسم الأعراس، كان موسم شهر العسل فى شلالات "نياجرا" واستقبال "رينبو جراند" الفيكتورى القديم فى شارع "بروسبكت" عامر بالأشخاص، ومعظمهم أزواج وزوجات، كانت هناك حبال زينة عند مكتب الاستقبال مزخرفة مطلية بالذهب، وفوق الرءوس ساعة صفراء شمسية عالية كأنها كيوبيد مبتسم. "أمور **فينسيت أومنيا**"(*). وفى

(*) AMOR VICINT OMNIA اسم لوحة «لكارفاجيو» فنان الباروك الإيطالى الأشهر، ولهذه الجملة عدة ترجمات فى اللغة الإنجليزية تشمل" الحب يغزو كل شيء» «كيوبيد المنتصر"و"الحب الظافر" و "الحب المنتصر" و "الحب الأرضى" (المترجم).

مركز ردهة الاستقبال، فى مقاعد وثيرة لدنة، رجال جلوس بسيقان معقودة يدخنون السيجار والغلايين، كان تدخين السجائر مسألة منتشرة، ومن استقبال كانت هناك شرفة "رينبو"، وهى قاعة طعام باهظة تتدم وجبة الأحد المتأخرة ما بين الفطور والغداء. وفى مؤخرة الاستقبال يُقدم الفطور المتأخر وغيرها من الأطعمة الخفيفة فى المقهى، ومنطقة خفيفة وإن كانت أنيقة، تحيط بها الأشجار الموضوعة فى القدور والزهور الاستوائية، وعلى منصة مرتفعة فيها امرأة شابة طويلة الشعر منعمة تعزف على القيثار ألحاناً أيرلندية الهوى مثل "دانى بوى" و"زهرة ترالى" و"الأنشودة الأيرلندية" ومن الحين للآخر يُنادى النزلاء عبر مكبرات صوت بالاسم بواسطة صوت ذكرى محايد يا له من صخب! مثل طنين خلية نحل مريح للأعصاب، أو هدير الشلالات المدمدم المُذبذب.

تقريباً يمكنك أن تروح وتجىء فى ذهول وبلا تفكير فى هذه المساحة، يمكنك أن تسقط ضحية سحر نغمات القيثار الطويلة الرقيقة، لا تكاد تعلو صخب الجمع. يمكن أن تكتشف وقوفك متجمداً فى نقطة ما ولا تعرف أين أنت أو لماذا.

كانت وحدها.. هكذا ظهرت فريدة بينهم.. الجميع غيرها فى أزواج، أو مسرعين ماضين من مكان لمكان، لكن ليس هى.

كانت الأرملة - العروس، حين شوهدت لأول مرة، لم تكن تبدو كعروس، ولا كأرملة أيضاً. كانت ترتدى قميصاً قطنياً عليه نقوش لزهور، وعليه تنورة زاهية من التى ترتديها فتيات المدرسة الثانوية فى يوم التخرج، كان وشاحها رباطاً أحمر قانٍ، مربوط شبه مفكوك فى ربطة كربطة العنق، أزرارها بلونها اللؤلؤى مربوطة كما يجب لكنها معوجة، ومربوطة إلى حلقها وكأنها تشعر بالبرد، بدا أنها ترتدى قفازاً أبيض، وتحمل إحدى فردتيه فى يدها، وشعرها بلون الصدأ الذابل فى ضفيرة فرنسية خرقاء، وقد بدأ ينفك بالفعل، وقد وضعت دبوساً وردياً رأسه على شكل الزهرة عند نقطة ربط الضفيرة، وتهدلت الزهرة، وكان جوربها أكبر من مقاسها بمقاس أو اثنين، كبيراً للغاية على ساقيها الرفيعتين، ومتهدل عند الكاحلين. ترتدى

حذاء أبيض جلديًا بكعب متوسط الارتفاع.. حذاء يمكن ارتداؤه يوم الأحد فى الكنيسة، وكان وجهها شاحباً، وعليه نمش مثل قطرات مطر قذرة، وبدا أحياناً وكأنه ملطخ، نصف ممسوح كرسم بقلم الباستل، وكما سيروى حارس الفندق بعدها لكلايد كولبورن مالك "رينبو جراند"، كان ذلك الكيان الغريب يتحرك بطيئاً متوقفاً بين الحين والآخر "كالسائرين نياماً" وسط ضجيج الاستقبال وقفت لفترة إلى جوار المصاعد وهى تنظر بقلق إلى الأبواب التى تنفتح وكأنها تنتظر ظهور شخص ما.. وبعد نحو عشرين دقيقة، حين أخذت عازفة القيثار استراحتها، بدا أن المرأة حمراء الشعر قد أفاقت وأخذت تطل حولها فى هلع. وفجأة غادرت المقهى واختفت عن الأنظار، لكن بعد برهة، ها هى ثانية: فى وسط الاستقبال، فى منطقة الجلوس حيث يتجمع النزلاء، وقوفٌ وجلوسٌ، يقرءون الصحف ويدخنون.. ها هنا رأوا المرأة تحدق بعيون الأطفال، وفى الوقت نفسه وكأنها عمياء، فى وجوه النزلاء الرجال، الذين شعروا تحت وطأتها بالانزعاج.. تكلم بعض هؤلاء الرجال إلى المرأة حمراء الشعر، فى تهذيب بلا شك، لكنها سحبت نفسها بعيداً بسرعة، بهزة من رأسها وكأنها تأكدت أن لا، كما أدركت الآن، أن هذا الشخص لا تعرفه، أو تسعى إليه "رأيت أنها لا تقبل عليهم.. لا شىء كهذا، ولم يشتك أى منهم" (وإن كان بعض هؤلاء الرجال بعدها مباشرة، وفى ذكرى لقائها، قالوا فى مقابلات مع الإعلام المحلى: نعم، بدا عليها. كانت تبحث عن زوجها. لكنها كانت خجولة بحيث لم تعلن هذا. ولم تنطق اسمه.. أو كأنها، ربما نست اسمه، لكنها كانت تعرف على نحو ما أنه مات، كانت مصدومة. رق لها قلبى!).

سيروى الخدم فيما بعد كيف أن المرأة حمراء الشعر التفتت ثانية إلى ممر المصاعد حيث وقفت إلى أحد الأجناب، ورأسها يميل لتراقب من زاوية خفية النزلاء الرائحين والغادين، يمرون حولها مثل مياه تسرى سريعة حول صخرة. بعدها ذهبت إلى مدخل شرفة "رينبو"، حيث كلمها النادل.. "كان مثل الكلام إلى أحد الموتى الأحياء، كانت مهذبة، لكن داخل

عينيها غائبة" حين رآها تصعد السلم المغطى بالأبسطة المؤدى إلى الشرفة، وهى مترددة كأنها ثملة، سأل البواب لأحد المساعدين أن يسألها إذا كانت بحاجة للمساعدة، لكن حين فعل، هزت المرأة ذات الشعر الأحمر رأسها نافية.. "لطيفة حقاً، كأنها تأسف على إحباطى" ومن جديد اختفت فى حجرة جلوس النساء، كما قالت الخادمة فى ذلك المكان فيما بعد لتظهر بعد دقائق قليلة مجدداً بوجهها مغسول، عند مدخل الاستقبال، وها هنا وقفت متمركزة على بعد ياردات قليلة من الباب الرئيسى الدوار، والذى كان فى حركة مستمرة.

- "وكأنها تنتظر مرور شخص ما من الباب، لكنها كانت تعرف أنه لن يأتى، وهكذا.. وقفت مكانها".

كان الوقت ظهراً "ورينبو جراند" أكثر انشغالاً من أى وقت، وقد حضر رواد الكنيسة لتناول وجبة ما بين الفطور والغداء ليوم الأحد الشهيرة.. وقد سقط دبوس الشعر الوردى المتهدل من رأس المرأة ذات الشعر الأحمر، وانحلت الضفيرة الفرنسية الخرقاء فى خصلات وجدائل من الشعر الرفيع، وكان القفاز الأبيض الذى ترتديه قد اختفى، وعلى الرغم من أنها لابد كانت تشعر بالتعب، فقد وقفت ذات الشعر الأحمر فى تصميم مانيكان متجر.. "لا يهتز لها رمش".. وهى تحدق فى الباب الدوار. كم كان سيمر من الوقت على المرأة الوحيدة وهى واقفة إن لم يقترب منها البواب.. لم يرغب فى التفكير.

- "سيدتى.. عذراً.. هل أنت نزيلة بفندق رينبو جراند؟"

بدا أن المرأة ذات الشعر الأحمر لم تسمع البواب بادئ الأمر، حين دخل مجال رؤيتها خطت إلى الجانب لتستمر فى التحديق فى الباب الدوار كأنها "مخدرة ولا تريد أن يفيقها أحد. كرر سؤاله، فى تهذيب ولكن بقوة، ونظرت إليه المرأة ذات الشعر الأحمر هذه المرة وأومأت برأسها أن نعم، بلا تمييز.

- "هلا ساعدتك إذاً؟"

ـ "تساعدنى".. فى صوت متحشرج غير مسموع تكلمت ببطء، كأن الكلمة غريبة محيرة.

ـ "مساعدة.. هلا ساعدتك؟"

ارتفعت عينا المرأة ذات الشعر الأحمر لتقابلا وجه البواب ببطء كعيون زجاجية تدور فى رأس دمية.. الجلد تحت العينين فاقدٌ لونه وضارب للزرقة، كان هناك احمرار على جانب فك المرأة الهزيل وكأنها جرحت نفسها، أو كأنها تعرضت لجرح "بدا مثل أصابع رجل، على هيئتها، كأنه أمسك بها وحاول أن يخنقها، لكن ربما لا، ربما كان هذا ما تخيلته، بعد كل شىء فلابد أنه تلاشى". أجفلت المرأة، وعدلت من وضع خواتمها. وهزت رأسها فى اعتذار أن لا.

ـ "لا يا سيدتى لا يمكننى مساعدتك"

ـ "شكراً لك لكن لا يستطيع أحد مساعدتى، أعتقد أننى.. ملعونة".

شعر البواب بالصدمة، فى تلك اللحظة دخلت أسرة كبيرة عبر الباب الدوار كانفجار الألعاب النارية فى السماء ولم يكن واثقاً مما سمعه، أو إن كان يريد أن يسمعه.

ـ "سيدتى.. عذراً، ماذا قلت؟"

ـ "ملعونة".

تحركت شفتاها فى خدر، تكلمت فى لهجة تقريرية.. كانت تشيح عنه لولا أن البواب لامس رسغها، وقادها إلى ركن أهدأ من الاستقبال، من الواضح أن المرأة لم تكن على ما يرام. مضطربة عاطفياً، مشوشة الحالة العقلية، كانت جيدة التنشئة وهذا واضح عليها.. ليست ثرية ولكنها من الطبقة الوسطى، أو أعلى منها بقليل، من الأسر العريقة بالبلدات الصغيرة.. لهجتها توحى بأنها من الجزء العلوى من نيويورك ولا خطأ فى هذا، لكن ليس من غرب نيويورك، فى موضع ما إلى الشرق، ربما الشمال.. امرأة متزوجة، امرأة جيدة التربية، شىء ما أصابها أو جرى لها

كان البواب يتمنى بشدة أن أيًا يكن، وأيًا يكن المرتكب، ألا يكون قد وقع فى الفندق. أو، وإذا كان قد وقع فيه، ألا يكون رينبو جراند مسئولاً عنه.

ـ "سيدتى، أرجو أن تخبرينى بما جرى.. حتى أتمكن من المساعدة".

سألته المرأة ذات الشعر الأحمر فى جدية: "ما مشكلتى؟ ما مشكلته؟"

ـ "من هو؟"

ـ "زوجى".

ـ "آه! واسم زوجك هو.."

ـ "المبجل إرسكين".

ـ "المبجل إرسكين، واضح".. كما سيخبر السيد "كولبورن"، تذكر البواب حينها رؤية المرأة فى رفقة شاب فى اليوم السابق، وهما يدخلان الفندق، لكنه لم يتكلم إلى الزوجين ولا يعرف اسميهما.. "هل أصابه سوء؟"

أحس البواب بسحابة من القلق، بالطبع توقعت الأسوأ. فتح باب بالأعلى واكتشاف وجود رجل مشنوق من ثريا، رجل مقطع المعصمين فى البانيو، لن تكون المرة الأولى التى يشنق فيها رجل نفسه فى "رينبو جراند"، مع أو بدون زوجة، إلا أن هذه الحقيقة كانت تُحفظ سراً.

قالت المرأة ذات الشعر الأحمر هامسة وهى تلف خواتمها فى إصبعها: "لا أعرف، لقد.. فقدته".

ـ "فقدته.. كيف؟"

ـ "إلى حيث تُفقد الأشياء.. رحل".

ـ "رحل؟ إلى أين؟"

ضحكت المرأة ذات الشعر الأحمر فى حزن وقالت: "وكيف لى أن أعرف أين؟ لم يخبرنى".

ـ "منذ متى والمبجل إرسكين مفقود؟"

حدقت المرأة فى ساعتها المربوطة بمعصمها الهزيل، ودون أن يبدو عليها إدراك الوقت. وبعد قليل قالت: "ربما خرج بالسيارة مبتعداً. السيارة سيارته. غادر حجرتنا قبل الفجر، أعتقد هذا، أو ربما.." تلاشى صوتها.

- "غادر دون أن ينطق بكلمة"

- "ما لم يكن قد كلمنى، ولأننى كنت، كنت نائمة، لأننى كنت نائمة.. لم أسمعه" بدا أنها ستنفجر فى البكاء لكنها تماسكت، مسحت عينيها بأصابعها داخل القفاز.. "لم أعرفه جيداً، لا أعرف.. عاداته".

- "لكن يا سيدة "إرسكين"، هل بحثت عن زوجك فى الخارج؟ ربما خرج لا أكثر".

- "بالخارج".. هزت السيدة "إرسكين" رأسها ببطء وكأن فكرة تلك الرحابة غمرتها.. "لا أعرف أين أبحث عنه، لا أعرف من أين أبدأ. السيارة سيارته، وهناك العالم بأكمله".

- "ربما هو بالخارج فى الشرفة، ينتظرك؟ لنذهب لنلقى نظرة".. كان البواب يتكلم بحميمية، فى رجاء، كان يقود السيدة "إرسكين" إلى الباب الدوار لولا أنها تراجعت للخلف وعلى وجهها نظرة خوف، وأبعدته عنها بيدها.

- "لست.. لست واثقة أنه سيوافق على هذا، إذا كان بالخارج فى الشرفة".

- "لكن لِمَ لا؟"

- "لأنه هجرنى".

- "لكن يا سيدة "إرسكين"، لماذا تعتقدين أن زوجك هجرك إذا كان قد خرج دون أن يتكلم؟ ربما هو بالخارج. أليس هذا استنتاجاً متطرفاً منك؟ ربما خرج يشاهد المناظر الطبيعية.. ذهب إلى الشلال".

"لا".. هكذا قالت السيدة "إرسكين" فى عجلة.. "ما كان "جيلبرت" ليخرج يشاهد الشلال دونى، فى شهر عسلنا وضع علامات على أماكن يريدنا أن نراها، إنه دقيق فى مثل هذه الأمور، منظم للغاية وهو يجمع أو كان يجمع، الحفريات! ولا يفعل أنصاف الأشياء، إذا كان قد رحل فقد رحل". شهر العسل.. ضربت تلك الحقيقة البواب فأحسها نذير شؤم.

- "لكن المبجل "إرسكين" لم يترك لك رسالة.. غادر بلا كلمة"
- "بلا كلمة".

يا للهجة التقريرية التى نطقت بها المرأة ذات الشعر الأحمر هذه الكلمات.

- "ليس فى حجرتك.. هل بحثت جيداً؟ ولا عند مكتب الاستقبال؟"

- "لا أعتقد هذا".

- "هل سألت مكتب الاستقبال يا سيدة إرسكين؟"

- "لا".

- "لا؟"

- "ما كان ليترك لى رسالة هناك، ليس فى صندوق بريد مفتوح.. ليست هذه طريقة "جيلبرت". إذا كان لديه شىء خاص ليطلعنى عليه".

استأذن البواب ومضى إلى مكتب الاستقبال ليتحقق.. لا رسائل من حجرة ٤١٩ وسأل العاملين إذا كانوا قد تكلموا إلى أو شاهدوا ذلك المبجل "إرسكين" لكنهم نفوا، طلب رؤية سجل الفندق ورأى فيه.. المبجل "جيلبرت إرسكين" وزوجته "آريا إرسكين"، من "تروى" بنيويورك.. كان هناك سجل بسيارة باكارد موديل ١٩٤٩، كذلك. حجز الزوجان فى "رينبو جراند" لخمس ليالٍ فى جناح "روزبد" لشهر العسل.

شهر العسل.. ليست مثار شؤم، بل شفقة.

- "اتصلوا بالسيد "كولبورن"، هلا فعلتم؟ اتركوا له رسالة، ليس الأمر طارئاً.. امرأة مضطربة زوجها مفقود، كما تعتقد".

- "مفقود.. هناك رجل قفز فى هورسشو هذا الصباح".

- "قفز فى هورسشو".. سيتذكر البواب بعدها سماع هذه العبارة التلقائية من أحد موظفى المكتب وهو يلتفت مبتعداً، وهو يستبعد ما ذكره فى نفس اللحظة، أو ربما لم يسمع جيداً، أم أنه لم يرغب فى السماع.

يصعب عليك اعتقاد أن رجل دين ينتحر عند الشلالات، خاصة إذا كان فى شهر العسل هذا غير ممكن.

بدا أن المرأة ذات الشعر الأحمر لم تندهش من غياب رسالة لها فى مكتب الاستقبال. لكنها سمحت للبواب بمرافقتها إلى الخارج، وفى هواء ما بعد الظهر الشاحب المنير بأشعة الشمس أخذت عينا المرأة ترفان وكأنهما أصيبتا بالعمى، وجهها المنمش يلمع وكأنها حكته بقوة. بدت صغيرة على نحو غريب وفى نفس الوقت نفسه متعبة رثة الحال، عيناها خضراوان زجاجيتان غريبتان، وصغيرتان منكمشتان. لم تكن جميلة، بحاجبين ورمشين بلون باهت حائل، وجلد شاحب تظهر عليه العروق الزرقاء الصغيرة فى صدغها. لكن ثمة شيئًا متوحشًا عنيدًا فيها، ثمة عناد، وكأنه يشع منها وكأنها مصابة بجرح عميق للغاية، تشعر بالإهانة، كأنها ستتذوق كل ما سيواجهها من ألم، كل قطرة منه.

وهكذا بدت مترددة على النظر إلى النزلاء الأثرياء المتجمعين فى الشرفة، هيكل جذاب ملتف حول ثلاثة أرباع الفندق، أمسك البواب بيدها حين تعثرت. كانا يمشيان فى ممشى من الحصى تحت الشرفة، بين الفندق وممشى الشرفة السفلية وبستان الزهور، النزلاء يأكلون فى الهواء الطلق، فى مبنى الفندق الفيكتورى الخزامى وسط حديقة وكأنه من رسمه من رسوم الأطفال، والقليل من النزلاء يرفعون عيونهم وهما يمران فى فضول.

- "لا ترين زوجك هنا حولنا يا سيدة إرسكين"

- "لن نجده.. أخبرتك بهذا، لقد رحل".

- "لكن كيف تعرفين بهذا اليقين؟" كان البواب يحاول التحلى بالصبر.. "إذا كان قد رحل بلا كلمة.. ربما هذا سوء تفاهم لا أكثر". أومأت المرأة ذات الشعر الأحمر فى شجن.. "أجل، أعتقد هذا، كان كذلك.. سوء تفاهم مأسوى".

أراد البواب أن يسأل إذا كانا قد تشاجرا، لكن لم يتمكن من حمل نفسه على نطق السؤال.

مرا بملاعب التنس. وبلاعبى كرة الريشة، ولاعبى الكروكيه، رجال فى أواسط العمر فى ثياب رياضية يضحكون فى صخب ويحتسون البيرة ويدخنون، ولدى مسبح كبير فى الهواء الطلق سباحون كثيرون ومستحمون يصطلون فى الشمس، أجواء مرحة احتفالية، لعلها حتى خشنة. موسيقى معروفة تصدح فى مكبرات الصوت. والمرأة حمراء الشعر تحمى عينيها وكأنها تشعر بالألم.

- "يجب أن تتحققى من وجود سيارتكما يا سيدتى، فقط للتحقق".

كان البواب ليفعل هذا على الفور إذا كان هو السيدة "إرسكين"، لكن لم يبد عليها أنها فكرت فى هذا.. "سألها البواب هل تذكرين أين السيارة يا سيدة إرسكين؟"، وهما يقتربان من ساحة الانتظار أسفل وخلف الفندق ، وقالت المرأة حالمة: "جيلبرت" هو الذى وضعها فى الانتظار بالطبع، لم يكن يسمح لى بقيادة سيارته.. لا أعتقد أنه كان يسمح لى أبداً بقيادة سيارته، وإن كانت لدى رخصة قيادة منذ كنت فى السادسة عشرة، لكن بالطبع هذه سيارته، أعنى إنها كذلك.. هناك، إلى جوار السور.. أتراها؟ السيارة الباكارد".

كانت علامة على حالة صدمة المرأة ذات الشعر الأحمر، أنها ومع رؤيتها لسيارة زوجها فى ساحة الانتظار، لم تشعر إلا بدهشة متوسطة، وليس بالراحة التامة، فى الواقع لاحظ البواب كيف وقفت متجمدة فى مكانها، وهى تتفرس السيارة فحسب ولا تقربها، وكأن "الباكارد" السوداء اللامعة لغز آخر تتفكر فيه ذلك اليوم، ولم تكن قادرة على هذا.

تحقق البواب من أبواب الباكارد وصندوقها.. وكلها موصدة.. نظر بداخلها المظلل بلونه الرمادى الشاحب، ورآها نظيفة لا بقع فيها، ولا أثر لشىء من الثياب أو قطعة ورق فى المقعد الخلفى، لم يكن البواب يعرف إن كان وجود هذه السيارة، التى افترضت السيدة "إرسكين" غيابها واعتبرته أمراً مسلماً به، يعتبر علامة إيجابية، ربما أصيب رجل الدين بالأذى

بطريقة ما، فى مكان ما، ربما قابل "مجرمين".. فهناك عناصر فى مدينة شلالات "نياجرا" معروفة بالخطورة.

قال البواب بحرارة: "كما ترين يا سيدة "إرسكين"، لا يمكن أن يكون قد رحل على قدميه. الأرجح أننا حين نعود إلى الفندق سنجده هناك فى انتظارك".

أصبح اليوم من أيام يونيو اللطيفة، بعد أن انقشع ضباب وبرد الصباح، وبدا هذا التصريح المتفائل مناسباً، لكن السيدة "إرسكين" ارتجفت.. "فى الحجرة، فى جناح روزبد.. لا"

كانت معقودة الحاجبين، وتلف خواتمها بسرعة وكأنها تريد أن تخرجها من إصبعها.

حاول البواب أن يهدئ من روعها، أمسكها من ذراعها وقادها عائداً إلى الفندق، لكن المرأة ذات الشعر الأحمر بدأت تتكلم بسرعة.. "آرجوك، ليس عليك التسرية عنى! كنت عطوفاً معى للغاية، أتمنى ألا أورط أى أحد أكثر من هذا، خاصة الغرباء، لكن لا يبدو أننى أعرف ما سأفعله بعد هذا، أو أين أبحث، أو أين أنتظر"؟ كفت عن الكلام وشفتاها ترتعشان، راحت تحاول اختيار كلماتها بعناية.. "خاصة إذا كان "جيلبرت" قد رحل، ولن يعود، لا يمكننى مواجهة أبويه، أو أبوى. سيلقون باللوم علىّ، وأنا الملومة، أعرف هذا، لكن يجب أن أكون فى الوقت نفسه عملية. أيام حلمى ولت، سأبلغ الثلاثين من عمرى فى نوفمبر، معى نقود ادخرتها فى حساب بنكى فى تروى".. استرسلت فى كلامها بجدية.. "يمكننى دفع ثمن الإقامة بجناح الفندق. إذا كانت الإدارة قلقة على السداد، فلا داعى أرجوكم، سوف أدفع". بدأت السيدة "إرسكين" تبكى فى خفوت، أو لعلها كانت تضحك.. وشفتاها الشاحبتان ترتعشان.

شعر البواب ـ وهو يعمل فى "رينبو جراند" منذ أربعة عشر عاماً ـ بالتعاطف مع هذه المرأة، وآراد أن يسرى عنها ولكن تعوزه كلمات السلوى، ماذا تقول لعروس هجرها زوجها فى شهر العسل؟ بدأ إحساس السيدة "إرسكين" بقدرية ما جرى لها يؤثر فيه، مثل سم بطىء المفعول.

قال بإقدام وهو يمسك بذراعها: "سيدة إرسكين.. سيدتى، سنجد زوجك لك، أعدك بهذا. لا تفزعى".

- "لا أفزع" كانت ضحكتها كصوت الزجاج وهو يتكسر.. "هذا شهر عسلى".

أين بحق جهنم مديره "كلايد كولبورن"؟ كان البواب قلقاً متعباً، مثل موظف فندق يحمل كرسياً زائداً من هنا لهناك لا يجد مكاناً يضعه فيه. تحمل هذا الشىء الملعون من حجرة إلى حجرة، وهو ثقيل، ثم يأخذ شخص آخر هذا المقعد!

- "سنبحث مرة أخرى بالأسفل، ثم فى حجرتك.. هل تماسكت بعد يا سيدة إرسكين؟"

المرأة ذات الشعر الأحمر مالت برأسها وخفضت عينيها. وكأنها تقول نعم نعم! ما الخيار المتاح لى.

مرة أخرى يتحقق البواب من مكتب الاستقبال ليرى إن كانت هناك رسائل للسيدة "إرسكين" فى الحجرة ٤١٩" .. عذراً يا سيدى، لا شىء" فى صبر وقتها، مثل رجل يقود طفلاً ضالاً لا يمكن توقع تصرفاته، رافق البواب السيدة "إرسكين" عبر الاستقبال، الذى أصبح أكثر ازدحاماً وصخباً من أى وقت مضى، والهواء ثقيل معبق بدخان التبغ، وعبر المقهى المزدحم، حيث عازف بيانو يعزف ألحاناً من عرض مشهور على مسارح برودواى، وإلى شرفة "رينبو" حيث الجلوس يتناولون طعامهم بملابسهم الأنيقة، ويدورون حول البوفيه الفخم المفتوح على امتداد جدار عليه مرآة.. كمأدبة للآلهة، وهو ينظر إلى وجه السيدة "إرسكين" شاحبة الوجه مذهولة، فى فضول، سأل البواب بصوت منخفض سؤالاً لا ضرورة له: "لا ترينه فى أى مكان يا سيدة "إرسكين" على ما أعتقد، أليس كذلك؟"

كانت هزة رأس المرأة تكاد لا تدركها العين.

لا.. بالطبع لا أراه.. هنا، كيف أراه إذا كان قد رحل؟

حينها كان معظم العاملين بالفندق قد انتبهوا لمشكلة السيدة "إرسكين". توجه خدم الفندق للبحث فى حجرات جلوس الرجال، وحجرات الاجتماعات الخاصة القريبة من الشرفة، وعلى سلم الحريق وحجرات التخزين وفى الأركان البعيدة من المبنى، وتم استدعاء طبيب الفندق الدكتور "ماكاردى" فى حالة ما إذا أصيبت السيدة "إرسكين" بحالة هستيرية أو اعتراها المرض، تم إرسال إشارات لشرطة شلالات نياجرا وسلطات النهر، ومنهم وحدة إنقاذ حرس السواحل. ونحى أحد العاملين البواب إلى جانب وأخبره أن رجلاً لم يتم التعرف إليه قد ألقى بنفسه فى "شلالات" هورسشو صباح اليوم، وأن حارس بوابة جسر جزيرة جوت حاول أن يوقفه، وأن بعض فرق الإنقاذ نزلت النهر تحت الشلال لكن الجسد لم يتم التوصل إليه بعد وأن مكتب العمدة، ومعه لجنة سياحة شلالات نياجرا واسعة النفوذ، يتمنيان أن يبقى الأمر سراً لأطول فترة ممكنة.

ارتجف البواب، كان يعرفا! ثمة شىء رهيب. أعتقد أننى... ملعونة.

أجل، وصف الانتحار جعل من الممكن الاعتقاد أنه المبجل "إرسكين".

رأى البواب المرأة ذات الشعر الأحمر واقفة فى ارتباك قريباً من مكتب الاستقبال وتعير أقل الاهتمام لاقتراحات طبيب الفندق المتكررة بأن تجلس على أحد المقاعد الوثيرة القريبة وبطريقتها الساكنة المبهمة راحت تراقب ما حولها، زوج وزوجة جذابان من أزواج شهر العسل، وذراع كل منهما حول خصر الآخر، وهما يمزحان ويضحكان مع موظف الاستقبال فى أثناء التوقيع على ورقة التسجيل فى الفندق، اكتشفت أن ضفيرتها الفرنسية انحلت وراحت تحاول إصلاحها بأصابع خرقاء مرتبكة، عدلت من وضع الربطة المترهلة بوشاح رأسها الأحمر. من بين كل النساء والرجال فى استقبال "رينبو جراند"، الذى كان ككابوس من العالم الرحب المسكون بالبشر خارج الفندق، فهذه المرأة - آريا إرسكين - هى الوحيدة التى تبدو دخيلة غريبة، تلك الزائدة، غير المرغوبة، التى لا مكان لها.

- "الأفضل أن نخبرها، ما رأيك؟ لنأخذها إلى قسم الشرطة".

- "لكن إذا لم يكونوا قد عثروا على الجثة بعد، فلا يمكنها التعرف عليها. وربما ليس المبجل بحق يسوع، من القسوة أن نزعج المرأة المسكينة أكثر من انزعاجها الحالى.. إذا لم يكن الميت زوجها".

- "لكن لو كان هو؟"

- "دال، أين بحق الجحيم السيد كولبورن؟"

- "فى الطريق.. هكذا يقول".

كان "كلايد كولبورن" ـ مالك فندق رينبو جراند ـ صاحب عمل دمثا جاداً، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه دوماً، وكان يفوض معظم سلطاته للعاملين. ورث فندق شارع "بروسبكت" القديم المميز، كان جده قد أسسه عام ١٨٨١، فى حقبة شهدت إقبالاً واسعًا على السياحة فى شلالات "نياجرا".. وما زال الفندق فخماً، مثل باقى الفنادق القديمة على الطراز الفيكتورى القريبة من الشلالات، وتم تشييده فى زمن ارتحال النزلاء بالقطار، وليس بالسيارات، وكانت الخدمة المترفة المقدمة لهم تتضمن توفير الإقامة لخدمهم، وبدأ "رينبو جراند" يشعر بالمنافسة من النزل الصغيرة و"الكبائن السياحية" المنتشرة مثل الفطر على مشارف مدينة شلالات "نياجرا" ولو كان السيد "كولبورن" واعياً منتبهاً للتهديد، فكان نادراً ما يتكلم عن الأمر إلا بكبرياء.. "سيطلب الناس دائماً الجودة، وفندق "رينبو جراند" يقدم الجودة.. هذا هو الأسلوب الأمريكى".

وبقدر ما يعرف العاملون لديه، كان "كلايد كولبورن" يقضى معظم وقته فى قاربه على صفحة النهر وفى البحيرات العظمى، ويلعب الجولف فى "نادى لا إيل جراند كاونترى كلوب" فى الطقس الدافئ، ويقامر مع أصحابه الذين يشبهونه.

اقترحت مديرة الفندق.. امرأة اسمها "دال" كانت مساعدة السيد "كولبورن" لعشر سنوات.. أن يفحصوا جناح السيدة "إرسكين" قبل اصطحابها إلى قسم الشرطة، إنه موقف مريع لكل الأطراف، لكن يجب التفكير فى الصورة العامة للفندق، وفى النزلاء الآخرين الذين حضروا إلى

فندق رينبو جراند لتمضية وقت طيب، إذا انهارت السيدة "إرسكين" فجأة فى بكاء هستيرى، فيا لها من فضيحة! "انظروا، إنه شهر يونيو يوم الأحد فى يونيو والسماء لا تمطر، وهو موسم شهر العسل بحق الرب.. وقت سعيد فى الشلالات".

هكذا أقنعوا السيدة "إرسكين" بالصعود على مضض إلى حجرة ٤١٩. قالت المرأة ذات الشعر الأحمر فى حزن إن زوجها لن يكون هناك.. "هذا المكان من بين كل الأماكن فى العالم، الذى أجزم بأنه ليس فيه".

فى ذلك الحين كانت "آريا إرسكين" تمشى مترنحة، ويبدو عليها غياب التركيز، وبدت للعاملين فى فندق "رينبو جراند" غير مدركة لما حولها، حين انفتح باب المصعد فى الطابق الرابع اضطروا لدفعها برفق للخروج، لكنها أكدت لدكتور "ماكاردى" بمزاج مضطرب أنها "على ما يرام".. "ولا أشعر بالدوار أو عدم الاتزان" ولكنها فقدت مفتاح حجرتها. ولحسن الحظ كان مع "دال" مفتاح لكل الحجرات استعانوا به للدخول.

عند الحجرة ٤١٩ طرق البواب بصوت مرتفع وفى توتر الباب فى حالة إن كان هناك أحد بالداخل "هل يوجد أحد بالداخل؟ نحن إدارة الفندق، سندخل".

لا إجابة.

كان الباب مغطى من الخارج بمخمل قرمزى ناعم، وعلى لافتة نحاسية فيه مكتوب "**جناح روزيد لشهر العسل**".

فتحت "دال" الباب، ودخلت المرأة ذات الشعر الأحمر ودخل موظفو الفندق فى تردد، لا يوجد فراغ مثل فراغ حجرة فندق لا أحد فيها، عبر ستائر نصف مغلقة دخل شعاع الشمس الواهن، فى مكان ما بالأعلى راحت مكنسة كهربائية تدور، وكانت أول حجرة هى الردهة الوثيرة الفخمة، كانت خالية، بعض الإعلانات والكتيبات السياحية والخرائط المبعثرة، وزهرية فيها زهرات متهدلة ذابلة، وزجاجة شمبانيا فارغة ملقاة على جانبها، وكأسًا شمبانيا، فارغتان، مفترقتان.

فتح البواب باب حجرة النوم التى بدت خالية هى الأخرى.. هذه الحجرة، دخلت السيدة "إرسكين" فى تردد بالغ، عيناها شبه مغمضتين "لا أحد هنا" تكلمت فى خفوت بالغ، ولم يتبين لأحد إن كانت قد تكلمت أصلاً. الفراش ذات القوائم النحاسية والستار المزخرف الذى يعلوه كان، على ما يبدو قد تمت تسويته سريعاً، وتم فرد ملاءة فراش عليه، ووضعت الوسائد على شكل القلب فى مواضعها، وانطباعك الأول الخاطئ عنه هو أن شخصاً ما، أو شيئًا ما، قد يكون تحت الغطاء. فكرة أن الفراش قد تمت تسويته بدت لمسة مبالغًا فيها.. توقعت السيدة "إرسكين" حضور الزائرين، وأرادت أن تبدو حجرتها مرتبة، كانت الحجرة مكتومة، زيت شعر رجالى، عطر نسائى، رائحة النوم، الملاءات المبقعة.

ماذا حدث فى ذلك الفراش؟ أى صدمة وأى تعاسة.. أى اكتشاف.

أشاحت المرأة ذات الشعر الأحمر بعينيها، وللحظة ترنحت على قدميها.

سأل البواب فى تهذيب واضطراب: "هل لى أن أفحص الحمام ياسيدة إرسكين؟"

- "بالطبع، لا أحد فيه".

كان هناك نور مضاء فى الحمام، لكنه فارغ، مناشف مبتلة تم وضعها على المشاجب، وستار البانيو مولج فى البانيو الكبير مخلبى القاعدة، وفى الحوض شعيرات سوداء، ليست شعر السيدة "إرسكين". وعلى الرف إلى جوار الحوض علبة زينة للرجال لا يميزها شىء، لكن هكذا كانت قابعة.

ليست فأل حسن، خطر على بال البواب.

قالت المرأة ذات الشعر الأحمر فجأة ضاحكة: "معجون أسنانه بالداخل، تفحصته، كنت تحسب أنه أخذه معه، أليس كذلك؟ لكن أعتقد أنه يسهل شراء معجون الأسنان، حيثما تذهب".

ثم إنهم تفحصوا الدولاب الذى علق فيه السيد "إرسكين" ثيابه، والذى قالت السيدة "إرسكين" عنه إنه لم يتم العبث به بقدر علمها. تفحصوا درج المكتب العلوى، الذى وضع فيه السيد "إرسكين" ثيابه الداخلية المطوية بعناية، وجواربه السوداء الحريرية، وعدة مناديل قماشية بيضاء مغسولة جيداً، وزوج من أزرار الأكمام، وعلى رف من الأرفف كانت حقيبة السيد "إرسكين"، فارغة إلا من كتاب بعنوان شلالات نياجرا.. التاريخ وما قبل التاريخ، و.. نذير شؤم آخر.. محفظة جلدية.

- "سيدة إرسكين، هل لى..؟"

- "أجل، بالطبع.. خذها".

أخذ البواب يتفحص المحفظة على استحياء، كان بها بطاقة هوية قس وصورة، ورخصة قيادة، وعدة شيكات خالية مقطوعة من دفتر شيكات، وبعض العملات من عدة فئات منها الخمسون سنتاً، وفى الصورة شاب داكن الشعر بأنف ناحل ووجه نحيل يرتدى نظارة كالتى يرتديها العلماء ولا يبتسم. هل هذا المبجل "جيلبرت إرسكين"؟ زوج العروس حمراء الشعر المفارق؟

متطرف.. هذا الفم.. هاتان العينان! بالضبط هو من نوع الرجال الذين يرمون بأنفسهم فى شلالات هورسشو، هذا ما خطر على بال البواب.

"سيدة "إرسكين"، هل لى أن آخذ صورة زوجك؟ ستحتاجها السلطات، والأفضل أن تأخذى هذه المحفظة، وتحتفظى بها فى مكان آمن، لا تتركى أغراضًا ذات قيمة فى حجرة فندق أبداً".

قبلت المرأة ذات الشعر الأحمر المحفظة من البواب بعينين منخفضتين، وكأنها تشعر بالحرج، لم تحاول عد النقود، التى قدر عددها البواب سريعاً، وتبلغ عدة مئات من الدولارات.

عادوا إلى ردهة الجناح حيث مضت السيدة إرسكين إلى النافذة لتطل على نقطة بعيدة فى الخارج.. هل كانت تنظر ناحية الشلالات؟ أو..

السماء؟ من جانب وجهها كانت جميلة جمالاً قديمًا، وجهها سماوى وصارم فى الوقت نفسه، وكأنه وجه منقوش على عملة نقدية قديمة، ومجدداً رأى البواب، أو اعتقد أنه رأى، علامات حمراء باهتة على شكل أصابع يد رجل على حلقها الشاحب العظمى.

المبجل.. لابد أنه هو.. من غيره؟!

بينما البواب والآخرون يجرون بحثاً سريعاً فى الردهة، ظلت السيدة "إرسكين" ذات الشعر الأحمر بلا حراك عند النافذة، وكأنها تفكر بصوت جهورى قالت حالمة: "الشلالات، أهى واحدة كما تطلقون عليها؟ أم.. عدة شلالات؟"

قالت "دال": "نطلق لفظ الشلالات عليها. ولا نعنى بهذا المدينة بل النهر، إنها أكثر من مكان فعلى، تلك الشلالات الأمريكية، وهى شلالات "بريدال فيل وهورسشو"، وهناك منطقة المياه السريعة أيضاً، ودوامة الشيطان، وحلق الشلالات. يمكنك اعتبارها كل تلك الأميال، حوالى أربعة أميال من المياه المتدفقة سريعاً بشكل خطير، المياه الجائعة كما أطلق عليها الهنود، وهى روح المكان أيضاً".

- "روح المكان.. نعم".

سيبدو لهم فيما بعد أن المرأة ذات الشعر الأحمر بطريقة ما كانت تعرف بما جرى لزوجها.

لم يجدوا شيئاً ذا قيمة فى الردهة، عدة إعلانات وخرائط للسائحين، إعلانًا عن سفينة رحلات اسمها "عذراء الضباب" تمر بقاعدة الشلالات الأمريكية وشلالات هورسشو، كان من المؤثر التفكير فى أن الزوج والزوجة الشابين فى شهر العسل قد خططا لأخذ تلك الرحلة وهما ما زالا فى "تروى". سأل البواب للمرة الأخيرة: "تقولين إنك لم تجدى رسالة منه يا سيدة "إرسكين"؟ لا شىء يمكن اعتباره.. رسالة وداع؟" وجد نفسه يحدق فى سلة المهملات المدفوعة تحت مكتب فكتورى الطراز، حيث كانت هناك بعض الأوراق المكرمشة.

بدت المرأة ذات الشعر الأحمر وقد أفاقت من نومها، ليس تماماً، من غشيتها. "ماذا؟ لا. لا توجد رسالة وداع. عذرًا".

بوجه مشوب بالحمرة انحنى البواب ليلتقط ما بداخل سلة القمامة.. منديلان ورقيان على أحدهما أحمر شفاه، لكن هذا كل شىء.

"نزيل فى فندقى.. قل لى إن الأمر ليس كذلك".

رأى فى عيون العاملين قبل أن يتكلم أى أحد، أن ثمة أخبارًا سيئة.

على الأقل لم يكن الفندق مشتعلاً، كان ليعرف.

على الأقل لم يتم قتل أحد فى الفندق.. ستأتى الشرطة، وسيمتلئ المدخل الأمامى بسيارات الشرطة وعربات الطوارئ.

بحلول الساعة الثانية والثلث بعد ظهر يوم ١٢ يونيو ١٩٥٠ وقت اصطحاب "آريا إرسكين" إلى قسم شرطة "شلالات نياجرا"، وصل "كلايد كولبورن" إلى فندق "رينبو أخيراً".

كان رجلاً كبير العظام مشغول البال فى الثلاثينات من عمره، ودوداً بشكل مبالغ فيه، وأصلع الرأس قبل أوانه، رأسه يلمع مثل رأس تمثال رومانى.. عيناه الصغيرتان اللتان لا تستقران على شىء غائرتان فى وجه خطت فيه سنو التجوال فى القارب، والتزلج على المياه، ولعب الجولف فى الشمس، كانت يداه وقدماه كبيرتين، ويبدو فيها الانشغال وكثيرة الحركة، كان ينشر حوله حالة من التراخى الشديد المتعمد، قوية نفاذة كرائحة كولونيا الحلاقة، وكان يتكلم ويضحك فى صخب بطاقة زائدة، واليوم يرتدى ثيابًا كالتى يرتديها للذهاب للكنيسة، من معطف قطنى ناعم، وقميص أبيض مفتوح عند الحلق، وقبعة قش بحواف عريضة، كحاله دائماً فى مثل هذا اليوم، وهو يمر على الفندق يوم الأحد، كان يجعل موظفيه يعتقدون أنه كان فى صلاة الكنيسة مع أسرته فى الجزيرة كما كان يُطلق على جزيرة "لا أيل جراند" ـ، وأنه لم يخرج من البيت مباشرة بينما أسرته

فى الكنيسة، بعدما استحم سريعاً وحلق ذقنه وبدل ملابسه قبل أن يخرج ثانية بعد ليلة السبت الماراثونية من لعب البوكر وشرب الخمور فى يخت صديقه المستقر على شاطئ جزيرة "بوكهورن"، فى قناة "توناواندا" التى تخرج من نهر نياجرا.

لم يكن "كولبورن" منفصلاً عن زوجته فى الوقت الحالى كان يعيش فى البيت، وإن كان دائماً ما يقضى لياليه فى جناحه فى "رينبو جراند". وليلة أمس، بعد انتهاء اللعب الماراثونى فى الخامسة صباحاً، نام خمس أو ست ساعات دائخاً فى غيبوبة فى اليخت، حيث كان موضع ترحيب دائماً، فقد نقوده فى البوكر وكان يشعر بالذنب، والفسق والامتعاض، حتى أنه، هو "كلايد كولبورن"، الرجل صاحب الملايين، على الأقل فى الممتلكات والاستثمارات، رجل يحبه الرجال الآخرون ويعجبون به وإن كان لا يعجب زوجته المحتشمة وأقاربها، اضطر للإحساس بتلك الأحاسيس، تزوجت شاباً للغاية! تزوجت لفترة طويلة، قال صديق صباه ديرك برنابى الذى لم يتزوج قط، والذى استضاف لعب البوكر فى يخته وربح ١٤٠٠ دولار من "كولبورن" على امتداد الليلة : إن استئناس الرجل باعتباره جنس "هومو سابينس" كان "اللغز الأكبر الذى بقى بلا حل" فى مسألة التطور.

فلم تستأنسنا المرأة لأغراضها الخاصة فحسب، بل أيضاً جعلتنا نشعر بالذنب البالغ حين لا يروضنا استئناسنا.

قبل أن يصل إلى "رينبو جراند"، سمع "كولبورن" شائعات عن انتحار فى الشلالات، وفى ذلك الحين وصل الخبر إلى نشرات الأخبار. وكان لدى "برنابى" راديو الشرطة - غير رسمى، وغير مصرح به فى يخته وكان ينصت إليه أحياناً، خاصة فى ساعات الليل المتأخرة حين لا يأتيه النوم، بدافع من الفضول الفطرى كما كان يسميه - كان "برنابى" محامياً وهاوى يخوت فى الوقت نفسه، ومقامراً ومشجعاً للرياضة و"زعيماً مدنياً" من الحين للآخر - وهكذا راحوا يستمعون لأخبار عن رجل غير معروف الهوية فى ذلك الحين، رآه حارس بوابة جسر جزيرة جوت وهو يلقى بنفسه فى

شلالات هورسشو فى ساعة مبكرة من ذلك الصباح، انتحار آخر! فى ذروة موسم شهر العسل السياحى، حين يأتى السائحون إلى الشلالات من جميع أنحاء العالم، اللعنة على حوادث الانتحار، هكذا خطر "لكولبورن"، مثيرة للاشمئزاز، هكذا أصبح عددها.. كم عددها فى العام الماضى وحده؟ ثلاث.. أربع؟ تلك التى تعرف بها السلطات، لا شك أن هناك المزيد، ولم يتم اكتشاف الجثث التى تكسرت.

قال برنابى فى اقتضاب إنه لم يعرف أحد الذين قفزوا فى الشلالات، لكنه يشعر بنزعة إلى إلقاء نفسه فيها أحياناً، ثم همس. "ولولا فضل الرب والحظ السعيد لا أكثر، لكنت ألقيت نفسك فيها" لكن "كولبورن" لم يشعر بذلك كان رجل أعمال، وكان يبيع الشلالات. يبيع فكرة الشلالات، ولا يبيع فكرة قفز شخص مجنون عصابى منحرف فى الشلالات.

لكن كانت حوادث انتحار الرجال هى التى تثير غضبه. كان "كولبورن" يعتقد أن النساء اللاتى يرمين أنفسهن يائسات لأسباب مرتبطة بكونهن إناثًا، وكأنه عيب خلقى بالولادة.. الأنثى. انتحار الإناث كان يستوجب الشفقة أكثر من الإدانة، كما تدين الكنيسة تلك الحوادث، ومعظم الحالات تكون شابة، من الفتيات المصدومات، الحوامل والمهجورات من عشاقهن، زوجات عوملن بصورة فيها إساءة أو تم هجرهن من أزواجهن.. أطفالهن ماتوا، ربما وبطريقة ما قتلن أطفالهن، أو كن مريضات نفسيًا، مخبولات، لم يكن أكثر من مجرد إناث، وفى ذروة حوادث انتحار الإناث الرومانسية فى منتصف القرن التاسع عشر، كانت كل الإناث اللاتى تنتحر من الشابات والجميلات، وكانت حوادثهن مأسوية.. على الأقل كما كانت تظهر فى الرسوم التوضيحية بالصحف، ولكن فى منتصف القرن العشرين تغيرت الأحوال وتغير الكثير، أصبحت حوادث الانتحار تقع لفتيات ونساء مثيرات للشفقة، وليس وريثات لثروات أو عشيقات لرجال أثرياء، ولم تظهر وسائل الإعلام موتهن على أنه رومانسى.

لكن الرجال! أولاد القحبة الأنانيين، لابد أنهم جبناء ويسلكون الطريق الأسهل للخروج. يلطخون سمعة الشلالات.. هواة استعراض.. انظروا، انظروا إلىّ! هأنذا.

لولا أن.. لولا أن "كولبورن" كان يعرف كيف يبدو الجسد حين يسقط من فوق الشلالات. بعد أن يصعد لسطح النهر، أحياناً بعد أيام، وأحياناً بعد أسابيع، على مسافة أميال مع تيار النهر.. عند البحيرة.

لكن الشلالات تمارس سحرها الناقم، الذى لا يضعف أبداً، إذا نشأت فى منطقة الشلالات، تعرف به، والمراهقة هى فترة الخطر، ومعظم سكان الشلالات القدامى يبقون بعيداً عن الشلالات.. محصنين، لكن إذا اقتربت منها كثيراً، حتى بدافع من الفضول العقلى، تصبح فى خطر: تبدأ فى التفكير فى أفكار غير أصيلة فى شخصيتك وكأن المياه الراعدة تفكر بالنيابة عنك، تسلبك إرادتك.

كان "كلايد كولبورن" يحب فكرة أنه ينشر هذه الأفكار كما قال "ديرك برنابى" ذات مرة، يجب أن تكون روحك عميقة غامضة لترغب فى تدمير نفسك، وكلما ازدادت ضحالتك، زاد أمنك.

قال "كولبورن" ضاحكاً: "سأشرب نخب هذا".

كانت الشلالات مفيدة فى شىء واحد: كسب النقود.

إذاً فهذه أخبار سيئة، وليست جيدة على أية حال، تلك التى يتلوها عليه موظفوه، جميع العاملين مشغولون بها. هناك المبجل "إرسكين" الذى اختفى، ومن كل الإفادات يبدو أنه هو الرجل الذى قفز فى الشلالات هذا الصباح، وعروسه.. زوجته منذ ما يزيد قليلاً عن اليوم، المرأة ذات الشعر الأحمر ذات الوجه المنمش الشاحب والسلوك الغائب عنه التركيز، كانت تبحث عنه فى الفندق، وآخيراً أبلغت أنه "مفقود"، الزوج والزوجة من تروى فى الطرف البعيد للولاية، وحجزا جناح "روزبد لشهر العسل" لخمسة أيام.

- "تزوجا بالأمس فقط.. بحق يسوع".

كان "كولبورن" متشككاً، لا يصدق، لديه ابنة عمرها اثنا عشر عاماً، وله أم تحبه كثيراً وتغفر له أخطاءه. وهو عاطفى فى مسألة النساء، وأغضبه أن رجلاً ـ دعك من كونه قسًا ـ تصرف بشكل أنانى كهذا فى شهر عسله.

- "على الأقل كان بإمكانه الانتظار حتى يصبح زوجاً لبعض الوقت.. يمنحها فرصة.. بعض الأسابيع، الشهور.. مثلما فعل بقيتنا، بحق يسوع".

وهو يتم تقديمه للأرملة العروس، مد "كولبورن" يده ليصافحها، كان يشعر بالتوتر كالزنبرك، وبحاجة ماسة لشراب سريع. أصابع المرأة الشابة باردة بين أصابعه، معدومة القوة.. أحس برغبة مفاجئة فى تدفئتها فى كلتا يديه "أهلاً! أهـ..لا يا سيدة "إرسكين"، أنا "كلايد كولبورن"، مالك "رينبو جراند". سمعت بمحنتك وسأصطحبك إلى قسم الشرطة، اتصلت بأسرتك، على ما أعتقد، وأسرة المبجل "إرسكين"، ورجاء أن تتفهمى يا سيدة "إرسكين"، أن فى ظل هذه الظروف الصعبة نرحب بك وبإقامتك فى "رينبو جراند" مع تحيات الإدارة، حتى.." توقف "كولبورن" فى خجل، كان سيقول حتى يعثروا على الجثمان ويتم التعرف عليه وإرساله إلى الديار، لكن لم يخبر أحد السيدة "إرسكين" بشأن الرجل الذى رمى بنفسه من فوق الشلالات، ثم أكمل ".. حتى ترحلى فى الوقت المناسب" وكأن الكلمات أجنبية عليه، أو لغز.

أثناء الرحلة القصيرة بالسيارة إلى قسم شرطة شلالات "نياجرا" فى شارع "ساوث مين"، كان "كلايد كولبورن" الجالس قبالة مقود سيارته الجديدة ـ سيارة بويك زرقاء زاهية بإطارات بيضاء الأطراف ونقل آلى، ومقاعد بيج ناعمة كفخذ امرأة ـ واعٍ لوجود الراكبة إلى جواره "آريا إرسكين"، الجالسة فى جمود بيديها فى القفازين مصفوفتين على حجرها، أحضرت "آريا" قفازًا أبيض جديدًا من حجرة الفندق، أخذ "كولبورن" يجاهد للتفكير فى شىء يقوله لها، الصمت بين البشر يخيفه، راح يفكر فى كيف سيتلو هذا الحدث البائس لصديقه القديم "برنابى". بحق يسوع!

الذهاب مع أسرتى إلى الكنيسة أفضل من هذا. فقط حين كان "كولبورن" يوقف سيارته قالت المرأة فى هدوء: "لم أتصل بأسرتى بعد، أو بأسرته.. لا شىء لدى أقوله لهم. سيسألون أين ذهب "جيلبرت"، ولماذا، ولا أعرف الإجابة".

أيتها المرأة الغبية، من أنت حتى أشملك بعدلى؟

صوت الرب يهزأ بها داخل جمجمتها، فى هذا المكان حيث يحدق فيها الغرباء، فى شفقة وريبة.

- "لكن كيف هذا عدل يا ربى؟ لماذا أستحق هذا؟"

انتظرت.. رفض الرب الإجابة.

مر وقت طويل على هذا، كم بدا بعيداً. كانت واقفة بذراعيها النحيلتين مرفوعتين فى وضع الصلب والتنورة الساتان البيضاء بأزرارها اللؤلؤية الكثيرة، وثنياتها وطياتها وطرفها المزخرف، تُركب عليها كأنها قميص المجانين، السيدة "ليترل" أصرت على الكورسيه، و"آريا" تكاد لا تقدر على التقاط أنفاسها، أتخذك يا "جيلبرت" زوجاً شرعياً لى، كانت عطسة كفيلة بتمزيق الكورسيه، والعرس.

فى قسم الشرطة كانت عروس الرجل "الذى سقط" هى الملامة كما هو واضح.

غسلت "آريا" وجهها، وغسلت فمها حيث ترك الذعر مذاق العملات المعدنية النحاسية، كم كان "جيلبرت" يشعر بالانزعاج لرؤية "ضفيرتها الفرنسية" كما كانت تطلق عليها أمها - التى لعنها الزمن، وقد انفكت. خصلات من الشعر تشابكت بفعل طقس نياجرا الرطب. رأت آريا فى حسرة أنها تبدو وكأنها أفاقت من نومها للتو. فى ذلك الفراش القذر.

لقد أثرت اشمئزازى.. حاولت أن أحبك.

بكلامى هذا أحلك وأحل نفسى من عهودنا.

فى هذا المكان الجديد غير الشخصى، ليس فى فخامة فندق شهر العسل، بل فى الحجرة القبيحة المضاءة بنور الفلورسنت حيث يخاطبها الغرباء فى إلحاح: "سيدة إرسكين" ومجدداً، وكأن هذا اسمها: "سيدة إرسكين؟ لدينا ما نريد إخبارك به، أرجوك أن تستعدى" يبدو أن الرجل المهذب من الفندق الذى نست اسمه قد اختفى وأصبحت وحدها الآن مع هؤلاء الغرباء، الذين عرفوا أنفسهم على أنهم ضباط شرطة وإن لم يكونوا فى الزى الرسمى، أحدهم على غير المتوقع كانت امرأة: "الرئيسة".. ثمة حاجة لشرطية أنثى للتعامل مع المجرمات والضحايا الإناث. كانت تلك فى منتصف العمر، وجهها كحد الفأس غير الحاد، وعلى شفتها العليا شارب باهت داكن، ترتدى سترة صوفية رمادية تناسب جسدها بأناقة. كانت المرأة تقول.. ماذا تقول؟ حاولت آريا الإنصات برغم الهدير فى أذنيها.

ربما سقط "جيلبرت إرسكين" فى.. ماذا؟ أين؟

- "فى شلالات هورسشو، كما أفاد أحد الشهود. نحو الساعة السادسة والنصف صباح اليوم".

سمعت "آريا" هذه الكلمات كل على حدة لكن لم تتمكن من تبين معناها وكان مع المرأة، مما يثير الدهشة، صورة جيلبرت التى كانت فى المحفظة. (كيف وضعت يدها على هذه الصورة الخاصة "بجيلبرت"، مثل التى مع "آريا" بالضبط وقالت "آريا" فى بطء: "ما كان زوجى ليخرج للتنزه بدونى، ربما هجرنى، لكنه ما كان ليتنزه بدونى. فمنذ أسابيع ونحن نخطط لهذه الرحلة، كان هو من خطط معظمها. وحدد الأماكن السياحية والمواقع الجيولوجية التى سنزورها، بل إنه حتى رقمها بالترتيب الذى سنزورها به".. وأضافت فى عناد: "يجب أن تعرفى "جيلبرت إرسكين" حتى تدركى أنه لن يقدم على شىء كهذا".

كانت المرأة ذات السترة الرمادية الصوفية، الربعة مربعة الأكتاف، تحاول ألا تجادلها، كما هو واضح، لكن كان الجدل يدور رغماً عنها.

– "نفهم هذا يا سيدة "إرسكين" لكن تم التعرف إلى هذه الصورة للسيد "إرسكين" بما يقارب اليقين من جانب الشاهد الذى رأى الرجل يقفز فى الشلال صباح اليوم، فى جزيرة جوت، بعد الوقت الذى قلت إن السيد "إرسكين" قد اختفى فيه من حجرة الفندق بقليل".

سألتها "آريا" فى استثارة: "هل قلت هذا؟ كيف أقول هذا؟ أنا واثقة من قولى إننى لا أعرف متى خرج، لا فكرة لدى عن الوقت، لم يكن الوقت يهمنى حين كنت نائمة.. لابد أن هناك مَنْ يكذب".

– لا أحد يكذب يا سيدة "إرسكين". لماذا قد يكذب أحد؟ لا نريد إلا مساعدتك"

– إذا كان زوجى رحل، فكيف ستساعدوننى فى هذا؟ كيف يمكنكم مساعدتى"

– بما أن زوجك رحل، وبما أن رجلاً قد شوهد عند شلالات هورسشو.. وهو يسقط فى النهر..

– "جيلبرت" لا يفعل شيئاً كهذا، أعرف ما تقصدينه، تعنين بـ (يسقط) أنه قفز. أعرف ما تعنينه. لكن "جيلبرت" لا يقدم على شىء يائس كهذا، إنه من رجال الرب".

– نفهم هذا يا سيدة إرسكين، لكن..

– لا تفهمين! لقد أدار جيلبرت ظهره لى، لكنه لن يدير ظهره للرب.

تكلمت "آريا" فى صلابة.. بدا لها أن هؤلاء الغرباء الجهلاء يتعمدون استفزازها، يريدونها أن تعترف بتورطها فى مصير "جيلبرت"، يريدونها أن تعترف.

قال أحد الضباط الذكور متنحنحاً: "سيدة "إرسكين"، هل خضت أنت وزوجك.. شجاراً؟"

هزت "آريا" رأسها: "أبداً".

– لم تتشاجرا فى أى وقت، أبداً؟

- ليس فى أى وقت، أبداً.

- هل كان غاضباً؟

- أتقول غاضباً؟ كان جيلبرت يحتفظ بسرية مشاعره، كان رجلاً يحافظ على خصوصيته لأقصى حد.

- هل بدا لك غاضباً؟ خلال الساعات السابقة على اختفائه"

حاولت "آريا" أن تفكر، رأت وجه زوجها المتشنج المتصبب عرقاً ثانية، أسنانه مطبقة فى تكشيرة كتكشيرة قرعة العسل فى عيد الهالوين. سمعت ثانية صرخة الوطواط التى أفلتت من بين شفتيه، لم تتمكن من خيانته.. فخزيه عميق كخزيها.

هزت "آريا" رأسها فى شمم.

- وغادر دون أن يترك لك رسالة، كما قلت.

- لا رسائل.

- ولا ما يدل على.. على سبب رغبته فى هجرك؟ أو لأين هو ذاهب؟

هزت "آريا" رأسها وهى تزيح عن وجهها الدافئ خصلة شعر، كانت تتصبب عرقاً.. تعرق مثل امرأة مذنبة فى استجواب لساعات وهى تشعر ببرودة قارسة، ترتجف، والآن وفجأة هذا المكان لا هواء فيه، دافئ للغاية. أمعاء الأرض تنفتح فى دفء غازى بخارى الطابع. رأت آريا وهى تبتسم ابتسامة دهشة أنها ترتدى القفاز الأبيض الكروشيه الذى منحتها إياه عمتها الكبرى لويز لتضمه لجهاز عرسها.

جهاز العرس! عضت "آريا" شفتيها محاولةً كتم ضحكتها.

- قبل رحلة شهر العسل إلى شلالات نياجرا، وأنتما تخططان للعرس، على سبيل المثال، ألم يظهر ما يوحى بـ.. عدم الاتفاق؟ تعاسة من جانب السيد "إرسكين"، أو من جانبك؟"

لم تنصت آريا لهذا السؤال الوقح. لا.

طالعها رجال الشرطة بعيون متفحصة محايدة، بدا لآريا أنهم يتبادلون النظرات مع بعضهم البعض، بمكر وفى الخفاء حتى لا تتبينها، بالطبع هم خبراء فى هذا.. فى مقابلة الأشخاص المذنبين.. أصبحوا مهرة فى هذا مثل ثلاثى من العازفين، ثلاثى من عازفى الآلات الوترية و"آريا" المغنية السولو، السوبرانو التى راحت تغنى بنبرات صوتية خاطئة.

- أصدرنا نشرة طوارئ عن زوجك يا سيدة "إرسكين". وخرجت فرق البحث على طول النهر على الجانبين بحثاً عن جثمان.. الرجل الذى سقط" سكتت المرأة ذات السترة الصوفية الرمادية ثم استطردت: هل تودين أن نخطر أسرتك الآن؟ وأسرة السيد "إرسكين".

تكلمت المرأة بصوت رقيق، لكن "آريا" أحست برغبة فى صفعها على وجهها الموحى بحب السيطرة.

قالت فى حدة: "سألتنى هذا السؤال كثيرًا.. لا، لست مهتمة بإخبار أحد، لا يمكننى تحمل تجمهر الأقارب حولى، وألقيت ذلك الكورسيه الملعون فى القمامة، لن أعود لهذا".

سادت فترة صمت قلق، هذه المرة كان واضحاً أن ضباط الشرطة يتبادلون النظرات المحملة بالمعانى.

- الكورسيه يا سيدة "إرسكين"؟ لا أفهم قصدك.

لأنها كانت هى نفسها محشورة فى كورسيه فلم تفهم كيف تخلت "آريا" عن الكورسيه الخاص بها.

- اختار "جيلبرت" أن يتركنى وحدى، وسأبقى وحدى.

لكن الشرطية كانت عنيدة بقدر عناد "آريا"، ولا يمكن ثنيها عما تريد.. قالت: "سيدة "إرسكين"، لا خيار أمامنا.. ستحتاجين إلى أسرتك لتخفف عنك ولابد أن نخبر أسرة السيد إرسكين على الفور. إنه إجراء متبع فى مثل هذه الحالات".

فى مثل هذه الحالات. كانت تلك اللحظة هى التى سقط فيها الكوب الكبير من بين أصابع "آريا" على الأرض، لتتناثر منه المياه ويتكسر إلى قطع صغيرة، أرادت "آريا" الاحتجاج على هؤلاء الغرباء الذين يلومونها ويشفقون عليها ويحاولون التلاعب بها، أرادت أن تقول إن هذه ليست مثل هذه الحالات".. لكن الأرض مادت تحت قدميها فجأة، ولم تتمكن من الاحتفاظ بتوازنها، لمع النور الفلورسنت أمام عينيها للحظة كالبرق، ثم لم تر شيئاً وإن بقيت عيناها مفتوحتين على اتساعهما.

أيتها المرأة الغبية لا تقنطى.. فعدلى هو رحمتى.

"أهلاً يا برنابى. حمداً لله أنك هنا!

كان يتصل من كابينة تليفون بالعملة من استقبال الفندق كان بحاجة للمساعدة، ولشراب أيضاً، للدعم المعنوى. كان "ديرك برنابى" هو الرجل المناسب للاستشارة فى مثل هذا الوقت العصيب. مجرد الكلام إليه ربما.. سل النصيحة من الخبير.. العزاء.. فى أية ساعة من النهار أو الليل، ابن الحرام المسكين يعانى الأرق منذ الحرب. يحب تلقى الاتصالات من أصحابه. يشعر الأعزب بالوحدة بنفس قدر إحساس المتزوج بها. «برنابى»، الأصغر بين أصحابه، أعزب وحيد، دائماً ما يحظى بالنساء، وبعضهن فتيات جميلات من فتيات الاستعراض بكازينو "إلم وود"، أو عارضات أزياء، ابن الحرام المحظوظ، لكن سينفد منه حظه ذات يوم.

كان "كولبورن" يتمنى لو كان قد أحضر زجاجته الصغيرة معه، فهو يتوق لشراب احتسوا بعض الشراب فى يخت برنابى ليلة أمس. "الفالكير". قارب جميل طوله أربعون قدماً، يلمع بالبياض، مربوط فى النهر قبل جزيرة "إيل جراند" مباشرة، على مرأى من بيت "برنابى" على الطرف الجنوبى الشرقى من الجزيرة. ولكن "برنابى" لا يعيش فى البيت القديم. "برنابى" مخمور قليلاً، يمزح قائلاً إنه السفينة الشبح الخاصة بالشلالات.. ما معنى هذا؟

كان "كولبورن" يقول: "المرأة المسكينة.. هى نزيلة بالفندق.. أرى أننى أتحمل مسئوليتها.. حتى تظهر أسرتها، يبدو أن زوجها انتحر هذا الصباح. "ديرك"، هل تسمعنى؟ إنه قس مشيخى".

على الطرف الآخر من الخط أطلق برنابى صوتاً محايداً.

- نحن فى قسم الشرطة، وهم يحاولون التحقيق معها، طمأنتها أنها ستبقى فى الجناح بقدر ما تحتاجه" توقف "كولبورن". راح يفكر.. شىء جيد لصورة الفندق، لكنه يؤدى عملاً خيرياً أيضاً، أراد أن يفهم "ديرك برنابى" هذا، فى دائرتهم كان "برنابى" معروفاً بالكرم، بل حتى الإنفاق ببذخ، كان يعير النقود وهو يعرف أنها لن تعود إليه أبداً، كان يتخذ موكلين يعرف أنهم لن يدفعوا له أتعابه أبداً، ويتولى قضايا يعرف أنه لن يربحها، أو لا يمكنه ربحها بجدارة، لم يكن" برنابى" مسيحياً لكنه يتصرف كما يجب على المسيحى أن يتصرف، مما جعل "كولبورن"، وهو مسيحى، يشعر بالضيق، وهكذا أراد "كولبورن" أن يعرف "برنابى" بشأن الجناح.. أضاف: "إنه جناح لشهر العسل، وليس رخيصاً". جذب هذا انتباه برنابى.

- لشهر العسل! لماذا"

- لأنهم كانا فى شهر العسل.. فقد تزوجا بالأمس.

ضحك برنابى. كان رد فعل كولبورن ناقماً.. "انتبه يا "برن"! اللعنة ليست هذه مزحة.. تُركت المرأة وحدها وهى فى حالة صدمة وتقول إنها لا تريد رؤية أسرتها، قلت لأساعدها لكن.. ماذا يجب أن أفعل بحق الجحيم؟"

- هل هى شابة؟ حسناء؟

- "لا" توقف "كولبورن" شاعراً بالمهانة ثم أضاف: "لكنها سيدة مهذبة".

كان الرد من طرف "برنابى" من المكالمة هو الصمت. لماذا يتصل "كولبورن" بصديقه "برنابى"، لماذا يرغب فى هذا منذ كان فى قسم

الشرطة، بلا شك لأنه يشعر بالاضطراب، ليلة أمس فى "الفالكير" خسر فى لعب البوكر ١٤٠٠ دولار وراح معظمه "لبرنابى". وقع على شيك لصديقه فى بهجة توحى بالروح الرياضية، لعب "كولبورن" بقوة وجدية لكن الورق كان ضده، كان الورق كله مع "برنابى". وسواء وزع "برنابى" الورق أو لم يفعل، كان يربح كل الأوراق، أشار أصدقاؤه إلى حظه الحسن، على مر السنوات، معظم الرجال فى دائرتهم كانوا يعرفون بعضهم منذ أوائل الثلاثينيات، من مدرسة "ماونت سان جوزيف" للصبيان فى شلالات نياجرا، كان "برنابى" أصغر من "كولبورن" ووين وفيتش وهويل بدفعتين، لكنه كان فى فرق المدرسة الرياضية معهم، فى كرة القدم الأمريكية وكرة السلة بالأساس، وحين كان يربح يصبح رابحاً كريماً، وحين يخسر، يصبح خاسراً كريماً، نادراً ما خسر، الأرجح أن أصحابه كانوا يشعرون ببعض الغيرة من نجاحه مع النساء، وكان مزواجاً، كما كان يحلو لهم أن يقولوا على سبيل المزاح، لكنه لم يكن يتزوج النساء أو يخطبهن ، بطريقة ما مر "برنابى" بعلاقاته بلا سوء، وظل صديقاً للنساء، أو هكذا كانت العادة.

منذ أيام مدرسة ماونت "سان جوزيف" و"ديرك برنابى" هو حافظ السلام، أطلق عليه أحد القساوسة هذا الاسم: "حافظ السلام". فى واقع الأمر كان "برنابى" كثير الغضب، لكن غضبه يمر سريعاً، وكان دائم التأمل وأوسع ذكاءً من باقى الصبية. وأعمق.. أكثر روحانية ربما، كانت "لبرنابى" عادة غريبة هى الاعتذار بصدق تشعر فيه بإثارة منبعها السعادة لأنك حينها ستعتبره هو المخطئ وإن لم يكن المخطئ، ويبدو أن من بواعث ألمه أن يرى أحداً لا يحبه أو ألا يحب أحد أصحابه صاحب آخر له، ماذا لو مات أحدنا؟ هكذا كان يقول "برنابى". وكان يعنى ما يقوله! كان رجلاً يريد لأصحابه أن يكونوا أصحاباً.. ويجعلك ترغب فى أن تسره، وهكذا وحتى الآن، فى زمن النضج، لم يتغير شىء من هذا. مرات عديدة فى السنوات العشرين الماضية يتصل "كولبورن" ببرنابى طالباً المساعدة، منذ سنوات قليلة حين أخرجت "إرما كلايد" من بيتهما، شرعت "إرما" فى إجراءات

الطلاق، وأعلنت أن السبب هو كفر "كولبورن". كفرا وكأن النساء يعنين أى شىء لكولبورن، لا يعنين شيئاً، بدا من المستحيل إقناع "إرما" بالعدول عن قرارها، لا يعنين شيئاً لكن النساء من أمثال إرما بطيئات فى المغفرة، لاذعات فى مغفرتهن. دخل "كولبورن" حالة من الحزن، وأقام فى جناح بالفندق وحاول ألا يرى موظفيه وهم يتغامزون ويسخرون من وراء ظهره، وراح يشرب كثيراً ويأكل كثيراً ويخسر النقود فى حلبة السباق لم يكن لدى النساء اللاتى يقابلهن وقت له حين لا تكون معه نقود ينفقها عليهن، وإن لم يكن عاهرات بالمعنى الحرفى لكن ربما كن كذلك، للصراحة لكنهن غير قادرات على البقاء مخلصات لقضية خاسرة، فى ثمانية عشر شهراً نزف ما يربو عن الخمسين ألف دولار دون أن يحظى بشىء منها غير طفح جلدى فى عانته وميل للتقيؤ على غير المتوقع، كان "كلايد" مريضاً مهموماً بالقلق أن يتحول أبناؤه ضده، وإن كان يعتقد أنه يحق لهم هذا، ابنة وابنان.. لا يستحق هؤلاء الأبناء.. إرما تسممهم بدموعها ومشاعرها المجروحة، و"كلايد" يحب أبناءه أيضًا، لكن لعنة الله.. (أقسم) إذا كان سيضطر للزحف على بطنه ليرجو طلباً للمغفرة، لن يفعل.. هذا يمزقه، يحطمه! وهكذا وذات ليلة عرى روحه المجروحة المتقرحة "لديرك برنابى"، وهو يعرف أن "برنابى" سيصحح الوضع، "لبرنابى" مكتب محاماة ناجح فى شلالات "نياجرا وبافالو"، بناء على قدرته على مساعدة المحامين الآخرين فى قضايا معقدة عليهم، أو قضايا خاسرة للصراحة. "برنابى" هو الرجل المنشود.. الرجل الذى تثق بأنه لن يفشى أسرارك، وهكذا ذهب "كولبورن" إلى "برنابى"، واعترف له بحالته. وأنصت "برنابى" وعلى الفور بدأ يتصرف. قال "لكولبورن" أن يفيق، وهكذا فعل "كولبورن" - إلى حد ما وقال "لكولبورن" أن يبتعد عن حلبة السباق فى "فورت إيرى بأونتاريو"، وأطاع "كولبورن" وقال له أن يتصرف.. "بدفء وإخلاص وكأنك تحبهم".. مع أسرته، وأطاع "كولبورن". وقضى "برنابى" بعض الوقت مع "إرما"، هما فقط.. مما أرضى غرور "إرما" كثيراً. وقال "برنابى" "لإرما" إن "كولبورن" يحبها كثيراً، وإنه اضطر لاختبار ذلك الحب، وإنه لن يؤذيها ثانية أبداً..

وهكذا مرت الأزمة بسلام. وهكذا تصالح السيد والسيدة "كولبورن". وأحياناً لا يعرف إن كان هذا لصالحه، لكنه يخمن أنه كذلك.. يجب أن يكون كذلك.

الزواج، الأسرة. ماذا يوجد بخلاف هذا؟ يجب أن تكبر. يجب أن تقبل بهذا.. سيجعل زواجه ينجح بسبب برنابى، يدين به "لبرنابى".. و"إرما" تشعر بالشىء نفسه.. إننا ندين فى بقائنا معاً لديرك برنابى.

والآن "كولبورن" راح يرجوه: "ديرك.. هيا تعال قابلنا. عند شارع "ساوث مين". سنوصل السيدة "إرسكين" إلى الفندق ونشرب قليلاً فى البار.. أقصد أنا وأنت، وليس هى".

بدا كأن "برنابى".. على الطرف الآخر.. قد تنهد.

- حسناً يا كلايد سأكون هناك بعد عشر دقائق.

فى الثالثة والثلاثين من العمر ويسير على الحبل كالبهلوان.. فوق هوة عميقة كعمق شلالات نياجرا.

كان يعرف.. كان من سلالة هؤلاء الأشخاص المتهورين المشوشين من القرن الثامن عشر. هؤلاء الذين يخاطرون بحياتهم لإبهار الجماهير بالسير على حبل مشدود فوق شلالات نياجرا المهلكة، أو ـ والأكثر جنوناً ـ القفز فى الشلالات فى براميل وقوارب كاياك والأجهزة منزلية الصنع من الاختراعات البارعة. انظروا، انظروا إلىّ! أهناك أحد مثلى قط؟

كان من سلالة أحد هؤلاء الأشخاص، جده سيئ السمعة الشهير "**ريجنولد برنابى العظيم**" الذى سار على سلك بطول ثمانمائة قدم فوق الشلالات الأمريكية فى يوم الاستقلال عام ١٨٦٩ ويُقدر أن عدد من شاهده يفوق الثمانمائة متفرج راحوا يراقبون ريجنولد برنابى العظيم فى نهم وهو معروف أيضاً بأنه قس من الرومان الكاثوليك من "جالواى"، وسجين سابق من "ليفربول"، إن لم يكن قد هرب من الحكم من تلك المدينة الساحلية وهو يعبر عبوره الخطير فى عشرين دقيقة تقريباً، حاملاً عوداً

من خشب البامبو بطول اثنى عشر قدماً مع علمين أمريكيين يرفرفان على الطرفين، وفى أثناء العبور فقدت النساء وعيهن، وولدت امرأة واحدة على الأقل، ومن المخاطرة التى أداها "ريجنولد برنابى" عشية عبوره، يبين أنه كان رجلاً نحيفاً وسيماً غجري الملامح فى الثامنة والعشرين من العمر برأس حليق وشارب متدلٍ ونظرة شرسة غاضبة مسرحية وعلى السلك كان يرتدى معطف ضابط اتحاديًا ـ معطفه ـ وسروالاً أسود من سراويل السيرك، وظهرت حركته الجريئة فى الصحف حتى سان فرانسسكو ولندن وباريس وروما، وفى المرة الثانية التى خاطر برنابى بحياته فوق الشلالات، فى يونيو ١٨٧١برعاية من منتجع شلالات نياجرا، جذب جمهوراً أكبر، والجديد فى تلك المخاطرة أن "برنابى" كان مربوطاً فى قميص للمجانين تمكن من تحرير نفسه منه فى منتصف الطريق فوق الشلال.. والجزء الدرامى فى العبور أن رياحاً قوية هبت فجأة من الشاطئ الكندى، وهطلت الأمطار، واضطر "برنابى" أن يجلس القرفصاء على الحبل و"فى يأس وبراعة كالقرد" كما وصف مراسل صحيفة التايمز اللندنية المشهد، تقدم من "بروسبكت بوينت" إلى جزيرة "لونا" فى أربعين دقيقة تقريباً، وفى عبور "برنابى" الثالث فى أغسطس ١٨٧٢ كان الجمهور أكبر، ويقدر بما يربو على الألفين على الشاطئ الأمريكى وحده، وعلى الأقل نصف هذا العدد على الشاطئ الكندى، وكان هذا العبور برعاية المتهور نفسه، حيث قيل إنه كان بحاجة لنقود لرعاية زوجته وطفله الرضيع، وفى هذا العبور الأكثر إثارة للجدل والحديث، من "بروسبكت بوينت" إلى جزيرة "لونا"، بالعبور على الشلالات الأمريكية، ومن جزيرة "لونا" إلى جزيرة "جوت"، بالعبور على شلالات "بريدال فيال"، كان "برنابى يرتدى" سروالاً حريرياً أحمر مرسومًا عليه رأسه الحليق ووجهه فى "ألوان الحرب" الخاص بهنود "الإروكويس" الشجعان، ومنذ بداية الحدث والطقس غير مستقر مضطرب، ارتفع الضباب من الشلال كثيفاً، وازدادت صعوبة رؤية العبور على الجمهور، مما أسهم فى عدم الرضاء العام وصدور تهم "التزييف"، وبدا أن المتهور أيضاً أقل ثقة فى نفسه وكان أنحف، وبدا أنه فقد جرأته

التى اشتهر بها فى شبابه، وفى الصيف الماضى، وبعد خمس وعشرين دقيقة من التقدم البطىء بوصة وراء بوصة على السلك، حدث شىء تسبب فى سقوط "برنابى" فى الشلال (وإن لم يتم القبض على أحد قط، قيل إن شاب غير معروف على الجانب الأمريكى أطلق حجراً من نبلة على المتهور وأصابه فى ظهره). ولرعب الجمهور، سقط برنابى قرابة المائتى قدم إلى المياه الفائرة عند منبت الشلالات، ولفرحة الجمهور، الذى راح يصرخ ويتدافع سعياً لرؤية أفضل، ظهر "برنابى" على صفحة المياه بعد دقائق قليلة وقد بدا "بلا أدنى خدوش" كما قال الصحفيون. وعمت "فرحة غامرة شاملة" الجميع والمتهور الحليق صاحب الرأس المطلى بالدهانات، يسبح نحو جزيرة "لونا".. وبدأ المنقذون يساعدونه حتى وهو على مسافة عشرة أقدام من الشاطئ، ثم فجأة جذبه تيار سفلى قوى إلى المياه الخضراء السريعة، وادعى شهود العيان أنه قد تم شفطه لأسفل، وصاح "برنابى" وداعاً يا عزيزتى! قبلى الطفل عنى!" لزوجته الشابة التى وقفت تراقبه بلا حيلة من على رصيف على جزيرة "جوت"، وطفلهما البالغ من العمر ثمانية شهور بين ذراعيها. سيصبح الرضيع ذات يوم والد ديرك برنابى.

لم يتم العثور على جسد "ريجنولد برنابى" المحطم المصاب بالكدمات، والذى لم يتم التعرف عليه لولا الدهان على رأسه الأصلع ووجهه، إلا بعد عدة أيام.. حين شوهد أخيراً على بعد خمسة عشر ميلاً أسفل النهر شمالى ليوستون، وأُخرج إلى الشاطئ وتم دفنه دفناً مسيحياً، على حساب اتحاد سكان شلالات "نياجرا"، الذين أخذتهم الشفقة ببرنابى وأسرته الشابة.

بعد الإعلان عن مصير "**ريجنولد برنابى العظيم**"، تم منع السير على الحبل فوق شلالات نياجرا رسمياً.

- أيها الأحمق المسكين.. تخليت عن حياتك، حياتك الغالية، نظير ماذا؟!

على جدار فى بيته فى "لونا بارك" كانت توجد صور لمتهورين كثيرين مثل جده، كثيراً ما كان "ديرك برنابى" يتأملهم، يبتسم للشارب الكبير الذى يمنح الوجه النحيف المفعم أملاً، هيئة الذكورة المختالة، وفى إحدى الصور كان "ريجنولد برنابى" يبتسم فى جمود، وترى أسنانه فى حالة سيئة، ملتوية حائلة اللون، وفى صورة أخرى "برنابى" يرتدى سترة صوفية أنيقة وسروالاً، زى لاعب السيرك، واقفاً واضعًا فى خصره، وأصابعه على مؤخرته وتعبير مختال على وجهه، ها هنا ترى "برنابى" رجلاً ربعاً ضئيلاً مفتول العضلات، بعضلات قوية فى الجذع والفخذين والساقين ـ قرأ "ديرك برنابى" أن جده كان يبلغ من الطول خمسة أقدام وست بوصات، ووزنه أقل من مائة وخمسين رطلاً وقت وفاته ـ وترى من الصورة أنه ساخن الطباع، كثير الحركة، يملؤه الكبر، وتطارده النساء، ومصيره أن يموت شاباً، أجل، كان شجاعاً، لكن ما الفائدة؟

من يريد أن يكون متهوراً وميتاً؟

هو ـ ديرك برنابى ـ ليس مثل جده من الناحية البدنية فى شىء. كبر حتى بلغ من الطول ستة أقدام وبوصتين وهو ما زال فى سن المراهقة ، وأحب هذا! أن يكون طويلاً بين أقرانه ومعظم الكبار، منحه هذا الفرصة لأن يترأس أقرانه ووفر له المناعة التى سيعتمد عليها طوال حياته، وكأن له رصيد بنكى لا ينضب. لم يكن داكن البشرة كالغجر، بل فاتح البشرة، ولم يكن أحول العينين، كان يكره الشارب واللحية، فهذا يجعله يشعر بالحك فى جلده الحساس. كان رجلاً وسيماً، لماذا نخفى الحقائق؟ كان يرى نفسه غير واسع الشجاعة، ولم يخاطر أبداً بحياته ليتفادى هذه الحقيقة.

– أفضل الحياة، شكراً لك.

وفى جيش الولايات المتحدة حين كان عريفاً فى المشاة لعامين، فى إيطاليا معظم الوقت، كان عليه إجبار نفسه على إطلاق النار على العدو، ولم يجرؤ على القول إنه ـ يوماً ـ قد أصاب أى هدف بشرى، دعك من أن يكون قد قتل.. فى اللحظة الحاسمة، وهو يطلق بندقيته كان يغمض فى

العادة عينيه، أحياناً لم يكن يسدد البندقية، وأحياناً لا يجذب الزناد. (بعد أعوام، سيعرف "ديرك" أن هناك نسبة كبيرة إلى حد مدهش من الجنود تصرفوا بهذه الطريقة، لا يريدون أن يقتلوا أحداً، ولكن وبطريقة ما تم الانتصار). وأُصيب ديرك برنابى، وقضى عدة أسابيع فى مستشفى الجيش قريباً من "نابلس"، وحصل على ميداليات تثبت تصرفه بشجاعة فى الحدث المرتبك الفوضوى المعروف باسم الحرب العالمية الثانية، وكان مسروراً أن الحلفاء تفوقوا على المحور الشرير المجرم، وتكلم بالطبع بصدق عن جنون هتلر وموسولينى وتوجو، وما يعنيه أن ملايين البشر قد انجذبوا إلى جنونهم، ولكن خبرته الفعلية فى الحرب كانت لا تعدو كثيراً كونها إحساسه براحة تامة أن الحرب انتهت وأنه على قيد الحياة.

- "هذا ما افتقدته يا جدى.. الحياة العادية".

شىء لم يكنه.. الحب من أول نظرة. لم يعتقد فى هذا، لم يكن مؤمناً بالرومانسية والمصادفات العاطفية.. "المعانى" التى تنبعث من لا شىء، لم يكن بالطبع مؤمناً بالقدر، وكان مقامرًا بطبيعته ويعرف أن القدر فرصة تحاول التلاعب بها لتحقيق مآربك منها.

لكن أول نظرة يلقيها على "آريا إرسكين" تركت انطباعاً، المرأة ذات الشعر الأحمر فى فستان الفتيات البسيط برفقة صاحبه "كلايد كولبورن" الذى كان يقودها كأنها مريضة فى فترة النقاهة أسفل سلم قسم شرطة شلالات نياجرا. شدت المرأة ذراعها من يد "كولبورن" بخشونة كأنه قال شيئاً أزعجها، أو كأنها قادرة على السير دون مساعدة من رجل، شكراً لك.

حين رأى "كولبورن برنابى" ناداه فى لهفة، وقدمه للسيدة "آريا إرسكين" التى راحت تحدق فيه للحظة شملها التوتر قبل أن تغمض عينيها قليلاً (هل خطر للمرأة المسكينة فى تلك اللحظة، وفى حالة الارتباك المحيطة بالحزن، تساءلت إن كان "برنابى"، الغريب، هو نفسه زوجها المفقود؟) رأى السيدة "إرسكين" امرأة مفترسة غير جميلة متغطرسة كإحدى السيدات مستقيمات الظهر حمراوات الشعر فى بعض لوحات

"وينسلو هومير" بألوان الماء، معلمة المدرسة المتزمتة واقفة أمام السبورة بجانبها منفصلة عن عيون المراقبين المعجبة.. الفتاة ذات الشعر الأحمر فى فستان برتقالى راقدة على العشب تقرأ رواية، لا تدرك بوجود المراقبين، وجه هذه المرأة المنمش يلمع وكأنها نظفته بقوة، شعرها حائل اللون الصدئ مرسل فى خصلات هزيلة حول رأسها وكأنها سلمت أمره، وهلالان من العرق تحت إبطيها يظهران من فستانها القطنى الشفاف، وجوربها مترهل عند الكاحلين، وعيناها مبتلتان، كثيرتا الحركة حمراوان، لا تبدو كالمرأة الحزينة التى توقع "ديرك برنابى" رؤيتها.. وأكثر إثارة للاهتمام. وبينما كلايد كولبورن يتكلم فى توتر عما قالته الشرطة لها، وما يجرى وما سيجرى، نظرت المرأة ذات الشعر الأحمر فى حدة بعيداً، وأعارت أقل القليل من اهتمامها لكولبورن، ولصديقه "برنابى" الذى استطال فوقها عالياً بشعره الكتانى وسترته الجميلة الأنيقة الزرقاء السماوية ذات الأزرار النحاسية الشبيهة بأزرار ثياب البحّارة والسروال الأبيض الأنيق المكوى جيدًا، وهيئة الرجل الذكورية التى تبدو كأنها من مجلة "سكواير". هو، "ديرك برنابى"، الذى تعشقه النساء، وبعضهن نساء ثريات متزوجات سعيدات فى زواجهن، وتتجاهله هذه المرأة! ابتسم رغماً عنه، قاطعت "آريا إرسكين" كولبورن لتخبره أنها لا تنوى العودة إلى الفندق بعد، وأنها فى طريقها إلى شلالات نياجرا. إذا لم يكن "كولبورن" ليوصلها فسوف تستقل تاكسياً، أو قد تسير.. قيل لها إن السلطات تعتقد أن زوجها "سقط" فى النهر هذا الصباح، وأن فرق الإنقاذ هناك.. وهناك فريق من حرس السواحل عند النهر، عليها أن تكون هناك لتتعرف على الجسد، إذا كان الرجل "الذى سقط" هو المبجل "إرسكين".

قال "كولبورن" شاعراً بالصدمة: سيدة "إرسكين"، ليست هذه بالفكرة السديدة، لن تحبى البقاء هناك، ليس إذا.."

– إنهم يبحثون عن رجل.. عن جثة، لا أعتقد أنه "جيلبرت" لكن يجب أن أكون هناك، حاولت السيدة "إرسكين" أن تتكلم بنبرة من تذكر الحقائق

لكن "برنابى" تبين فى نبرتها رعشة وقفت أمام الرجلين ورأسه يميل إلى جانبه رافضة مواجهتهما بعينيها.. "يجب أن أكون شاهدة إذا.. إذا عثروا على الرجل، يجب أن أعرف".

اعترض "كولبورن" قائلاً: "لكن يا سيدة "إرسكين" الأفضل أن تنتظرى فى الفندق حتى.."

- لا.. لا يوجد ما هو أفضل، إذا كان "جيلبرت" قد مات فيجب أن أعرف".

نظر "كولبورن" إلى "ديرك برنابى" نظرة ذات مغزى، وكان الأخير يحدق فى المرأة حمراء الشعر العنيدة بنوع من الافتتان، لم يعرف كيف يراها.. كف عقله عن التفكير.. خطرت له الفكرة الغريبة، إنها صغيرة للغاية، وزنها لا يزيد على التسعين رطلاً، يمكن للرجل أن يرفعها ويضعها فوق كتفه ويسير بها هكذا، دعها تحتج! سمع نفسه يقول: "لا أعتقد أنك عرفت اسمى يا سيدة إرسكين، أنا صديق "كلايد": ديرك برنابى، أنا محام، وأقيم على مسافة ميلين من "لونا بارك" قريباً من الشلال، سأفعل ما بوسعى لمساعدتك يا سيدة "إرسكين". أرجوك حملينى همك"، كانت تلك لفتة غير متوقعة، لم يصدق "برنابى" أنه قال هذا بعد ساعة من قوله، حدق فيه "كولبورن" بفم مفتوح، والتفتت إليه المرأة ذات الشعر الأحمر مقطبة الجبين وهى تضيق عينيها وكأنها لا تتذكر وجوده. فتحت فمها لتتكلم لكنها لم تتكلم. كان أحمر الشفاه على شفتيها قد اختفى، وشفتاها الرفيعتان مشققتان جافتان، وفى اندفاع، شد برنابى على يدها.

كانت يداً صغيرة نحيلة، صغيرة كيد العصفور، لكن داخل القفاز الأبيض الكروشيه كانت الأصابع ساخنة.. متلهفة.

أرملة عروس الشلالات

السهر

لسبعة أيام وسبع ليالٍ وهى فى سهر.

لسبعة أيام وسبع ليالٍ وأرملة/عروس الشلالات تراها عند شلالات "نياجرا"، على جزيرة جوت أو على الشاطئ.. انضمت لفرق البحث التى تبحث عن الرجل "المفقود"، وصاحبت فرق بحث حرس السواحل فى دورياتهم مع تيار النهر إلى ما وراء "ليوستون ويونجستاون"، وإلى مصب النهر فى بحيرة "أونتاريو". وفى قارب حرس السواحل كانت "آريا إرسكين" هى المرأة الوحيدة، وأحس الرجال مع وجودها بالتوتر. كانت محمومة.. غارقة فى غشيتها، كانت عيناها الحمراوان تشخصان فى أمواج النهر العريضة الرقراقة وكأنها فى أية لحظة سترى جثة رجل، وسينتهى بحثها، وبصوتها الأجش الواهن قالت مراراً لمن يسمعها: "أنا زوجة "جيلبرت إرسكين"، وإذا كنت سأتحول إلى أرملة "جيلبرت إرسكين" فيجب أن أكون حاضرة حين يتم العثور عليه، لابد أن أرعى زوجى" تبادل ضباط حرس السواحل النظرات المتألمة.. كانوا يعرفون كيف سيبدو جسد الرجل بعدما سقط من فوق الشلالات.

- لماذا ورطت نفسى مع هذه المرأة؟ إنها مجنونة.

الأسوأ أن "آريا إرسكين" بدت لا تعرف من يكون "ديرك برنابى". لا شك أنها ربطته بكلايد كولبورن صديقه، لكن "ديرك" تطوع لخدمتها طالما

احتاجته، واتصل بمكتبه وتكلم إلى مساعدته: أوقفوا كل العمل الآن. قولوا لعملائنا إنها حالة طوارئ كانت سلطات شلالات "نياجرا" تعرف "برنابى" جيداً وكانوا ممتنين لوجوده، فلا أحد يعرف ماذا يفعل "بآريا إرسكين"، التى رفضت التصرف كما أراد لها الآخرون أن تتصرف، حتى والديها لم يتمكنا من المجادلة معها.

سمع "ديرك برنابى" أحد الحوارات المثيرة للشفقة: "آريا"، عزيزتى عودى إلى الفندق لتكونى مع أبيك ومعى.. عزيزتى إنك متعبة ومريضة. انظرى إلى فستانك! وشعرك! "آريا". *ارجوك اسمعى كلام أمك*".

لكن "آريا" باستيائها وعنادها لم تسمع.

- أردتم تزويجى بجيلبرت إرسكين، فعلت، وهكذا أصبحت زوجته، وهذا ما تفعله الزوجة يا أمى! ارحلا واتركانى وحدى".

كان دوراً تلعبه، كذا خطر على بال "ديرك" وهو لا يوافقها عليه، أصبحت حاجّة الشلالات، كما أطلقت عليها الصحافة.. أرملة - عروس الشلالات، ولعل هذا صحيح، فليس أمامها خيار.

أثناء أيام السهر شوهدت "آريا إرسكين" واعية بالنهر وكأنها مأخوذة به، واعية لصفحته المتغيرة دوماً والعكرة أبداً كشعلة لهب خضراء، لكنها كذلك لا تدرك وجود ما يحيطها، كانت على وعى مبهم بالآخرين حولها، وفى أحيان كثيرة كانت لا تجيب حين يخاطبها أحد، كانت لا تأكل إلا الطعام الذى يجلبونه لها ويرجونها أن تأكله.

حين أفاقت "آريا" من نومها المتعب بدت مذهولة شاخصة العينين، وضعيفة واهنة كطفلة أفاقت من كابوس. لكن خلال ثوانٍ تستجمع إرادتها الحديدية، وهذا ما أبهر "ديرك برنابى" فيها، إذ لم يقابل يوماً شيئاً كهذا فى حياته، إذ تحدد لنفسها أين هى ولماذا. *الكابوس خارجها، فى العالم؟ ولابد أن تغزوه حيث يكون، أو فى اللامكان.*

كانت حقيقة كشفت عنها الصحافة فى لهفة، أن كل صباح من صباحات سهرها، كانت "آريا إرسكين"، أرملة ـ عروس الشلالات، تظهر عند شلالات "نياجرا" فى السادسة صباحاً، وفى العادة كانت تمضى مسرعة، وكأنها تخشى التأخر، وفى تلك الساعة من الصباح كان جو الشلالات بارداً رطباً، يلفه الضباب. ومن بين سحابات الضباب المرتقى مثل البخار، ترى "آريا" تمضى على الدرب الذى تقدم عليه الرجل الذى لم يتم التعرف عليه والذى رمى بنفسه فى شلالات هورسشو صباح الأحد ١٢يونيو تمضى فى مشمع مطر أصفر، معتمرة قبعة أعطاها لها مالك قوارب "عذراء الضباب"، وتعبر جسر المشاة الضيق إلى جزيرة "جوت" وهى تحدق باهتمام فى المياه الخضراء سريعة التدفق الماضية تحتها وتمرر يدها ذات القفاز الأبيض على السور، وتتحرك شفتاها (هل كانت تدعو؟ تخاطب زوجها المفقود؟) وفى المشمع الأصفر البراق تبدو المرأة كأنها زهرة محتارة يحيط بها الضباب الذى لا ينضب المنبعث من معين الشلال العظيم.

("يرتقى دوماً كأرواح الملعونين الساعين للخلاص" هكذا قالت "آريا لديرك برنابى"، فى إحدى اللحظات النادرة التى لاحظت وجوده فيها، ابتسامتها الثابتة الحزينة بث فيه رعشة).

تحت المشمع كانت "آريا" ترتدى فساتين صيفية، وقمصانًا قطنية بألوان زاهية، عليها زخارف زهرية، وفى قدميها جوارب سرعان ما يبللها الرذاذ، كسرعة ابتلال شعرها ووجهها، لم يبد عليها أنها تلاحظ هذا.. وكان مراسلو الصحف والمصورون، مع مرور الأيام، يتعقبونها فى سيرها، وإن كان من على مسافة، كما اجتهد "ديرك برنابى" لتحقيق هذا، كان يكره الطفيليين، كما يراهم، وإن كانت "آريا" نفسها تبدو لا مبالية بوجودهم، كان تركيزها منصباً على النهر وحده، وحين ينادى عليها شخص غريب.. "سيدة إرسكين عذراً، سيدة إرسكين".. "أهلاً.. سيدة إرسكين؟ أنا من صحيفة "نياجرا جازيت"، هل لى أن أتكلم إليك لخمس دقائق؟".. كانت

وكأنها لا تسمع، لكن بقدر ما رأى "ديرك" لم تجتهد لإخفاء وجهها أو للتنكر وكان هذا يسير عليها، وفى بعض الصور الفوتوغرافية الملتقطة للأرملة ـ العروس، كان وجه آريا الصغير العظمى المبتل من الرذاذ، يلمع شاحباً وناعماً كالرخام الأبيض، فتبدو كأنها تبكى أبداً، كما يبكى تمثال، وعلى وجهها علامات التصميم والسكينة.

كان "ديرك" يعرف أن "آريا إرسكين" لا تبكى، كانت امرأة بارعة.. تدخر دموعها، ستحتاج إلى كل الدموع القادرة على استجماعها.. قريباً.

كان يتم العثور على الجثث فى نهر "نياجرا" خلال أسبوع فى العادة، إذا غرقت كان تأثير التيبس الرمى يرفعها.. المسألة مسألة وقت لا أكثر.

ذات مرة على جزيرة جوت، تقدمت "آريا" إلى "تيرابين بوينت" على طول الجانب الشرقى من الطريق، وهو الذى وقع عنده الانتحار، وهناك وقفت بلا حراك طوال نصف ساعة وحيدة، حزينة الهيئة فى مشمعها المبتهج على نحو متنافر مع الموقف، تحت تأثير سحر شلالات هورسشو الراعدة، ومع تقدم الصباح تصبح هالة الشلالات الزجاجية الخضراء أكثر وضوحاً. أقواس قزح باهتة تظهر وتتوهج فى الضباب. الشلال بهديره عند "تيرابين بوينت" صاخب لدرجة أنه يلج إلى كيانك ويخرج منك الأفكار المتماسكة السليمة، لا يمكنك تذكر اسمك فى هذا الضجيج، ولا ترجو أن تذكره، تشعر بنفسك قاب قوسين أو أدنى من جوهر الوجود.. طاقة مطلقة خالصة، لا اسم لها، بكرٌ لم تمسسها يد. والصور الفوتوغرافية الملتقطة لأرملة ـ عروس الشلالات عند "تيرابين بوينت"، وهو موقع الانتحار، رائجة للغاية، وإن كانت تُظهر المرأة الحزينة من الخلف فى معظمها، ورأسها ووجهها مختفيان تحت ستار قبعة المطر عريضة الحواف. "ديرك برنابى" نفسه كان يقف على بعد ياردات قليلة خلفها على الطريق، يراقبها فى توتر، منتبهاً لأية حركة أو إيماءة مفاجئة طائشة، إذا اقتربت "آريا" كثيرًا من السور، ومالت عليه بجذعها، يتخذ "ديرك" خطوة سريعة إلى الأمام، كان مستعداً للإمساك بها وإحاطتها بذراعيه وإبعادها عن الخطر، كان

يفهم سحر الشلالات البدائى الناقم.. بدأ يشعر بالانجذاب المشئوم الذى شعر به منذ سنوات، وهو مراهق، حين كانت مشاعره غضة، أقرب إلى السطح، مشاعر الذوبان تلك، مشاعر الخسارة والذعر، مثل الإحساس بالوقوع فى الحب ضد إرادتك.

الشلالات!

لا تصدق أنها قادرة على قتلك، وهى روح خالصة.

بعد سهرها فى "تيرابين بوينت"، كانت آريا تلتفت كشخص يسير ببطء وتردد فى نومه العميق، وتتقدم إلى الطرف الغربى من الطريق، عابرة شلالات "بريدال فيال" وجزيرة "لونا"، وتمر بجزيرة "بيرد" وجزيرة "جرين"، وإن لم يقع الانتحار على هذا الطرف من جزيرة "جوت"، لكن تتباطأ "آريا" عند السور، تحدق ذاهلة جائعة فى النهر هناك، وكأنه، وبطريقة ما، سيظهر من تحته جسد زوجها المفقود، يبدو الكثير ممكناً حين تحدق فى النهر وترى الأمواج العنيفة المضطربة تزحف إليك فى مسارها وكأنها ممتدة إلى أفق لا نهائى. هناك، عند منبع النهر، يرقد المستقبل وخلفك ترى الماضى، فقط اللحظة العابرة سريعة الزوال التى تمر بك هى اللحظة الحية.. حية بداخلك.

ثم عاودت آريا "إرسكين" عبور جسر المشاة، غير واعية لحارس البوابة فى كشكه الذى حدق فيها فى رهبة وتوجس ـ كان الرجل الذى شهد الانتحار، وخشى أن تعرفه، ومرت بالشلالات الأمريكية، ولفترة طويلة راحت تحدق فى المياه الواثبة عند قاعدة الشلال، والتفتت لتتبع المسار بعينيها مع مجرى النهر، متوقفة من حين للآخر وعلى حين غرة لتميل على السور وتفقد نفسها فى المياه البيضاء الفائرة، وبهذه الطريقة على امتداد الصباح راحت أرملة ـ عروس الشلالات تتقدم إلى برج مراقبة "نياجرا" و"مرسى" "عذراء الضباب" حيث يتجمع السائحون، وإلى موقع كهف الرياح ودوامة الشيطان، والذى قد يشغل انتباهها لفترة قد تمتد لساعة.

دوامة الشيطان! سيفكر "ديرك برنابى" فيما بعد أنها وكأنها كانت تعرف.. كأنها أحست.. الرجل الميت بالداخل.. تقبض عليه قوى الطرد المركزى.. دوامة من دوامات جهنم.

كان تقريباً يشارك المرأة فى انبهارها المرضى بالنهر، إمكانية أن يلفظ النهر فى أية لحظة جثة الرجل الميت، تمنى ألا يحدث هذا فى وجودها، فلا يمكنه التحمل.

أراد أن يقف بالقرب منها عند السور، وأن يحيطها بذراعه، أراد لنفسه هذه الرعاية الضارية، هذا الولاء، لم يصدق أن المبجل "جيلبرت إرسكين" يستحق هذا، كره الرجل، أمقته، وإن كان ميتاً، كان يخلب لب المرأة، لكنه يفكر *لقد تجاوزت الألم. تجاوزت الحب وتجاوزت أى رجل.*

***

اقترب مصورٌ بجرأة من "آريا إرسكين" وهى تميل على السور فوق الدوامة، وتقدم "ديرك برنابى" ليتدخل، فأخذ الكاميرا من يد الرجل وألقى بها فى النهر. وحين اعترض الرجل وفمه مفتوح كفم السمكة، قال ديرك فى هدوء: "ابعد مؤخرتك هذه عن هنا، وإلا ستسقط وراء الكاميرا".

قال المصور إنه يتبع "أسوشيتد برس"، وإنه سيبلغ عما جرى للشرطة.

قال ديرك برنابى: "أنا الشرطة، محقق فى ثياب مدنية لحماية هذه السيدة من المضايقات. ابتعد عن هنا وإلا قبضت عليك".

وضرب بظهر يده صدر المصور، مجبرًا إياه على التراجع.

***

لم يفهموا ما حدث، كما أخذوا يقولون، ليس "جيلبرت"، وليست "آريا". كأن شيئاً رهيباً ـ شيطانياً وقع لهذين الشابين ما إن تزوجا، وبدءا شهر العسل فى شلالات نياجرا "لماذا تتصرف "آريا" بغرابة هكذا يا سيد "برنابى"؟ لماذا لا تقضى أى وقت معنا؟" كذا سألت السيدة "ليترل"، وهى سيدة ناعمة الجسد فى أواسط العمر ذات وجه خشن وعينين خائفتين،

وبدت لديرك برنابى قريبة من ابنتها، والمبجل "ليترل" ينظر أمامه فى كآبة وهو يداعب ذقنه. لابد أنهما اعتقدا أن "برنابى" من موظفى فندق "رينبو جراند"؛ لأنه بدا شريكاً لكلايد كولبورن، وعساهما اعتقدا أنه من مسئولى شلالات نياجرا، ووظيفته هى مساندة أقارب الأشخاص المفقودين والمنتحرين، أحس "ديرك" بالأسف على "آل ليترل"، والضيق لآريا، التى راحت تعاملهما فى وقاحة، وفى لحظة ما سره أن يرى الابنة لا تشبه أيًا من الأبوين، الفتاة ذات الشعر الأحمر "أصلية".. كان يعرف!

قال فى رفق لآل ليترل إن "آريا" فى حالة صدمة، وإنه لا يجب عليهما اعتبار سلوكها الغريب معهما مقصوداً، قال لهما إنه فى حياته شهد تصرفات مشابهة عن آخرين.. حين يكابد شخص ما خسارة مفاجئة لا رجعة فيها، وبلا أية تحذيرات (كان يفكر فى فتاة أو اثنتين تورط معهما عاطفياً، ولم تتقبلا أن يهجرهما "ديرك برنابى"، وأثارتا الضجة حول ما فعله، كان يفكر أيضًا فى أمه، التى انكبت على نفسها بعد فقدانها لجمالها فى الخمسينات من عمرها، ورفضت أن تخرج من بيتها فى الجزيرة لمجرد مقابلة أصدقائها القدامى، بل حتى لكى ترى أولادها!) "يتصرف الناس بتطرف هكذا بعد صدمات متطرفة فى عنفها" هكذا قال ديرك.. "فى الوقت الحالى ليس من المعروف على وجه اليقين إن كان زوجها هو الذى شوهد.. عند الشلالات، وهكذا فآريا معلقة، لا تعرف" تبين من تعبير وجهى المبجل "ليترل" والسيدة "ليترل" الخائف أنهما لا يريدان أن يعرفا على وجه الدقة ما يقوله، وأنهما يعقدان الأمل على ألا يكون زوج ابنتيهما قد مات أو ببساطة "اختفى" وأنه لن "يعاود الظهور"؟ كم كان حالهما مثيرًا للشفقة! أحس ديرك بدفقة من التعاطف معهما، فاليأس الكامن فى رغبتهما الاعتقاد بوجود أمل، ودعواتهما، دعواتهما الهادئة البسيطة سيقابلها رب لا يغفل ولا ينام، قال "ديرك" برفق وكأنه يعرف "آريا إرسكين" أكثر مما يعرفها حقاً: "الأفضل لابنتكما، فى هذه الظروف، أن تنشغل بأى نشاط على ما أعتقد، بدلاً من الانتظار فى قلة حيلة بلا مشاركة منها فى الفندق".

وكأن قدر المرأة الانتظار، هذا ما خطر على بال "ديرك".

اعترضت السيدة "ليترل" قائلة: "لكن يا سيد "برنابى" آريا لا تنام فى الفندق، بقدر علمى.. أين بريك هى؟ إنها لا تأكل أية وجبات هنا، وقالت لنا ولأسرة "إرسكين" إنها لا تقدر على قضاء الوقت معنا، وأن ليس لديها وقت، ووالدا "جيلبرت" قلقان للغاية، لكن "آريا" لا تقابلهما رأيتها فى معطف المطر البشع الذى ترتديه فى.. أهى "بروسبكت بارك"؟ لكن حين ناديتها ركضت مبتعدة، وهناك المصورون والصحفيون فى كل مكان، والإذاعيون يريدون إجراء مقابلات معنا".. ارتجفت السيدة "ليترل" واستطردت: "هل رأيت ما يكتبونه عنها يا سيد برنابى؟ فى "تروى" انتشر خبرها فى الصحف باسم أرملة - عروس الشلالات، طفلتنا الوحيدة! تزوجت السبت الماضى فقط" وهى تتكلم راحت السيدة "ليترل" تنظر إلى المبجل "ليترل" لتستمد منه المساندة، لكن زوجها بدا غير منصت إليها. رأى "ديرك" الرجل المسكين مرتبكاً خاملاً، جسده فى أواسط عمره وكأنه فقد هويته، وكأنه ذاب، كان يرتدى معطفًا داكنًا غير مميز بصدارى عريض وقميصاً أبيض منشيًا وربطة عنق بليدة "جيدة"، عيناه وراء نظارته ثنائية البؤرة تتحركان فى أركان الحجرة .. كانا فى حجرة "آل ليترل" فى فندق "رينبو جراند"، ومر "ديرك" ليتكلم إليهما فى جناح آريا، وكأنه يسعى للحصول على تأكيد بمكانه، وما يعنيه مكانه، رق له قلب "ديرك". فها هو رجل ألف "السلطة"، ومن دون "السلطة" كان لا هوية له كأنه علم منصوب فى هدوء لا تحركه الرياح، قالت السيدة ليترل: "سيد برنابى، هلا أخبرت "آريا" أننا نفكر فيها على الدوام؟ وأننا قلقان عليها؟ ونتمنى أن تكون بخير، حين ينتهى هذا، وأن تعود معنا؟ أن تعود إلى.. البيت؟"

إذًا السيدة "ليترل" تعرف أن زوج ابنتها توفى، هذا ما خطر على بال ديرك.

علامة جيدة.

لكن حين غادر ديرك السيد والسيدة "ليترل"، تقدم المبجل "ليترل" إلى الردهة ليحدثه حديث الرجل للرجل: "سيد برنابى، هل قلت إنك.. لا.. إنك لم تكن تعرف؟ لم تكن تعرف جيلبرت؟ لم تكن تعرفه، هذا واضح.. لم تكن تعرف إذًا أن "جيلبرت" كانت لديه هذه العادة الغريبة، غير الصحية، واهتمامه بـ.. ما أسماه.. الحفريات؟ الهياكل العظمية الصغيرة للقواقع والضفادع التى يُعثر عليها فى الصخور؟ اعتاد القول إن عمرها أكثر من ستة آلاف عام، ولماذا هذه الأشياء بالغة الأهمية لمن يزعمون أنهم علماء، ما دورها فى إثبات خلق الرب، وتاريخ الأرض.. لا أعرف؟! هل تعرف يا سيد "برنابى"؟

هز "ديرك" رأسه فى تهذيب أن لا.. لا يعرف.

- "إننى لست عالماً سيادة المبجل، بل محامياً".

قال المبجل "ليترل" مقطب الجبين: "ربما أراد زوج ابنتى أن ترافقه "آريا" فى حملة ما بحثاً عن هذه الأشياء.. الحفريات.. فى البحث عنها فى قيعان الأنهار والأخاديد، وابنتى التى تتمتع بنوع من العناد رفضت الذهاب معه فى شهر العسل.. هذا ما أفكر فى أنه قد حدث، هذا ما أتمناه، أليس هذا ما حدث؟ هذا كل ما حدث؟ سيد "برنابى"، ما رأيك؟"

غمغم "ديرك" برنابى للرجل العجوز قائلاً إنه لا يعرف.. لا يعرف ماذا يعتقد.

***

رأى "ديرك" أن "آريا إرسكين" تريد تحاشى والديها قدر الإمكان، ووالدى زوجها أيضاً! المبجل والسيدة "إرسكين" بدا كأنهما سيقفزان على الشاب حين يريانه، وكأنهما حيوانان قارضان جائعان. سرعان ما يقول لهما إنه لا يحمل أخباراً عن ابنيهما، لم يكن من شرطة شلالات نياجرا أو حرس السواحل، وكان حذراً فى شرحه لهما، بل مجرد مواطن عادى يحاول المساعدة فى الأزمات، لكن "آل إرسكين" لم يسمعاه، وسأله المبجل

إرسكين: "هل هناك أى أخبار عن ابنى؟" وفى صوته شىء من العتاب، وحين قال له "ديرك" لا، وإنه لا يعتقد هذا الآن، قال المبجل إرسكين: "لكن لماذا؟ هناك رجلٌ مفقود وزوجته مصدومة مذهولة تجعل من نفسها فرجة علنية، ولا توجد أخبار؟ لا أفهم".

كان السيد والسيدة "إرسكين" فى نفس عمر السيد والسيدة "ليترل" تقريباً، فى أواخر الأربعينات أو أوائل الخمسينات، لكن يبدو عليهما التقدم فى العمر أكثر والخدر وكأنهما نائمان. كانت السيدة "إرسكين" سيدة هادئة خامدة المظهر ذات وجه مستطيل نحيف كوجه "جيلبرت إرسكين" فى صوره الفوتوغرافية، لكن لا تتمتع بملامح الذكاء المشاكس العنيد، الذى كان يخيم على وجه ابنها، والمبجل "إرسكين" شخص قوى صوته وكأنه يرن من منبر، ويملأ الكنيسة متوسطة الحجم. وفى حجرة الفندق كان صوته مرتفعاً لا يريح "ديرك برنابى"، وكان عليه مقاومة الرغبة فى وضع يديه على أذنيه حين يتكلم، كان "ديرك" يشعر أيضاً بالتهديد فى عدوانية الرجل: "سيد برنابى، تلك الأشياء التى يكتبونها فى الصحف! حتى فى صحف بلدتنا! وهنا فى صحيفة "الجازيت وبافالو نيوز".. مسئولون جبناء لا يجرءون على ذكر أسمائهم يخمنون أن "جيلبرت" هو الرجل الذى رمى بنفسه فى شلالات هورسشو، بينما لا يوجد أى دليل على الإطلاق! هذا تشهير يا سيد "برنابى". أرجوك قل هذا لأصدقائك".

اعترض ديرك على استحياء، فهم ليسوا أصدقاءه.

– أيًا يكن ما يقولونه عن ابننا فهو ليس صحيحًا، ما كان "جيلبرت" ليقدم على شىء كهذا.. أن يرمى بنفسه فى الشلال". راح المبجل "إرسكين" يتكلم فى استخفاف، كان رجلاً نحيفاً متوسط الطول وأقصر من "ديرك برنابى" بعدة بوصات، لكنه بدا طويلاً يعلوه فى طوله، وشرساً فى سخطه، عدسات نظارته تلمع، ورذاذ يتطاير من ركنى فمه. وخمن "ديرك" أن "جيلبرت إرسكين" هجر هذه الحياة بأوامر من أبيه المبجل، دون أن يعرف أيهما بهذا، *للهرب من غضب الرب.. ها هو الرب!*

قال "ديرك" فى هدوء وفى عينيه نظرة اعتذار للسيدة إرسكين: "أحياناً يدهشنا الناس بتصرفاتهم.. أشخاص كنا نحسب أننا نعرفهم تمام المعرفة".

قال "المبجل إرسكين" فى غلظة: "أجل، لكن ليس ابننا. "جيلبرت" ليس من الناس".

لم يكن لدى "ديرك" جواب على هذا.

– ما كان جيلبرت لينهى حياته بنفسه. أبدًا.

حدق ديرك فى كآبة فى البساط القرمزى الفاخر.

– أتوقع أن تكتب هذه الصحف تصحيحات.. اعتذارات..*لا يمكن أن يفعل "جيلبرت" هذا أبدًا*.

ترك "ديرك" ـ فى تردد ـ "آريا إرسكين" نائمة فى المقعد الخلفى بسيارته، وأوقفها عند طرف بيته فى "لونا بارك". الفتاة ذات الشعر الأحمر (أصبحت "آريا" ضعيفة وهشة أثناء السهر، وأصبح "ديرك" يواجه صعوبة الآن فى التفكير فيها على أنها امرأة ناضجة بالغة) وقد رفضت الدخول إلى بيت "ديرك" لتغتسل وتنام. رفضت مصاحبته إلى فندق "رينبو جراند" هى الأخرى تخشى هؤلاء الكبار، هذه غريزة البقاء.

وحين غادر "ديرك" حجرة السيد والسيدة "إرسكين" فى الفندق، كانت السيدة "إرسكين" هى التى رافقته إلى الباب، وضغطت على يده فى اضطراب، وكانت أصابع المرأة رطبة لكن قوية على نحو مدهش.. قالت: "سيد برنابى.. ديرك.. لا أعرف من تكون أو لماذا أنت عطوفٌ هكذا على "آريا".. وعلينا؟ لكن أريد أن أشكرك.. باركك الرب. أيًا يكن ما حدث "لجيلبرت".. ورفعت عينيها للحظة خاطفة لتواجه عينى "ديرك" وعيناها تلمعان فى رعب.. "كان هو الآخر يشكرك".

غمغم "جيلبرت" بكلمات تعزية، أو شفقة.

كم يكره الانتحار! ابن الحرام الأنانى الذى خطط لهذا.

سار مسافة نصف الميل الذى تفصله عن بيته فى "لونا بارك". راح عقله يتصور أشياء! إنه رجل يتمتع بشهوات غنية وخيال خصب وأحيانًا كان يعيبه أنه يضخم من بعض الأحداث والشخصيات على نحو مفاجئ، كأنها صور مكبرة على شاشة، بعدها قد تتضاءل هذه الصور إلى أحجام بالغة الضآلة، وربما تختفى.

وهكذا وجه إليه هذا الاتهام.. كثيرًا على امتداد حياته القصيرة بطول ثلاثة وثلاثين عاماً. "وكأن الذنب ذنبى، لكن كيف؟" حقاً لم يفهم "ديرك".

رفضت مصاحبته إلى داخل بيته، للنوم نومًا ملائمًا، أو على سرير، لم تخاطبه مرة واحدة باسم "ديرك".. أو حتى السيد برنابى. كانت لا تعرف اسمه الملعون.

كان يرى "آريا إرسكين" نائمة فى سكينة فى مقعد سيارته "اللينكولين كونتينينتال" الخلفى، فتاة نحيفة بجلد رقيق مصاب بالكدمات وفم يسيل منه اللعاب، وركبتين مرفوعتين إلى صدرها الهزيل، وأظافر متآكلة، وشعر أحمر بحاجة ماسة إلى الغسيل، ويقول لنفسه فى غضب لا، إنك لا تقع فى حبها.. لا.

- عذرًا.. سيد برنابى.. وجدها حرس السواحل.

ليس *وجده*. *وجدها*.

أحس "ديرك" بالامتنان؛ لأن "آريا إرسكين" لم تكن موجودة لتسمع هذه الملحوظة الفظة التى قالها أحد عناصر دورية شلالات نياجرا.

كانت منتصف صباح ١٩ يونيو.. الأجراس تدق: يوم الأحد.

سبعة أيام وسبع ليالٍ مرت فى تيار يلف الرأس.

فى وقت الاكتشاف كانت أرملة عروس الشلالات غير نائمة، لكنها ذهبت إلى دورة مياه السيدات فى "بروسبكت بارك".

قال ديرك شاعرًا بالغثيان: "بحق يسوع! أين؟"

- فى الدوامة.

دوامة الشيطان! تلقى تحذيرًا مسبقًا على هذا.

أيام طويلة من البحث غير المثمر فى النهر وحتى بحيرة "أونتاريو" والعودة إلى شلالات نياجرا، وطوال الوقت والجسد فى أعماق الدوامة محبوس فيها، على بعد أقل من ثلاثة أميال من شلالات هورسشو، سرى جسده مع التيار وشفطته الدوامة، وحبسته فيها، دوامة الشيطان ظاهرة طبيعية فائقة للعادة بقدر الشلالات نفسها، حوض من المياه الدوارة هائل الحجم فى مياه الشلال، بارتفاع مائتى قدم، تدور فيه المياه الفائرة بسرعة جنونية، وتبقى الأشياء التى تسقط فيه، بمختلف أحجامها، تدور لأيام وأسابيع، ونادراً ما يبقى جسد محبوس لفترة طويلة كالفترة التى ظل جسد إرسكين محبوساً خلالها، لكن سبق أن حدث هذا.

شُفطت الجثة تحت صفحة النهر، وظلت مختفية عن الأعين التى تطل من الشاطئ، وراحت تدور وتدور وتدور لسبعة أيام وسبع ليالٍ داخل الدوامة.

لم يعد "ديرك" يشعر بالكراهية نحو المنتحر، ولم يشعر بالغيرة منه.. تمنى أن يكون المسكين قد مات قبل أن يلج جسده إلى الدوامة.

- آريا، لا يمكنك فعل هذا.. تراجعى.

- سأفعل. لابد أن أفعل.

- آريا، لا.

تكلم "ديرك" بفظاظة كأنه أخ كبير يتكلم لعقت "آريا" شفتيها الرفيعتين المشققتين، كان جلدها رقيقاً كالورق فوق عظام وجهها، وبدا أن أية إيماءة مفاجئة كفيلة بتمزيقه.

- لكن لابد أن أفعل.

كان دوراً تلعبه، هذا ما خطر على بال "ديرك". وستلعبه إلى النهاية.

لم يكن أمام السلطات من خيار إلا أن يوافقوا، وباعتبارها الأرملة المحتملة للمتوفى، كان يحق "لآريا إرسكين" رؤية الجثة على الفور وأن تحاول التعرف عليها.

على امتداد تيار النهر، وعلى الشاطئ بقرب دوامة الشيطان، تجمهر عدد من الناس، كان هناك أكثر من المراسلين الصحفيين والمصورين المعتادين، سمح عمال الطوارئ فى تردد لآريا بالاقتراب من الجثة، وعلى بعد عشر ياردات، فكت آريا نفسها من قيد ذراع "ديرك برنابى" التى تمنعها من التقدم وتقدمت فى خطوات تقارب الهرولة. سُحب الغطاء الذى يغطى الجثة، ما هذه الرائحة؟ اعترى وجه الأرملة نظرة عجب طفولية، كانت الجثة جثة "طافية" كالمعتاد. لم يُحضِّر أحدٌ الأرملة لهذه التجربة، ولا حتى "ديرك برنابى" الذى لم تواته الجرأة ولا الشجاعة على أداء هذه المهمة.

كانت بقايا "جيلبرت إرسكين" البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً منتفخة بغاز الأمعاء على نحو مخيف، تكاد لا تتعرف فيها العين على الشكل البشرى. تحول الجسد الذى كان نحيفاً إلى جثة منفوخة كالبالون، عارية، بلا شعر، وقد انفصل عنها أصابع اليدين والقدمين، لسان داكن منتفخ يخرج من فم مبتسم ابتسامة غريبة وفك سفلى ساقط، كانت العينان بيضاوين، بلا قزحية، وبلا جفون، وكان عضوه الذكرى منتفخاً هو الآخر، مثل برقوقة انفجرت، أما الأكثر بشاعة فهو أن الطبقة الخارجية من الجلد تقشرت عنه وظهرت الطبقة المحمرة البنية، تعلوها الشعيرات الدموية المتفجرة، وتصاعدت من الجثة رائحة أسوأ من رائحة ثانى أكسيد الكبريت، صاحت آريا فيما بدا كضحكة، ضحكة طفلة مشاكسة يعتريها الخوف والسخط.

تعرفت إلى زوجها، كما أدعت، من "الابتسامة الغاضبة" للجثة ومن خاتم العرس الذهبى، الذى يضاهى خاتمها، والذى انتفخ من حوله الإصبع المسود إلى أضعاف حجمه الطبيعى.

- أجل، إنه جيلبرت.

تكلمت فى همس حينها فقط فقدت الأرملة/ العروس قدرتها على التحمل، وقوتها. سبعة أيام وسبع ليالٍ من السهر انتهت. دار بؤبؤ عينها لأعلى فى رأسها وكأنها دمية كادت تسقط على الأرض لولا ـ وبينما ينعى مصيره ـ تلقفها ديرك برنابى بين ذراعيه.

العرض

فجأة اختفت من الشلالات، ومن حياة "ديرك برنابى".

- حمداً لله! يا له من كابوس.

كانت ذكرى تؤجج من أرقه.. كطير يأكل بقايا الجثث والطرائد هائل الحجم.. أسود الريش يمزق أحشاءه، ما كان يصدق أنه بهذا الضعف.. بعد كل شيء ذهب إلى الحرب، ورأى مشاهد قبيحة.. مرت به أوقات كان إحساسه بالغثيان والدوار يغلب عليه، وليست الذكرى، بل عاطفة الذكرى، وهو يلعب الجولف مع أصحابه فى ملعب نادى "إيل جراند"، وهو يبحر بقاربه على صفحة النهر.. وأدرك أن سعادته كانت فقط نتاجاً للفرصة.. للحظ.. فكم من الملايين غير "ديرك برنابى" وأقل حظاً منه حياتهم مؤلمة، شنيعة، أو انتهت قبل أوانها. رأى الآن الجسد المنتفخ حائل اللون على ضفة النهر والفتاة حمراء الشعر الطائشة تبتعد عنه قبل أن يوقفها وتكاد تقفز إلى الأمام لتأخذ ما لها.

ندمت على هذا.. كما افترض.

ليس حباً، ليست نوعى المفضل. لم يسمع منها منذ ذلك الحين ـ بالطبع لم يسمع ـ ماذا يتوقع، لا يتوقع شيئًا ـ ما إن تم التعرف على الجثة وانتهى السهر؛ انتهى دور ديرك برنابى فى المأساة. رأى "آريا إرسكين" تأخذها الإسعاف إلى المستشفى، فى حالة انهيار، لكن تم استدعاء أسرتها واعتنت بها منذ حينها. سيتم شحن الجثة إلى "تروى: حيث يجب أن تبدأ جنازة ومراسم دفن الراحل المبجل "جيلبرت إرسكين" على الفور.

"حادث"، هكذا سيطلقون عليه.. على الأرجح، الشاب المتهور المهتم "بالاستكشاف العلمى" "سقط" فى نهر نياجرا، ستتكتم الصحف المحلية على ما جرى، سيرى الطبيب الشرعى أنه "سوء حظ" فى غياب دافع واضح قوى للانتحار؛ إذ لم يترك المُنتحر رسالة..

لم يذهب إلى "تروى" من قبل، قط. مدينة بلا شىء خاص يميزها، على بعد ثلاثمائة ميل إلى الشرق على طول نهر "موهوك"، تقع بعد ألبانى.

ليس حباً، كانت هذه حقيقة.. إذا كان "ديرك برنابى" قد رأى "آريا إرسكين" فى مناسبة اجتماعية ما، كانت نظرته ألا فوقها دون توقف.. حين سأله أصحابه عنها، راوغ "ديرك" فى الإجابة، إلا أنه شدد على ألا صلة بينه وبين المرأة منذ البحث، وأن ما بدر منه كان تلقائياً ولا شىء هنالك أكثر من هذا، لم تشكره قط.. لم يبد عليها أنها رأته قط. قال "كلايد كولبورن": قالت لى إنها ملعونة، وبتلك النظرة على وجهها ما كنت لأجادلها فيما قالت".

ملعونة؟ لم يسأل ديرك عن هذا، كان يوزع أوراق اللعب، وهو فعل تؤديه يداه الماهرتان ببراعة، إلا أنه فجأة أسقط إحدى أوراق اللعب، وسقطت على الأرض، ابتسم أصحابه لما حدث ولم يقولوا شيئاً. فى تلك الليلة كان لعب البوكر عند تيلور وين، على النهر ربح ديرك ٢١٠٠ دولار وأعادها إلى أصحابه.. لا يريدها. قال إنه سئم البوكر. كان يعرف هؤلاء الرجال منذ عشرين عاماً وأكثر.. "باظ فيتش"، و"ستروتون هويل"، و"كلايد كولبورن"، "ووين". كانوا كالأخوة بالنسبة إليه، لكنه لا يهمه إن لم يرهم ثانية أبدًا.

لست مريضًا بالحب.. ليس برنابى! يمر بعينيه على الصحف والمجلات، محدقاً فى الصور والعناوين، كان يعرف أن هذا يثير غثيانه، لكنه لم يستطع المقاومة.

سهر أرملة عروس الشلالات
سهر الأرملة العروس لسبعة أيام انتهى بمأساة

إخراج جثمان القس (٢٧ عامًا
من تروى) شلالات نياجرا
مفقود منذ سبعة أيام
تبحث عنه العروس

- ١ -

لايف، تايمز، ساترداى إيفينينج بوست.. كلها نشرت تحقيقات متعاطفة، ولم تستخدم كلمة انتحار فى أى موضع منها.

لم ينتبه ديرك كثيرًا للتحقيقات نفسها، كانت الصور هى التى شغلته، قطب جبينه حين رأى نفسه فى إحداها. شخص يصعب تمييزه، محاط بالظلال، يمكن من الصورة تمييز "ديرك برنابى" إذا كنت تعرفه، كانت له هيئة بدنية خاصة، مشهد جانبى وسيم فظ، شعر ناعم يرتفع عن جبينه على شكل تموجات هزازة لامعة. فى إحدى صور الصحف كان ديرك غائماً وكأنه صُوّر وهو يحاول منع المصور من التقاط الصورة، و"آريا إرسكين" فى معطف المطر وقبعتها واقفة عند السور، واقفة كالتمثال.. **امرأة "تروى" ذات التسعة وعشرين عامًا تنضم للبحث عن زوجها فى شلالات نياجرا**. كم بدا هذا غريباً لديرك، أفعال وانطباعات البحث الكثيرة تقلصت وتلخصت فى عبارات بسيطة. ولا صورة من الصور عرضت آريا إرسكين كما يذكرها ديرك.

أصبحت أرملة/عروس الشلالات أسطورة من أساطير النياجرا، لكن لا أحدًا سيتذكر اسمها.

لم يكن يومًا طيبًا للسيدة "برنابى"؛ أم "ديرك" كانت فى الثالثة والستين من العمر.

- إنك لا تزورنى أبدًا يا "ديرك". وكأنك تتحاشانى.

ضحكت السيدة "برنابى" فى قسوة ذلك الصوت المألوف لابنها كمعول ثلج يطعن الثلج. كانت المرأة العجوز تعرف تمام المعرفة أن ابنها يتحاشاها، وأنه ـ ولكى يظهر أنه لا يتحاشاها ـ لهذا يذهب إلى الجزيرة أكثر بكثير مما كان يذهب لو كان لا يريد أن يتحاشاها.

- عزيزى "ديرك"! أمك تعرف، وتغفر.

"كلاودين برنابى" تعيش وحيدة فى إيل جراند مع حارس البيت فى "قصر" من ثلاث وعشرين حجرة كان والد ديرك قد بناه عام ١٩٤٢، وقد أصابه الثراء من الاستثمار فى التجارة المحلية والعقارات، بيت "برنابى"، على مساحة ستة فدادين من الأراضى المطلة على النهر، كان نسخة مصغرة من قصر ريفى إنجليزى فى سوراى، مبنى من الحجر الجيرى الوردى الداكن على هضبة مدورة تطل على قناة شيبيوا ـ وهى تواجه أونتاريو بكندا ـ التى تخرج من نهر نياجرا، وفى الأيام المشمسة كانت نوافذه الطويلة المهيبة تلمع بألق الحيوات الغامضة التى تدور داخله.. وفى طقس شلالات نياجرا التقليدى كان الحجر الجيرى يشبه الرصاص، وألواح السقف المنحدرة تستقر ثقيلة فوق البيت ومثل قصور العشرينيات الأخرى فى الجزيرة كان يحمل اسماً رومانسياً مبتذلاً: "شالوت" هرب "ديرك" من "شالوت" فى سن الثامنة عشرة إلى جامعة كولجيت وكلية الحقوق فى كورنيل، ولم يعد قط إلى شالوت ليعيش لفترة طويلة فيه لكن أمه حافظت على حال حجرته القديمة فى استعداد دائم، كأنها مقام، وفى الواقع أصبحت الآن مجموعة حجرات، شقة أعيد تصميمها وتأثيثها بأناقة، توفى والد "ديرك" فجأة، بسبب نوبة قلبية، قبل اثنى عشر عامًا،

عام ١٩٣٨وبدأت أمه فى حالة تراجع غير متوقعة عن العالم بعد وفاته بقليل.

أكدت الأم لديرك مرات كثيرة أنه هو - وليس شقيقتاه الكبريان المتزوجتان - الذى سيرث "شالوت". بالطبع سيعيش فى "شالوت"، وسيربى أولاده فيه، وإذا كان سيحدث هذا يوماً - كذا فكرت السيدة "برنابى" بمنطق لا يشوبه الخطأ - فلماذا لا يحدث الآن؟ لماذا لا يتزوج ويستقر مثل جميع من فى سنه؟ ستستمر كلاودين فى الإقامة فى شالوت، فى "جزئها" من البيت، وسيقيم ديرك وأسرته فى الجزء المتبقى، وهو قطعاً كبير بما يكفى. هناك النهر، والمرفأ والقارب السريع الذى لم يعد يستخدمه أحد، والقارب الشراعى الذى أحبه ديرك وهو صبى، كم سيحبه أبناء ديرك. سيصحبهم أبوهم فيه على صفحة النهر، ويعلمهم الإبحار..

- "إلا أننى لم أتزوج بعد يا أمى، ولم أخطب حتى" كان ديرك محرجاً من بيان هذه المعلومة.. "إنك تنسين".

قالت كلاودين فى برود: "لا يا ديرك.. لا أنسى أبدًا".

أصبحت كلاودين أمًا تداعب ابنها، لكنها فى الوقت نفسه تعاتبه بحزم، قد تقول أشياء لديرك لا يجرؤ مخلوق غيرها على قولها له ويتحملها، ويستمر فى حبه لها.

أصبحت عنكبوتًا جميلاً غريب الحال فى شبكة حجراتها، تنتظر فى شالوت.

منذ زمن بعيد عام ١٩٠٧ كانت "كلاودين برنابى" امرأة شابة تلج لأول مرة مجتمع بافالو، وحسب موضة تلك الحقبة كانت تتمتع بجسد ريان وخصر ضيق وقوام شبيه بالساعة الرملية وشعرها أشقر بطبيعته ووجهها طفولى، وشفتاها شقيتان، تزوجت من رجل أعمال من شلالات نياجرا يدعى فرجيل برنابى، الابن (بالتبنى) لأسرة ميسورة الحال من شلالات نياجرا. ومثل معظم النساء الجميلات الثريات بدأت تفقد جمالها الشهير

وإن حاولت لعام أو عامين أن تبقى "بشكل حسن" ربما فات الأوان، أو ربما صارت تمل "الشكل الحسن" بالطبع ملت من الدين، إذا لم تكن مراسم يوم الأحد فرصة "لكلاودين برنابى" لتعرض نفسها على جمهور معجبيها، فلا فائدة من الذهاب. وكأرملة شابة نسبيًا كان لها أصدقاء كثيرون من الرجال، ومن الرفاق، ومن العشاق، لكن أحدًا منهم لم يستمر أكثر من شهور قليلة، وفى أوائل الخمسينات من عمرها صارت مهووسة بشكلها، وأثر السن على جلدها الجميل الرقيق، ولسنوات فكرت فى شد الوجه، وأرهقت أسرتها بمخاوفها، إذ ماذا لو حدث ما يسوء فى العملية؟ وماذا لو لم تكن النتيجة جيدة؟ لم يكن لصالح أبناء كلاودين أن يطمئنوها أنها ما زالت امرأة جميلة، وإن كانت فى الواقع امرأة جميلة، وفى منتصف العمر، لكن كلاودين رفضت العزاء "أكرهه هذا.. أكره نفسى.. أكره النظر فى المرآة لأرى نفسى" لأن "كلاودين" تعرف ما يجب أن يطل عليها من المرآة، ولم يعد يطل عليها.

لكن ثمة ما يثير الحسرة القلبية هنا، هذا ما خطر على بال "ديرك". بعد أن كانت أمه يوماً اجتماعية، أصبحت منعزلة عن العالم، إذا قبلت الدعوات إلى بيوت الأصدقاء القدامى، والأندية الخاصة، وإيل جراند، وبافالو، وشلالات نياجرا حيث كانت وزوجها الراحل عضوين بارزين لعقود، كانت تشتكى من أن أحدًا لا يراها: "ينظر الناس إلىّ لكن ليس إلىّ. ولا أحد يرانى حقاً".

نواح طفل، فى فم امرأة ناضجة.

اعترضت شقيقتا "ديرك كلاريس" و"سيلفيا".. لم تكن "كلاودين" غير مرئية بالنسبة إليهما، أو لأحفادها. ومن سمت الملل على وجه "كلاودين"، ومن سماع ما تقوله، تفهم أن الرؤية بالعين لا تعنى شيئاً لها.

اشتكت "كلاريس" و"سيلفيا" مُر الشكوى "لديرك". تتذكران كيف وهم أطفال، لم تهتم أمهما كثيرًا بأداء دور الأم لهما، وكيف تولت المربيات ذلك الدور.. وإن كانت "كلاودين" قد استمتعت بصحبة ابنها ديرك، الصبى

الوسيم القوى الصالح صاحب الطباع العذبة، وقالت شقيقتاه فى اشمئزاز: "إنه انتباه الرجال الذى تفتقده أمى. فبالنسبة لها، كل شىء جنس".

قال "ديرك" لنفسه سرًا لا، بالنسبة "لكلاودين" فليس كل شىء ـ ولم يكن كل شىء ـ جنسًا، بل محض صلف وكبرياء.

كثيرًا ما أحس بالذنب، وبأن أمه تفضله على شقيقتيه بما لا يدع مجالاً للشك، كانت تعطيه النقود والهدايا خلسة، وكان هذا أمرًا مسلمًا به وهو فى فترة المراهقة. حتى وهو شاب فى العشرينات، حين تباهى بكونه ينفق على نفسه بنفسه..

وفى أواخر الخمسينات من عمرها، وبعد أن زحفت عليها حالة من الاكتئاب؛ قررت "كلاودين" أن تقوم بعملية شد وجه فى عيادة بافالو، وبعدها أصبح جلدها الرقيق مصاباً بالندوب والانتفاخ لأسابيع، وكانت عيناها حمراوين من الدماء، والجانب الأيسر من وجهها مجمدًا لا تعبير فيه، ولم تعد تجرؤ على الابتسام أو إبداء المشاعر، فنصف وجهها فقط هو الذى ستظهر فيه الانفعالات، "من الموتى الأحياء! هذا ما تحولت إليه. من الخارج والداخل" هكذا قالت فى مرارة، وإن كان يشوب أسلوبها نوع من الرضا.. "هذا عقابى، كان فرجيل ليضحك قائلاً: هل ظننت أنك ستتزوجين ثانية؟ هل اعتقدت أن أى رجل سيحبك ثانية؟ لست أكثر مما أستحق، امرأة عجوز تتصابى".

عرف "ديرك" أن الجراحة لا رجعة فى مفعولها تضررت الأعصاب و"تأذت" الأنسجة فى وجه "كلاودين" ووراء أذنيها بشكل دائم. ووقعت على وثيقة تنازل عن حقها فى رفع قضية سوء ممارسة من جانب الأطباء.

ثم جاءت لعنات المرض.. التهاب القصبات الهوائية، والأنيميا، والإرهاق، أى إرهاق! وإن كانت "كلاودين" تمقت أى نشاط من أى نوع، كانت أحيانًا تشعر بإرهاق لا يمكنها معه ارتداء ثيابها بنفسها، وكثيراً ما نامت اثنتى عشرة ساعة متتالية، وبعد أسابيع من محاولة إقناع "كلاودين"

لديرك أن يجلب معه إلى البيت شابة حسناء (حسب أنه) قد يتزوجها، أرسلت "كلاودين" "إيثيل" للدور السفلى لتقول إن "السيدة برنابى مريضة، وترسل اعتذاراتها".

والآن نادرًا ما تغادر "كلاودين" شالوت، ونادرًا ما تدعو زائرين، أو حتى أقارب وكان أحفادها صاخبين ويثيرون أعصابها، وابنتاها فى شجار دائم، مملتين، ورأى "ديرك" أنها تزرع الجراح وكأنها قيمة روحية.. أصبحت شهيدة غرورها، الذى فسرته على أنه قسوة الآخرين فى منع تزلفهم لها، والذى اعتبرته أمراً مسلمًا لفترة طويلة فيما سبق قالت فى غيظ: "إننى أحسد النساء غير الجميلات، النساء الجميلات، الجميلات فحسب.. لا يعرفن ما سيفتقدن، وأنا أعرف".

فى نهاية يونيو مضى "ديرك" بسيارته إلى الجزيرة ليقضى عطلة نهاية الأسبوع فى شالوت، كان متعباً من جهده فى الشلالات، أحاطه الأرق فى بيت لونا بارك مثل ألسنة اللهب. كانت شلالات نياجرا قريبة للغاية، تسمع هديرها مختلطاً بهدير دمك المتدفق فتشم رذاذاً محمولاً على أجنحة الرياح الشمالية، حتى فى الصيف مدفوعاً بهواجسه، عاد "ديرك" إلى شالوت حيث تنتظره أمه، أنثى العنكبوت السوداء المخملية ترتعش فى شباكها. لكن "كلاودين" رحبت به من وراء باب حجرة نومها المنفرج قليلاً.

فلم يكن أحد أيامها "الجيدة" لم تسمح لابنها بأن يسلم عليها يقبلها، وإن كانت تشعر بالغبطة لحضوره، ولدهشة "ديرك"، سُمح له بمقابلة "كلاودين" وهو يدير ظهره لها وهى جالسة فى شيزلونج فى حجرة نومها ممسكة بقماش مبتل تلفه حول رأسها لتبعد عنها الصداع النصفى. وبصوت مهتز مؤنب قالت: "عزيزى.. لك أن تكلمنى كما شئت دون أن تنظر لى يجب ألا نكون وجهاً لوجه دائماً". إنها مهووسة بوجهها. أراد "ديرك" أن يضحك، لكن هل هذا مضحك؟

بعد ذلك المساء، حين تحسنت حالة "كلاودين"، تناولا العشاء معاً فى الحجرة السفلية ذات أضواء الشموع الرومانسية التى تكتنفها الظلال. إلا

أنه فى ذلك الحين أيضاً، كان محظوراً على "ديرك" أن ينظر. بخلاف "إيثيل"، مدبرة المنزل التى تعمل عند السيدة "برنابى" منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لم يعد مسموحًا لأحد ـ على ما يبدو ـ بأن ينظر إليها وجهًا لوجه.

كره "ديرك" هذا.. أن يصبح حال أمه الجميلة الحساسة غريباً.. فى سن الثالثة والستين فقط!

أغرقته "كلاودين" بالأسئلة كالعادة شرب الاثنان كمًا كبيرًا من النبيذ الأحمر، الذى صبه "ديرك" لهما أصبحت مزحة بينهما أن تطلق "كلاودين" شهقة دهشة حين يفرغ كوب نبيذها.

ألمح "ديرك" إلى "عمله" فى الشلالات، بحثه لسبعة أيام عن الشاب الذى قفز من شلالات هورسشو كمتطوع، كان "ديرك" منخرطاً فى ذلك الشأن.. إلى درجة ما.

قالت كلاودين، وصوتها يختلج فى رفض: "ليس هذا طبعك يا عزيزى، أن تتورط مع الغرباء، فى مغامرة شنيعة كهذه" باعتبارها من سكان شلالات نياجرا القدامى، كانت محايدة تجاه الشلالات، وتحتقر السائحين "من جميع أنحاء العالم" الذين يأتون أفواجاً إليها، ولعلها لم تزر الشلالات يومًا "رأيت كروتًا بريدية لها، أنا واثقة من هذا. مدهشة للغاية، إذا كنت تحب هذه الأشياء". وكحال كل سكان الشلالات كانت كلاودين واعية بحوادث الانتحار لكنها كانت تراها نتيجة فشل فى الحب أو العمل، أو بدافع من الجنون المحض.. فلا علاقة لها بها، وإذا كانت تعرف بأمر والد زوجها المتهور الأسطورى "ريجنولد برنابى" الذى قفز فى الشلالات عام ١٨٧٢ إلى حتفه، فهى لم تلمح إليه، ولا حتى على سبيل المزاح.

نشأ والد "ديرك"، "فرجيل برنابى"، فى ظروف غير اعتيادية.. فهو وأمه الشابة أُخذا إلى بيت رجل بنوك محب للخير من شلالات نياجرا، وهو مسئول من مسئولى الاتحاد الخيرى المسيحى، يسمى ماكينا.

كان تجاهل كلاودين لما فعله "ديرك" مؤخرًا مما درجت عليه. وكان ديرك يعرف أن كلا من شقيقتيه أرسلت بقصاصات من الصحف

والمجلات، ولا شك أنه ظهر فيها صورة ديرك، لكن لابد أن كلاودين ألقت بكل شيء دون أن تقرأه "أرملة/عروس الشلالات.. رأيت العنوان السوقى، فيه الكفاية".

بعدها، حين حاول ديرك أن يوجه الحديث إلى الشلالات من جديد، قالت "كلاودين" بامتعاض: "كبر أو صغر فهو انتحار، ما أهميته؟ لا تفسد هذه الوجبة اللطيفة باستحضار القبح كأنه قطة ميتة يا "ديرك". أرجوك".

ابتسم" ديرك". لم يكن من طبيعة كلاودين أن ترجو أحدًا.

وبعدها، حين فتحت كلاودين الموضوع التقليدى الكئيب الخاص بزواج "ديرك"، وأن يأتى ويقيم مع زوجته وأسرته فى شالوت، قال "ديرك" ببساطة إنه قابل امرأة الأسبوع الماضى فى الشلالات.. "هى ابنة قس، من تروى، لكنها ليست متطرفة التدين وهى معلمة موسيقى فى الواقع"، لكن "كلاودين"، وهى ترشف السكوتش والمياه، لم يبد أنها سمعت.

لكن تلك الليلة ـ وقبل أن تصعد لفراشها ـ قالت "كلاودين" فى جفاء: "لا نعرف أحدًا من تروى يا "ديرك". لم نفعل يومًا".

حين يزور ديرك شالوت يشرب أكثر مما يريد أن يشرب. أخذ معه زجاجة سكوتش إلى حجرته، بمباركة كلاودين.. كانت فلسفتها إنك تعيش مرة واحدة فقط، وكان يرتسم على فكيها وهى تنطق بتلك الكلمات، متعة متجهمة مسروقة.. ورأى ديرك لمحة من وجهها قبل أن تخفيه بيديها.

أجل، الوجه متجمد جزئياً، لكن مع كلاودين لا يمكن تخمين أى جزء هو.

كان ديرك مندهشًا من روعة ترتيب المكان فى شالوت ليس القصر الفخم (الذى كان يكرهه من منطلق أنه رجل ذو ذوق معاصر، وليس أوروبيًا مزيفًا، بل أمريكيًا على طراز فرانك لويد رايت) بل الأرض المحيطة به والمناظر الطبيعية فيه، والنهر.. نهر صباه.. نهر نياجرا ينقسم عند إيل جراند، على بعد عدة أميال مع اتجاه التيار وراء الشلالات، وينقسم ثانية عند جزيرة جوت الأصغر، كان يقال إن نهر نياجرا ملوث إلى درجة خطيرة

من الصناعة فى بافالو، لكنه أقل تلوثاً من قناة شيبوا التى تقع إلى الجانب الغربى من إيل جراند، عن حال قناة توناواندا الشرقية المشاطئة لمنطقة الضواحى الصناعية الواقعة شمالى توناواندا، لا ترغب فى التفكير بالتلوث. إذا كنت لا تشمه أو تذوقه أو تراه.. الكثيرون من أصدقاء "ديرك برنابى" من أصحاب المصانع أو المستثمرين، والكثير من عملائه من هذه الفئة، وكانت مسألة التلوث هذه منطقة عرف كيف يتفادى الكلام عنها، وأنت تنظر إلى النهر وإلى القوارب الشراعية واليخوت على صفحة النهر، تفكر فى الجمال، فى روعة الأشياء التى صنعتها يد الإنسان، والتى تتمتع - فى ضوء الشمس الذابلة الغاربة فى ذلك اليوم الصيفى - بهيئة الأشياء الطبيعية، لا تفكر فى المياه السامة بقدر عدم تفكيرك فى الشلالات المميتة أسفل تيار النهر. ها هنا لا يبدو نهر نياجرا مختلفاً عن أى نهر عريض سريع التيار. وفى الأيام الصحوة يعكس لون السماء الزرقاء الكوبالتية، وفى أوقات أخرى تراه بطيف الرصاص، لكنه رصاص لا يهدأ ولا يرتاح، رصاص براق، كشىء حى يتلوى، ولا تبدأ منطقة المياه السريعة إلا على بعد عدة أميال، حيث ينقسم النهر عند جزيرة جوت، ويصبح التيار سريعًا غادرًا، وعلى مسافة ميلين قبل الوصول للشلالات، كانت تلك المنطقة معروفة باسم "خط النهاية".

ذات مرة ولج قارب إلى خط النهاية، وهلك من كانوا على متنه.

ذات مرة سمح أحد السباحين لنفسه بأن يسحبه التيار إلى خط النهاية، وهلك.

خط النهاية. ارتشف "ديرك" السكوتش، وراح يتأمل ما قد تعنيه هذه الكلمة.

حين يزور "ديرك" شالوت، يتذكر رغماً عنه كيف أنه فى العشرينات من عمره - وفى الوقت الذى لم يكن فيه بالجيش الأمريكى فى الأراضى الأجنبية - كان على علاقة مع أمه يشعر بالخزى منها، لم يكن يقضى وقتاً

طويلاً معها، لم يفعل.. لكنه كان يقبل النقود منها سرًا، دون والده الذى كان يرفض هذا إن عرف، وأصرت "كلاودين" بطريقتها العاطفية السخية أن تدفع قرضاً بمقدار ١٢،٠٠٠ دولار كان ديرك قد أخذها من كلية الحقوق فى كورنيل، وبعدها كانت هناك نفقات المعيشة وديون القمار.. ولعدة سنوات راهن ديرك بثقله فى حلبة فورت إيرى للجياد. كان إدماناً كما أدرك، لا حاجة به إلى الربح، بل مجرد اللعب، كان أمهر فى البوكر لحسن حظه. نادرًا ما خسر فى البوكر، كان شابًا اجتماعيًا أعزب شهيرًا، واشترى بيته فى منطقة لونا بارك السكنية، وسيارة باهظة وقاربًا شراعيًا جديدًا. ويختًا بطول أربعين قدماً، والتحق بالأندية الخاصة التى كان أبواه وأصدقاؤه أعضاء بها، وكثيرًا ما كان يرتاد تلك الأندية، وكانت أمهات الفتيات الجديدات على المجتمع يلاحقنه بشراهة، وكان آباؤهن يدعونه إلى لعب الجولف والإسكواش والراكيت والتنس معهم، والبوكر، كان ديرك لاعب بوكر معتدلاً، بابتسامته الصبيانية وعينيه الجريئتين تخفيان مهارته، ويبدو دائماً أنه يربح بالصدفة، وصار معروفاً بأنه شاب محظوظ، رجل يحظى بحياة سحرية، قليلون من يعرفون خسارته فى فورت إيرى وبحلول عام ١٩٤٩ حد من رهاناته هناك إلى كميات قليلة من النقود لا تتعدى المئات فى كل رهان. وفى الوقت المناسب ربح ديرك برنابى النقود كمحام لكن نفقاته كانت زائدة عما يكسبه، وبدا أن كلاودين - البعيدة كل البعد عن إثنائه عما يفعله - تشجعه "إنك تعيش مرة واحدة فقط.. ولك ملامح آلان لاد(*) ولكن أطول قامة منه وأكثر رجولة.. لماذا لا يحبك الجميع؟" قبل ديرك نقود أمه سرًا، جزئيًا؛ لأن قبولها يشعرها بالسعادة، وأشياء قليلة هى التى عادت تسعد كلاودين، لكنه كان يشعر بالذنب لقبولها.. كان يخشى اكتشاف والده لتحويل النقود إليه، وكذلك شقيقتاه، مع مرور الوقت، افترض ديرك أن كلاريس وسيلفيا تعرفان الآن لا يمكن الحفاظ على الأسرار فى خفاء عنهما، فهما يقظتان كالنسور. وإن كان والد ديرك ميتاً منذ أكثر من عشرة أعوام، فما زال لدى ديرك إحساس مبهم بأنه كان

(*) ممثل أمريكى قدم عدة أفلام فى الأربعينيات والخمسينيات واشتهر فى أدوار الشر.

يعرف بطريقة ما، وبأنه يشعر بالتقزز من ابنه. وكره ديرك أنه وكلاودين كانا يتآمران فى الخفاء، ماذا بالضبط تعنى عبارة إنك تعيش مرة واحدة فقط.

والآن لم يعد ديرك يأخذ أى نقود من كلاودين، لكنه لم يقم بإعادة أى من النقود التى أعطتها له من قبل.

ستشعر "كلاودين" بألم بالغ لو حاول.. ستشعر بالغضب كأنها امرأة مرفوضة.. ستثير جحيماً من الاهتياج وتفضحه وتفضح نفسها.

- ربما سأتزوج يا أمى.. أو أحاول أن أتزوج.

كانت وجبة فطور متأخرة صباح الأحد الخامل.. بيض مقلى، وسلمون مدخن وصلصة طماطم حارة.. كانا جالسين فى الشرفة المطلة على النهر وكانت كلاودين تعتمر قبعة عريضة الحواف وغطاء رأس بشباك دقيقة لتخفى به وجهها عن ابنها.

مرت لحظة صمت.. مالت كلاودين إلى الأمام كأنها لم تسمع: "ماذا يا ديرك؟"

ـ ربما. ربما أتزوج.

راح يفكر لا تريدك أن تتزوج.. لمَ قد تريد لك هذا؟

أحس بشىء يثير غثيانه يزحف داخله.. رشف جرعة كبيرة من الفودكا المتنكرة على شكل صلصة طماطم حريفة.

ـ ضحكت كلاودين ضحكة خفيفة.. "من التى.. ستتزوجها؟"

ـ لست واثقًا.

ـ لست جادًا إذًا.. راحت كلاودين تتكلم فى حذر يشوبه شىء من الندم.

ـ ربما لست كذلك.

ـ أهى إلسى؟.

ـ لا.

- جوين؟

ـ لا.

- تلك الشقراء الصغيرة.. جون أليسون..

- هارييت تروبر.

- "أهى تلك؟" ظهر على كلاودين حالة حماس، كانت هارييت تروبر إحدى الجديدات على مجتمع بافالو.

- لا يا أمى.. ليست هارييت تروبر.

تنهدت كلاودين، ارتشفت صلصة الطماطم الحارة فى رشفات بطيئة متأملة، وهى ترفع غطاء رأسها فى تلذذ.. "أرجو ألا تكون إحدى فتيات استعراض كازينو الموود".

لم يُجِبها ديرك شاعرًا بالمهانة.

تنهدت كلاودين فى ارتياح.. "عزيزى، داخلك رغبة للجموح، وحب للنساء الجامحات الغريبات".

هز ديرك رأسه.. لم يكن يشعر بالجموح أو حب الغرابة فى هذه اللحظة.

يعانى أثر الشراب، كما لك أن تقول، من ليلة أمس.

عيناه تؤلمانه من ساعات الأرق، يحميها من بريق النهر بعدسات داكنة.

سألته كلاودين بلا مبالاة مدروسة: "هل النساء المثيرات أكثر إثارة؟ بطريقة فعلية؟"

- "وأية طريقة هنالك غير الطريقة الفعلية يا أمى" ضحك ديرك فى اضطراب.

- "يمكن أن يكون الافتتان الجنسى سطحيًا.. لعبة.. مضاهاة للحقيقى، لكن فى الواقع قد يكون هناك.." توقفت كلاودين، وكأنها تشعر

بالخجل، رآها ديرك تداعب النسيج المصاب بالندوب خلف أذنها اليمنى..
"لا شىء".

على صفحة النهر قوارب طويلة عديدة تمر، أحدها ضربته الرياح بقوة، نظر إليه ديرك متمنياً ألا يقع ما يسوء.

خرجت إيثيل.. من المطبخ لتحضر لكلاودين وديرك المزيد من المخبوزات الساخنة المغطاة بالزبد، والشاى المثلج فى أكواب طويلة، وثمرة فاكهة من الموالح مقطعة إلى أرباع مع كريم مخفوق، تمكنت كلاودين ـ رغم غطاء رأسها ـ من الأكل والشرب دون صعوبة تُذكر. ثمة عزاء عتيد فى الطعام. الأم والطفل، الأم والطعام. الأم توفر الطعام لابنها. لم تحب كلاودين كثيرًا كونها أمًا، لكنها استمتعت ببعض طقوس الأمومة، والاحترام والعناية التى تصاحب الأمومة.

تذكر ديرك مشاهد مشابهة من أيام الصبا. منذ زمن بعيد.. أو ليست منذ زمن بعيد.. كانت كلاودين تهيمن على فطور الأحد المتأخر، فى الصيف. لكن المائدة كانت عامرة.. بوالد ديرك وشقيقتيه والأقارب والضيوف وبعض الظهر الخروج لركوب القارب فى القناة، إلى ما وراء فورت إيرى وبافالو، تحت جسر السلام وإلى الفراغ المفتوح الذى تهب عليه الرياح فى بحيرة إيرى، الرحيبة كبحر داخل اليابس، ضحكات كلاودين الشقراء فى ردائها الصيفى الشفاف المقفلة بعض أزراره على ثوب سباحة من قطعتين. بيتى جرابل(*)، كما كان يقال "لكلاودين برنابى". وهناك كلاودين بالطابق العلوى وهى تغير ثيابها، وقد استدعت ديرك، لعله كان فى الثالثة عشرة، أو السادسة عشرة، أو حتى الثامنة عشرة، وقد عاد إلى البيت من الجامعة لأيام قليلة، محظور عليه أن ينظر إلى أمه مباشرة؛ لأنها كانت تغير ثيابها. محظور عليه أن يرى. بصوتها التليفونى البراق

(*) نجمة أمريكية برعت فى التمثيل والغناء والرقص، وقدمت معظم أفلامها فى الثلاثينيات والأربعينيات.

تستجوب كلاودين ديرك.. أين كنت طوال الصباح؟ مع من كنت؟ أين ستذهب لاحقاً؟ متى تتوقع قدومه هذه الليلة؟ الأسئلة طلقات سريعة، غير ذات مغزى، ترك هذا الحوار ديرك عصبيًا مضطربًا، مستثارًا جنسيًا، شاعرًا بالتقزز، متلهفاً على الهرب من هواء حجرة نوم أمه الظليل المعطر.

كانت لديه حبيبات، وبعضهن "أكبر" منه بسنوات قليلة، أرضى شهوته الجنسية معهن، فى تلك الليالى، فى ذلك الحين كان صغيرًا على أن يفهم، والآن وهو كبير، حار من الغم ونفاد الصبر، افترض أنه فهم.

ما زالت تريده صبياً ذكرًا غير ناضج حار الدماء، كانت كشخص يؤدى دور إغراء، فاتح صاحب غزوات جنسية، منافسوها يتلقون الهزيمة من شهوته الجنسية ولا مبالاته بمن يرضى معها شهوته. كان رجلاً ناضجاً يحركه الجنس، وفى الوقت نفسه خصيًا، خصى ـ دمية لأمه.

- "لا. يجب أن أغادر".

لكنها ترجوه ليبقى بعض الوقت، ليبقى الليلة، وكالعادة كانت ترجو حين يتأهب ديرك للمغادرة، وإن كانا يتفقان قبلها متى يغادره. كان شأنًا أسريًا لا يخفف من توتره توقعه، إذ كان ديرك يعرف أنه آتٍ لا محالة.

قال ديرك إن لديه عملاً يؤديه، وإن أياماً فاتته من العمل فى المكتب بسبب تطوعه فى الشلالات.

جعدت كلاودين أنفها فى اشمئزاز، كانت تعرف أن هناك انتحارًا، ولم تقدم على السؤال. لن تقدم على سؤال إذا كان ابنها قد اكتشف الجثة أو لامسها.

كما أنها لن تسأل عن.. أية مدينة هى؟.. عن مدينة صغيرة شمالى الولاية حيث لا يعرف آل "برنابى" أحدًا.

رافقت" كلاودين" "ديرك" إلى المشى الخارجى وإلى سيارته، كان على رأسها القبعة عريضة الحواف المغطاة بغطاء الرأس، وكانت قبعة جميلة بشريط مخملى أزرق وزهور صناعية وفستان أزرق بزخارف زهرية واسع

على جسدها الناعم. وهو يودعها شعر "ديرك" بالشفقة والانزعاج، أن تبقى كلاودين مختفية عنه وراء ذلك الحجاب السخيف، كانت تلعب دور الناسكة الجريحة المنفصلة عن العالم، وربما كانت أسيرة هذا الدور، سيدة شالوت تنتظر الإنقاذ، تنتظر حبيباً يحررها من لعنتها، أو على الأقل، يمزق عنها الحجاب.

مد ديرك يده إليها فى اندفاع.. "هلمى يا أمى.. ليس فيك ما يسوء".

لكن كلاودين صاحت فى دهشة وغضب وقاومته، ابتعدت عنه وتبعها ديرك، أمسكت بالقبعة بيديها فأمالها ديرك بيده وهو يضحك.. أهذه لعبة؟ لا بأس.. لعبة. أزاح القبعة ـ والحجاب ـ فى عجلة ورأى المرأة شاحبة الجلد المذهولة تحدق فيه بعينين حمراوين قليلاً وشعر أشقر مصفف للخلف بقوة بوجهها الشاحب الجامد وبفم مرتبك بأحمر الشفاه، صفعت كلاودين ديرك فى غضب.. وبينما هو يضحك خدشت خده الأيسر بأظافرها. "عليك لعنة الله، كيف تجرؤ! اخرج من هنا! إننى أكرهك!"

ابتعد ديرك بسيارته عن شالوت ضاحكاً، وهو يرتجف.

طارده تعبير وجه أمه المتألم الفزع الغاضب الكدر، وكذلك وجهها الذى أثار اضطرابه، الذى كان شاباً على غير المتوقع.

ـ ٢ ـ

بعد ثمانية عشر يوماً من انتهاء السهر فى الشلالات كان ديرك برنابى يقود سيارته على امتداد الأراضى التى نحتت فيها الأنهار الجليدية، والتى تفصله عن "تروى" بولاية نيويورك.

لم تكن لديه خطة محددة واضحة، كان يشعر بالحماس والابتهاج، وفى الوقت نفسه بحتمية القدر الخبيث ـ ما سيكون سيكون ـ إنك تعيش مرة واحدة فقط كمحامٍ شاب واعد كان شغوفاً بالتخطيط القانونى، لكن هذا الصباح حياته فى كِفة الميزان، ولم يفكر فى المستقبل أبعد من أن

يصطحب معه عنوان أسرة ليترل، الذى قدمه له مدير فندق "رينبو جراند". كان معه رقم هاتف لكنه لن يتصل بالمرأة ذات الشعر الأحمر التى وقفت أمامه ولم تنظر إليه، ربما ببساطة أراد أن يجبرها، لمرة أخيرة وأولى، على النظر إليه.

كانت رحلة بطول أكثر من ثلاثمائة ميل، كان يرتدى ثياباً جديدة أخرجها من دولابه، لا يذكر متى اشتراها ولا من أين؟ سترة زرقاء زاهية بأزرار نحاسية، وقميص رياضى مقلم، وسروال أبيض وقبعة بيضاء، وحزام من الخيش بعقدة نحاسية مستطيلة صغيرة وحذاء أزرق زاه من القماش.

ديرك "برنابى"، صفحة مصقولة من مجلة إسكواير. لكن وهو ماضٍ وحده على طول نهر "موهوك"، أُجبر على التوقف أكثر من مرة على جانب الطريق للتبول. وهو يختفى عن أنظار المارة على الطريق السريع قريبًا من قرى أوبورن وكاناستوتا وفورت هانتر (عندما يتعصب تؤلمه مثانته) الأرق يتوهج مشتعلاً كأنها ألسنة لهب زرقاء خبيثة حتى فى حالته هذه، فى يقظته.

ـ اللعنة. هذا يكفى.. لا أريد المزيد!

قريباً من قرية أمستردام جذب انتباهه حقل من زهور الربيع التى تحركها الرياح، هذه فى حقيقة الأمر زهور بعيون.. ضحك، بدت حياته بالغة البساطة خاض فى العشب المرتفع الذى يطول ركبتيه، والتقط أزهاراً فى أكوام شعثاء من أجل الفتاة ذات الشعر الأحمر، ليجعلها تنظر إليه. جذب زهرة برية قوية (زهرة هندباء، بأوراق زرقاء صغيرة) يجذب عود الوردة المحاط بالأشواك، الذى جرح يده.. زهرة برية بيضاء وردية لكن يده تنزف! التقط المزيد من زهور الربيع ومن زهور باتركاب، وكانت زهوراً ذهبية صغيرة خمن أنها باتركاب واكتشف فى جدول مياه زهرة تشبه شقائق النعمان ذكرته بوجه الفتاة ذات الشعر الأحمر، التقطها من

جذورها، وفى حقيبة سيارته كان هناك دورق من المياه ملأه بالمياه من الجدول، وحشر فيه زهورًا برية بقدر ما استطاع.. باقة ورد كبيرة خرقاء، فيها مائة زهرة. خفق قلبه سريعاً بأمل غريب.

توقف فى ألبانى ليحتسى شرابًا. اشترى من متجر للنبيذ والخمر زجاجة شمبانيا. وقال للبائع المبتسم: "انتظر، لتكن زجاجتين".

- "زجاجتا دوم برينون.. حاضر يا سيدى".

بعد قليل اجتاز جسرًا على نهر هدسون ودخل إلى مدينة تروى الجبلية حيث قيل له إن ابنة المبجل "ليترل" لم تعد تعيش مع السيد والسيدة "ليترل" فى بيت القس إلى جوار الكنيسة المشيخية الأولى فى تروى. وكانت السيدة ليترل هى التى فتحت الباب، مبهورة الأنفاس وعينها تطرف لرؤية "ديرك برنابى" الذى تعرفت عليه ابنتها الآن فى شقة مؤجرة قريبة من أكاديمية موسيقى تروى، وتعيش وحدها.

فأل خير، كذا خطر على بال ديرك.. ما هو؟

شق ديرك طريقه عبر البلدة إلى الأكاديمية الموسيقية القديمة المبنية على الطراز القوطى، وإلى بيت آريا ذات الطوب الأحمر على بعد بلوك آخر. توقف على الممشى المغمور بالحصى للبيت، وأنصت لامرأة تغنى. هُيئ له أن الصوت يهبط عليه من فوقه، ورفع عينه ليرى نافذة الطابق الثانى مفتوحة. وقف ممسكاً بالدورق ذات الزهرات بيديه، وهو ينصت باهتمام، صوت سوبرانو نقى صافٍ عذبٌ، وإن كان يهتز، لكنه ينشد أغنية لا تناسبه من أغانى الحرب جياشة العاطفة:

"رأت عيناى مجد

مقدم الرب

وطأ بقدميه الكروم

حيث تكمن عناقيد الغضب!

وأطلق سراح الرعد المهلك.."

لكم يبدو هذا قريباً من آريا! رفع ديرك صوته غير المدرب العميق: "..بسيفه السريع الرهيب".

لم يكن يغنى بصوت مرتفع بما يكفى لتسمع آريا كان واثقاً من هذا، لكنها لم تستمر فى أنشودتها، ولم يسمع المجد المجد للرب، بل صمت مفاجئ.

وقف ديرك عند مدخل الباب وضرب الجرس، متظاهرًا بأنه لا يرى امرأة تطل عليه من نافذة تعلوه.

ستفتح أو لا تفتح.. هكذا ستتقرر حياتى.

كم أحس "ديرك برنابى" بالهدوء كان هذا جيداً، وصحيحًا، وضع يده بين فى هذه المرأة التى لا يكاد يعرفها. لكنها كانت صدمة، غير متوقعة، حين فتحت "آريا" الباب.

راح الاثنان يحدقان فى بعضهما للحظة طالت وهما غير قادرين على الكلام.

كان انطباع ديرك الأول: "آريا" لا تبدو الآن كأرملة ـ عروس الشلالات فى شىء، كان شعرها الأحمر الحائل أشعث ساحرًا، وكأن الرياح هبت فحركته، ريشى الملمس، فى خصلات مجعدة متهدلة حول وجهها الرفيع، وفى نور الشمس السخى كانت عليه لمسة من اللون الفضى كأنه ألسنة البرق، شعر الفتاة ذات الشعر الأحمر يتحول للرمادى!

لكن لم يكن هذا مبعث حزن، تنورتها صيفية خفيفة، عليها رسوم بلون أخضر زاهٍ مختلط باللون الذهبى، وقميصها أبيض مغسول نظيف ومسطح وكأنه رداء مراهقة، كانت عارية الساقين حافية القدمين.. لا شىء فى وجهها المنمش الناعم يوحى بالخسارة أو الندم.. وتصاعد الدم فى وجنتيها، احمرار يتصاعد من حلقها فى ارتباك اللحظة.. عيناها لم تعودا حمراوين، تحيط بهما رموش ناعمة حمراء باهتة، وعيونها خضراء عشبية خالصة كأنها النهر، تلك التى سحرت ديرك برنابى، على الفور اتسعت العينان وقد تعرفتا عليه.

سمع ديرك نفسه يقول متلعثمًا: "سيدة إرسكين..؟"

- "لا، لم أعد كذلك" تكلمت فى هدوء وإن كان قد بدا عليها الخوف، أخذت أصابعها ذات الأظافر القصيرة المقضومة تعبث بثنية التنورة الببغائية.. "آريا ليترل، هكذا أطلق على نفسى من جديد، لم أكن حقاً تلك الأخرى يومًا". نطقت تلك الأخرى كأنها شخص منفصل عنها، وكأنها جملة أجنبية بالكامل.

ابتلع "ديرك برنابى" ريقه بصعوبة، وفمه جاف كالرمال. ماذا يحدث له! أدرك أنه سكب المياه على سترته الزرقاء الزاهية: "هل.. تذكرينى؟ ديرك بـ.. برنابى. كنت من.. أعنى.. أنا".

ضحكت آريا: "بالطبع أذكرك".

- "حقاً.. لم أحسب هذا.."

يا له من شىء أحمق يقوله، لماذا قاله؟ لكن بدا أن "آريا ليترل" تجاوزت حماقته ودعته للدخول.

وقعت حماقات أخرى، وكأنه مشهد من فيلم لبوب هوب، وديرك يناول "آريا" فجأة دورقًا ثقيلا من الزهور المبتلة.. غمغم معتذرًا: "أرجو ألا تمانعين".

- شكرًا لك.

كانت بعض الزهور تتساقط من الدورق، زهرات الربيع مكسرة الساق، رذاذ من الزهور الوردية البرية الشاحبة تطعنه الأشواك الصغيرة، كانت جذورها مكشوفة، وفيها تكتلات من التراب والطين، أوراق عشب مختلطة بالزهور البرية، حشرات على الجوانب السفلية للأوراق. لكن "آريا" غمغمت: "إنها جميلة".

كانا فى ردهة صغيرة بيانو قائم إلى أحد الجدران.. وعلى البيانو مقطوعات موسيقية لموتسارت وشوبان وبتهوفن وإرفنج برلين، وتحته

بساط اشتبك فيه نعل حذاء ديرك المطاطى. وكان اللون الأخضر الزاهى للتنورة الببغائية يتحرك وتحته ساقا المرأة العاريتان النحيلتان بالغتا النحول، فتغيم رؤية ديرك، قال صوت ذكورى أجوف: "كنت فى عمل فى ألبانى وقلت لنفسى.. لم لا أمر عليك لأراك - آريا. كان يجب أن أتصل بك أولاً، لكن.. ليس معى رقمك". توقف. نبضات تخفق فى رأسه، فى تقليد رقيق لضربات القلب العادية "سمعتك تغنين، وأنا بالخارج على الممشى". أعنى أننى كنت على الممشى وسمعتك تغنين.. ماذا أقول؟

غمغمت "آريا" شيئاً لم يتبينه ديرك، ومضت إلى الحجرة التالية، وهى مطبخ صغير عتيق الطراز فيه حوض قبيح عميق وصنابير صدئة، تبعها ديرك بعيون لا ترى. وعند الحوض التفتت "آريا" وقد فزعت لرؤيته قريباً هكذا .فأدرك ديرك أن المتوقع منه البقاء فى الحجرة الأخرى، لكن فات الأوان.. إذا التفت وتراجع سيبدو أكثر غباءً من حاله، سيبدو أكثر غباء من لحظة ظهوره خلفها، مسح البقع المبتلة من على سترته. يا إلهى، يبدو أن بعضها دم، من أصابعه المخدوشة.

وضعت "آريا" دورق الزهور فى الحوض وأحضرت زهرية من الرف الواقع فوق الحوض، وقد شبت فى غير ثبات على أطراف أصابع قدميها، كم هى شاحبة.. كم هى نحيلة.. ساقاها! راح ديرك يحدق فيها، انتابته أفكار مشوشة عن الانحناء للإمساك بهاتين القدمين، أن يمسك قدميها بين يديه ويرفع "آريا"، فهو بالطبع قوى بما يكفى لهذا، كما قد يمسك "فريد أستير" بقدمى جينجر روجرز فى مشهد راقص خيالى فى فيلم لم يتم تصويره بعد، أو ربما تم تصويره ولا يذكره ديرك، ومن خلال القميص القطنى الرفيع رأى عظام المرأة البيضاء الصغيرة، عظام عمودها الفقرى تتوتر مثل عظام ظهر اليد حين تتجمع فى قبضة، وأحس بدوار للحظة، كان المشهد حميمياً "عنك. دعيها لى" رفع الزهرية الكريستالية بعد أن أخذها منها، كانت إحدى زهريات السيدة ليترل، بدا أنه أدرك هذا. هدية عرس. رآها تنسل من بين أصابعه المبتلة وتتحطم إلى قطع صغيرة على أرضية المطبخ، لكن وبطريقة ما لم يحدث هذا، واستقرت الزهرية بأمان

فى الحوض. وهكذا ستأخذ "آريا" أى شىء من بين أصابع ديرك مهما رجاها أن تتركه، لتبقيه آمناً بعيدًا عنه كان يقول: "صوتك جميل يا "آريا". تعرفت إليه على الفور".

ماذا يعنى؟ إن أذنى ديرك قادرتان على تمييز الصوت الجميل، وهو أمر خاضع للشك، أو أنه تعرف إلى صوت آريا على الفور؟ وهذا أيضاً موضع شك.

ضحكت "آريا" فى حرج. "ليس عليك قول أشياء كهذه يا سيد برنابى".

- ديرك من فضلك.

- "ديرك".

كم هو اسم غريب غير موسيقى! لم يسمعه ديرك واضحًا هكذا من قبل، أطلقت أمه عليه هذا الاسم بالطبع، بدا أنه يعرف أن ديرك اسم عائلة من جانب أسرة أمه وليس أبيه.

قالت آريا: "ليس صوتى جميلاً، إنه.."

- "باعتباره من شمال ولاية نيويورك، فهو جميل.. هو كذلك".

لم يقصد أن يبدو فظاً، ملأ صوته الأجوف المطبخ الضيق كأنه راديو بلاستيكى رخيص عالى الصوت.

- ".. يكاد يكون صوتاً" قالتها "آريا" فى حزن ولكن كأنها تقر حقيقة واقعة.

كانت خبيرة فى الموسيقى، هى من تعرف.

راحت "آريا" تجاهد مع الزهور البرية فى الحوض، غصون كثيرة تكسرت، كيف حدث هذا؟ لماذا لم يشتر ديرك باقة ورد فى ألبانى؟ لم يخطر هذا على بالى قط، بقع طينية صغيرة يجب إزالتها عن سيقان معظم زهرات الربيع، و"آريا" تستخدم سكين تقشير لهذا الغرض، الهندباء قاسية

تستعصى على القطع، كيف مزقها ديرك وأخرجها من الأرض بيديه؟ أسقطت آريا غصين من هذه الزهرة العشبية على الأرض وهبطت هى وديرك فى الوقت نفسه لاستعادتها، رأى ديرك بوخزة إثارة أن يدى آريا الرفيعتين المنمشتين خاليتان من أية زينة.. لا توجد خواتم.

لقد نسى: الدوم برينون فى سيارته.

- عذراً يا آريا. سوف.. سوف آعود فوراً.

فى طريقه إلى السيارة تساءل ديرك إن كانت آريا تراه قد غادر ربما، لم يشرح لها ما يفعله. ربما توقعت أن يرحل بسيارته فجأة كما جاء فجأة، ربما عليه الرحيل.. أحضر لها الزهور، ربما هذا يكفى، كل شىء يحدث اليوم سريعاً يثير الدوار كرحلة فى قطار الملاهى وديرك برنابى لا يثق بهذه السرعة، لا شىء يكرهه أكثر من الإحساس بالدوار وكأنه ينزلق، ينحدر، يسقط.

اختطف الكيس الورقى الذى يحتوى الزجاجتين.. بصراحة يتوق لشراب.

حين عاد إلى مطبخ "آريا" كانت قد تمكنت من ترتيب معظم الزهور فى الزهرية الكريستالية، شذبت السيقان وأبعدت الزهرات المكسورة، مدت يدها لتسحق عنكبوتاً بديناً كان يمشى على المائدة قادماً من زهرة برية، لكنه اختفى فى شق فى الحائط.

صاح ديرك: "شمبانيا! لنحتفل".

انفتح فم آريا احتجاجًا، أو ربما خوفًا، أو لمجرد العجب.

وكأن ديرك توقع هذا، لم يكن لدى آريا كؤوس شمبانيا، ولا حتى كئوس نبيذ عادى فى مطبخها، لكن لديها أكواب عصير فواكه نظيفة لامعة صب فيها ديرك الدوم برينون الفائر، ثم اصطك الكوبين ببعضهما بنعومة بالغة فى نخب احتفالى: "نخبنا!" ضحك ديرك. تخيل الكوبين يتصادمان بحدة ويتكسران، ليسكبا الشمبانيا على آريا وعليه، لكن هذا لم يحدث.

كانت حالتهما المزاجية ملتهبة بالمصادفة. هل كانت هناك موسيقى؟ سمعها ديرك خافتة. ليس لحناً بل نبضات مرحة ـ جلين ميللر. "خيوط اللؤلؤ" الطريقة التى تنظر بها آريا حولها بادياً عليها السرور مرتبكة النظرة، تجعلك تظن أنها تسمعها أيضاً.

بطريقة ما أصبحا فى الردهة يلتمسان الجلوس، خلع ديرك سترته الزرقاء، بعدما أحس بالحرارة. وجد نفسه يجلس فى مقعد البيانو الكسيح وسط كومة من كتب الدروس المصفرة وتعليم البيانو للتلاميذ الأكبر سناً. كانت "آريا" جالسة على مقعد عالى الظهر بالقرب منه. أصابع قدميها العارية ترتجف، جلبت الزهرية الكريستالية ذات الزهور البرية إلى الردهة، ووضعتها فوق البيانو حيث هيمنت فوقهما.

قال ديرك فى تردد وكأن الشمبانيا تركت أثرها عليه كأنها مصل الحقيقة: "لم آت إلى ألبانى فى عمل. لا عمل.. لى فى ألبانى. جئت إلى تروى لأراك يا آريا".

سرعان ما رفعت آريا كوبها واستنشقت السائل الفائر الرغوى داخلها، رفرفت برموشها الشاحبة، ربما ارتجت من هذا التصريح، إلا أنها لم تكن فى دهشة بالمرة، لكن اختارت ألا تستجيب لما قيل، بدلاً من هذا قالت، فى تمتمة هادئة جعلت ديرك ينصت السمع: "شربت الشمبانيا مرتين فى حياتى من قبل، لكن فى نفس المناسبة، ولم يكن مذاقها قريباً من مذاق هذه الشمبانيا الطيب".

ضحكت وارتجفت.. حدق ديرك فيها فى ذهول. كم هو غريب أن فمها المتزمت تام التفاصيل يستحضر فى ذهنه سمكة استوائية جميلة وردية زرقاء، سمكة رقيقة بطول بوصة اشتراها فى صباه ليضعها فى حوض السمك بشالوت، راحت تلك المخلوقات الصغيرة الغامضة تتقدم إلى الأمام بذيولها الناعمة وزعانفها القصيرة لتأكل الطعام الذى ينثره ديرك على صفحة المياه لها، وتتراجع بنفس السرعة الخاطفة، لها حياتها الصغيرة السحرية المتجاوزة لخيالات الصبى القائم فوقها كأنها نصف إله أخرق.

استرسل فى كلامه: "إننى أحبك يا آريا.. لا يوجد سبب آخر لحضورى إلى هنا، أعتقد أنك تعرفين هذا، أليس كذلك؟" سمع تلك الكلمات وهو لا يكاد يصدق، كان سيقول شيئاً بالغ الاختلاف، عن رغبته فى رؤيتها ثانية، أحس بالتزامه بأن يضيف، لأنها كانت تحدق فى مشروبها فى تجهم: "أرجوك ألا تسىء فهمى يا آريا، فى العادة أكون مشغولاً فى أيام الإثنين، من الإثنين إلى الجمعة عمل، لا أجول فى العادة أرجاء ولاية نيويورك، أنا محامٍ ـ عملى رفع الدعاوى القضائية، أمارس عملى الخاص مع شريك فى مكتبين فى شلالات نياجرا وبافالو" (هل يقدم لآريا كارت العمل؟ معه بعض الكروت فى محفظته) قال مترنحاً: "أخذت ذلك الأسبوع عطلة لأكون معك فى الشلالات.. ولم يكن.. لم يكن أسبوعاً مثالياً لى، لست عاملاً بالتطوع فى الإنقاذ، وفى العادة أقضى وقتى فى العمل كل يوم، وهى أيام طويلة، أعنى.." كان لسانه كبيرًا للغاية لا يسعه فمه. لا يعرف ما يقول: "إننى غارق فى حبك يا آريا، وأريد أن أتزوجك". انتهى.. قالها.

قاد سيارته أكثر من ثلاثمائة ميل ليتلو هذه العبارة الغريبة على امرأة استمرت تحدق فى شرابها. كان فمها الصغير مجعدًا وكأنها تحاول أن تعطس. أخيرًا تكلمت فى صرامة: "تتزوجنى! إنك لا تعرفنى حتى".

قال ديرك فى وهن: "لست بحاجة لمعرفتك.. إننى أحبك".

– هذا سخف.

– لماذا هو سخف؟ إنه حب.

– ستهجرنى، مثل الآخر.

تكلمت فى حزن، ورشفت جرعة من الشمبانيا.

– لماذا بربك أهجرك؟ لن أهجرك أبدًا.

هزت "آريا" رأسها، ومسحت عينيها. بدا فجأة أنها على وشك البكاء.

قال ديرك فى رفق: "أعرف، مررت بتجربة رهيبة، لكننى لست شبيهاً بـ.." توقف، لا يريد أن يلمح إلى الآخر بأية طريقة، تمنى ألا يضطرا فى حياتهما معاً للإشارة إلى الآخر أبدًا إذا قدر على تفادى هذا.. "لست شبيهاً بأى شخص غيرى.. أى شخص عرفته، إذا عرفتنى يا عزيزتى، ستفهمين".

رفرفت تلك الملحوظة الجريئة فى الهواء كعبق الزهرات البرية فوق البيانو.

- لكننى لا أعرفك يا سيد برنابى.

- أرجوك نادينى باسم ديرك يا آريا. أيمكنك هذا؟

- سيد ديرك برنابى. لا أعرفك.

- ستعرفيننى.. يمكن أن نبقى مخطوبين بقدر ما شئت، وقضينا ذلك الأسبوع معًا، ذلك السهر.. كان أسبوعاً طويلاً كما أعدّه".

قطبت "آريا" جبينها كطفلة عنيدة. وبدا أنها على وشك معارضة ديرك، ثم عدلت عن هذا واجترعت جرعة أخرى من الشمبانيا.. ارتعشت رموش عينيها فى نشوة.

حب هذه الأنثى التى لا سبيل لتوقع أفعالها حب شديد القوة، أحس ديرك بالأرض تميد تحت قدميه، وللحظة ربما حسب أنه على صفحة النهر فى قارب صغير لا يراه أو يشعر به.

- آريا، هل لى أن أقبّلك؟ مرة واحدة.

لم يبد على "آريا" السمع. هزت رأسها كأنها تحاول أن تصفى ذهنها: "للشمبانيا تأثير قوى علىّ".

- كيف هذا؟

- تأثير شرير شقى.

ضحك ديرك.. "أتمنى هذا". ضحكت آريا بغرابة. تذكر ديرك ضحكتها الغريبة حين رأت جثة زوجها الراحل المنتفخة لأول مرة.

- لكننى كبيرة عليك، آكاد آكون كذلك.. الرجال يفضلون الفتيات الصغيرات.. أليس كذلك؟

قال ديرك بانزعاج: "لست رجالاً، أنا نفسى، ولا أريد فتاة صغيرة، أريدك أنت.

شربت آريا الشمبانيا.. ابتسمت آريا بغموض.

- الأرملة - العروس ذات السمعة السيئة، إنك بالغ الشجاعة يا سيدى".

- "أريد زوجة أحترمها فكريًا زوجة أذكى وأكثر حساسية منى، وأقوى كذلك، زوجة موهوبة فى شىء لست موهوبًا فيه".

كلام عنيف للغاية! بدا ديرك لنفسه كأنه رجل يقاتل دفاعًا عن حياته. قالت آريا متفكرة: "لكن ربما تهجرنى أيضًا، فى شهر عسلنا".

كم هى مثيرة للغضب هذه المرأة! استشرف ديرك حياة من النزال.

- "آريا، لماذا أهجرك؟ إننى أعشقك.. إنك روحى".

مال إلى الأمام باندفاع وأمسك بوجه آريا الساخن بين يديه وقبلها فى فمها الذى كان طيعاً ليناً على غير المتوقع، دافئاً، ودودًا، اعتراه القليل من الدهشة لأن المرأة قبّلته هى الأخرى حتى وقد بدا أنها تضحك له.

٧ يوليو ١٩٥٠

ستقول نعم.. نعم بجسدها المتلهف المتوثب كالقطة المتوثبة التى تلصق نفسها برجل.. نعم لوجهه الكبير الصبوح كالقمر.. نعم لعينيه الواسعتين الفزعتين. نعم لصوته الرخيم الرحيب، لصوته العميق بلا جهد منه. نعم لما تراه صلاحًا فى الرجل، لكرم أخلاقه.. نعم لفمه الذى قد تجرحه كلمات طائشة منها.. نعم لشجاعته.. لجرأته، لأنها كانت عروسًا لرجل آخر، إن لم تكن زوجة رجل آخر.. رجل آخر تزوجها وإن لم يحبها، كانت عذراء فى الحب وعذراء الجسد وإن شعرت ببذرة زوجها الشاب الحارة كالحقد تلج أحشاءها، وتمضى إلى شعرها الأشعث الكثيف بين ساقيها، لكن نعم، ستتزوج ديرك برنابى. نعم لباقة الزهور البرية.. نعم للمسات يديه الكبيرتين الرفيقتين، للسانه.. نعم لحرارة قضيبه المدهشة ووزنه وصلابته وحجمه، ذلك الذى ليبدو لآريا قبل ساعة من الآن، قبل كوبين سريعين من الشمبانيا، أكثر الأفكار حرمانية لها، الآن هو أكثر الأفكار عذوبة ودلالاً.. نعم لفمه ذى القبلات الذى التهم فمها.. نعم لكتفيه مفتولتى العضلات، لظهره، لفخذيه. نعم لشعره المتهدل على وجهه، وعلى وجهها. نعم وإن كان جزءًا منها يعرف أنه سيهجرها هو الآخر.. نعم وإن كان جزءًا منها يعرف أنها ملعونة.. نعم وإن كانت، وبينما هى ملعونة، لا تستحق هذه السعادة. نعم وإن كانت، وبينما هى ملعونة، لا تهتم إن كانت تستحق السعادة، أو إن كانت ملعونة. نعم لذكاء هذا الرجل الواضح، نعم لتهذيب الرجل لحسه بالدعابة. نعم لأنه ضحك وجعلها تضحك، دون قصد منه، نعم لضحكاته العميقة القادمة من بطنه، ضحكاته التى تسخن الدماء فى وجهه

الصبيانى الجميل.. نعم لوزنه المسترخى فوقها. نعم لهذا الاسترخاء، الذى لم تكن تتوقعه، ما كانت لتتخيله.. نعم لخطر الحمل، الذى لم يعد يعنى آريا فى فورية ومفاجأة اللحظة أكثر مما يعنى الأنثى فى حرارة المضاجعة الأولى، فى حرارة الحب الأولى، فى حرارة وسعار وجنون الحب الأول.. نعم لخطر الحمل من رجل لا تكاد تعرفه.. نعم وإن كانت (وبتفكيرها المعتل) تشعر بالرعب من أنها قد تكون حاملاً بالفعل، من ليلة عرسها الكارثية. من فيضان الحمض الحار الوحيد كالحقد، لكن نعم لرغبة هذا الرجل الخام فيها.. نعم لرائحته كرائحة الخبز المُحضر بالخميرة، نعم لما يشع من عينيه، لحبه لها.. نعم لحقيقة (وهى تعرف!) أنه لا يكاد يعرفها.. نعم للإحساس الملتهب فى عانتها. نعم للارتقاء لأعلى، وأعلى، وكأنها نافورة نفاثة.. نعم لكونها تتأوه وتصرخ، نعم وإن كان لابد أن شكل فمها قبيح، مفتوح على اتساعه، شفتاها مسحوبتان للخلف تكشفان عن أسنانها المكشرة، نعم للرجل الذى مارس الحب معها بعذوبة هكذا، وغمر جسدها الصغير.. اللامحدود.. الذى لا يكل ولا يهدأ.

الجزء الثانى
الزواج

تزوجـــــا

ـ ١ ـ

تزوجا.

زواجًا سريعًا، فى أواخر يوليو من عام ١٩٥٠.

ـ "لا وقت للخطوبة. "ديرك" وأنا لا نؤمن بهذه العادات البرجوازية".

كانت "آريا" تتكلم مبهورة الأنفاس وهى تعض شفتها لتكبح ضحكتها.

وكما قال "ديرك برنابى"، على نحو أكثر جدية: "حين يكون الحب من أول نظرة، فلم لا تستسلم.. إنك مقبور". مقبور بالسعادة! هكذا رأى العاشقان.

تزوجا، لدهشة كل من يعرفونهما، خاصة الأقارب والأصدقاء والمعارف من جانب "آل ليترل" فى تروى بنيويورك.. قالت "آريا": "بالطبع لا يوافق أحد، لكننا قررنا ألا نهتم بهذا" أرادت أن تقول قررنا ألا نبالى، لكنها أمسكت لسانها.

وهى واقعة فى حب "ديرك برنابى"، سعيدة فى حبه، اضطرت "آريا" أن تعض لسانها بعدها خشية أن تبدو وكأنها تتكلم بسفه.. خشية أن تتكلم بصفاقة، خشية أن تتكلم بصدق.

فى عامها الثلاثين لم تكتشف آريا الحب فحسب، بل الجنس أيضًا. وليس الجنس فقط، بل الجنس مع "ديرك برنابى". ممارسة الحب كما يُطلق عليه "ممارسة الحب". آه، يا للاسم الملائم! يمكن أن يلهمك الكلام بجرأة، أن تصدم الناس وتسىء إليهم. يمكن أن يلهمك قول أشياء لم تحلم

يوماً بقولها، حين كنت تبذلين الجهد (معظم الوقت حاولت بذل الجهد) لكى تكونى ابنة قس مهذبة محتشمة.. "ليدى".

قال ديرك: "لا يسعنا الاهتمام بعدم موافقة الآخرين.. أسرتك وأمى" توقف، وراح يحدق فجأة باهتمام بالغ فى بقعة فى الأرض ـ إذ كان يفكر فى الآخر ـ الزوج الأول، "آل إرسكين".. "لا، لا يسعنا الاهتمام، ولا نهتم. إننا متزوجان، وهذا كل ما فى الأمر".

قالت "آريا": "لا. هذا كل ما فى الموضوع".

تلامس زوجها بطريقتها تلك "المداعبة السرية" التى كادت تتقنها تمام الإتقان.. نظرته، التى قصد أن تكون صارمة وجادة، تغمرها الرغبة المفاجئة.

تزوجا، وضحكت "آريا" قائلة: "يمكننا أن نفعل هذا طوال الوقت، أليس كذلك؟ يا إلهى".

- "يا إلهى، كما تقصدين".

يداعبها بطريقته السرية تلك، التى تجعلها تلهث وتصرخ وتستجدى رحمته كما لم تفعل من قبل أو تتخيل أنها تفعل، كابنة قس من "تروى" بنيويورك.

تزوجا وعاشا فى شلالات نياجرا فى بيت لونا بارك. هناك كانا يمارسان الحب طوال الوقت، أو تقريباً طوال الوقت.

سيهجرها ذات يوم، كانت تعرف، لكنها لم تفكر فى هذا قط، فهى سعيدة بالتفكير فى هذا.

لا تفكرى فى هذا.. لا تكونى معتلة التفكير. هكذا قالت آريا لنفسها، أرادت أن تكون ـ فى هذا الزواج المعجزة ـ امرأة عملية بسيطة بالغة البساطة.

أرادت أن تكون امرأة محبة، لا تشعر بالحرج، كل مساء على العشاء يتناولان النبيذ، يسكبه ديرك فى أكواب كريستالية براقة.

ذلك الإحساس الشقى المحبب، ينتهك آريا كالعسل الذائب "أحبك.. أحبك.. أحبك".. أحياناً وهو يضحك يرفعها بين يديه، ويضعها على كتفه ويصعد بها للدور العلوى. لم تكن حاملاً بعد، أو ربما كانت كذلك؟

لا تكونى معتلة التفكير يا "آريا"!

كثيراً ما تأخذ معها زجاجة النبيذ للدور العلوى، خاصة الشيانتى، طالما هى مفتوحة ولم تنته تماماً، فلا يجب أن تتركها تفسد.

تزوجا، ولم ينظرا خلفهما قط. السرير النحاسى كثير الصرير والاهتزاز فى الطابق الثالث من البيت رقم ٧ فى لونا بارك! فى حجرة نوم الرجل الأعزب ذات ورق الحائط الحريرى والبساط الصينى الأخضر خضاراً عميقاً والتى تبعث فيك إحساساً لذيذاً كلما غرست أصابع قدميك العارية فيها. فى البيت على الطراز النيو جورجى على بعد أقل من نصف ميل من شلالات نياجرا، فى البيت الذى ـ وفى ليالى الصيف والنوافذ مفتوحة –تلقى فيه الفراشات الليلية بنفسها على النوافذ كأفكار خفاقة ناعمة، وتسمع على بعد همهمة الشلالات التى لا تتوقف أبداً.

تزوجا وصارا صغيرين. أصغر مما يذكران حين كانا طفلاً وطفلة.

– نشأت فى شالوت.

– نشأت فى بيت القس.

– كنا أصحاب امتياز، كانت لدينا النقود.

– كنا أصحاب امتياز، كان لدينا الرب.

ضحكا.. ارتجفا، وتعانقا.. كانا عاريين كثعابين الماء أصابع أقدام كثيرة تحت الأغطية عند طرف السرير. لم يرغب أيهما فى التفكير كم كان لقاؤهما عرضياً، وكذلك كيف تقابلا وأحبا أحدهما الآخر، وتزوجا.

لم يرغب أيهما فى تخمين مدى عزلتهما فى الحياة إن كان الزوج الآخر لم يلق بنفسه فى شلالات هورسشو.

لا. لن تكونى معتلة التفكير بعد الآن أبداً.

تزوجا، وأصبح كل منهما أقرب صديق للآخر. وأدرك كل منهما أنه لم يحظ بصديق مقرب إلى أن تقابلا.

تزوجا. اختفى أرق "ديرك برنابى" الأسطورى. وإن كان رجلاً ضخماً، ومع طعام "آريا" المنزلى اللذيذ سيصبح أضخم، اكتشف "ديرك" فى نفسه ميلاً إلى اللجوء لحضن زوجته العظمى النحيل، رغبة فى دفن وجهه فى عنقها، رغبة فى النوم فى رضاء تام، ولا تخطر له فكرة عن عمله أو أمواله أو أمه التى تزداد فى غرابة أطوارها ـ تزعجه. آه، الحياة بسيطة. الحياة حياة.

ظلت "آريا" مستيقظة، وقد أخذته بين ذراعيها، أرادت أن تظل مستيقظة، وأن تنعم به.. أن تحدق فيه برضاء تام، زوجها.. رجلها! كان الرجل الأروع الذى قابلته يوماً، والذى ستعرفه يوماً، دعك من ملامسته وقبلاته.. كان الرجل الأروع الذى قد تحلم به أية فتاة، فى تروى بنيويورك، رأت كيف تنظر إليه النساء فى الشارع.. ربما ستشعر بالغيرة يوماً، لكن ليس بعد.

مسحت على كتفيه برفق، وعلى جبينه، وأسفل فكه بشعر ذقنه النابت عليه، أحبت فى "ديرك برنابى" أنه رجل ضخم، أنه يشغل مساحة كبيرة من حياتها، أصبحت لا تعرف كيف كانت حياتها قبله، لم تكن حياة. لم تكن قد بدأت بعد.. شعره الكتانى الجميل الثقيل الأشعث الذى لم تكتشف فيه شعرة رمادية واحدة.. أحياناً تشعر بدفقة من الحسد، فشعرها الأحمر نفسه حال لونه سريعاً، غزاه الشعر الرمادى والفضى بل وحتى الأبيض، ترى أنها عانت من صدمة ما، بوجه فتاة لكن شعرها خط فيه الشعر الرمادى، سرعان ما ستبدو شمطاء. لكنها مندفعة فى حياتها فلا وقت لديها لتصبغ شعرها، (أو ربما لم تكن مندفعة بما يكفى).

نام "ديرك"، ويبدو أن وزنه زاد فى نومه. راح يتنفس من فمه، مصدراً صوت صفير مبتلاً.. أحبت ذلك الصوت. قبلت جبينه. سمعته يغمغم لها

فى نومه بكلمات لا تسمعها أو تفهمها، لكنها بدت لها "آريا" أحبك، ثم غرق فى نومه مجددًا، نادرًا ما ينام أقل من ثمانى ساعات كل ليلة، الآن بعدما تزوجا فى أمان. حاولت "آريا" أن تتخذ بجسدها العارى اللزج وضعاً يبعد الخدر عن ذراعها وساقها وجنبها، بعدما انقطع تدفق الدم إلى هذه الأجزاء نتيجة وزن زوجها، أحبت ذلك الوزن.. حين يمارس الحب معها تريده أن يدهسها، أن يسويها بالأرض "تعال داخلى! أعمق".. الغريب أن الرجل يدخل جسدها وفى الوقت نفسه يبدو كأنه يحيطها، غريب أنهما ينطبقان على أحدهما الآخر تمام الانطباق، كاليد فى القفاز، وإن كان ليرى أى شخص من نظرة واحدة أن حجميهما ليسا متناسبين.

غمغمة الشلالات البعيدة.. غمغمة دمائهما.

ربما كانت حاملاً؟ كم سيندهش "ديرك" لهذا.

أو ربما لن يندهش؛ فلم يتخذا أية احتياطات فى بيت "آريا" بتروى، ولم يتخذا أية احتياطات منذ ذلك الحين.. هل مفهوم بينهما أنهما يريدان أطفالا؟

إنك تعيش مرة واحدة فقط. استقت "آريا" هذه الجملة من "ديرك"، وبدت لها قدرية ومتفائلة فى الوقت نفسه إنك تعيش مرة واحدة فقط.. تجعلها تبتسم، ويبدو أنها تحملك على فعل أيًا يكن ما تريد فعله. تزوجا، وكانت كل ليلة مغامرة. كان الرجل جديدًا للغاية فى حياتها السرية، ولم يكن له اسم دوماً.

زوج تكفى. قبضت على الزوج بقوة. ذراعاها المنمشتان نحيلتان لكن قويتان، قوة الدهاء واليأس، كانت تعزف البيانو منذ الثامنة من عمرها، مما يعنى الضرب على البيانو بلا توقف بجنون، فهذا يقوى الذراعين والمعصمين والأصابع، تتعجب من أنها اختصت نفسها بهذا الرجل المدهش، بين ذراعيها. لكنها كانت متواضعة أيضاً، ربما خائفة حتى وهى تعرف من تجربة سابقة أن الرب ـ الذى لم تؤمن به، فى وقت النهار على الأقل ـ يمكنه أن يختطفه منها فى أى وقت.

كانا يمارسان الحب فى النهار، ويمارسان الحب فى الليل بدرجات، بتدريج لا تشعر معه بالتغير، ممارسة الحب بالنهار ـ بما يصحبه من إحساس بالحرمانية، مثل تناول الشيكولاتة قبل وجبة طعام ـ ستتلاشى، مع تلاشى جدّة وإثارة الزواج الجديد، لكن ممارسة حب الليل ستستمر، ستستمر جياشة العاطفة تتمتع بالاحترام، لبعض الوقت وبعد ممارسة الحب تعانق آريا زوجها، الذى ينبش لنفسه مكاناً فى جسدها غارقاً فى عرقه، وتمسح على جسده الضخم المدهش، وتنعم شعره الأشعث وتبعده عن عينيه وتغمغم أحبك! يا زوجى، ولا تصدق أن أية زوجة عشقت زوجها كما تفعل هى، لا تصدق أن أمها وأباها اللذين تغربت عنهما كانا يعشقان أحدهما الآخر هكذا، دائمًا ما كان السيد والسيدة "ليترل" فى منتصف العمر. "آريا" تشفق عليهما. "آريا" خائفة من أن يصبحا مثالاً يحتذى، لن يحدث هذا لى أبدًا.. لى ولهذا الرجل.

ابتسمت لفكرة أن "آريا" ليترل كانت فتاة نكدة عابسة مشاكسة نشأت فى بيت القس تحت أعين الكبار المراقبة.. فتاة حادة اللسان وحادة المرفقين، فتاة مدرسية ودائماً تلميذة متفوقة، لا تهدأ ولا تستقر فى جلستها فى الكنيسة فى أثناء المراسم التى يؤديها والدها، لكن، وبطريقة ما وبرغم أنها لا تستحق، أصبحت سعيدة.

وذات ليلة بعدما أصبحت حاملة لاسم السيدة "ديرك برنابى" لخمسة عشر يوماً، رأت من خلال النافذة ذات الشباك وراء سريرهما هلالاً يلمع من وراء أعمدة الضباب مثل عين تغمز. كانت تعانق زوجها الغارق فى نومه، غارقة بين ذراعيه، أرادت حمايته للأبد! لكن جفنيها بدءا يرفان. وراح جسدها يرتجف. فتحت عينيها على اتساعهما لترى زوجها يعبر من فوق شلالات نياجرا على.. ما هو.. حبل.. حبل؟ وظهره لها، شعره الكتانى الجميل يتطاير مع الرياح، كان يرتدى زياً أسود، زياً كنسياً، كان يحمل قضيباً من خشب البامبو بطول اثنى عشر قدماً ليوازن نفسه، ثم هبت الرياح.. لماذا يفعل شيئاً كهذا؟ لماذا وهما يحبان بعضهما بشدة هكذا؟

وعلى الشاطئ مالت آريا على السور الحديدى الذى انغرس فى خصرها وصاحت إليه بصوت متألم رهيب.. عدا أحبك! لا يمكنك أن تهجرنى!

ـ ٢ ـ

تزوجا، فى حب وفى عجلة. وسط الهمسات والهمهمات والاتهامات، تصريحات بالرفض تسيل الدموع، كيف أمكنكِ فيم كنت تفكرين.. فى نفسك فقط؟ بعد موت "جيلبرت" مباشرة؟ ألا تخجلين؟

تزوجا فى مراسم زواج مدنية موجزة وليس فى كنيسة، ليس فى ديار العروس فى "تروى"، بل فى شلالات نياجرا، مراسم خاصة فى مبنى البلدية ولم تتم دعوة الأقارب.. يا للعار!

خفق قلب "آريا" بقوة. ملعونة هى إذا بكت. أرادت ألا تبكى ثانية أبداً، وكانت بالغة السعادة.

شرحت "آريا" الأمر بوقار: "فى الواقع هناك عار.. العالم زاخر بالعار كالقمامة المتعفنة. مخيمات الموت.. جثث مكومة كأنها قطع الحطب فوق بعضها "الناجون" كالهياكل العظمية، رأيتم الصور كما رأيتها فى مجلة لايف. شاهدتم نفس التاريخ الذى شاهدته هذا هو العار وأكثر من العار، لكن "ديرك برنابى" وأنا لا أشترك فى هذا العار، كما ترين.. نحب بعضنا ولا سبب لدينا للتظاهر بأننا لا نفعل، وعلى الأخص لا سبب لدينا لنتظاهر بأن سلوكنا الخاص هو شأن أحد غيرنا".

وألقتها بلا أى تردد كانت خطبة صغيرة عبقرية. اعترت رجفة صغيرة شفة "آريا" السفلى وقد طفت بعض المشاعر إلى وجهها.

مرضت السيدة "ليترل". أما المبجل ليترل، الغاضب كالمسيح وهو يُخرج المرابين من المعبد، منع ابنته من العودة إلى الكنيسة، إلى الأبد.

تزوجا، بلا حاجة للقسم بالزواج إلى أن يفرقنا الموت.

تزوجا، ولم يكن للرب شأن بسعادتهما.

تزوجا، ومحتمل أن العروس حامل. فى حومة الحب الأول حاولت "آريا" ألا تفكر فى ثمار الحب.. فى تلك الأيام والأسابيع الأولى كان عقلها

غارقًا فى حمى الحب، كانت فتاة صغيرة ترقص! ترقص! ترقص! طوال الليل ولا تتعب أبدًا.

لم أتمكن من أن أقول لزوجى: ربما أنا حامل، ربما لا تكون الأب، مثلما لم أتمكن من أن أقول لهذا الرجل: أعرف أنك ستهجرنى ذات يوم. أعرف أننى ملعونة. لكن إلى ذلك الحين، سأبقى زوجتك المحبة.

تزوجا، وفى الزواج تتوقع قدوم الأطفال.. عاجلاً أو آجلاً. تزوجا، كالقول بأنهما قاما بالاقتران، الاقتران هو ما يترتب بدنياً ومادياً على الزواج، وليس فى هذا إلا القليل من التجريدية.

- لابد أن أكون واقعية.

وهكذا وبخت آريا نفسها، فى حومة رضاها فى الزواج وإن كان عليها التعامل مع حقائق معينة لن تولىّ وحدها.

وأحدها: لم تأتها "الدورة" منذ أسابيع، كم تكره تلك الكلمة! يتجعد أنفها منها فى تقزز. "دورتها" الأخيرة كانت قبل عيد الفصح: ١٥ إبريل. قبل ما ابتليت به وهى ما زالت باسم السيدة "إرسكين". لم تشك "آريا" فى أنها لم تمر بالدورة بسبب الفزع والخوف الذى أحست به مع عرسها. خف وزنها، ولم تكن يوماً المذكور فى كتب الطب بأنها "طبيعية"، جاء بلوغها، كلمة قبيحة أخرى ـ متأخرًا، ولم يتدور ثدياها ولا مؤخرتها أو بدأت فى الإصابة بالدورة الشهرية هذه الكلمة القبيحة تكرهها أكثر من أى شىء حتى سن السادسة عشرة. آخر فتاة (إحدى الأخيرات) فى فصلها بالثانوية. ثم أصبحت "منتظمة" (كلمة أخرى مهينة!). إذا كانت السيدة ليترل، المرأة ذات الثديين والفخذين الريانة، مهتمة بحالة ابنتها البدنية، فلابد أنها كانت تشعر بإحراج شديد بحيث لم تتكلم معها فى هذا الأمر. وحين بدأت آريا تفوت "الدورة" فى الثانوية، أخذتها السيدة ليترل إلى طبيب الأسرة الذى غمغم وهو يحدق فى مكتبه أن "آريا" "مثل بعض الفتيات اللاتى يكبرن ببطء".. "ينضجن ببطء".. مصابة بحالة تسمى تأخر الدورة الشهرية.

تأخر الدورة الشهرية! أقبح كلمة إلى الآن.

جلست "آريا" متجمدة فى مكانها فى مكتب الدكتور "ماجرودر"، تحدق فى يديها المنمشتين وفى أظافرها المتآكلة والمستقرة فى حجرها.

تأخر الدورة الشهرية، كانت هذه فى الأغلب، كما قال الدكتور "ماجرودر" متلعثماً، حالة تصيب الفتيات ذوات الوزن الأقل من الطبيعى "البطيئات" فى النضج.

لكن لم يمثل هذا صعوبة لآريا تحول دون حمل آريا حين تزوجت أخيراً.

أو ربما يعنى هذا، كما راحت "آريا" تخمن الآن، أن بدء الحمل سيكون صعب التنبؤ به، ما لم تهرعى إلى طبيب ليجرى لك تحليل الحمل.. وهو ما لم تكن آريا ستفعله.

- يا إلهى.. لا تقبل على الكلام إلى "ديرك برنابى" عن هذه الأمور الأنثوية الكئيبة "المشكلات الأنثوية" السيد والسيدة "برنابى" زوج رومانسى مثل فريد أستير وجينجر روجرز. حين يدخل أحدهما الحجرة التى يجلس فيها الآخر؛ تسمع موسيقى راقصة تعزف.

تزوجا، وهكذا أصبحا زوجاً وزوجة.

تنتظرهما هذه الأدوار حين يدخلان إلى البيت رقم ٧ بلونا بارك، ويرتديان الروب المنزلى الخاص بكل منهما فى سعادة.. وامتنان.

قال ديرك فى عجب: "لا يسعنى تخيل حياتى قبلك يا "آريا". لابد أنها كانت بالغة الضحالة.. لابد أنها كانت حياة بلا هواء أتنفسه".

مسحت "آريا" الدموع من مقلتيها لكن لم تعرف كيف ترد، تذكر حياتها جيداً قبل "ديرك"، حياة ابنة القس النظيفة المشغولة المحدودة كأنها رداء مشدود على الجسد. كانت لديها الموسيقى بالطبع، وتلاميذها، ووالداها.. أسرتها، لكن التفكير فى تلك الحياة الآن يجعل حلقها يضيق.. أحست بالاختناق.. لا هواء تتنفسه!

هـرعت إلى زوجها كانت حافية القدمين، وكانا في حجرة نومهما يرتديان ثيابهما في صباح أغسطسي ضبابي رطب، وضغطت جسدها بين ذراعيه المندهشتين، وأحاطت بذراعيها خصره. قلب الرجل بحجم القبضة يخفق على أذن آريا كالبندول.

ديرك، عزيزي.. أعتقد أنني.. ربما أكون.. يراودني هذا الإحساس أحياناً، أنني ربما أكون.. حبلى. لكن لا.. لم تتمكن "آريا" من البوح بخوفها؛ وخشية ظهور تلك النظرة المنزعجة في عيني زوجها.. ليس الآن.

تزوجا وما بقي من حياتهما سيصبح شهر عسل، كانا على ثقة تامة من هذا!

تزوجا ومنح "ديرك برنابي" زوجته ذات الشعر الأحمر أكثر الهدايا اختياراً بعناية.. بيانو مصنوع من خشب أشجار الكرز. أوقد شموعًا في حجرة المعيشة وانعكس اللهب الضنين على الخشب المصقول اللامع.

ـ لكن لماذا؟ ماذا فعلت لأستحق هذا؟

أجفلت صيحة "آريا" زوجها، بدا أنها خائفة.

كان البيانو هدية في مناسبة.. مرور ثلاثة شهور منذ رأيا أحدهما الآخر لأول مرة.

ثلاثة شهور.. لن تحسب آريا ما يعنيه هذا.

ثلاثة شهور.. لا، لن تفكر في هذا.

أحست بالدوار، بالغثيان.. لكن الأرجح أن السبب هو نبيذ شيانتي.

وذلك الإحساس العسلي الدافئ في عانتها.. الشيانتي. قبلت "آريا" زوجها وعانقته بقوة حتى أنه ضحك "رفقاً!" خفف من عناقها برفق، قال إنه يريدها أن تعزف له. لم تعزف البيانو، ولا حتى نغمة واحدة، منذ ذهب إلى تروي ليأخذها.

وهكذا جلست" آريا" إلى البيانو وراحت تعزف لزوجها، وهي ترشف النبيذ بين المعزوفات، من الكأس الكريستالي البراق. هذا البيانو أجمل آلة

موسيقية تلامسها أصابع "آريا"، دعك من أن تعزف عليها، انهمرت الدموع من مقلتيها وجرت على وجنتيها. "وديرك" ينصت باهتمام ورأسه الكبير يتمايل مع الأنغام.. أخذت "آريا" بيده إلى حفل من قطعها الموسيقية المفضلة منذ عهد البكارة.. قطعة لموتسارت، وفالس لشوبان وكلير دى لونا من أعمال ديبوسيه، وكل قطعة تنتهى ينفجر بعدها "ديرك" فى التصفيق، كان متأثراً تأثراً عميقاً صادقاً، حقاً رأى فى زوجته عازفة بيانو موهوبة، وليس فقط فتاة عازفة هاوية من "تروى" بنيويورك، كثيرًا ما ذهب إلى حفلات فى قاعة موسيقى كلينهام فى بافالو، كما قال. وسمع أداء العازفين فى قاعة كارنيجى فى مانهاتن وذهب إلى الأوبرا حيث شاهد كارمين ولا ترافياتا، وكان والده الراحل فرجيل برنابى - الذى لن تقابله "آريا" قط يملك إسطوانات كاروسو التى كثيرًا ما سمعها ديرك فى صباه. كاروسو يغنى حلاّق سيفيل والسفينة الشبح، كاروسو فى عطيل.

لا تعرف كيف وصل بهما عزفها الصادق على البيانو إلى كاروسو العظيم البهى، لكن الصلة بينهما تطربها. إنه يحبنى. سيصدق عنى أى شىء. حقيقة غريبة دقيقة هى، كأن تفتح يدك وتكتشف فى راحتك بيضة صغيرة من بيضات أبى الحناء.

تزوجا.. فجأة، ودون اعتذارات دون مقدمات، دون التفكير فى كيف سننجز الأشياء، أو كيف لن ننجز الأشياء.. قالت "آريا": "على الأقل لم نفر".

ألقى ديرك بالصحيفة التى كان يقرؤها وهو يمثل إحساسه بالامتعاض.

- اللعنة يا "آريا"، لماذا لم تفكرى فى هذا حينها؟

تزوجا، وبعد أسابيع قليلة جاء للسيدة "آريا برنابى" فى المنزل رقم ٧ بلونا بارك فى شلالات نياجرا، خطاب مسجل بخط اليد من السيدة "إدنا إرسكين"، كان طابع البريد من فئة الثلاثة سنتات على الظرف مقلوباً.

- أم جيلبرت.. يا إلهى، تريد أن تعرف إذا كنت حبلى.. لا، هذا لا يمكن!

ألقت "آريا" بالخطاب فى خوف دون أن تفتحه.

تزوجا، وأعلنت المرأة التى كانت حماة "آريا"، كلاودين برنابى، ومن خلال شقيقتى "ديرك كلاريس" و"سيلفيا"، أنها "تفكر جدياً فى أن تحرم من الميراث.. ابنها العاق.

تزوجا وأقاما فى بيت "ديرك برنابى" فى البيت رقم ٧ لونا بارك؛ حيث بدا لآريا أن النساء الأخريات من الحين للآخر - كن يزرن البيت، إن لم يقمن فيه لفترات طويلة، كانت تعرف هذا لأن الجيران أطلعوها عليه، السيدة كوتون المقيمة فى المنزل المجاور، وسيدة ماكاى المقيمة فى المنزل المقابل، نساء أنيقات للغاية.. بعضهن كذلك! وفتيات استعراض على ما يبدو، وأطلعتها شقيقتا ديرك الأكبر، اللتان قابلتهما آريا مرتين فقط، لم نحسب قط أن ديرك سينهار ويتزوج. شقيقنا الصغير كان دومًا وغدًا مدللاً غير ناضج.

قال ديرك: "كلاريس.. سيلفيا"، وكأنه يقرأ أسماء مكتوبة أمامه.. "قدران من ثلاثة أقدار، وكلاودين هى القدر الثالث".

من الحين للآخر فى الأسابيع الأولى فى لونا بارك كان الهاتف يرن وإذا أجابت "آريا" "آلو" يجيبها صمت كئيب من الطرف الآخر "هذه دار برنابى، آلو" (إذ ربما كانت "آريا" تشعر بالعزلة فى هذا المكان الجديد. فى المدينة الواقعة على مشارف شلالات نياجرا حيث ذاعت شهرة أرملة/عروس الشلالات يومًا بين الجماهير، ولكن حيث لا يعرف أحدٌ "آريا برنابى"). "أعرف أنك تسمعيننى، إننى أسمع أنفاسك.. من أنت؟" ارتجفت يد "آريا" وهى ممسكة بالسماعة.. لا، لم تكن خائفة.. كانت منزعجة، هذا بيتها وهذا هو رقم هاتفها، كما أنه رقم زوجها، تبينت صوت أنثى تتنفس فى التليفون: "إذا كنت تريدين الكلام إلى "ديرك برنابى"، فأخشى أنه ليس هنا" فكرت "آريا" فى أن تضيف المزيد لكنها امتنعت.. فقد تزوج، وأنا زوجته.

كانت المكالمات تأتى أحياناً و"ديرك" فى البيت، قررت "آريا" ألا تنصت.. ألا "تتسمع" أبدًا.. لم تكن لتصبح هذا النوع من الزوجات. تعرف أن زوجها كانت له حياته كشخص أعزب قبل أن يقابلها، لكن هذا كان منذ زمن بعيد، منذ عدة شهور. هناك امرأة لحوحة تدعى "جوين"، وأخرى شديدة الإلحاح تدعى "كاندى". "كاندى": اسم فتاة استعراضات بلا شك ـ. ومرة أو مرتان اتصلت من تدعى (فى) قدمت نفسها لآريا قبل أن تطلب بتهذيب أن "أتكلم إلى زوجك، المحامى" جاء خطاب معطر عليه طابع بريد بافالو إلى السيد "ديرك برنابى" ممن لا شك أنها أنثى وقعت بالحروف الأولى من اسمها.." H .T " . لكن آريا لم تحضر فتح زوجها للخطاب ، إذا كان قد فتحه فعلاً؟ ربما وبدافع من احترام "آريا"، ألقى به، وحين بدأ الهاتف يرن بإصرار فى ساعات الصباح الأولى وحين أفاق "ديرك" من نومه ليسأل: "آلو.. آلو.." و"إذا كنت من أحسبه فأرجوك أن تكف، ليس هذا سلوكاً لائقاً بك"، وأخيراً حان الوقت ليغير "ديرك برنابى" رقم هاتفه، وحجبه عن دليل التليفونات. كفت المكالمات الغامضة فجأة، ولم تأت خطابات معطرة أخرى.

وهى جالسة إلى البيانو تنقر مفاتيحه العاجية الجميلة رفعت "آريا" رأسها.. إذ هُيئ لها أنها تسمع جرس الهاتف، لكن لا.

ـ ٣ ـ

بطء الدورة الشهرية. بطيئة فى البلوغ. تقول لنفسها: إنه لا بأس فى التأخر عن الدورة عدة أسابيع.

فى الواقع مرت شهور..

دائماً ما كانت فتاة نحيفة، ولك أن تقول هزيلة، فتاة متوترة وكأنها كلها مفاصل، مثل تلك الفتيات لا يحبلن. لكن يجب أن تقر "آريا" بأن وزنها يزيد، بطنها منتفخ على نحو غريب.. ثدياها الصغيران يمتلئان وحلمتاها أصبحتا حساستين، وعليها أن تقر وإن كان هذا غريبًا ولن تفكر فيه.

كانت عذراء. نثر "جيلبرت" بذرته الحمضية الحارة الغاضبة خارج جسد عروسه، كانت تعرف! مستعدة للقسم على هذا! كانت شاهدة غير متعاونة فى الجرم.

- لا يمكن أن يتسبب هذا فى وقوع الحمل.. لا أعتقد هذا.

ربى لا يمكن أن تكون بهذه القسوة! أشكرك يا ربى. كان عام١٩٥٠ . وظلت "آريا برنابى" فى البيت.

كانت زوجة تبقى فى البيت والزوج يخرج بسيارته كل يوم من أيام الأسبوع إلى المدينة وإلى مكتبه مكتب المحاماة. كان" ديرك برنابى" محامياً ناجحاً "محامى مرافعات" لا يهتم كثيراً بالقانون - كما يعترف - لكنه عمل مناسب له، وهو يعيش على المنافسة.

لم تكن "آريا" بطبيعتها امرأة خجولة، لكنها سمعت صوتها يصبح خجلاً ناعمًا، مترددًا.. ذات مساء على العشاء وهى تسأل: "هل تمانع يا عزيزى لو أعطيت دروس بيانو هنا؟ إننى أشعر ببعض الوحدة فى أثناء النهار وأفتقد تلاميذى وأحتاج لمن يشغلنى حتى.." كفت "آريا" عن الكلام فى رعب. كادت تقول حتى يصل الرضيع. لم يسمع "ديرك" هذا بالطبع.. كلمات "آريا" التى لم تقلها. تساءلت "آريا" إذا كانت قد أخطأت فى شىء الطريقة التى يتأملها بها زوجها، الطريقة التى يحدق بها إليها وهى تعزف البيانو له مؤخرًا، سوناتا بيتهوفن على سلم سى مينور، سوناتا ضوء القمر التى تعرف أن "ديرك برنابى" سيحبها، تلك الحركة الافتتاحية البطيئة الحالمة على الأخص، قال إنه لم يسمع شيئاً جميلاً هكذا من قبل، وكان يعنى ما يقول، لكن الآن تتساءل "آريا" إن كانت قد تمادت. كان عام ١٩٥٠ لكن ليس ١٩٤٢ النساء الأمريكيات لا يعملن، خاصة النساء المتزوجات من طبقة "آريا" الاجتماعية لا يعملن. تتخيل كيف كان عرضًا كهذا - وتعرضه أم "آريا" - ليبدو لأبيها، لا نساء فى عائلة ليترل سبق لهن العمل، ولا واحدة، بخلاف عمة أو عمتين غير متزوجات، عملن مدرسات للصف الابتدائى. ولا تعتبرن نسبة ذات شأن.

لكن "ديرك" أدهشها بأن أمسك بيدها وقبلها، وقال بلهفة صبيانية: "آريا"، أرجوك افعلى ما شئت فعله. أيا يكن ما يسعدك يسعدنى، إننى أغيب عنك كثيرًا، ولابد أن هذا المكان يصبح موحشاً، إنك امرأة صاحبة مستقبل مهنى.. كنت أعرف هذا، إننى فخور بك وسأذيع النبأ على الناس، لدى أصدقاء كثيرون، ويعقدون الأمل على أطفالهم، ويمكنهم تحمل تكلفة الدروس، لقد بدأت عملك يا عزيزتى" رفع كأس النبيذ فى يده فى نخب، ورفعت "آريا" كأسها. شربا، تبادلا القبلات، قال "ديرك": "حتى تصبح لنا أسرة على أية حال".

ربى لا يمكن.. ليس بهذه القسوة.. ليس مرتان.

كان منطق "آريا" فى التفكير أنه كلما انتظرت، وكلما مارست الحب مع "ديرك برنابى"؛ زاد احتمال أن يكون الطفل الذى قد تكون (وقد لا تكون) تحمله هو طفله، وليس طفل الآخر.

لم تتمكن من حمل نفسها على زيارة طبيب.. لم تتمكن، ففى هذه الحالة كانت ستعرف بما لا يدع مجالاً للشك، ستعرف إذا كانت حبلى وستضطر لإخبار ديرك، ثم ماذا بالضبط ستقوله له؟

كانت تعرف أنها جنت بهذا الأمر قليلاً.. من الإخفاء!

الوجه الشاحب الناحل فى المرآة. الخصلات الفضية فى الشعر.

تدلك جلد بطنها الشاحب المشدود، تقرص ثدييها لتعترف: كان ثدياها أكبر ما زالا صغيرين، لكنهما أكثر امتلاءً و"حساسية". الأرجح أن هذا نتيجة لقبلات زوج "آريا" الكثيرة، وعندما يمرغ أنفه فيهما، ومص الحلمتين كأنه طفل كبير شرير.. برفق عليها أن تثبطه.

وعلى البيانو، سمعت نفسها تعزف نغمات شوبان البطيئة المختارة بعناية.. تجر إلى النوم، كأناشيد الأطفال.

ـ ٤ ـ

تزوجا، وكان العام ١٩٥٠ والزوج بعيد معظم اليوم، من الإثنين إلى الجمعة، والزوجة فى البيت. الزوجة بدأت تشعر بالوحدة، حتى بعد أن بدأت تعطى دروس موسيقى مجدداً.

كانوا طلاب عزف بيانو جميعاً، وصغاراً للغاية، كان لديها طلبة أكبر بكثير وأوسع موهبة بكثير فى تروى، وتفتقدهم. وفى شلالات نياجرا لا يعرفها أحد من الوسط الموسيقى.

وكان "ديرك" يتصل "بآريا" فى وقت متأخر من الصباح من مكتبه، أو فى وسط النهار، وإذا كان يعمل لوقت متأخر، أو يقابل عميلاً لتناول الشراب معه، قد يتصل حوالى السادسة مساءً.. "حبيبتى، مرحبًا! أفتقدك" ويكون صوته رفيقاً يغمره الحب والندم، كان يأسف بصدق على التأخر على العشاء. كانت آريا تؤكد له ألا يقلق وأنها ستقدم له العشاء. وما إن تسمع سيارته تتوقف فى الممشى الخارجى؛ حتى تجهز شرابه: المارتينى بالثلج. وشراب آخر "لآريا" أيضًا، بدأت تحب مذاق هذه الزيتونات الصغيرات!

كان صوتها خافتًا مغريًا، وسمعت نفسها تتمتم بأشياء لزوجها على الهاتف لم تجرؤ على قولها وجهاً لوجه من قبل.

ويقول "ديرك" متأوهًا: "حبيبتى.. وأنا أيضًا"، وكأنه رجل يتملص فى حرارة داخل ثيابه.

أحياناً يصر "ديرك" على أن تستقل "آريا" تاكسيًا إلى المدينة وتنضم إليه. فى نادى قوارب الشلالات، أو فى فنادق شارع بروسبكت الأنيقة، أو فى مطعم ومخبز بيتزا ماريو. ويقضيان الأمسية معاً، فى الشرب والعشاء. وكانت "آريا" تشعر بالخجل وهى بين أصدقاء "ديرك برنابى" كان أصحابه كثيرين حتى إنها لا تتكبد عناء تذكر أسمائهم، وكانت قد لحقت بها سمعة أنها منعزلة، لكنها كانت بمثابة فرصة لها لارتداء ملابسها الجديدة الحديثة التى اشترتها من برجير فى بافالو، وأحذيتها عالية الكعب والمكياج، كانت تنثر شعرها وتحاول أن تعتبر الخصلات الفضية فيه فريدة الجمال، ففى "تروى" كانت تشعر بأنها غريبة بملابسها الأنيقة، لكن فى هذه الحياة الجديدة، وفى ذراع "ديرك برنابى"، تشعر بتمام الأناقة هل

تتخيل هذا أم أن فمها الرفيع المزموم قد أصبح أكثر امتلاءً الآن.. انتفخ من القبلات الكثيرة، رفعها ديرك ليقبلها: "إنك أجمل من "سوزان هايوورد"(*) فى أى يوم من أيامك، وأنت ملكى".

سوزان هايوورد! افترضت "آريا" أن نعم.. يمكن أن تكون شبيهة بها.

مطعم ماريو المزدحم المشغول كان الأشهر بين مطاعم الشلالات فى وسط السكان المحليين، خاصة رجال الأعمال والساسة ومن تربطهم الصلة بمجلس المدينة، ووسط أصحاب القوارب ووسط المقامرين، يبدو أنه سر لا يخفى على أحد أن مطعم ماريو على صلة بأسرة بافالو الإجرامية ، لم تسمع "آريا" بهذا التعبير الغريب قبل مقابلتها ديرك برنابى: "أسرة الجريمة". تعبير لغوى يجعل من الجريمة شيئاً مريحاً طيبًا على غير المتوقع، بل حتى عذب. وفى ماريو يعرف الجميع "ديرك برنابى". كانت صورته الموقعة معلقة على الجدار فى الحانة، بين عدة صور لبعض المشاهير المحليين، وكان النادل يهرع للترحيب به. والمالك، ماريو نفسه، يهز يد "ديرك" وهو يصافحه ويصحبه إلى مائدته المفضلة فى الركن الخلفى من قاعة الطعام الرئيسية. وتبتسم له النادلات فى زيهن الحريرى الأسود، ويحدقن فى آريا. وتحدق نساء أخريات.

ولا تتمكن آريا فى خجلها من سماعهن.. هى؟ تلك الصهباء النحيلة، ماذا يعجب "ديرك برنابى" فيها؟ أمسكت بذراع "ديرك" بقوة، وعصر هو يدها.

والأكثر إثارة للتوتر هو تقديمها لأصدقاء "ديرك" القدامى الذين طرفوا فى مواجهة "آريا" فى محاولة لتقييمها، كانت هناك سحابة من الدخان الأزرق فى ماريو تجعل عينى "آريا" تدمعان ولا تساعدها على إدراك ما يدور، كانت تعرف أن ديرك يريد بقوة أن تحب أصحابه، وأراد أن يحبها أصحابه، ولحسن الطالع كان معظم الرجال يتجمعون فى ماريو

(*) سوزان هايوورد ممثلة هوليودية حمراء الشعر تنتمى معظم أفلامها لعقد الأربعينيات والخمسينيات.

دون زوجاتهم، وكان أصدقاء ديرك المقربون فريقاً من محترفى شرب الخمر يلعبون البوكر معاً منذ المدرسة الثانوية فى مدرسة ماونت سان جوزيف، مع وقت مستقطع للحرب، كانوا أشخاصًا بعيون لاذعة، أكبر من "ديرك" بسنوات قليلة، يبدو عليهم المال والسلطة التى جعلت "آريا" ترى زوجها على ضوء جديد، إنه أحدهم.. ولاؤه لهم.

وببسالة جاهدت "آريا" لتحافظ على علاقتها بهؤلاء الرجال بنتائج متباينة. هناك "كلايد كولبورن" كبير العظام أصلع الرأس الذى بدا لها مألوفاً على نحو مخيف، وكأنه شخصية صغيرة من قصص "ديك تريسى" المصورة، وهناك "هارولد فيتش" ـ وتلقبه باسم باظ ـ ، الضابط صاحب الرتبة الرفيعة فى قسم شرطة شلالات نياجرا، وستروتون هويل دامع العينين، "محامٍ زميل" الذى ضغط على يد "آريا" بصدق وهنأها من قلبه على زواجها، وتيلور وين لقبه بالمخيف، الاجتماعى المضحك كأنه "إد وين"، والذى كان ضابطاً بحرياً فى الحرب وحصل على وسام القلب الأرجوانى "لأستبدل به قلبى الذى راح إلى جهنم" وتم انتخابه توًا مفتش عام مقاطعة نياجرا. وكانت "آريا" بحاجة لكأس أو كأسين حتى تشعر بقدر من الراحة فى وجود هؤلاء الرجال الصاخبين، الضاحكين. وكان حديثهم يتجنبها فى العادة. وبينهم كان "ديرك برنابى" خافت الضوء، كان شقيقهم الأصغر ناعم الشعر الذى يفخرون به، كانوا يحبون ملامسته والإيماء إليه ووخزه، لا مزحة تستحق القول إلا إذا كان "ديرك" ينصت إليها. و"آريا" تفهم هذا، لأنها زوجة "ديرك"، فهم يحترمونها ويعاملونها برفق، بل حتى أطرى عليها واحد أو اثنان منهم، لكنها تعرف أنهم لن يعتبروها أبداً لائقة "بديرك برنابى".

فهمت آريا، ولم تشعر بالغيرة. ليس بعد.

وفى العودة إلى "لونا بارك" بعد أمسيتها الأولى فى ماريو، بعد أمسية طويلة تدير الرءوس لم تنته إلا فى الواحدة صباحاً، تمتمت "آريا"، ورأسها مستند إلى كتف "ديرك" وهو يقود السيارة: "ذلك الأصلع الضخم. اسمه "كولبورن".. أيفترض أننى أعرفه يا حبيبى؟ تصرف كأنه يعرفنى".

وفى أمسية أخرى فى ماريو انجذب الانتباه لرجل فى أواسط العمر بشعر داكن ولا يحيط به ما يدل على أى تميز، وكان قد دخل قاعة الطعام فى حاشية من الرجال الآخرين.. سمعت "آريا" غمغمة باسم بالادينو. بعدها قالت لديرك: "لم تصافح هذا الرجل، كما لاحظت، حين مر بالمائدة".

قال "ديرك": "لا تفوتى شيئاً يا حلوتى، أليس كذلك؟ لم أر ذلك واضحاً لهذا الحد".

- أهو شرير؟ هل ينتمى إلى (أسرة الجريمة)؟

تكلمت "آريا" بعفوية. وكان رأسها يدور قليلاً. و"ديرك" يقود السيارة على امتداد شارع رينبو.. راحت أنوار السيارات القادمة فى الاتجاه العكسى تضرب عينها فى انفجارات ناعمة مكتومة.

- إنه رجل أعمال، كما يقول. لكن أعماله ليست من نوعى المفضل.

ذات أمسية أخرى فى ماريو، وبعد أن التهمت "آريا" فى نهم طبقاً من شئ عجينى ولذيذ يدعى الكنوتشى، وبعد أن شربت كأس مارتينى وكأسين ونصف الكأس من النبيذ، اضطرت لأن تستأذن وتسارع بالابتعاد عن المائدة فى طريقها إلى دورة مياه السيدات، لتغيب هناك عشر دقائق شاقة، وتقيأت كل ما فى بطنها. كل شئ، بدا لها هذا! بعدها، وإن كانت شاحبة وتعتريها رجفة ومرهقة، أحست بتحسن. لا تكونى سخيفة، احجزى موعداً وقابلى طبيباً. إذا كنت حبلى فهو طفل "ديرك". من غيره؟

تزوجا.. لماذا ليس هذا كافياً؟

ما الحاجة إلى أسرة، إلى أصهار؟ أصهار!

فى سرها أحبت "آريا" أن زوجها "حُرم من الميراث" بسبب زواجه.. احترمته، لأنه هز رأسه ضاحكاً حين سمع الخبر، لا يتزوج المرء من أجل النقود، بل يتزوج من أجل الحب.. نتزوج من أجل الحياة.

هذا حقيقى، "آريا" تفتقد أبويها أحياناً، ليس حقاً.. ما كانت لتتمكن من نقاش مشكلاتها مع أمها على أية حال، والمبجل "ليترل"؟ أبداً.

فى لحظات الضعف تتذكر "آريا" كلمات والدها اللاذعة.

لن نرحب بك هنا.. أنت وهو، هذا شيء رهيب الذى اقترفته. الزواج بسرعة هكذا، من رجل لا تعرفينه. و"جيلبرت" المسكين الذى رحل منذ أقل من الشهر. عار عليك يا "آريا"!

أرادت "آريا" أن تصيح بأنها لم تكن تعرف "جيلبرت إرسكين" لكنهم رجوها أن تتزوجه.

لا.. لا دفاع عن النفس ولا اعتذارات، الأفضل أن تغادر منزل القس بكرامتها.. وداعًا لحياة الابنة المطيعة.

لم تكن السيدة "آريا برنابى" محملة بعبء الآباء، فى عام ١٩٥٠ كان هذا شيئًا غريبًا، كالتجوال بعين مفقودة أو طرف مبتور لا تفتقده.

لكن ها هما، "آريا" و"ديرك"، فى طريقهما إلى شالوت.. "شالوت!".. يا له من اسم متعالٍ لبيت! فى يوم أحد زاخر بالسحب فى شهر سبتمبر. بدا على نحو ما أن "كلاودين برنابى" قد غيرت رأيها فى مسألة حرمان ابنها العاق من الميراث، وكانت تشعر بالفضول نحو زوجة ابنها.. أخيرًا.

نظرة واحدة لى وستعرف.. ستعتقد أن لهذا السبب تزوجنا سريعًا هكذا.

فى هذه الزيارة المشئومة للحماة، كانت "آريا" ترتدى رداء ورديًا من الكتان بدا أن كميه يسيران خلفها، وكأنه الكفن، كان رسغاها نحيلين للغاية بارزين من يدها، نثرت البودرة على النمش فى وجهها، وبحرص وضعت أحمر الشفاه على فمها.

- "ديرك". أنا خائفة للغاية من ألا تحبنى أمك.

- "آريا". وأنا خائف للغاية ألا تحبين أمى.

كانت "آريا" صادقة فى خوفها، وديرك يغيظها لا أكثر، لكنها رأت التوتر فى فك زوجها. الألق الرائق فى عينيه.. خمنت فى قلقها أن ديرك برنابى وإن كانت لا تعجبه تصرفات أمه الصعبة، فهو يحبها أيضًا. ويريد

أن تحبها زوجته هى الأخرى. عرض "ديرك" لآريا صورًا فوتوغرافية "لكلاودين برنابى": امرأة مدهشة قوية الفكين شقراء بعينين صارمتين وفم تعلوه ابتسامة ساخرة. شكلها كجوان كراوفورد فى فمها، وكأنه يحمل عددًا أكبر من الأسنان، وكم شعرت "آريا" بالدهشة حين قال ديرك ضاحكًا: "لا تدعى شكل أمى العذب يخدعك يا عزيزتى".

كانت هذه زيارة "آريا" الأولى لأيل جراند، التى بدت وكأنها تطفو فوق نهر نياجرا المتدفق، فى منتصف الطريق بين شلالات نياجرا وبافالو.. تم بناء شالوت على الطرف الجنوبى الشرقى من الجزيرة الريفية، المطلة على أونتاريو فى كندا.

أونتاريو! تذكرت "آريا" لأول مرة منذ وفاة "جيلبرت إرسكين" أنه كان يخطط لقضاء جزء من شهر العسل فى أونتاريو، غرب شلالات نياجرا فى منطقة برية متاخمة لنهر التايمز حيث يقال إن هناك حقولا غنية بالحفريات.

عضت "آريا" إصبعها، وراحت تفكر سرًا حتى مد زوجها يده وهو يقود دون حتى أن يلتفت إليها مقطب الجبين، ليبعد يدها عن فمها: "آريا، قوليها وسوف أعود بالسيارة . أكره رؤيتك قلقة متوترة".

ـ "قلقة.. أنا لست قلقة" حدقت "آريا" من زجاج السيارة الأمامى إلى كل ما يعبر أمامها: حقول مفتوحة رحبة، غابات، النهر على بعد.. وبيوت. يا لها من بيوت! لا يمكن أن تكون إلا قصورًا بالغة الأبهة. "استهلاك للمساحة ملفت للنظر". جزء منها رفض هذا التباهى المادى، كانت ابنة قس من بلدة صغيرة، وتعرف التباهى والغرور حين تراه.. "أشعر بالدهشة لرؤية كيف نشأت كصبى".

ضحك "ديرك" فى توتر.. لم يفكر فى نفسه قط من هذه الزاوية. حين انعطف "ديرك" إلى طريق شالوت المرتفع، عضت "آريا" شفتها ـ هذا حمق ـ البيت كبير للغاية! قررت أنها لا تحب السيدة "برنابى" من حيث المبدأ.

تمت دعوتهما على الفطور المتأخر فى وقت الظهر، لكن بحلول الساعة الثانية عشرة والنصف لم تكن السيدة "برنابى" قد ظهرت بعد، تم تحضير مائدة بسطح زجاجى لثلاثتهم فى الشرفة الحجرية المشرفة على النهر، قالت امرأة عجوز فى زى مدبرة المنزل لهما: "ستنزل السيدة "برنابى" بعد قليل، وتعتذر على فترة انتظاركما"، وراحت تكرر قولها هذا على فترات. قالت لهما أن يكونا "على راحتهما" دعتهما إلى تناول المقبلات والمشروبات.. عصير طماطم من إبريق مثلج، اتضح أنه ليس عصير طماطم، بل كوكتيل "بلودى ماريز"(*). وهو مشروب لذيذ لم تتذوقه آريا من قبل قط، وأحبته كثيرًا.

قال ديرك: "انتبهى يا "آريا".. الفودكا قاتلة".

ضحكت "آريا" فى مرح، أحست بغثيان هذا الصباح ولم تتناول حتى فطورًا خفيفًا ووجدت نفسها جائعة الآن بشكل غريب، والتهمت الكرواسون الصغير والمخبوزات التى غمستها فى الكريمة الحريفة، كفت عن عض أظافرها، ورأت انعكاسها فى نافذة وأحست بالتشجيع، فهى تبدو حقًا جميلة.. صنع حب زوجها بها المعجزة.

ـ "ديرك، لن تكف عن حبى، أليس كذلك يا عزيزى؟ لن تستيقظ من نومك ذات يوم وتغير رأيك؟"

ـ لا تكونى حمقاء يا "آريا".

ـ لأنك لو فعلت فربما أنطفئ.. أنطفئ كالنور.

نظر "ديرك" حوله فى اضطراب، وكأنه يخشى أن يسمعهما أحد، النوافذ المطلة على الشرفة تحجب ما وراءها بستائر بيضاء يرى من بالداخل الشرفة من خلالها دون أن يراه من بالخارج، ومعظم هذه النوافذ مفتوحة، أشعل سيجارة وراح يرشف كأسه الثانية. أين "كلاودين" بحق جهنم؟

(*) خليط من الفودكا وعصير الطماطم، ويحتوى أحيانًا على إضافات مثل الفلفل الأسود وعصير الليمون.

سار "ديرك" مع "آريا" على الممشى العشبى المنحدر إلى النهر وإلى المرفأ، تكلم إليها مشتت بعض الشىء عن قوارب الصبا، حبه لركوب القوارب والنهر، وحين كان والده حيًا.. "كنت صبيًا طائشًا، وكدت أهلك فى بعض الأحيان".. راح "ديرك" يتكلم فى حزن. تساءلت "آريا" إن كان نادمًا على سلوكه فى الماضى، أم على الماضى نفسه. هبت الرياح من النهر طازجة رائعة فى قدرتها على الإنعاش، وعلى مسافة قريبة كانت القوارب الشراعية تمضى على صفحة النهر فى يسر، وهنا على مرفأ شالوت، لا يمكنك سماع رعد الشلالات المشئوم.. الشلالات على بعد أميال مع اتجاه تيار النهر، يمكنك أن تسبح قرب هذا المرفأ، ولن تجد التيار قاتلاً، لن يحملك صارخًا إلى حتفك، يمكننى العيش هنا وأطفالنا.. لماذا لا نرث؟ كانت فكرة غير متوقعة، غير خليقة بها.. لا تعرف "آريا" ماذا تصنع بها.

كان المرفأ بحاجة إلى إصلاح، إذ كان يئن ويتحرك تحت أقدامهما، القارب الوحيد المربوط به كان قاربًا شراعيًا أبيض قديمًا. فكرة النزول إلى ذلك القارب ليتلاعب بها النهر ملأت "آريا" بالانزعاج لكنها مالت على ذراع زوجها فى دلال وقالت: "يبدو قاربك الشراعى القديم مهجورًا، لم لا تنزل بى إليه يا "ديرك" بعد الفطور؟"

- لم لا.. يروق لى هذا.

تكلم "ديرك" بحماس أجبر نفسه عليه رأت "آريا" أنه مشتت وينظر إلى ساعته ثم يرفع رأسه للبيت ثانية، لم يكن من طبعه ألا يركز عليها فى حضورها، أحست بجذب المرأة الأخرى.. فى ذلك البيت.

- أعتقد أن أمك قد خرجت، أليس كذلك؟ أليست هذه.."

- لا، إنها إيثيل، تبحث عنّا.

قاربت الساعة الواحدة ظهرًا، اصطحب "ديرك" - الذى أصبح متجهمًا عابسًا وشعره تبعثره الرياح - "آريا" إلى الشرفة ثانية، وكانت الشمس شديدة الحرارة وإن لم تكن فوقهما مباشرة، وفى هذا الطقس

تشكلت سحابات أبدية، ضبابية رطبة.. ترى فيها الشمس بيضاء من بين نتف السحاب، وبين البحيرتين العظميين، إيرى وأونتاريو، دائماً ما تتحرك السماء مترددة، وفى هذا الوهج الباهت كان الممشى العشبى فى شالوت بنى اللون جافاً، يزخر بالعشب فى بعض مواضعه. شجيرات الزهور تشغلها البقع السوداء.. وترى الأرض وقد اعتراها النسيان، وكأن الحياة تنسحب منها.. والبيت الفاخر من الحجر الجيرى تراه من الخلف وكأنه كواليس لمسرح، تراه وقد أصابه الطقس بالتلف، ترى شقوق فى الحجر.. طحالب خضراء زلقة كثعبان طويل تنمو على مجرور الأمطار الصدئ الممتد على عرض البيت بالكامل.

ضحكت "آريا" فى عصبية.. "ربما ليس هذا يوم الأحد الذى كانت تعنيه يا "ديرك؟"

قال "ديرك" بتجهم: "ربما هو كذلك".

لم تر "آريا" من قبل قط زوجها الطويل الوسيم الواثق مشتتًا ومتوترًا هكذا.. غاضبًا.. عادا إلى الشرفة وما زالت "كلاودين" لم تظهر اعتذرت مدبرة المنزل المحرجة كما فعلت من قبل، وقال "ديرك": "إذا كانت أمى تتوقع منى أن أبحث عنها، وأن أرجوها الانضمام إلينا، فهى مخطئة" حاولت "آريا" وهى تلتهم المقبلات ألا تسمع ما قاله، صبت لنفسها المزيد من الشراب الحار اللذيذ الأحمر بلون الدم، بما أن "ديرك" بدا غير راغب فى صبه لها، أكلت الكرواسون، وتلتها بالبلودى مارى.. غمر اللعاب فمها، وكانت شديدة الجوع، حتى مع مرور نوبة عابرة من الغثيان على معدتها.

قال "ديرك" فجأة: "آريا، سنغادر.. أين حقيبة يدك؟"

وقفت "آريا" جامدة فى مكانها، وهى تتنفس بعمق، ستغزو لحظة الضعف هذه، لن تخضع، طرفت برموش عينيها، لم تكن ترغب فى رؤية القارب الشراعى المهجور خلفها يتمايل فى المرفأ، ولا الحركة التى لا تتوقف، بلهاء فى تكرارها.. الغثيان كدوار البحر، التفتت مشيحة بوجهها عن النهر، ورأت أو تخيلت أنها رأت وجهًا كالطيف فى نافذة على بعد اثنى

عشر قدمًا منها، لكن سرعان ما حجب الستار المسحوب الوجه. تمنت ألا يكون "ديرك" قد رآه.

- "إيثيل قولى لسيدتك إنها فظة بما لا يطاق، وألا تدعونى وزوجتى إلى هنا ثانية، أبداً".

أمسك "ديرك بآريا" من ساعدها، لم يمسكها بقوة هكذا من قبل قط! بدأت تحتج، وتعثرت فى حذائها ذات الكعب العالى، وفجأة ولرعبها راحت تسعل. وشعرت بغثيان بالغ فى معدتها ودون أن تتمكن من المقاومة وقد غمرتها نوبة الغثيان، تقيأت كل ما شربته والتهمته بلا حكمة منها، ولطخت مقدم فستانها الوردى الكتانى ونثرت القىء على سطح المائدة الزجاجى وعلى الشرفة الحجرية.

قال" ديرك" فى تعاسة: "اللعنة يا "آريا".. ألم أحذرك؟"

- ٥ -

كان العام ١٩٥٠ والكل حامل.

أصبحت نوبات الغثيان - خاصة فى الصباح - تصيب آريا أكثر.

مرت ثلاثة شهور.. اثنا عشر أسبوعًا ويومان بعد زواجها "بديرك برنابى"، حين ذهبت "آريا" لترى طبيباً، التقطت اسمه من دليل تليفونات شلالات نياجرا.. بايبر.

- سيدة "برنابى"، لدى أخبار جيدة!

تفجرت دموع "آريا". تمرنت على هذه اللحظة، ابتسامتها ومزاجها الرائق.. بل إنها كانت ترتدى ثياباً عصرية لتبهر دكتور "بايبر" وممرضته، لكن حين جاءت اللحظة مندفعة إليها كأنها قاطرة، غادرتها القوة، ولم تقدر على التحكم، أخفت وجهها الحار بين يديها، وحدق فيها دكتور "بايبر" فى دهشة، وهو رجل مهذب موقر له مكتب فى وسط مدينة شلالات نياجرا، على بعد خمس عشرة دقيقة مشياً من لونا بارك.

راحت "آريا" ترجوه: "دكتور، لا تخبرنى منذ متى وأنا حبلى، لا تخبرنى بموعد ولادتى. لا!"

- لكن يا سيدة "برنابى"..

حاولت "آريا" أن تشرح.. لا، لا يمكنها أن تشرح. راحت تنتحب وتتمخط، لماذا لم يقتل ذلك الرجل نفسه قبل ليلة عرسهما وفعلها بعدها؟ راحت تتمتم متلعثمة:

- دكتور "بايبر".. نعم، أنا مسرورة، أنا متزوجة وأنا.. أنا سعيدة.. أحب زوجى.. تزوجنا فى يوليو.. ونريد أطفالاً.. لكننى لست واثقة.. أعنى، لا أريد أن أعرف.. من يكون الأب".

وهى ترى دكتور بايبر يرمقها برعب، كالطريقة التى يرمقها بها المبجل "ليترل" برعب، حاولت "آريا" أن تشرح ظروف زواجها الأول.. فترته الوجيزة، "المأساة"، وهى تتململ فى حرج وهى تخبره كيف "قذف" عليها زوجها.. بين ساقيها، كانت عذراء.. لكنها تعرف أن العذراوات قد يحبلن، فى المدرسة الثانوية شاعت هذه الحكمة العملية الفظة بينهن، حتى أن ابنة القس المشيخى قد تكون سمعتها فى هشاشة ورهبة وسجلتها فى عقلها لترجع لها فى المستقبل، لكن ليس أنا، لا يمكن أن تكون أنا. لا!

- "لا أريد أن أعرف يا دكتور، إذا كنت حبلى فى ستة عشر أسبوعاً فزوجى الأول هو.. سيكون.. كان.. الأب، إذا كنت حبلى فى اثنى عشر أسبوعاً، فزوجى الثانى هو الأب.. الأب. ربما سيولد الطفل قبل موعد ولادته الطبيعى! ربما سيولد متأخراً! لم تتحمل "آريا" النظر لدكتور "بايبر"، وهى تعرف أن المسكين مصدوم بالإحراج، وتعرف أنها بكيانها الأنثوى الأخرق الملومة.. "دكتور، أرجوك.. لا أريد أن أعرف إطلاقاً، أتريد هذا؟ يجب ألايعرف زوجى، أليس كذلك؟"

دفع دكتور "بايبر" بعبوة مناديل ورقية نحو "آريا"، التى أخذت منها منديلاً بامتنان لتمسح به وجهها، بدا من أشياء قالها من قبل أنه يعرف اسم "برنابى"، وإن لم يكن زوج "آريا" شخصياً، وأبهره الاسم، راح يتكلم الآن بسطوة أكبر مما توقعتها "آريا"، وسرعان ما اطمأنت: "سيدة برنابى، الطفل الذى تحملينه ليس أكبر عمراً من ثلاثة عشر أسبوعاً، هذا تقديرى

ونادراً ما أخطئ، قد أكون مخطئاً فى التقدير بمقدار أيام قليلة، أو أسبوع، لكن ليس أكثر. السيد "برنابى" هو إذا والد الطفل. وموعدك هو شهر إبريل من العام القادم. وسأكون أكثر دقة فى تحديد الموعد فى زيارتك التالية لى، إذا أردت زيارتى".

قالت "آريا" فى وهن: "لا يا دكتور ما ذكرته محدد بما يكفى.. إبريل".

نهض دكتور "بايير" من مكتبه، وصافح يد "آريا" التى كانت باردة رطبة كأنها يد امرأة ميتة، وبحاجة للإنعاش، وقال بصوت رفيق: "أقترح عليك أن تكفى عن محاولة التخمين السخيفة يا سيدة "برنابى". لا تخبرى أحداً بما قلته لى، أطلعى زوجك على الأنباء السعيدة، اخرجا واحتفلا، وأراك قريباً.. تهانينا".

تزوجا، وصارت حبلى.. واحتفلا.

الوليد الأول

ـ ١ ـ

حسب التقويم كنت طفلاً ربيعيًا.

وُلدت قبل موعد ولادتى بأسبوع, ربما اثنين.

إلا أنه مع نهاية مارس فى شلالات نياجرا بنيويورك، كان الطقس عاصفاً، مع ثلج متساقط ودرجة حرارة تقارب التجمد، كما كانت وقت عيد الشكر، نتف ثلج وزعفران عند رقم ٧ لونا بارك، وعلى الجانب الآخر من الطريق فى الحديقة صغيرة ذات البوابة الصغيرة، طبقات من الثلج تغطى الأرض التى جرأت على أن تبدى براعمها مبكرًا.

أثيرت ضجة فى الإعلام حول حقيقة أن مائة وثمانى بوصات من الثلج قد سقطت على منطقة نياجرا فى ذلك الشتاء، معظم هذا الثلج، بحلول ٢٦ مارس، كان قد ذاب.

وفى طريقهما إلى البيت من المستشفى كانت "آريا" تتوهج مبتهجة، وسألت "ديرك" أن يقود السيارة إلى جوار النهر، حتى يتسنى لابنهما "شاندلر" البالغ من العمر أسبوعاً، أن يرى الشلالات.

ـ أرجوك يا عزيزى، ربما يذكرها بعدها إلى الأبد، ربما تكون ذاكرته المرئية الأولى على الإطلاق".

ربما تردد "ديرك" للحظة، كانت حالات زوجته المزاجية عنيدة وغامضة وفى الوقت نفسه، كما أدرك، يحركها منطق سرى قوى وصارم كشبكات الحديد الصلب تحت خرسانة مصبوبة فى قاعدة جسر، وكان

"ديرك" فى حالة من البهجة المذهولة، والفرحة بولادة الابن جيد الصحة، وبالطبع استسلم.

كان حليق اللحية، وكان قد شذب شعره الأشعث لعدة أيام، فهو رجل فوضوى المظهر، مذهول الحال، لكن ليس بعد.

فى هذا الوقت من العام تصبح الشلالات مهجورة كسطح القمر، بخلاف سيارة وحيدة لإزالة الثلج تابعة للبلدية تمر ببروسبكت بارك، مخلفة وراءها عادمًا متطايرًا، لا يوجد أحد غيرها.

ـ لا يوجد سائحون! منتهى المتعة!

تقدم "ديرك" بالسيارة إلى بروسبكت بارك، وأوقفها عند البوينت، أبقى محرك السيارة دائرًا وجهاز التدفئة بها يعمل بأقصى قوة، وكان معظم الجزء الخلفى من السيارة "اللينكولين كونتينينتال" مشغولاً بالزهور وزهرات "التيوليب" وزهرة "الياقوتية" وزهرة "البيبروايت"، وقد فات أوان ظهورها الأول لهذا الموسم وإن ظلت ترسل عطرها بمظهرها المبهج، كانت زهور من حجرة مستشفى آريا، ومعظمها زهور جلبها "ديرك".

"فريد أستير" يجلب لمحبوبته "جينجر روجرز" الزهور فى المستشفى ـ شريكته فى الرقص حمراء الشعر لا ترقص الآن، لكن سرعان ما ستعود.

وجلبت معها إلى البيت طفلاً صغيرًا للغاية، وإن كان يزن خمسة أرطال وسبع أوقيات وتام الهيئة، وكان "ديرك" يعرف أن حياته ستكتمل بدءًا من الآن. أجل، إلى الأبد!

كانت هناك رياح شمالية تهب من كندا، وما تمكنا من رؤيته من السماء، كان هناك لون أزرق خزفى براق هو لون الشتاء. و"آريا" فى حالة الارتعاش والشحوب، وقد ولدت منذ إحدى عشرة ساعة وفقدت دماء كثيرة ولحقت بها عدوى من المستشفى لم تستغرق طويلاً وإن كانت قوية، راحت تقبل وتعانق الطفل متورد الوجه، "أترى يا عزيزى.. أترى إلى أين أخذك بابا وماما؟ إلى الشلالات" ضحكت "آريا" وأمسكت "بشاندلر" بين

ذراعيها اللتين ارتجفتا قليلاً كان ديرك منتبهاً لها، كان يمسك بذراعها ليثبت الطفل إذا لزم الأمر، وفى المستشفى وفى نوبة الحمى التى اعترتها، صاحت "آريا" قائلة بعض الأشياء، ربما كانت تحذيرات. سيتلقى التحذير، وسينتبه.

كان "شاندلر" ملفوفاً فى بطانية أطفال زرقاء كاشمير، وكانت يداه المنمنمتان الملوحتان محميتين بقفاز صغير. نظر فى تعجب على ما حوله من خلال زجاج السيارة الأمامى، فمه السمكى الصغير مفتوح ومبتل، وعيناه المستديرتان الداكنتان تجحظان، طرفت رموشه وحدق بعينيه فيما أمامه، كان وجهه صغيرًا مطاطياً كوجه الدمية وجبينه منحدرًا على نحو غير طبيعى، مثل قطعة جبن، كما خطر لآريا، وذقنه متراجعة للخلف كأن جزءاً منها ذاب، لكنه كان طفلاً جميلاً، طفل "ديرك" وطفلها ويستحق كل تلك الدماء.

قالت "آريا" فى حماس: "إنه يرى، أعنى أن عينيه ليستا مفتوحتين فحسب، إنه يتفاعل مع ما حوله من مشاهد، وكأنه يلتهم الأرض بعينيه هاتين".

وكأنما "شاندلر" يفهم ما يراه، حيث كان الضباب يرتقى من الشلال، يتكون الجليد على أشجار الدردار والبلوط على ضفة النهر، وراح يلمع فى الشمس مثل نغمات من موسيقى موتسارت، وكأن المشهد من حكاية خرافية، إذ امتد جسر من الجليد فوق نهر نياجرا، وراحت أقواس قزح تتشكل كالأطياف وتختفى إذ تطرف العين لهذا المشهد. حتى فى درجة التجمد، استمر ضباب تبدو عليه السخونة فى الارتقاء.

إنها الشلالات الأمريكية التى يطلون عليها.. الشلالات الأكبر، هورسشو إلى جنوب وغرب جزيرة جوت، ولا يمكن رؤيتها من سيارة "ديرك" إلا كضباب بعيد.

لدقائق عدة جلسوا فى السيارة صامتين.

راح "شاندلر" يتململ ويتمتم، يداه داخل القفاز تلوحان، سيكون طفلاً فضولياً، يميل للحركة وسرعة الغضب، كان وجهه متجعدًا وفيه مسحة من القلق الحيوانى، وفمه مفتوحًا على اتساعه وسرعان ما سيجب إطعامه ثانية.. إرضاعه، كان الإرضاع تجربة مدهشة رائعة "لآريا"، خبرة ممارسة حب لم تتجهز لها الأم الجديدة.

ابتسمت آريا حالمة حين واتتها الفكرة.

بعد لحظة قالت: "ما سبب حضورنا إلى هنا يا "ديرك" فى رأيك؟ ثلاثتنا؟" .

تكلمت "آريا" بلهجة محايدة وكأنها تسرد حقائق وكأنها موكلة تسأل محاميها سؤالاً عمليًا. راحت ترجرج شاندلر بجسده الدافئ فى حضنها وعلى معطفها، وتضغط شفتيها المشقوقتين قليلاً فى قمة رأسه، كان يعتمر قبعة صغيرة أعطاها أحد أقارب "ديرك" إليهما، لكن حرارة رأسه تصاعدت لتمس شفتى "آريا".

قال "ديرك": "ما الذى جلبنا هنا؟ أتعنين هنا على وجه التحديد؟ لقد أتيتنا إلى هنا يا عزيزتى بناء على طلبك"

كان "ديرك" يتكلم برفق، فالرفق هو الطريقة الأمثل لمخاطبة الأم الجديدة فى مثل هذه الأحوال.

لكن "آريا" أصرت، فعلى "آريا" دائمًا أن تصر "أعنى ما الذى جلبنا إلى هنا، ثلاثتنا، إلى هذا المكان؟ وفى هذه اللحظة؟ بعيدًا عن الكون بأثره، فى لحظة أبدية فى امتدادها؟"

صعب على "آريا" أن تنطق كل هذه الكلمات. فى المستشفى، وفى حجرتها بيضاء الجدران وسط تلال من الزهور وفى حجرة الولادة، راحت تصرخ وتستجدى وتهدد، وأصيب حلقها الحساس بسبب الصرخات والتأوهات، التى خرجت منها وكأنها حيوان يحتضر.

قال "ديرك" بطريقته الرفيقة المنطوية على الإصرار تلك: "تعرفين ما جلبنا إلى هنا: الحب".

- "الحب! أعتقد هذا" تفاعلت "آريا" مع كلماته وكأنها لم تفكر فى هذا زوجها يربت على يدها وهى تحتضن رأس الطفل، ويساعدها فى احتضان رأس الطفل بيده الكبيرة الخرقاء بعض الشىء، ويطالعها بنظرة جانبية سرية كما كان يطالعها وهى فى سرير المستشفى، ويشعر بقلبه ينقبض، حبها وحب ابنهما أتاه قويًا للغاية، لا يثق بقدرته على الكلام.

استطردت "آريا" مقطبة الجبين: "الحب قوة حياة لا تقل قوة عن الجاذبية الأرضية، أليس كذلك؟ لا يمكنك رؤية الجاذبية الأرضية بدورها".

قال "ديرك" مبتسمًا: "أنت و"شاندلر" مرئيان. وأنا مرئى بوفرة".

ضرب خصره بيده، نقص وزنه عشرة أرطال منذ دخلت "آريا" المستشفى، لكنه واثق من قدرته على احتمال فقدان عشرة أرطال أخرى.

قالت "آريا" بإصرار: "لكن الحب كالحظ، كرمية النرد".

- "أقرب للعبة البوكر.. تصل ليدك الأوراق لكن اللاعبين الأفاضل يحصلون على الورق الأفضل. واللاعب، الجيد يعرف ما يفعله بها".

ابتسمت "آريا لديرك" وقد أعجبتها إجابته.

- اللاعب الجيد يعرف ما يفعله بها.

أمسكت مازحة بأصابع "ديرك" التى تمسك برأس "شاندلر". كانت راحة يد "ديرك" وحدها كبيرة بما يكفى لحمل طفلهما، بلا دعم إضافى. قالت بصوتها الجديد الحائل: "لن تدعنى وحدى لفترة، أليس كذلك؟ بعد أن جاء الطفل".

- *"آريا"، لمَ تقولين أشياء كهذه؟* تراجع ديرك شاعرًا بالإهانة.

نظرت "آريا" إلى زوجها بدهشة بريئة، الوجه الكبير الوسيم المتعب من محنة الأسبوع الماضى وكأنه وجه فتى أمريكى نشأ بسرعة تفوق المعتاد، كان مجعداً وكأنه من أثر الألم، ولا تعرف آريا لماذا.

فى تلك اللحظة بدأ "شاندلر" يتململ ويصدر أصواتًا أكثر إلحاحًا، وملأ رئتيه الصغيرتين بالهواء وبدأ يصرخ. حان وقت الرضاعة لحسن الحظ.

وهكذا جاء طفلٌ ليقيم فى المنزل رقم ٧ فى لونا بارك. طفل!

كان طفلاً ملائكياً فى بعض الأحيان، وفى أحيان أخرى شيطان صغير أحمر الوجه كثير الصراخ والزئير، بابا وماما يحدقان فيه فى عجب، ولولا أنه جاء من تجويف صغير فى جسدها، كانت لتقسم إنه من كوكب آخر.. كريبتون، حيث قوانين الطبيعة تختلف عن قوانيننا.

لكم أحب البكاء وتشغيل هاتين الرئتين الصغيرتين، كان غاضبًا مصممًا فى غضبه وكأنه لهدف، كزعيم فاشى مجنون كالذين تراهم فى نشرات الأخبار، كهتلر أو موسولينى وهما يصرخان فى جمهورهما المنوم مغناطيسياً والمحشودين فى الميادين العامة. كانت "آريا" على وشك أن تقول مازحة: "ربما سيرغب فى منبر كهدية عيد ميلاده الأول، ويبدأ فى إعطاء خطب الوعظ فى سن صغيرة" وكان التشبيه بالمبجل ليترل بالطبع. لكن "آريا" عضت شفتيها وصمتت.

لم تعد الليالى شديدة الرومانسية فى رقم ٧ لونا بارك، فى شقة "ديرك برنابى" القديمة، شقة الأعزب، أصبحت الليالى إبحاراً وعراً على صفحة نهر مضطرب يصيبك بدوار البحر، يدفعك لاستجداء الفجر "على الأقل حينها ستتمكن من المغادرة للذهاب إلى العمل. إلى حيث يذهب بابا" حاولت "آريا" أن ترى شيئًا طريفًا فى هذا. احتج "ديرك" قائلاً إنه يود البقاء فى البيت والمساعدة إذا أرادت "آريا". وقام باستئجار مربية لتساعد حينما تشعر "آريا" بإرهاق تام. لكن "آريا" لم تحب المربية، فالطفل شاندلر *طفلها*.

لن تلد طفلاً كهذا ثانية أبدًا، هكذا أقسمت. كم كان مؤلماً! يقولون إنك تنسين آلام المخاض، لكنها لن تنساها، أبدًا.

طفل ملائكى، طفل شيطانى يستيقظ من نومه ست مرات ليلاً يعوى فى نهم، مطالبًا بالثدى.. الثديين. يملأ حفاضته بفضلاته. والتى ولغرابة الأمر لا تكرهها "آريا" كثيرًا، التى تجلس ناعسة من نقص النوم بعيدة عن ذاتها الحادة المعتادة، وتقول: "ليست رائحتها كريهة بالمعنى المعروف. وتعتاد عليها، ورائحتها كرائحة.. الطفل".

ويقول "ديرك برنابى" لنفسه متعجبًا: بركان تتدفق حممه من فوهتيه.

ثم الإرضاع.

الإرضاع! وهو ما تفعله الأم والطفل معًا، كلما شاء الطفل مسألة خاصة.. فم الطفل الجائع السمكى يمص ويمص ويمص من ثديها السمين الممتلئ حليباً. نوع آخر من ممارسة الحب هكذا خطر "لآريا". لكننا *لن نقول لبابا*.

لا.. الأفضل ألا يعرف بابا.

ليست المشكلة فى أن بابا لم يحب الطفل، بل كان يحبه، لكن بابا لن يعجبه التفكير فى الطفل على أنه ذكر منافس.

شكرًا لك يا ربى.. الآن بعدما أعتقت، فلن أسألك شيئًا ثانية أبدًا.

-٢-

- "**يبدو أننى غُفر لى على ما أعتقد**.. على الأقل من جانب المشيخيين".

خلال أسبوعين حضرت السيدة "ليترل" وحدها بالقطار إلى شلالات نياجرا لترى حفيدها "آريا"! يا حبيبتى". كانت مصالحة تسيل لها الدموع، فى محطة قطار شلالات نياجرا، كمشهد فى فيلم حزين ولطيف من الأربعينيات، يتم تصويره فى وقت الحرب بالأبيض والأسود. "آريا" التى أصبحت امرأة متزوجة وأمًا، وفخورة بنفسها لأقصى حد؛ لأنها تكيفت مع الأوضاع بقدر ما تكيفت، وراحت تقلد وجه ابنة تغمرها العواطف وهى

تعانق أمها، وقد أزعجها جسد المرأة العجوز الناعم الدافئ كبير الثديين، لكنها لم تتمكن من إخراج أكثر من دمعة أو اثنتين، أبداً لن أغفر لك على هجرك لى حين احتجت إليك "آريا" عزيزتى، هل ستغفرين لى؟" سألتها السيدة "ليترل" فى قلق وقالت "آريا" على الفور وهى تضغط يدى أمها فى يديها: "بالطبع يا أمى، ليس ثمة ما أغفره أصلاً" صافح "ديرك برنابى"، زوج الابنة المشرق، السيدة "ليترل"، فى جرأة ورفق، ثم هناك الطفل "شاندلر" فى عربته وهو يطرف بعينه للمرأة متوسطة العمر الباكية المرتجفة وهو يضع أصابعه فى فمه، جثمت السيدة "ليترل" فوقه وكأنه على طرف هوة تصيبها بالدوار، قالت متلعثمة: "إنها معجزة، إنه معجزة. أليست معجزة.. يا له من طفل صغير جميل". أرادت "آريا" أن تصحح أمها، فالطفل "شاندلر" ليس جميلاً على وجه التحديد، ولا حاجة للمبالغة، لكن أجل، ربما كحفيدها بدا لها كذلك، رجت السيدة "ليترل" آريا أن تسمح لها بحمله، وبالطبع وافقت "آريا". "شاندلر، ها هى جدتك".

- جدتك.. أرجو أن ينادينى بجدتى.. كم هو جميل!

كانت السيدة "ليترل" تنوى البقاء معهما لليلتين فى شلالات نياجرا فى حجرة ضيوف البيت رقم ٧ لونا بارك، لكن انتهى بها المطاف بالإقامة لست ليالٍ.

قالت "آريا" فى جفاء: "على نحو ما الأفضل ألا تكون على صلة قائمة بالناس" وإن كانت سراً مسرورة لانتصار الطفل "شاندلر" على أمها. تشعر بانتقام لذيذ فى هذا.

جلبت السيدة "ليترل" معها فى القطار حقيبتين كبيرتين، واحدة ممتلئة بأغراض للطفل وكانت تلك الأغراض "جديدة ومستعملة" ومنها بعض ثياب "آريا" التى ارتدتها وهى طفلة منذ ثلاثين عاماً "أتذكرين يا عزيزتى هذه القبعة الصغيرة، التى صنعتها لك جدتك بيدها" ابتسمت آريا وقالت : نعم، وخطر لها أنها تذكر وإن كانت لا تذكر قطعًا، ربما كانت هذه الأشياء القديمة ملكاً لأى شخص، "فآريا" تعرف أن أمها قد تكون

أحضرتها من أوكازيون للثياب المستعملة فى تروى! دائماً ما تقيم الكنيسة معارض للثياب المستعملة فى القبو، اعترى "آريا" فجأة غضب مفاجئ وهى وسط جلسة المصالحة السعيدة، فلا يحق لأمها أن تدخل إلى حياتها من جديد بينما "آريا" على أفضل حال من دونها، ومن دون المبجل "ليترل". لا يحق للسيدة "ليترل" العودة لحياة "آريا" بقدر عدم حق "جيلبرت إرسكين" فى العودة، إن بُعث من الموت.

"جيلبرت إرسكين". لم تعد "آريا" تفكر فيه قط، إلا أنها وفى حلم متفرد فى قبحه حضرها.. طرق على باب بيتها الجديد الأمامى، كأنه الابن ـ الوحش فى قصة "مخلب القرد"(*) واختبأت "آريا" فى خوف تحت أغطية الفراش وبعثت "بديرك" ليفتح الباب.

من الواضح أن السيدة "ليترل" لا تعرف بحالة "ديرك برنابى" بالمرة، إذ جلبت معها للزوجين الشابين أشياء كثيرة، جديدة ومستعملة. ولم تخبرها "آريا" بأى شىء عن حياتها الزوجية فى شلالات نياجرا، لم تزد على إرسال إعلان ولادة مطبوع على الورق وبعض الصور "لشاندلر". من الواضح أن لونا بارك جذب زوجة القس من تروى، البيوت الطوبية الأنيقة فى الحى السكنى القريب من النهر. البيوت من الطراز النيو جورجى المواجهة للحديقة بحدائقها الأمامية الصغيرة الفخمة فى الوقت نفسه، والأسوار الحديدية السوداء، والأثاث الحديث القليل الأملس فى شقة "ديرك برنابى" التى قضى فيها حياته كأعزب وبيانو "آريا" الجميل.. كلها أشياء أدهشت السيدة ليترل. دعك من المربية الأيرلندية، ومدبر المنزل والطباخ، وهو رجل فرنسى كان ديرك يستعين به لإعداد عشاء العمل مرات عديدة كل شهر. وهناك الزنجى الذى يعتنى بالحديقة على صغر

(*) مخلب القرد قصة للكاتب (و. و جاكوبز) عن مخلب قرد سحري يحقق ثلاث أمنيات لصاحبه، ولكن حين طلب الأب مبلغًا من المال ـ فى الأمنية الأولى ـ طرق بابه زميل لابنه يعطيه المال كتعويض عن وفاة الابن أثناء العمل فى المصنع. وبعد أن طلب الأب والأم من المخلب إعادة الابن إلى الحياة؛ سمعا ليلا من يطرق باب البيت، فهرعت الأم لتفتح للابن الذى قطع مسافة ميلين تفصل بين المقبرة والبيت، بينما ظل الأب لا يجرؤ على النزول.

حجمها، بدا أن السيدة ليترل قد اعتراها الارتباك، وكأنها دخلت إلى بيت ابنة متزوجة غير ابنـتها، لكنها لم تكن تتعجل الرحيل.

غـمـغـمت عـدة مـرات فى أذن "آريـا": "عـزيـزتى، لابـد أنك تشـعـرين بسعادة بالغة، فكأسك ممتلئة عن آخرها!"

وفى المرة الثالثة التى نطقت فيها السيدة "ليترل" بهذه الملحوظة مبهورة الأنفاس، بينما "ديرك" يرفع شاندلر لترى الجدة قدرة ابنه الفذة على الركل والتلويح بيديه، فى "حركة الهليكوبتر" كما أسماها "ديرك"، ردت "آريا" الشريرة قائلة: "هل تعتقدين أن كأسى صغيرة للغاية يا أمى حتى تمتلئ عن آخرها بسهولة هكذا؟"

خلال عام بدأ المبجل "ليترل" يصطحب السيدة "ليترل" إلى شلالات نياجرا، وسقط والد "آريا" هو الآخر ضحية لسحر بيت آل "برنابى". وسقط على الأخص ضحية سحر المولود الجديد.

بدا أن والد "آريا" قد شاخ فى العام الماضى. افترضت "آريا" أنها المُلامة، كان رجلاً فخوراً بنفسه على تواضعه المسيحى الذى يبديه على المنبر، وقد أحس بالخزى جراء سلوك "آريا". أصبح وجهه مليئاً بالتجاعيد العميقة وفكاه الشبيهان بفكى تيدى روزفلت فيهما قدر أقل من الثقة. بدا لها أقصر، وبطنه أكبر، ودأب على عادة عصبية مزعجة، وهى أن يسعل قبل أن يتكلم وبعدها، وكأنه يبغى إخفاء كلماته، وعلى عكس أمها الباكية، فلم يعتذر "لآريا" قط، ولا عانقها كما فعلت أمها. وأكثر ما تمكن منه هو أن يقول "لآريا"، حينما أصبحا وحدهما، وكأن تصريحه لها رؤية إنجيلية: "أحياناً التصرف بعجلة ليس تصرفاً غير حكيم على ما يبدو. إنك منعمة فى حياتك بالزوج والولد. يا آريا، كل ساعة فى حياتى أشكر فيها الرب، لأن حياتك أصبحت على ما هى عليه".

قالت "آريا" فى هدوء: "شكرًا لك يا أبى".

أرادت أن تضيف بابتسامة ماكرة، أجل لكننى مازلت ملعونة، لن يتغير هذا.

كانت "آريا" تشعر بالامتنان. ولكن بالكراهية لكلمات والدها، وهى فى فترة من حياتها لا تحتاج فيها له أو لكلماته.

لماذا ما زالت تهتم؟ حقاً؟ الآن بعدما رُزقت بطفلها.. طفلها.

قال "ديرك" بحماسه المعهود: "كم أرى أبويك لطيفين ومهذبين" ولم تشعر "آريا" فى صوته وفى وجهه المبتسم أقل لمسة من السخرية، كانت تعرف أنه يقول لنفسه كم أنت مختلفة عن أمك وبدورهما فقد يراه أبواه لطيفاً ومهذباً، زوج الابنة المثالى.

- إنهما مسيحيان، وهذا واضح.

تكلمت آريا فى رفق. لا، لا تتكلم بسخرية!

كانت فى واقع الأمر تشعر بالامتنان لأن زوجها مضيفها بالغ الكرم دوماً يحب أبويها هكذا. منحها هذا مساحة لتركن إلى السكون متى شاءت.. منحها فرصًا لتبتعد وتصحب "شاندلر" لتحظى بالقيلولة.

أحبت الوضع هكذا، فى حضوره طويلاً واثقًا كزوج الابنة، ويتكلم بيسر وبثقة عن الأعمال والسياسة والاقتصاد والقانون، ويبدو أنه يعرف الكثير عن التطورات البارزة فى قضية "الطاقة المستخرجة من الماء" فى منطقة شلالات نياجرا، وكان المبجل "ليترل" يميل لأن يبدو محايدًا، فيقول: "أجل، هذا واضح، أجل" بينما فى تروى كان يؤكد هيمنة شخصيته، لكنه هنا فى لونا بارك كان خاملاً. كان "ديرك برنابى" من طبقة اجتماعية لا يعرفها آل "ليترل"، وكانت معتقداته الدينية غير واضحة، وحسه بالدعابة غير مفهوم لهما. حتى "شاندلر" الصغير غير مفهوم لهما، وكان الجد يخسر دوماً فى محاولته جذب انتباه الحفيد من الجدة "ليترل". يطالع الطفل الرجل العجوز بعين تطرف ببطء فى فضول دون أن يبتسم، وأحيانًا يدفع بنفسه بعنف بعيدًا عن الجد. وكانت "آريا" ترى فى وجه والدها فى مثل هذه الأوقات نظرة خسارة صادقة.

سطوة رفض الطفل الذى لا يراعى أحدًا.. سلطته فى الحياة أكثر من غيره.

وهكذا يطحن جيل جيلاً آخر إلى قلب الأرض، إلى العظام والتراب.. إلى النسيان، ابتسمت "آريا" فى قسوة وهى تفكر كيف أن وعد الجنة يصبح ضئيلاً للغاية إذا فقدت أرضك.

ـ "شاندلر"! يا له من طفل شقى. سيقرأ لك جدك، أترى؟ ها هو كتاب الأسد الكبير، كتابك المفضل". وفى مرح تعيد "آريا" طفلها إلى والدها، وتضعه على الأريكة إلى جوار العجوز المبتسم ابتسامة خرقاء.

كانت "آريا" تهاب الخروج فى قوارب فى النهر، ولم تحب كثيرًا قارب الفالكير وهو يركب الأمواج ماضيًا عكس اتجاه التيار ومع التيار، ذاهبًا إلى بحيرة إيرى وعائدًا منها، لكنها كانت تتظاهر، لأجل خاطر "ديرك"، بالاستمتاع بهذه الرحلات، أو أنها تكاد تستمتع بها. وخطر لها فترة ستبقى فيها فى البيت ويخرج "ديرك" و"شاندلر" وحدهما، لكن هذا الوقت لم يحن بعد.

لكنها كانت مناسبة مبهجة حين اصطحب "ديرك" حماه وحماته فى رحلة باليخت إلى بحيرة إيرى، على بعد خمسة أميال إلى الجنوب، وإلى العشاء فى شرفة خارجية بنادى يخوت بافالو. وأحست "آريا" بنوع من الفخر حين رأت كم كان أبوها مندهشاً وفزعاً لمرأى اليخت الأبيض الأنيق، حين اصطحبهما "ديرك" لأول مرة إلى مرسى اليخوت. افترضت أنه يتساءل عن ثمنه. (ما كان ليعرف أبدًا). وكانت السيدة ليترل تشعر بالإثارة والقلق. كانت هناك قوارب أخرى كثيرة على صفحة النهر فى ذلك اليوم المشرق كثير الرياح، قوارب بأشرعة ويخوت ولنشات، وماذا لو وقع صدام، وماذا لو ارتفعت الأمواج وقلبت قاربهم؟ رأت "آريا" أن أمها خائفة من قلبها، راحت تتكلم بصوت خفيض محرج وهى لا تريد أن يسمعها زوج ابنتها. قالت آريا بتكبر: "مستحيل يا أمى. ديرك ملاح يخوت ماهر خبير". ملاح يخوت! نطقتها بيسر من كانت قبل ديرك برنابى وحياتهما الجديدة وحياتها فى الشلالات، لم تر قط قارب كالفالكاير، دعك من أن تخطو بقدمها على ظهر قارب فخم كهذا. وعلى أية حال، ما إن خرجوا إلى النهر

ظلت آريا والسيدة "ليترل" داخل الكابينة ومعهما "شاندلر". كانت الرياح على صفحة نهر نياجرا لا تهدأ. أصر ديرك على أن يحافظ على سرعة كبيرة، إذ كان يكره أن "يتحرك ببطء" والسحب تجرى أمام الشمس تحجبها، وتراجعت درجة الحرارة عشر درجات. وكانت آريا قلقة من السحب المتجمعة فوق البحيرة والتى يمضون تجاهها، لكنها لم تقل شيئاً لأمها بالطبع. وفى منطقة البحيرات العظمى كان الطقس يتغير سريعًا، ودائمًا ما تجد الأخطاء فى تنبوءات الأحوال الجوية. وكان شاندلر يشعر بإثارة لوجوده على قارب بابا الكبير لكنه سرعان ما أحس بالإرهاق من حماسه، وتحول إلى حالة من التململ والبكاء الطفولى. وقالت السيدة ليترل مدافعة عنه: "

"إنه طفل حساس سريع الاستثارة، كحال والدته".

ضحكت "آريا" وقالت: "أهكذا ترينى يا أمى؟" سريعة وحساسة؟" لم تكن تعرف إن كان هذا إطراءً أم إهانة. كانت تشعر بفخر بالغ بنفسها تلك الأيام، باعتبارها أمًا لأول مرة.

منذ ولادة "شاندلر" وهى لا تشعر بحالها كما كانت. مرهقة وحزينة وتريد أن تزحف إلى عش أغطية الفراش وتختبئ فيه. لكنها لم تفعل، هل فعلت؟ ثدياها الصغيران الصلبان ملأهما اللبن اللذيذ الذى يجب مصه.

قالت السيدة "ليترل" بسرعة: "لكنك أيضًا موهوبة للغاية يا "آريا". ذكية.. جداً.. غامضة قليلاً. دائماً ما رأيناك هكذا أنا ووالدك". غامضة! أحبت آريا هذا النعت، أفضل بقليل من غيره، سألتها:

ـ "وما الصفات التى يشبه فيها "شاندلر" والده فى رأيك؟

ـ والده؟ أخذ منه عينيه على ما أعتقد وشكل فمه ورأسه" لكن بدا أن أم "آريا" ليست واثقة مما تقول.

قالت "آريا": "حين ولد "شاندلر" كان شعره داكنًا.. خصلات داكنة كأعشاب البحر. والآن أصبح أفتح مثل شعر "ديرك". سيصبح شبيهًا لأبيه

مع الوقت على ما أعتقد، إنه يحب الأعداد ويقول "ديرك" إنه كان يلعب بالأعداد وهو فى عمر" شاندلر" هو الآخر. وتقول أم "ديرك" إن شاندلر يشبه ديرك كثيرًا حينما كان فى نفس عمره". كانت تلك كذبة محضة، ولم تصدق "آريا" أنها صدرت عنها "بالطبع ولد "شاندلر" قبل موعده بعدة أسابيع، واضطر لتعويض النمو الذى فاته، لكنه سينجح فى هذا".

حمدًا لله، تجاوزت "آريا" مخاوفها عن والد الطفل. تذكرتها واهنة بعيدة كما قد تتذكر فيلمًا رأته منذ فترة طويلة. وهى ترى "ديرك" مع "شاندلر" تعرف أنهما آب وابن. أحب شاندلر أباه كثيرًا، وأحبه أبوه بدوره، ورأت "آريا" أن قلقها كان من أعراض الحمل مثل الغثيان الصباحى، أو ميلها للأطعمة الغريبة مثل الشوفان باللبن البارد، وشطائر المخللات، وأصابع السمك بالخردل، وكعكات ساخنة من مخبز ديكاميلو، الأم الجديدة تتخيل الأسوأ، هكذا أكد لها دكتور "بايبر". تتخيل أنها قد تلد طفلاً مشوهًا، أو مسخًا، على الأقل لم تكن "آريا" على هذه الدرجة من الجنون.

أبعد "شاندلر" عنه لعبة الأرقام وخلد إلى النوم، كانت السيدة "ليترل" تضيق عينيها لترى ما وراء قمرة الكابينة وهى تطل على الرجلين على سطح القارب. قالت السيدة "ليترل" متعجبة: "لم أحسب أبدًا أننى سأعيش لأرى هذا المشهد، والدك فى سترة إنقاذ، وكأنه قبطان سفينة" حاولت أن تضحك، إلا أن الفالكير بدأ يهتز بعدما مرت به سفينة نقل بضائع كبيرة إلى جواره فى النهر وقالت السيدة "ليترل" وعلى وجهها ابتسامة باهتة: "آريا"، لقد تزوجت رجلاً رائعًا، كنت محقة حينما لم تشعرى باليأس".. لم تشعرى باليأس؟ هل كان هذا حقيقة حبها "لديرك"؟

ـ حقاً يا أمى. لكننا لسنا بحاجة لنقاش هذه المسألة.

أغمضت "آريا" عينيها، هذا القارب الملعون! يهتز ويتمايل، كانت تخشى دوار البحر أكثر من الغرق.

لكن السيدة "ليترل" قالت بإصرار وهى ترفع صوتها لتسمعها برغم ضجيج محرك القارب المتزايد: "حقاً يا "آريا"، عمل الرب غير واضح المنهج دائمًا، كما قال الإنجيل".

قالت آريا: "ربما للرب حس شرير بالدعابة لا أكثر".

لم يكلم السيد والسيدة "ليترل" آريا قط عن "آل إرسكين"، للذين كانا يعرفانهم تمام المعرفة فى "تروى"، ولم يتكلما إليها عن "جيلبرت إرسكين". وكأنما حين يزور السيد والسيدة ليترل لونا بارك، وتحت تأثير سحر بيت برنابى، يكف جزء من الماضى عن الوجود.

فى ليلة رحلة اليخت إلى بحيرة إيرى ورحلة العودة منها، وفيما كانت تخلع ثيابها وتتكلم عن الرحلة التى رأى ديرك أنها مرت على أحسن حال - اعترت "آريا" رغبة مفاجئة فى ألا ترى أبويها ثانية أبدًا، أو أى شخص غيرهما. روحها ذبلت وتهرأت كأنها منشفة قديمة مستعملة. سمعت نفسها تقول بصوت مضحك: "يبدو أننى قد غُفر لى تمامًا. فعلها قارب الفالكير مع المبجل". وهى تطل فى المرآة اكتشفت عدة شعرات فضية جديدة بارزة فى رأسها. مثل أفكار سوداوية كئيبة، تشعر وكأنك تريد نزعها انتزاعًا من جذورها.. "لكن أتعرف؟ ما زلت نفس الإنسانة المحملة بالخطايا كحالى دومًا".

ضحك "ديرك" ومد يده إليها قائلاً: "أتمنى هذا يا عزيزتى".

-٣-

بلا سابق إنذار!

ذات يوم من أيام الأسبوع وفى فترة بعد الظهر من شهر أكتوبر ١٩٥٣ وفى وقت مبكر على قدوم تلميذ درس البيانو، رن الجرس ومضت "آريا" لتفتح. أحست بشىء من الضيق.. لا يمكن أن يكون رجل البريد الذى يضرب الجرس فى هذه الساعة، ولا عامل التوصيل، لم تكن "آريا" تتواصل وتود جيرانها فى لونا بارك حتى تمر إحداهن بها على غير المتوقع ودون دعوة. (ذاع صيتها على ما تعتقد، بأنها غير ودودة ومنعزلة. وربما لم يكن

هذا خطأ)، وبخلاف عدة ساعات تقضيها فى تعليم البيانو كل أسبوع، تمضى "آريا" أيامها مع "شاندلر". كانت أمًا مخلصة تهب نفسها لطفلها.. تخلصت من المربية الأيرلندية التى جلبها "ديرك" لها، وقللت من ساعات عمل مدبر المنزل "هذا بيتى، وأكره أن يشاركنى فيه الغرباء".. كانت تحب مراقبة "شاندلر" من على مسافة قريبة، تراقبه وهو يلعب لفترات طويلة غير مدرك لوجودها، كان يغمغم لنفسه ويجادل ويضحك وحده، وهو يبنى فى صبر وأناة من المكعبات أبراجًا معقدة التركيب، وجسورًا وطائرات، ثم وفى صيحة ضئيلة مهذبة "انطلقى!" فى تقليد لصوت والده، يدفعها للتحطم والتساقط والانهيار فى أكوام.

للعبة اسم سرى، وكان يهمس به فى أذن ماما لو وعدته بألا تخبر أحدًا: "الزلزال".

فى عمر السنتين وسبعة أشهر، كان "شاندلر" طفلاً نحيفًا يميل للتوتر والعصبية والخجل ولا يثق بمن حوله من أطفال إن وجدوا، كان وجهه صغيرًا ومثلثًا كوجه ابن عرس. وعيناه تبدوان لآريا كثيرتا الحركة لا تهدءان. "شاندلر، انظر إلىّ. انظر إلى ماما". وقد يفعل، لكن تتبين من نظرته أن عقله الصغير مركز على شىء آخر أكثر أهمية وإلحاحًا بالنسبة إليه.

وقبل أن تبلغ "آريا" الباب الأمامى رن الجرس ثانية فى حدة. انزعجت "آريا" وهى تفتح الباب.. "نعم.. ماذا تريدين.." فعند مدخل الباب وقفت امرأة أكبر سنًا منها فى ثياب أنيقة يحيط بها عطرها، وبدت لها مألوفة المظهر وكأنها شخصية من كابوس لا تكاد تذكرها. لم ترها آريا من قبل ولكنها (تعرف هذا!) تعرفها.

قالت المرأة وهى تلوك فمها بطريقة غريبة، وبصوت تتصنع فيه التحضر وكأنها لم تستعمله منذ فترة طويلة: "مرحباً يا "آريا"، أنا "كلاودين برنابى" أم "ديرك". وهى تحاول ألا تلاحظ دهشة أو فزع "آريا"، مدت يدها الضعيفة المحاطة بالقفاز. وكأن أصابعها لا ضغط لها على يد من

تصافحها. طالعت "آريا" من وراء نظارتها الشمسية الداكنة. لم تر "آريا" لمعان عينيها حتى. كان فمها بلون أحمر براق بلون عربة الإطفاء، لكنه كان فماً يصعب أن ترتسم الابتسامة عليه. هى! الحماة.

للحظة طالت وقفت "آريا" متجمدة بلا حراك، كانت هذه مقابلة صعبة التوقع وغير مناسبة وكأنها تجسيد لخيال زوجة ابن شط بها عقلها العليل لأكثر من ثلاث سنوات، لكن ها هو يحدث وبوضوح للمرة الأولى.. والحماة لها اليد العليا فى المقابلة.

كانت هناك سيارة بسائق واقفة أمام البيت جليلة المظهر كأنها سيارة حمل الموتى.

سمعت "آريا" صوتها ينسل إليها كصوت مغنية هاوية، تحاول أن تغنى على نغمات غير موجودة.. "سيدة "برنابى"! أ.. أهلاً، تفضلى بالدخول.. من فضلك".

ضحكت المرأة فى عذوبة وقالت: "عزيزتى.. لا يمكن أن تكون كلتينا السيدة "برنابى"، ليس فى الوقت نفسه".

ستفكر "آريا" فى هذه الكلمة لاحقاً كمن يتفحص جراحه وندوبه التى ألمت به ولا يدرك تمام الإدراك إصابته بها.

تمتمت "آريا" قائلة إن "ديرك" ليس فى البيت، وسيحزن "ديرك" إن فاته لقاؤها، وفى الوقت نفسه يدرك جزءاً من عقلها أن السيدة "برنابى" جاءت متعمدة فى وقت يغيب فيه ديرك عن البيت، ولماذا تعرض هذه الصورة الساذجة البليدة عن نفسها؟ عرضت على السيدة "برنابى" أن تخلع عنها معطفها، وراحت تتعثر فى الثوب، الذى كان فى الواقع غطاء كتف من الصوف الناعم، بلون الخلنج الجميل الذى يناسب لون سترة السيدة "برنابى" التى ترتديها أسفله.. وكانت السترة على غرار ثياب منتصف الأربعينيات، بكتفين مرتفعتين وخصر ضيق وتنورة واسعة تصل لمنتصف الجزء السفلى من الساق، وعلى شعرها الأشقر المعدنى كانت

السيدة "برنابى" تعتمر قبعة سوداء مخملية لها غطاء وجه صغير من الشباك، عبق أناقة قديمة ينبعث منها. انزعجت "آريا" كثيرًا لعريها أمام نظرة المرأة وكأنها امرأة تركت نفسها تتدهور منذ عرسها، كانت ترتدى سترة قديمة وقميصًا حائلا وحذاء واسعًا متهرئًا من كعبه حتى أصبح فى واقع الأمر خفًا لحجرة النوم وكانت أكمام قميص آريا تعلوها بقع منذ جلسة صباغة بيض عيد الفصح مع "شاندلر" منذ شهور. وبالطبع كان شعر "آريا" ـ الماضى فى التحول إلى اللون الرمادى ـ مسطحًا حول وجهها الشاحب وبحاجة ماسة للعلاج بالشامبو، وكانت تنوى الاستحمام قبل درس البيانو فى الخامسة مساءً بقليل..

لكن بدا أن السيدة "برنابى" لا تكاد تعى بوجود "آريا" وهى تشير حولها فى حدة قائلة: "مرت سنوات، ولم يدعنى ديرك إلى هنا أبدًا، دائمًا ما كان طفلاً غريبًا انتقامى الطباع، مدللاً منذ نعومة أظفاره، لم يتوقع أحد أن يتزوج، بالطبع هناك أسباب للزواج، بعضها أسباب جيدة، لقد غيرت ورق الحائط هنا كما أرى، وبلاط الأرضية جديد. لم تعش أى من السابقات عليك هنا فى لونا بارك فعلياً، على قدر علمى، قالت لى ابنتاى: ديرك سيتزوج يا أمى، ولن تتمكنى من تخمين العروس لأنك لا تقرئين الصحف.. يا لحسهما بالدعابة، وقلت: ومن تكون؟" فى حذائها عالى الكعبين وهى تتمايل قليلاً، مضت السيدة "برنابى" إلى حجرة المعيشة، حيث رفع "شاندلر" بصره فزعًا عن لعبه إليها، المرأة الثرثارة ذات الشعر الأشقر المعدنى، وفمها ذو أحمر الشفاه البراق، ونظارتها السوداء اللامعة، تلوح فوقه كأنها شبح، ارتفع صوتها فى مرح:

ـ هل هذا.. "شاندلر" أعتقد أنه هو.

سارعت "آريا" بالجلوس القرفصاء إلى جوار "شاندلر"، الذى راح يحدق بعينين واسعتين فى السيدة "برنابى" فى صمت، وأخذت "آريا" تمسح بيدها على جسده وعدلت من ثيابه وصففت بيدها شعره الأشعث قائلة: "شاندلر، هذه (الجدة) برنابى.. أم بابا.. سلم عليها."

قالت السيدة "برنابى" فى سرور وحزم فى الوقت نفسه: "الجدة برنابى إذا كنت لا تمانعين، لا أشعر بأننى (الجدة) لأحد، شكرًا لك".

تلعثمت "آريا" قائلة: "جد.. جدتك "برنابى"، سلم عليها يا شاندلر".

وضع "شاندلر" أصابعه فى فمه ومال بجسده الصغير الضئيل على أمه وكأنه يريد الاختباء فى ثنايا ذراعها، وراح ينظر بعيون تطرف فى جدته، وغمغم فى صوت واهن: "أهـ..لا".

قالت "آريا" بصوتها الأمومى وكأن هذه أخبار سارة مدهشة يجب أن يسر "شاندلر" لسماعها: "هذه السيدة هى جدتك "برنابى" يا "شاندلر". لم تقابل جدتك "برنابى" قط، أليس كذلك؟ لهذا فهذه مفاجأة سارة، فقد جاءت لتزورنا! عزيزى، ماذا نقول لمن نقابلهم لأول مرة؟ بصوت أعلى يا حبيبى.. أهلاً".

حاول "شاندلر" ثانية وهو ينكمش على نفسه: "أهـ..لاً".

قالت السيدة "برنابى": "مرحبًا يا "شاندلر". ستصبح صبيًا كبيرًا، أليس كذلك؟ تكاد تبلغ الربعة؟ أو.. لم تقترب من هذه السن بعد، وماذا تبنى هنا يا "شاندلر" مدينة تخيلية صغيرة من العصى؟" كانت السيدة "برنابى" تتنفس بصوت مسموع وكأنها دخلت لتوها إلى الحجرة. كانت تحمل حقيبة يد جلدية وحقيبة تسوق فيها عدة هدايا ملفوفة، ناولت حقيبة التسوق إلى "آريا" كمن تناول شيئاً ثقيلاً إلى خادمة، دون أن تنظر إليها.. "لكن لماذا تلعب بالأسفل يا شاندلر؟ لابد أن لديك حجرة اللعب الخاصة بك بالطابق العلوى، أليس كذلك؟ بالطبع هناك حجرة لرعايتك بالأعلى أيضًا، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يكون هذا ملائمًا لك أو لأبويك.. أن تلعب هنا بالطابق السفلى، فقد يتعثرون فيك، وتتعثر فى الأثاث يا "شاندلر"، أليس كذلك؟"

بدا سؤالاً لحوحًا، وكانت السيدة "برنابى" تتكلم باهتمام وامتعاض. وأحست "آريا" بوجوب الرد، و"شاندلر" يتململ فى حجر ماما. "شاندلر" يلعب أينما شاء. يلعب بالطابق العلوى وهنا، وأحياناً ألعب معه، ألست أفعل

هذا يا "شاندلر" ويستخدم الأثاث فى لعبه أيضًا، بأساليب بالغة المهارة. انظرى يا سيدة "برنابى.."

قالت السيدة الأكبر ببرود: "أرجوك نادينى باسم "كلاودين". كما قلت، لا يمكن أن تكون هناك أكثر من سيدة "برنابى" واحدة فى الوقت نفسه".

كـ.. كلاودين.

كانت "آريا" ستندفع لتقول: يا له من اسم جميل، إذ بدا لها حقاً اسماً جميلاً، لكن حلقها أغلق رافضاً النطق بالكلام.

ـ وأنت "آريا"، زوجة "ديرك"، من تروى وقد نسيت الاسم الأخير، وأعتذر لهذا، والدك مبشر؟"

ـ قس.. قس مشيخى.

ـ لكنه يقوم بالتبشير أيضًا، أليس كذلك؟ أم أنهم لا يبشرون فى طائفتك الدينية؟

ـ بلى، لكن..

ـ أخيرًا تقابلنا، رأيت صوراً لك بالطبع، وقد أرتنى ابنتاىّ إياها". توقفت السيدة "برنابى" عن الكلام، كانت وقفة تستدعى ابتسامة، أو تقطيبة جبين متفكرة. لكن وجه السيدة "برنابى" ظل بلا تعبير مرتسم عليه.. أضافت: "عزيزتى، تبدين مختلفة عن الصورة، والآن بعدما قابلتك، تبدين لى إنسانة مختلفة".

لم يزر "ديرك" و"آريا" شقيقتيه المتزوجتين وأسرتيهما. كانت "آريا" تخشى هذه المناسبات وهى فى العادة فى أيام العطلات، مثل عيد الشكر والكريسماس وعيد الفصح ومنذ البداية أحست بضيق ضدها، بل نوع من الكراهية، من شقيقتى زوجها "كلاريس وسيلفيا"، وقررت ألا تبالى. والآن تخشى التفكير فيما قالتاه لأمهما عنها.

وكم كان هذا مخيفًا.. "كلاودين برنابى" تبدو أكبر بقليل من ابنتيها اللتين كانتا فى أوائل الأربعينات.

دعت "آريا" حماتها لأن تجلس مرات عديدة، لكن فى كل مرة يبدو أن المرأة لم تسمع، واقترحت عليها أن تعد لها الشاى، لكن بدا أن السيدة "برنابى" تفضل التجوال فى الطابق السفلى وهى تسأل إن كان الأثاث ولوحات الجدران جديدة، وإذا كانت "آريا" قد اختارتها، وزعمت أنها معجبة بالبيانو الذى تكومت فوقه كتب الدرس، وضربت على عدة أوتار عالية منه جعلت "آريا" تصك أسنانها وكأنها تسمع أظافر تخدش سبورة.. قالت: "كنت أعزف البيانو فيما سبق، منذ فترة طويلة، قبل مجىء الأطفال" ثم إنها مضت إلى حجرة الطعام ونظرت عبر الأبواب الفرنسية إلى الفناء الخلفى، وأمضت عدة دقائق فى المطبخ و"آريا" تطل عليها فى قلق من عند مدخل الباب، وهى تنظر إلى حالة الحوض وموقد الغاز والثلاجة. أرادت "آريا" بشدة أن تقول عاملة التنظيف قادمة غداً لكن وإن كان هذا صحيحًا فقد بدا منطويًا على الكذب. أرادت أن تحتج قائلة: لا تحكمى علىّ مما ترينه!

ثم وفى حجرة المعيشة جلست السيدة "برنابى" على مقعد قريب من حفيدها، فى جمود، وكأنها تمثال من الشمع بأقل قدر ممكن من المرونة فى أطرافها السفلية، حاولت أن تحادث "شاندلر"، ورفعت إحدى الهدايا البراقة الملفوفة من الحقيبة وكأنها تغريه، لكن شاندلر لم يزد عن الالتصاق "بآريا"، كما فعل من قبل. وكان "شاندلر" و"آريا" يعرفان أن الهدايا التى جلبتها السيدة "برنابى" له، كما تبين من وزنها وحجمها غير واعدة، ولا تزيد عن الثياب والحيوانات اللعبة، ساور "آريا" القلق من أن يخرج "شاندلر" من بين يديها ويهرب. فلدى مقاطعة لعبه يميل لأن يكون مشاكسًا أحيانًا، وأحيانًا يتألم ويبدو عليه الخوف. وكره على الأخص استجواب السيدة "برنابى" له، وكم كان من الغريب أن الجدة كانت على النقيض من باقى الجدات، تنظر إليه بعينين من وراء نظارة سوداء لامعة وتتوقع منه أن يبتسم لها وإن لم تكن تبتسم له. كان وجهها لا تشوبه التجاعيد وإن كان لونه شاحبًا، وفمها براقًا بشكل مبالغ فيه ويؤدى إلى الإحساس بالمبالغة فى امتلاء شفتيها، أو كأنها تخفى نحافة الشفتين،

وحين تتكلم بدا كأن هناك بلى فى فمها تحاول أن تلفظه للخارج، وحين مالت للأمام لتلمس شعره تراجع "شاندلر" للخلف منكمشًا، ليجرى على مؤخرته على البساط ويفر إلى الحجرة المجاورة، لولا أن ماما أمسكت به وعلى شفتيها ابتسامة مرحة ضئيلة.

- إنه خجول يا سيدة "برنابى"، إنه...

صدر عن المرأة الأكبر صوت احتجاج، وكأن صفة "خجول" شفرة تعرف كيف تفك رموزها.

- هل هو خجول مع جدته الأخرى؟ تلك التى من تروى؟

- إنه صغير للغاية يا سيدة "برنابى". سيبلغ الثالثة فى الربيع القادم.

- الثالثة".. تنهدت السيدة "برنابى" وأضافت: "سيعيش ليبلغ القرن الحادى والعشرين، شىء غريب أن يكون صغيرًا هكذا، أليس كذلك؟ وإنسانًا فى الوقت نفسه. لكنه غير ناضج كما يقولون على من فى سنه".

تركت "آريا" هذه الملحوظة تمر، وأحست بالضيق لأن "كلاودين برنابى" تتكلم بألفة عن "شاندلر" وكأنه يتبعها.

كررت "آريا" عرضها بتقديم الشاى أو القهوة، وقالت السيدة "برنابى" هذه المرة: "سكوتش وصودا، شكرًا لك" فرت "آريا" إلى المطبخ لتحضر هذا المشروب لحماتها، وأعدت لها و"لشاندلر" مشروبًا ساخنًا. يا لروعة أن تكون وحدها! سمعت صوت السيدة "برنابى" المرتفع المهتاج يشجع "شاندلر" على فتح هداياه، لكن لم تسمع إجابة من "شاندلر".

لماذا جئت.. ماذا تريدين منا؟ ابتعدى، عودى إلى شبكة العنكبوت خاصتك.

لكن "آريا" قالت لنفسها إن المرأة جدة "شاندلر"، لعل لها بعض الحقوق ويجب أن تسنح الفرصة "لشاندلر" ليكون له قريبة ثرية أكبر سنًا.. أليس كذلك؟ إنها مسألة عملية بحتة، يجب أن تنحى "آريا" أحكامها على المرأة جانبًا.

لكن أحكامى هى أحكامى! أحب أحكامى.

كم هى قوية.. رائحة سكوتش "ديرك" باهظ الثمن، فكرت "آريا" فى إعداد مشروب سكوتش بالصودا لها، أو أن تتجرع رشفة سريعة من السكوتش غير المخفف هنا فى المطبخ، لكن فى هذه الحالة العصبية التى تعتريها قد يحدث ما لا يسر.. إحساس الويسكى اللافح وهو يهبط، يا لروعته، ربما أروع من اللازم، يجعل "آريا" تريد أن تعانق "ديرك"، وأن تمارس الحب، أو ربما تصيبها الرغبة فى البكاء لأنها وحيدة. قد ترغب فى التكلم إلى قس رومانى كاثوليكى - فلم تتكلم فى حياتها إلى قس رومانى كاثوليكى - وتعترف بخطاياها.. أنا ملعونة، أيمكنك أن تخلصنى؟ لقد دفعت زوجى الأول للانتحار، وابتهجت لأنه مات! أرادت أن تتصل "بديرك" فى مكتب المحاماة وتخبر سكرتيرته صاحبة الصوت المخملى (التى كانت واقعة فى حب ديرك برنابى و"آريا" تعرف) أن ثمة حالة طوارئ، وحين يدخل على الخط تصرخ فيه. عد للبيت! هذه المرأة الرهيبة أمك وليست أمى. ساعدنى! أعدت مشروب "كلاودين برنابى" بأصابع ترتجف كانت رائحته جيدة، وأخذت "آريا" رشفة صغيرة من الزجاجة قبل أن تعيد إليها غطاءها. الإحساس الملتهب العذب فى حلقها وتجاوزه.

منذ الزيارة الفاشلة لشالوت فى صيف عام ١٩٥٠ منذ أكثر من ثلاثة أعوام، ظل الاتصال بين "كلاودين برنابى" والزوجين قليلاً مقتصرًا. وحين ولد "شاندلر" أرسلت "آريا" بإعلان الولادة للسيدة "برنابى" التى استجابت بإرسال عدد من الهدايا الفاخرة لحفيدها، ومنها مشاية أطفال على غرار الطراز الفيكتورى بحجم كبير خرقاء الحركة ومزينة ومزخرفة وغير عملية، وألقى بها "ديرك" إلى القبو على الفور، وأرسلت هدايا إلى "شاندلر" فى الكريسماس وفى عيد الفصح كانت من هدايا المتاجر الملفوفة الجاهزة، وموجهة إلى "شاندلر برنابى" المحترم، ولم تكن مصحوبة برسائل، ولا بذكر لأبوى "شاندلر". "ربما تحسب "شاندلر" يقيم وحده فى شقة عزوبية والده" ضحكت "آريا" فى مزاح: بالطبع، وإن كان "ديرك" الذى

تلتهب مشاعره فى حالة ذكر أمه، أحس بالإهانة وقال: "أمى ليست إنسانة طيبة، حاولت قبول هذا، ويجب أن تقبلى أن الأخرى لا تقصد أن تكون وقحة، فهى تعيش فى كونها المنعزل، كأنها سلحفاة داخل صدفتها" لكن السلحفاة لا تعيش فى كون منعزل، كذا اعترضت "آريا"، السلحفاة تعيش مع السلاحف الأخرى، وهى بالطبع تتواصل. ولا تتحكم السلاحف فى كميات مهولة من الأموال لم تكسبها بنفسها، لكنها تمكنت من أن ترثها لا أكثر، إلا أن "آريا" لم تكن لتقدم على إبداء هذا الرأى لزوجها المتعض.

كرهت "آريا" أن شقيقتى "ديرك" ـ "كلاريس" "وسيلفيا" ـ كانتا تبلغان "ديرك" بلا توقف بأخبار أمهما، وهى أخبار تعرفان أنها ستزعجه.. أصيبت "كلاودين" "بالوسواس القهرى"، وأصبحت "مثيرة للشفقة" ثم إنها فى بعض الأوقات، يبدو عليها الاعتلال، والإصابة بالصداع النصفى والعدوى فى الرئة، كما أن فى كليتها حصوات، كانت "كلاودين" ترغب فى "خداع" كل أفراد أسرة "برنابى" ليخضعوا لإرادتها، ليس بها ما يسوء "على الإطلاق" غير أنها "قاسية وانتقامية الطابع وكأنها إمبراطورة رومانية" وكانت الشقيقتان ـ وزوجاهما ـ من يعتقدون بأن "كلاودين برنابى" تلعب لعبة معهم، ومع محاميهم.. إذ تدفعهم إلى التقدم برفع قضية فى محكمة الولاية لانتزاع الوكالة القانونية منها، وفى تلك النقطة ستقوم بزجهم جميعاً إلى المحكمة وتتسبب فى فضيحة، بالإضافة إلى أن "ديرك" وشقيقتيه كانوا بعضاً من أفراد عائلة "برنابى" الآخرين والمرتبطين بها من أفراد من المنخرطين فى أعمال العائلة، والذين لا تعرف "آريا" عنهم غير القليل، وأرادت أن تعرف الأقل.. من عقارات واستثمارات فى مصانع محلية وشركة لإدارة الممتلكات فى شلالات نياجرا. امتيازات استثمار؟ قال "ديرك" مشاكسًا: "لا نحتاج إلى مليم أكثر مما أجنيه من عملى بالمحاماة ولا أريد مناقشة الأمر" ووقفت "آريا" على أطراف أصابعها، وهى لا تشعر بأدنى رغبة فى نقاش الأمر، وقبلت وجه زوجها الساخن ثم لفت ذراعيها حوله بقدر ما تمكنت. إنها تحبه! بالطبع تحبه.

راحت تفكر الآن أنها ربما تقدر على أن تبدو مهذبة وإن لم تكن ساحرة، لكلاودين برنابى.. وربما حتى - بعد أن تستجمع حبها المسيحى الذى تعلمته من المدرسة الدينية التى أقامتها لها أمها أيام الأحد - تتمكن من أن تحب المرأة.. "سأحاول!" رشفة أخرى صغيرة - بالغة الصغر - من سكوتش ديرك ناعم المذاق، وعادت آريا إلى حجرة المعيشة حيث "ساعدت السيدة "برنابى" حفيدها على فتح هديتين من هداياه، وكانتا فى حقيقة الأمر ثياباً تناسب طفلاً أصغر من "شاندلر". وبذل "شاندلر" أقل الجهد فى الاهتمام بالهدايا، وأظهر قليل الفضول فيما تحتويه لفافات الهدايا الأخرى، تمنت "آريا" أن تصلح من الحال، قبلت السيدة "برنابى" السكوتش بالصودا دون تعليق، وشربت بنهم، وكأن هذه جائزتها على ما فعلت، بينما ركعت "آريا" إلى جوار "شاندلر" لتشاركه مشروبها، لكن تغير شىء ما فى الجو من حولها، بينما كانت "آريا" خارج الحجرة.

قالت السيدة "برنابى" فى سخرية: "جلب الهدايا تعبير مباشر عن المشاعر، لكن التعبير المباشر عن المشاعر ليس محل ترحيب دومًا".

فتحت "آريا" فمها لتحتج، لكن السكوتش الذى ابتلعته سريعاً فى المطبخ جعلها ترغب فى الضحك بدلاً من الكلام.

استرسلت السيدة "برنابى" قائلة: "كنت أعزف البيانو فيما سبق، لكن ليس لشوبان وموتسارت وبيتهوفن، كانت تعوزنى المهارة الفنية لهذا، أصبحت عروسًا وأنا ما زلت بعد جديدة على المدينة.. كنت بارعة الجمال، على حد التعبير السائد فى ذلك الزمان. أما أنت يا "آريا" فقد رُحمت من هذا على الأقل".

ضحكت "آريا"، فهذه الإهانة خرقاء للغاية. أو.. لم تكن إهانة بالمرة، بل إطراء بكلمات غير مباشرة؟ راحت السيدة "برنابى" تغمس إصبعها فى كوب الشراب.. "تمنت ابنتاى وزوج كل منهما أن يرثوا شالوت ومعه الأرض، لكن شالوت "لديرك"، للابن، و"ديرك" هو الوحيد من بين أطفالى القادر على شغل هذه المساحة، ألا ترين؟ وإن حطم قلبى. وإن لم يكن ابنًا موثوقًا، وليس موثوقًا كزوج على الأرجح، كما ستكتشفين يا عزيزتى".

قالت "آريا" بسرعة وكأنها تعرضت للدغة: "لا أعتقد أننى أريد نقاش أحوال زوجى معك يا سيدة "برنابى". خاصة فى حضور ابنه! لك أن تتفهمى هذا، على ما أرجو؟"

تجاهلت السيدة "برنابى" هذه الملحوظة وتجرعت رشفة كبيرة أخرى من مشروبها: "تقول ابنتاى إنك عازفة بيانو هاوية للغاية. لقد سمعتاك، على ما يبدو، وأتساءل إذا كنت تعزفين لى؟"

ـ فى وقت لاحق، ربما، فى هذه اللحظة..

ـ وتعطين دروس بيانو فى البيت، كما كنت تفعلين فى ترورى؟ أهناك سبب لهذا يا عزيزتى؟

ـ بالنسبة لإعطاء الدروس.. أحب التدريس للتلاميذ الصغار و.. وأنا بحاجة لشىء أفعله، بخلاف كونى زوجة وأمًا".

ـ مجرد زوجة وأم! ما رأى "ديرك" فى هذا؟"

ـ لم لا تسألينه يا سيدة "برنابى"؟ أنا واثقة من أنه سيخبرك.

ـ يقولون إنك كنت تعلمين الموسيقى قبل زواجك، قبل زواجك الأول. وأعرف أنك تزوجت أكثر من مرة يا "آريا". أرملة فى سن صغيرة كان هذا مألوفًا أكثر فى زمن الحرب.. وفى ظل دخل ابنى، يبدو غريبًا أن تعطى زوجته دروس بيانو، لكن ربما لم أعد أعرف مقدار دخل "ديرك"، فقد كف عن إطلاعى عليه، وله أسبابه، لكن لا أحد يعرفها، فالصبى المهمل ما زال يدين لى باثنى عشر ألف دولار، لكن بما أننى لا أتقاضى منه فوائد فلا حاجة للعجلة من جانبه لإعادة أى دين عليه، تبدو عليك الدهشة يا "آريا"، أليس كذلك؟ بلى، لكن من غير المفيد سؤال "ديرك" عن هذه الأمور لأنه لن يطلعك ببساطة، لم يثق أبدًا بأية امرأة، وهو كتوم لأقصى درجة، ويلعب بامرأة على الأخرى، وتأتى بعضهن إلىّ، وأعنى المحترمات منهن، محطمات الأفئدة، وبالطبع غاضبات ألا يعرفن هذا وقت قدومهن، ولم أتورط بشكل مباشر، ولا والد ديرك، وأريدك أن تعرفى.. لكن هناك ترتيبات أجريت..

ترتيبات (طبية)، حتى يتخلص "ديرك" من المواقف المحرجة التى يجد نفسه متورطاً فيها، ويورط الآخرين فيها، هل تتابعين ما أقوله يا "آريا"؟ بخلاف نمشك الذى أجده جذابًا للغاية، فأنت غير جميلة على نحو محرج".

فى تلك اللحظة سكب "شاندلر" ـ إن لم تكن "آريا" ـ مشروبه على البساط، مما تطلب السعى سريعاً إلى إحضار منشفة.

استأنفت السيدة "برنابى" كلامها: "أتساءل إن كان "ديرك" ما زال يزور فورت إيرى.. هل اصطحبك إلى المضمار يا عزيزتى؟"

ـ "المضمار؟" كانت "آريا" تعرف بالطبع بوجود مضمار سباق الخيول فى فورت إيرى، وهو مضمار مشهور محلياً، لكن سؤال السيدة "برنابى" أذهلها.

ـ أرى أنه لم يخبرك به.

راحت نبضات مؤلمة تخفق فى رأس "آريا". السكوتش الناعم وهو ينزل إلى جوفها، أصاب معدتها بالاضطراب أحست وكأن حماتها أنيقة الثياب ذات القبعة المخملية السوداء والنظارة الشمسية قد مالت عليها لتلكزها فى قفصها الصدرى، ولرعبها رأت أن "شاندلر" كان يستوعب كل شىء.. فى العادة يمل من أحاديث الكبار، لكنه راح ينصت وينظر بفم مفتوح إلى جدته "حبيبى، لم لا تذهب إلى الحجرة الأخرى لدقيقة؟ ماما ستأتى فورًا.."

لا لا.. لا داعى لهذا يا عزيزتى، سأغادر الآن".

مشت "آريا" متعثرة خلف "كلاودين برنابى"، فى أعقاب المرأة العطرة. كان ذهنها غائباً حتى أنها لم تحضر غطاء كتف السيدة برنابى، باستعادته السيدة "برنابى" بنفسها من الخزانة الأمامية "أرجوك انقلى حبى لديرك، لا أعرف متى سأغادر الجزيرة ثانية. يبدو أن أسباب الخروج منها قليلة، وتحتاج لبذل مجهود مضنٍ، وأنا صحتى ضعيفة للغاية" ولدى الباب مدت

السيدة "برنابى" يدها من داخل القفاز ثانية، لكن ليس لتصافح آريا بل لتلكز يدها مودعة. وبصوت خفيض قالت: "عزيزتى، لا تقلقى.. سيموت سرك معى".

سـ.. سرى.. أى سر؟"

- هذا الطفل ليس ابن "ديرك". تعرفين هذا وأنا أعرفه.. إنه ليس حفيدى، لكن وكما قلت لا تقلقى؛ فأنا لا أهوى الانتقام.

حدقت "آريا" فى حماتها وهى غير قادرة على الكلام، وفى حذائها عالى الكعبين هرولت على الممشى الأمامى وانضم إليها سائقها الذى سارع بمساعدتها على الركوب فى المقعد الخلفى للسيارة الليموزين.

حين عادت إلى حجرة المعيشة كان "شاندلر" قد عاد ثانية إلى لعبه، وإلى جواره كومة الهدايا الملفوفة ملقاة مهملة لا يلتفت إليها.

أخذت "آريا" معها زجاجة السكوتش إلى الطابق العلوى، إلى حيث سيجدها "ديرك" لاحقاً ذلك المساء فى سريرهما - الذى لم تكن قد قامت بتسويته بعد - حين عاد من العمل.

الأسرة الصغيرة

ـ ١ ـ

أمر منطقى بلا شك، أليس كذلك؟

إذ تعرفين أن وليدك الأول قد يُنتزع منك فى أى وقت بسبب فعل من أفعال الرب، فلابد من أن تحظى بطفل ثان، وإذا فشلت فى حب وليدك الأول كما يجب لأم أن تحب، سترغبين قطعاً فى طفل ثانٍ، لوضع الأمور فى نصابها الصحيح.

ـ وإن كانت بعض الأمور لا يمكن أن توضع فى نصابها الصحيح أبدًا.

وبنفس المنطق، إذا كان وليداك الأولان من الذكور، فسوف تحاولين مجدداً أملاً فى أن يكون الثالث أنثى.

ابنة "ستصبح حياتى كاملة وقتها ربى، لن أسألك المزيد، أعدك".

أمر منطقى بلا شك، إذ تعرفين أن زوجك سيهجرك ذات يوم، أو قد يُنتزع منك، فلابد أن يكون لديك عدة أطفال على الأقل.

أمر منطقى بلا شك، وآريا "برنابى" امرأة منطقية. سوف تصبح عبر الأعوام امرأة تتوقع الأسوأ دومًا، أو تخلص نفسها من عبء الأمل، ستصبح امرأة تتمتع بمبادئ هادئة.. تؤمن بالقدر، وتنتظر ما سيجد فى حياتها كمن تنتظر نشرة أخبار الطقس، ستخاطر (افترضت أنها تعرف هذا، فهى امرأة ذكية ـ بإبعاد زوجها عنها بسبب توقعها بأنه "سيختفى" ذات يوم من حياتها. حتى وهى تقبض عليه بقوة من ذراعيه، لكن ليس بالقوة الكافية.

أمر منطقى بلا شك، أليس كذلك؟ لكن كم من المرات طوال السنوات العشر التالية ستهب داخلها المؤمنة المختنقة، من داخلها هى التى لا تؤمن بالصلاة.

ـ ربى لست قاسيًا لهذه الدرجة، أليس كذلك؟ أرجوك دعنى أحمل مرة أخرى.. أرجوك!"

أمر منطقى بلا شك، لكنه سيتطلب أعوامًا.

ـ إنك تحبنى يا "ديرك"، أليس كذلك؟"

بصوتها الكئيب تسأل فى الليل، فى غيبة النعاس النصفى حين ننطق بأشياء لا نجرؤ على أن ننطق بها لأيام.

كان غارقًا فى النوم حتى إنه لم يجب، إلا أن جسده انثنى من حولها، ثقيلاً دافئًا مواسيًا.. رقدت فى ثنية ذراعه تخطط طفل آخر!

أبداً لم يكن حبهما لأحدهما الآخر قليلاً هكذا ـ على الأقل تعتقد "آريا" فى هذا ـ لكنهما راحا يمارسان الحب أقل وأقل مع مرور الزمن، وبرغبة أقل. أصبحا يدهشان أحدهما الآخر أقل أثناء ممارسة الحب، لابد أنه قد مر يوم، مرت ساعة، حين مارسا الحب للمرة الأخيرة وقت النهار.. حين مارسا الحب بلا توقع منهما للمرة الأخيرة فى مكان آخر بخلاف سريرهما الكبير الوثير.. حين ضغطت آريا فمها المعذب فى صدر ديرك المتصبب عرقاً لتمنع نفسها من البكاء فى صخب.

وذات مرة اتخذت "آريا" القرار بأنها لن تشرب ثانية أبداً بعد تلك الزيارة المروعة من "كلاودين برنابى"، ولا كأس واحدة من نبيذ العشاء الأحمر المفضل لديها على العشاء، ولا حتى كأس واحدة من دوم برينون لتحتفل بذكرى سنوية معينة.. وتلاشت تلك الرغبة العذبة من عانتها وكأنها لم تحضرها يوماً وبدأت تعانق زوجها برغبة أقل وأقل، وأحياناً بلا رغبة بالمرة بخلاف الرغبة النسوية المتجهمة فى أن تحمل، فى أن ترزق بطفل.

ربما ليس الأمر منطقياً، بل هو أمنية، لكن سيبدو هكذا حين تفكر فيه لاحقاً، بعدما تلد الأطفال.

فحين ستفكر فيه لاحقاً، سترى أن رمية النرد العشوائية اليائسة يمكن أن تبدو حتمية.

كم من السنوات مرت.. "ولم أشك.. قط".

وهكذا ولدت.. ولماذا؟

ـ ٢ ـ

معجزة! جاء "آريا" أخيراً طفلها الثانى، ولدته فى سبتمبر عام ١٩٥٨، كانت فى السابعة والثلاثين من العمر.

ـ فى وقت متأخر، لكن ليس متأخراً للغاية!

ستتذكر "آريا" فيما بعد هذا الحمل على أنه كان عامراً بالسعادة وكأن نوراً ذهبياً ينبعث بلا كلل طيلة فترة الحمل. كم يختلف عن كابوس الحمل الأول منذ زمن بعيد! وُلد "رويال برنابى" فى وقته المتوقع له بالضبط، طفل متمتع بالصحة الوافرة ووزنه سبعة أرطال جاء بعد تسعة أشهر من الحمل ويتمتع بشعر أبيه الأشعث وعينيه الزرقاوين. ولد على هدى فكرة أمه هذا ابنك بلا ريب، هذا الطفل نستطيع أن نحبه.

ولد فى وقت كان والده يركب فيه موجة الاقتصاد المزدهر فى شلالات نياجرا.

ولد فى نقطة من التاريخ بدا فيها أن الكون يتمدد بلا توقف إلى اللانهائى.

إذا كان زواج "آريا" قد بدأ فى "الاضمحلال".. "الوهن".. فهذه هى الكلمات التى يستحضرها الذهن وتعد أقل قسوة من كلمات أخرى.. فقد عدلت ولادة "رويال برنابى" من الأوضاع.. لفترة من الزمن.

ـ والآن لا يمكنك حقًا أن تهجرنى يا "ديرك"، أيمكنك هذا؟.. الآن أصبح لدينا طفلان". هكذا تغيظه "آريا"، وهى تمسح بيدها على عينيها.

أجفل" ديرك". لم يتبين يومًا طبيعة مزاح زوجته معه، لكنه لم يعجبه كثيرًا، إلا أنه كان يفضل ألا يكلمها بحدة.

وهو يرفع "رويال" الذى راح يركل بقدميه وهو بين ذراعى بابا الكبيرتين، وهو يرفع "رويال" الذى كان طفلاً نشيطًا قوى البنية وقد حدد لنفسه وضعه وشخصيته الخاصة المختلفة كثيرًا عن "شاندلر"؛ راقبتها "آريا"، وهى تعرف أن "ديرك" لا يمكن أن يخطر على باله الآن هذا الطفل طفلى لكن التعبير المرتسم على وجهه كان تعبير حب متأملاً مجروحًا.. ويوحى بهذه الفكرة على وجه التحديد.

"زمن الازدهار الاقتصادى" فى الخمسينيات.

ستكون حقبة سيزعم المؤرخون المحليون أنها تشبه فترة الخمسينيات من القرن التاسع عشر فى شلالات نياجرا، لكن فيما ازدهرت السياحة فى خمسينيات القرن التاسع عشر، ازدهرت الصناعة فى شلالات نياجرا فى خمسينيات القرن العشرين. وبحلول عام ١٩٦٠سيتضاعف عدد سكان المنطقة ليربو على المائة ألف نسمة.

ويحلول عام ١٩٧٠ ستتباهى المنطقة بأن بها أعلى نسبة تركيز من مصانع الكيماويات فى الولايات المتحدة.

على البر وعلى مقربة من نهر نياجرا وعلى مسافة قريبة من الشلال الغائب وسط الضباب، تطورت مدينة شلالات نياجرا وضواحيها بمعدل مدهش.. عالم "رويال برنابى".

إذا كان هناك آخر، فرويال لا يعرف عنه.

لم تكن آريا على دراية واسعة بما يجرى، لأنها لا تهتم كثيرًا بالـ"سياسة المحلية" - فى الواقع هى لا تهتم كثيرًا بالسياسة على العموم. وما الداعى للقلق بشأنها، فهى عالم الرجال. لكن حتى "آريا" أدركت كم أصبحت الأرض مفتوحة، الأرض المليئة بالغابات، والمزارع على أطراف المدينة التى بدءوا ينقبون فيها ويسوونها ويحولونها إلى مواقع صناعية

تغطى المئات لا، بل لابد أنها الآلاف ـ من الأفدنة. "ماذا حدث يا بابا؟ أين نحن؟".. كذا سأل "شاندلر" فى حيرة، إذ أنهم وفى رحلات يوم الأحد يصطحب بابا الأسرة الصغيرة إلى الشمال على طول النهر، أو بعيداً عن النهر إلى "لوكبورت". (كان "شاندلر" مهتمًا بقناة إيرى وبوابات الهاويس العملاقة عند "لوكبورت"). لكن المشاهد المألوفة أصبحت عزيزة على أن تتبينها العين، إذ تمزقت الأرض وتشوهت وكأن زلزالاً أصابها.

ـ "شاندلر"، إنك تنظر إلى أمارات التقدم.

كذا قال "ديرك" وهو يلوح بيده من خلف زجاج النافذة الأمامى، وفى المقعد الخلفى كانت "آريا" ممسكة برويال وهو فى حجرها وتغنى وتنشد فى أذنه.

كانت حقيقة عميقة الآثار: الأرض الطبيعية أصبحت أسمنتية.. سقطت الأشجار وقطعت إلى قطع وأخذت إلى مكان بعيد.. رافعات وبلدوزرات عملاقة فى كل مكان. تمت توسعة الطريق ثنائية الحارات المؤدية إلى لوكبورت، لتصبح ثلاث حارات، ظهرت الطرق السريعة وسط الحقول فى يوم وليلة. شُيدت جسور جديدة، بلون رمادى يماثل لون معدن البنادق.. راقبت آريا ما يجرى فى ضيق من على بعد. "التقدم" على بعد أميال من لونا بارك، لماذا تهتم؟ لونا بارك فى تقاطع شارع رينبو مع الشارع الثانى، أقدم حى سكنى فى المدينة.. والتغييرات كلها تتم إلى الشرق والشمال، وراء هايد بارك، وبعيداً عن شارع بافالو، وشارع فيتيرانس، وشارع سوان، فى منطقة شارع ١٠٠ وما وراءه، وهو ما يعنى بالنسبة لآريا أن ما يحدث بعيد وكأنه على ظهر القمر.

أرض لا صاحب لها.. استولت عليها المصانع والمخازن وساحات انتظار سيارات الموظفين، مصانع لقطع غيار السيارات، ومصانع للثلاجات، ومصانع كيماويات، ومصانع أسمدة. مصانع للنباتات الجصية، ومصانع للمنظفات الصناعية. أسفلت وأسبستوس ومبيدات حشرية ومبيدات نباتية.. نابيسكو، سوان كيميكال، دو كيميكال، يونايتد

كاربوروندوم، نياجكيم، أوكسيدينتال كيميكال (أوكسيكيم) محطات توليد طاقة عملاقة تنتصب إلى الجنوب على طول النهر بنية "استغلال" ثلث الطاقة المائية للشلالات. وقرأت "آريا" فى نياجرا جازيت أن مئات الأفدنة الجيدة قد بيعت لشركة نياجرا هيدرو من جانب شركة تدعى "برنابى"، وصدمت حتى أنها تركت الصحيفة تسقط من يدها على الأرض.

" - يا ربى، هذا نحن؟ هل نحن أغنياء؟"

ملأها هذا الاحتمال رهبة.

فى ذلك الوقت كان "رويال" طفلاً فى شهره الخامس، ممتلئاً بالإقبال على الطعام والطاقة، ويرضع من ثدى "آريا". كان "شاندلر" فى السابعة من العمر، وهو طفل أخرق نوعًا ما، وأصبح أكثر خجلاً وخرقاً مع وصول أخيه الجديد، وكان حينها واقفًا عند مدخل حجرة الرضيع وهو يراقب أمه فى قلق. يرى نظرتها نظرة الدهشة والقلق وهو يسألها ما المشكلة، وأجابت "آريا" بسرعة: "حبيبى.. لا.. لا شىء! ليس هناك ما يسوء".

منذ ولادة "رويال" ويبدو أن "آريا" ترتبك فى وجود "شاندلر". كانت تحبه بالطبع، لكن اعتراها ميل إلى نسيانه، وفى حومة حالة الحرمان من النوم التى تعانى منها فكرت فيه على أنه الآخر، وقد نست اسمه مؤقتاً.

أقسمت ألا تحب "شاندلر" أقل من رويال، لكنها مالت إلى نسيان هذا القسم هو الآخر.

لم تكن امرأة مؤمنة بالخرافات، لكنها أحست بنزعة من الرعب، إذ بدا لها من الخطر على نحو ما أن يتم "استغلال" الشلالات. استخلاص الملايين من أطنان من مياه النهر المتدفقة، وتحويلها إلى كهرباء من أجل "المستهلكين".

اتصلت "بديرك" فى مكتبه بعد أن حملت "رويال" إلى حجرة النوم حيث الهاتف، لماذا لا تجد "ديرك" فى البيت أبداً! لا تجده فى البيت قط وقتما تحتاجه. أخبرها الصوت المخملى لموظفة الاستقبال ببرود أن "السيد

برنابى" فى مجلس المدينة، فى اجتماع بالعمدة ومجلس مقاطعة نياجرا الذى انضم إليه عضو جديد (هل المفترض أن "آريا" تعرف بهذا؟ هل نست؟) "وما رقم الهاتف هناك من فضلك؟" بدا التردد على صوت موظفة الاستقبال المخملى، لكنها أعطت السيدة "برنابى" رقم مكتب العمدة.. العمدة المُنتخب حديثاً لشلالات نياجرا هو تيلور (المخيف) وين.. كانت "آريا" تعتقد أن من حقها الاتصال بزوجها لأن ديرك أصبح نادراً ما يتصل بالبيت، كما كان يفعل فى بداية الزواج، وحين كان "شاندلر" رضيعاً، راحت يدا "آريا" تهتزان، أخذ "رويال" الذى يتململ فى حجر ماما، يحرك قبضتيه الصغيرتين فى انزعاج متزايد، لا ريب أنه أغرق حفاضته ثانية. عضت "آريا" ظفرها وهى تفكر إن كان يجب أن تتصل بمكتب "وين" وتطلب التحدث إلى زوجها على الفور، وتقول إنها مسألة طوارئ عائلية.. هذه خطة استعانت بها فيما مضى، ربما مرة أو اثنتين، لكن أحياناً لا يمكنها منع نفسها، وهى وحيدة مع طفلين وعرضة لمشاعر تزعجها وتثير مخاوفها.

كانت سعيدة طيلة شهور الحمل التسعة فى "رويال". لم يكونا على دراية بأنه صبى بالطبع. وكانت "آريا" غارقة فى حب "رويال" وإن لم يتسن لها إدراك أن سعادتها ستكتمل إذا كان فتاة وليس صبيًا.

- "آريا"؟ آلو.. ما الأمر؟

صوت "ديرك" مرتفع ومتلهف فى أذنها لم تذكر متى اتصلت به، كان "رويال" يشهق مستنشقًا الهواء؛ ليستعد للصراخ، فدفعت ثديها سريعًا فى فمه.. حلمتها المتقرحة الساخنة التى تبدو وكأن شخصًا لئيمًا يداوم على قرصها، بدأ "رويال" يرضع.

- "آريا".. عزيزتى.. هل هناك ما يسوء؟

لابد أنه يحبها إذًا.. سمعت آريا اليأس المتصاعد فى صوته.

تلعثمت على السماعة وحاولت النطق لكن الكلمات انسكبت منها كالحصى، كانت تعرف بوجود سبب معين لاتصالها "بديرك" لتخرجه من

اجتماع مع عمدة شلالات نياجرا، لكن عليها اللعنة إن كانت تذكره.. قالت: "كانت هناك مشكلة.. لم يكن تنفس الطفل سليمًا.. لكنه يتنفس الآن على ما يرام، أصبح بخير".

ـ لا أسمعك يا عزيزتى.. هل هناك ما يسوء فى الطفل؟

ـ لم يكن يتنفس بشكل سليم.. لكن الآن تنفسه منتظم.. أعتذر على إزعاجك، لم أعرف ماذا أفعل".

ـ أهو بخير الآن؟ "رويال" بخير.

ـ "رويال" على ما يرام.. اسمع.

رفعت السماعة إلى فم رويال المبتل الصغير ولكزته كى يتكلم، فخرجت الأصوات التى صدرت منه كصيحة الطاووس.

ـ "آريا"؟ أهذا.. رويال؟ هل رويال بخير؟" بدا الذهول على صوت "ديرك"، كرجل أعمى يحاول أن يرى.

ـ "رويال" بخير يا عزيزى إنه أروع وأسلم طفل فى العالم.

ـ أهو بخير؟ أواثقة أنت؟

ضحكت "آريا" فى غضب.. "أنا واثقة إذا كنت ترتاب فيما أقول، تعال إلى البيت لترى بنفسك".

مرت برهة من الصمت المشحون بالتوتر. تكلم ديرك أخيرًا فى حذر خشية أن يغضبها أكثر من هذا: "لقد أخفتنى للغاية.. للحظة". كانت "آريا" تعرف.. زوجها المحامى الحذر لم يرغب فى إزعاج زوجته المضطربة. كانت هناك صورة فوتوغرافية قديمة فى حجرة مكتب "ديرك" لجده سيئ السمعة "ريجنولد برنابى"، لاعب السير على الحبل وهو يعبر شلالات نياجرا المتصاعد منها الضباب، ممسكًا بعصا بطول اثنى عشر قدمًا على كتفيه للحفاظ على توازنه، وكانت "آريا" تفهم فكرة غياب الثبات عن هذا التوازن.

وفيما "رويال" يمص حلمة ثديها، أحست "آريا" بطعنة مفاجئة من التوتر.. شىء كاللحم النيئ، مبتل.. اشتياق تحسه فى بطنها، وتأوهت بصوت جهورى: "آه يا "ديرك"، إننى أفتقدك، عد للبيت ومارس الحب معى يا عزيزى".

ـ "آريا"؟ ماذا؟

ـ أفتقدك يا "ديرك". أريد أن أمارس الحب معك، كما كنا نفعل من قبل، قبل الأطفال، أتتذكر؟"

مرت لحظة صمت أخرى، سمعت "آريا" أنفاس زوجها المتلاحقة المنزعجة.

ـ إننى فى اجتماع مهم يا عزيزتى. وهو، وإذا لم أحضر التصويت فلا يعلم إلا الله ما سيحدث، لذا فالأفضل أن أودعك، هل أنت والطفل على ما يرام، سكت ديرك وكأنه يحاول التفكير فى شىء آخر.. "وشاندلر" أيضاً".

ضحكت "آريا" للطريقة التى يمص بها رويال حلمتها بقوة.. مرسلاً بالألم إلى ثديها.. وذلك الإحساس بالإثارة بين فخذيها.. "ابنك هو العاشق يا "ديرك"، ستندم" تسرب اللبن من فم رويال الصغير المتوحش وجرى على ذقنه. لبن خفيف مائى بدا "لآريا" خفيفًا كاللبن خالى الدسم، ربما ليس لبنًا جيدًا، ليس لبن الأم، ربما فيه نقص فى الفيتامينات. كان ديرك يقول شيئاً، يسألها شيئاً.. لم تتبين الصوت الصادر من مص الطفل للبن كلامه من فى خضم ارتباكها تذكرت فجأة سبب اتصالها بديرك.. "فى تلك الصفحة الأولى من الجازيت.. منشآت توليد الكهرباء من الطاقة المائية؟ لماذا عليها اسمنا؟"

قال ديرك فى هدوء: "حبيبتى، ليس لهذه الصفقة أدنى علاقة بنا، إنه فرع من العائلة لست على صلة به، ليست صلة قوية، لا تنزعجى، لا شىء هناك".

ـ لا شىء هنالك.. هذا واضح.

ـ لدى بعض الأسهم فى شركة "برنابى"، لكننى لست متورطاً، ولدى حياتى الخاصة ودخلى الخاص.

اعتراها إحساس بالإثارة الجنسية، وبالانزعاج، وجرؤت على إبعاد ثديها عن فم الطفل المتلهف، وللحظة استمر الطفل يمص بفمه الهواء، ووجهه الصغير خالٍ من التعبير. بدا أن عينيه الزرقاوين برموشهما الرفيعة الشاحبة لا تركزان على نقطة محددة.. شهية لا محدودة، انحراف. وعلى الطرف الآخر من الهاتف كان والد الطفل يقول إنه سيعود إلى اجتماعه، وإنه سيرجع إلى البيت فى العاشرة على ما يرجو.. "أنت والطفلان على ما يرام، أليس كذلك؟ أحبك".

ـ وأنا أكرهك.

ضحكت فى غضب، ووضعت السماعة قبل أن يتمكن "ديرك" من أن يشرح لها سبب تأخره ثانية هذه الليلة، إذ سيتناول العشاء فى ماريو أو فى نادى القوارب، أو فى رينبو جراند مع أصحابه الأثرياء من رجال الأعمال.

أمسك "شاندلر" بصفحات الجازيت وراح يقرأ المقال الخاص "بنياجرا" هيدرو بلهفة، كان الصبى قارئًا مبكرًا، وبدا أنه علَّم نفسه بنفسه مع بدء ذهابه للمدرسة وأصبح الآن، وطبقاً لما يقوله معلموه، القارئ الأكثر تقدمًا فى الفصل الدراسى الثانى. لكنه يقرأ عادة على إضاءة ضعيفة، وكانت آريا قلقة من أن يضعف عينيه. قال: "ماما، هذا اسمنا، "برنابى"؟ أم أنه اسم شخص آخر؟"

ـ شخص آخر.

فى ذلك الحين كان "رويال" يصرخ فى غضب. وجهه أحمر كالشيطان. أحست "آريا" بحرارته ترتفع وخطرت لها فكرة مخيفة تمثلت فى صورة جمبرى يغلى ويتحول لونه للأحمر ارتاعت منه فجأة. ولماذا تريد طفلاً آخر بشدة هكذا، بينما تقدمت فى العمر؟ زوجها قد يهجرها فى أى وقت، صرخت وأسقطت "رويال" فى غضبه على.. طرف السرير كان سطحه

وثيرًا بالطبع، لكنه راح يركل ويلكم الهواء فى غضبه الطفولى، وعلى نحو ما ارتد رويال عن الفراش وسقط على الأرض، حتى ضرب الأرضية المغطاة بالبساط اصطدمت قاعدة جمجمته بالأرض. لجزء من الثانية خيم الصمت على حجرة النوم، وكف الطفل عن التنفس، ثم إنه ملأ رئتيه الصغيرتين بكميات مهولة من الهواء وراح يبكى ويصرخ، وينتحب حتى وضعت "آريا" يديها على أذنيها وهى تشعر بالانهيار.

هرع "شاندلر" ذات السبعة أعوام ليلتقط أخاه الرضيع ويضعه فى حرص على السرير، حيث استمر فى صراخه دون توقف، تراجعت آريا ذات القدمين إلى ركن من الحجرة. أحست باللبن يتسرب من حلمتيها، ويجرى على جلدها الساخن.. كانت عارية داخل منشفة الاستحمام التى تلف نفسها بها. قال "شاندلر" فى صدق: "يمكننا أن نعيده يا ماما، أليس كذلك؟ نعيده إلى حيث جئنا به".

ـ ٣ ـ

أصبح فى بيت آل "برنابى" صبيان، وأحست "آريا" بالوحدة أكثر من أى وقت سبق.. الوحدة والتوق إلى ابنة.

بدأ هذا الاشتياق بعد أن فطمت "رويال" بقليل، كم تشتاق لطفل يمص ثديها! وراحت تستجدى امنحنى ابنة.. ابنة تكون افتدائى، لتعدل من وضع الأمور.

إذ أنه بدا لها أنها فشلت على نحو ما. كانت أنثى ـ وهذا واضح! ـ لكنها ليست امرأة أنثوية، ليست امرأة جيدة.

أصبحت "آريا" جياشة العاطفة مع مرور الشهور والسنوات، اعتراها الفزع من أن تبلغ نهاية حياتها كأم ولادة، حتى أنها أفصحت عن هذا لأمها: "هل راودتك تلك المشاعر أنت الأخرى يا أمى؟ هل رغبت فى ابنة؟" لكن السيدة "ليترل" لم تزد عن الابتسام، وهزت رأسها قائلة: "أردت ما شاء الرب أن يرسله لى يا "آريا". وهكذا أراد والدك".

غبية متكبرة. آريا تكرهها.

لا، "آريا" ليست "قريبة" من أمها، وإن كان كثيرًا ما يأتى السيد والسيدة "ليترل" بالسيارة إلى شلالات نياجرا لزيارة البيت رقم ٧ بلونا بارك، وعلى الأقل يذهب "آل برنابى" مرة فى العام إلى تروى فى مناسبة "احتفالية" أو أخرى. وكانت "آريا" تجز على أسنانها وتلعب دورها.. دور الابنة التى أصبحت أمًا، لتنال استحسان والديها. افترضت أن السيدة "ليترل" تعتقد أنها و"آريا" "مقربتان" لكن هذا سوء فهم من طرف العجوز. تكلمت آريا فى الأمر بشكل منطقى مع ديرك: "شاندلر ورويال" بحاجة إلى أجداد، وهذان جدٌ وجدة مخلصان، لذا أعتقد أن علينا الاستمرار فى مقابلتهما لأجل الصبيين" بدت الصدمة على وجه ديرك من هذا الكلام الصادر عنها بصورة عرضية.. "لكن أعتقد أننا نحب بعضنا يا "آريا"، أليس كذلك؟ حسبت أننا متفقون على أننا أصدقاء" هزت رأسها، متعجبة من حال زوجها الدمث.. "بالطبع "متفقون" يا عزيزى، دائماً متفقون، لكن الأمر ليس كما يبدو.. إننا نفعل ما نفعله لصالح طفلينا".

على الأقل ليس ثمة احتمال لوجود سوء الفهم من جانب "كلاودين برنابى". فهى امرأة قطعت نفسها بالكامل عن "آريا". لكم يبعث هذا على الراحة!

صبيان صغيران فى بيت "برنابى". أحدهما.. الأصغر ـ يشبه أباه بلا شك والآخر يُرجح أنه يشبه أمه فى مِزاجه على الأقل.

تقدم "شاندلر" على أحسن وجه فى المدرسة. وكانت درجاته مرتفعة، لكن لم يبد عليه الرضاء قط، حتى فى المدرسة الابتدائية، كان كثيرًا ما يقدم واجبات إضافية ليحصل على مزيد من الدرجات من معلميه، وفى العادة فى المواد العلمية، مثل العصر الجليدى، والماموث غزير الشعر، ونمور العصر الجليدى، وإنسان "نياندرتال" إنسان العصر الحجرى، ومذنب هالى، والمجموعة الشمسية.

صمم "شاندلر" تركيبة من الأسلاك ليصنع نموذجًا للمجموعة الشمسية. الشمس فيها ثمرة جريب فروت، والكواكب ثمرات من فواكه

أصغر، تبلغ فى صغرها العنب، وهو كوكب بلوتو، وليصنع نموذجًا لمدار مذنب هالى، صمم شاندلر نموذجًا رائعًا.. المذنب فيه سدادة زجاجة وكوكب الأرض كرة مطاطية ملونة، وعليه نال شاندلر جائزة معرض علوم مقاطعة نياجرا، وهو يتنافس مع أطفال فى عمر العاشرة وأصغر. وكان "ديرك" فخورًا "بشاندلر"، وافترضت "آريا" أنها فخورة به بدورها. لكن الطفل يزعجها كثيرًا! ليست لديه أدنى بادرة للموهبة الموسيقية، وإن كان دائمًا ما يجلس إلى البيانو مقلدًا تلاميذ "آريا" الصغار، و"آريا" تضع يديها على أذنيها وترجوه أن يكف "عزيزى، تلاميذى لا يعزفون أفضل منك، لكن ماما على الأقل تأخذ نقودًا منهم مقابل سماعهم" وكانت قمصان "شاندلر" فى العادة مفكوكة الأزرار، تكاد "آريا" تقسم إنها زررتها بنفسها وبعناية تامة وكان يعود من المدرسة ومظهره وكأنه من أطفال الشوارع، بملابسه الرثة، وبقع طعام مجفف على سرواله. حذاؤه ملطخ بالطين دومًا، حتى فى الطقس المعتدل، ورباط حذائه مفكوك فى العادة، ويتعثر بساقيه الطويلتين غير المتناسبتين مع جسده فيسقط على درجات السلم ويصاب بجرح طويل فى ذقنه، ويتحول مع الوقت إلى اللون الأبيض، ليصيبه بندبة وكأنها من حفرية، وفى هذا الطقس وبرغم أن السماء متغيرة الحال على الدوام، والمطر المفاجئ، والعواصف الثلجية، إلا أن أهالى المنطقة يبدون الأصحاء وقد تطورت لديهم أجسام مضادة للإصابة بالبرد والأنفلونزا، كان "شاندلر" المسكين يُصاب دومًا بأمراض فى الرئة وأنفلونزا فى المعدة. وكانت تصيبه الحمى فجأة وكأنه يعاند أمه، إذ يعرف كم تخشى إصابته بالالتهاب السحائى وشلل الأطفال. لكن حين ترتفع درجة حرارته لتصل إلى ١٠٢,٢ فهرنهايت ٣٩ درجة مئوية، كان شاندلر يُصّر على السير ثمانية بلوكات إلى المدرسة تحت المطر خشية "أن يتأخر"، وكانت هذه حجته للخروج، وكانت آريا تسلم له قائلة: "لكن إذا أصبت بالالتهاب السحائى أو شلل الأطفال يا "شاندلر برنابى"، فاذهب بنفسك إلى حجرة الطوارئ بالمستشفى، ولتحفر قبرك الصغير بيدك واكتب عليه: ولد ناصح.. فأنا أنفض عنك يدى".

وكان ديرك يؤنبها على قلقها على الصبى هكذا، وكيف أنها تجعله يشعر بالقلق غير اللازم على صحته، وهو ما كان من السهل عليه قوله، فهو "ورويال" يتمتعان بصحة وافرة وتحتج "آريا" قائلة: "ومَنْ غير الأم يقلق على الأطفال؟ مَنْ غيرها يهتم أقل الاهتمام إن كان الأطفال يعيشون أو يموتون؟ لأن الأم هى أول مُلامة إذا لم يستمر فى الحياة" فيضحك "ديرك" من كلامها، فهى مضحكة مثل شخصية "لوسيل بال" التى يشاهدها فى التليفزيون، صهباء أخرى لكنها ليست حادة المزاج مثل "آريا". "آريا"، ما سيصيب "شاندلر" سيصيبه لا محالة. إنه صبى صغير كامل الصحة.. نحيل بعض الشىء من قفصه الصدرى ربما". وتهتاج وتحتد قائلة: "أتلومنى على نحافة ابنى؟ هل أتركه يتضور جوعًا؟ إنه لا يأكل، وأنفه مدسوس فى الكتاب دائمًا، ربما لديه ديدان شريطية فى الأمعاء".

الأسوأ أن "شاندلر" كان طفلاً شارد الذهن، بينما "رويال" يركز على من أمامه نظرته، ويبتسم ويميل برأسه، كما فى الكلام وهو فى العشرين شهرًا من عمره، وببلوغه الثالثة تعلم كيف يصافح زوار أبويه ويسألهم عن حالهم، بينما "شاندلر" يغيب فى غياهب فكره الداخلى الخاص.. حتى تكاد تسمع تروس عقله وهى تدور، وكان يجول فى المدينة أو يذهب إلى الشلالات بدلاً من القدوم إلى البيت بعد المدرسة مباشرة، ويرجع للبيت فى سيارة مواصلات عامة أو مصحوبًا بغرباء على سياراتهم لوحات أرقام من خارج الولاية، ولم يكن مسموحًا للأطفال الصغار غير المصحوبين بالكبار بالسير على طول النهر عند الشلالات، وعلى الأخص عند جزيرة جوت، لكن "شاندلر برنابى" كان لا يذهب إلا لتلك الأماكن، وفيما بعد يقول إنه "كان يستكشف لا أكثر.. يرى ما هناك" وفى الفرقة الرابعة بدأ يذهب إلى منطقة وسط المدينة وإلى مكتبة شلالات نياجرا العامة، حيث اكتشف موظفو المكتبة وجوده بين أرفف كتب الكبار، وليس فى منطقة كتب الأطفال حيث ينتمى، وكان يدفن عينيه فى كتب ليست للأطفال، وبطبيعة الحال كانت أمه المُحرجة تستدعى لإحضاره إلى البيت، وكانت "آريا" تغضب من الطفل لكن تفترض أنها ترى شيئاً من الدعابة فى الموقف "إذا

كنت ستهرب من البيت ثانية يا أستاذ، فالأفضل أن تذهب إلى أبعد من وسط المدينة". وكان "شاندلر" يعتذر، لكن بخفوت وفى همهمة غير مسموعة، كانت تعرف "آريا" أنه خائف من أن تسمع ما ينطق به من كلمات.

وأكثر ما كان يضايقها هو أن تراه يقرأ فى الوقت الذى من المُفترض أن ينام فيه، وكان "شاندلر" يشيد خيمة صغيرة من ملاءات سريره، ويتكوم داخلها ومعه كشاف نور، ويقرأ ويضر عينيه بلا شك.. "إذا احتجت لنظارة ذات يوم فلا تأتنى. وإذا أُصبت بالعمى يا أستاذ، يمكنك الخروج إلى الشارع بصفيحة والتسول، لكن لا تتسول منى".

وينظر "شاندلر" بعينين متسعتين إلى غضبتها. وعلى الفور تبتسم وتضمه إلى صدرها.. "لا تخف يا فتى، ماما تحبك".

ـ ٤ ـ

ابنة.. بين هؤلاء الذكور الجشعين، وتصبح أسرتنا الصغيرة مكتملة.

انتظرت "آريا".

ـ ٥ ـ

ـ "هذا محض سخف! أسخف من الحكايات الخرافية".

من الحين للآخر وهى تدفع عربة الطفل فى لونا بارك، تتوقف للتحدث تحت الأشجار الهائلة السامقة مع الأمهات الأخريات أو المربيات، بطريقتها الثرثارة الشبيهة بطريقة "لوسيل بول"، التى تخفى تحت غطائها ازدراء "آريا برنابى" السرى، ليس فقط ممن تصاحبها فى مثل هذه الأوقات وزوجها المحامى الاجتماعى "ديرك برنابى" فى صحبة أشخاص آخرين لكن ازدراءها أيضًا من شخصيتها المزيفة المختلفة، وسمعت "آريا" حكايات عن أرملة/عروس الشلالات، لكن لا أحد يذكر اسم العروس الجميلة ذات الشعر الأحمر التى راحت تبحث فى شلالات نياجرا لسبعة أيام وسبع ليالٍ عن عريسها المفقود المتوفى الذى ألقى بنفسه فى شلالات

نياجرا ليلقى حتفه، لا أحد يعرف على وجه الدقة إن كانت هذه المأساة قد وقعت منذ عدة سنوات، أم خمس وعشرين سنة، أم منذ مائة عام.

كانت هناك مربية مجرية أكدت لها أن شبح أرملة/عروس الشلالات ما زال مستمرًا فى البحث.. "فى الليالى الضبابية، وفى شهر يونيو فقط. ويقولون إنك إذا رأيتها فلا تكلمينها، لأنها ستفر مبتعدة، لكن إذا التزمت الصمت، فقد تقترب منك".

ضحكت آريا. وكأن شظية من الثلج ولجت إلى قلبها، هذا أمر بالغ الغرابة.

ضحكت آريا وهى تخفى وجهها بيدها تململ رويال الصغير . وفى عربته الطفولية الجميلة وركل بقدمه الهواء.

فى تهذيب سألت "آريا" الفتاة المجرية إن كانت قد رأت الأرملة/العروس بنفسها. فهزت الفتاة رأسها ذا الضفائر الغزيرة فى قوة: "أنا كاثوليكية، وقيل لنا ألا نؤمن بالأشباح. فهى خطيئة أن تؤمنى بالأشباح، وإذا رأيت شبحًا فسوف أغمض عينى. وإذا فتحتهما وما زال الشبح أمامى، فسوف أفر مبتعدة وبسرعة".

ابتسمت الفتاة وارتعدت، فهذه القصة واقعية للغاية بالنسبة لها.

قالت "آريا" فى تشكيك مهذب، وكأنها تتكلم إلى طفلة صغيرة: "لكن لماذا يا "لينا"؟ لماذا تفرين مبتعدة؟ فالأرملة/العروس المسكينة ميتة، أليست كذلك؟"

قالت الفتاة فى صدق: "الشبح ميت، أجل، لكنها ليست حيث يجب أن تكون، إن روحها ملعونة، هكذا الأشباح، ولهذا سأفر منها مبتعدة يا سيدة برنابى.. بلا شك سأفعل!"

على "آريا" الاعتراف إنها كانت لتفر مبتعدة بدورها. إذا كان لها أن تختار.

حضر" شاندلر" إلى البيت من مدرسة لونا بارك الابتدائية ومعه حكايات جعلت بدن آريا يقشعر. منذ زمن بعيد كان هنود الأونيجارا يلقون

بقربان فى شلالات نياجرا، وكل ربيع كانت فتاة فى الثانية عشرة من عمرها تؤخذ إلى الشلالات عند جزيرة جوت، وهو المكان المعروف فى المنطقة باسم "خط الموت" وتوضع فى قارب فى ثياب عرسها، ويباركها كاهن القبيلة ويطلقونها، فيسقط القارب فى شلالات هورسشو، ويهوى منه لأسفل.. وحينها تعتبر الفتاة عروس رب الرعد الذى يقيم فى الشلالات.

قال "شاندلر" فى حماس: "ولهذا توجد أشباح فى الشلالات، فى الضباب يراها المرء أحياناً. ولهذا يرغب الناس فى إلقاء أنفسهم فى الشلالات، إنه رب الرعد، وهو جائع لا يشبع".

ارتعدت "آريا". بالطبع هذا صحيح. أو كان صحيحًا فى زمن ما. لكنها نظرت بوجه ساخر إلى ابنها المتحمس، وتكاد تراها وكأنها غاضبة منه "كلام فارغ، لن ترى هذه التضحيات والقرابين رومانسية وغامضة هكذا إذا عرفت أن الفتيات اللاتى يلقى بهن كن من اليتيمات، أو المصابات بالشلل أو بالعاهات.. إناث يمكن الاستغناء عنهن" راحت تتكلم بعاطفة جياشة، فنظر إليها "شاندلر" مفغور الفاه.. انكب ذكاؤهاغاضباً على صبى فى التاسعة من عمره، مدفع هاوتزر يمزق طائر طنان إرباً. لكن توجد طيور طنانة فى الوقت نفسه آفات، وتستحق التمزيق إرباً "التضحية الطقوسية.. (القتل الطقوسى).. أن تصبح عروس رب الرعد.. هذه أساليب حالمة للتحدث عن القتل المحض.. القتل الجاهل البدائى الذى مبعثه الإيمان بالخرافات. كزواج عذراء فى الثانية عشرة من عمرها من رجل بالغ، لكن هذا أسوأ، "شجعان" الهنود الملاعين هم من كان يجب أن يُلقى بهم فى شلالات نياجرا لنرى كم هم شجعان، أولاد الحرام هؤلاء، ولهم أن يحظوا باجتماع لَمّ شَمْلٍ مع صديقهم رب الرعد فى الدوامة".. وصدر عن "آريا" حركة وكأنها تبصق.. كانت معكرة المزاج وتشعر باشمئزاز بالغ.

أمر بالغ الغرابة.. عينا "شاندلر" راح منهما اللون، أحياناً كانت تلمع بشفافية لون قشور الأسماك، وأحياناً بلون بنى طينى، وأحياناً لون بنى

أخضر. وحين تنظر "آريا" إلى وجهه فى مثل هذه الأوقات، ترى حدقتى عينى "شاندلر" وكأنهما تنكمشان ـ إنها تعرف. بدأ يصاب بقصر النظر، لكى ينكل بها ـ "أترى يا عزيزى؟ ماما تحاول تدريبك لا أكثر، تدريبك على ألا تصدق الكلام الفارغ الذى ستسمعه على امتداد حياتك".

أومأ "شاندلر" برأسه، كما يومئ الكلب بعد أن يُضرب ويُركل، على الأقل الفتى يتعلم.. يتعلم ألا يهتم بتحقيق أعلى الدرجات فى المدرسة فحسب، بل أن يفكر ويشكك أيضاً. يتعلم أن ينتهج نهج أمه.. الملعونة.

ـ ٦ ـ

هذا زمن سعيد، و"آريا" تعرف.

فى أيام الربيع الدافئة تصطحب "رويال" إلى الأماكن المفتوحة.. فى لونا بارك، وفى بروسبكت بارك، وعلى طول شلالات نياجرا، حيث يجد الصغير بواعث لا حد لها للعب والمرح وهو فى شهره العاشر كان رويال يمشى حين تمسك "آريا" بيده، وفى فخر يدوران حول البرج الفيكتورى الذى يتوسط لونا بارك، والفتى البدين ذو الشعر الأشعث يترنح ويتمايل ويصرخ فى إثارة إلى جوار أمه التى لا تكف أبدًا عن الغمغمة بكلمات تشجيع له: "هيا يا صغيرى، هكذا، رائع.. آى! والآن انهض ثانية يا "رويال". رويال ولد كبير وشاطر، ويسير كالكبار" وتظهر الفرحة فى عينى "رويال"، حين يهلل له أحد المارة على جهوده ويصفق له وتخرج منه كلمات تشجيع.

سرعان ما تعرفت الأمهات والمربيات الأخريات فى لونا بارك على رويال بالاسم.

"رويا"، صبى آل "برنابى" الجميل المُنعم. كان قلب "آريا" يغمره حب الطفل، والآن بعدما كبر على طفولته الأولى التى تتطلب منها الجهد البالغ، وبعدما نمت له شخصية مميزة، شعرت برقة لم تحسها اتجاه

شقيقه الأكبر، وبينما كان "شاندلر" يطل على العالم وكأنه خائف من اتساعه، كان "رويال" يحدق فيه بعيون متسعة ويضحك فى وجهه مطالبًا بالمزيد.

كانت "آريا" تشعر بأنها مدينة له، بدا الصبى يعرف أن العالم يحبه، يعشقه، دائماً سيقدم له المزيد.

كانت "آريا" تسمع "شاندلر" أحيانًا يناديها وهى تغادر البيت مع "رويال" فى رحلاتهما الصباحية، قائلاً: "ماما.. هل يمكن أن آتى أيضًا؟" نسيت أن الوقت صيفٌ، وأن "شاندلر" لا يذهب إلى المدرسة، وربما نسيت وجود "شاندلر" فى البيت وعندما تشعر بالذنب تقول على الفور: "بالطبع يا حبيبى. لم نظن أنك ستهتم بالانضمام إلينا، يمكنك دفع العربة". وطالما "رويال" قادر على المشى، حيث يسير إلى جوار "آريا"، وحين يتعب تضعه فى العربة وتدفعها. وعندما لايوجد لديها موعد لدرس بيانو، لا تتعجل العودة إلى المنزل رقم ٧ بلونا بارك. وإذا رن الهاتف أو جرس الباب فى غيابها، فلماذا تهتم؟

اشتكى "ديرك" من أنه أصبح من الصعب الوصول إلى "آريا" أحياناً فقد قررت أنها لا تريد مساعدة فى الأعمال المنزلية، ولا حتى مربية لتساعدها فى رعاية "رويال"، شكرًا لك. كانت "آريا" المربية التى يحتاجها رويال، ولا يحتاج أكثر.

كان يومًا خريفيًا باردًا مشمسًا حين أحست "آريا" بأنها منجذبة إلى بروسبكت بارك، سارت مع جروها الصغير المتلهف "رويال"، الذى راح يتقافز للأمام وكانت مضطرة لتقييد حركته.. كان يجب أن تحمله بين ذراعيها القويتين وهى تعبر الشارع، وهى تصعد المُرتفع، و"شاندلر" يدفع العربة فى تمكن.. ماما وابناها الصغيران. دون بابا، ودون الفتاة الصغيرة.

"جولييت"، كذا ستطلق "آريا" عليها. هل يوجد اسم فى جمال اسم "جولييت"؟

فى المدرسة الثانوية كانت "آريا" مقتنعة أن حياتها بدأت تسوء لحظة أن عمدها أبواها باسمها السخيف هذا.. اسم عمة عجوز من عمات والدها، توفت منذ زمن بعيد.

لم يكونوا قد ساروا لمدة نصف ساعة حين بدأ كعب قدمى "آريا" فى التورم. اللعنة.. إنها ترتدى حذاء غير مناسب للمشى فى العشب يمكنها السير حافية، وعلى الرصيف تصيب قدميها أعقاب السجائر والحصى الصغير وشظايا الزجاج. وترى تجمعات من السائحين قرابة السور المشرف على النهر.. هى إذًا عرضة لخطر أن تدوس قدميها الأقدام، وهكذا جلست إلى مائدة بالمتنزه ومعها "رويال"، بينما ركض" شاندلر" ليحضر لهم مشروبات، كان من عادتهم تناول المشروبات فى رحلاتهم. كانوا بالقرب من الشلالات السريعة، بالقرب من جسر المشاة فى جزيرة جوت.. المتزوجون حديثًا يلتقطون صورًا لهم على الجسر، مرت بهم أسرة من أفراد ضخام الجثة، يضحكون ويتكلمون بلهجة ريفية من منطقة الغرب الوسطى. كانت "آريا" تريد تحذيرهم ألا يستهينوا بالشلالات، فقط؛ لأن الوقت منتصف النهار، ولأن الضوضاء عالية، وتحت الضوضاء تسمع شيئًا أنعم، كالذبذبات، إذا نظرت مدققاً سترى طيفًا لقوس قزح يلمع فوق النهر، ارتعدت "آريا" وابتسمت. فزئير الشلالات الأمريكية وهو قريب منها هكذا.. يلج إلى روحها.

هذا زمنك السعيد، فى التاسعة والثلاثين من عمرك، ولن يبقى هذان الصبيان صغيرين إلى الأبد.

هل تكلم الرب إلى "آريا" هذه المرة؟ ظنت هذا. لكنها ليست واثقة.

الحال هكذا.. الأطفال يكبرون سريعًا، وكل من عرفتهم "آريا" من أصدقاء وزملاء "ديرك" فى العمل لهم أطفال أكبر من آل "برنابى". وبعض هؤلاء الأطفال كبر وبلغ بالفعل.

خطر على بال "آريا" كيف سينظر هؤلاء الناس فى امتعاض وتجهم إلى زوجة "ديرك" "برنابى" غريبة الأطوار، إذا عرفوا كم ترغب فى طفل آخر. آه، طفل آخر!

عاد "شاندلر" بالمشروب البارد. لكن "رويال" كان متحمسًا لدرجة لم تسمح له بشرب أكثر من رشفات قليلة، كان مفعمًا بالنشاط، وبدأ يجرى فى دوائر على العشب، ويصرخ ويتعثر ويسقط وينهض، ويجرى فى دائرة أخرى.. بلا كلل. كان شعره الأشعث يتوهج فى الشمس الشاحبة، وذراعاه الجميلان الصغيران البدينان يتحركان يساعدانه على الحفاظ على توازنه الدقيق. كم هو غريزى هذا الطفل، ومن المدهش مشاهدته، دائماً ما ترى شعلة الحياة على سطح كيان "رويال"، جلده يتوهج بدمه المتدفق بقوة وإصرار، لا يمكن لأحد أن يرى هذا الصبى الصغير فتاة على سبيل الخطأ، برغم شعره الغزير المتموج. تذكر "آريا" وهى تحممه ليلة أمس قبل النوم كيف راح يغيظها برش المياه على الأرض وعليها. وهى تغسله برفق وجدت نفسها، وليس للمرة الأولى، تتأمل حالمة قضيبه الناعم الصغير الطافى على المياه المغمورة برغاوى الصابون، كم هو نظيف، والخصيتان الصغيرتان المحيطتان به ،هل تحتوى هاتان الخصيتان، فى حالة الرجل البالغ جنسيًا، على البذرة؟ السائل المنوى؟ لم تكن "آريا" تعرف ما يكفى عن خصائص الرجل التشريحية، وربما سألت "ديرك" ذات مرة.. والغريب أن "رويال" كانت لديه القدرة على إثارة اضطراب أمه، على عكس "شاندلر". فعضو "شاندلر" الجنسى لم يكن إلا زائدة على جسده النحيل الضعيف، الجسد الذى يذكر "آريا" بجسدها. لكن "رويال"، كان العضو الجنسى هو مركز جسده الربع الصغير، الجنس هو محور وجوده، أو سيصبح هكذا ذات يوم. ها هى خصوبة والده بعثت من جديد، لكنها تبدو غريبة ومثيرة للاضطراب وهى على صبى صغير كهذا.

- "رويال"! ستصيب نفسك بالحمى.

أخيرًا أحس "رويال" بالإرهاق من الجرى فى دوائر والنباح كالجرو الأخرق، لكنه ما زال لم يهدأ، وراح يدفع "آريا" حين حاولت وضعه بين ذراعيها لينام على مقعد الحديقة معها.. لا، لا! لم يكن "رويال" مستعدًا للنوم. وهكذا عرض "شاندلر" دفعه فى العربة فى جولة حول الحديقة، ووضعته فيها آريا وربطته بالحزام، وعدلت من وضع قبعة البيسبول التى

يعتمرها، فهو مثل أبيه، كان عرضة لاحتراق جلده بسبب الشمس، وحذرته من ألا يدفع أخاه بسرعة، وألا يبتعد وألا يدعه يسقط منه فى المنحدر، نادت عليهما قائلة: "ولا تتوه، أتسمعنى؟" لكن هدير الشلالات التى كان شاندلر متجهاً إليها كان صاخبًا للغاية، وأصبح بالفعل خارج مرمى السمع.

وخلال ثوانٍ معدودة اختفى "شاندلر" والعربة وسط أسراب السائحين حملة الكاميرات، المتجهين إلى زورق عذراء الضباب، وعلى مسافة قريبة، كان العلم الأمريكى مرتفعًا خفاقًا فى الرياح على طرف الشلالات.

حمداً لله على هذه النعم.

تنهد.. تثاءبت، تمددت مثل قطة كبيرة كسول ورقدت على مقعد الحديقة تحت الشمس وراحت تحرك أصابع قدميها الحافية البيضاء.. يا لهذا النعيم، إنها تستحقه، كم هى متعبة! المذنبات تتراقص على مشارف جفنيها المغمضين.

كان الممشى الأسمنتى المجاور للنهر مبتلاً من الرذاذ، لكن كان هناك بالطبع حراس على السور، ومع اختلاطهما بأسر السائحين، سيبدو أن "شاندلر" والعربة تابعان لإحدى الأسر. لا أحد سيدرك أنه طفل فى التاسعة من عمره يدفع أخاه فى عربة أطفال، وأن أمهما ليست معهما أو على مقربة منهما، لوائح الحديقة تلك لا تنطبق على طفل ناضج وماكر "كشاندلر".

أحست "آريا" بنفسها تنسحب إلى نعاس خفيف، كانت فى قارب فوق الشلالات، فى تيار سريع على نحو معقول - ومن الحين للآخر تسمع الناس يمرون بها، يرفعون عقيرتهم بالكلام والضحك، لغة لا تعرفها، أهى الفرنسية (هل ينظر إليها هؤلاء الغرباء؟ ويطلقون تعليقات وقحة عليها؟ امرأة حمراء الشعر يمتلئ وجهها بالنمش وملامحها صغيرة ومنمنمة كفتاة، إلى أن تقترب منك، وترى الشيب الذى خط فى شعرها والخطوط البيضاء الدقيقة على وجهها. وأوتار حلقها الأبيض، لكن هذه المرأة تبتسم،

أليست كذلك؟ ـ تفكر فى كم من السنوات انقضت، أكثر من تسع سنوات، جلبوها إلى شلالات نياجرا وهى بعد عروس ساذجة تثق بسهولة فى الناس، لا تعرف شيئًا عن الحب أو الجنس، لا تعرف شيئًا عن الرجال.

منذ ذلك الحين، منذ موت زوجها الشاب الأول الذى لم تعد تتذكره بوضوح، ولا تريد أن تتذكره، و"آريا" تلقت عدة خطابات من أمه السيدة "إدنا إرسكين". لم تجب على تلك الخطابات. ولخزيها فهى لم تفتحها، لم تجرؤ على هذا. الخطاب الأخير تلقته وهى حبلى فى "رويال"، وأخافها كثيرًا وكأنه رسالة من الموتى، وكتبت على المظروف من الخارج **يعاد إلى الراسل، المرسل إليه غير صحيح** ورمت به فى صندوق البريد.

لم تخبر "ديرك" شيئًا بالطبع وككل الزوجات عاشت حياتها السرية الصامتة التى لا يعرفها زوجها، ومثله أطفالها.

زوجها! "ديرك برنابى" هو زوجها، وليس الآخر.

إلا أنه فى أوقات كهذه، وهى تسقط بلا حول فى دوامة النعاس، حين لا تذكر بوضوح من يكون الزوج.

لا، بالطبع زوجها هو "ديرك برنابى". رجل حقيقى.. أكثر بكثير من آريا نفسها، إذا كان المعيار هو الطول وضخامة الجسد ومركزه فى العالم.

لم تخبر "آريا" "ديرك" بشأن زيارة "كلاودين" البشعة، ولا شرحت امتعاضها الذى بدا عليها بعد الزيارة، ولا غيبوبة السكر التى وجدها فيها، ولم تكلمه عن اتهامات "كلاودين"، عن أن "ديرك" مدين لها، وأنه كان يقامر، وأن له عشيقة تمت من أجلها "ترتيبات طبية".. ابنة، أعطنى ابنة قبل فوات الأوان.

لم تكن نائمة ليلة أمس وهى راقدة بين ذراعى "ديرك" القويتين.. كانت تنتظره. فقد جاء إلى البيت فى وقت متأخر.. بعد منتصف الليل، شرب الخمر بالخارج، و"آريا" تعرف، وآريا تغفر. كان زوجها قلقًا بشأن مسألة ما، وكان عزاء آريا فى معرفة أنه لا يريد توريطها فيها. "فديرك

برنابى" أيضًا لابد وأن له حياة سرية.. حياته السرية، وعمله كمحام الذى لا يهم آريا فى شىء؛ هو جزء كبير من هذه الحياة، ولم تكن المرأة التى كان يجدر به أن يتزوجها، وقد. رأت وجهه حين كان فى صحبة أصحابه وزوجاتهم.. وهى السيدة "برنابى"، أحيانًا تطلق واحدة من تعليقاتها الملغزة، أو وهذا أسوأ ـ لا تتكلم بالمرة، كانت قادرة على الجلوس إلى مأدبة عشاء والتحديق فى الفراغ وهى تنقر بأصابعها على المائدة وربما انت تتمرن على عزف البيانو على لوحة مفاتيح خفية، بينما المحادثات تتطاير من حولها. فى نادى أيل جراند وفى آخر مرة تذهب إليه، ابتعدت آريا عن الآخرين وهم جلوس مضت إلى بيانو فى قاعة الحفلات، وجلست إليه وعزفت عليه فى هدوء وحُلم، عزفت مقطوعات عهد الصبا التى تعشقها، والتى تم امتداحها عليها كثيرًا.. الحركة الأولى من سوناتا ضوء القمر لموتسارت فى شبابه، وقطعة لشوبان ذات جمال باهر، ونسيت "آريا" نفسها حتى إنها نسيت أين هى؟ وأفاقها بوقاحة من ثباتها تهليل ساخر من صاحبىّ "ديرك"؛ و"ين" و"هويل"، اللذين وقفا يبتسمان خلفها، ولحسن الحظ دخل "ديرك" إلى الحجرة فى تلك اللحظة فاضطرت أن تفر وهى تشعر بالألم والإهانة لكننى سأنتقم منكما، يوماً ما.

وليلة أمس كانت تمر بإحدى حالاتها المزاجية الكئيبة، ليس الأمر أنها تشعر بالتعاسة، بل مجرد الرغبة فى النحيب، كانت تعرف من الأمهات الأخريات فى الحديقة ـ ومعظمهن أصغر سنًا من آريا! ـ إن جميعهن يُصَبن بنوبات "نحيب" من الحين للآخر، وإذا كنت أنثى يُسمح لك بهذا، فى واقع الأمر كانت سعيدة وهى راقدة بين ذراعى ديرك بكت من السعادة ؟ طفلاهما صبيان جميلان، لا أحد يستحق طفلين جميلين بهذه الروعة.. "لكن يا عزيزى".. تذكرت وهى تدفن وجهها فى ياقة منامة ديرك الصوفية الناعمة.. "إننا بحاجة لابنة أيضًا، فتاة صغيرة، لا يمكن أن نستسلم! نحن بحاجة لابنة لتصبح أسرتنا مكتملة" كانت حريصة على ألا ترتعد فيما كان "ديرك" يتأهب للحديث، فقد ناقشا هذا الموضوع مرات عدة، كمقدمة لممارسة حب مختلف تمام الاختلاف عن ممارسة الحب فى السنوات

الأولى لزواجهما، حين كان الحب تلقائيًا، ولهوًا ملتهبًا، والآن حين يمارسان الحب، تمسك بديرك بدافع من التصميم.. اليأس، كانت تبدو على وجهها المشدود خطوط وهيئة جمجمتها، وكان فمها يتلوى، وعيناها تدوران فى محجريهما إلى الخلف داخل رأسها، وفى مثل هذه الأوقات يبدو "ديرك" وكأنه يخشاها.. رجل يخشى امرأة تصادف أنها زوجته، تنهد وداعب جبين "آريا" الدافئ وكأنه يهدئ من روعها. يحب "آريا" حبًا عميقًا، فقد أصبح بالكاد يقدر على رؤيتها، كمن لا يطيق النظر إلى صورته فى المرآة إذا اقتربت منه كثيرًا، قال: "بالطبع أود أن أرزق بابنة أيضًا، لكن هل تعتقدين أنه من الحكمة أن نحاول فى سنك هذه؟ وماذا لو كان ابنًا آخر؟" تجمدت "آريا". ضحكت . "فى سنى".. تكلمت بخفة لإخفاء ألمها.

وفى الصباح ستقول وهى تقبله بحماس: "ابن آخر، لم لا؟ حتى يصبح لدينا فريق كرة سلة".

ابتسمت ، وتهادت مع تيار النهر على هدى أشعة الشمس، وهى تفكر فى هذا.

فقد مارسا الحب على كل. وهى - المرأة - الملتهفة للحمل، كان لها ما أرادت مجددًا.

ابنة! خذ طفلىَّ وامنحنى ابنة بدلاً منهما، لن أستجديك شيئًا آخر يا ربى، أقسم لك.

- سيدتى.. استيقظى يا سيدتى.

صوت فظ لحوح. صوت من؟ كانت آريا مستيقظة، لكن عينيها مغمضتان ولا تعرف كيف؟ كم تعب قلبها وهى تحاول تسلق جدران الشلال الجرانيتية حادة الانحدار. شخص ما يتكلم إليها بصوت مرتفع.

- سيدتى من فضلك.

أحست بمن يلكز كتفها. ما هذا؟! غريب يجرؤ على أن يلمسها فى مكان عام وهى راقدة لا حول لها ولا قوة. انفتحت عيناها على اتساعهما. تلعثمت فى فزع قائلة: "ماذا.. ما الأمر؟ من أنت؟"

وقعت الواقعة، والآن.

كان أحد الغرباء يتكلم بحماس إلى "آريا"، وقد تمكنت من النهوض والوقوف ـ لكن لماذا هى حافية القدمين؟ أين نعلها؟ ـ عدلت من وضع ثيابها سريعاً ومررت يديها على شعرها الأشعث الشبيه بعش الفئران، شاب فى زى رسمى أخضر داكن، أحد حراس الحديقة، كان يكلمها بصرامة، وبدا "لآريا" أن ما يفعله خطأ، فهذا الرجل أصغر من "آريا". "سيدتى؟ هل هذان طفلاك؟ كانا على جزيرة جوت غير مصحوبين بشخص بالغ".

اقترب "شاندلر" من أمه ووجهه يعلوه الخزى، ورويال فى العربة مربوط بالحزام وقبعة البيسبول معوجة على رأسه.. كان الطفل. آه، ما اسمه: "رويال".. اسم التقطته من صحيفة، أعجبها رنينه. "رويال مانسيون"، اسم لسليل ناجح.. حدقت فيهما وكأنها لم ترهما منذ فترة طويلة، لكن إلى أين مضيا؟ كم من الوقت مر؟ لماذا "آريا"، زوجة "ديرك برنابى"، حافية القدمين فى مكان عام ويضايقها غريب نفد صبره؟ "نعم، بالطبع هما طفلاى".. راحت "آريا" تتكلم فى حرارة "شاندلر"، أين كنت؟ قلقت للغاية عليك.. أمرتك ألا تبتعد".

غمغم "شاندلر" معتذراً ، بينما حارس الحديقة ينظر إليهم فى ريبة. تكاد تظن من تعبير وجهه أنه لا يعتقد أن "آريا" هى أم هذين الطفلين. كان قميص "شاندلر" الأحمر وسرواله البنى الواسع مبتلين من الرذاذ. وبدا الصبى طفل شوارع متشرد، وليس ابن "ديرك برنابى" الذى يقطن بلونا بارك! أرادت أن تهزه بقوة.. ثم ها هو "رويال" ولا يبدو على حاله المعهود، المخاط يسيل من أنفه واللعاب ينساب من فمه الطفولى، كان وجهه كرغيف الخبز الناعم الذى فقد هيئته. وكأن طاقته الشيطانية تلاشت.. رأته متراخياً مخدراً وبالكاد قادر على فتح عينيه.

حبيبى! على الرغم من القبعة التى تحمى رأسه بدا أنف رويال الصغير كأنف خنفساء قد احترق بسبب الشمس.

راحت إليها توبخ "شاندلر"، فقد عصاها من جديد، وابتعد عنها.. لا يمكن الثقة به! استمع حارس الحديقة إليها فى تجهم وهو يهز رأسه. من يخال نفسه؟ من الإف. بى. آى؟ خطر "لآريا" أنه لو كان مخولاً سلطة اعتقالها أو إصدار تصاريح بالقبض كان ليفعل هذا، فتنفست الصعداء أنه ليس كذلك، "أفاق رويال" من ثباته وبدأ يبكى بصوت مرتفع.. "ما.. ما! ما.. ما!"

ركعت أمامه سريعاً وأخذته بين ذراعيها.

ـ ماما هنا يا حبيبى".

وهكذا كانت ماما.

دفعت ماما و"شاندلر" العربة إلى لونا بارك وهما يغنيان لرويال أغنية "العصفور الصغير"، وكان قد تعب من البكاء.. فنام.

ـ ٧ ـ

سيدة "برنابى".. أخبار سارة!"

ما الأمر؟ جف قلب "آريا" وتشقق وكأنه قطعة من الطين الجاف.

دكتور.. حمداً لله.. أشكرك".

بالطبع كانت تشعر بالدهشة.. أذهلها السرور عدّت آريا نفسها حبلى بالفعل، ذلك اليوم فى بروسبكت بارك وهى نائمة تحت الشمس.. تحلم وتنساب مع التيار. عرفت بطريقة ما.. عرفت. وبدأ بالفعل ربيع سعادتها الأعمق فى التدفق.

ستولد جولييت أواخر مايو ١٩٦١ .

اكتملت أسرتى الصغيرة.

قبل

كالنسر تبدت له المرأة.. ترفرف على أطراف مجال إبصاره، جاثمة.. تستعد للانقضاض.. تحدق فيه بعينين لا تطرفان.. تنتظر.

كانت المرأة ذات السواد. تراقبه.. تترصده، كانت صبورة لا تمل.. تنتظره.. تنتظر أن يضعف "ديرك برنابى". كانت تعرف اسمه، رقم تليفونه.. كان يخشى زيارتها، منزله فى لونا بارك.

برغم من أن موظفة الاستقبال أخبرت ديرك عدة مرات باسم المرأة؛ إلا أنه ينساه فى لحظة.

نسر بعينٍ سديدةٍ وصبر لا نهائى وهكذا تخيل الموت وهكذا تخيل ضميره، جاثمٌ علًى مسافةٍ من حياته.

لا تتورط.. أحلفك بربك لا تفعل.

ـ هذا آخر شىء تحتاجه.. يا "برنابى".

ـ أشرحى لهذه المرأة مرة أخرى من فضلك يا "مادلين".. قولى لها إننى آسف، وإننى وبعميق أسفى لا يمكننى مقابلتها، ولا يمكننى قبول قضيتها، ليس الآن، بينما قضايا كثيرة مكومة على رأسى.. قولى لها إن هذا النوع من القضايا الشخصية ليس من (ميتيير) السيد "برنابى".

كانت مادلين التى تعمل لدى السيد "برنابى" منذ أحد عشر عاماً كموظفة استقبال، تعرف معنى كلمة "مابتيير"، إنها إحدى الكلمات المفضلة لدى رئيسها، فى هذه الفترة، ميتيير تعنى التخصص، الصنعة، مجال العمل الذى يبرع فيه المرء.. ميتيير تعنى أن "ديرك برنابى" محام يعرف كيف يتصرف وماذا يصنع بمهاراته، وكيف يربح بها.

مرة أخرى كرر عليها: "لا يا مادلين، أعيدى لها هذا الملف واشرحى لها من فضلك مرة أخرى أن السيد "برنابى" آسف بحق، إلى آخره. هذا النوع من القضايا ليس تخصصى، كما أننى محجوز فى قضايا أخرى.. لسنوات مقدماً".

ترددت "مادلين". بالطبع ستفعل كما طلب السيد "برنابى". كانت موظفته على كل، وتحبه طيلة تلك السنوات. لكن حبها كان حبًا لا تتوقع معه حتى إدراك الحبيب بمشاعرها. "لكنها يا سيد برنابى ستسألنى: هل قرأ رسالتى؟ هل نظر إلى الصور الفوتوغرافية على الأقل؟ ماذا أقول لها".

ـ قولى لها لا.

ـ لا.. لا فحسب؟

ـ لا.. لم أقرأ رسالتها، ولم أنظر إلى الصور الفوتوغرافية.

اعتراه السخط والانزعاج، بدأ يفقد توازنه الشهير، بدأ يشعر بأنه رجل مطارد، ما أدهشه أكثر من أى شىء أن "مادلين" من بين كل الناس تطالعه وعلى وجهها تعبير الأسف والتأنيب وكأنها وبعيداً عنه، كونت رأيها الخاص عن الموضوع.

سيد "برنابى"، إنها لا تريد إلا مقابلتك لدقائق معدودة، تعدك بهذا، ربما.. لم لا؟ إنها.." سكتت "مادلين" وتوردت وجنتاها لإحساسها بتهورها، وهى تبحث عن الكلمة البديلة المناسبة.. "امرأة صادقة".

ـ المرأة الصادقة هى الأخطر. عفانا الله منها!

وهو يتراجع فى جلسته إلى الخلف، رسم "ديرك" الضحكة على وجه "مادلين". لكنها كانت ضحكة هشة حزينة.. ضحكة من نوع "خاب رجائى فيك ياسيد "برنابى".

النسر.. المرأة ذات السواد. اعتادت انتظار "ديرك برنابى" فى ردهة استقبال المبنى الذى يقع فيه مكتبه، على درجات السلم بالخارج.. فى الممشى الخارجى، بل حتى وقت سقوط الأمطار، بل ووقت الغروب فى

الأيام التى يتأخر فيها ليس لأنه يحاول تفادى رؤيتها، بل عمل لوقت متأخر لا أكثر، ونسى نفسه فى خضم تركيزه فى العمل.

رآها على مشارف مجال إبصاره، فى هيئة داكنة ترفرف حوله، ولا ينظر إليها متمعناً، لا يريد أن تقابل عيناه عينيها، قبل أن تنطق اسمه، التفت، وسار مبتعداً فى خطوات سريعة.

كان يعرف.. يجب ألا يتورط، يجب ألا تأخذه الشفقة أو العطف. إذا نادت عليه، فهو لم يسمع.

لا، لن أفعل، لا يمكن. منذ وقع فى حب "آريا" وتزوجها كف عن التفكير فى نفسه على أنه شخص رومانسى يسير على الحبل. حبل فوق الهاوية! لا، ليس بعد، لم يعد هذا الرجل.. لم يكن هذا الرجل يومًا، لن يلقى مصير جده ريجنولد برنابى الذى وقع فى الشلالات. العام ١٩٦١ وليس ١٩٧٢ لم يعد "ديرك برنابى" وحيدًا، ولن يصبح وحيدًا ثانية أبدًا.. لقد ختم بيده على مصيره. أو.. ختم عليه مصيره.

كاشفته "آريا" قائلة: "أصبحنا فى أمان الآن يا حبيبى! حتى لو هجرنا واحد فسوف يبقى اثنان إذا هجرتنى.." ضحكت ضحكتها الخافتة الحلقية، وهى تسخر من مبعث خوفها.. "سيبقى لى ثلاثة".

ضحك "ديرك"، فمثل هذه التعليقات من "آريا" يراها هوائية، تقصد بها إضحاكه، وكان هناك تقليد متبع بينهما فى هذه الحالة.. أن يهز "ديرك" رأسه متظاهرًا بالتجهم ويقول: "يا للكلام الذى يصدر عنك يا آريا!".

ـ يجب على أحدنا أن يقولها.

كانت إجابة "آريا" براقة، شجاعة. منحتها عيناها الخضراوان البلوريتان، وشعرها الأحمر، مظهر الشابة التى لم تتعب بعد وهى فى سن الأربعين، بعد أكثر من عقد من الحياة مع "آريا"، يرى "ديرك" أن فهمه للمرأة أقل من فهمه لها فى بداية الزواج. تساءل إن كان هذا ينطبق على كل النساء.

بالطبع لم تكن "آريا" من "كل النساء".

تأمل كلماتها.. "أصبحنا فى أمان" ماذا يعنى هذا؟ أهو مبدأ أساسى فى الحياة الأسرية.. من مبادئ الحاجة لنشر النسل؟ أمنية بشرية كما فى الحكايات الخرافية، بالحياة لمدة أطول من فترة حياة المرء، الحياة عبر الأبناء. الحياة لفترة أطول من المحددة لك. وأن تكون ذات أهمية بالغة وعميقة لشخص ما. ألا يكون المرء وحيدًا.. أن يعفى من احتمال الوحدة.

كان رجلاً متزوجاً فى الأربعينات، رجلاً فى حب عميق لزوجته، رجلاً أبًا لأطفال يحبهم، مواطنًا مسئولاً عن وقته وعن مكانته، لم يعد من شك فيمن أكون، ليس بعد.. فأنا أعرف.

أحيانًا يحضره هذا الحب قويًا، حتى يكاد لا يتمكن من التنفس بسببه.. يشعر بصدره يضيق، وبابنيه الصغيرين وابنته الرضيعة.. ترتفع عينا أمهم لتقابل عينيه فى ظفر.. لكن فى خوف.. ظفر خائف. أصبحوا هُمْ حَبِلِى الآن، كذا يخطر "لديرك" فى رفق.. ما لم يكونوا الهاوية التى سأسقط فيها.

هذه المرأة.. هذه المرأة ذات السواد فتنت محامين آخرين من شلالات نياجرا، لأسابيع وهى تدور على مكاتب المحاماة. الغريب أنها حضرت "لديرك برنابى" فى وقت متأخر هكذا.. افترض أنها تعرف بأنها غير قادرة على تحمل أتعابه، وليس من المحتمل أن تتحمل أتعاب أى محام آخر ممن تقع مكاتبهم فى مبناه.. اسم هذا البرج الحديث هو رقم اثنين بميدان رينبو. وهو فى قلب منطقة وسط المدينة، على تقاطع شارع رينبو الشارع الرئيسى.

قدمت قضيتها لوزارة الصحة التابعة لمقاطعة نياجرا، حاولت التحدث إلى رئيس تحرير صحيفة نياجرا جازيت، وتمكنت فى واقع الأمر من التحدث إلى أحد الصحفيين، انتشر الخبر سريعًا فى أرجاء المدينة، والتى كانت صغيرة ومجتمعها متماسك، برغم من عدد السكان المتزايد وعمال المصانع والعمال اليدويين، وكانت نواة هذا المجتمع من الرجال، ولا يزيد عددهم عن الخمسين، وجميعهم يتمتعون بالسلطة ولهم مراكز مهمة، وكان "ديرك برنابى" من بين هؤلاء الرجال بطبيعة الحال، وكان أكثرهم أصحابه،

أو معارف للأصحاب. رجال من أجيال أكبر هم أصدقاء أو معارف لأصدقاء والده "فرجيل برنابى"، وكان "ديرك" عضواً بنفس الأندية الخاصة التى ينتمون إليها.. وكانت نساؤهم يعشقنه.

كيف يشرح للسيدة المتشحة بالسواد أن أصحابى هم أعداؤك.. لا يمكن أن يتحول أصحابى إلى أعدائى.

لم يكن "ديرك" يعرف تفاصيل القضية التى تريد هذه المرأة اليائسة رفعها على مجلس مدينة شلالات نياجرا، غير أنه يعرف أن مثل هذه القضية لا أمل فى أن تنتهى لصالحها، أو حتى أن يأخذها قاضٍ على محمل الجد. وكانت الشائعات تتردد بأن أسرتها تعانى مشكلات صحية خطيرة، والأرجح أنها عانت من الإجهاض أكثر من مرة، أو هكذا كان زعمها، وكانت تحاول تنظيم اتحاد من ملاك المنازل فى حيها، فى شارع تسعة وتسعين مع تقاطع شارع كولفن، للاحتجاج على الظروف الصحية بالمدرسة الابتدائية المحلية، وكان قد شاهد فى صحيفة نياجرا جازيت خبراً محايداً تحت العنوان المضلل ـ **الآباء ينظمون احتجاجاً فى مدرسة شارع ٩٩**

وكان عمدة شلالات نياجرا وصديق "ديرك"، "وين" "المخيف" يعتقد بشدة فى أن المرأة ذات السواد، التى كان لا يذكر اسمها ، هى فى حقيقة الأمر "شيوعية شهيرة" وفى الواقع كانت ابنة لرجل شيوعى "سيئ السمعة"، ومن نشطاء اتحاد النقابات الصناعية فى الثلاثينيات فى نورث توناواندا، وقد مات فى مواجهة بين المضربين والشرطة تسبب "هؤلاء الناس" فى مشكلات كثيرة فى الماضى، وكانت المرأة وزوجها، ويقال إنه عامل فى أحد مصانع البلاستيك، من "مسببى الإضرابات المحترفين" ومن الواضح أنهما من اليهود، وكانا "يتلقيان أوامرهما من موسكو. وتورطا فى مظاهرات فى بافالو وقت إعدام أسرة روزينبرج(*). والأرجح أنهما ليسا متزوجين، بل أصبحا شركاء فى "تجمع شيوعى" والجميع يعرفون أن

(*) هى أكثر واقعة إعدام إثارة للجدل فى التاريخ الأمريكى، أعدم فيها الرجل الزوجان جوليوس وإيثيل روزينبرج عام ١٩٥٣ بتهمة التجسس وهما الشخصان الوحيدان اللذان تم إعداهما بهذه التهمة فى الولايات المتحدة على الإطلاق وزعمت الحكومة أنهما ساعدا الاتحاد السوفييتى علي استحواذ القنبلة الذرية.

الشيوعية "إلحاد".. وهذا واقع ولهذين الزوجين مقطورة يتخذانها بيتًا فى شارع ٩٢" كواجهة" لعملهما، وهى مرهونة، وهما من نيويورك وليس ديترويت، وكان للمرأة تاريخ من المرض النفسى. والرجل له "سجل فى السجن". وثمة أطفال يقيمون معهما ويدعيان أنهم أطفالهما، وتزعم المرأة أنها قد تعرضت للإجهاض وأن هذا ذنب المدينة، وليس ذنبها وتزعم أن أطفالها مرضى بسبب بمياه المدينة أو التربة أو الهواء أو فناء اللعب فى مدرسة شارع ٩٩ الابتدائية، ومن يعرف ماذا تزعم أيضًا؟ تسببت بالفعل فى مشكلات فى المدرسة فى مكتب وزارة الصحة الخاص بمقاطعة نياجرا، وراح "وين" يتكلم فى غضب وكأنه خاضع شخصيًا لتهديد المرأة ذات السواد، وكانت الساعة الثانية صباح يوم الأحد، وهو يثرثر بين أدوار البوكر فى بيت "ستراتون هويل" الأبيض الجديد المبنى على الطراز الكولونيالى والمطل على جزيرة باكهورن والحضور هم "كلايد كولبورن" و"باظ فيتش" و"مايك ماكينا" و"دوج إيتون" الذى كان شقيقه الأكبر متزوجًا من أخت ديرك سيلفيا، وكان ديرك حاضرًا بدوره. قال وين: "هؤلاء الشيوعيون الحمر! مثل أسرة روزينبرج حلمهم هو قلب الحكومة الأمريكية واستبدالها بالتجمعات الشيوعية والحياة بلا زواج، هذه هى فحوى "شكواهم" الحقيقية ـ الغاية تبرر الوسيلة، هذا واضح كالنهار، كما فى كتاب ماركس "كفاحى"تبادل "ستراتون هويل" نظرة مع "ديرك"، ثم ضحك قائلاً: "وفى كتاب رأس المال لأدولف هتلر أيضًا".

قال "وين" فى حرارة: "لا يخفون نواياهم بالمرة، هذا ما أعنيه، ولكن حين يتخفون ويتظاهرون بأنهم مواطنون عاديون، فهنا مكمن الخطر".

كان "ديرك برنابى" يمر بحالة مزاجية معتدلة، بعد أن شرب سكوتشًا جيدًا وحصل على أكثر من نصيبه من أوراق اللعب الجيدة طوال المساء، لكنها لم تكن أوراق لعب جيدة على أصحابه الذين أحسوا بالإحباط والامتعاض وهو يربح ويربح بلا توقف. يشعر بحظه حين يبدأ فى الابتعاد

عن أطراف أصابعه، وبفطنة المحامى قال: "ما يريده هؤلاء الناس هو التعويض.. تعويض فى المحكمة، ولا أعتقد فى مسألة قلب نظام الحكم".

هل كان يعنى هذه الملحوظة المارقة؟ على الأرجح: نعم.
وهل سيندم على قولها؟

المرأة ذات السواد! النسر
قبل أن يكون للمرأة اسم، وقبل أن تكون كاملة الإنسانية بالنسبة له، كانت تهديدًا، دفعته للسب همسًا.. اللعنة، لا، لن أفعل.. سأكون أحمق لو فعلت.

لن يفتح "ديرك" موضوع المرأة ذات السواد مع "آريا" أبدًا. ليس طوعًا. الأفضل ـ وقد أصبحت لديه خبرة كافية! ـ ألا يناقش أى شىء مقلق مع زوجته المتوترة. ربما يبدأ الحوار بينهما طبيعيًا، ثم وخلال دقائق قليلة يبدو الانزعاج على "آريا"، والتوتر، وفى الأعوام الماضية راح قلقها يتزايد نحو العالم الفسيح خارج بيتها بلونا بارك، ورفضت أن تقرأ الصفحة الأولى بصحيفة الجازيت.. "من سوء الأدب أن أعرف الكثير، إذا لم يكن بيدى شىء أفعله حيال ما سأعرفه" وكانت تتفادى أى ذكر لأخبار "أجنبية" لأنها دائمًا مقلقة. وكانت ترفض مشاهدة الأخبار فى التليفزيون، وكانت المجلات المفضلة لديها من بين المجلات التى ترد إلى البيت، مجلات مثل "ساترداى إيفينينج بوست" و"لاديز هوم جورنال" و"ريدرز دايجست"، وليست مجلتا "لايف" أو "تايم"، وكانت ترفض خوض النقاش فى المناسبات الاجتماعية حين تميل إلى موضوعات غير باعثة على السرور، مثل الكلام عن الحرب بين "ديرك" وأصحابه من المحاربين القدامى (وأحد أصحاب "ديرك" من المقاتلين دخل إلى دريسدن بعد ضربها بالقنابل، وآخر يعمل بالبنك وله بيت يطل على النهر فى جزيرة إيل جراند، كان حاضرًا وقت تحرير أوشفيتز. وكانت آريا تستمع بتركيز شديد وهى تعض ظفرها حتى نزف، و"شاندلر" يصف لها تمرين "الفرار والاختباء" ـ فى حالة انفجار قنبلة ذرية يرسل بها السوفييت ـ فى مدرسة لونا بارك الابتدائية. حتى

التقارير الخاصة بالأطفال المصطفين بالخارج فى أثناء التمرين المألوف على كيفية التصرف وقت نشوب الحرائق كان يزعجها، إلا أن "آريا" كانت ترى مثل هذه الإجراءات حكيمة.. "يجب أن تحضر نفسك لأسوأ الممكن" ولكن إذا بدأ "ديرك" يتكلم فى قلق عن عمله بالمحاماة، وإذا تحدث عن عمله بأى أسلوب مخالف للذكر العابر، كان وجه "آريا" يتغير. وكان "ديرك" يلهيها، فهى تحب من يلهيها. وكانت تريد أن تسمع أن العالم خارج المنزل رقم ٧ بلونا بارك ليس إلا منطقة من الحمقى والمحتالين، وإذا لم تكن أحمق ولا محتالاً فيجب ألا تتورط فى هذا العالم. وقتها تصبح أعلى، متفوقًا. وهكذا كان من الممكن تسلية "آريا"، تسهل إصابتها بنوبات جنونية من الضحك. وكانت تحب تقليد "ديرك" للقضاة والساسة وزملائه من المحامين وأعدائه منهم. وكان لديها حس دعابة خبيث، لكن إذا بدأ "ديرك" يتكلم بجدية يتجمد وجهها، وأبداً لم تسأل عن أى من نتائج قضاياه بدافع من الخوف، على ما اعتقد هو، من أن يبلغها من الحين للآخر بأنه خسر قضية، أو أنه لم يربح قضية على النحو الواعد الذى كان وعميله يتمنيانه، وكانت تخشى فشله، وإهانته فى عمله، وإفلاسه، وكانت تخشى أن أمه قد "تحرمه من الميراث" (حتى وإن كان "ديرك"، وكما أبدى هذا مراراً، لا يرغب فى نقود أمه، ويعتقد أنه بالفعل قد حرم من الميراث). وفوق كل شىء كانت تخشى موته المفاجئ إثر أزمة قلبية أو حادث سيارة أو "اختفاءه".. "تلاشيه".

مثل الزوج الأول، على ما يعتقد "ديرك".

لكن الغريب أنه يبدو أن "آريا" لم تعد تذكر أنه كان لها زوج أول قبل "ديرك برنابى".

وبعد ميلاد ابنهما الثانى، الذى شغل مساحة واسعة بفضل رئتيه القويتين وطاقته التى لا تنضب، أصبح البيت رقم ٧ فى لونا بارك صغيراً للغاية. وتجاهل "ديرك" احتجاجات "آريا" واشترى بيتاً كبيرًا من خمس حجرات نوم فى الجانب المقابل من الشارع، وهو رقم ٢٢ لونا بارك، وكان

البيت الجديد له نفس فخامة القديم، وتم بناؤه فى العشرينيات، وفيه حجرات كبيرة بالدور العلوى والسفلى، ومبنى من الطوب الرملى على مساحة فدان من الأرض تحفه أشجار الدردار والصنوبر.. عقار ممتاز فى هذا الجزء من المدينة. ولكن عاندته "آريا" فى الانتقال، فهى مصابة بالامتعاض والتوتر منذ أسابيع، وكانت تكره أن فى هذا البيت الجديد لا مجال أمامها إلا أن تقبل بأن يستخدم زوجها مدبرة منزل ومربية "قالت بصوت جاف بارد: "لابد أننا أثرياء، مثل كل آل "برنابى". تغرى القدر بإصابتنا بمصائبه".

قال "ديرك": "القدر يداهمنا يا "آريا" سواء كنا أغنياء أو فقراء".

ارتجفت، وضربت ديرك على وجهه مداعبة وهى تغرس أصابع يدها الأخرى مقضومة الأظافر فى ذراعه، ففى الخبث لا تريد من يتحداها.

ما يهم أن بيت آل "برنابي" الجديد، مثل القديم، كان على مسافة أميال من شارع ٩٩ وشارع كولفن، وكذلك كانت مدرسة لونا بارك الابتدائية، حيث أصبح "شاندلر" فى الصف الخامس.. على بعد أميال من مدرسة شارع ٩٩ الابتدائية.

.. وبعد

إلا أن هـذا سيـحـدث: فـى سـبـتـمـبـر ١٩٦١ سيـتـولـى "ديـرك بـرنـابـى" القضية "المهلكة" بعد كل شىء. القضية التى عرفت فى بداية الأمر بقضية أولشاكر، والمعروفة على نطاق أوسع باسم "قناة الحب".

سريعًا.. على نحو مذهل.. انتشر الخبر فى شلالات نياجرا، انتشر فى وسط المحـامـاة الـضـيق الـذى يـعـرف الجـمـيع فيه الجـمـيع، أو يـريـد أن يظن أنه يعرف الجميع.. انتشر فى مجلس المدينة وفى محكمة المقاطعة بالمدينة، وانتشر فى الوسط الاجتماعى الذى ينتمى إليه "ديرك برنابى"، أو ربما كان لينتمى إليه إذا كانت زوجته ذات الشعر الأحمر غريبة الأطوار اجتماعية أكثر، وفى بعض الأنحاء قوبل الخبر بدهشة تقارب عدم التصديق، وفى أوساط أخرى قوبل بغضب.

– "ديرك برنابى" هل جن الرجل؟ لابد أنه يعرف أن هذه القضية لن تريح.

و: "برنابى! يجب أن تعترف له بذلك.. إنه شجاع".

و: "برنابى! ابن الحرام هذا.. خائن لطبقته الاجتماعية.. هذه نهاية عمله كمحام".

قناة الحب، سيقول "ديرك برنابى": "إنها ليست قناة.. لم تكن أبدًا قناة.. ولا علاقة لها بالحب بالمرة".

ظن أنه عقد عزمه على قراره: بألا يحادث المرأة ذات السواد (التى يبدو أنه غير قادر على تذكر اسمها). كان يعزل ذاته الطائشة عنها كلما

جرأت على الاقتراب منه خارج مكتبه، وكان يرفض الرد على مكالماتها فى مكتبه، وبحلول أواسط يونيو من عام ١٩٦١ كفت عن محاولة الاتصال به. كفت عن الظهور أمامه بطريقتها طريقة النسور المتسللة التى بدأت معه تلج إلى نومه.. تلوث أحلامه وتحمله على الأنين بصوت جهورى وكأنه طفل خائف. "آريا" التى تسمعه كانت تلكزه ليفيق من نومه مطالبة بمعرفة طبيعة المشكلة.. هل يعانى من كابوس؟ أزمة قلبية؟ وفى الليل، فى سريرهما بأعلى البيت، كانت "آريا" تلامس صدره بيدها المتوترة، تلامس جسده المشعر فى الجزء العلوى من جذعه الرطب اللزج من عرق الكابوس.. وعلى مسافة بوصات قليلة داخل جسده المرتعد، يخفق قلبه وكأنه لسان الجرس.

كان "ديرك" يغمغم: "لا يا "آريا".. لا شىء.. عودى إلى نومك يا عزيزتى".

اعتقد أنه اتخذ قرارًا، وعلى أية حال اختفت المرأة ذات السواد من حياته، إذا حظت فى نهاية المطاف بمحامٍ يقبل بقضيتها سيسمع ديرك بهذا. كان يخشى الاكتشاف.

ثم وفى أواخر يونيو وهو فى طريقه بالسيارة إلى البيت وسط عاصفة رعدية مفاجئة، وتحت سماء عكرة مكدرة سوداء، كان "ديرك" بانتظار تغير إشارة المرور عند تقاطع شارعى مين مع فيرى، قرب مستشفى سانت آنى، حيث رأى شابة وطفلة صغيرة تحت مظلة، تنتظران فى محطة الحافلات، كانتا ترتديان معطفى مطر، ولا شىء غير ملابس صيفية، وزادت وتيرة العاصفة برفق، كالعادة.. وخلال دقائق معدودة انخفضت حرارة يونيو المعتدلة بمقدار عشرين درجة فهرنهايت، وراح المطر يضرب كنيران البندقية الآلية، وغمرت المياه القذرة البلاعات. كانت المرأة منحنية فوق الطفلة فى محاولة لرفع المظلة بزاوية كفيلة بحمايتها، لكن دون نجاح يذكر، أمطار شريرة تضربهما، تهب عليهما رأسية، توقف "ديرك" إلى جوار الرصيف ونادى عليها: "أنت! أتريدين توصيلة؟ اركبى" ترددت المرأة للحظة

قبل الدخول إلى المقعد الأمامى بالسيارة الضخمة الفخمة، فوضعت الفتاة على حجرها وطوت المظلة، كانت مبهورة الأنفاس، وبدا كأنها مرتبكة قليلاً.. "قولى للرجل اللطيف شكرًا يا أليس! يا أستاذ، إنك رجل شهم حقًا". كانت تمسح وجه الفتاة وتبعد خصلات الشعر المبتلة عن عينيها، كان شعر المرأة شديد السواد مبتلاً. ولعلها كانت فى الثامنة والعشرين، وتوحى بالنشاط والانشغال، جلدها بلون الزيتون، وإن كان شاحبًا، ولم تكن تضع أية زينة، وعيناها داكنتان، تلمع براقة كأنها من المعدن، وكان تحت عينيها سواد محدد كالندبة، لكن بخلاف هذا، رآها "ديرك" امرأة جميلة.

هى، أو الفتاة، تنبعث منها رائحة كرائحة علك الفواكه أو المصاصة، مختلطة على نحو مزعج برائحة مطهر.

سألها "ديرك" فى تهذيب إلى أين يمكنه أن يصطحبهما، ومنحته المرأة عنواناً واعتذرت؛ لأنه بعيد.. "لم لا تأخذنا إلى محطة الحافلات يا أستاذ؟ سنكون لك شاكرين" شىء ما فى العنوان جعل "ديرك" يجفل، لم يكن جزءًا معروفًا له من منطقة شلالات نياجرا، يقع على مسافة أميال إلى الشرق. هذه الأرض البعيدة التى صارت ممتلئة بالبيوت الجديدة والمصانع والمخازن والأرض المقلبة والأشجار المقطوعة، لكن بالطبع سيصطحب المرأة المسكينة وابنتها إلى البيت. هذا أقل ما يمكن أن يفعله، فى سيارته اللينكولين كونتيننتال ذات الإطارات البيضاء واللون الأخضر كالبحر وبسعرها الباهظ، والنقل الأوتوماتيك، والجلد الوثير الذى يكسو مقاعدها، والذى تراه "آريا" كثيرًا، كما ألمحت عدة مرات، على أنه داخل تابوت وثير فاخر. أحس بالشفقة على هذه المرأة الجذابة وابنتها، لا شك أنهما كانتا فى المستشفى ومضطرتين لركوب الحافلات العامة فى هذا الطقس، رأى خاتم زواج فى إصبع المرأة وخاتم خطوبة بحجر كريم بحجم البازلاء وأحس بشىء من الضيق.. بنوع من الاشمئزاز الأخلاقى، أن أى رجل، أى زوج لا يجب أن يكون غير قادر على توفير ما هو أفضل لزوجته وطفلته.

"برنابى".. رفقاً.. الفقراء ليس بوسعهم هذا.

كان عليه أن يذكر نفسه كثيرًا بهذه الحقيقة إذا كانت حقيقة.

وفى العاصفة الرعدية الشرسة كان "برنابى" يقود سيارته شرقاً فى شارع فيرى، وقد عبر شارع١٠ وعبر شارع ميموريال، وعبر هايد بارك التى بدت وكأنها جزيرة غارقة فى اخضرار منير وسط العتمة، وإلى تلك المنطقة من المدينة التى ولد فيها وإن كان يكاد لا يعرفها، حيث بدأت رائحة الهواء تبدو وكأنها تركيز من رائحة راكبتيه الغريبة، مزيج من الحلاوة وشىء كرائحة المواد الكيماوية، كانت مساحات المياه على زجاج السيارة اللينكولين تجاهد لإبقاء الزجاج خاليًا من الأمطار. وكان ديرك واعيًا بتحديق المرأة سوداء الشعر إلى جانب وجهه.

وبصوت فيه دهشة طفولية سألته: "السـ.. السيد "برنابى؟"

ـ أجل هل تعرفيننى؟

اتسعت عينا المرأة، ابتسمت ابتسامة رائعة.. "هل أعرفك! سيد برنابى، إننى المرأة المتوترة التى كانت تحاول أن تحملك على التكلم إليها منذ أسابيع. أتتذكرنى؟"

حدق ديرك فيها. المرأة ذات السواد! ولم يتعرف عليها.

كان اسمها "نينا أولشاكر"، ولم تكن ترتدى السواد، بل مجرد ملابس صيفية خفيفة عادية.. قميص قطنى وحذاء خفيف فى قدمها العارية من الجورب وقد غمرته المياه، ولم يكن فيها شىء مزعج أو يوحى بالمرأة/النسر فى سلوكها، بل محض لهفة وترقب.

أحس "ديرك" بالخجل.. كم بالغ فى إحساسه بتهديد هذه المرأة المسكينة، كانت ترتدى فستاناً أسود أو ملابس داكنة رسمية أكثر كلما ذهبت إلى مكتبه، ملابس امرأة فى الحداد، ففى الواقع كانت فى الحداد.

تلك اللمحة الأولى لها.. منذ أسابيع.. ولم يرغب "ديرك" فى رؤية المزيد، كان يعرف من هى أو يحسب أنه كان يعرف. كان يعرف، ماذا تريد

منه أو حسب أنه يعرف. ومثل شخص جبان انكمش فى جانبه بعيدًا عنها وخشى مواجهة نظرتها.

ـ أدين لك بالاعتذار على ما أعتقد يا سيدة "أولشاكر".

ــ أنا.. تدين لى باعتذار؟ لا يا سيد "برنابى".

كان يشعر بخجل بالغ لم يتمكن معه أن يشرح، وهكذا أذعن لمصيره، سيحدث ما سيحدث برفق. بعدها سيذكر كيف سنحت له الفرصة لأن يدع المرأة تنزل عند أية محطة حافلات فى وسط المدينة، سنحت له الفرصة كذلك لدى بيتها أن ينزلها ويرفض دعوتها بالدخول، وبما أنه دخل وأنصت إلى شكواها الحارة، سنحت لها الفرصة لأن يخبرها بأنه سيفكر فى قبول قضيتها، وأن ينسحب، كل هذه الفرص فاتته فى فورة حماسته بأن يفعل الشىء الصحيح.

إذ أن قلبه مال إليها، ومال إلى الفتاة الجميلة السقيمة ذات الشعر البنى التى بدت لـ "ديرك" مغيبة على نحو غير طبيعى.. سلبية.

كم تختلف عن "رويال" ابنه ذات الثلاث سنوات، الطفل صاحب الطاقة التى لا تنضب والروح المعنوية المرتفعة!

أوصل "ديرك" نينا أو"لشاكر" وابنتها إلى البيت، إلى بيت من طابق واحد مؤطر بالخشب فى ١١٨٢ شارع ٩٣ بالقرب من شارع كولفن وممر مائى ملوث يدعى بلاك كريك، والبيت، بلون أصفر شاحب وزركشة خضراء داكنة، كان مستقرًا بالقرب من الشارع فى منطقة سكنية .. قطعة أرض مكرسة للمبانى السكنية، فيها بيوت رخيصة مثله، كأنها بيوت لعبة أو نماذج لبيوت، لعلها كانت تدخل فى جراج سيارتى آل "برنابى" فى البيت رقم ٢٢ بلونا بارك.

"كولفن هايتس" هذا القسم من شرق شلالات نياجرا، هكذا كان اسمه، وإن كان على مدى السنوات والعقود التالية، وبالظاهرة التى سيمثلها، سيحصل على اسم فظ.. قناة الحب، وفى ذلك الحين لم يدرك

"ديرك" بوجود أية قناة، لم ير أمامه قناة. لا توجد قناة. "كولفن هايتس" بدت منطقة جديدة ليست بها إلا أشجار قليلة تنمو فى بيوت السكان الصغيرة المحسوبة، رآها ديرك ضعيفة النمو، محاصرة، أوراقها كأنها أوراق كراسات. كان مدركاً بالجو من حوله برائحته رائحة المستنقعات والكبريت الحلو، وحين خرج من مأوى السيارة انهمرت أمطار لاذعة داكنة على وجهه الذى لم يكن محميًا من المطر لكنه مسح المياه وضحك وكأنه فى لعبة، وراح يتقافز فى مرح بمظلته السوداء الكبيرة مظلة الجولف، محاولاً حماية "نينا" أو"لشاكر" وابنتها وهم يهرعون داخل البيت.

ثم سيبقى "ديرك" بالبيت ساعتين، فى فورة حماسته لفعل ما هو صحيح وواجب على الرجل الحقيقى.

- "آريا"؟ هذا أنا، سأعمل لوقت متأخر يا حبيبتى.. حالة طوارئ".

ارتفع صوت "آريا" قليلاً، وكأنها على بعد مئات الأميال منه وليست على بعد عشرة أميال.. "طوارئ؟"

بسرعة قال "ديرك": "ليس شيئًا خطيرًا يا "آريا". ليس شيئًا شخصيًا".

- لا بأس إذًا.. عد إلى البيت حين تستطيع يا "ديرك". سيكون الأطفال نائمين على الأرجح سأبقى العشاء ساخنًا من أجلك".

أحس "ديرك" بشىء من الغثيان، لا يشعر بالجوع!

قال: "عزيزتى، كم هذا لطيف منك. شكرًا جزيلاً".

ضحكت "آريا": "إننا متزوجان، وأنا زوجتك، واجبى أن أبقى الأشياء ساخنة من أجلك، أليس كذلك؟"

سيعرف "ديرك" أن: "نينا أولشاكر" تزوجت لعشر سنوات من "سام أولشاكر" الذى يعمل حالياً فى الدورية الليلية بمصنع باريش بلاستيكس، أحد أكبر مصانع البلاستيك فى البلاد، انتقلوا إلى كولفن هايتس منذ ستة

أعوام. وكان معهما ابنهما بيل البالغ من العمر تسع سنوات، وأليس التى كانت فى السادسة، وابنة صغيرة تدعى صوفيا توفيت متأثرة بسرطان الدم فى مارس ١٩٦١ فى عمر الثالثة.. "سممها هذا المكان يا سيد "برنابى". لا يمكننى إثبات هذا، ولا يتكلم الأطباء، لكننى أعرف".

كانت أسرتا "نينا" وسام من المنطقة. ولد "سام" فى شلالات نياجرا، حيث كان والده يعمل فى شركة أوكسيدينتال بتروليام، وولدت "نينا" شمالى توناواندا، حيث عمل والدها سبعة وثلاثين عامًا فى توناواندا ستيل وتوفى الصيف الماضى مصابًا بمرض انتفاخ الرئة فى عمر الرابعة والخمسين، وقالت بمرارة: "توفى والدى أيضًا.. ملأت شظايا صغيرة من الحديد رئتيه. فسعل الدم لم يكن قادرًا على التنفس قرب نهايته، كان يعرف سبب هذا، وكل الرجال فى مصنع الحديد يعرفون، وشرعوا فى تقديم الاستقالة. برغم أن الأجر جيد، وهذا مهم.. وربما، وإن كانوا يعرفون بما يحدث لهم، فهم لا يصدقونه.. شعرنا بهذا فى حالة صوفيا، راحت تضعف وتذبل وتفقد وزنها وأصيبت فى خلايا دمها البيضاء، لكننا رحنا ندعو الله، ودائمًا ما نشعر بأنها ستتحسن، وكأننى أصبت بإجهاض.. أفكر إن شيئًا واحدًا ساء، وكأنه حظ سيئ لا أكثر. لكن فى المرة التالية ستختلف الأحوال، وحين ماتت "صوفيا" طلبت تشريحها بالكامل، أعنى أننى كنت أريد هذا، حتى قيل لى ما هو التشريح بالضبط، وغيرت رأيى، وأتساءل الآن إن كنت قد اتخذت القرار الصحيح، إذا كان سرطان دم، لا أكثر، وكأنه شىء موروث فى الدماء، مثلما قال لنا مكتب صحة المقاطعة، أو ربما كان شيئًا آخر أيضًا.. سم ما هنا.. يمكننى تذوقه. فى الطقس البارد كهذا، لكنهم قالوا لنا إنه لا شىء هناك، لا سم فى الهواء، ولا فى مياه الشرب، وإنهم أجروا اختبارات، أو هكذا يزعمون.. آه يا سيد "برنابى"، كم أنا قلقة على "أليس". وزنها لا يزيد، ولا تشعر بالجوع أبدًا، وأخذتها لإجراء تحاليل دم، واتضح أنها تعانى وهو "قلة عدد كرات الدم البيضاء".. ما معنى هذا؟ "وبيلى" صار يصاب بالصداع وهو فى المدرسة، ويشعر

بالألم فى عينيه ويسعل كثيرًا. وسام".. كفت فجأة عن الكلام مفكرة فى "سام".

تمتم "ديرك" بشىء من التعازى. كان يشعر بأسف عميق عميق، وكم بدا صوته واهنًا بينما "نينا" مستمرة فى الكلام بنفاد صبر:

"لا أبغى سوى العدالة يا سيد "برنابى". لا أريد النقود، أريد العدالة "لصوفيا". أريد حماية "بيلى" وأليس من الضرر.. أريد أن يتقدم الشخص المسئول عن وفاة "صوفيا" وغيرها من الأطفال المرضى أو المحتضرين فى هذا الحى إنه المسئول، أعرف أن شيئًا ما ليس على ما يرام هنا. يمكنك أن تشمه، شىء يحرق عينيك أنفك، فى الفناء الخلفى، فى الكثير من الأفنية الخلفية ها هنا، ثمة راسب لزج أسود مقزز يتصاعد من الأرض، وكأنه زيت، لكنه أغلظ قوامًا من الزيت، سأريك إياه إنه فى قبو بيتنا، فى الطقس البارد ينساب من الجدران، وعندما تتصل بحكومة المدينة تقول لك سكرتيرة أو ما شابه أن تنتظر، وتنتظر وتنتظر ثم تنتهى المكالمة، تذهب إلى مجلس المدينة وتنتظر.، ربما لأسابيع وشهور، أعتقد أن بإمكانك الانتظار لأعوام إذا عشت، وفى مدرسة شارع ٩٩ يا سيد "برنابى"، يعرف الأولاد أن طعم المياه متغير.. يلعبون بالخارج فى الفناء، وتحترق عيونهم وجلدهم، هناك حقل خلف المدرسة، وقناة صرف، يلعب الأولاد هناك ويحترقون، جلب "بيلى" معه "الصخور الساخنة" إلى البيت.. نوع ما من الصخور الفسفورية، بحجم كرة السلة، وتلقيها على الأرض فتتقافز كألعاب نارية وتحترق.. أى شىء هذا بحق جهنم الذى يلعب به الأطفال؟ تكلمت إلى الناظر، وهو ليس ودودًا أو متعاطفًا بالمرة، تخاله سيهتم لأمر الطلبة فى مدرسته بحق الله، لكن لا.. يعاملنى بوقاحة، وكأننى مجنونة، أو أم لحوحة ليس لديه وقت لها. ويقول إن بيلى يجب أن يظل فى أرض المدرسة وألا يلعب فى قناة الصرف أو فى الحقل، لكن الواقع أن الأطفال الذين يلعبون فى فناء المدرسة، وتظهر هذه المادة اللزجة من بين الشقوق، ولدى صور بكل هذه الأشياء يا سيد "برنابى". لدى صور "لصوفيا"، أريد أن أريك "إياها" "بيلى" "بيلى"، تعال هنا".

كان طفلاً محنى الرأس واقفًا عند مدخل باب حجرة المعيشة، ودخل على استحياء إلى الحجرة ليقابل السيد "برنابى".. "إنه محام يا "بيلى". محامٍ شهير".

أجفل ديرك. شهير!

- "أريد نقل "بيلى" إلى مدرسة أخرى لكنهم يرفضون نقله. لأن معنى أن يذعنوا لرغبة أم واحدة معناه الاعتراف بوجود ما يستوجب الإذعان، ولا يريدون لهذا أن يحدث. لأن حينها سيطلب الجميع نقل أولادهم إلى مدرسة أكثر أماناً، وسيكونون "عرضة للمسئولية القانونية".. إدارة المدرسة ومجلس التعليم والعمدة.. جميعهم يحمون أحدهم الآخر، تكاد تراهم يكذبون، مثل مكتب الصحة، لكن ماذا بيدك أن تفعل؟ إننا نعيش هنا، ولا نقدر إلا على سداد أقساط البيت وأقساط السيارة وإذا تكبدنا تكاليف طبية مثل التى نتحملها بسبب اصطحاب "أليس" إلى مستشفى سانت آنى بدلاً من حيث يريدوننا أن نذهب لإجراء الاختبارات، فى عيادة المقاطعة الطبية، كل هذا يتراكم، ولا يتحمل راتب "سام" وإذا وقع شىء له، فهناك التأمين الصحى فى مصنع باريش، والمعاش، "وسام" قلق من أن "ينتقموا" منه، إذا سببنا مشكلات.. هل هذا ممكن يا سيد "برنابى"؟ حتى بوجود اتحاد العمال.. النقابة؟"

قطب "ديرك" جبينه متفكرًا، لكنه يعرف: أجل هذا ممكن. مصنع باريش بلاستيكس صاحب عمل قاسٍ على العمال.. كان يعرف "هيرام باريش" العجوز، وهو صديق "لفرجيل برنابى" والسيدة "باريش" كانت صديقة "لكلاودين"، وكان يعرف سمعة "باريش" و"سوان" و"دو" و"أوكسيكيم" وغيرها من المصانع والشركات، حتى مع الاقتصاد المحلى المزدهر، فلم تحصل الاتحادات العمالية على العقود التى أرادتها من هذه الشركات. لم يكن "ديرك برنابى" طرفاً فى أى مفاوضات عمالية لكن له أصدقاء من المحامين الضالعين فيها: يعملون لدى الشركات، إذا اهتم بقانون العمل، الذى لم يعجبه أبدًا، فربما يعمل لصالح شركة "باريش". قال: "هذا ممكن يا سيدة أو"لشاكر". سأفحص عقد زوجك لأكون فكرة عن الأمر".

ستمر باقى الزيارة على "ديرك" فى مقاطع سريعة غير متصلة وكأنها حلم مفكك، تكلمت نينا إليه بنشاط وشىء من العدوانية، وكأن شيئًا قد تقرر بينهما.

أطلعته على "الخطأ المأسوى" الخاص بالبيت، فقد وقعوا على عقد بتسديد أقساط لمدة ٣٤ عاماً. البيت الذى أحبوه فى بداية الأمر.. الواقع فى منطقة "لطيفة دافئة ودودة من الأزواج الصغار مثلهما، والكثير من الأطفال".. يمكن "لبيلى" أن يسير مسافة بلوكين إلى المدرسة، ويوجد فناء خلفى كبير بما يكفى "لسام" لكى يزرع حديقة من الخضراوات "يشعر بسعادة غامرة لهذا، يجب أن تراه، لابد أن هذا بالوراثة أو ما شابه، أفتقد هذا على ما أعتقد، إذا زرعنا بعض البذور فهى لا تنمو، وإذا كبرت تأكلها بعض الحشرات اللعينة" وهى نصف واعية بما تفعله سحبت "نينا" يدها على بطنها، كانت تفكر فى الإجهاض ربما، أو لعلها كانت تفكر فى البنت الصغيرة التى ماتت.

أنصت "ديرك". طرح أسئلة قليلة ذلك المساء. أدهشته "نينا أولشاكر" التى لم تكن كأى امرأة أخرى قابلها عن قرب، الأرجح أن فيها من دماء قبيلة التوسكاروراس الهندية، فشعرها فاحم السواد ولا يلمع. عيناها مفعمتان بالتعب والقلق لكنها تلمع كاشفة عن معرفة تجذبه إلى مشاركتها همها. تتمتع بأسلوب الفتاة الصغيرة المنجذبة لأسلوب الأولاد، جلدها الداكن خشن قليلاً لكنه جذاب. آه.. "ديرك برنابى" يرى "نينا أولشاكر" جذابة، يجب أن يعترف.. إنها امرأة تتمتع بخصوصية.. ترى نفسها تتمتع بخصوصية.. لديها مهمة، حتى فى الانهزام لديها مهمة، هذه الملابس الصيفية الرخيصة، قدماها الحافيتان وسط بيتها المريح ولا تشعر بحرج من قدميها غير النظيفتين ومن فوضى البيت، أو من أنفى طفليها اللذين يسيل منهما المخاط، أو من الروائح التى تغمر كل شىء بعطن ورطوبة الجو.. حكت "لديرك برنابى" قصتها دون وعى بأنها من نوع وطبقة غير مرئية له بالمرة.

ليس لأن "ديرك برنابى" يؤمن بالديمقراطية، كل الرجال وبعض النساء، ولدوا متساوين. فى عين الرب. (وإن لم يكن فى عين الاقتصاد) وبموجب دستور الولايات المتحدة الذى منح الحق فى الحياة والحرية وفى السعى للسعادة، وإن لم تكن سعادة حقيقية - أيًا تكن السعادة.. بيت فاخر مبنى بنقود كثيرة مرصوصة وكأنها قوالب الطوب.

كما تقول "كلاودين برنابى" بروح دعابة وضيعة هؤلاء الناس ليسوا موجودين، وإذا وجدوا، فما علاقتهم بنا؟

كانت "نينا" تقول كيف تحول البيت إلى فخ وجعل "صوفيا" تمرض وجعلهم مرضى؟ وكيف انقلب بعض الجيران ضد "نينا" وقالوا إنها أثارت المشكلات فى المدرسة وأخافت الناس وروجت لـ"هستيريا" و"خفضت من قيمة العقارات".. ونعتوها فى واقع الأمر بأنها وسام من الشيوعيين.. "هل تصدق هذا يا سيد "برنابى"؟ "سام" و"أنا" أليس هذا محض سخف؟ إننا من الكاثوليك".

قال ديرك: "أجل، محض سخف".

- أعنى إنه شىء سخيف، هراء.. كل ما نريده هو إجابات صادقة عن أسئلتنا، وليس أن يكذب الناس علينا.. كيف يجعل هذا منّا شيوعيين بحق الله؟

كان "ديرك" يفكر فى النعوت التى تطلق على المحامين الذين يدافعون عن رجال ونساء على القائمة السوداء "للاشتباه فى كونهم مخربين" فى بداية الخمسينيات.. هؤلاء الأعضاء القليلون من جامعة بافالو الذين رفضوا التوقيع على قسم الولاء.. قس بروتستانتى، صحفى يكتب عمودًا بصحيفة الجازيت، مسئولون بنقابة العمال المحلية، لم يكونوا كثيرين.. والمحامون الذين دافعوا عنهم قيل عنهم محامين شيوعيين، ومحاكمين حمر، ومحامين يهود.

قال "ديرك" بحرارة: "إنه عام ١٩٦١ يا "نينا". وقد تقدمنا كثيرًا".

ثم إن "نينا أولشاكر" عرضت على "ديرك" ملفًا من الصور وهى تمسح عينيها زجت "ببيلى" و"أليس" إلى حجرة أخرى ليأكلا كرواسون كانت قد

سخنته وهما يشاهدان التليفزيون، لم تريدهما أن يشاهدا هذه الصور، حمل "ديرك" نفسه على مشاهدة متتالية من الصور لصوفيا الجميلة الراحلة. وهى رضيعة، ثم هى أكبر قليلاً، فتاة صغيرة يرفعها والدها بفخر بين ذراعيه النحيلتين المعروقتين. (و"سام"، الرجل النحيل، يبتسم تحت الشمس، و على رأسه قبعة بيسبول ، ويرتدى تى شيرت وسروالا قصيرًا. أحس "ديرك" للحظة بشىء من الغيرة الجنسية)، ثم رأى الطفلة فى سرير المستشفى، جلدها أبيض شمعى، وعيناها الزرقاوان محاطتان بالضباب. ثم ماتت الطفلة، دمية بجلد من الشمع فى تابوت مغطى بالساتان الأبيض.. أغمض "ديرك" عينيه قليلاً ولم يعد صوت "نينا" أولشاكر المرتجف يصله.

راح يفكر فى ابنته "جولييت".. عمرها ستة أسابيع. ابتلع ريقه بصعوبة وأحس بالرعب.

نسى "ديرك" بالفعل أنه لم يرغب فى طفل آخر، أزعجه احتياج زوجته الماس إليه، ثم الآن أحس بالخوف عليها.

مارس الحب معى! بحق الرب هيًّا.. هيًّا!

ليست "آريا"، بل الأنثى النهمة المتوحشة، ليست "آريا" التى تزوجها، بل أخرى جاءت مكانها.

لكن: من ذلك الاتحاد ولدت "جولييت".

ـ لدى ابنة أيضًا.

ـ حقاً. ما اسمها؟

ـ جولييت".

ـ اسم جميل! كـ.. كم تبلغ من العمر؟

ـ ولدت لتوها.

غريب أن يقول هذا! لم يكن هذا صحيحًا، أحس بهشاشة حياة الطفل الرضيع فى السن المبكرة فى تلك اللحظة. كم يتمسك بالحياة بقوة.. يمص من صدر أمه أو من زجاجة، يعتمد بالكامل على الآخرين، تعوزه القوة والقدرة على الحركة واللغة، وللحظة أحس برعب غريب، من أنه فى غيابه، وكعقاب موجه إلى "ديرك برنابى" لأنه لم يرجع إلى بيته مباشرة، فسوف يحدث شىء لابنته.

راحت "نينا" تريه الصور الفوتوغرافية التى التقطتها فى مدرسة شارع ٩٩ الفناء حيث السائل اللزج الأسود يظهر من بين الشقوق فى الأسفلت. قناة الصرف "كريهة الرائحة اللزجة". الحقل المفتوح الممتلئ بالعشب الطويل والأعشاب الشوكية المغمور بالمياه الراكدة. "بيلى أولشاكر" بعينيه الحمراوين المنتفختين، ويديه "المحترقتين" وأيدى الأطفال الآخرين "المحترقة". "قال لنا الناظر، نحن الأمهات،: تأكدن أن أطفالكن يغسلون أيديهم، ولن تقع أية مشكلات بعدها" كانت "نينا" تتكلم بغضب، نشرت أمامه صورًا أخرى عديدة غطت بها سطح المائدة، صور التقطتها فى الحى وفى قبو "أولشاكر" وفى الفناء الخلفى، راح "ديرك" يطالعها وقد اعتراه الفزع، كانت هناك قضايا فى السنوات الأخيرة ضد شركات كيماوية.. "دو" و"سوان" و"هوكر" و"أوكسيكوم".. قضايا تعويض على إصابات شخصية رفعها العمال، وكان قضاة المقاطعة يرفضون نظرها دومًا أو تتم تسويتها خارج المحكمة بمبالغ غير معلن عنها، ولم تكن أى منها مبالغ كبيرة، كان من المفهوم أنك تتحمل مخاطر معينة مع عملك فى مصانع بعينها، وتحصل على نقود مقابل هذه المخاطرة.

بالطبع لا تحصل على ما يكفى من نقود. ليس ما يكفى أبدًا. لكن هذا موضوع آخر.

كان تلوث الحى، وتلوث الأرض والتربة والمياه وآثار هذا التلوث على الأفراد شىء بالغ الاختلاف وجديد، لم يفكر "ديرك برنابى" فى الأمر كثيرًا من قبل. كان عمله بالمحاماة لا علاقة له بقضايا البيئة، وكان محاميًا بارعًا

فى الجدال فى نقاط ضيقة ولكنها مهمة، وتستند إلى قانون ولاية نيويورك، وكان موكلوه فى العادة من رجال الأعمال ميسورى الحال ممن يبغون الحماية أو فرض نفوذهم. ومن الحين للآخر يمثل "ديرك" موكلاً يشهر إفلاسه، ومن الحين للآخر يؤدى عملاً خيريًا، لكن لم تكن هذه "صنعته" كان أستاذًا فى لعب الشطرنج على رقعة شطرنج يعرفها جيدًا ويألفها تمام الألفة، وعلى تلك الرقعة، كان "ديرك برنابى" معروفًا ومهابًا.

أحس بوخزة من الحماس، ومن الرهبة.. لعبة جديدة! هذه، بدورها، سيجيدها "ديرك برنابى".

ـ فى بلدتى الأم.

لابد أن "ديرك" تكلم بصوت مسموع، لأن "نينا أولشاكر" قالت بتجهم: "أجل! فى بلدتك الأم".

سقطت بعض الصور على الأرض، والتقطها "ديرك". وجهه محتقن بالدماء. قالت "نينا": "هذا دليل يا سيد "برنابى"، أليس كذلك؟ فى القضية والمحكمة، إذا شاهدها القاضى فسوف تحدث فارقًا، يجب أن يحدث الأطفال فارقًا، حياة الناس يجب أن تحدث فارقاً". قال "ديرك" لنفسه إن لا، الدليل العلمى هو ما سيحدث الفارق، شهادات الأطباء، أو ربما يمكن جعلها كفيلة بإحداث الفارق، أم هادئة وإن كانت باكية على منصة الشهود، تصف هذه الأشياء، وتصف وفاة طفلتها، مرضها ومرض أطفالها، يمكن جعل هذا يحدث فارقًا.

ـ سيد "برنابى"! تعال هنا.. قبل أن تغادر". أمسكت "نينا" بذراع "ديرك" وأخذته إلى المطبخ، وفتحت المياه من الصنبورين لتملأ بها كوبًا، وسألته أن يشمها وأن يتذوقها. شمها ديرك ورفض تذوقها، وإن كان الماء (على ما يعتقد) لا تختلف رائحته عن المياه التى يشربها هو وأسرته فى لونا بارك. ضحكت "نينا" وصبت المياه فى الحوض.. "ولم عليك أن تشرب؟ لا أحد يلومك" ثم أخذته "نينا" إلى القبو، بحق يسوع، أى رائحة هذه..

الدرجات الخشبية تصدر صريرًا تحت وطأة وزنيهما، وعلى ضوء القبو العلوى الضعيف رأى كهفًا قبيحًا رائحته رائحة البالوعات وشيئا كالقطران يثير الغثيان، وعلى الأرض رأى أشكالاً أشبه بالشباك، تلمع، ورأى خيوطًا من مياه الأمطار، وبركًا صغيرة، وكانت الجدران الخرسانية البالغ طولها ستة أقدام بالكاد تخرج وسخًا كريهًا، سمع محرك مياه يصدر أصواتًا صاخبة وكأنه قلب على وشك الانفجار "حين تمطر بقوة مثلما حدث الآن، يفيض القبو. و"سام" كان يشغل مضخة المياه لكن إلى أن يعود إلى البيت فقد تنكسر.. اللعنة!" كانت "نينا" تلهث. أمسكت بذراع "ديرك" بقوة وكأنها تمنعه من الفرار إلى الطابق العلوى.. "أترى يا سيد "برنابى"؟ إننى لا أتخيل هذا. الناس فى الحى يقولون: هذا ما يحدث لا أكثر، حين تمطر فى شلالات نياجرا، حتى "سام" حاول أن يقول هذا، لقد ولدهما على حد قوله، والحال هكذا دائماً كما يقول، ولا أحد يريد الاعتراف بأن هذا شىء مختلف.. يخشون من خفض قيمة العقارات.. هراء! هذا أكثر من مياه الأمطار والوسخ، أكثر من وسخ البالوعات وقد صعد إلينا، يجب أن يخضع للاختبار، كل الأرض والمياه هنا فى كولفن هايتس يجب أن تختبر، دائمًا ما قلت هذا للناس. لم أعتد أبدًا كونى إنسانة مريضة. لست إنسانة مريضة لكننى أصبت بالصداع النصفى مع عيشى هنا، أصبت بالربو مثل "بيلى" المسكين، ومثل "سام"، ولا أتكلم عن نفسى كثيرًا لأن لا أحدًا يهتم بالمرة، لست أنا بل أطفالى الذين أريد رعايتهم، أليس كذلك؟ يغضب "سام" منى كثيرًا، ويقول إننى أتخيل الكثير. لكننى لا أتخيل إجهاضى، أليس كذلك؟ لم أتخيل موت ابنتى بسرطان الدم، هل فعلت؟ هل تخيلت؟"

ثارت عواطف "نينا"، وراحت تمسح دموعها من عينيها، تشوه وجهها بالغضب والحزن، لم يتمكن "ديرك" من التخفيف عنها وهو يحاول ألا يتنفس فى هذا المكان القذر، واضطر للفرار بالصعود لأعلى حيث مدخل الباب، وحيث الطفل "بيلى" جالس القرفصاء.

بحق يسوع! كاد يحدث، كاد يختنق، اعتراه صداع مفاجئ بين عينيه، وأحس بعينيه تلسعانه بفعل الرطوبة.

لحقت به "نينا" فى المطبخ واعتذرت قائلة: "اعتدت هذه الرائحة نوعًا ما، لا أتخيل كيف تبدو لشخص غيرى" ثم ضحكت فى اضطراب.

حين غادر "ديرك" البيت، حيث أصبح فى أمس الحاجة للمغادرة، رافقته "نينا" كانت الأمطار العنيفة قد خفقت. لم يفتح ديرك مظلته. حمدًا لله، يمكنه التنفس الآن. بعد رائحة القبو القذرة التى لن ينساها لفترة طويلة طويلة.. الهواء اللزج شرقى شلالات نياجرا بدا له عليلاً.

وكان فى الهواء.. فى أول المساء.. ذلك اللمعان الغريب، مختلط بروائح المستنقعات والقطران.. السماء تشوبها السحب وقد صفت قليلاً إلى الغرب حيث كندا، حيث راحت الشمس تغرب. كان الوقت منتصف الصيف.. أطول أيام الصيف.. الليل يأتى بطيئاً فى هذه المنطقة الحضرية من المصانع ذات المداخن الطويلة المتلفحة باللهب، والفدادين الرحيبة من الأنوار المتفرقة.

وعند سيارة "ديرك" استمرت "نينا" فى الكلام إليه، بسرعة أكبر الآن، وكأنما أحست أنها قد أزعجته، وربما دفعته للابتعاد عنها.. "يقول الناس إن هناك قناة قديمة هنا تم ردمها، ولا يعرف أحد مكانها على وجه التحديد، إلى جوار المدرسة على ما أعتقد وكانت تمر من هنا.. وتم ردمها قبل بدء مقاول كولفن هايتس فى البناء بعد الحرب، وأعتقد أن.. بماذا ردموا القناة ؟ ليس مجرد تراب، ربما نفايات.. كيماويات، شركة سوان كيميكال تقع قرب شارع كولفن، على الجانب الآخر. لا أحد يريد إخبارنا، وفى مكتب الصحة وفى مجلس المدينة سألت، وفى الجازيت سألت، لكن لماذا أحاول إثارة اهتمام محام. سيد "برنابى".. يقول الجميع إنك أفضل محام فى شلالات نياجرا" .

قطب "ديرك" جبينه. ربما هذا صحيح، على رقعة الشطرنج الخاصة به، فهو يلعب بالقواعد التى يعرفها، وربما لا يمكن هزيمة ديرك برنابى، وهو فى ذروة نجاحه المهنى وهو فى ذروة حياته.

ـ سيد "برنابى".. أعرف أنك لا تقدر على الموافقة على الفور، لكن أرجوك لا تقل.. لا أرجوك! أعرف أنك ستفكر فى الأمر، وأعلم أنك تعرف أنه ليس لدينا نقود كثيرة. ربما معنا ألفا دولار بما جمعناه، وبما أخذناه من الجيران المهتمين بالأمر أعرف أنك تحصل على أكثر من هذا بكثير، تلك المرأة اللطيفة فى مكتبك حاولت أن تشرح لى، لكننى أردت التحدث إليك، وقد فعلت.. شكرًا لك".

قال "ديرك": "سأتصل بك يا سيدة "أولشاكر". لقد منحتينى ما يكفى لأن أفكر فيه".

أمسكت "نينا" بذراعه بيديها بقوة ضغطت عليه بشدة، لمعت عيناها المعدنيتان بشىء من اليأس الجميل، وبصوت خفيض قالت: "لدى اعتراف لك يا سيد "برنابى". لا تغضب! لا تغضب منى بسببه! لقد دعوت لهذا أن يحدث، هذا المساء.. دعوت طالبة إياك. لقد أرسلك الرب لى".

العالم السفلى

ليس الزنا.. لست زوجًا زانيًا.. ولم أقع فى حب تلك المرأة.

وإن كان سيدمر نفسه، وزواجه، فى سبيل قضية قناة الحب المشئومة.

ـ ١ ـ

عرفت "آريا"، لكنها لم تعرف. كزوجة لم تعرف، لكنها تعرف. أو تعتقد أنها تعرف.

كان الزمن فى أواخر صيف عام ١٩٦١ ثم جاء الخريف، وبدأ موسم شتاء آخر فى المنطقة، بالقرب من الشلالات، طفلة جديدة فى البيت رقم ٢٢ لونا بارك! الحياة النابضة الغامضة لهذا البيت.. كذا بدت هذه الطفلة "لآريا"، الأم.. الأم الظافرة، وإن كانت متعبة. يوجد "شاندلر" و"رويال" اللذان تحبهما، لكن "جولييت" هى روح آريا ذاتها.

ـ عيوننا.. لدينا نفس العيون.. انظرى يا "بريدجيت"!

رفعت الطفلة واسعة العينين المبتسمة إلى جوار رأسها وهى تتزين أمام المرآة.. عينان خضراوان خرزيتان، عينان خضراوان زجاجيتان.. راحت المربية الأيرلندية القادمة حديثاً تنقل عينيها من واحدة إلى الأخرى، من الطفلة إلى الأم، ولكونها أيرلندية، ولأنها داهية، عرفت ما تقوله بلهجتها الفخمة: "بالطبع يا سيدة برنابى، إنها صورة من أمها، بارك الرب فيكما".

لكن.

زوجى يحبنى.. لن يخوننى أبدًا.. يعرف أن هذا كفيل بتدميرى، وهو يحبنى.

اللعنة! الهاتف يرن.. نست "آريا" أن ترفع سماعة الهاتف وسط درس بيانو الساعة الخامسة من يوم الخميس ـ كانت التلميذة فتاة جميلة متوسطة الموهبة فى الثانية عشرة من العمر وتسكن قريبًا منها وتحبها "آريا" كثيرًا ـ نادت "آريا" دون أن تنهض عن البيانو: "رويال حبيبى.. هلا رفعت السماعة من فضلك؟ لا تكلم من اتصل، بل أرفع السماعة لا أكثر وضعها إلى جوار الهاتف برفق.. ولد شاطر".

لكن "رويال"، ولأنه "رويال"، لم يكن يطيع أمه أبدًا دون أن يعصاها فى الوقت نفسه، هذه لعبة "رويال". كان فى الثالثة من العمر، ومولعًا باللعب. رفع السماعة وراح يثرثر كالقرد المجنون: "ماما لا! ماما لا، باى باى!" راح يضحك وترك السماعة تسقط على الأرض المغطاة بالبساط فأحدث صوت ارتطام خفيف، تراجع وراح يصفق بيديه على فمه وعلى وجهه يرتسم الجذل. ولم تقدر "آريا" أن توبخه، فمن على الهاتف سيسمعها.

كانت دروس البيانو التى تُلقنها "آريا" بعد الظهر بمثابة واحات من الهدوء النسبى والعقل بالنسبة لها، بل وحتى شىء من الجمال وسط طاقات آل "برنابى" المتفجرة، لكنها لم تكن دومًا هادئة.

التفتت "آريا" وهى تتنهد إلى تلميذتها، التى قطبت جبينها محاولة أداء تمرين صعب على سلم "بى" الكبير، كانت أصابعها البدينة بالكاد قادرة على أدائه، لكن ليس كما يجب، ولكن الفتاة موهوبة أو ما تراه "آريا" موهبة فى تدريس البيانو هذه الأيام. وبحماسها المعتاد قالت "آريا": "رائع يا لويزا! شىء جميل! والآن لنسمع ثانية، دعى النغمات تنساب ناعمة، أربعٌ ثم أربع.."

لكن فى هذا نوعًا غريبًا من العزاء، الوتيرة التى تسمع بها نفسها وهى تُدرّس البيانو تقول رائع! شىء جميل! والآن لنسمع ثانية.

كانت "آريا" تعرف أن أقاربها من طرف آل "برنابى" ومعارفها يظنون تدريسها البيانو شيئاً غريباً. أن تمنح زوجة ديرك برنابى دروسًا فى البيانو.. مقابل خمسة دولارات فى الساعة.. امرأة لديها ثلاثة أطفال صغار. مثل عانس بحاجة إلى دخل. قالت "آريا" فى براءة اتسعت معها عيناها لشقيقتى "ديرك": "إننى أجهز نفسى لوقت فى المستقبل قد أُهجر فيه وأضطر لتوفير الدخل لى ولأطفالى، أليس هذا واجباً على كل الزوجات؟" استحق الأمر أن تقول ما قالته، لكى ترى تلك النظرة على وجهيهما المزينين بشكل مبالغ، شىء مدهش! ابتسمت "آريا" وهى تتذكر.

لم يعجب "ديرك" بما قالته. بل غضب منها كثيرًا.

ها هى لويز تعزف نغمات مكسورة يجب أن تكون سريعة وخفيفة ولامعة كالمياه المارة على صخرة فى النهر، لكنها راحت تضرب البيانو فى حركات قوية غير متساوية، وكل نغمة كأنها مطرقة صغيرة.. "تذكرى الإيقاع يا عزيزتى: أربع ضربات فى المرة، وربع نغمة تعطيك ضربة" طرقت "آريا" بقلمها الرصاص، تطورت لديها مهارة غريبة، وهى تنصت لتلاميذها بأذن بينما تنصت لما يجرى فى جزء آخر من البيت بالأذن الأخرى، هذا البيت الجديد الذى أصر "ديرك" على شرائه كان كبيرًا متشعبًا، وفيه حجرات كثيرة يمكن أن يلج إليها الطفلان الكبيران، والحجرة المصممة لتكون "حجرة بيانو ماما" كانت فيما سبق ردهة استقبال مفتوحة على حجرة المعيشة وقريبة من قاعة استقبال أخرى تؤدى إلى المطبخ ومتصلة بالسلم، أين "بريدجيت"؟ على الأرجح فى المطبخ مع الطفلة، كان عليها أن تعتنى "برويال" أيضًا، لكن بالطبع ليس من السهل الاعتناء "برويال". وتمنت آريا أن يكون أى كان من اتصل قد أنهى المكالمة.

أجل، بدا كأن "بريدجيت" فى المطبخ. تطعم الطفلة وتداعبها بطريقتها المبالغة التى تكرهها "آريا". تريد أن تكون أم الطفلة الجميلة.. أنا أم الطفلة.

لم تحب "آريا" طريقة وقوف رويال إلى جوار المربية الأيرلندية، ولا مسح المربية الأيرلندية على شعره الناعم، ولا نظرها إلى عينيه الزرقاوين،

ولا معانقته كثيرًا ولا ثرثرتها معه، فيما بدا لها كلام أطفال لا معنى له. تساءلت "آريا" إن كانا يخططان ويضحكان معاً، ويحتفظان بأسرار لا تعرفها .

كان "شاندلر" كبيرًا على "بريدجيت" بحيث لم تهتم به، ولم يكن فى البيت إطلاقاً لحسن الحظ!

كانت "آريا" تحب رفع السماعة عن الهاتف، تشعر حينها بأنها محمية.. وفى أمان الهواتف التى ترن تصيبها بالتوتر، أحيانًا تسير بسرعة مبتعدة لتتفادى هاتفًا يرن، وتصفق بيديها على أذنيها. لنفرض أنه "ديرك"، أو "مادلين" موظفة الاستقبال ذات الصوت المخملى التى تحتقرها، ماذا ستعنى المكالمة سوى أن "ديرك" سيتأخر عن العشاء ثانية، أو أنه لن يحضر العشاء، ولماذا تسعى "آريا" لسماع هذه الأخبار المؤلمة؟ الأفضل ألا تعرف، الأفضل أن تنتظر ماذا سيحدث، تبعد السماعة عن الهاتف وتدع الحرارة تختفى كما تفعل، فى نهاية الأمر. وإن كانت أحياناً تتدخل مدبرة المنزل أو "بريدجيت"، التى لا علاقة لها بلعب دور الخادمة، رن الجرس من هدوئه البيت ثم سمعت الصيحة.. "سيدة برنابى؟ تليفون يا سيدتى".

لكن أين "سيدتى"؟ بالطابق العلوى فى دورة مياهها والصنبوران مفتوحان، وهى تهمهم بصوت مرتفع.

كانت دروس بيانو "آريا" تتأخر إذا لم يكن لديها تلاميذ بعد الدرس، ويستمر الدرس حتى السادسة والربع، وبدا الاضطراب على "لويز"، بدا غياب الثقة، كان أداؤها ضعيفًا للغاية فى معزوفة موتسارت التى تتدرب عليها منذ أسابيع، وكان عليها أن تعزفها لها مرة أخرى، يا لها من قطعة ساحرة، مشمسة.. تلمع من السطح، لا أعماق لها ولا تستدعى التأمل. "والآن حاولى مجددًا يا لويز، أعرف أنك قادرة على عزفها". لكن "لويز" بدأت وضربت الوتر الخطأ وهزت رأسها قائلة: "أ.. أعتقد أن الأفضل أن أغادر يا سيدة "برنابى" نهضت الفتاة بحركة خرقاء عن مقعد البيانو. "آريا" لا تفهم. "لويز"، بوجهها الذى يعتريه الخزى، قالت: "هذا آخر درس بيانو لى معك على ما أعتقد.. آسفة".

أحست "آريا" بدهشة بالغة، ولم تعرف كيف ترد.. "لويز"، ما الأمر؟ درسك الأخير..؟"

ـ "تقول أ.. أمى.."

ـ "أمك..؟"

ـ "قال لها أبى هذا على ما أعتقد.. لا مزيد من دروس البيانو بعد اليوم".

اعترت وجه الفتاة حمرة قوية ولم تستطع أن تواجه عينى "آريا".. هربت.

رافقتها "آريا" إلى الباب الأمامى ثم أغلقته خلفها فى هدوء، وقفت فى الردهة لعدة دقائق وهى تشعر بذهول وكأنها ضربت على رأسها، لماذا.. "لويز إيجيرز" أحد أفضل تلاميذها، أسرة "إيجيرز" تقيم فى الجانب المواجه من الشارع فى بيت كولونيالى قديم وجميل، كان آل "برنابى" ضيوفًا فيه لعدة مرات على مدى السنوات الماضية، وكانت "آريا" تتخذ هيئتها المتحفظة فى مواجهة السيدة "إيجيرز" الاجتماعية، لكنها دائمًا تفترض أن السيدة "إيجيرز" تحبها.. السيد "إيجيرز"، مدير محطة توليد الكهرباء من الشلالات، كان أحد أصدقاء "ديرك" فى العمل.

أو بدا كذلك.

ـ "اللعنة".. أجفلت "آريا" من الألم.

لابد أن شخصًا ما أعاد السماعة إلى الهاتف، فقد رن ثانية.

دعتها المتطفلة حسنة النية من مقاطعة جالواى إلى الهاتف بقولها "سيدتى" بلهجتها الأيرلندية الخفيفة المنغمة. رفعت "آريا" السماعة من حجرة مكتب ديرك وهى تشعر بالخدر "أجل".. لم تكن لديها القدرة على فرض سؤال تقليدى .

لكنها كانت صدمة.. شقيقة زوج "آريا": "كلاريس".

كلاريس! الكبيرة بين ابنتى "برنابى"، والتى تخيف آريا أكثر من الأخرى، بطابعها تبرق عيناها كجوان كراوفورد، شعرها مجعد متماسك مثل قطع السجق الصغيرة، ولديها عادة زم شفتيها فى وجه "آريا" حتى وهى تبتسم لها متظاهرة بالحنان. كانت كلاريس فى أوائل الخمسينات من عمرها، امرأة متبلدة الإحساس، وفيها بعض من إحساس كلاودين برنابى بالأهمية وتوبيخ البشر. "آريا؟ هل تسمعيننى؟"

ـ "أجل".

كان رد "آريا" ضعيفًا، يكاد يكون غير مسموع، وكانت تحاول حشد طاقتها لتتكلم بتلك الطريقة ـ لكن أى طريقة تلك؟ ـ وكأن العالم الفخم الأنيق يبدو طبيعياً.

يا ربى.. بسرعة انتشرت أفكار "آريا" فى كل الأرجاء، تمت دعوتها هى و"ديرك" لجلب الأطفال إلى بيت "كلاريس" فى إيل جراند ثم تجاهلا الذهاب.. ثانية .. لخزى "آريا" حدث هذا فى يوم أحد عيد الفصح من هذا العام، وقبلت "آريا" اللوم، فقد نست أن تكتب ملحوظة على ذلك اليوم فى التقويم فى مرتين أو ثلاث مرات فى العام تبذل شقيقتا "ديرك" جهوداً خيرية لكى تظهرا كصديقتين، ويدعوا شقيقهما وأسرته الصغيرة إلى بيتهما فى مناسبة من مناسبات "العطلات الرسمية" وكانت "آريا" تخشى هذه المناسبات وأحياناً تتذرع بالصداع أو بدرس بيانو تغير موعده، فلا تحضر. وكانت "كلاودين برنابى" التى بلغت السبعينات من عمرها منعزلة فى عناد حتى ذاع عنها أنها أصبحت مهووسة بالدين، ولا تزور بيوت أبنائها وإن كانوا يتكلمون عنها كثيرًا ويخشون عليها لأقصى حد، لدرجة أن "آريا" كانت تريد أن تصفق بيديها على أذنيها وتهرع إلى خارج الحجرة.

لماذا يعتبر هذا السلوك "غريبًا"، الاختباء فى بيتك إذا أردت الاختباء؟ إذا كانت لديك الأموال الكافية.. خاصة إذا كنت تعيشين فى بيت كبير مثل شالوت يطل على نهر نياجرا.

فى تهذيب سألت "كلاريس" "آريا" عن حالها، وعن حال الأطفال، وكحالها دومًا خلطت "كلاريس" بين أسماء الأطفال، لكن "آريا" لم تزعج نفسها أبدًا بالتصحيح لها، وقالت لها سريعًا إنها بخير، الجميع بخير، وإن كانت فى إحساسها بالإحراج فى هذا الموقف لم يكن لدى "آريا" أدنى فكرة عما تنطق به: إذا كان "شاندلر" مفقودًا وغائبًا عن البيت منذ أيام، وإن كان "رويال" يشعل أعواد الثقاب فى القبو ليشعل البيت، وإن كانت "بريدجيت" قد هربت مع الطفلة "جولييت" الجميلة، كانت "آريا" لتجيب فى أى من هذه المواقف، فى هذه اللحظة: "كل شىء بخير!" لكنها لم تكن لديها القوة الكافية لسؤال "كلاريس" عن أحوال أسرتها.

قالت "كلاريس" فى صوت كالخرسانة المصبوبة: "سبب اتصالى يا آريا هو سؤالك إن كنت سمعت الشائعات القبيحة التى سمعتها" صمتت للحظة لتضيف التأثير الدرامى وضغطت "آريا" الهاتف على أذنها بقوة، وكأن الشائعات داخل السماعة والمفترض أن تسمعها هكذا؟

مضت "كلاريس" بتجهم فى الكلام: "عن أخى "ديرك"".

فى يأس قالت "آريا" مداعبة: "آه.. أخوك "ديرك"! وليس زوجى ديرك.. كم يبعث هذا على الراحة".

- عزيزتى "آريا".. أتمنى أن تعتبرى هذا الأمر مضحكًا.

ضحكت "آريا" وقالت: "كلاريس"، أرجو أن أجده كذلك، فقد مررت بثلاثة دروس بيانو اليوم وأريد الضحك على أى شىء".

لكنك لن تضحكى على هذا: "ديرك" متورط مع امرأة أخرى".

متورط! يا له من تعبير عجيب.

- "آريا"؟ هل تسمعيننى؟ الناس يقولون إن "ديرك" يقابل امرأة أخرى".

ابتسمت "آريا" وسط رقعة من الضباب ملأت الحجرة دون أن تعرف كيف.. سرت حول الأشياء لتغيم عنها أشكالها.. تذوقت طعم الضباب المبتل البارد لدى سفح الشلالات.

ـ "يا إلهى.. "ديرك "يقابل" نساء كثيرات طوال الوقت يا "كلاريس". لا يمكنه الامتناع عن هذا، أليس كذلك؟ بعينيه هاتين؟" ضحكت "آريا"، أصدرت صوتاً كدجاجة تذبح.. "لماذا تعتبرين هذا غير.. غير.. غير طبيعى؟"

ـ "آريا". هل أنت جالسة؟ اجلسى".

هزت "آريا" رأسها فى عناد. لن تجلس! مثل "رويال" الذى يخالف الأوامر كقاعدة، على الأقل لديها كبرياء مثل كبرياء ابنها ذات الثلاث سنوات، كانت واقفة لدى مكتب "ديرك" مائلة فى وهن عليه، لم يكن لديها ما يكفى من أعصاب لتجذب مقعد "ديرك" الثقيل وتجلس عليه. ما دخلت مكتب "ديرك". المفترض أنه خارج نطاق تنقل الأطفال.. و"آريا" لا تهمها السجلات المالية فى شىء، ولا الشيكات الملغية والإيصالات ونماذج الضرائب.. كل سجلات "ديرك" الشخصية فى هذه الحجرة، مما يعنى أنها سجلات الأسرة أيضًا، لكن آريا تنأى بنفسها عن مثل هذه الوثائق الرسمية. فمنذ زواجها لم تدفع فاتورة واحدة، ولا فتحت خطابات فيها فواتير، ولا أى شىء من مكتب مقاطعة نياجرا، ولا ولاية نيويورك، ولا الحكومة الفيدرالية الأمريكية.. كل هذه الأشياء تبتعد عنها مرتعدة، وهى تعرف أن زوجها القادر حسن النية سيتعامل مع كل أشكال الرعب هذه.

كانت فتحتا أنفها الحساستان ترتجفان فى هذه الحجرة، كانت تشعر فيها برائحة خفيفة مواسية من سيجار "ديرك" الذى يدخنه بين الحين والآخر.. رائحة كريم شعره، و"الكولونيا". زجاجة من العطر الفرنسى للرجال أعطته إياها "آريا". إنه يحبنى. يعرف أن هذا سيدمرنى.

سمعت "آريا بريدجيت" وهى تصعد "بجولييت" الطابق العلوى إلى الحضانة، وهى تداعبها بأصواتها الأيرلندية الريفية، وقت تغيير الحفاضة! راود "آريا" إحساس رهيب بالخسارة. الحفاضات، بول الأطفال وبراز الأطفال! إنها تخسر طفولة ابنتها. على السلم هرع "رويال" خلف

بريدجيت وهو يثرثر ويرفع أقدامه كالجندى فى مشيته العسكرية. أحست آريا بضرورة الوجود معهم، قالت متلعثمة: "كـ.. كلاريس؟ يجب أن أقفل الخط، أطفالى ينادوننى".

قالت "كلاريس" بشراسة: "لا.. لن تجرئى على إغلاق الخط يا "آريا"! لقد أخفيت رأسك فى الرمال بما فيه الكفاية، هذه الشائعات القبيحة لا تعنيك وحدك، بل تعنى كل عائلة برنابى أيضًا. جميعنا، أمى المسكينة مريضة وسوف تتحطم إذا سمعت بما يفعله ابنها الوحيد، ابنها المفضل، وعلنًا. يكفى أن "ديرك" متورط مع امرأة من الطبقة الدنيا، امرأة متزوجة ولها أطفال، ورفع قضايا فى المحكمة بالنيابة عنها، خسر قدرته على الحكم القانونى والأخلاقى، ويبدو أنه فقد عقله أيضًا، وأنت، أنت زوجته التى تخيلتها دائمًا ماهرة ومتحضرة وذكية وتفوقنا جميعاً، لم تلاحظى؟ هل أنت عمياء يا "آريا؟".

بدأ الضباب ينتشر.. حكت "آريا" عينيها. ربما اعتراها العمى صوت يزأر فى أذنيها أيضًا، مثل مياه تسقط صاخبة على بعد.

على الجدار فوق مكتب "ديرك" كانت هناك لوحات لجده الجرىء "ريجنولد برنابى" العظيم. شاب جذاب رفيع رشيق يشبه الغجر برأس حليق وشارب عريض وعينين داكنتين صغيرتين تلمعان كالبلى، أحست "آريا: بوجوده الطاغى. أنت أيضاً على حبلك! أنت، فى حلمك بأنك سالم آمن تمشى على الأرض الواسعة.

كل هذه السنوات و"آريا" تغيظ نفسها و"ديرك" بخيالاتها المضحكة عن أنه سيهجرها، لكن الآن..

كانت "كلاريس" تقول: "سلى زوجك عن "نينا" حين يحضر إلى البيت. "نينا أولشاكر"، إذا جاء إلى البيت، سليه لماذا ينتحر مهنيًا من أجل عينيها، فقد رفع قضية ضد مدينة نياجرا والهيئة التعليمية وشركة سوان كيميكال، ولا أعرف على من أيضًا! أصدقاؤه أنفسهم على ما أحسب! رجال كانوا

رفاقه فى المدرسة! آباء أصحابنا! بعضهم من أقوى الرجال فى نياجرا وبافالو وأوسعهم نفوذًا! وكل هذا من أجل امرأة ليست جميلة، حسبما يقولون، زوجها عامل فى مصنع وشيوعى مهيج للثورات ولديهما ابنان، كلاهما متخلف عقليًا، لكن الآن انفصل السيد والسيدة "أولشاكر"، ودبر "ديرك" لها سكنًا فى ماونت لوكاس حيث تعيش على نفقته، وأنت يا "آريا"، زوجته، لا تعرفين شيئًا عن هذا؟ تختبئين بعزفك على البيانو! عشيقة زوجك لها جدة من الهنود الحمر، من قبيلة التوسكارورواس، كما يقولون، والأسوأ أنها كاثوليكية".

همست "آريا" كأنها حيوان يتعذب: "لا أصدقك! اتركينى لشأنى" أغلقت الخط فى وجه شقيقة زوجها لتتخلص من صوتها المشئوم.

على الجدار ابتسم لها "ريجنولد برنابى" العظيم وغمز بعينه.

ـ ليس هذا حقيقيًا. ليس "ديرك".

شرعت آريا فى البحث فى مكتب "ديرك".. عمياء لا ترى. كانت تبحث عن.. عن ماذا؟ عن أسرار زوجها، كان المكتب قطعة أثاث قديمة أنيقة، منقوش من خشب الماهوجنى وثقيل للغاية حتى أنه ترك علامات ثقيلة غائرة فى البساط.. وجاء إلى "ديرك"، ليس من أبيه فرجيل برنابى، بل من المتبرع الكريم الثرى لأبيه أنجوس ماكينا. كانت "آريا" تعرف القليل عن هؤلاء الموتى، ولا تريد معرفة المزيد. تزوجت "ديرك" وليست أسرته.. وكانت تكره أسرته! مكتب ممتلئ بالأسرار.. أسرار ذكورية.. أدراج كثيرة.. المكتب به علب سيجار ملفوفة بالسيلوفان، معظمها ماركة سويت كوروناس، لفافات من الشيكات الملغية والإيصالات والفواتير الملفوفة بأربطة مطاطية، بيانات من البنوك ونماذج ضرائب وخطابات عمل وبوليصات تأمين (لا خطابات شخصية.. هذا مثير للريبة) وهى تهمس لنفسها كأنها كلب ركله الناس، فتحت "آريا" الأدراج، وبحثت فيها محمومة. لست أنا هذه الإنسانة. ليست هذه "آريا". ضباب الشلالات ولج إلى الحجرة بدا شريرًا

كلسان شرير ممتد من الشلالات إليها.. آريا تواجه صعوبة فى الرؤية. تفحصت دفتر شيكات "ديرك" لاهثة تبحث عن دليل؟ دليل على خيانة الزوج؟ نسيت اسم المرأة. لكن لا يمكن أن تكون هناك أية امرأة.

بخط يده المنقوش الدقيق دون "ديرك" أنه كتب شيكات بخمسمائة دولار لمن تدعى "ن. أولشاكر" فى أغسطس وسبتمبر وأكتوبر ونوفمبر ١٩٦١ وهو آخر الشيكات. راحت "آريا" تلهث مبهورة: "ن. أولشاكر. إذا كانت موكلته، فلماذا يدفع لها هو؟"

يدفع لها مقابل ماذا؟ خدمات تقدمها؟

وهناك ملحوظات أخرى غامضة مثيرة للريبة، مدفوعات شهرية بقيمة ٣٦٥ دولارًا لشركة إدارة عقارات "برنابى". لماذا يكتب "ديرك" شيكًا لشركة عائلته؟ ما الذى يمكن استخلاصه من هذا؟ "سكن فى ماونت لوكاس، حيث وضع عشيقته.. يا ربى!".

أحست "آريا" بحركة خلفها فالتفتت شاعرة بالذنب ورأت فى مدخل باب حجرة المكتب ولد بوجه عظمى عمره غير واضح من مظهره وتعبير وجهه لا يوحى بأنه طفل بالمرة، لكنه صغير على أن يكون مراهقاً بجلده الشاحب وعينيه القلقتين اللتين تلمعان كقشور الأسماك من خلف نظارته الرفيعة (هذه النظارة اللعينة! عمرها عدة أسابيع وآريا كلما تراها تشعر برغبة عارمة فى خلعها عن أنف الصبى وكسرها كان قميص الولد مكرمشًا وأزراره مربوطة بالخطأ وثمة بقع على كل من ركبتى سرواله المدرسى، وإن كانت هذه الملابس مغسولة ومكوية حين ارتداها فى الصباح، وللحظة أحست فيها "آريا" بالذعر لم تتذكر اسم الصبى.

إنه ابنى، كفارتى عن ذنوبى.

سألها الصبى فى قلق إن كان ثمة ما يسوء؟

الصوت المتحشرج.

تمكنت "آريا" من التعافى إلى حد ما وقالت: "شاندلر"، بحق الرب، لقد أخفتنى كثيرًا، لماذا تتسلل من خلفى هكذا كـ.. كسلحفاة!" ضمت يدها إلى أحدهما الأخرى لتمنعهما من الارتجاف، كان وجهه شاحبًا شحوب الموت، ونمشها ظاهرًا كأنه علامات تعجب. لكن "آريا" خاطبت "شاندلر" بصوتها المؤنب، وكأن الطفل لن يشعر بالارتياح إلا حين يسمع منها هذه اللهجة.

قال "شاندلر" بتردد: "سمعتك تبكين يا أمى. سمعتك.. تصرخين".

قالت "آريا" فى حرارة: "لم تسمعنى أصرخ يا "شاندلر". لا تكن سخيفاً، لم أكن أنا".

-٢-

ثم إننى نزلت إلى العالم السفلى، حيث لا أرى ولا أتنفس، أختنق فى السخام الأسود.. فى الخزى.

هذه الأسابيع والشهور.. أيام مرهقة وإن كانت مبهجة، تبدأ "بديرك برنابى" يفيق من نومه فى الصباح الباكر، وتنتهى فى ساعات الصباح الأولى.. يتجاهل الآخرين، موكليه الذين يدفعون أتعاباً، لأجل قضية قناة الحب.

حقاً "ديرك برنابى" يرفع القضايا فى محكمة مقاطعة نياجرا، لخدمة موكليه شن الحرب على مدينة شلالات نياجرا، وعلى هيئة الصحة بشلالات نياجرا، وعلى هيئة التعليم بشلالات نياجرا، وعلى شركة سوان كيميكال، وعلى مكتب عمدة شلالات نياجرا، وعلى مكتب الفحص الطبى بشلالات نياجرا. أبدًا لم يكتب مثل هذا النثر الأنيق القوى، لكن الأغلب أنه كان يستكشف، فى سيارته وعلى قدميه، يهبط إلى العالم السفلى.

سيشعر فى بعض الأحيان مثلما شعر المستكشفون الأوائل المقبورون، الذين خاضوا بقواربهم الصغيرة على امتداد النهر الواسع الواصل بين البحيرتين الكبيرتين، دون أن يدركوا أنهم تأخروا كثيرًا. وأن التيار يتسارع بقوة، وأنهم ولجوا إلى نقطة اللارجعة.. المياه السريعة المتلاحقة فوق

جزيرة جوت، فى البداية تظن أن بيدك تدفع القارب بهذه السرعة، ثم إنك تدرك أن السرعة والدفع لا علاقة لهما بك، إنه شىء يحدث لك.. فيك.

كان "ديرك" يفيق نفسه من هذه النوبات التى يسقط فيها، عادة فى قاعة سجلات المقاطعة، أو فى سيارته الفاخرة الكبيرة كالقارب وهو يعبر إلى منطقة لا يعرفها.

العبور إلى منطقة أخرى، المدينة الصناعية فى شلالات نياجرا، كم تختلف عن مدينة السائحين البراقة على نهر نياجرا، المدينة الجميلة على أطراف شلالات نياجرا عجيبة من عجائب العالم عاصمة شهر العسل فى العالم.. شارع بروسبكت بفنادقه القديمة العظيمة من العصر القديم، بدءوا فى استبدالها بفنادق حديثة مع بداية الستينيات، فنادق و"أوتيلات" وحديقة بروسبكت والحدائق، والضباب المتصاعد دائمًا وزئير الشلالات، ديرك لم يتمكن من رؤية مدينة ثانية، المنطقة الواقعة فى العالم السفلى، الممتدة لأميال إلى الشرق، والتى لا علاقة لها بالمرة بالبيوت الواقعة على النهر، كانت توأمًا، توأمًا مشوهًا. هناك الشلالات، وهناك مدينة شلالات نياجرا، المدينة جميلة فيها رهبة الجمال، والأخرى، ليست أكثر من امتداد من القبح صنعته أيدى البشر.

سم من أيدى البشر، موت من أيدى البشر.

- "حين يكون عمدًا فهو قتل، هذا يتجاوز الإهمال، هذه لا مبالاة تجاه الحياة البشرية".

الصلة الوحيدة بين الشلالات والمدينة الصناعية هى الطاقة الهائلة المولدة عن الشلالات لتشغيل صناعات معينة فى منطقة شلالات نياجرا، لكن عليك أن تعرف بوجود الصلة، والأعمال بحجم ملايين الدولارات: نياجرا هيدرو لتوليد الطاقة، وللعين غير الخبيرة فالصلات خفية. للعين غير العارفة فالكثير خفى.

- "ليس لديهم ضمير.. قومى".

قومى "ديرك برنابى" سيكتشف الكثير مع كل خطوة.

فيما تعرضت "نينا أولشاكر" للرفض الوقح والإبعاد والكذب فى مطالباتها، تلقى "ديرك برنابى" معاملة أفضل، كان محاميًا مرخصًا له بالعمل فى ولاية نيويورك، وكان يعرف حقوق المواطنين والمحامين، طالب بالاطلاع على سجلات الولاية، ووثائق الملكية، طالب برؤية سجلات الصحة الخاصة بالمقاطعة، وجلسات اجتماعات هيئة المساحة بمقاطعة نياجرا، كان يحفظ طريقه فى ردهات مبانى المدينة والمقاطعة، ومحكمة مقاطعة نياجرا، ومكتب محامى مقاطعة نياجرا. وسأل أسئلة كثيرة وأصر على الحصول على إجابات. ولم يهدد فقط بمثول الشهود أمام المحكمة، بل فعل هذا. لم يكن ممن يقبلون "الهراء" من المرءوسين، ومنهم العاملون لدى العمدة وين، ومنهم رفاق ديرك برنابى من المحامين الذين يعملون لدى الحكومة المحلية والمسئولين التنفيذيين ومجلس إدارة شركة سوان كيميكال.

كان كبير محامى سوان كيميكال رجلاً يدعى "براندون سكينر"، وكان "ديرك" يعرفه معرفة بسيطة، وكذلك كان "سكينر" يعرف "ديرك برنابى". وبينهما كان ثمة احترام متبادل إن لم يكن دفئًا. كان "سكينر" أكبر من "برنابى" بعشرة أو اثنى عشر عامًا، وهو رجل ثرى لديه بيت على النهر على مسافة قريبة من شالوت.

على الأقل لم نتظاهر يومًا بأننا أصدقاء. لا يوجد هذا المظهر الذى يجب الحفاظ عليه".

كان "ديرك" يشعر بالتفاؤل، بالأمل، كان يعرف الأعراض.. الحماس السابق على معركة عادلة جيدة.

بالطبع كان يعرف أن "سكينر" والمحامين الآخرين على جانب الدفاع سيؤجلون ويؤجلون كان يعرف الحيل، وكان يستخدمها أحياناً.. حيل أصيلة عريقة فى مهنة المحاماة، مثل الأدوات الجراحية فى يد الجراح، لكن الدفاع لا يمكنه خداعه، ولا يمكن للخداع كسر العمود الفقرى للدعاوى

القضائية بجعلها مكلفة تكاليف قانونية مرهقة، لأن "ديرك برنابى" يعمل بلا مقابل أو أجر.

المرجح، كما بدأ يرى، أن الأمر سينتهى به بدفع النفقات من جيبه.

- "وما الأهمية، إننى ثرى".

إلى العالم السفلى.. حيث سأغرق.

ثم جاءت الساعة التى عرف فيها أن اسم "أنجوس ماكينا" على صلة قريبة باسم "هيرام إس. سوان". أنجوس، المتبرع "لفرجيل برنابى"! الرجل العجوز الطيب المحيا الذى كان بمثابة جد "لديرك" منذ فترة طويلة.

ثم جاءت الساعة التى اكتشف فيها "ديرك" أن شركة معامل ماكينا، وهى شركة كان فرجيل "برنابى" شريكًا فيها، قد تحولت فى عام ١٩٣٩ إلى شركة ماكينا سوان كيميكال، وفى ١٩٤١ اشترى "سوان" نصيب ماكينا فيها وتحولت الشركة إلى سوان كيميكال. وسوف تصبح فى سنوات الازدهار الاقتصادى التى جاءت مع التحضير للحرب، إحدى أكبر الشركات فى شمالى نيويورك.

- لماذا لم أعرف بهذا قط؟ أبى..

لكن والد "ديرك" نادرًا ما تكلم عن هذه الأمور إلى "ديرك". فى السنوات الأخيرة من حياته بدا أنه فقد الاهتمام بالكامل فى العمل والحياة العامة، أو أنها كانت تضايقه وتنفره منها، حياته كانت عبارة عن ركوب القوارب والصيد ولعب الجولف، حياته كانت الشرب، بطريقة مهذبة تخفى - كما افترض "ديرك"، فى الوقت الذى لم يكن يعرف فيه أى شىء - حزنًا عميقًا، حياة أبوى "ديرك" كانت منفصلة للغاية فى أواسط العمر. "كلاودين" اجتماعية للغاية، أما "فرجيل" فكان ينسحب من الحياة العامة بعناد. تذكر "ديرك" رحلات الإبحار مع والده حين كانا معاً وحدهما، وكيف كانا يتواصلان بلا كلام وكأن النهر برياحه القوية متقلب الأمواج قد وحد

شخصيتهما، وفى أوقات أخرى كان "فرجيل برنابى" يبتسم ابتسامة بعيدة.. رجل عاش حياة رجل آخر.

بعدها بسنوات تساءل "ديرك" إن كان والده، وهو عضو فى نادى إيل جراند الريفى، ومتزوج من امرأة لديها ميراث كبير، قد شعر بالخزى من "ريجنولد برنابى" العظيم، من هذا الرجل الجرىء كبير الشارب الذى مات فى الشلالات، بحثاً عن المجد وحفنة دولارات أو ربما كان فرجيل يشعر بالفخر سرًا، أحس "ديرك" بالخسارة لأن والده لم يخبره أبدًا بأى شىء عن حياته العاطفية.

فى صباه كان "ديرك" يعرف بالكاد أن والده على علاقة بأنجوس ماكينا وابنيه لويد وأليستر، أحد نجاحاتهم كان تصنيع المبيدات الحشرية ومواد معالجة الآفات الزراعية، وكانت معامل ماكينا يملكها عدة شركاء ظلوا شركاء فيها حتى وقت بيع الشركة، ومنذ ذلك الحين يتلقى ورثة "فرجيل" أنصبتهم من أرباح الأسهم، وكانت أرباح كثيرة. وقبل شراء سوان لماكينا وشركاه بعامين استحوذت الشركة على قناة بطول سبعة أميال معروفة محليًا باسم قناة الحب، لاستخدامها فى التخلص من النفايات، ولم تعمل القناة الغامضة أبدًا كمجرى مائى، وقد بدأ بناؤها عام ١٨٩٢ كمشروع لرجل أعمال محلى باسم ويليام تى. لوف، وكانت خطة طموح لربط شلالات نياجرا العليا والسفلى. لكن "لوف" أفلس وهجرت القناة ولم يتم حفر إلا جزء منها، وكان موقعها فى أرض لا يملكها أحد فى الطرف الشرقى عندما كان فى ذلك الحين مدينة يشغلها عشرون ألف نسمة؛ حيث كان التطور الصناعى فى خطواته الأولى، وكما هو الحال فى المدينة الأكبر المطلة على ميناء البحيرة، بافالو، وفى الضواحى الصناعية فى شمال توناواندا، كان من المقدر أن يبدأ ازدهار فى الاقتصاد المحلى مع بدء الحرب عام ١٩٤١ .عربات عسكرية وطائرات وذخيرة وبضائع معلبة وأحذية وقفازات وأزياء عسكرية بل حتى أعلام! وكيماويات من كل الأنواع، كانت الحرب أفضل ما حدث لشلالات نياجرا، بل كانت أفضل من السياحة فى خمسينيات القرن التاسع عشر.

تذكر "ديرك" زمن الحماس ذلك، وهو فى سن الرابعة والعشرين هرع مع أصحابه ليدرج اسمه فى الجيش الأمريكى، ولم يخطر له أنه بالنسبة للأمريكيين الذين ظلوا فى الديار، ومنهم فرجيل برنابى ورفاقه فى العمل، الحرب شىء بالغ الروعة.

منذ عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٥٢ وقناة الحب، وهى قناة مفتوحة، كانت تستخدم كموقع للتخلص من نفايات البلدية ومن النفايات الكيماوية. ألقت فيها شركة سوان كيميكال أطنانًا من النفايات، وباعت مزايا التخلص من النفايات للمدينة لكى تلقى فيها القمامة، وفى الأربعينيات، ألقى فيها كيماويات حربية مشعة على صلة بمشروع مانهاتن للجيش الأمريكى وفى عام ١٩٥٣ كفت سوان كيميكال فجأة عن إلقاء النفايات، وغطت النفايات الخطيرة بالتراب وباعت الملك البالغ طوله سبعة أميال لهيئة شلالات نياجرا التعليمية مقابل دولار واحد.. دولار واحد!

ونص العقد على أن سوان كيميكال معفية من أية أضرار" ـ أذى بدنى أو وفاة" ـ كنتيجة للنفايات الخطيرة.

وقرأ ديرك وعاود القراءة فى ذهول.

كيف حدث هذا؟ كيف تم السماح لهذا بالحدوث؟ فى عام ١٩٥٣؟ بعد ثمانية أعوام من قنبلتى هيروشيما وناجازاكى، حين أصبحت آثار المواد المشعة والتسمم بالإشعاعات أمرًا معروفًا.

كانت شركة سوان كيميكال هى الطرف الذى تسبب فى أكبر قدر من التلوث، لكن إلقاء النفايات بدأ فى عصر كانت فيه باسم ماكينا ، سوان. المبيدات الحشرية ومواد التخلص من الآفات الزراعية وسموم. كيماويات عرف "ديرك" أن أنصبة الأسهم التى تتلقاها عائلته يمكن أن تتبع أصولها إلى هذه الأصول. تلك الأصول المالية التى أعلن أنه لا يهتم بها، لكنه رآها على أنها من الأمور المسلم بها مثل كل أفراد عائلة "برنابى".

أحس "ديرك" بالتقزز، بالعار. إنه متورط فى هذه القضية .

طوال حياته وهو متورط، دون أن يعرف. (لكن كم كان جاهلاً؟)

بصوتها الخافت تكلمت "آريا" عن آل "برنابى" الأثرياء" ولم يكن من الواضح "لديرك" إن كانت تغيظه أم تؤنبه، إذا كانت تعليقاتها على سبيل الدعابة، أو إن كانت قاسية. بالطبع لديها إحساس بالتفوق الأخلاقى، لا عجب إذًا أن "كلاريس وسيلفيا" لا يحبان زوجة أخيهما، ولا يجد "ديرك" حرجًا عليهما فى ذلك. لكن احتقار آريا للنقود كان نتيجة زواجها "بديرك برنابى"، الذى وفر لها ولأطفالهما حياة مريحة. أين التفوق الأخلاقى فى هذا إذًا؟

كانت "نينا أولشاكر" هى التى يخشى منها، اكتشاف أنه هو ـ "ديرك برنابى" ـ على صلة بأى شكل من الأشكال بقناة الحب. لكن لا لوم عليه فى هذا. لكن كم يبعد عنه اللوم؟

بعد بيع قناة النفايات الخطيرة لهيئة شلالات نياجرا التعليمية بدولار واحد، بدأت الهيئة على الفور فى بيع أغلب أجزاء الأرض لرجل أعمال محلى يدعى كولفن، وبدأت فى بناء مدرسة ابتدائية عليها، ومع افتتاح مدرسة شارع ٩٩ فى خريف عام ١٩٥٥، كانت معظم أجزاء كولفن هايتس قد تم بناؤها ومعظم البيوت الخشبية ذات الطابق الواحد قد تم بيعها، افترض "ديرك" أن إدارة وهيئة المدرسة لا تعرفان شيئاً عن موقع المدرسة الذى تم بناؤها عليه.. حقيقة أنهم يعملون على قبو نفايات سامة، لا يمكن أن يكون ناظر المدرسة على علم بهذا، لابد أن الهيئة التعليمية قد أبقت أمر الصفقة مع "هيرام إس. سوان" وشركاه سرًا. أما كولفن المقاول، فلابد أنه حافظ على السر أيضا، بالطبع كان يعرف.

وطبقًا لسجلات الصحة بالمقاطعة، فسكان كولفن هايتس بدءوا فى الشكوى على الفور من روائح مثيرة للغثيان، ومن "سائل غليظ أسود" يتسرب من الأقبية، ومماشى عشبية إسفنجية وأطفال وحيوانات أليفة مصابة "بحروق"، و"براميل طافية" أمام بيوتهم ففيها نوع من القطران كريه

الرائحة، ورتب كولفن تنظيف معظم المناطق المصابة أسوأ من غيرها، كما فعل مجلس مدينة شلالات نياجرا، وتم تحديد منطقة على شكل هلال مجاورة لشركة سوان كيميكال وإلى ميلين شرقيها، على ألا يحظر بناء بيوت سكنية فيها وتبقى دون تطوير سكنى. (برغم إحاطتها بسور إلا أن الأطفال كانوا يلعبون فيها، ثم بدأ استخدامها كمقلب للقمامة غير رسمى لأصحاب البيوت، الذين يرغبون فى التخلص من الحشايا القذرة والأغراض المنزلية المكسورة ومواد البناء القديمة وأشجار الكريسماس القابلة للاشتعال) وفى عام ١٩٥٧فحصت" لجنة طبية من المجلس الطبى المقاطعة، الموقع كان فى مدرسة شارع ٩٩ وأعلنت أن المنطقة "خالية من الأضرار الصحية". وتفحصوا السكان الذين تقدموا بشكاوى طبية ووجدوا أنه "ليس ثمة أساس" للانزعاج، وكان استنتاجهم بالإجماع لا توجد مشكلة فى كولفن هايتس، وإذا كانت ثمة مشكلة، فقد تم الاعتناء بها.

وتفحص "ديرك" سجلات الهيئة التعليمية لعام ١٩٥٢ وكان رئيس مجلس إدارة "سوان كيميكال" فى ذلك الحين هو رجل أعمال محلى وقد رحل الآن، كان اسمه إيلى. تذكر "ديرك" أن "إيلى"، أو شخصًا بهذا الاسم، كان شريكًا مع "هيرام سوان" وربما كان من معارف "ماكينا وآل ماكينا" وبالطبع من معارف "فرجيل برنابى".

ولهذا قبلت الهيئة التعليمية نص شركة "سوان" غير المسبوق على أن الشركة لا يشوبها لوم دائم، هؤلاء كانوا أصدقاء يناصرون أصدقاءهم. رجال ينتمون إلى نفس الأندية الخاصة، وتربطهم صلات ووشائج تجارية وربما صلات المصاهرة والدم، وربما كانت الأيدى تتناقل النقود، ربما كان "إيلى" مستثمرًا سريًا فى المنطقة السكنية التى تدعى "كولفن هايتس". ربما كان "إيلى" من ندماء "هيرام سوان" فى لعب البوكر، أو ربما يلاعب "ماكينا الجولف" وقد استضافه بيت شالوت، على الأرجح، العضوية فى الهيئة التعليمية كانت سياسيةِ فى بعض الأحيان، وهى تطوعية خيرية فى أحيان أخرى. لم تكن لها رواتب، ورئيسها رئيس فخرى.

كان "ديرك" جالسًا ويده بين يديه، رأسه الثقيل المثقل، لم تكن لديه أية فكرة واضحة عن مكانه، فى أى مبنى من مبانى مجلس المدينة دخل قبل ساعات، وهو جالس فى ردهة منعزلة وسط أرفف من الألمونيوم التى تعلوها الأتربة، كتلك التى فى المكتبة، أرفف لكن ليست عليها كتب بل مستندات، راح يدون ملحوظاته بلا كلل، حتى تحولت يده اليمنى إلى مخلب متقوس، لم يعد قادرًا على الإمساك بالقلم، وأنفه وفمه وحلقه تحترق وكأنه يتنفس دخان موقد. ماذا سيقول "لنينا أولشاكر"؟ إذ أنه لابد أن يخبر "نينا أولشاكر".. كم اشتاق إلى النهر! نهر صباه.. السماء فوق النهر، ورقع من الخرسانة المكسورة تمتد أمامه وهو يحدق والرياح تهب أمامه، نحو شمس خريفية شاحبة، لكنها كانت الشمس.. والرياح من نهر "أونتاريو" قادمة منعشة لتنظف أنفه، هو ووالده على متن قارب "لوكس ٢ بطول ٣٠ قدماً المملوك لفرجيل "برنابى". قارب رشيق أبيض ذو لمعة، وجميل فى عين "ديرك"، وإن كان وهو صبى كان يفضل قارب والده الشراعى. لكن "فرجيل" لم يرغب فى الخروج بالقارب الشراعى الكبير فى آخر سنوات حياته، فالإبحار بقارب شراعى يعد جهدًا على شخص فى حالته البدنية الضعيفة إصابة قلبية.. لم يعرف "ديرك" طبيعتها حتى. وكان وحدهما، يا له من شىء بديع باعث على الراحة أن يكونا وحدهما.. هذه رحلتهما الأطول، عبر بحيرة "إيرى" الواسعة وحتى بحيرة "هورون" وإلى "سولت سينت مارى" على مسافة مئات الأميال شمالى ميتشجان، عند الحدود الكندية. "فرجيل برنابى" و"ديرك برنابى".. الأب والابن.. ظلل ديرك على عينيه من الشمس وهو يراقب أباه عند طرف القارب وهو يحدق فى البحيرة يطل على الأفق الغائم. ثمة شىء فى وقفة الرجل العجوز، فى تهدل كتفيه وميل رأسه.. شىء ذهب بإحساس "ديرك" بالارتياح.. "أبى" ناداه "ديرك" وهو يكور يديه حول فمه.. "يا أبى" كان صوته صغيرًا فيه شىء من اليأس الكبير. لكن مع ضجيج محرك القارب ومع الرياح، لم يسمعه "فرجيل برنابى".

-٣-

ليس واقعاً فى حب "نينا أولشاكر". لكن.

بدافع غريزى ابتعدت "آريا" عن ملمسه، عن أنفاسه، عن عقله المثقل بالذنب، كمن تنسحب مبتعدة عن رائحة سامة. ثمة هالة خفية وإن كانت محسوسة مشعة.. لم يذكر "ديرك" "لآريا" شيئاً عن قناة الحب؛ لأنه يعرف أنها لا تريد معرفة شىء عن حياته الأعمق التى قررت الابتعاد عنها هى وأطفالهما، أصبحت أمًا تدافع عن أولادها بشراسة، غريزتها لا تنام، ساهرة.. ألم تلاحظه؟ لابد أنها لاحظت!.. أن ديرك يعمل لساعات أطول، وفى العادة يعمل فى العطلة الأسبوعية، أنه فقد الكثير من حماسته ومن شهيته.. وأنه أصبح يدخن أكثر وينام أقل، وأنه فى البيت يعزل نفسه فى مكتبه ويتكلم فى الهاتف بعدما تنام آريا والأطفال. والأكثر إثارة للدهشة أنه كف عن حضور لعب البوكر ليلاً، وهى العادة التى بدأها عام ١٩٣١ قبل هذا كانت ليلة البوكر قد أصبحت ليلة واحدة فى الشهر، لكن الآن يبدو أن "ديرك" كف عن لعب البوكر تمامًا. وكانت "آريا" مشغولة "بجولييت ورويال" حتى إنها نادرًا ما لاحظت وجود زوجها إلا عندما تقول هامسة وعلى وجهها ابتسامة ألم: "يشرفنا أنك عدت إلى لونا بارك لساعات قليلة يا سيد "برنابى" وكانت تمزح مع الأطفال فى حضور "ديرك" قائلة: "أتعرفون نكتة المحامى المهم وموكله؟ يتصل الموكل ويقول أهلاً كيف حالك فيرد المحامى قائلاً: خمسون دولارًا" وتضحك "آريا" من قلبها، مما يعنى أن على الطفلين الكبيرين الضحك، وهو ما يفعلانه، أما "جولييت" الرضيعة فتلوح بقبضتيها الصغيرتين البدينتين فى حماس. ضحك.. ضحك.. ويضحك "ديرك" بدوره.

مثل كل المحامين يحب نكات المحامين، وكلما ازداد عدم الإنصاف فيها تزداد طرافتها.

وفى بعض الليالى لابد أن "آريا" حادة البصر تلاحظ هالات الإجهاد تحت عينى "ديرك" المبتسمتين، ولابد أنها كانت تشم الويسكى فى أنفاسه،

لكنها أبداً لم تسأله أين كان، أو مع من أو إذا كان فى مكتبه طيلة تلك الساعات يعمل ويشرب وحيداً.

وبدا أن "آريا" لديها صديقات قليلات وليست لها صديقة مقربة واحدة، وهكذا لم تسمع أية شائعات.. أن ديرك برنابى يتجاهل أو يستبعد موكليه الذين يدفعون الأتعاب، وأن عدداً كبيراً منهم قد هجروه بإحساس بالاشمئزاز وأن كثيرين غيرهم على وشك الرحيل عنه، وأنه من يدفع الأتعاب الآن، نفقات قضية وحيدة صعبة تبين أنها بحاجة لتحضير أوسع مما توقع فى شهر يوليو.

لكن "آريا" كانت جاهلة بهذا، فى عالمها الضيق المحصور المريح.. عالم الأطفال والبيت ودروس البيانو.

وأحياناً فى الليل يتعانقان، وكانت "آريا" تتمسك كالقرد مداعبة ذراعى زوجها المسمرين، ويمضيان فى صمت راضيين ـ وهذا غريب ـ نحو أهداب النوم وكأنهما على شفا هوى رحيبة. هذا العناق عادة اكتسباها على مر السنوات. كانت "آريا" تمضى إلى النوم "وديرك" بأرقه القديم المزمن يحيطه وكأنه الأمواج، فيجد نفسه يفكر. فى المرأة ذات السواد.

من السخيف التفكير فى "نينا أولشاكر" من هذا المنظور، كم نعظم مما لا نعرفه، ونخشاه وكأنه كيان شيطانى.

كان "ديرك" يشعر بالخزى من تذكر كم اقترب من رفض "نينا"، كما فعل كل محام فى المدينة.

كم اقترب من فقدانها.

ـ "لن أفشل، لا يمكن".

تسمع "أريا"وهى نائمة بين ذراعى "ديرك" تسمع تلك الكلمات الهامسة وتتململ فى سرور طفولى.

ـ "ممم.. بيبى، أحبك أيضاً".

لأيام ظلت تتحاشى "آريا" الرد على الهاتف. رتبت البريد فى أكوام أنيقة على المائدة، لكن كثيرًا ما تفتح بريدها على ندرته (رسالة من أمها على سبيل المثال. المبجل "ليترل" توفى فجأة إثر أزمة قلبية هذا الخريف، والسيدة "ليترل" فى إحساسها بالعزلة وقلة النفع فى تروى، تلمح إلى كم أنها تود القدوم للحياة فى لونا بارك.. "للمساعدة فى العناية بالأطفال".. لكن "آريا" لم تشجعها) لم تشاهد نشرة الأخبار أبدًا أو تقرأ الصفحات الأولى من الصحف حيث الأخبار "المزعجة" سرعان ما تقلب الصفحات إلى صفحة المرأة والتسلية والكاريكاتير هى و"رويال وجولييت" يستمتعون بالكاريكاتير: "كاتزينجامر كيدز"، و"ليتل أبنر"، و"دونالد داك" هم المفضلون، إن كانت قرأت صفحات بعينها من الجازيت أو بافالو إيفينينج نيوز، كانت لتكتشف أعمدة ومقابلات بل ومقالات عن قضية ملاك بيوت "كولفن هايتس" المثيرة للجدل، وكانت ستجد اسم "ديرك برنابى" لكنها لم تفعل، وما كانت لتفعل. أحياناً وهى تقلب صفحات الصحيفة بسرعة، تغمض آريا عينيها وتجز على شفتها السفلى. لا، لا! الأخبار المحلية لم تعد تغريها، مثلها مثل أخبار زلزال المكسيك، وتحطم طائرة أمريكية فى خليج جامايكا، وحريق فى بافالو قتل ١١طفلاً، وغزو خفى لكوبا من قبل اللاجئين الأمريكيين الكوبيين المسلحين "خليج الخنازير" بعد سنوات ستسأل "آريا" عنه فى براءة.. "ألم يكن من الأفضل أن يطلقوا عليه اسم أفضل"؟) ثم هناك ذلك العصيان المسلح أو الحرب الأهلية أو الغزو، أيا يكن اسمه، فى أى البلدان؟ فى مكان ما فى آسيا، دولة بعيدة كالقمر.

لكن "شاندلر".. "شاندلر" الذى لا يتعب.. قارئ الصحف النهم، سرعان ما اكتشف اسم "برنابى" وسط المقالات فى الصحف "أبى.. أهذا أنت المذكور فى الصحيفة؟" صوت الطفل يغمره الإحساس بالإثارة.

حمل "ديرك" نفسه على القراءة.. "برنابى" لا تذكره الصحافة بالخير فى شلالات نياجرا هذه الأيام.

مُلاك عقارات كولفن هايتس يرفعون قضية

ضد المدينة وضد سوان كيميكال

التهمة: لامبالاة أفضت إلى جريمة

ـ أجل يا "شاندلر"، هذا أنا.

ـ قناة الحب هذه.. إنها ليست قناة حقيقية، أليس كذلك؟

ـ نعم، لم تكن حقيقية يوماً.

ـ نحو كم تبعد عنّا؟

ـ حوالى ١٢ميلاً.. من هنا، وأشار "ديرك" بإصبعه.

ـ "هل ١٢ ميلاً مسافة قريبة؟" قطب "شاندلر" جبينه فتجعد.. تكاد ترى فيه حاجته إلى المعرفة إلى ما يتجاوز ذكر الحقائق.. ما تعنيه الحقائق.

ـ أعتقد أنها قريبة للغاية. لكن لا، ليست قريبة على نحو فيه خطورة".

ابتسم "ديرك" ليطمئن "شاندلر". وإن لم تكن ابتسامته واثقة كابتسامة "برنابى" الواثقة منذ شهور.

قال "شاندلر" وهو يميل برأسه خجلاً إلى الأمام: "أبى.. هل يمكن أن أساعدك؟"

ـ تساعدنى؟ كيف؟

ـ لا أعرف. بطريقة مثل.. كأن أكون مساعد محام".

ضحك "ديرك".. "لا يا "شاندلر". إنك صغير على هذا، ولست مدربًا، لكن شكرًا على عرض المساعدة، أقدر لك هذا".

تأثر "ديرك" "شاندلر" ذات السنوات الإحدى عشرة صبى متجهم هزيل يتمتع بإحساس المسئولية الذى تجده فى الكبار البالغين.. عيناه قصيرتا النظر دوماً وسط هالة من الضباب وتركيزه غائم مشتت حتى بنظارته الجديدة. كان تلميذًا متفوقًا فى الصف الثامن (كذا قالت "آريا"

"لديرك") لكنه لا يتمتع بصحبة أصدقاء كثيرين، ولم يكن فى وضع مريح بالمدرسة. كانت ابتسامته سريعة وخجولة ومترددة، ودائماً ما يبدو عليه وكأنه يسأل أبويه هل تحبنى؟ هل تعرف من أنا؟ أما الطفلان الأصغر، "رويال وجولييت"، فكانا فى مركز اهتمام أمهما الوسواسة.. وتتجاهل "شاندلر" فى أغلب الأحيان، وأحس "ديرك" فى تلك اللحظة ـ وهو نادرًا ما يقضى معه وقتًا كهذا برغبة فى ملامسته وفى عناقه.. أراد أن يؤكد له نعم بالطبع بابا يحبك. كم كان يخشى التحول إلى أبيه..

وبصوت خفيض قال "شاندلر": "لا تقلق يا أبى.. لن أخبر أمى، ما أقرؤه فى الصحف عنك.. لن أخبر أمى أبدًا".

تم تحديد جلسة محكمة أولية عن قضية قناة الحب فى أواسط فبراير فى محكمة مقاطعة شلالات نياجرا، لكن تم التأجيل لعدة أسابيع بناء على طلب الدفاع، ثم تم تأجيل الموعد مرة أخرى إلى آخر إبريل. هيئة الصحة بمقاطعة شلالات نياجرا تريد تجديد ما لديها من أدلة لصالح الدفاع. وأعلن محامى الادعاء انزعاجه من هذا التأخير المفرط وإن أحس محامى الادعاء سرًا براحة واسعة، وكانت الدعوى التى كتبها "ديرك" هى الأطول والأكثر توثيقًا فى تاريخه المهنى كله، لكنها ـ وقد أقر لنفسه بهذا ـ كان يمكن أن تكون أطول وأكثر توثيقاً.

ـ "ياه! سيد "برنابى"! لماذا الناس أشرار هكذا؟"

كم بدت "نينا أولشاكر" شابة يانعة.. وهى تمسح دموع الحزن والغضب من عينيها، كان سؤالها سؤالاً مشروعًا. و"ديرك برنابى" الذى كانت مهنته الكلام؛ لم تخطر له إجابة.

فكر فى الهولوكوست؛ فقد اكتشف بعض الحقائق عن طبائع البشر نتيجة لما عرفه عن الهولوكوست، وكان واثقاً من أنه لا يعرف كل ما حدث فى الهولوكوست.. دور العلماء والأطباء والممرضات والمديرين الذين قدموا المساعدة، بل وحتى المعلمين و(خاصة) القانونيون، الزعماء الدينيون والروحانيون.. يبين للمرء أن بعض هؤلاء الأفراد كانوا أنانيين، لكن الأنانية

ليست الأساس، لا يمكن القول كذلك بأن النازيين كانوا مجانين، فالتاريخ يثبت أنهم كانوا عقلاء يحسبون كل خطوة، فى خدمة الجنون، لكنهم عقلاء، وفى المحكمة أظهروا العقل والمنطق، القساة الهمجيون، الساديون بالفطرة.. القتلة.. جلادون الجنس البشرى.. هذا واضح، لكن ليس الآخرين.. كيف يمكن التنبؤ بتصرفات هؤلاء الآخرين ودوافعها!

قومى، بعضهم.. هاه.. ربما.

اختبار القنبلة الذرية فى نيفادا مثلاً، قبل وبعد هيروشيما وناجازاكى، عقد الخمسينيات كان عقد الاختبارات النووية (السرية) أرادوا أن يكونوا وطنيين، ثمة حاجة للوطنية الأمريكية، فهى تلمع كالذهب بعد حرب عادلة، حرب (ويوافق الجميع على هذا) كان يجب خوضها، ولم يكن ممكناً تفادى القتال فيها، وتم خوضها وربحها، وهو "ديرك برنابى"، كان من عناصر الفوز، وكذلك لم يرغب فى معرفة الكثير عن الحكومة التى حارب من أجلها. ليس من الجيد للشخص الوطنى أن يعرف الكثير، لكن، كما سمع "ديرك برنابى" من بافالو إيفينينج نيوز والكاتب الذى تمكن من نشر معلوماته فيها، فإن اختبارات نيفادا فى عام ١٩٥٢ و١٩٥٣ تم تزويد بعض الجنود فيها بمعدات للحماية، وبعضهم لم يحصل عليها، تم تصوير أفلام عن "مشاهدتهم" للانفجارات من مسافات متباينة. بعض الجنود – ممن لم تكن معهم معدات حماية –تم أخذهم بالطائرات إلى نقطة الانفجار فور وقوعه، بينما تمركز آخرون على مسافات متفاوتة، ما المسافة الآمنة من حيث البعد عن نقطة الانفجار؟ ما مسافة "الخطر"؟ كان العلماء والسياسيون فى لهفة على المعرفة.

قومى هم المسئولون هنا، رجال عسكريون من رتب رفيعة، وعلماء يحصلون على رواتب هائلة ويتمتعون بمزايا واسعة. كان "ديرك: يعرف.

لماذا إذًا أدهشته قناة الحب، بل لماذا هذه السذاجة فى رجل يبلغ الخامسة والأربعين من العمر ويتمتع بالذكاء والخبرة.

لكنه شارك "نينا أولشاكر" فى حسرتها وإحساسها بالغثيان مما جرى. حاول، وراح يحاول بقوة أن يفصل نفسه شخصيًا عن هذه

"القضية"، وما كانت "آريا" لتتخيل كم حاول بقوة، كان يحاول ألا يأخذها على محمل شخصى عاطفى. كان محامى نينا أولشاكر، وليس حاميها. لن يكون عاشقها.

أبدًا.. لن يحدث هذا.. هذا جنون.

هذه المرأة الرائعة على خلاف أية امرأة عرفها، وإن كانت تعانى كثيرًا من الصداع النصفى ونوبات السعال المزمنة وانتقال الأمراض المعدية إليها كثيرًا، وهو بداية الإصابة بالربو، وتدهور "الأعصاب"، فإن "نينا" كانت تخرج يوميًا تذرع كولفن هايتس جيئة وذهابًا، بأقل القليل من المساعدة نظمت اتحاد ملاك كولفن هايتس والذى أصبح ينتمى إليه سبعون شخصًا، من نحو ٣٥٠ شخصاً تقريباً ينتمون إلى المكان. كانت "نينا" لا تتعب، أو هذا ما ظهر، كانت تتمتع بالطاقة الواسعة والتفاؤل وتكرس نفسها لقضيتها. إذا أحست بالغثيان مما تكتشفه، تحاول ألا تحبط معنوياتها، وبدأت تتعلم من ديرك الدهاء.. المكر كما لك أن تسميه، وقد مدها بمسجل صوتى مثلاً لتسجيل مقابلاتها مع جيرانها، وألا تعتمد على الملحوظات التى تدونها والتى قد يتم الطعن فى صحتها فيما بعد فى المحكمة، وبمساعدة موظف لدى "ديرك" راحت تسجل قائمة بنوبات المرض والإصابات المرضية المزمنة، والوفيات فى كولفن هايتس منذ عام ١٩٥٥ وقابلت آباء الأطفال الذين يذهبون إلى مدرسة شارع ٩٩ وراحت تحاول مقابلة المعلمين، ومنعها ناظر المدرسة من "وضع قدمها على أرض المدرسة". وأحياناً كانت الأبواب توصد فى وجهها، وكانت متهمة بأنها مثيرة شغب ومهيجة جماهير وشيوعية.. واعتبروا أنها ومعها اتحاد الملاك "يقللون من قيمة العقارات".. و"يثيرون الدعاية السيئة"، وكانت ومحاميها "يقصدان الشر" و"يبحثان عن تسوية مالية كبيرة"، وكما قالت "لديرك": "بعض الناس الذين لا يريدون الكلام معنا حالهم يبعث على الرثاء، فهم يسعلون وعيونهم محتقنة بالدماء وحمراء مثل عينى "بيلى". وفى شارع ٩٩ هناك رجل لا يزيد عمره على الخمسين، وهو يرتعد وكأنه مصاب بغاز

الأعصاب.. يسيرون بالعكازات، وعلى المقاعد المتحركة! وهناك رجل يعمل فى شركة "دو"، ويستخدم قناع أكسجين، مصاب بانتفاخ فى الرئة "من التدخين" على حد قول طبيبه له.

لكن "نينا" أولشاكر كانت تجمع البيانات، وتغطى بعض المناطق التى قالت هيئة الصحة بمقاطعة نياجرا أنها غطتها قبل سنوات، كانت البيانات كفيلة بالإدانة، وأى قاض عادل، وبالطبع مع وجود هيئة محلفين عادية، ستبهرهم الحقائق، كان تركيز "نينا" على شارع ١٠٨ إلى شارع ٨٩ .من شارع كولفن إلى طريق فيتيرانس. هناك توجد تجمعات غريبة من الأمراض فى الشوارع المتقاطعة مع قناة الحب (المدفونة المخفية تحت الأرض) ونسبة وقوع هذه الأمراض كان لا يتناسب بالمرة مع نسبة وقوعها فى أجزاء المدينة الأخرى، ومع نسبة إصابة سكان الولايات المتحدة بشكل عام، من حالات إجهاض إلى وفاة الأجنة إلى تشوهات الأجنة. وأمراض عصبية ونوبات قلبية ومشكلات فى القلب والرئتين وانتفاخ الرئة، وأمراض الكبد والكلى والمثانة، ثم أمراض العيون والأذن والحلق والصداع النصفى، والمزيد من الإجهاض، والسرطان! سرطان من كل الأنواع. تشكيلة من السرطانات.. الرئة والقولون والمخ والثدى والبويضات والرحم والبروستاتة والبنكرياس - والبنكرياس كان سرطاناً نادراً لكن ليس فى كولفن هايتس) وسرطان الدم. سرطان الدم فى سن الطفولة. نسبته سبعة أضعاف النسبة المتوسطة الطبيعية، وارتفاع ضغط الدم وانخفاض ضغط الدم والتهاب الكبد والكلى - وهى أمراض نادرة للغاية بالنسبة للأطفال، لكن ليس فى كولفن هايتس. والإجهاض.

قالت "نينا": "أشعر بدرجة أقل من الانعزال الآن، بفضل ما أعرفه.. وتحول إحساسى إلى درجة أعلى من الغضب".

وفى مناسبة أخرى قالت نينا: "سيد برنابى.. أعرف ما أفعله، كل هذا".. كانت تتكلم بعدوانية وهى تطالعه بنظرة متجهمة لا ترمش وبدا كأنها لابد أنها تؤلم عينيها.

قال ديرك: "ماذا تفعلين.. ماذا تعنين يا نينا؟"

- "لهذا علاقة بصوفى، إننى أنعى ابنتى الصغيرة على ما أعتقد، لهذا يصعب علىّ التوقف، أن أعود لبيتى. لا يهمنى كم أتعب. سام يقول إننى أصبحت مهووسة بهذه القضية وإننى أصعب من الأمور، لكن إذا لم يكن عقلى مشغولاً بهذه الأشياء، كمحاولة إقناع الناس، ومحاولة دفعهم لرؤية أن هذا لصالحهم، فسوف أعود للتركيز عليها، أترى؟ على صوفى، ولا يمكن أن أفيدها هى أو "بيلى" أو أليس بهذه الطريقة".

وبحلول يناير، أصبح "بيلى" ابن السيد والسيدة "أولشاكر" لديه حساسية من مدرسة شارع ٩٩ وكان يشعر بالغثيان وتحتقن عيناه وتداهمه نوبات الربو، ورفضت "نينا" حضوره المدرسة وأصبحت "تنتهك" قانون الولاية، وتم إرسال رسائل استدعاء إليها، وهددت بإلقاء القبض عليها "لا يمكنهم فعل هذا بى، أليس كذلك يا سيد "برنابى"؟ لا يمكنهم هذا؟ هذا المكان يصيب "بيلى" بالمرض. أشعر بالمرض يداهمه حين نسير إلى هناك، هل سيودعوننى السجن؟ ماذا أفعل؟" وأجرى "ديرك" مكالمات تهديدية وتعامل مع المشكلة، وقام باستئجار شقة فى ماونت لوكاس، وهى بلدة ضواحى ريفية فى الشمال الغربى من شلالات نياجرا، حيث يمكن "لنينا" أن تقيم مع أطفالها حينما تشاء الهروب من كولفن هايتس (ظل "سام" فى البيت فى شارع ٩٣ على مسافة عشر دقائق من باريش بلاستيكس، واعتبر سام الخروج من بيتهم بمثابة "الاستسلام").

لكن "نينا" كانت قوية.. "نينا" استمرت. وتعجب "ديرك" من تماسك المرأة، كان قد ألف الموكلين الذين لا يرفعون إصبعاً للمساعدة فى قضاياهم، بل يدفعون له أتعابه ولا أكثر، كان قد ألف الموكلين الذين لا يحاربون من أجل حياتهم. وفى وسط القضية تساءل إن كان عليه أن يعرض شراء بيت "أولشاكر" وتخليصهم من أقساطه، ومساعدة الزوجين فى شراء بيت فى مكان آخر بشلالات نياجرا، لكنه كان يعرف أن سام لن يسمح بهذا الفعل الخيرى، فسام لديه كبرياؤه الذى هدد وجود "ديرك برنابى" فى حياة "نينا" بالفعل. ثم إن الكبرياء لا بأس به.

أم أننى أريد أن تهجر نينا زوجها. مؤقتاً فقط!

من بين المكتشفات الرهيبة التى توصلت إليها نينا، كان أكثر ما أزعجها رواية زوجة تعيش فى شارع ٩٨ خلف المدرسة، ووصفت المرأة واقعة "تنظيف عاجل" لفناء المدرسة عقب ربيع عام ١٩٥٧ونتج عنها ظهور سائل لزج أسود كريه الرائحة غطى معظم الأسفلت. وقالت نينا إنه ذات صباح راقبت المرأة عربات مجلس المدينة وهى تتوقف وتبدأ فرق العمل فى ثياب للحماية من التلوث فى النزول منها وكأنهم رجال فضاء، على رءوسهم خوذات ويرتدون القفازات وبعضهم يرتدى أقنعة للغازات.. أقنعة غازات! لكن بعد أيام تم فتح المدرسة من جديد، وعاد الأطفال للعب فى الفناء كالعادة، وقالت "نينا" بصوت يرتعش: "هذا هو المكان الذى يذهب إليه أطفالنا! هذه المدرسة! هنا حيث نعيش! وهؤلاء الرجال البالغون الذين يعملون فى مجلس المدينة، يخشون تنفس هذا الهواء! لكن الجميع يكذبون علينا، العمدة سينكر كل هذا. هيئة الصحة. يقولون إن ليس هناك مشكلة فى هذا المكان، وأن مرضنا هو خطأنا، ولا يراعون أقل القليل إن كان أطفالنا يعيشون أو يموتون، ولا يهتمون بأى منا أقل القليل يا سيد "برنابى"، لماذا الناس أشرار؟" بدأت الشابة التى أتعبها الضغط فى البكاء والسعال، احتضنها "ديرك" فى جمود. أحس بعاطفة بلا اسم نحوها، ليست رغبة جنسية، وليست مجرد رغبة، بل تعاطف ومشاركة فى ذعرها الحيوانى البدائى فى إدراكه بأنهما ليسا قويين بما يكفى، وأن العدو سيهزمهما، إذا كان العدو شريرًا، فالعدو سيهزمهما.

كانا فى البيت الذى استأجره "لنينا" وأطفالها، فى ماونت لوكاس، كانت الساعة الحادية عشرة مساءً، والأطفال ذهبوا للنوم. كان "ديرك ونينا" فى المطبخ ذى الإضاءة الجيدة حيث قاما بفرد خريطة كولفن هايتس على المائدة، كان "سام" يعمل فى باريش بلاستيكس، و"ديرك" على مسافة عشرين ميلاً من لونا بارك وبيته، وأسرته، احتضن نينا أولشاكر وهى تنتحب، وأحس بحرارة بالغة تتصاعد من جلدها، رائحة مكتومة..

عرق أنثوى.. غضب. أحس بخفقان قلبها، أراد أن يحب هذه المرأة، لكن ليس هذا باستطاعته، لا يجرؤ.. بجمود احتضنها فى تردد وكأن "ديرك برنابى" لم يحتضن من قبل قط امرأة باكية بين ذراعيه، أى امرأة بخلاف زوجته.. امرأة تميل إليه بوضوح، أو تسعى للراحة التى يبثها فيها.

مهنته الكلام، لكنه ملعون إن كانت تخطر له كلمة واحدة الآن.

- أهلاً يا "ديرك".

هذه التحية المتجهمة، صوت "كلاريس" يحك أذنيه وكأنه حديد صدئ يحك الصخر.

كان الصباح التالى لانهيار "نينا أولشاكر" العاطفى، كان "ديرك" يفكر فيها، وفيما سألته، وأحس بقلة الحيلة كما أحس بها حينها، هل سأسقط؟ لن أسقط.

اتصلت شقيقة ديرك الكبرى به فى مكتبه مطالبة "مادلين" أن تضع "رئيسها" على الهاتف على الفور، لا يهم إذا كان لديه مكالمة، هاتيه الآن.. هل هو ظرف عائلى طارئ، أجل هو كذلك.

كم من الوقت مر لم يتكلم "ديرك" إلى أحد من عائلة "برنابى"؟ لا يمكنه التذكر، ربما شهور.. تجاهل الرد على مكالمات شقيقتيه (كان يعرف أنهما غاضبتان منه كثيرًا بشأن قضية قناة الحب) وتجاهل الاتصال "بكلاودين"، دعك من زيارة هذه المرأة العجوز الصعبة.

وذات يوم سيشعر بالذنب.. ديرك يعرف هذا. بعدما تموت كلاودين، لكن ليس الآن.

وبعد مقدمة روتينية سريعة من السؤال عن أحوال "ديرك" الصحية والأسرة وعدم الانتباه لإجابات "ديرك" المهذبة، هاجمته "كلاريس" بحدة: "هذه الأنثى التى تورطت معها، هذه المرأة، إنها متزوجة، لديها أطفال، إنها من هنود التوسكاروراس، أليست كذلك؟ هندية فى عيون العالم شقيقى لا يخزى من مضاجعة هندية فى ماونت لوكاس"

أحس "ديرك" بالذهول من تدفق الكلمات، من همجية المرأة التى تخيلها دومًا مرهفة الحس مهذبة، وللحظة جلس غير قادر على النطق.

قالت "كلاريس" فى غضب: "اللعنة يا "ديرك"، هل تسمعنى؟ هل أنت مستيقظ؟ أم أنك مخمور؟ هل تحاول تدمير عائلة برنابى بهذا الجنون؟"

تمكن "ديرك" من أن يتكلم وهو يرتعد: "كلاريس"، عم تتكلمين بحق جهنم؟ هندية توسكاروراس، لن أنصت لكلام فارغ كهذا".

- "لا تقفل الخط! إياك أن تقفل الخط! يستحيل الوصول إليك، كما أنه من المستحيل التكلم إلى زوجتك، أنتما فى عالم من الأحلام، لا تدركان بأى شىء يحدث لبقيتنا، كم نشعر بالعار من سلوكك، وتلك.. "آريا".. يا له من اسم سخيف.. اسم لم أسمع به من قبل قط.. أنت وهى، مناسبان لبعضكما.. الزانى والزوجة التى لا ترى شرًا ولا تسمعه.."

- وما علاقة "آريا" بهذا الموضوع؟ إننى أمنعك من التكلم إلى "آريا"

طبعاً! تمنعنى من التكلم إلى "آريا"! وماذا عن تلك المرأة الأخرى، نينا؟ هل تمنعنى من التكلم إليها؟

- أجل! سأقفل الخط يا "كلاريس".

- جميل! رائع! دمر حياتك! دمر عملك! اصنع لنفسك أعداء ليدمروك! إذا رآك والدى الآن، إذا رأى طفله المفضل وما آل إليه.."

- "كلاريس"، سنتكلم عن هذا الموضوع فيما بعد، لا شىء بينى وبين "نينا أولشاكر"، وهذا كل ما سأقوله، إلى اللقاء".

- "آريا" أقفلت الخط فى وجهى أيضًا، هذه المرأة عمياء.. عمياء مثلك.. أنانية مثلك.. أمى تقول عنها إنها شيطانة.. زوجان رائعان مناسبان.. عُقد قرانكما فى جهنم".

- "كلاريس"، إنك هستيرية، وداعًا.

أقفل "ديرك" الخط وهو يرتجف. بعدها لن يتذكر إلا القليل من الكلمات التى صاحت بها شقيقته: آريا أقفلت الخط فى وجهى أيضًا.

- "لست عشيقًا لأحد يا عزيزتى، إننى زوجك".

حاول "ديرك" أن يشرح برفق، بدأ الصداع يهاجمه من خلف عينيه.

أجل كان متورطاً فى قضية مدنية معقدة، أصعب قضية فى حياته المهنية، ولا.. ليس متورطاً مع "نينا أولشاكر" الموكلة الأساسية.

فعلاً هو يمثل السيدة "أولشاكر"، أجل. لكنه ليس عشيق السيدة "أولشاكر".

- "أنا محاميها.. لقد ألزمت نفسى بهذا، ولا يختلف الأمر عن أية قضية أخرى توليتها، بخلاف أن.." تردد ديرك وبدأ صوته يهتز، بالطبع القضية مختلفة عن أية قضية تولاها من قبل قط.. "بخلاف أنها أكثر تعقيدًا، فهى بحاجة لتحضير وإعداد أوسع".

كم هذا مضلل، أن يتكلم "ديرك برنابى" عن قناة الحب وكأنها قضية شبه منتهية، وكأن التحضير الهائل للقضية قد انتهى.

أنصتت "آريا" بانتباه بعينين مسدلتين، كان وجهها وجه فتاة مرمرى بدأ يتشقق أقل التشققات، لدى أطراف العينين المراوغتين، وحول الفم الذى تضاءل حتى بلغ حجم حلزونة قابعة داخل صدفتها.

مضى "ديرك" فى شرحه الذى لم يكن اعتذارًا (ولماذا يعتذر؟) مر بيوم طويل، ولم يكن ممتعًا، فقد خلف أحد الخبراء الذى أراد "ديرك" استدعاءهم كشهود بوعده بالتقدم بشهادة لصالح المدعى، وقضى "ديرك" وقتاً طويلاً على الهاتف وهو يتملق ويرجو ويلعن، وأحس بحلقه جافاً من السخط.. لكنه تمكن من الكلام بهدوء وواقعية، لم يكن يشعر بالذنب (حقًا.. لا يمكن لأحد أن يعتقد هذا، فها هو جالس يحادث زوجته فى منتصف الليل، وقد حلق لحيته من أجلها لهذا الجوار، وخلع عنه معطفه المصنوع من وبر الجمال، وأزاح ربطة العنق الحريرية، وفك أزرار كم القميص ورفع الأكمام فى إشارة إلى الصراحة الزوجية). راح يشرح لها أنه لم "يخدع" آريا قط بأية طريقة من الطرق، مهما يكن ما قالته "كلاريس".

أعطته "آريا" سبباً لافتراض أنها ليست مهتمة بقضية قناة الحب، ولا يلومها على هذا "إنها كابوس، الأفضل ألا تعرفى". ولديه سبب لافتراض أن التعليقات التى أبدتها "آريا" على مدى السنوات، من أن تفاصيل عمله بالمحاماة لا يهمها كثيرًا، وفى هذه القضية التى تطلبت مجهودًا أكثر من أية قضية أخرى تولاها، كان لا يريد إلا أن يعفيها من التفاصيل المملة.

ـ هل فعلتها!

تكلمت "آريا" هامسة، حتى أن كلامها كان ليبدو غزلاً فى ظروف أخرى.

كم كان تصرف "آريا" غريبًا. وكأنها هى ـ وليس "ديرك" ـ التى "كشفتها" كلاريس. وكأنها بإخبارها بخيانة زوجها وعدم قولها أى شىء له عن هذا الموضوع منذ شهور، فآريا مشاركة فى جريمته.

قال "ديرك" على استحياء: "آريا"، حبيبتى.. إنك لست مستاءة، أليس كذلك؟"

ـ "مستاءة".

بالكاد انفتح الفم الحلزونى، غمغمت "آريا" بالكلمة دونما تركيز، وكأن تعليقها ليس له معنى.

ـ "عزيزتى".

لامس ديرك ذراعها لكن "آريا" تراجعت فى رشاقة مبتعدة عنه، كما تنكمش القطة مبتعدة عن لمسة من شخص لا تريد منه أن يلمسها فى هذه اللحظة بالذات، لكنها لا تريد أن تضايق هذا الشخص فى المستقبل، إذ قد يكون ذات نفع فيما بعد.

تحركت "آريا" سريعاً وكانت حافية القدمين. مرقت إلى جوار "ديرك" دون كلمة تشرح بها فعلها، غادرت الحجرة ونزلت السلم.

كانا فى حجرة نومهما الذى كان يضيئه فى ذلك الحين مصباح واحد إلى جوار السرير. كان "ديرك" يتكلم بهدوء، ووضعت "آريا" روب "ساتان"

أصفر فوق منامتها ما إن دخل "ديرك" الحجرة المعتمة معتذراً على أنه أخرجها من نومها وأضاء النور، قائلاً ومرة أخرى اعتذر وإن لم... تقل "آريا" إن لا، كفى سخفاً، فهى لم تكن نائمة حيث كانت تنتظره، تؤدى مقطوعات لشوبان بأصابعها فى الهواء، كما تفعل دائماً فى الفراش، فلا حاجة للاعتذار!

فى الأسفل مضت "آريا" مباشرة إلى دولاب الخمور فى حجرة الطعام، وكشخص احترف خلع رءوس الدجاج وفعلها مرات عديدة، خلعت "آريا" غطاء زجاجة سكوتش "بلاك آند وايت" الخاصة بديرك وصبت لنفسها كأساً فى كوب للنبيذ انتزعته سريعًا من على الرف.

ـ "آريا"! عزيزتى.

أحس "ديرك" بالذهول وهو يشهد على هذا المنظر، وحينما التقطت "آريا" كأس النبيذ بدا له المشهد مؤلماً أكثر.

شربت "آريا" وأغمضت عينيها. وكاد "ديرك" يرى لساناً من اللهب يخترق حلقها ويرتقى ليصل إلى أنفها من الداخل، شهقت "آريا" فى حدة لكنها ظلت متماسكة هادئة.

ـ "آريا"، أرجوك ألا تنزعجى.. لا سبب لهذا صدقينى!"

ولكن "آريا" تفادت النظر إليه. انكمشت عيناها فى وجهها وكأنها بكت سرًا حتى ذبلت عيناها، وكان نمشها قد اختفى كما اختفى شبابها، رفعت كأس النبيذ بيد ترتجف وارتشفت رشفة أخرى سريعة من السكوتش ثم أغمضت عينيها بقوة.

قال ديرك: "آريا"، لا أعرف ما قالته لك أختى، لا يمكننى تخيل ما قالته.. لا يوجد أساس لاتهاماتها الرهيبة التى أخبرتك بها". كف "ديرك" عن الكلام وهو لا يعرف طبيعة الاتهامات التى وجهتها "كلاريس". لم يكن يريد الخوض بتهور فى الكلام.. "الأقارب غاضبون منى من طرفى العائلة، ليس فقط آل "برنابى"، بل عائلة أمى أيضاً، الجميع فى إيل جراند يقولون إننى خائن لطبقتى.. ولا يقتربون منى أبدًا! "آريا"، لا توجد أية صحة

لاتهامات "كلاريس" عن السيدة "أولشاكر". أيا يكن ما قالته عن السيدة "أولشاكر". علاقتى بها هى محض علاقة عمل، أقسم لك".

كم بدت تلك الكلمة ضعيفة.. أقسم لك. دعوى كل كاذب.

ـ "ونينا أولشاكر" ليست من هنود التوسكاروراس، وحتى لو كانت كذلك.." كف "ديرك" عن الكلام بعدما أحس بلهجته دفاعية وصوته متهدج ما الذى يقوله "لآريا" بالضبط؟

بدا أنها لا تكاد تسمع ما يقوله، ربما أعدت سؤالها منذ فترة.. فى هدوء سألته: "بيت فى ماونت لوكاس.. لماذا؟"

قال "ديرك" فى هدوء: "لأسباب صحية، صحة الأطفال بالأساس.. "بيلى أولشاكر" البالغ من العمر تسعة أعوام مصاب بالربو ولديه حساسية شديدة بسبب موقع المدرسة، والواقع على مقلب نفايات قناة الحب الذى كشفنا عنه، والطفلة الأصغر مصابة بمرض نقص كريات الدم البيضاء، وبمشكلات فى التنفس. وقد استعنت بشهود خبراء للكلام عن بعض الكيماويات.. البنزين والديوكسين على سبيل المثال، والتى تعد من بين المائتى مادة كيماوية فى قناة الحب، والتى تم سكبها فيها منذ عام ١٩٣٦ والتى تسبب سرطان الدم للصغار على الأخص.."

هزت رأسها فى خفة وكأنها تبعد عنها بقايا حلم لا تريده: "أجل، لكن أين الزوج؟ هل السيد "أولشاكر" فى بيت ماونت لوكاس مع أسرته؟"

ـ أحياناً.. فى العطلات الأسبوعية.

لم يكن "ديرك" واثقاً من صحة هذا القول، لكنه بدا مقبولاً.

قال: "سام أولشاكر" يعمل فى شركة باريش بلاستيكس، وهى على مسافة عشر دقائق سيراً من بيتهم فى كولفن هايتس. وإذا أقام فى ماونت لوكاس سيستغرق وقتاً طويلاً فى الذهاب للعمل بالسيارة".

لماذا لم ترتب لهم سكناً أكثر ملاءمة إذاً؟"

يا لمكر ودهاء "آريا" إذا عملت بالقضاء. تختبر الشاهد وتتفحصه من أكثر من زاوية دون أن يدرك أنه يجرم نفسه بنفسه، وصوتها ضئيل ومحدود لدرجة تبعث على الضيق.

قال "ديرك" مرتبكاً: "سـ.. سكن أكثر ملاءمة؟ فى موقع ملائم؟ أردنا أن.. أعنى.. أردت أن يكون فى الريف، لإبعاد "نينا" وأطفالها عن هواء شرقى شلالات نياجرا" راح "ديرك" يتكلم بسرعة وبإقناع: "شرق شلالات نياجرا مكان مختلف تمام الاختلاف عن لونا بارك يا "آريا"، لا يمكنك التخيل. لا أعتقد أنك مضيت إلى ذلك الاتجاه منذ سنوات.. إننا نعيش على مسافة قريبة للغاية من النهر هنا.. لدى الشلالات وبالقرب من كندا، والهواء المنعش. لكن إلى الشرق بأميال قليلة.."

ـ هل الزوجان أولشاكر منفصلان رسمياً؟

ـ ليسا منفصلين، لا.

ـ لكنهما لا يعيشان معًا.

ـ لبعض الوقت.. معظم الوقت.. يعيشان معاً، إنهما يقيمان معًا.. لكن لأسباب صحية..

ـ أجل، قلت هذا.. هل تحب "نينا أولشاكر"؟

ـ "آريا".. أحس "ديرك" بالصدمة من السؤال، ومن الهدوء الذى نطقت به السؤال: "كيف يمكن أن تفكرى فى شىء كهذا.. منى أنا.. زوجك! إنك تعرفيننى".

ارتقت عينا "آريا" ببطء لترمقا عينيه. بدت عليها الحيرة ودون غضب.. "فعلاً، هل أعرفك حقاً؟"

قال "ديرك" وهو يشعر بالإهانة: "آريا، بالطبع تعرفيننى.. لا أحد يعرف قلبى أكثر منك". حرك كتفيه الكبيرتين فى ضيق، وكأن قميصه ضاق عليه، وأمسك بياقته التى تزعج عنقه، وإن كانت مفتوحة.. "اعتقدت دومًا يا حبيبتى أنك تعرفيننى أكثر من نفسى. أننى عارٍ أمامك.. مكشوف".

ضحكت "آريا" ضحكة ضئيلة: "هذه الإسطوانة المشروخة! أعرفك أكثر من نفسك.. الزواج هو جنون يربط شخصين، مثل عبور حبل مشدود

دون شبكة أمان تحتك، ودون أن تنظر تحتك. وهكذا فكلما عرف أحدنا الآخر قلت أهمية ارتباطنا. إنك محام يا سيد "برنابى"، أحد أفضل المحامين.. حرى بك أن تعرف".

أحس "ديرك" بالصدمة من خطبة "آريا" الباردة الصغيرة، وبدأ يفكر فى أنها ربما كانت متعاطفة معه، لكن الآن تتهمه.. وبماذا بالضبط تتهمه؟

ـ "آريا". لا أفهم.. ما الذى أعرفه؟

ـ هل هى الكلمات التى لا تفهمها أم المعنى الكلى؟

ـ المعنى.

ـ ألا تعرف معنى جنون يربط شخصين؟

ـ "آريا"، إن زواجنا ليس جنونًا يربط شخصين! هذا سخف.. هذه قسوة وفظاظة.. إننا نعرف بعضنا منذ اثنى عشر عامًا تقريبًا".

قالت "آريا" فى عناد: "كل الزواج وكل الحب.. يجب أن يكون جنونًا يربط شخصين، وإلا لن نجد الزواج ولا الحب".

احمرت وجنة "ديرك". أراد أن يمسك بكتفى زوجته الصغيرتين ويرجها كثيرًا. أبدًا طوال زواجهما لم يلمسها فى غضبه، أو حتى فى نفاد صبر، ونادرًا ما كان يرفع صوته فى وجهها وإن كانت تستفزه لدرجة لا يتحملها فى بعض الأحيان.،وفى مثل تلك الأوقات كان يشعر بسماجة قاتلة فى أقوال "آريا" التى تدينه، سماجة قاتلة فى إدانة الذات.. "لا يهم إن كنت مضللا الآن! هذا قولى. لا بأس.. تصادف أننى أعتقد أننى أحبك، وأننى لا أحب.." تردد "ديرك" وقد تردد فجأة عن نطق اسم "نينا أولشاكر" بهذه الطريقة.. أن يفتح قضية فى العمل مع زوجته الساخطة "..هذه المرأة الأخرى، أيًا كان ما قالته لك "كلاريس".. طالما كرهتنا هى و"سيلفيا"، لابد أنك تعرفين هذا، ولا يعتقدان فى صحة زواجنا".

فكرت "آريا" فى هذا.. بالطبع.. "آريا" تعرف هذا.

لامس "ديرك" معصم "آريا". كانت لمسة رفيقة مترددة، ولم ترفضها "آريا" أو تقبلها، قال: "أحبك وأحب أسرتى يا عزيزتى. حياتى الحقة هى أسرتى".

- "حقاً!"

- "بالطبع هى كذلك".. تساءل "ديرك" إن كان عليه أخذ زجاجة "بلاك آند وايت" من يد "آريا". ثمة شىء فى الطريقة التى تمسك بها الزجاجة أقلقته، وما كان ليمانع فى كأس صغيرة له. فقد تناول كأس أو اثنتين فى ماريو قبل العودة للبيت، لكن بدا له هذا منذ فترة طويلة للغاية.

قال "ديرك" فى تواضع: "أدرك أن عملى يشتتنى عنكم، ولن.. لا يمكن.. يهدأ قبل فترة، إذا خسرنا القضية الابتدائية فبلا شك سوف ألجأ إلى الاستئناف، وإذا ربحنا مع بداية الصيف مثلاً، فسوف يستأنف الطرف الآخر بالطبع، و.."

- "وهكذا يمرر المحامون العمل إلى بعضهم البعض! إنكم جميعاً قديسون، تعبدون نفس الرب، لا عجب أنكم تعشقون بعضكم".

- فى هذه اللحظة.. لا أحد يعشقنى فى شلالات نياجرا.

تكلم "ديرك" بخفة وليس فى ألم، هل يهمه إن كان قد أصبح منبوذاً بين زملائه، اللعنة عليه إن أهمه هذا، لكنه أراد الحب والدعم من زوجته على الأقل، إنه يستحقه، على الأقل، قال وكأنه يبتعد عن موضوع شائك: "حين نفوز بالقضية فى نهاية المطاف يا "آريا"، وهو ما أعتقد أننا سنفعله، مع حلول الخريف القادم على الأكثر.."

- خريف أى عام؟ هذا العام؟

أذهله سؤال "آريا". كان فيه الكثير من السخرية الخفية بالطبع، لكن.. أى عام؟ هل يمكن ألا تنتهى قضية قناة الحب قبل فترة طويلة للغاية؟

- "آريا".. القضية معقدة.. معقدة للغاية. وقد استشرت الشهود الخبراء، واستعنت بالأطباء والعلماء لمساعدتى فى التحضير، إننا نحاول

جمع بيانات تدحض أقوال هيئة الصحة وزعمهم بأنه لا توجد مشكلة فى قناة الحب، أو إذا كانت توجد مشكلة فقد قاموا بحلها على حد قولهم، لكننى أواجه مقاومة؛ لأنه يوجد أطباء محليون حتى فى بافالو وأمهرست، يخشون الشهادة ضد زملائهم. ويوجد مختصون كيمياء عضوية فى جامعة بافالو، حسبت أننى استأجرته، وقرر فجأة أنه لن يخاطر بالشهادة فى قضية قناة الحب ولصالح سكان المنطقة، فمعمله يعتمد على الهبات من ولاية نيويورك، ولا يمكننى توريط مكتب صحة ولاية نيويورك فى القضية، فالأولاد الحرام لا يريدون التعاون" مع كلام "ديرك" بعاطفة متزايدة وقفت "آريا" فى صمت ووضعت أصابع قدميها البيضاء الحافيتين فى البساط.

استرسل "ديرك" فى كلمات متلاحقة سريعة: "إنها مسألة ثقة يا "آريا". يجب أن تعرفى يا عزيزتى أن حبى لك ولأطفالنا يعلو أى شىء فى هذا العالم، و.."

فتحت "آريا" عينيها وللمرة الأولى نظرت نحو "ديرك" دون أن تطرف: "ولكنك تعرضنا للخطر.. تعرض زواجنا وأسرتنا للخطر".

- "آريا"، إننى لا أفعل هذا".

- إنك تبتعد عن الأسرة من أجل.. لست واثقة من أجل ماذا؟ من أجل شىء تريده وتحتاجه.. لسنا كافيين لك".

ابتعدت "آريا" عنه وأمسكت بزجاجة "بلاك آند وايت" بقوة، كأنها تطير.. تطفو، لم يكن أمام "ديرك" خيار سوى أن يتبعها. أراد أن يقبض على ذراعها وأن يوقفها ويجعلها تنصت إليه. وتقدمت "آريا" دون انتباه له حافية القدمين فى الردهة المظلمة نحو باب البيت الأمامى، كان البيت رقم ٢٢ لونا بارك كبيراً وهذه الردهة طويلة، ومن وراء النوافذ المغطاة بالستائر كان القمر يطل شاحباً ورياح تهب ذكورية قوية على الأشجار، والرياح التى تهب منذ الأبد من الشلالات! خطر "لديرك" كيف تذهب هذه الرياح بكل المقاومة، ربما تصبح كالحجر، تصقل أطرافك وتكف عن التفكير فى الأمور الشخصية متجاوزاً فكرة أن تتعرض للألم.

بالخارج كانت أشجار الدردار الجميلة العجوز فى لونا بارك تحركها الرياح، قرون من أشجار الدردار وقرون من الرياح ولكن فى هذا العقد الجديد من الزمان بدأت الدردارات تتعب، على نحو محسوس، بدأت أطرافها الكبيرة الرحيبة تجف وتتشقق.

قالت "آريا" فى رجاء: "ديرك".. أريدك أن تتخلى عن قضية قناة الحب هذه، الآن.. الليلة، أنا.. أنا.. أعتقد أن عليك هذا".

احتج ديرك قائلاً: "لا يا "آريا"! ما الذى تطلبينه؟ عزيزتى، لا يمكننى هذا".

ـ لا يمكنك.

ـ لا يمكننى ولن أفعل.. هؤلاء المساكين بحاجة لمساعدتى، إنهم يستحقون العدالة، الجميع يكذبون عليهم ولن أكذب عليهم بدورى.. لن أتخلى عنهم".

ـ لا يمكنك، لن تفعل.. واضح.

ـ لا يوجد محام يتمتع بالنزاهة والشرف يتخلى عن القضايا هكذا، ليس حين تكون الظروف كئيبة هكذا والمدعى لا حول له ولا قوة".

ـ ومن الذى سيدفع أتعاب التقاضى؟ ليس المدعى الذى لا حول له ولا قوة، على ما أعتقد.

ـ "لا".

ـ السيد والسيدة "أولشاكر"؟

قال "ديرك" فى نفاد صبر: "سام أولشاكر" يعمل فى ورديات بمصنع باريش بلاستيكس. ويرعى زوجة وطفلين، ويجنى سنويًا كمًا من النقود أقل مما أجنيه فى.." سكت "ديرك"، غير واثق مما يقوله (لم يقصد التفاخر. لكن أهذا تفاخر؟ مؤخراً لم يعد "ديرك برنابى" يجنى أى دخل والنقود تخرج من حساب مكتبه فى اتجاه واحد فقط) "ليست لديهم مدخرات.

وعليهم دفع تكاليف العلاج الذى يتجاوز راتب باريش، وهذه الرواتب ليست كثيرة. وقد اشتريا بيتًا بالتقسيط على أقساط لمدة ثلاثين عامًا، ومثل جيرانهما فى كولفن هايتس فهما محاصران هناك، ما لم يتم إجبار سوان كيميكال أو إدارة المقاطعة أو الولاية على دفع التعويضات.. ما لم يدفع أحد أقساطهما بالنيابة عنهما. حاولى أن تشفقى على هؤلاء الناس يا "آريا". إذا قابلتهم، وقابلت أطفالهم.."

قالت "آريا" على عجلة: "لكننى لم أقابلهم، ولن أفعل.. لا يوجد ما يربطنى بهم، ولا يعنون شيئاً لى.. هناك ناس يموتون جوعاً فى الصين وفى الهند وفى إفريقيا! يجب أن أرعى أطفالى، واجبى أن أحمى أطفالى، هم فى المقام الأول، و.. ولا شىء فى المقام الثانى!"

ـ "آريا"، هذا كلام حقير. لا يجدر أن يخرج منك".

ـ لا يجدر أن يخرج من زوجتك، ربما. لكنه جدير بى".

إلا أن "آريا" كانت تتكلم فى تردد، وكأنها تندم على كلماتها المتعجلة، رفعت كأس نبيذها ثانية وشربت فى شراهة. كان "ديرك" يعرف أنه يجب ألا يتحداها هكذا، من الخطأ أن يثيرها أكثر الآن، والآن ثارت عواطفها، ويجب أن يحذر.. منذ موت والدها أصبح يصعب التنبؤ بأفعالها، وأقل استقرارًا، وإن كانت لم تنع الرجل، ورفضت عزاء "ديرك" ومواساته، وإن كانت قد تأثرت كثيرًا، "ديرك" يعرف. ولابد أن أمها التى ترملت وأصبحت وحيدة تثقل صدرها أيضًا، ديرك يعرف أن عليه التراجع بحذر أو يقف صامتًا إلى جوارها.. على سبيل المواساة. ثم ما هو الزوج.. ما الرباط الغامض الصامت الذى يجمع بينهما.

وفى مكان ما قريب.. بالأعلى.. صدر صوت صرير عن لوح الأرضية، أو ربما كان صريرًا، صاحت "آريا" فى حدة: "شاندلر! عد إلى سريرك فورًا".

لكن عم الصمت أعلى سلم الطابق العلوى، حتى صوت الساعة القديمة الطنانة فى الردهة بدا كأنه سكت لوهلة قبل أن يستمر.

لامس ديرك ظهر "آريا" الجامد المرتجف، وحاول أن يأخذها بين ذراعيه، وفى رد فعل فزع ضربته بمرفقها، وتحررت منه وهى تلهث فى أنفاس سريعة، قال "ديرك" متألماً: "آريا"، لا يمكننى التخلى عن قضية قناة الحب، لا تسألينى هذا.. لقد وعدت أشخاصًا كثيرين، وهم يعتمدون علىّ.. ليست هذه قضية عادية تجعل الأثرياء أكثر ثراء.. هذه حياة.. حياتهم.. إذا استسلمت الآن.."

ـ هل سيجرح كبرياء "ديرك برنابى"؟ هذا واضح".

ـ "أكون قد تخليت عنهم.. خنتهم، كما أن خصومنا يستحقون الفضيحة.. يستحقون العقاب، الطريقة الوحيدة التى ستؤلمهم هى أن يدفعوا النقود، كم أود أن أفلس شركة سوان وشركاه! أولاد الحرام هؤلاء.. والمدينة، والمقاطعة، والهيئة التعليمية، وهيئة الصحة، هذه الهيئات متواطئة منذ سنوات، والمحامى العام، والقضاة.. أنا المحامى الوحيد الذى قبل هذه القضية، حتى نهايتها المرّة، لن يريحنى ضميرى لو.."

ـ إذًا من ستريحك؟ هى؟.

حولت "آريا" وجهها الأبيض الشاحب إلى "ديرك". وجهها الذى أقلقه، وجهها الذى شوهه الغضب.

ـ "آريا".. قلت لك إننى لا أحب "نينا أولشاكر".

ـ "لكنها تحبك".

ـ لا! بالطبع لا تحبنى.

تكلم "ديرك" بلهجة حادة، وبإحساس بالاشمئزاز، والظاهر من طريقته أنه يقول الحق.

أشاحت "آريا" بوجهها عنه. وهى التى لم تشرب النبيذ منذ أعوام على قدر علم "ديرك"، راحت تصب مزيدًا من السكوتش فى كأس النبيذ، وشربت بحركة مستهترة من يدها تدل على اليأس.. الكحول القوى له

تأثير على حكمها وتفكيرها، على حركتها، كما رأى "ديرك". لكنه تردد فى أخذ الزجاجة منها. كم بدت شبيهة بطفلة قوية، وكم هى متقلبة الأحوال مثل "رويال". لكن مزاج "آريا" الآن هو مزاج الإحساس بالألم والتلمظ بإحساس الألم، هذا الانحراف المزاجى القاتل فى ذكاء المرأة الرائق دوماً. تذكر "ديرك" كيف أنها منذ أعوام كثيرة، فى نادى أيل جراند الريفى، ابتعدت "آريا" عن مائدة العشاء التى جلس إليها مع أصحابه إلى بيانو فى قاعة حفلات خالية، وحين تم اكتشاف وجودها وأطروا على عزفها، فرت وكأنها كلب جريح، وأعجب أصحاب "ديرك" حقاً بعزف "آريا" على البيانو، لكن يبدو أن "آريا" سمعت، أو عَنَّ لها أن تسمع، سخرية وتجريح فى هتافهم، ولم يصلح من حكمها أى تفسير أو اعتذار مهما كثر.

قالت بصوت مرتعد: "لا بأس إذًا يا سيد "برنابى". انتقل للعيش مع "نينا أولشاكر".. هذه الكتلة من المعاناة والفضيلة.. التى تصادف أنها شابة بما يكفى لتكون فى سن ابنتك.. وإلى أطفالها، الأغلى على قلبك من أطفالك، انتقل إلى شقة شهر العسل تلك التى فى ماونت لوكاس، لا حاجة بنا إليك هنا. لم نعد نراك قط. إننى قادرة على الإنفاق علينا بإعطاء دروس البيانو. هيا اذهب، ابتعد".

ـ "آريا"، لا تقولى هذه الأشياء. لا أصدق أنك تقصدين حقاً ما تقولين".

ـ "لقد خرجت عن الأسرة. لقد خنتنا".

مد"ديرك" يده إلى "آريا" لكنها التفتت مبتعدة، وكل ما تمكن من الإمساك به كان زجاجة السكوتش. جرت آريا حافية القدمين على درجات السلم المغطاة بالبساط.. "ابتعد، ابتعد، أكرهك! كلنا نكرهك! ابتعد"

ـ "آريا.."

وقف "ديرك" يلهث وعرقه يتصبب عند أول درجات السلم، سمع زوجته المصدومة تجرى ثقيلة إلى حجرة الحضانة.. أهناك حيث ذهبت

"آريا"؟ لا.. بل ذهبت إلى حجرة "رويال"، المجاورة للحضانة، ستوقظ الصبى الصغير من نومه العميق، وستحمله بحماقة وكأنها تجره إلى حجرة الأطفال، وهناك ستدهش المربية الأيرلندية بإغلاق الباب خلفها وكأنها "ورويال" يهربان من شيطان، ستمسك بالطفلة النائمة من مهدها، وستعانق الطفلة التى ترعبها بعناقها، وستحذر بريدجيت لكى تبقى بعيدة عن الباب، وإذا جرؤ "ديرك" على الصعود ليطرق خفيفًا وعقلانية على باب الحجرة _لكن ديرك لن يفعل، فهو يعرف الواجب فسوف تصرخ "آريا" فيه من وراء الباب بغضب أنثى طائر/أم تحمى صغارها.

وفى الردهة خارج الحضانة، ربما يقف "شاندلر" المسكين.. حافى القدمين هو وفى منامته الصوفية الناعمة، ربما يسنح الوقت الكافى لشاندلر ليرتدى نظارته، لكن الأرجح أنه لن يفعل. "شاندلر" يطرف بعينه ويضيق عينيه ناظرًا إلى أبيه المصدوم، الذى حبسه غضب "آريا" خارج الحضانة.

لكن "ديرك" يعرف أنه يجب ألا يطارد المرأة والزجاجة فى يده، خرج من البيت رقم ٢٢ لونا بليس. يتساءل هل سيعود يومًا؟ هل تريده "آريا" وهل تريده أن يعود إليها؟ ألديه القدرة على العودة إليها والاستمرار فى الوقت نفسه فى قضية قناة الحب؟ لا يمكنه التخلى عن أيهما، وفى هذه اللحظة وهو يضغط بقوة على "دواسة" البنزين فى سيارته، لا يعرف إلى أين يتجه، وما معنى هذا الحوار المرهق الذى دار مع "آريا"؟ حتى غريزته غريزة المقامر غادرته.

فى سيارته فى ليلة تذروها الرياح.. فى العام السادس والأربعين من حياته، على مشارف النهاية كان، يشعر بالتيار السريع الآخذ فى التسارع أكثر وأكثر.. لا عودة عن طريقه الآن، ولا حتى اللجوء إلى الشاطئ.. فى سيارته الأمريكية الفارهة الفخمة التى لا تكف أبدًا عن تذكيره بأنها كالقارب.. قارب يحركه ديرك برنابى بنفسه على نهر ستايكس.. سيقوده ويقوده.. لن ينام، شرقًا بعيدًا عن لونا بارك، بعيدًا عن الشلالات وإلى

الداخل.. شيءٌ يجذبه كالمغناطيس.. ليست المرأة، بل شيء لا اسم له، أنوار دو كيميكال وكربوروندوم، وأوكسيكيم، وسوان كيميكال البراقة المستفزة.. معمل آليانز لتكرير البترول.. آلايد للحديد والصلب.. الدخان الشاحب يتصاعد مثل قماش تضميد الجراح.. الضباب والعتمة.. تحول بينه وبين السماء التى لا قمر فيها، شرق شلالات نياجرا منطقة الأمطار الدائمة. رائحتها قوية وكأنها مرئية.. بيض متعفن.. لاذع وسكرى لكنه صارم وقاسٍ مثل مبيد الحشرات، مذاق الأثير.. تقدم "ديرك" فى ذهول.. هُيئ له أنه ماضٍ بسيارته إلى جوار قناة الحب، شارع ١٠٠ وبافالو آفنيو، سيدور حول بافالو إلى طريق فيتيرانس. سيفعل هذا طيلة الليلة، ليس فى عجلة من أمره.. لا مستقرٌ يمضى إليه.. رفع زجاجة السكوتش إلى فمه ليشرب فى امتنان. هذا شكل للمواساة يعرف الرجل أن بإمكانه أن يعول عليه.

إلى العالم السفلى الذى فتح أبوابه ليستقبلنى.

- ٤ -

واحداً وراء الآخر، فى أواخر الشتاء وأوائل الربيع فى عام ١٩٦٢راح أصحابه يبتعدون عنه.

ذات يوم فى مجلس المدينة حدق فيه تيلور "المخيف" "وين" فى برود، ومر "بديرك برنابى" دون كلمة.. "مرحبًا يا حضرة العمدة!" صاح "ديرك" فى الرجل الذى أعطاه ظهره، بين ظهور كثيرة موالية إليه، من رفاق العمدة. بصوت فيه الكثير من السخرية تكلم "ديرك برنابى".

ثم اليوم الذى مر به باز "فيتش"، أو كاد يمر به. متوقفًا عند مائدة "ديرك" فى نادى اليخوت دون أن يبتسم، أومأ له إيماءة قصيرة. وقال "فيتش" بصوته العميق الأجش: "برنابى". رفع "ديرك" بصره إليه وحمل نفسه على الابتسام. لكنه كان يعرف أنه لو مد يده لمصافحة الرجل فسوف يرفضها.. "فيتش".. سيادة مساعد رئيس الشرطة فيتش. تهانىّ!"

هل مع "فيتش مسدس، وهو يرتدى بزته وربطة عنقه وجالس يتناول عشاءه فى نادى اليخوت مع الأصدقاء؟ افترض "ديرك" أن ذلك يحدث.

ثم يوم مر به "ستراتون هويل".. صديق "ديرك" القديم من أيام الدراسة، والذى عُين حديثاً القاضى هويل رئيس محكمة مقاطعة شلالات نياجرا، مر به فى عباءة القاضى السوداء ذات اللمسة المسرحية، لكن عينيه طلتا على "ديرك" وهما تحملان نظرة ندم وألم، كما أدرك "ديرك" فيما بعد، وهويل يتقدم إلى المصعد وهو فى نقاش عميق مع أحد موظفيه، وسط ردهة المحكمة مرتفعة السقف، "وديرك برنابى" يتأهب ليغادر من باب جانبى، حدق فيه "هويل"، وغمغم "هويل" ما بدا كـ"ديرك!" وبدا أنه على وشك قول المزيد ثم قرر التراجع والتقدم فى طريقه. "سيادة القاضى "هويل"، مرحباً" كذا نادى "ديرك" على الرجل الذى تجاوزه. لكن القاضى هويل دخل إلى المصعد ولم ينظر خلفه.

تهانىّ على تعيينك يا سيادة القاضى.. أنا واثق أنك تستحق المنصب، حتى أكثر من زملائك الموقرين الجالسين على نفس المنصة.

ثم الأمسية المؤلمة فى رينبو جراند حيث ذهب ليشرب كأساً مع صديقه القديم "كلايد كولبورن". بعد أحد أيامه الطويلة.. بعد أحد أيامه بالغة الطول. وقال "كلايد كولبورن" فى هدوء: "برن.. أتمنى أن تكون على دراية بما تفعله". وقال "ديرك" فى امتعاض: "لا يا «كلايد»، خبرنى بما أفعل".

هز "كلايد" رأسه فى حزن. وكأن "ديرك" يسأله الكثير، حتى ولو باسم الصداقة.

قال "ديرك": "ما أفعله يا "كلايد" هو اتّباع غريزتى ولو لمرة، ليس طريق النقود، بل الضمير". الضمير! حدج "كلايد ديرك" منزعجاً.

ـ لا يمكنك تحمل كلفة الضمير يا "ديرك". إنك من آل "برنابى".هذا لن يستمر أبداً".. كف "كلايد" عن الكلام وهو يكتم ابتسامة أخوية فيها شىء من اللؤم "طريقتك فى العمل تستنزف دمك.. لن تستمر عاماً".

ـ لا أفكر فى هذا، بل أفكر فى العدل.

العدل! مثل الضمير.. هذه النظرة المشفقة من "كلايد"، نظرة الانزعاج.

كان "كلايد كولبورن" ماضيًا فى التحول السريع إلى رجل، كان وسيمًا. وما زال يتمتع بحيوية الصبى الغنى، ما زال يتمتع بالمظهر الفخم، لكن فى الأعوام الأخيرة راح عدد أقل من النزلاء يتوافد على رينبو جراند، ونزلاء أغنياء أقل وأقل، موسمًا وراء موسم، تكاد ترى وتشعر بالتحول فى شارع بروسبكت، فى الفنادق الفخمة القديمة الأخرى، وكأن مناخ شلالات نياجرا هواء المدينة يتغير.. بدلاً من الرياح الباردة الناعمة التى تهب من الشلالات انبعثت رائحة الكيماويات، وارتقت سحابة عطنة من مصابيح الشوارع وفى وجه القمر ليلاً وعلى مشارف المدينة سريعة النمو ظهرت الأوتيلات الرخيصة، و"كبائن سيارات"، وهى أماكن إقامة للمواطنين الأمريكيين فى سياراتهم وخيامهم. أسر فيها أطفال صغار بالإضافة إلى رواد شهر العسل. سائحون فى حافلات.. أشخاص على المعاش. وأشخاص لا يهمهم أدنى اهتمام بجودة الطعام والشراب، أو جودة الغناء فى الملاهى الليلية، أو طزاجة الزهور المقطوفة فى أجنحة الفنادق الباهظة، أو عازفة القيثار الأيرلندية فى استقبال الفندق. هؤلاء أمريكيون من القرن العشرين.. يرتعد كلايد كولبورن خوفاً من الفكرة.

قال فى تلك اللحظة: "ما تفعله هذا يا "برن".. اللعنة! الدعاية السيئة.. هذا يضر بصورتنا. يؤذى السياحة.. الأحوال متدهورة بما يكفى، وفى بعض الأماكن يكفى اليأس الحاضر دون المزيد، ثم جئت أنت.. إذا.."
كف "كلايد" عن الكلام والإحراج يلمع بالاحمرار فى وجنتيه، هو الذى تعلم اللاتينية فى الجامعة لثلاثة أعوام وترجم بمعاونة "ديرك برنابى" "لشيشرو" و"فرجيل"، يتلعثم الآن وكأنه شخصية كرتونية خرقاء فى حوار ليس من مستواه مع صديقه "ديرك برنابى"، لكن اللعنة إذا كان قادرًا على التفكير فى كلمات أخرى أرقى، آلمه هذا، واحتقره "قناة الحب.. نالت انتباه واسع فى الشلالات وخارجها، أصبحت فى كل صحيفة ملعونة".

صمت الرجل، "وديرك برنابى" الذى ليس لديه الكثير ليقوله، والكثير مما لا يقدر على حمل نفسه على قوله.. هذا اليوم الطويل المرهق من المقابلات مع الشهود الخبراء، والمقابلات مع ثلاثة من الآباء فى كولفن هايتس توفى أطفالهم بسرطان الدم خلال العامين الماضيين، لم يجد مع كل هذا ما يقوله، وأحس أن هذه آخر مرة يتكلم إلى "كلايد كولبورن"، صديقه.

للحظة خطيرة أحس "ديرك" برغبة فى إفراغ كأسه فى وجه "كلايد" لكن لا.. لا استسلام لمثل هذه الرغبات إلا فى أفلام هوليود الميلودرامية، لكن ليست هذه هوليود وقطعاً ليس هذا فيلمًا. ففى الأفلام هناك لقطات مقرّبة من الوجه، ولقطات بعيدة، ولقطات "ماستر"، ولقطات "فيد آوت"، ولقطات متلاحقة سريعة رحيمة، ثمة موسيقى خفيفة منبعثة تشير إلى ما تشعر به، فيما تدعى باسم "الحياة"، هناك تيار متدفق مستمر من الزمن وكأنه نهر مندفع إلى الشلالات وما وراءها. لا مهرب من هذا النهر.

وهكذا لم يرم "ديرك" بما فى كأسه فى وجه "كلايد كولبورن"، ولا أنهاه.. وضع كأسه على المائدة الصغيرة التى يغطى وجهها الزجاج بينه وبين ساقى كلايد. وضع ورقة بعشرين دولارًا ونهض قبل أن يعترض "كلايد" قائلاً إن الشراب على حسابه، بحق يسوع!

"أجل.. قناة الحب تؤذينا.. وداعاً يا كلايد".

يجب أن يعترف بأنه يفتقد ليالى لعب البوكر.. اللعنة، ثمة ثقب فى قلبه.. يفتقد أولاد الحرام هؤلاء.

صهر "كلايد" الذى تزوج "سيلفيا". له عينان ماكرتان وجلد زيتى يلمع كفراء الفقمة، أحس "ديرك" للحظة بالذعر من أن يقدم صهره على دعوته إلى بيته لتناول عشاء عائلى على الجزيرة، لم نرك منذ فترة طويلة، أفتقدك يا ديرك، وكذلك تفتقدك "سيلفيا"، لكن لم يحدث هذا بالمرة، لا دعوة إلى العشاء ينويها الصهر، بل أمسك بمرفق "ديرك" بقوة وقال: "قناة الحب.. هذا حى للزنوج، أليس كذلك؟ حى فى الجانب الشرقى؟"

شرح "ديرك" بتهذيب لصهره أن لا، قناة الحب ليست حياً للزنوج.

ـ وإذا كان كذلك؟

رأى تعبير وجه "ديرك برنابى"، الذى كان فى العادة وجهاً بشوشاً حيث اعتاد الرجلان أن يكونا فى الرفقة التى تعودا أن يتقابلا فيها.. تخلى الصهر عن مرفق "ديرك" وتراجع ثم تلعثم قائلاً كلمات قليلة، وودعه.. أجل، سيقول "لسيلفيا". سيقول للأقارب إن "ديرك برنابى" تغير، إنه أصبح رجلاً غاضبًا خطيرًا، وهذا ما يقوله الجميع بالضبط. خائن لطبقته.

ما زالت صورة "ديرك برنابى" اللامعة الموقعة باسمه فى مكانها، على لوحة المشاهير فى ماريو.. لا أحد اقترح على ماريو أن يزيلها.. بعد، الأرجح أن ماريو لن يرفعها قط.

حين أفوز، فسوف يكون فوزى كبيرًا.

راقبونى.

مضى "ديرك" بسيارته ذات ليلة إلى أيل جراند، إلى حيث لم يذهب منذ شهور، تغرب عن "كلاودين". تغرب عن نادى إيل جراند الريفى، راوده الفضول لأن يعرف، إذا ذهب إلى النادى؟ إذا كان أحد ليكلمه؟ يعترف بوجوده؟ سيتناول العشاء فى وقت متأخر فى النادى، بناء على رغبة مفاجئة راودته.

ـ أهلاً بك يا سيد "برنابى".

طل النادل وافر الابتسامات من فوق كتف السيد "برنابى" العريض ليرى كم جاءوا فى رفقة السيد "برنابى". لا أحد؟

ما زالت حجرة الطعام الفخمة ممتلئة بثلاثة أرباعها، بعد الساعة العاشرة مساءً بالضبط، أزواج وموائد يجلس إليها ستة وثمانية، ولا أحد بدا عليه إدراك وجود "ديرك برنابى"، أو رفع عينيه إليه ليبتسم تجاهه، ولا وجه منهم يبدو أنه يعرفه، رأى الوجوه تعلوها الغشاوة غير قادرة على

التمييز، وكأنها بصمات أصابع ملطخة غير واضحة "فى البار على ما أعتقد.. أفضل الجلوس إلى البار".

مضى إلى بار تدخين الرجال، فى الواقع سيتناول "ديرك" عشاءه فى البار، على سبيل التجربة ليرى إن كان أيًا من أصحابه أو معارفه القدامى سينضم إليه.

لم ينضم إليه أحد، حتى الخدمة كانت بطيئة. كالخدمة التى تراها مختلطة بشىء من السخرية.

شىء من السخرية ليست الخدمة التى يتوقعها المرء فى نادى دفع له النقود لعشرات الأعوام.

طلب "ديرك" سكوتشًا، وانتظر دقائق فيما راح الساقى يحضره، أخذ يفكر فى أنه ربما الأفضل ألا يتناول العشاء، تأخر الوقت على تناول شريحة اللحم أو تناول البرجر الكبير الذى اشتهر به البار، لم يعد إلى البيت منذ يومين. "آريا" كبرياؤها أوسع من أن تطرده، لكنه يعرف أنه مطرود.

أراد الإمساك بكتفى "آريا" وأن يرجوها.. لا يمكننى الاختيار، لن أختار بين أسرتى وضميرى، كيف أختار!

بالطبع يمكن "لديرك" العودة إلى البيت متى شاء. إذا تحمل العودة. "فآريا" تخلت عنه، تخلت عنه من قلبها لامرأة أخرى.

وإن كانت المرأة الأخرى نفسها شبحًا من صنع "آريا".

حاول "ديرك" ألا يفكر فى "نينا أولشاكر".. قلق المرأة على أطفالها وعلى قضية قناة الحب وعلى المستقبل.. دائماً ما يحمى "ديرك برنابى" نفسه من قلق موكليه ويفصل نفسه عنه، لكن ليس الآن، إلا أنه وعلى نحو ما، ليس هذه المرة. "ماذا سيحدث لنا؟ ماذا لو خسرنا؟ لا يمكن أن نخسر، أليس كذلك؟ سيد "برنابى"، هل يمكن هذا؟" المرأة الأخرى تكلم "ديرك برنابى" وكأنها تكلم منقذها.

(لكن لا.. لا يكلم المرء منقذة. أليس هذا الوعد بالمنقذ؟ ليس الكلام.. لا القلق المذِل)

(مستحيل أن أفكر فى هذه الأشياء، لا عجب أنه فقد شهيته للحم.. كأس أخرى بدلاً منه إذاً!)

ـ "سيد برنابى؟"

ـ أجل يا "رودى"

ـ أرسل لك الرجل هذه الكأس.. مع تحياته.

رفع "ديرك" بصره بعد أن استغرق فى مياه بلاك كريك السوداء اللزجة التى تغذى قناة الحب المدفونة، ليطل على ما حوله فى تردد تأخر الوقت كثيرًا، تجاوزت الساعة ١١ مساءً. لم يذكر إن كان قد أكل أم لا، خمن أنه تناول عدة كئوس. أصبح البار شبه خالٍ، لكنه ما زال عامرًا بدخان السيجار العنيد الذى لا يريد الرحيل والذى جعل عينيه تدمعان.. ومنذ بدء قضية قناة الحب ومع قضاء "ديرك برنابى" ساعات أطول فى كولفن هايتس، تدمع عيناه ويشعر بهما تحترقان وينتابه صداع بين عينيه.. ليس صداعًا سريعًا كنبض القلب، بل صداع ذات وتيرة بطيئة خاصة، كقارع طبلة يحمل أداة كبيرة يضرب بها ضربات مكتومة. ضيق "ديرك" عينيه مدققًا النظر فى الركن البعيد من البار الخشبى الفخم المصقول؛ حيث جلس شخص طويل يرفع كأسًا تحيةً "لديرك". صديق؟ وجه مألوف؟ غريب؟ لم تعد رؤية ديرك قوية بما يكفى مؤخرًا كما كانت فيما سبق، خمن أن الرجل الجالس فى الطرف البعيد من البار فى بزته الداكنة وقميصه الأبيض وشعره الداكن المصفف بعناية للخلف بعيدًا عن جبينه، لابد أن أحد أعضاء نادى إيل جراند الريفى، وإن كان لابد أنه يناصر "ديرك برنابى" فى حملة قناة الحب.

مد "ديرك" يده نحو كأس السكوتش ورفعه تحية للرجل عند الطرف البعيد للبار، وشرب الرجلان معاً.

وسط سحابة الصداع وألمه رأى "ديرك" وجه الرجل يتغير فجأة متحولاً إلى ابتسامة.. العينان الخاويتان المظلمتان وسط جمجمته.. تلمعان مشعتان تحت جبينه النحيل.

ـ سيد "برن".. حظ حسن!"

نزيف للنقود. كالزمن

كيف أصبح دون أن يعرف، وكأنه إبرة قائمة، رأسه (الفارغ) هو رأس الإبرة، ومنها يمر الزمن فى تيار شارد وإن كان متدفقًا.. يمر ويمر، بلا توقف.. إلى قلب الماضى.

زاريـــو

عشية جلسة قضية قناة الحب، أدهش "ديرك برنابى" أسرته حين أحضر إلى البيت جروًا من مأوى جمعية منع استعمال القسوة ضد الحيوانات.

كان التاريخ ٢٨ مايو ١٩٦٢ عشية قضية مؤجلة منذ فترة طويلة فى محكمة شلالات نياجرا، وكان رئيس الجلسة هو قاضى المقاطعة ستراتون هويل، وهى أيضاً عشية عيد ميلاد "جولييت برنابى" الأول.

هل أذكر.. بالطبع أذكر.

طيلة حياتى وأنا أذكر.

هل كانت مصادفة.. أن يحضر بابا زاريو إلى البيت فى ذلك المساء؟

احتج بابا قائلاً: إن مشاعره تأذت.. "مصادفة.. بالطبع لا، كما قال "آينشتين"، فالرب لا يلعب النرد مع الكون".

"ديرك برنابى" الذى كان "بابا" فى المنزل رقم ٢٢ لونا بارك.

"ديرك برنابى" الذى كان "بابا"، ويعشقونه كبابا، جاء إلى ٢٢ لونا بارك دون كل الأماكن الأخرى.

كما فى قصة خرافية أصبح اسم الجرو "زاريو".

ويُنطق الاسم، كما أصر بابا: "زاريو، وهو اسم من المجر".

أراد الصبيان ـ "رويال" و"شاندلر" ـ جروًا بالطبع، "رويال" بطريقته الصاخبة، و"شاندلر" بأسلوبه الهادئ اللحوح، وما إن رأى "رويال" كلابًا

يملكها أطفال آخرون، حتى أراد بطبيعة الحال كلبًا له، وما إن تمكن "رويال" من نطق كلمة "بوبى"، حتى راح يطالب بواحد.

ولم تستجب "آريا" - كأم حريصة حذرة - لمطالبات الطفلين. وكانت تعرف أنه لا فائدة من أن تقول لا بالطبع لن تحصل على جرو ليعيش فى البيت، أبداً. *وكانت تفضل ألا تضحك فى وجهى طفليها قائلة جرو! مخلوق طفولى آخر يقيم فى المنزل وأحبه؟ لا، أخرجوا ماما من الموضوع هذه المرة.*

وفى حالة من الإثارة وكأن زيوس يخرج من وسط سحابة، جاء "ديرك برنابى" الذى لم يحضر إلى البيت ليومين، حضر فجأة وأسرته المذهولة على وشك الجلوس لتناول العشاء، عشاء مبكر فى الساعة السادسة مساءً، وقد حضرته "آريا" و"بريدجيت" فى المطبخ كشقيقتين، أو تقريبًا شقيقتين، وفجأة ظهر بابا فى المطبخ معهم وبين ذراعيه شىء يكسوه الفراء ويصدر أصوات صراخ ضئيلة، وفى ذهول رأت آريا وعرفت أسوأ ما فى الأمر: أنه حى.

حى! كان زاريو أكثر من حى. كان زاريو شعلة من الحياة. زاريو انفجار ذرى من الحياة، فراؤه المتموج بلون بنى فاتح ملطخ ببقع داكنة، وثمة حلقات سوداء حول عينيه المبللتين. ونصفه كلب "بيجل" والنصف الآخر "كوكر سبانيال". ثم إن جزءًا منه "مونجريل" لكن "لن يصبح حجمه كبيرًا حين يكبر"، كما قال الطبيب البيطرى فى جمعية الحيوانات "لديرك برنابى".

إحدى تلك النزوات التى تزايد تدخلها فى حياة "ديرك برنابى" وتحريكها لها إحدى تلك النزعات.. الإدراك اللحظى لمعرفة الحق والصحيح. غادر "ديرك" مكتبه وهو يشعر بالتوتر والتفاؤل حول جلسة الصباح التالى، وكان ينوى المرور على "ماريو" لتناول شراب، لكن بدلاً من هذا توجه إلى مأوى جمعية الحيوانات وكأن مغناطيسًا يشده إلى الشارع الخامس وفيرى، وهناك وجد نفسه وسط نباح المخلوقات الفروية يختار واحدًا من الصغيرة.

أحست "آريا" بالذهول، وإن حاولت ألا تظهره، حاولت "آريا" لأجل الأطفال ألا تظهر الكثير مما تشعر به.. طيلة هذه الأيام، وفى هدوء سألته: "ديرك"، لماذا فعلت هذا يا عـ.. عزيزى، لماذا؟ أعنى، لماذا هذه المرة؟ أهذا.. وقت مناسب؟ عزيزى.. جرو، "ديرك، بربك".

تفكر يؤمن بالخرافات، يعتقد أنه لو قام بعمل خير الليلة، فسوف ينعم عليه الرب فى الصباح ويحكم لصالح موكلته.

ـ "لماذا؟ "آريا"، يجب ألا تسألى لماذا".

لم يسأل "رويال" أو "شاندلر" لماذا. أحس "رويال" وشاندلر بفرح جنونى.

راحت "جولييت" الصغيرة فى مقعدها المرتفع تصرخ جذلى.

كما أنوار وزينة الكريسماس وهى تضىء أنوارها.. هكذا كان أطفال "آريا". كان رويال على الأرض مع زاريو يحتضنه ويقبله، فيما جلس "شاندلر" القرفصاء فوقهما وتمكن من أن يربت على رأس الجرو سريع الحركة، راح الصبيان يصيحان: "ماما، لا تبعدى زاريو عنّا! أمى، أرجوك! لا يا ماما".

وهكذا راحا يستجديان، ولدقائق مجنونة استمر الاستجداء! بكى "رويال" وانتحب وركل بقدميه، ثم ضرب بقبضتيه الصغيرتين، والتى لم تعد فى واقع الأمر صغيرة بعد.. راح يضرب بهما على الأرض، فيما حاولت "آريا" أن ترفع زاريو من على الأرض وتعيده لبابا.. "ماما، لا يا ماما". كانت ماما قد ضعفت بالفعل، فمن يقدر على مقاومة استجداء "رويال" أزرق العينين وكأنه يستجدى مطالباً بالحياة؟ ثم هناك "شاندلر"، وهو عاطفى للغاية بدوره.. "ماما، يجب أن يبقى زاريو معنا! إذا كان بابا قد اختاره من مأوى الحيوانات، فربما كانوا يقتلونه لولا أخذه. تعرفين ماذا أعنى يا ماما، أليس كذلك؟ يقتلونه".. اغرورقت عينا شاندلر قصيرتا النظر بالدموع من خلف النظارة.

أفاق "رويال" فجأة وسألها بانزعاج: "ما هذا؟ ما هو (يقتلونه)؟ (يقتلونه) كيف؟"

قال "شاندلر" فى تجهم: "هذا يعنى أن ينهوا حياته، يضعوه فى الأرض، ويدفنوه، مثل أى شىء ميت".

صاح "رويال" محتجًا: "ماما، لا يا ماما".

فى ذلك الحين بدأت "جولييت" فى البكاء بدورها، وإن كانت بما لها من العمر -وهو عام -غير واعية على الأقل هذا ما تمنته "آريا" بما يحدث.. أى نوع هذا من الابتزاز العاطفى الإرهابى، الزوج الداعر والأب يعود إلى البيت بعد غياب لمدة ٤٨ ساعة ليلقى بجرو كثير الحركة فى حجرها، ثم يهرع خارجًا إلى المساء الربيعى المعطر.

ـ ديرك.. إياك! كف! لا يمكنك أن تقصد حقًا أن..

لكن أجل، كان "ديرك" فى طريقه للخارج. ترك محرك سيارته دائرًا فى الممشى الخارجى. لديه عمل يؤديه فى المكتب، ولا يمكنه البقاء. سيأكل شيئًا فيما بعد، ليس جائعًا.. "مساء الخير عليكم جميعاً! بابا يحبكم! كونوا لطفاء مع "زاريو". "آريا"، عزيزتى سأتصل بك غدًا بعد.." كف صوت "ديرك" الشجاع عن الكلام حينها.. "بعد الـ.."

كان الرجل فى حالة جنونية، وهج قوى فى عينيه الصفراوين، صوته المرتعد.. أجل، كان يحاول التفاوض مع الرب. وكأنه يمكنه التفاوض مع الرب! آريا تعرف ما لا يعرفه. إذا لم يكن هذا الرجل قد خانها وحطم قلبها؛ كانت آريا لتشفق عليه.

قالت "آريا" وهو يخرج: "لا تقل لى عزيزتى! أريد الطلاق".

بيت مجانين فى المطبخ، انتهى عشاء طبق التونة.. صخب الأولاد مرتفع.. "ماما أيمكن أن نحتفظ به! ماما، أيمكن أن نحتفظ به!" الطفلة تبكى بأقصى قوة رئتيها الصغيرتين، "بريدجيت" بحالها الأشعث تغنى لها بصوتها الأيرلندى السريع. الجرو زاريو ينبح ويصرخ وكأنه فى حفل..

أبشع موسيقى اخترعها الإنسان، كورال من المستجدين يضربون على أوتار قلب "آريا" المشدودة. أى فوضى هذه، هذا ظلم بيّن! أرادت أن تصرخ فيهم لكن بدلاً من هذا جذبت مقعدًا وجلست ثم رفعت زاريو بوزنه البالغ خمسة أرطال إلى حجرها، بقع من بول الكلب ظهرت على تنورتها، أى فرق سيحدثه القليل إضافة إلى ما ابتلت به بالفعل إذًا؟

قالت "آريا" فى صرامة: "لا تقولوا لى ماما، أرفض أن أكون ماما لهذا الشىء الضئيل، يكفينى سوءًا أننى أمكم، إذا احتفظنا به.."

ـ ماما! أيمكن أن نحتفظ به يا ماما؟

ـ .. أنت يا "شاندلر"، وأنت يا "رويال"، سترعيانه، ستطعمانه وتخرجان به للتمشية وتنظفان فضلاته بداية من الآن، وهذه البركة التى تكونت على الأرض. أتعداننى بهذا؟

يا له من سؤال.

ـ نعم يا ماما نعدك!

ـ نعدك يا ماما!

تنهدت "آريا"، التى كان يجب ألا تصدق هذا، وربتت على رأس الجرو الذى مده للأمام. أذناه ولسانه الوردى اللين، ذيله الصغير يتحرك على حجرها وكأن زاريو يحاول أن يرقص السامبا.. "إنه لطيف نوعاً ما على ما أعتقد، إذا كنت تحب الجراء. "شاندلر"، أغلق أبواب باقى المنزل. "رويال"، ضع صفحات جرائد على الأرض هنا. سنجرب زاريو لثمانى وأربعين ساعة.. لا دقيقة أكثر من هذا".

قال "شاندلر" وهو يمسح دموعه من تحت نظارته: "شكرًا لك يا ماما".

عانق "رويال" كلا من ماما والجرو وصاح: "أحبك يا ماما!"

وهكذا جاء "زاريو" ليقيم فى بيت "برنابى" قبل مغادرة "ديرك برنابى" ـ الذى كان يدعى بابا ـ بفترة وجيزة.

السقوط

بدأ السائر على الحبل المقدام رحلته الشجاعة المقبورة عبر الهوة.

سرعان ما غشى عينيه الضباب المتصاعد والغبشة.. هبت الرياح قوية فأفقدته توازنه، أو ضربته فى ظهره. سقط.. فى صمت غريب.

إلا أن صرخاته العالية ضاعت وسط صخب الشلالات.

لن يسقط "ديرك برنابى" فى صمت. سيسمعون احتجاجاته ويرويها أكثر من ستين شاهداً.

أصدر القاضى حكمه، القضية مرفوضة.. طيف أحمر يضرب "ديرك" فى جمجمته، فجأة رفعته ساقاه لأعلى. أسقط المقعد الذى كان جالسًا إليه لدى مائدة الادعاء، فى مواجهة منصة القاضى. هب إلى قدميه غاضبًا، وكأنه ثور هائج.. غاضب.. سيسمعونه "يهدد" القاضى "ستراتون هويل". سيسمعونه ينطق بعبارات مثل "ابن حرام كذاب".. "ابن قحبة فاسد".. "ابن حرام منافق".. "قبض فى يده".. "سأفضحك".. "أنت!؟ من دون الجميع". أمسكه من ذراعه حاجب المحكمة المصدوم، الرجل الذى تكلم إليه "ديرك برنابى" أكثر من مرة، بل ومزح معه.. يلتفت مصابًا بالعمى نحو الحاجب ويضربه فى وسط وجهه بقوة تحطمت معها أنف الحاجب وخده الأيسر ومحجر عينه الأيسر، ونزف الدم منه ليسقط على سترة "ديرك برنابى" الرمادية المخططة وعلى قميصه الأبيض القطنى المنشى.

"معمعة فى قاعة المحكمة"، كما ستقول صحيفة نياجرا جازيت عن الحادث فى لهفة.. "صراع قصير وعنيف" ونواب الشريف من الضباط

"يصارعون" "ديرك برنابى" محامى الادعاء، حتى استسلم، واعتقلوه بتهمة الاعتداء، وقادوه إلى الخارج جبرًا.

طيف أحمر يضرب فى رأسه، يبحث عن الخلاص.. وفى تلك اللحظة انتهت حياة مهنية، انتهت حياة. فى وقت أقل من الوقت المطلوب لإشعال عود ثقاب.. لبعث شعلة صغيرة من اللهب الأزرق مما كان فيما سبق معدنًا ساكنًا. إذا تسنت لك أن تحيا هذه اللحظة من جديد.

هل سأفعلها ثانية، أجل اللعنة سأفعلها! لكننى لن أضرب الحاجب بل لأبلغ هويل نفسه. سألكم المنافق ابن الحرام فى وجهه.

"جنون".. "خرْج عن وعيه".. كذا سيقول الشهود عن "ديرك برنابى" وما فعله فى قاعة القاضى "هويل". وكذلك سيدعى بعضهم أنه شوهد يشرب خمرًا فى مطعم قريب فى أثناء استراحة الظهيرة. وسوف يقول آخرون إن هذا ليس صحيحًا. وسيظهر فى الصحف كيف أن "ستراتون هويل" راح يرتجف فى خوف من وراء منصة القاضى بينما "ديرك برنابى" يتعرض للإخضاع من قبل الشرطة.

ثم سيعلن "هويل" أن "ديرك برنابى" قد احتقر المحكمة.

احتقر المحكمة! احتقار هو ما أكنه لهذه المحكمة. لهذا الوسط القانونى المتعفن تمامًا، للقضاة الذين يتقاضون رواتب من المتهمين المجرمين.. لهويل ابن الحرام هذا.

ابن الحرام المنافق.. وكان صديقى.

فيما اقتادوه وهو يقاوم ويتعثر ويسب إلى خارج المحكمة وسط تجمع من الرجال فى الزى الرسمى الرمادى والأزرق، سمع "ديرك برنابى" "نينا أولشاكر" تناديه.. حاولت أن تتبعه، حاولت أن تلمسه، واحتجزتها عناصر الشرطة.. فبكت وصاحت: "سيد برنابى! سنرفع قضية أخرى، أليس كذلك؟ سنستأنف؟ لن نستسلم.. لن نستسلم".

زعم عدة شهود أن "نينا أولشاكر" صاحت أيضًا: "سيد برنابى"، أحبك! يا إلهى يا "ديرك"، أحبك!"

أبدًا.. لم تكن هناك أية مشاعر شخصية بيننا قط، لا مشاعر من جانبى ولا من جانب "نينا". كل منّا متزوج من طرف آخر وسعيد فى زواجه، أقسم على هذا.

القضية الأولى فى سلسلة قضايا قناة الحب، وسوف تظهر وتبين فى المحاكم، القضية الأولى فى سلسلة لن تنتهى حتى عام ١٩٧٨ لكن فى مايو ١٩٦٢ كانت قضية قناة الحب الوحيدة، وتم رفض القضية.

بقرار من قاضٍ وحيد، قاض من الواضح أنه أصدر حكمًا مسبقًا شخصيًا لصالح المتهمين الأقوياء أصحاب النفوذ الواسع، عمل عشرة أشهر تم رفضه وكأنه لا قيمة له، ألف صفحة تقريبًا كانت صحيفة الادعاء وشهادات الشهود الخبراء، من بيانات علمية وطبية وصور فوتوغرافية ومستندات. وضعها "ديرك برنابى" ورتبها فى عناية وطالب فى اهتمام بالمحاكمة.

والآن لم تعد هناك محاكمة، ولا عرض بتسوية مالية لسكان كولفن هايتس، الذين يعانون الأمراض والاعتلال وخسارة فى أسعار المنازل، ومع اتهام المدعى بالعدوان، فلن يُسمح له بالاستئناف.

بالطبع أعترف بأننى مذنب.. ما خيارى المتاح؟ كنت مذنبًا، فضربت ذلك الحاجب المسكين.. الرجل الخطأ، اللعنة على حظى السيئ.

***

قابلت الصحافة المحلية الشهود على ثورة غضب "ديرك برنابى" واعتقاله فى مقابلات كثيرة، وأكثرهم كان "براندون سكينر"، كبير محامى "سوان كيميكال" ومن معها من المتهمين. ووصف "سكينر" نفسه على أنه "صديق قديم ومنافس" "لديرك برنابى". وقال إنه لم ير "ديرك برنابى" ـ

المحامى الألمعى ـ بهذا الهوس من قبل، فى أية قضية، كما كان مهووساً ومشغولاً بهذه القضية، والتى قيل إنه تولاها بأتعاب موقوفة على الربح، وبما أن القضية مقدر لها الفشل، فهذا غريب. وهذا فى حد ذاته طيش وسلوك غريب، وتكاد ترى أن "برنابى" فقد كل إحساسه بالتناسب، وفقد غريزته كمحام.. غريزة البقاء.

قال "سكينر" تكراراً، أجل، كان "برنابى" يتمتع بسمعة ممتازة قبل "الواقعة".

والأرجح، كما علق "سكينر، أن برنابى كان يقال عنه إن غضبه سريع، لكن ليس من الناحية المهنية قط. كان معروفًا بأنه لاعب بوكر ماهر مثلاً. و"لا يحب أحد أن يلعب ضد "ديرك برنابى" البوكر. حتى جاءت قضية قناة الحب.

المرجح أيضًا، كما قال "سكينر" فى تردد، إن "برنابى" بدأ يكتسب سمعة أنه يشرب كثيرًا.. وأصبح "يشرب بكثرة". وهذا شىء جديد عليه، فى الشهور القليلة الماضية.

على الأقل كان إفراط برنابى فى الشرب جديدًا.

وسُئل أن يعلق على شائعة أن "ديرك برنابى" كان "متورطًا" مع وكيلته "نينا أولشاكر"، وأن السيدة "أولشاكر" تعيش حاليًا فى بيت فى ماونت لوكاس استأجره لها "برنابى"، فقال "سكينر" فى جمود إن لا فكرة لديه إن كان هذا صحيحًا ورفض الشائعات، ولكن إن كان هذا صحيحًا، فسوف يساعد على فهم الكثير فى الموضوع.

لماذا يتخلى رجل عن حياته المعنية لأجل إيماءة.

هل اعتقد "سكينر" أن حياة "برنابى" المهنية انتهت؟

ـ "آسف. لا تعليق لدى"".

لن يعلق القاضى "ستراتون هويل" علنًا قط على "الواقعة" التى وقعت فى محكمته، ولا على سلوك "ديرك برنابى" صديقه القديم، صديقه

سابقاً. وعلق على قضية قناة الحب تفصيلاً، وكان هذا فى قراره المكتوب بحرص والذى جاء فيه رفض اتهامات الادعاء وإعلان ألا أساس للمحاكمة.

كان قرارًا "صعبًا" على حد قول "هويل"، كان فى القضية أطراف كثيرة، وفيها أدلة متعارضة كثيرة، و"معقدة بشكل غير معتاد". لكن الموضوعات الأساسية فيها، كما قال "هويل"، كانت موضوعين: العقد الذى تم إبرامه عام ١٩٥٣ الذى وافقت عليه سوان كيميكال ووقعت عليه، وإلزام الهيئة التعليمية لمقاطعة نياجرا قانوناً لسوان كيميكال بأنه "لو وقع الأذى البدنى أو الوفاة"عقاب دفن مواد من النفايات فى قناة الحب، بالتحرر من تحمل النتائج، ثم كان هناك "دليل مطلق لا خلاف حوله" عن الصلة بين قناة الحب أو المنطقة السكنية المعروفة باسم كولفن هايتس، وعدة حالات تم الإبلاغ عنها بالمرض والوفاة فى ذلك الحى فى الأعوام بين ١٩٥٥ و١٩٦٢.

ووجد القاضى هويل أن العقد المثير للجدل الذى تم إبرامه فى عام ١٩٥٣ كان "غير قانونى".. أى أنه "غير ملزم قانوناً" بموجب قانون ولاية نيويورك، لكنه وجد أيضاً أن الادعاء فشل فى إثبات صحة قضيته ضد سوان كيميكال، وضد مجلس مدينة شلالات نياجرا، وضد الهيئة التعليمية لمقاطعة نياجرا، وضد هيئة الصحة لمقاطعة نياجرا، وباقى المتهمين، وتوصل هويل لهذا القرار، على حد قوله، بعد "النظر والتدقيق" فى الدليل المقدم من الطرفين، والذى دار حول الخلاف حول ما يعتبر "التسبب" فى الأمراض والوفاة، لكنه حكم أخيرًا قرارًا يطابق تقرير عام ١٩٥٧ الصادر عن هيئة الصحة لمقاطعة نياجرا، والذى جرى تحديثه فى مارس ١٩٦٢ والذى قال إنه "ليس ثمة دليل غير قابل للدحض بأنه توجد صلة بين العوامل البيئية المذكورة وحالات المرض والوفاة التى وقعت" فى كولفن هايتس.

وبهذا الحكم، تم رفض القضية وإغلاقها.

وبهذا الحكم انتهت حياة "ديرك برنابى" المهنية كمحام، فجأة، وعلى غير المتوقع.

كان بإمكانى تمزيق حلق ابن الحرام هذا بأسنانى، لقد خان العدالة وخاننى.. القاضى ابن الحرام المنافق المرتشى، كنت لأقتله بيدىّ هاتين.

فى الحقيقة لم يندهش.. تلقى تحذيرًا مسبقًا. حيث تلقى تحذيرات مسبقة كثيرة. لعل "ديرك برنابى" كان مضللاً، وربما كان يائسأ فى خضم ضلاله، كما ييأس الرجل فى حب بلا أمل، لكنه كان يعرف ما قد يحدث، كان يعرف كيف كان خصومه أقوياء، وكم سينحاز قاضى شلالات نياجرا لصالحهم ويتزحزح عن العدل.

تساءل سرًا لماذا لم ينسحب "ستراتون هويل" من القضية، على أساس أنه على علاقة ودية وصداقة بمحامى الادعاء لأكثر من عشرين عاماً. الآن يعرف.

لم يخبر "ديرك" "نينا أولشاكر" أو الآخرين، لم يشرك أحدًا فى هواجسه، إدراكه الذى حل عليه بطيئاً.. الإحساس بالغثيان فى معدته، المعارضة التى لاقاها شهوده الخبراء، تقويض حجته الأساسية فى المرافعة بوجود "التسبب". تسعة عشر رجلاً وامرأة وطبيباً وعاملاً طبياً وعالماً وافقوا على تقديم شهادات تحت القسم بالنيابة عن سكان كولفن هايتس، ولم يحضر منهم غير أحد عشر شخصًا، ومن بينهم تكلم الكثيرون بتردد، دونما استعداد للالتزام بالكامل بمعيار "الدليل المطلق الذى لا يمكن دحضه" فهناك دائمًا العوامل الوراثية، والعوامل السلوكية كالشرب والتدخين والأكل بنهم، وهى عوامل يمكن أن "تسبب" مرض الشخص.

وعلى النقيض، جمع "سكينر" وفريقه أكثر من ثلاثين شاهدًا وخبيرًا لدحض حجة "التسبب". وتضمنوا بعض أفضل وأكثر الأطباء احترامًا، ومنهم مدير مستشفى نياجرا العام، وطبيب أورام من مركز ميلارد فيلمور الطبى فى بافالو، وهو متخصص فى سرطان الأطفال، وعالم كيميائى حاصل على جائزة نوبل ويعمل استشارياً فى شركة دو كيميكال، وكانت

حججهم واحدة: بين جملة من العوامل من المستحيل إثبات أن بعض هذه العوامل "تسبب" المرض.

كما لم يُثبت قط أن تدخين التبغ "يسبب" السرطان، لم يثبت أى عالم هذا فى عام ١٩٦٢.

يعملون بأجر لدى سوان.. نقود سوان.. رشاوى.. أولاد حرام!

"ديرك" لا يرغب فى التفكير أن "هويل" قد يكون قبل الرشوة . فى عمله كمحام ربح "هويل" النقود، وأصبح حالياً قاضى المقاطعة فتراجع دخله بشكل ملحوظ، كانت حقيقة من حقائق الحياة العامة: القضاة ورجال السياسة والشرطة فى مراكز يمكنهم فيها قبول الرشاوى، وبعضهم يتمادى حتى أنه يطالب بالرشاوى، وفى شلالات نياجرا ومنذ سنوات الحظر على الخمور فى العشرينيات ـ كما فى بافالو ـ كانت الجريمة المنظمة تمارس نفوذًا قويًا على الحياة العامة. وكان هذا معروفًا لكن "ديرك برنابى" حاول ألا يعرف الكثير.

منذ أعوام حينما كان محاميًا شابًا عدوانيًا يتمتع باسم عائلة "جيد" ـ أى أنه لا يمكن خلطه على أنه اسم عائلة إيطالى الأصل ـ زاره محامٍ من بافالو يتلقى راتباً من أسرة بالادينو، كما كان اسم تلك المنظمة، وعرض على "ديرك" نقودًا كثيرة ليعمل لدى آل "بالادينو" للتجهيز لمرافعة ضد اتهامات من المحامى العام للولاية، فى فترة لجنة كيفاوفر للتحقيق فى الجريمة بمجلس الشيوخ، لكن "ديرك" لم يخضع للإغواء.

كان يكره المجرمين ويخشاهم. المجرمون "المنظمون" ولم يكن بحاجة لأموال ابن الحرام هذا.

وهو يفكر الآن.. خطر له أنه كان يجب أن يرشى عدة شهود مهمين بنفسه، بضعة آلاف إضافية من الدولارات لم تكن لتضر، فقد أنفق الكثير من أمواله، فما الفارق؟ لكن فات الأوان، هزمه أعداؤه.. كان يجب أن يصل إلى شهود "سوان" الأساسيين، ويزيد فى رشوته على رشاوى "سوان" . كان

عليه المخاطرة أكثر مما خاطر فى قضية "نينا أولشاكر"، وابنتها المتوفاة وأطفالها المرضى الذين أصبح يحبهم، أجل، وزوجها "سام"، لكن مستقبل آل "أولشاكر" أصبح غائمًا كالسماء فوق شرقى شلالات نياجرا، إلا أنه يخشى حجزه.. ليس الشق الأخلاقى من القبض عليه وحجزه، بل الحقيقة المجردة للقبض والحجز.. الانكشاف، التصرف بشكل غير مهنى.. مد أعداؤه بأسس للضغط لكى يشطبوه من نقابة المحامين.

وهو ما فعله الآن. لماذا؟

لماذا، لماذا قضيت على مستقبلك المهنى.. على حياتك.
كان هذا مقدرًا. لست نادماً عليه.

فى زنزانة بالطابق الأرضى من سجن مقاطعة نياجرا حيث قضى عشر ساعات "لازدراء المحكمة" فى زنزانة "ديرك برنابى" الأولى تخطر له هذه الأفكار، ما زال دمه ساخناً من الغضب.. الغيمة الحمراء فى مخه. لكن بحق يسوع كم يحس بالتعب.. إلا أن قبضته تنبض وهو يرغب فى النوم.. النوم نوم الموتى.. كم يود احتساء كأس سكوتش جيد، مفاصل أصابع يده اليمنى مخدوشة ومجروحة ومتورمة من لكمة وجه الرجل.. لكمة للعظمة الصلبة سهلة الانسحاق خلف جلد وجهه.

كان هذا مقدرًا. لست نادمًا عليه.

خراء.. خراء. سأندم عليه ما حييت، لكنه كان مقدرًا.

١١ يونيو ١٩٦٢

كان هذا مقدرًا، كان مقدراً.. ما الخيار المتاح؟

حوالى منتصف الليل من ذلك اليوم الذى لم يجد له "ديرك برنابى" اسماً كانت السماء فوق شلالات نياجرا قد بدأت تصفو بعد أمطار قاسية متوحشة وفجأة ظهر القمر، ساطعًا لامعًا حتى أذى عينيه. لكن "ديرك" وجد نفسه يبتسم لرؤيته، رجل نادرًا ما يبتسم إلا فى أوقات غير متوقعة كهذه وهو وحده هكذا، مضى بسيارته وحيدًا فى وقت متأخر من الليل (أو لعلها أول ساعات الصباح) دون إحساس واضح بالساعة أو التاريخ، بخلاف أن إحساسًا بالذنب راوده لشعوره بأنه تأخر.

لم يمض أسبوعان بعد على إهانة "ديرك برنابى" على الملأ و"اعتدائه" والقبض عليه.

راح يقود سيارته الفخمة الملطخة بالطين على طول الطريق السريع من بافالو إلى شلالات نياجرا.. إلى جوار نهر نياجرا غرب وشمال اتجاه الشلالات. الديار! سيذهب إلى داره. رأى السماء الليلة فى أعلى المدينة ملطخة بسحابة تحمل لمعان التلوث الإشعاعى.

لم يكن مخمورًا، منذ كان فى السادسة عشرة وهو يتحكم فى شربه، كما كان يتحمل تبعات تصرفاته.

تمنى لو يفهم أطفاله، رأى أنهم سيفهمون ذات يوم، ربما لا يمكنك تخليص نفسك بقبول المسئولية عن تبعات تصرفاتك، لكن من المؤكد أنه لا يمكنك تخليص نفسك إن لم تفعل.

فى تلك الليلة كان "ديرك برنابى" متجهًا نحو لونا بارك إذًا فالطبيعى أن تعتقد أن "ديرك برنابى" متوجهًا إلى بيته.

كان قلقًا فى تساؤله إن كان سيلقى الترحيب فى البيت أم لا؟ هل يمكن أن أتكلم إلى ماما؟ هكذا طلب من "رويال" وجرى الطفل مبهور الأنفاس عاد بعد عشر ثوانٍ طويلة مبهور الأنفاس وقال باكياً: بابا! ماما تقول إنها ليست فى البيت.. بابا، تقدر تكلمنى!وهكذا تكلم بابا إلى رويال، حتى جاء شخص ما من الطرف الآخر فى صمت حاول "ديرك" ألا يتخيل من، ولا التعبير المرتسم على وجهه المنمش الشاحب وأمسك السماعة من الصبى البالغ من العمر أربعة أعوام، ثم أقفل الخط.

تغيب "ديرك" عن البيت رقم٢٢ لونا بارك لعدة أيام. كان فى بافالو، يتشاور مع أصدقاء من المحامين، اعتقد أنه انهزم فى قضية قناة الحب لكن هذا مؤقت، يمكنه المبادرة بطلب استئناف، ويمكنه المساعدة فى جمع النقود لاتحاد ملاك كولفن هايتس، وإن تم حظره من ممارسة المحاماة، منذ ذلك العصر وفى قاعة المحكمة أصبحت حياة "ديرك" غامضة مستعصية عليه، ولم يكن لديه غير غريزته ليتبعها، أصبح عينة داخل برطمان. اشتم الفورمالدهايد، ولكن كيف يكون عينة وهو لم تفارقه الحياة بعد.

الشطب من النقابة أصبح شيئًا حتميًا. قرر أن يعترف بذنب الاعتداء. دفع غرامة ١٥٠٠٠ دولار وأصبح "حرًا" وسيحكم عليه خلال أسبوع، وسوف يقبل الحكم، ربما الوضع تحت المراقبة لفترة، والسجن.

السجن.. خلال أكثر من عشرين عامًا قضاها "ديرك" فى العمل بالمحاماة، لم يدخل أى أحد من موكليه السجن.

اضطر للاعتراف بالذنب بتهمة الاعتداء؛ لأنه مذنب، ربما كان يدعى الدفاع عن النفس، لكنه لم يكن دفاعًا عن النفس، بل مجرد لكمة قاسية جاءت كرد فعل. أصابها بها وجه رجل برىء. أحس "ديرك" بالخزى، وكان

يعرف أن الخزى سيعمر أكثر منه. لكن فى نياجرا جازيت وكذلك صحف بافالو ظهر "ديرك برنابى" فى صورة البطل على نحو ما.. وإن كان بطلاً متهورًا دمر نفسه.

برنابى محامى قناة الحب يحتج على قرار القاضى

الاعتداء فى قاعة المحكمة يؤدى إلى الحبس

انتهاء قضية قناة الحب

اتهام المحامى برنابى

بالاعتداء فى قاعة المحكمة

منذ ذلك اليوم و"آريا" لم تكلمه. فهم ديرك أنها قد لا تكلمه ثانية قط.

راح يقود سيارته بسرعة ٦٥ ميلاً فى الساعة فى الطريق السريع شبه المهجور حين رأى انعكاس صورة شاحنة كبيرة فى مرآة السيارة، كانت على مسافة أقل من ١٢ قدمًا من مؤخرة سيارته، شاحنة هائلة كما بدت كابينة القيادة بها مرتفعة على نحو غريب، زاد "ديرك" من ضغطه على دواسة البنزين وسارع بالابتعاد، خاضت السيارة اللينكولين الثقيلة فى برك من المياه لتتناثر على أثرها المياه فى رذاذ أشبه بالرذاذ المنبعث من قوارب السباق، شغل "ديرك" مسَّاحة زجاج السيارة وبدأ يتسرب إليه الذعر. زادت الشاحنة من خلفه سرعتها، لا يمكن أن تكون مصادفة، كانت الشاحنة تكبر فى مرآة "ديرك" حتى كادت تصطدم بمؤخرة سيارته.. ضغط "ديرك" بقوة على دواسة البنزين وبلغت سرعته السبعين ميلاً فى الساعة، ثم خمسة وسبعين ميلاً، موقف خطر فى ظل ظروف الطريق هذه. بالطبع يمكنه أن يسبق الشاحنة، لكن لماذا، لماذا هذا ضرورى؟ وإن لم يتعرف على الشاحنة فقد خطرت له فكرة مرعبة.. سوان كيميكال واحدة من شاحناتهم.

مضت السيارة اللينكولين بسرعة الثمانين، وأمسك ديرك بعجلة القيادة بقوة، وإلى جوار الطريق السريع إلى يسار "ديرك"، كان يمضى نهر

نياجرا مسرعًا، دائمًا يحس بالصدمة كلما رأى النهر قريباً منه هكذا إلى جانب الطريق.. هناك عند منطقة الشلالات العليا الخط النهائى، خلفه جزيرة جوت المهجورة، التى لا يمكن أن ترى معالم لها فى الظلام وما وراء جزيرة جوت.. الشلالات الكبرى بألوانها الكرنفالية التى تسطع صيفاً من أجل السياحة، وتتلون وتتغير كما فى منشور زجاجى بشكل يراه "ديرك" منافياً للذوق.. سوقياً، لم يقصد أن يمضى على الطريق إلى جزيرة جوت، كان ينوى الالتفاف عند الشارع الرابع الذى سيؤدى به إلى لونا بارك.

ـ أنت.. ما الذى تفعله بحق جهنم؟

تمكن "ديرك" من الحفاظ على مسافة آمنة بين سيارته المسرعة والشاحنة المسرعة خلفه، لكن سيارته اللينكولين بدأت ترتعد من الضغط المفروض عليها، وفجأة أصبحت يدا "ديرك" الممسكتان بعجلة القيادة رطبتين من العرق، لا يمكنه حساب السرعة التى يحتاج أن ينخفض تحتها لكى يخرج من الطريق السريع وهذه الشاحنة الملعونة خلفه، وهو فى الحارة اليمنى من الطريق ولا يمكنه المضى لأى مكان آخر غير جانب الطريق، وجانب الطريق السريع ملىء بالحفر والمياه، ويبدو خطيراً. شعر "ديرك" بأن سائق الشاحنة الخفى الجاسم وراء زجاج شاحنته المرتفع لن يسمح "لديرك" بتخفيف السرعة حتى يستطيع النزول إلى جانب الطريق.

تقدما على الطريق هكذا مسافة ميل آخر، وإلى يمينه تقدمت سيارة أخرى صامتة كسمكة القرش، أهى سيارة شرطة؟ لم ير لها نوراً على سقفها، ولم يسمع "سارينة". لكنه لاحظ أن العربة تتبع قسم شرطة شلالات نياجرا، وكانت تتقدم إلى جانبه على جانب الطريق، بنفس سرعة "ديرك" البالغة ٨٢ ميلاً فى الساعة.

اختلس "ديرك" نظرة إلى السائق منزعجًا، فرأى شخصًا يرتدى نظارة سوداء، ويعتمر قبعة تخفى جبينه، ضابط شرطة وحيد؟ رأى "ديرك" فى هذا نذير شؤم، قام بتشغيل إشارة ضوئية تعنى الالتفاف لليمين، لكن لم يمكنه بلوغ المخرج، لا يمكنه زيادة السرعة بما يكفى، ولا يمكنه أن يبطئ

وهو محاصر من السيارة التى على يمينه والشاحنة من خلفه.. همس يريدون قتلى.. لا يعرفوننى! خطرت له الفكرة سريعة وهادئة وإن كانت فكرة منطقية كنظريات الهندسة التى حفظها ديرك فى المدرسة الثانوية ثم أحس بالعزاء فى الفكرة، ولكنه لم يؤمن بها.. تراجعت شفتاه لتكشف عن أسنانه التى تبدى منها ابتسامة ساخرة.. لا يمكن! هذا لا يمكن.. ليس هكذا، ليس بهذا الشكل الفورى الوقح، وليس الآن. ليس حينما لدى عمل كثير أؤديه. ما زلت شابًا.. أحب زوجتى.. أحب أسرتى. إذا عرفتمونى! مالت سيارة الشرطة قريبًا من حارة "ديرك". فأطلق "ديرك" بوق السيارة، وصاح فى السيارة. وأحس بمثانته تؤلمه.. جسده يغمره الأدرينالين، السيارة اللينكولين بلغت سرعتها ٨٦ ميلاً فى الساعة، أسرع مما قاد "ديرك" أية سيارة يومًا، لا يمكن أن تزيد سرعتها على هذا، لكن "ديرك" ضغط على دواسة الوقود أقوى. كان يحاول إنقاذ حياته، فمال مبتعدًا عن السيارة متوجهًا إلى الحارة الوسطى من الطريق السريع، وأخيرًا إلى الحارة اليسرى، متمنيًا على المسيح ألا يصدمه أحد قادم من الاتجاه العكسى، خاضت إطارات اللينكولين فى بركة مياه عميقة واسعة وقفزت المياه إلى زجاج السيارة كاللهب، فرأى حاجز الطريق يداهمه وقد سلطت عليه أضواء السيارة الأمامية، وراحت السيارة ترتجف وتتزلج ماضية إلى الأمام، رأى نهر نياجرا عالى الأمواج تحركه الرياح القوية فى وهج غير طبيعى من السماء.. كان قريبًا للغاية من الطريق السريع حتى يهيئ لك أنه يفيض إلى الطريق.

وكان هذا كل ما رآه "ديرك برنابى".

الأحمق المسكين.. تخليت عن حياتك، ومقابل ماذا؟!

الجزء الثالث

بلطيق

الأسرة هى كل ما على الأرض، بما أنه لا يوجد رب على الأرض.

عدنا للعيش فى البيت الطوبى وسط شقق الإسكان فى منزل رقم ١٧٠٢ بشارع بلطيق قرابة طريق فيتيرانس، فى الحى الإسكانى الذى تقع على حدوده من ناحية الشرق شركة سكة حديد بافالو وشاوتاوكوا. وكنا تحت الشارع الخمسين، على بعد أميال من قناة الحب، تم بناء بيتنا عام ١٩٢٨ .بيت "القبح الأليم" كما ستطلق عليه "آريا".

البيت الآخر فى لونا بارك تم بيعه سريعًا فى أواخر صيف عام ١٩٦٢ .باعته أمنا على أية حال.

وصفتنا بأننا "شبه معدمين" سننشأ مرتبطين بهذه العبارة الغامضة دون أن نعرف ما تعنيه بالضبط. إلا أن شبه المعدمين كان ظرفًا دائمًا قائمًا، ربما حالة روحانية تخصنا.. أطفال برنابى الذين بلا أب.

ـ إذا سألوا عنه قولوا لهم: حدث هذا قبل أن أولد.

دائمًا ما يوجد "هم".. دائمًا ما يوجد "نحن".

أغلقت "آريا" الباب "عليهم" أوصدت كل النوافذ والشبابيك، لم ترحب فى البيت رقم ١٧٠٢شارع بلطيق غير بتلاميذ البيانو خاصتها، الذين تدخلهم إلى قاعة استقبال كانت حجرة الموسيقى لسنوات، وإلى شرفة فى مؤخرة المنزل تم إعادة تصميمها وإغلاقها وأصبحت حجرة الموسيقى "الجديدة".

حدث هذا قبل أن أولد.. نطقنا هذه الكلمات مرات كثيرة.. رأيناها حقيقية.

- تعاليم اليوم هى: هل تحصل على ما تستحق؟ أم أنك تستحق ما تحصل عليه؟

كانت عيناها كالبنزين الأخضر الموشك على الاشتعال، لكن.. سيخطر لك فيما بعد أن آريا كانت تبتسم.

سنوات من الابتسام، وذراعاها القويتان يحتضناننا، والقبلات الساخنة الملتهبة تبعد كابوس الطفل الليلى بالخسارة والدمار والفوضى.

- ماما هنا يا حبيبى.. ماما هنا دائماً.

هكذا كان الوضع زاريو رفيقها بشعره الخشن وعينيه اليقظتين المتحفزتين، يلكز ويضرب بأنفه ويمسح على نحو أخرق على مخالبه التى قارب شكلها الشكل البشرى.. يمسح فى اشتياق.

إذا لم تتمكن ماما من النوم مع أحدنا إذ توقظه الكوابيس، يمكن لزاريو أن يفعل هذا. يقترب منا ويرتعد فى استمتاع كلبى. أنفه الرطب البارد يستدفئ تدريجياً.. فى انحناءة ذراع طفل.

- "ماما هنا" تدور بعينيها نحو السماء.. لكنه سقف البيت، هى مزحة جارية فى البيت، كما هو حال برنامج الراديو المستمر.. ذلك الرب الأب كيان غريب شاذ الطباع يقبع على مسافة عدة أقدام فوق السقف ذى الألواح الخشبية الذى تتسرب منه الأمطار. "أو ربما أقصد شبح ماما. ماضيًا فى طريقه بلا كلل".

وراء البيت فناء خلفى كثير العشب والأعشاب.. كتلة من أقفاص الدجاج الصدئة المصنوعة من الأسلاك.. وحاجز السكة الحديد البالغ ارتفاعه ثلاثة أقدام، قطارات البضائع تمر بعنف بالغ مرتين إلى ثلاث مرات يوميًا وكثيرًا ما تمر ليلاً.. بافالو وشاوتاوكوا.. بالتيمور وأوهايو.. محطة نيويورك المركزية. شيناندوا. سوسكويهانا. لا شىء جميل فى القطارات بدخانها الأسود المتصاعد وعربات البضائع التى تقعقع

وتصلصل فى رءوسنا بخلاف الأسماء.. شاوتاوكوا، شيناندوا، سوسكويهانا.

- "لا تبك أبدًا.. ليس على الملأ، وليس فى البيت.. إذا وجدت أحدكم يومًا يبكى فسوف أقوم بنفسى بـ.." كفت "آريا" عن الكلام. عيون البنزين تلمع.. زاريو يهز ذيله فى إحساس بالإثارة، متلهفًا على مراقبة سيدته، كنا جمهور تليفزيون "آريا".. كنا نحاول التعرف على الاختلاف المضحك بين سلوك أمى الدقيق المعلن المغروس فيها، وأسلوبها فى الكلام فى مثل هذه الأوقات الشبيه بشخصيات القصص المصورة.. ".. بضربكم ضربًا مؤلمًا.. هل فهمتم؟"

فعلنا.. فهمنا. فى الواقع لم نفهم يومًا، لكننا كنا على حذر منها.

هناك "شاندلر". بين ثلاثتنا هو الأكبر، وسيبقى الأكبر دومًا، ثم "رويال" الأصغر من شقيقه بسبعة أعوام. ثم جولييت التى ولدت عام ١٩٦١ .. وهو وقت متأخر للغاية.

أقفاص الدجاج القديمة الصدئة هذه! ما زلت أحلم بها أحيانًا. جيراننا المجاورون لنا قالوا لنا إنها كانت أقفاص أرانب يومًا ما، الأرانب مخلوقات ناعمة الفراء طويلة الأذن مهذبة السلوك لامعة الأعين.. ثم كبرت على مساكنها الضيقة، أحياناً يضغط فراؤها على سلك القفص فيتهادى رقيقًا رفيقًا مع الرياح، الأرانب كائنات وحيدة.. تلتزم قفصها. أحصينا سبعة أقفاص. هناك المزيد ولكن صداه بالغ ومحطم.. فى قبو منزلنا، سأل "شاندلر" ما الهدف من وضع الأرانب فى أقفاص صغيرة كهذه، لكن كانت الإجابة غير واضحة.

تحت الأقفاص الفضلات المتكلسة، كياقوتات شبه نفيسة مفقودة وسط العشب والتراب.

حدث هذا قبل أن أولد، لم تتم استعادة الجسد قط، خرجت السيارة من نهر نياجرا قرب حاجز النهر لكن الجسد لم يُستعاد أبدًا وهكذا لم تُقم جنازة، ولن توجد مقبرة. لا حداد ولا ذكرى.

لن تتكلم "آريا" عنه أبدًا، لن تسمح لنا بالسؤال عنه.. قط. ليس الأمر أن والدنا الذى لا اسم له ميت وقد مات، كما عرفنا دومًا فى ظروف غامضة - بل إنه لا يوجد أب.. قبل موته بكثير مات بالنسبة لنا.. بمحض اختياره. خاننا هو.. انشق عن الأسرة.

المرأة ذات السواد

ـ ١ ـ

هذه المقبرة!

راح "رويال" يفكر.. كيف أن الشمس الدافئة بدأت وكأن بها ما يسوء فى موضعها هنا، لا يمكنه تحديد ما يقصده، لكن لا شك أن ثمة ما يسوء هنا.

كان قد اعتزم التوقف لفترة طويلة. فعقله يشبه خلية النحل، إذ تستغرق الأفكار وقتًا قبل أن تتخلل مخه إلى النقطة حيث تصدر عنه ردود أفعال تجاهها، لكن أخيرًا إذا لم تكن نافد الصبر، فسوف يَصدر رد فعل "رويال".. ربما.

كان صباح الجمعة فى أكتوبر من عام ١٩٧٧ ."رويال" فى التاسعة عشرة من عمره وسرعان ما سيصبح رجلاً متزوجًا.

"رويال" موجوع القلب.. من يعرف السبب؟ فهو يبقيه سرًا.

هذه المقبرة على طريق بورتاج التى يمر بجوارها لأكثر من عام وكان ينوى استكشافها.. مكان قديم مهجور إلى جوار كنيسة مهجورة بدت وحيدة منعزلة وبحاجة للزائرين. "رويال" يحسن رؤية مثل هذه الأشياء، ليس بدافع من الشفقة، كما خطر له، لاحتى بدافع من الفضول، وكأنك تأخذ فى الإعجاب بالشىء كما اعتادت آريا القول. كانت "آريا" لتشعر بالغضب إذا رأته هنا... لكن "آريا" لن تعرف.

دخل "رويال" المقبرة من بوابتها الأمامية المفتوحة، كانت من الحديد المشغول، وصدئة للغاية، لا يمكنك تبين الحروف التى أعلى البوابة فهى صدئة بحيث لم تعد قراءتها ممكنة، شواهد القبور قرب البوابة قديمة أكل عليها الدهر وشرب، تعود إلى.. إلى متى؟ الشواهد الأقدم التى رآها كانت رفيعة وكأنها أوراق لعب.. منحنية مائلة وكأنها على وشك السقوط، الحروف عليها باهتة حتى أن "رويال" بالكاد تمكن من قراءتها لكن التواريخ بدت مثل ١٧٤١ـ ١٧٨٩ .منذ زمن بعيد للغاية حتى أن رويال أحس بالدوار وهو يحسب الأجيال التى مرت.

الشلالات تبلغ من العمر ملايين السنوات طبعًا، مثل الأرض، لكنها ليست أشياء حية، لم تكن حية يومًا.. ولم تكن ميتة.. إنها مختلفة بالأساس.

أحب "رويال" فكرة أنه لا يعرف أشخاصًا موتى، أبداً لم يزر مقبرة لزيارة قبر بعينه.

أليس هذا غير اعتيادى؟ كذا سألته خطيبته، فمعظمنا نعرف الكثير من الأشخاص الموتى.

ضحك "رويال" وقال لها، كما تقول أمه، إن آل "برنابى" ليسوا كثيرين.

عشب مرتفع، ونباتات شوكية عالية، أعشاب منتشرة فى كل موضع بالمقبرة.. تزحم شواهد القبور والجدار الحجرى الآيل للسقوط حيث لا يمكن لبستانى هذه المنطقة ـ إن كان لها واحد ـ أن يشذب العشب. داهم "رويال" إحساس مفاجئ بوجوب تشذيب العشب هنا بنفسه (أحياناً يحب جز العشب، ليس دائمًا لكن أحيانًا. ظهره وكتفاه وذراعاه مفتول العضلات.. يداه صلبتان.. يداه كبيرتان قادرتان على الكثير، وبجزازة عشب يدوية كان "رويال" فى العادة هو من يشذب العشب فى البيت، إذا تلكأ "رويال" فيقينًا سوف تمسك "آريا" بالجزازة وتبدأ فى دفعها بنفسها، وهى تلهث فى غضب وهى تدفع نصال الجزازة غير الحادة فى العشب المبتل، لكى تحرج "رويال").

يوم خريفى دافئ فى هذا المكان المهجور.. مكان جميل وبدا أن فيه شيئًا غير سليم "لرويال". لأن الموتى لا يشعرون بالشمس، لأن أفواه الموتى يملؤها التراب، وعيونهم مغمضة لا تفتح أبدًا، عظام مشعة تلمع فى ظلام الأرض.

من أين تراودك أفكارك الغريبة، هكذا تسأله خطيبته دومًا، ثم سرعان ما تقبل "رويال" على شفتيه حتى لا يشعر بالإهانة.

لم يرغب "رويال" فى قول من أحلامى.. من الأرض.

فى واقع الأمر"رويال" واثق أنه سبق له رؤية صور فوتوغرافية لعظام مشعة فيما سبق، فى كتاب أو مجلة، ربما كانت صورًا بالأشعة السينية، ثم صورة الأسرة اليابانية، كل ما تبقى منهم ظلال مظلمة ملتصقة جدار فى بيتهم فى هيروشيما فى وقت يسبق ولادة "رويال" و"كاندس" بكثير، حين أمر الرئيس "هارى إس ترومان" بإلقاء القنبلة الذرية على العدو اليابانى.

لم يخبر "رويال" كاندس أبدًا بالأشياء التى تزعجها وتضايقها، وهو طفل بعد أن عرف أن ثمة أشياء لا تُقال ولا تُسأل، إذا أخطأت فسوف تتصلب ماما وتتراجع وكأنك بصقت عليها، إذا تصرفت على النحو الصحيح، تعانقك ماما وتقبلك وتهزك بين ذراعيها الرفيعتين القويتين.

أدرك "رويال" يصفر ومن وراء شجرة دردار طويلة ردد طائر ذات صوت رقراق صوته. خطيبة رويال تحب أن تقول إنه يتمتع بقلب صبى يصفر أكثر من أى شخص عرفته.

خطيبته! غدًا.. بعد الساعة ١١صباحًا بقليل، ستصبح كاندس ماكان عروسه.

هى عادة غريبة.. لم يفكر "رويال" فيها من قبل قط. شخص جديد يدخل إلى هذا العالم: السيدة رويال برنابى. لكن هذا الشخص لا وجود له.

فى البيت ذى الطوب والألواح الخشبية فى شارع بلطيق جاء البريد أحياناً موجهًا إلى السيدة "ديرك برنابى" أو السيدة "دى برنابى". خطابات رسمية المظهر من مجلس مدينة شلالات نياجرا ومن ولاية نيويورك.. تأخذها "آريا" سريعًا وتبعدها. إذا عَنَّ لأحد أن يعرف.

اكتشف "رويال" أن المقبرة أكبر مما تخيل حين كان على الطريق، تغطى مساحة تقارب الفدانين، أشجار بلوط طويلة ودردار ماتت أجزاء منه ..أطراف وغصون مشققة وأوراق جافة. البرارى.. وزهرات برية متناثرة بلا انتظام كسلك شائك. رائحة هذا الخريف هى رائحة أوراق الأشجار والأشياء الملساء العفنة، المقبرة مرتفعة الأرض عند الأطراف، وبدا له هذا أيضًا خطأ، المقابر على التلال تبدو وكأنها سوف تندثر فى عاصفة الأمطار القادمة.. إذ تلفظ الأرض جزءاً منها.. نيئًا أحمر رطبًا، مبعثه التآكل.. وتتعرى جذور الأشجار، هذه الجذور لها مظهر الألم أو التهديد، وكأنها شخص ميت، تحاصرها الأرض، وتنشب مخالبها فى الأرض تسعى إلى الحرية.

أحس "رويال" بالدوار للحظة. أبطأ فى صفيره، ثم جمد قلبه ومضى.

أهناك من يراقبه؟ التفت خلفه مقطب الجبين. تذكر رؤية سيارة فورد أقدم من سيارته متوقفة إلى جوار الكنيسة، كانت سيارة "رويال" شيفروليه موديل ١٩٧١ أعيد طلاؤها مؤخرًا (لونها أزرق سماوى وأبيض بلون العاج) واشتراها بمبلغ ٣٠٠ دولار من رئيسه فى شركة رحلات "حفرة الشيطان" البحرية، وكانت متوقفة لدى بوابة المقبرة.

كان رئيسه القبطان ستو، مثل أمه "آريا"، ليحبط عندما يرى "رويال" يجول هكذا فى هذا المكان الذى لا نفع منه، يصفر يضرب حذاءه على التربة الرطبة، بالطبع يجب أن يكون "رويال" فى سيارته فى طريقه إلى العمل. يساعد رويال ملاح السفينة القبطان ستو. ويرتدى "رويال" زيًا رسميًا ضد الماء بحرى المظهر ولقبه هو الملازم كابتن "رويال"، وبما أنه

أصغر من القبطان ستو بعشرين عاماً وشكله أفضل منه بكثير، فقد كان "رويال" هو الذى تلتقط له الصور الفوتوغرافية أكثر مع السائحات والأطفال. ولكن قبل التخرج فى مدرسة نياجرا الثانوية فى عام ١٩٧٦كان "رويال" يعمل على سفن "حفرة الشيطان" ويجنى نقودًا كثيرة.

لم يكن "رويال" من نوع الأشخاص الذين قد يسألون أنفسهم: لماذا توقفت هنا؟

لم يكن "رويال" من النوع الذى يحسب كل حركة له وكأنه لاعب شطرنج، ولا كمن يسألون لماذا؟ لماذا الآن؟ بينما أنا سأتزوج غدًا.

اكتشف "رويال" مقابر جديدة أحدث عمرًا، كان الموتى فيها مولودين فى بداية القرن العشرين وبعضهم لم يمت حتى الأربعينات.. ماتوا فى الحرب. ثمة ملاك أسمنتى بجناحين وعيون عمياء مصمتة وأذن مقطوعة يحرس قبر رجل يدعى بروميل ولد عام ١٨٩٨ ولم يمت حتى عام ١٩٦٢ وهو ما يعد منذ فترة قريبة للغاية، بدأ "رويال" يشعر بالتحذير، يجب أن تحترس يا رجل.. هذا الصوت، الصوت الماكر وإن كان طيبًا، أحيانًا ما يسمعه حينما يوشك على ارتكاب غلطة.

فى الأغلب لا يعرف "رويال" ما يقوله الصوت، إذا حاول الإنصات يختفى الصوت، لكن من المريح سماعه وكأنما هو شخص يفكر فيه.. رويال برنابى.. حتى وإن خبره منطقه أن لا أحد يفعل.

قالت "جوليت" شقيقة "رويال" له إنها تسمع أصواتاً، أحيانًا، أصوات تطالبها بأداء أشياء مؤلمة.

أشياء مؤلمة! ضحك "رويال"، "فجوليت" ليست قادرة على أن تؤلم عنكبوتاً .

ولماذا ينصحك صوت ما بهذه النصيحة؟ كذا تساءل "رويال". وقالت "جوليت" وكأنما ما تقوله حقيقة لا جدال حولها: لأن علينا لعنة. لعنة على أسرتنا.

لعنة! مثل لعنة ماما؟ فرانكشتاين؟ اضطر رويال للضحك، فهذه المحادثة سخيفة للغاية. لا يوجد ما يدعى لعنة. سلى شاندلر.. سلى ماما.

بطريقتها العنيدة الهادئة قالت جولييت: هذا ما تقوله الأصوات يا "رويال". لا يمكننى أن أملى عليها ما تقوله.

لا بأس. "رويال" لا يعتقد بأية لعنة لعينة، لا يعتقد فيها كما لا يعتقد فيها "شاندلر" الذى كان عقل الأسرة المفكر.

لكنه أسرع فى سيره، وكأن لديه مكانًا يذهب إليه وكأنه لا يتجول على غير هدى، فوقه انقشعت السحب من السماء وخرجت الشمس من بينها بيضاء حارة، وكأنها شىء يذوب. النور المائل يوحى بالخريف، إلى جوار شلالات نياجرا ستكون رائحة الهواء هى رائحة الصقيع.. رائحة البخار المتطاير، لكن هنا ناحية البر تشم رائحة التربة العذبة المتعفنة ترتفع من العشب. توقف "رويال" وأغمض عينيه، بم تذكره.. بالتبغ، سيجار كورونا حلو الرائحة. "رويال" لا يدخن ، تتباهى آريا بأنها أدخلت إلى عقول أطفالها أن التدخين عادة نجسة وسيئة بقدر سوء تعاطى الهيروين لكنه جرب سيجارين قدمهما له رجال مقامرون أكبر سنًا كان يخرج معهم أحياناً، فى منطقة وسط المدينة. وقتها سعل وأحس بالاختناق، واغرورقت عيناه بالدموع، وقرر أن السجائر لا تناسبه وإن ظل منجذبًا إلى رائحة التبغ الأرضية الداكنة.

أحس باحتياج جنسى بين فخذيه لدى فكرة التزوج غدًا. ليلة "رويال" الكاملة الأولى مع كاندس ماكان فى سرير حقيقى.

حارة ضيقة مفترشة بالحصى تمر عبر البوابة المفتوحة إلى وسط المقبرة، لكن إذا تبعتها تصل إلى نهايتها فجأة، فالدرب ينتهى فجأة. صفوف من شواهد القبور لأشخاص ولدوا فى العقود الأولى من القرن العشرين وماتوا خلال الأربعينات والخمسينات والستينات، يوم دافئ على غير العادة من شهر أكتوبر.. يوم مشمس بلا رياح.. تكاد تخفى عليك حقيقة أن الشلالات على بعد أقل من ميلين.

قرر "رويال" أخيراً أن المقبرة مثل المدينة، تحمل من الظلم ما تحمله المدينة والحياة، معظم شواهد القبور أحجار عادية، أحجار تأثرت بالطقس وتعلوها فضلات الطيور، فيما ترى بعض الشواهد الأخرى باهظة وكبيرة ومصنوعة من الجرانيت أو الرخام لها واجهات لامعة منقوشة. هذه أرض مسيحية بلا ريب، فى كل موضع منها علامات تشير إلى الفرحة بالموت والجنة. الرب راعى فلا يعوزنى شىء واليوم سأكون معك فى الفردوس.

هل يؤمن المسيحيون حقًا ببعث الجسد؟ هذا لغز بالنسبة "لرويال".. ما حاولت "كاندس" بطريقتها المترددة فى شرحه له.

دائماً ما قالت "آريا" باستهزاء إنه لا يوجد رب على الأرض، ولكن "ربما يوجد رب يراقب" مما يجعل الأزمة الإنسانية أسوأ، فالرب خداع، أفعاله غير متوقعة، وبمصطلحات المقامرة.. الرب معه كل الأوراق الجيدة، الرب يملك الكازينو.. الكازينو هو الرب، لا يمكنك أن تأمل فى معرفة الرب أو مخططه، لكنه موجود ولهذا فيجب أن تلزم اليقظة والحذر. فى إحدى النوبات الدينية التى تعتريها فى أوقات غير متوقعة، وكأنها الإصابة بالأنفلونزا، ربما تصر "آريا" على أن يصحبها أطفالها إلى الكنيسة، لكن فى معظم الأوقات تحتقر هذه الخرافات وهذا السلوك الجبان، ولم يأخذ "رويال" أى من هذا على محمل الجد. ولا يمكنه أن يتبين لماذا قد يأخذه أى شخص على محمل الجد، خاصة ذلك الجزء الخاص بجهنم.

فى شلالات نياجرا المزحة السائدة هى: من يحتاج جهنم؟ لدينا قناة الحب.

مد "رويال" رقبته ليطالع يسوع المسيح المنتصب بطول عشرة أقدام على الصليب الحجرى. ثمة عش طيور من القش مبنى عند عارضة الصليب، هذا المسيح له رأس جميل التكوين يرتدى تاجًا لكنه ظافر المظهر. لكننى سأنهض من جديد. ارتعد "رويال"، ثمة شىء مثير هنا، لكنه ممتن؛ لأنه لم يعمد مسيحياً. يتوقع منك الكثير! بالقرب كانت سبعة

تماثيل حجرية لملائكة، واحد أو اثنان لا تعرف إن كانت مؤنثة أم مذكرة. أم أنه لا يوجد تفرقة جنسية بين الملائكة؟ الملاك الذى يحبه "رويال" أكثر هو ملاك صبى بجناحين كأجنحة الصقور وقوية ذى شفة عليا توحى بالميل للمشاجرة. يشبه "رويال" قليلاً. فضلات العصافير تلمع بلون أخضر مشع على رأس الملاك وجناحيه لكن الملاك يحدق لأعلى دونما إحساس بأى ضيق، وتحملك الملائكة إلى مستقر راحتك. تساءل "رويال" أى توق شديد ألهم البشر فى بادئ الأمر بفكرة الملائكة.

- الأرجح أنه كان حلم راود أحدهم.

تكلم "رويال" بصوت مسموع يملؤه التعجب كما يفعل كثيرًا حين يكون وحده، هى عادة اكتسبها من أيام الطفولة، كالصفير والغمغمة بصوت مسموع، بل والغناء. فلدى سماعه كان الناس يميلون للابتسام، روحه مرحة غير معقدة.. كذا يفكرون فى "رويال برنابى".

لكنه ليس ناضجًا، وليس طموحًا، تمكن بالكاد من تجاوز المدرسة الثانوية على الرغم من أنه (وكما أصر معلمه) كان ذكيًا بما فيه الكفاية، ولكنه كسول، تمتع بسمعة فى المدرسة بأنه ولد طيب يتطوع لأية مهمة، مثل دفع المناضد والمقاعد فى الكافيتيريا ورفع الصناديق ونقلها للطوابق الأعلى، وكان يغير إطارات السيارات المثقوبة لأكثر من معلم واحد، وساعد فى دفع سيارات المعلمين عندما تغرس فى الثلج، هو صبى يسقط فى مادة ما لأن يوم الاختبار طلب منه صديق خدمة وتطوع "رويال" بأدائها، فى العام الماضى كان يفشل فى التخرج مع فرقته، هو "رويال برنابى" الذى اختاروه "الأكثر وسامة" فى الفرقة المتخرجة، إلا أن انتباهه كان مشتتاً، ربما كان سيصبح من بين العشرة طلاب من فرقته البالغ عددها مائة وأحد عشر طالبًا الذين دخلوا الجامعة، لكنه لم يتخرج حتى بدبلومة من ولاية نيويورك، بل دبلومة محلية.

ليس مثل شقيقه "شاندلر" الذى تخرج مع مرتبة الشرف من مدرسة شلالات نياجرا الثانوية، لكن من يود أن يكون "شاندلر"؟ الفتى المسكين،

ذكى بما يتجاوز مصلحته، والأرجح حين تفكر فى الأمر تجده غير ذكى بما يكفى. كاد يسقط فى السنة الأولى بالجامعة فى جامعة الولاية فى بافالو ويخسر المنحة الدراسية، والآن أصبح يدرس فى مدرسة شلالات نياجرا ويجنى نقودًا أقل من "رويال" الذى يصطحب السائحين بصراخهم وصياحهم إلى شلالات نياجرا القوية المتدفقة ويعود بهم إلى الأرض أحياء.

رأى "رويال" حركة على الجانب البعيد من المقبرة بالقرب من الكنيسة، حيث كان شخصًا ما يعتنى بقبر، شخص وحيد يميل على الأرض ويحرك مقص العشب بسرعة.تلك الرغبة الجنسية المفاجئة ثانية بين فخذيه. فجأة ودون مقدمات أصابته.

ركض "رويال" أعلى أحد المرتفعات عند مؤخرة المقبرة حيث شواهد القبور تحمل تواريخ تصل إلى أغسطس ١٩٧٧، ولم يكن منها الكثير فالمقبرة شبه ممتلئة، فى هذا الصف كانت توجد قطعة أرض أكثر تنظيمًا من المواضع الأخرى، والشواهد بمختلف مقاساتها منتصبة بزاوية قائمة، كانت واجهاتها لامعة كخشب الفورمايكا، المعزون جلبوا باقات من الجيرانيوم والهيدرانجيا، معظمها زهور ماتت منذ وقت طويل. زنابق عيد الفصح البلاستيكية وربطات اللبلاب البلاستيكية.. أعلام أمريكية صغيرة قائمة على عصى، تحركت عينا "رويال" سريعًا تمسحان القبور وكأنهما تسعيان لقراءة اسم مألوف، وإذا سألته عن الاسم الذى يسعى لقراءته، ما كان "رويال" ليفصح. وحول الأمر لمزحة كما تفعل "آريا"..

" - سأعرفه حين أراه".

ثم إن المرأة ذات السواد كانت تنتظره عند سفح التل.

كان "رويال" ينزل المنحدر المتآكل متعثرًا متزلجًا، وهو يمسك بجذور الأشجار المكشوفة ليحافظ على توازنه. كان عليه الوصول إلى العمل فى خمس دقائق كعادته دائمًا! هذا هو "رويال"! فقد إحساسه بالزمن تمامًا.

سيصل إلى شفتيه عذر عفوى سهل حين يصل إلى مرفأ حفرة الشيطان، ولن يقلق من هذا الشأن، راح يهرول بين صفوف المقابر دون أن يراعى ضربات قدميه الثقيلتين، رأى مرأة واقفة على بعد عشرين ياردة منه تراقبه، كان تركيزها منصبًا عليه لأقصى حد، هل يعرفها "رويال"؟ وهل يجب أن يحييها بتهذيب؟ هل تعرفه؟ كانت المرأة ترتدى طبقات من الثياب السوداء تصل إلى كاحليها، شعرها الأسود الأشعث تخطه شعرات رمادية وكأنها شقوق غائرة فيه. ارتعشت شفتاها فى ابتسامة حالمة.

أبطأ "رويال" مثل غزال ضربه سهم، ليست ضربة قاتلة بل قوية بما يكفى لتوقفه، لم يرغب فى التحديق بوقاحة فى المرأة لكنه لم يتمكن من إبعاد عينيه عنها.. من على بعد ربما كان ليخطئها على أنها فتاة فى عمر "جولييت"، لكن عن قرب.. فى ضوء الشمس الأبيض المشع، رأى أنها أكبر سنًا بكثير، فى أوائل الأربعينات ربما، لكن سلوكها وحركاتها تجعلها تشبه الفتاة.. مبهورة الأنفاس. جلدها شاحب كالورق الأبيض وعيناها غائرتان بعض الشيء فى محجريهما. وعلى خديها النحيفتين بقعتا مسحوق تجميل، كانت جذابة بطريقة ذابلة متهرئة نوعًا، وكأنها بطلة فيلم من الأربعينيات.. بعد سنوات من زهرة الشباب. شعرها الأسود المخطوط بالرمادى يتهدل على كتفيها أشعث متموج، ملابسها أغرب ملابس يراها على زائرة للمقابر.. ثوب أسود ضيق لامع ينزل على جسدها النحيل حتى كاحليها وكأنه قميص نوم، فوقه سترة ساتان سوداء مفتوحة الأزرار بأطراف سوداء ريشية الملمس، وأزرار السترة مصنوعة من أحجار لامعة ماسية سوداء. حول عنق المرأة وشاح أسود من كروشيه قديم الملمس وكأنه نسيج عنكبوت. ابتلع "رويال" ريقه بصعوبة حين رأى قدميها الحافيتين تغوصان فى العشب الطينى المتلبد، ثم طريقتها المتطلعة فى الوقوف والميل على شاهد قبر قديم تراقبه وهو يقترب منها.

أدرك "رويال" أنه لابد أن المرأة كانت انتظاره. رأته يتسلق التل فانتظرت أن يهبط ثانية. أسقطت من يدها مقص جز العشب إلى جوار القبر الذى كانت تشذب العشب حوله.

- "أهلاً".. صوت المرأة منخفض مبحوح متقطعة الأنفاس.

أجابها "رويال" متلعثمًا فى خجل: "أهلاً".

- إننا نعرف بعضنا، أليس كذلك؟

- آ.. لا أعتقد هذا يا سيدتى".

- "بل أعتقد هذا".. ابتسمت المرأة وظهر فى عينيها نور متوحش مصفر.. تساءل "رويال" إن كانت مخمورة أو تحت تأثير مخدر أم أنها مخبولة إلى حد ما.. راحت تضغط بأصابع يدها اليمنى المباعدة ما بينها على طرف الوشاح العنكبوتى بحيث التصق بثديها الأيمن، بطريقة توحى بأن قلبها يخفق بقوة. ارتعشت ركبتا "رويال".

راوده إحساس مشئوم نحو ما يراه، ثم بدأ النبض يشتد بين ساقيه، وهو ما يعرف أنه إحساس خاطئ، ويعرف أن لا محل له ها هنا. المرأة كبيرة بما يكفى لتكون أم "رويال"! وبدت له مألوفة على نحو ما، أحدهن اللاتى صادقن "آريا" فى واحدة من الكنائس الصغيرة، التى كانت "آريا" تذهب إليها فى السنوات الأخيرة. أو لعلها جارة من شارع بلطيق، أو أم لصديق من أصدقاء "رويال" فى المدرسة الثانوية، أو أم لحبيبة سابقة، وسوف تقول فى جملتها التالية كم اشتاقت هى وابنتها له، ربما؟ كان "رويال" صبيًا مهملاً لا يقتطع لنفسه أبدًا وقتًا كافيًا ليحفظ أسماء من يقابلهم ويقول لنفسه بمنطقه الطفولى إنه سيقابلهم ثانية لا محالة، أو إذا كان لن يقابلهم ثانية، فما فائدة تذكر أسمائهم؟ وكان "رويال" ينسى على الأخص أسماء الأشخاص الكبار سنًا، لم يذكر اسمى عمتيه اللتين تعيشان فى إيل جراند وفى المدرسة لم يتمكن من تذكر أسماء معلماته فى الإجازات الصيفية.

وكأنها قادرة على قراءة هذه الأفكار المتشعبة التى راودته وهو على شفا الإحساس بالذعر، فتحركت المرأة سريعًا نحو "رويال" وأمسكت بيده بقوة بين يديها، جذبته إليها وابتسمت. كانت أقصر من "رويال" بعدة

بوصات، رفعت عينيها إليه وكأنها زهرة تتوق إلى الشمس دون أى اعتبارات أخرى، همست: "إننى أعرفك.. نعم.. أنت ابنه، هذه، هذه.. هذه معجزة". وبرفق أحاطت المرأة بكفيها الرفيعتين وجه "رويال"، ومالت بجرأة عليه وقبلت فمه برفق كما تفعل الأم، أحس "رويال" بصدمة منعته من الاستجابة، كان إحساسه الغريزى أن يدفعها بعيدًا؛ فلابد أن هذه حيلة أو خدعة، لكنه كان صبياً مدرباً تدريبًا جيدًا على أن يكون مهذبًا مع الكبار، خاصة مع امرأة بدت أنها بحاجة ماسة إليه، فوقف صامتًا متجمدًا فى مكانه، وكأنه شخصية حمقاء فى كارتون للأطفال. حدقت فيه المرأة عن قرب هكذا فى دفء غريب، كانت عيناها مظللتين داكنتين ومحتقنتى الدماء قليلاً وإن بدت له مضيئتين منيرتين تلمعان فى ظلامهما، وفيهما لمحة من اللون البندقى.. جميلة، بدا جلدها شبه شفاف، ممتدًا مشدودًا على عظام وجهها الرقيقة، وعند صدغيها أوردة زرقاء شاحبة، كان وجه المرأة مغطى بعض الشىء بمسحوق التجميل، وشفتاها قرمزيتين ممتلئتين وجميلتين فى عينيه. يطوق عنقها الوشاح الأسود مفكوكا، ورأى "رويال" جلد المرأة الشاحب بالداخل، ومنبت ثدييها العاريين، أحس "رويال" بإحساس غالب بالدفء والرفق، اغرورقت عيناه بالابتلال، وأحس فجأة بالسعادة.

- ولدى العزيز.. أعرف من تكون.. تعال هنا.. هنا!

جذبت المرأة يده وهى تضحك. استمرت فى المسح على خديه وتقبيله قبلاتها الخفيفة السريعة، وكأنها فراشات تمسح شفتيه.. غامضة مراوغة، خشى الإمساك بها، لكنها راحت تلامسه وكأنها تألفه تعرفه، وكأنها أم تلامس طفلها، فى محبة وفى نوع من التأنيب "أسرع، هيا أسرع" وفى مخبأ وكأنه موضع خفى اكتشفه طفل، وبين شاهدى قبر طويلين، أحدهما يحرسه ملاك حزين بجناحين زالت عنهما ألوانهما، والآخر مزين بعلم أمريكى قديم فى حجم منشفة اليد، أمسكت المرأة بمرفقى رويال وضحكت حين رأت تعبير وجهه المنزعج وراحت تقبله بقوة.. شفتاها

المتلهفتان افترقتا، وأحس "رويال" بملمس لسانها الدافئ الطاعن، سريع كالثعبان، يمازحه ويغيظه، وقتها كان رويال ـ وهو شاب تسهل إثارته ـ يشعر بإثارة بالغة، بطوله البالغ ستة أقدام وبوصتين كان مليئاً بالدماء، وتحولت كل دمائه إلى ما بين ساقيه فأحس بقضيبه هائلاً وكأنه مطرقة، سمع هديراً فى أذنيه وثمة نحلات تطن فوقه وعلى مسافة قريبة وعند الطرف البعيد من المقبرة كان قطار بضائع يقترب، ثم مر.. نفس القطار الذى كان يمر ببيت آل برنابى فى البيت رقم ١٧٠٢ شارع بلطيق، ويزلزل النوافذ فتضغط آريا صدغيها براحتيها فى إشارة إلى الألم والغضب "ولدى الحبيب.. شعرك نفس شعره، وعينيه.. آه.. كنت أعرف" وقفت المرأة على أطراف أصابعها وقدميها الحافيتين البيضاوين ترتعدان من المجهود ومن جسدها المشدود كالوتر. بدأ "رويال" يمسك بها بشكل أخرق فى البداية ثم بقوة.. سعيد للغاية! فى حومة من السعادة، وكأنه فى حلم ليس لديه ما يكفى من خيال لكى يراوده مع هذه المرأة التى لا يعرف اسمها والتى فتحت قمة فستانها فى إشارة اخترقته كنصل السكين، وسط إحساسه بالدوار والاضطراب مال "رويال" ليُقبل ثدييها.. جلدهما ناعم شاحب، الحلمات بنية وردية جمدت واستقامت منتصبة حين لامسها بشفتيه، بدأت المرأة تتأوه وأمسكت برأس "رويال" وضغطت جسده على جسدها "كنت أعرف. كنت أعرف أننى إذا جئت هذا الصباح.. هذه معجزة أنت" راقد على الأرض معًا على العشب الرطب المتلبد، وكأن عقل "رويال" انطفأ كالنور حين تطفئه فجأة، تحركت يداه على طول جسد المرأة ممسكة بقماش ثوبها البراق، وهى راقدة فى العشب، رفعت مؤخرتها ثم رفعت تنورتها الطويلة وخلعت عنها ملابسها التحتية، وكان التصميم والبساطة التى أدت بها هذه الحركات مؤثرة للغاية على "رويال". ولمح فخذىّ المرأة الشاحبين الرفيعين وبقعة مظلمة من الشعر بين فخذيها.

داهمه الإحساس بالخجل فجأة، فلم يتمكن من حمل نفسه على فتح سرواله، أحس بيدين كبيرتين خرقاوين وكأنهما خطافان. فتحت له المرأة

سحّاب سرواله وابتسمت ثم همست: "ولدى الحبيب.. حبيبى" ارتفع صوت الهدير فى أذنيه. غرق فى أعماق الشلال الهادر، المياه المجنونة وراء حفرة الشيطان، حيث القارب السياحى يتمايل ويترنح والنساء والأطفال يصرخون فى رعب، "ورويال" ـ حين يتولى قيادة القارب ـ يمضى فى مسار الرحلة، على مسار الرحلة بالضبط دون أن يحيد، ويعود أخيرًا إلى المرفأ، الآن هو وهذه المرأة المجهولة له يرقدان على الأرض معًا فى حميمية مفاجئة يكون فيها الأشخاص فى وضع أفقى متعانقين.. لا عودة، لا طريق غير الأمام، العالم تضاءل إلى حجم قبر، ولا طريق إلا إلى الأمام. مال "رويال" على المرأة وتعمد ألا يستند بثقله ووزنه عليها.. وزن جسده العضلى الثقيل على جسدها النحيل، لكنها جذبته مداعبة وهمست أسرع أسرع! ورأى أوتار عنقها مشدودة من المجهود. وأحس رويال بركبتيه ترتعشان. وكأنه فى الرابعة عشرة من عمره ودون خبرة جنسية ويشعر بالذعر. لكن المرأة جذبته إليها ومسحت عليه، وكأن جسده المرتجف المشدود فى أمانتها، مألوف لها وكأنه جسدها. وجهت قضيبه إلى داخلها، إلى داخل خصلات الشعر الأشعث بين فخذيها، ثم إلى داخلها، عميقًا داخلها، حيث كانت ناعمة إلى حد مدهش، نعومة لا يمكن لرويال أن يصدقها، ناعمة كلهب سائل، وغرق "رويال" فى هذا اللهب، واقترب من فقدان التحكم. رقدت المرأة على العشب وشعرها مختلط متلبد وراء رأسها فى شبكة ممتدة حريرية. "آه. آه.. آه" أحست بالمتعة على الفور. هذا مدهش.. كان رويال قد اعتاد الفتيات اللاتى لا يشعرن بشىء، أو يتظاهرن بالإحساس بما يعتقدن أن عليهن أن يشعرن به.. لكن هذه المرأة الأكبر سنًا الحساسة المتلهفة لم تكن كأية فتاة مارس رويال الحب معها من قبل.. ثم إنها لازمت وتيرة سريعة فى حركتها ثم ضربته ضربات واهنة، ثم قبلته ومررت يديها بسرعة محمومة على ظهره، وضغطت على قضيبه برفق وهو يدفعه داخلها، حتى أغرقه الإحساس باللهب وضخ "رويال" حياته فيها، بين ساقيها النحيلتين القويتين اللذين أمسكا به بقوة بالغة. وارتجفت المرأة،

وتلوّت وأمسكت به وكأنهما يغرقان معًا. أحبك.. ضغط "رويال" فكيه بقوة ليمنع نفسه من الصراخ.

حين عاد إلى وعيه كان يرقد مفكك الأوصال على المرأة التى يجهلها وكأنهما سقطا معًا من علٍ فى عناق محموم، من ارتفاع بالغ.. وأين كانا؟ وأى وقت هذا؟ كان مخ رويال ممحوًا مبهورًا. منذ طفولته كان ينام نومًا عميقًا لأقصى درجة، وكثيرًا ما يفيق من نومه فى حالة من التشوش البالغ، والتعب من النوم، فى دهشة مما قد يكون قد اعتراه وهو نائم وبالكاد يتذكره بعد أن أفاق، وهكذا كان وضعه الآن، فى المقبرة إلى جوار كنيسة مهجورة فى طريق بورتاج. والمرأة تهمس له وتقبله وتمسح على جسده، رقد "رويال" ساكنًا لعدة دقائق رغم إرادته، وحين تحرك أخيرًا ليرفع نفسه عنها، شددت المرأة سريعاً قبضة فخذيها على فخذيه، وضغطت بيديها بقوة على ظهره وأمسكت به. وبصوتها المبحوح همست له: "لا، ليس بعد. سأصبح وحيدة للغاية، لن أحتمل ابق معى.. لا تهجرنى" وراحت تقبله وتمسح على جسده ثم بدأت ثانية تضغط جسده برفق، ثم حركتها المنتظمة التى سبق وأثارت "رويال" كثيرًا، وكأنها خفقة قلب عملاقة.. خفقة تحيطه وتغرقه، وكأنه جنين فى رحم أمه. "ليس بعد. ليس بعد. لا تهجرنى".. حتى ـ وأخيراً ـ تصلب قضيب رويال ثانية.

ـ ٢ ـ

صبى هوائى القلب. النوع الذى لا يمكن لفتاة أن تثق به.

فى ذلك اليوم.. ذلك اليوم الطويل فى حياة "رويال برنابى". الجمعة الأولى من أكتوبر ١٩٧٧ عشية زواج "رويال" إلى كاندس ماكان التى أحبها ولا يرغب أبدًا فى أن يؤذيها.

لكن: كيف يمكن "لرويال" أن يتمم الزيجة الآن؟

خفق قلبه وسط إحساسه بالخزى.. قام بالفعل وقبل أن تكون له زوجه بخيانتها.

كما قالت "جولييت" ثمة لعنة علينا نحن آل "برنابى". تراها فى الطريقة التى يلفظ بها الناس أسمنا، يمكنك أن تسمعها.

تأخر "رويال" ساعة وعشرين دقيقة على الوصول إلى مرفأ النهر، فاتته الرحلة وقد خرج القاربان، غضب منه القبطان "ستو" كثيرًا، غمغم "رويال" معتذرًا. أحس بعقله يدور وفمه مختوم بحب المرأة ذات السواد، فلم يجتهد فى التفكير فى عذر، وكأنه سؤال مقالى من أسئلة اختبارات الثانوية حين كان عقل "رويال" يغيب عنه وكأنه سبورة ممسوحة ليس نظيفاً، بل ممسوحًا وغائمًا. وقف مكانه يومئ برأسه وعيناه على الأرض والقبطان "ستو" وكأنه أب غاضب يعنفه ويوبخه ثم صرفه عنه ليرتدى زيه الرسمى حتى يستقل رحلة الساعة ١١صباحًا.

ذلك اليوم الطويل وبرغم أن "رويال" تحرك خلاله كالسائرين نيامًا، كان مبتسمًا مهذبًا يؤدى دوره باعتباره القبطان المساعد رويال، والأصغر بين عدّة ملاحين توظفهم شركة رحلات حفرة الشيطان، كانت السائحات تفضلنه من كافة الأعمار، وكذلك الأطفال الذين يتجمعون حوله ليلتقطوا صورًا فوتوغرافية معه، يبتسم ابتسامته المفتوحة الصريحة فى أثناء تصويره للمرة الألف لدى عجلة قيادة القارب الغارق فى رذاذ النهر، وحين سُئل "رويال" السؤال الذى لا مناص منه عن كم المياه التى تتدفق فوق الشلالات، لم يكن يفشل أبدًا فى الإجابة: "ستة ملايين متر مكعب فى الدقيقة، أى مليون بانيو فى الثانية الواحدة" وكأنه أول مرة يجيب عن السؤال.

قيادة السائحين لدى شركة "حفرة الشيطان" وظيفة تحتاج لمهارة يدوية وصبر و"شخصية" وحد أدنى من الطموح، ولهذا كانت وظيفة مناسبة تمامًا "لرويال برنابى" الذى تمكن بصعوبة من التخرج فى المدرسة الثانوية، أحس "شاندلر" بخيبة الأمل فى شقيقه الأصغر، إذ توقع أن يتقدم رويال لجامعة محلية مثل جامعة بافالو، لكن "رويال" أحب وظيفته فى "حفرة الشيطان"، والعمل جعله ينشغل ولا يحتاج منه إلى تفكير كثير،

التفكير مؤلم للغاية، لا مستقبل مرجو فيه، وشجعت "آريا" "رويال" على أن يقيم فى البيت طالما أراد.

"رويال" وزوجته المستقبلية "كاندس"، حتى يتمكن الزوجان الصغيران من تحمل نفقة مكان "محترم" يقيمان فيه.

استقل "رويال" قارب السائحين سريعًا، ها هنا لديه قصد ونفوذ "القبطان المساعد رويال" عند طرف القارب المزدحم يشعر بحرية غريبة، أحس بالحاجة للعمل والحاجة لتحمل المسئولية. ربما الأفضل أن يتحمل مسئولية الغرباء وليس أناسًا يعرفهم ويهتم بأمرهم. كان السائحون بالنسبة إليه جنس متدنٍ من البشر يركزون فى"الحصول إلى أكبر قدر ممكن من الأشياء بنقودهم" كانوا طماعين متلهفين على "رؤية كل ما هو مهم" تركيزهم وانتباههم يتقلب سريعًا، وهو شىء جيد. كان من السهل بث السرور فيهم، والشلالات رائعة مدهشة لا تثير حسراتهم أبدًا، بعضهم وليس فقط الأطفال أو الطاعنون فى السن، يخشون الشلالات حتى أنهم يقاربون فقدان الوعى، وهو أمر مثير ودرامى و"شىء جدير بالتذكر" وفى تلك المناسبات التى يحس فيها أفراد منهم بالذعر ويتوجب أن يهدئه أحد المضيفين، كان المراقبون يشعرون بالرضا لأنهم "يحصلون على أكبر قدر ممكن من الأشياء بنقودهم".

وكثيرًا ما سُئل "رويال": "لابد أن الشلالات تخيفك أنت أيضاً أحياناً، أليس كذلك؟ هل سبق أن أصبت فى حادث هنا؟" ويبتسم ليظهر أنه يأخذ هذه الأسئلة على محمل الجد ويقول "رويال" دائمًا:

"بلى، تخيفنى كثيرًا أحيانًا.. ولا، لم أصب فى حادث من قبل، لم يسبق أن فقدت شركة حفرة الشيطان عميلاً فى أعوامها الاثنين وعشرين التى عملت فيها فى الشلالات".

هذه الضحكات المستريحة المطمئنة.. المهم أن هذا صحيح.

لم يكن أى من الأشخاص على متن القوارب فى خطر من الشلالات، طرق الرحلات مخططة بعناية ولم يسبق أن حاد أى ربان عن المسار،

بشكل آلى وكأنها ساعة وموثوقة، وبرغم كل عظمة و"كابوسية" الشلالات العملاقة، فإن خطرها معروف ولهذا فهو محسوب يسهل تفاديه، بل شكل من أشكال التسلية، والتجارة.

الخطر فوق الشلالات وليس تحتها، إذا سقطت من فوق الشلالات ونزلت إلى هنا.

سُئل "رويال" كثيرًا أيضًا إن كان هناك أشخاص "كثيرون للغاية" ينتحرون فى الشلالات. وككل موظف فى صناعة السياحة بشلالات نياجرا قيل "لرويال" أن يبتسم فى تهذيب ويقول: "على الإطلاق.. كل هذا مبالغات من الإعلام".

وللخروج فى رحلة حفرة الشيطان يجب أن ترتدى سترات المطر والقبعات الواقية من المياه التى تحصل عليها عند مرفأ الركوب، ويتم تحذيرك من أنك فى أثناء الرحلة ستبتل كثيراً ويجب أن تكون الساعات والكاميرات ضد الماء، ويبدأ السائحون فى الصياح والصراخ ما إن يبدأ الرذاذ .. فى إصابتهم، ثم يتمايل القارب ويترنح ويعلو ويهبط فى الأمواج وكأنه عربة ملاهى. ويمرون بالشلالات الأمريكية إلى اليسار، ثم شلالات هورسشو وهى تبدو هائلة الحجم خضراء اللون فى شمس الخريف وكأنها زجاج سائل، تدفق مياهها يصمم الآذان، إلا أنها لا تبدو كالمياه. فكر فى مليون علبة صفيح تلقى من هذا الارتفاع فى الوقت نفسه. هكذا يحب "رويال" أن يصف صخبها، لكن الإلقاء لا يتوقف أبدًا، قد تعتقد أن "رويال" قد اعتاد الصخب وهذا حقيقى، إلى حد ما، وفى بعض الأيام يقود القارب وكأنه رجل آلى وكل حركة من القارب محسوبة محفوظة، وفى أيام أخرى كاليوم يفقد تركيزه، يفكر لا يمكن أن يكون هذا حدث ـ لم أكن أنا ـ المرأة ذات السواد تقبل فم "رويال" الرطب الحالم، والقارب يدخل إلى وسط الضباب، المرأة ذات السواد تلف ذراعيها الثعبانيين حول عنق "رويال". وجد نفسه يحدق فى الشلال المتساقط، هذا الشىء الكثيف المشدود الذى يمكنه أن يقتل فى ثوانٍ، يكسر العمود الفقرى وكأنه غصين صغير، تقوس

عموده الفقرى وكأنه قوس مشدود وانطلقت طلقته كالسهم الذى أصاب جسد "رويال". لم يصدق أنه فعل ما فعله هذا الصباح، ولم يتمكن إلا فى التفكير فى المرأة ذات السواد التى نومته مغناطيسياً.. عيناه هكذا همست.. كنت أعرف، كنت أعرف.

الغريب فى الأمر أن المياه أسفل الشلالات كانت عميقة بقدر عمق الشلالات نفسها، لذا فالشلالات نصفها مختبئ تحت المياه أيًا يكن ما تقصده بهذا، وحين ترى الشلالات ترى نصفها فقط.

أبدًا لن يخبر "رويال كاندس" بما فعله، ممارسة الحب مع امرأة لا يعرفها، امرأة كبيرة بما يكفى لتكون فى سن أمه، وأحببت هذا أليس كذلك؟ تموت لتفعلها ثانية، أليس كذلك؟ أبدًا لن يعترف "رويال" لعروسه بأنه خانها.

إلى الأمام لعشرين دقيقة ثم الالتفاف والعودة إلى المرفأ حسب الجدول تمامًا، مرة تلو المرة فى عصر ذلك اليوم وكأنه ساعة مضبوطة.

اللعنة هذا لم يحدث، لابد أنه حلم.

راح أحد الركاب يجذب ذراع "رويال": "يا أستاذ؟ هل يمكن أن تلتقط لى صورة؟ إلى جوار الحاجز هنا، حسنًا؟ هل تمانع إذا دخلت "ليندا" فى الكادر هى الأخرى؟ شكرًا!"

بعد الرحلة الأخيرة فى ذلك اليوم أصر القبطان "ستو" على أن يخرج مع "رويال" لاحتساء بعض أكواب البيرة، "رويال" سيترك العمل ليقضى شهر العسل اليوم التالى، وسيغيب لأسبوع، وبعد أسبوع ستكون رحلات حفرة الشيطان قد أوقفت لهذا الموسم ولن تُستأنف إلا فى شهر مايو القادم. "سأفتقدك يا ولد.. أنت صبى صالح". صافح القبطان "ستو" يد "رويال" فى ود خشن فظ، ليظهر له أنه نسى تأخره فى الصباح، وغمز له بعينه فى بذاءة وتمنى له حظاً موفقًا فى "رحلته" ومسح "رويال" البيرة عن

فمه وابتسم لرب عمله فى عدم فهم وقال: "أية رحلة يا "ستو"؟" وضحك ستو وقال: "الزواج يا بنى.. ستحتاج لكل القوة التى تقدر على استجماعها".

كان "ستو فليتشر" رجلاً جليل المظهر أبيض الشعر فى الخمسينات من عمره وأنفه محتقن الدماء بشعيراته الدموية المتكسرة دومًا، اعترف أنه يعانى إدمان الخمر، وكان يدخن كثيرًا للغاية، لكنه كان "معجبًا للغاية" "برويال".. "أنت مثل ابنى، لكن ابنى لا يريد العمل معى. يعتقد أنه أفضل من القبطان ستو" وضحك "رويال" على استحياء.. كان قد عرف من سابق كلامه مع العجوز أن "ستو" يعرف من يكون "رويال"، على نحو لا يعرفه "رويال" نفسه، لأن "آريا" منعت عنه هذه المعرفة، لديك أمك ولا تحتاج لأى شىء آخر.. فهم "رويال" أن والده مات حين كان هو صغيرًا للغاية، وقبل أن يموت والده هجر "آريا" وأطفالها. خان "ديرك برنابى" الأسرة، وهى خطيئة لا يمكن غفرانها، وعرف رويال من "شاندلر" أن والدهم توفى فى حادث، وأن سيارته اخترقت حاجز الطريق السريع الواصل بين بافالو ونياجرا وسقطت فى نهر نياجرا، وحذر "شاندلر رويال" من ألا يلمح "لآريا" بمعرفته هذا، فسوف تغضب "آريا" كثيرًا. ودائمًا ما كانت "جولييت" تقول إن ثمة لعنة مصوبة عليهم، وإن اسم برنابى لعنة، لكن رويال لا يؤمن بهذا. فقد كان لديه أصحاب كثيرون فى المدرسة الثانوية، وانتُخب "أوسم ولد" فى دفعة عام ١٩٧٦ فى مدرسة شلالات نياجرا الثانوية.. أتبدو هذه كلعنة؟

ظل "رويال" مع القبطان "ستو" فى بار حانة "أولد داتش"، وهى حانة يغمرها الدخان فى منطقة وسط المدينة بشلالات نياجرا وكانت لا تعجب السائحون أن تجذبهم. وكان القبطان "ستو" يرغب فى الكلام والثرثرة، ولا بأس فى هذا لأن "رويال" لا يريد الكلام. خاصة هذا المساء. وإذا كان لدى "رويال" سؤال أو اثنان يطرحها على العجوز، فقد ظل صامتًا برغم هذا.

أنعم وأرفق من أية امرأة لامسها "رويال برنابى" من قبل، المرأة ذات السواد وملامستها له، إننا نعرف بعضنا أليس كذلك؟ أنعم وأرفق من أية

امرأة قبلها "رويال"، كذا قبلته المرأة ذات السواد. عيناك.. عيناه، لم يجرؤ على سؤال المرأة ذات السواد أى عينين تعنى. لكن وعلى نحو ما كان "رويال" يعرف.

المفترض أن يمر على "كاندس" ليراها لفترة قليلة.. الطريق مألوف له لكن فى أثناء القيادة راح "رويال" يميل إلى أفكاره ويغرق فيها، ضرب عمود من نور الشمس وجه ملاك حجرى مرفوع واشتم "رويال" شعر المرأة ذات السواد الرطب المتعفن نوعًا، وخصلة منه سقطت على فمه اللاهث - يا الله - تدفق الدم بين ساقى "رويال" والمرأة ذات السواد تجذبه لأسفل إلى جانبها فى العشب المتلبد، ولدى الجميل.. إننا نعرف بعضنا أليس كذلك؟ وكأنما فى حلم فتحت سحّاب سرواله فجأة، وراحت تقوده داخلها، وتمسح على قضيبه وتمسك به بألفة ورقة، وكأنهما مارسا الحب معًا مرات كثيرة من قبل، أحسه فعلاً سهلاً، وكان سعيدًا لا تعقيد فيه، ويمكنهما أن يفعلاه مرة تلو المرة تلو المرة. ابتلع "رويال" ريقه بصعوبة، وامتلأت عيناه بالرطوبة، تحول لون إشارة المرور من اللون الكهرمانى إلى الأحمر "ورويال" يقود سيارته أعمى البصر عبر تقاطع الطريق، أطلق شخص ما نفيره، ومال الرجل سائق شاحنة "زهرة الربيع" خارج نافذته وصاح فيه. همس "رويال": "اللعنة" ورأى أنه فى شارع فيرى، على بعد عدة بلوكات من الشارع الخامس.

تقدم فى طريقه، وجد نفسه فى شارع ٣٣ يدور حول بلوك بلا سبب سوى أن يمر من أمام مدرسته الثانوية.. لماذا؟ لم يكن مشتاقًا لهذا المكان اللعين، أحس بالامتنان لمغادرته، لكنه كان صغيرًا فى ذلك الحين، ولم يكن قد قابل "كاندس" ماكان بعد. (جمعتهما آريا : قابلت "كاندس" فى إحدى كنائس الحى حيث كانت "كاندس" تغنى فى جوقة مرتلين وتطوعت آريا بقيادة الجوقة لعدة شهور، حتى فقد الاهتمام بالكنيسة تدريجيًا) وكان لدى "رويال" حبيبات أخريات، وخذلهن أيضًا، كما يفترض "رويال برنابى"، ذلك الصبى سيحطم فؤادك، بدا أن هذا يحدث كل مرة دون أن يعرف رويال. دون أن يقصد. تحبه الفتيات بابتسامته العذبة البسيطة، وعيناه

الزرقاوان الصريحتان، ولمسته الرفيقة. صوته الذى يطلعهن على ما يردن أن يصدقنه، حتى حين كان يجب ألا يصدقنّ. "رويال"، أحبك.. أحبك كثيرًا. رويال، هل تحبنى؟ ولو قليلاً؟

كيف كانت غلطة "رويال" إذًا ؟ الكلمات تتدفق من بين شفتيه. نعم، أعتقد هذا.

تعتقد هذا؟ أتحبنى؟ آه يا "رويال"!

كانت "كاندس" ماكان الفتاة التى جعلت من "رويال برنابى" رجلاً، انهارت بين ذراعيه ذات ليلة ذلك الربيع، فى هذه السيارة، وقالت "لرويال" إنها قد "فاتتها دورة شهرية".. وإنها "تشعر بالخزى والخوف الشديد" وإنها تحبه كثيرًا و"تريد أن تموت" إذا لم يكن يحبها. أحس "رويال" برعدة تسرى فى أوصاله حتى وهو يربت على "كاندس" ويقول لها إنه سيعتنى بها، ومن فضلك لا تبكى، فسوف يعتنى بها، وإن كان فى ذهوله حاول أن يفهم كيف أصبحت كاندس حبلى، كيف، بينما "رويال" كان حريصًا للغاية، ولم يمارسا الحب كثيرًا، وليس بأية طريقة قد تتسبب فى حمل الفتاة. وقال "رويال" لنفسه، لكن إن كان هذا ما حدث، فقد حدث. "فرويال" شخص قدرى مثل أمه.

ـ حبيبتى، أنا أحبك.. سيصبح كل شىء على ما يرام.

ـ هل أنت واثق؟ آه يا "رويال"، هل أنت واثق من حبك لى؟ لأن لو..

ـ "كاندس"، أنا واثق أنى واثق! سيصبح كل شىء على ما يرام. أعدك بهذا.

ـ كم أخشى إخبار أمى، لا يمكننى إخبار أمى، إلا إذا..

ـ لا تقولى لها بعد. حتى تصبحى على ثقة تامة..

ـ "رويال"، أنا واثقة تمامًا. واثقة منذ اثنى عشر يوماً على الأقل. آه يا رويال، أنت لا تحبنى..

ـ حبيبتى، بل أحبك! قلت إننى أحبك.

ـ لكن.. هل تريد الزواج منى؟ حتى لو.. لو لم أكن..

انهارت "كاندس" باكية وكأن قلبها تحطم، وما الخيار المتاح "لرويال" غير أن يطمئنها؟ أحس بشىء من الإثارة والكبرياء والرهبة، لكن الإحساس الأكبر لديه كان التعجب، من أنه قد يصبح أبًا بعد تسعة أشهر.. بينما كان يحس فى معظم أيامه أنه فتى فى الثانية عشرة من العمر، لكنه لم يتمكن من أن يخذل "كاندس". كان يحبها، هى أجمل فتاة رآها فى شلالات نياجرا على الأقل.

وهكذا ابتاع "رويال" خاتم خطوبة من صائغ فى وسط المدينة.. خاتم فضى عليه ماسة صغيرة تمكن بعد تدخل معارفه من أن يشتريه بعد خصم تسعين دولارًا من ثمنه. وهكذا عرض رويال رسميًا الزواج، وقبلت "كاند ماكان" عرضه باكية.

فى البداية حُدد موعد الخطوبة فى يونيو، ثم حين اكتشفت "كاندس" أنها ليست حبلى تأجل الموعد إلى أكتوبر، مع انتهاء موسم عمل "رويال" فى شركة حفرة الشيطان.

ـ لكن هل ما زلت تحبنى يا رويال؟ حتى لو..

ـ حبيبتى ـ بالطبع أحبك.. أحبك أكثر من أى وقت.

ـ هل أنت واثق؟ لأن لو..

ـ أنا واثق.

ـ سوف نرزق بالأطفال. أليس كذلك؟

ـ بالعدد الذى ترغبين فيه يا كاندس.. أعدك.

كلمات غريبة كالضفادع الصغيرة تتقافز من فم "رويال برنابى"!

لكن حقًا وصدقًا أراد "رويال" الزواج من "كاندس". كان يحبها ولا يحتمل فكرة أن يؤذيها. وحين يسمع بكاءها وكأن قلبها على وشك

الانكسار، يرق قلب "رويال" نفسه ويكاد يتحطم. ويخطر له أنه قلب من البلاستيك.. رخيص الثمن وتشققه سهل ولكنه من مادة صلبة لا يقبل التحطم.

والشيء المدهش فى خطوبة ر"ويال" كان رد فعل "آريا". قد تتخيل أن ماما سوف تراودها إحدى نوبات غضبها وتركل "رويال" إلى خارج البيت، لكنها فى الواقع استنشقت نفسًا عميقًا حين تلعثم "رويال" وهو يخبرها فى حرج أنه "يظن أنه يريد الزواج، وأن وقته حان" وقالت له نعم.. نعم حان الوقت، فى سن التاسعة عشرة كان كبيرًا بما يكفى، مع رؤيتها كيف ترمى الفتيات والنساء أنفسهن على "رويال" كان من الأفضل أن يستقر سريعًا مع فتاة صالحة وعذبة وبسيطة مثل "كاندس ماكان" التى لن تطالبه بما يتجاوز قدراته، قبل أن يحدث شيء كارثى (وهو أن يتسبب "رويال" فى حمل فتاة غير مناسبة! وكأنه غير قادر على التحكم فى نفسه ككلب يدور فى الحى بحثاً عن أية كلبة بحاجة للجماع) كما لم يخب ظن "آريا" حين لم يذهب "رويال" إلى الجامعة، لكن بدت عليها الطمأنينة حين ابتسمت لما خطر لها أن ابنها الأصغر سيتزوج، وفى الواقع يمكن للعروسين أن يقيما فى البيت رقم ١٧٠٣ بشارع بلطيق لبعض الوقت، سوف تنتقل "آريا" من حجرة نومها بالطابق العلوى وتجددها لهما.

الحياة مع "آريا" فى هذا البيت الضيق المزدحم! ارتعد "رويال" من الفكرة. كاندس المسكينة ستؤكل حية، وتتحول إلى ابنة ثانية "لآريا".

لا.. سوف يقيم العروسان فى شقة مؤجرة فى الشارع الخامس، على بعد دقائق قليلة بالسيارة من شلالات نياجرا حيث يعمل "رويال" من شهر مايو إلى منتصف أكتوبر، ومن كينجز ديرى، أكبر وأشهر متجر آيس كريم فى شلالات نياجرا، حيث تعمل "كاندس" على الكاونتر وفى منصب مساعدة المدير، سيعيش العروسان وحدهما!

أحست "آريا" بخيبة الأمل، تكاد ترى الحسرة متجسدة على "آريا".

هاتان العينان الخضراوان كلون الوقود على وشك الاشتعال، الجلد الشاحب المنمش المشدود على صدغيها، والأعصاب التى تخفق تحته.

"رويال"، يمكنك أن توفر على نفسك تكلفة الإيجار، لن آخذ منك مليماً.

شكراً يا ماما. لكن لا.

ـ دعنى أكلم "كاندس". إنها عملية التفكير.

ـ لا يا ماما.

ـ ما ستوفره من ثمن الإيجار يمكنك أن تدخره وتدفعه مقدما لشقة تمليك. "رويال"! دعنى أكلم "كاندس".

ـ ماما.. الأفضل ألا تفعلى، تعرفين كيف تراك "كاندس". إنها معجبة بك وتخشاك، وتحتار فى أمرها معك.

ـ وأمر من الذى يجب ألا تحتار فيه؟ أمرك!

ـ ماما، الأفضل ألا نتشاجر، حسناً؟ "كاندس" ستصبح زوجتى وليست زوجتك أنت.

ربما هذه هى المشكلة.. الفتاة المسكينة بحاجة لأفراد أكثر فى أسرتها. إلى أكثر مما يقدر الزوج على توفيره.

ـ ماما، هذا البيت صغير للغاية! حتى مع رحيل "شاندلر" سيبقى صغيراً، ستشعر "جولييت" بالضيق حين نشاركها الطابق العلوى معى ومع "كاندس".

هذا محض سخف. تعرف جيداً أن "جولييت" حزينة لأنك راحل يا "رويال". إنها تحبك. وتحب "كاندس" كشقيقة.

ـ بحق يسوع يا ماما، أرجوك.

ـ هل تخشين أن تدعنى أتكلم إلى "كاندس"؟ أنت خائف!

ـ ماما، ابتعدى عن "كاندس".

حجرة الموسيقى اتخذت طابعًا شتويًا، أحسنت صنعاً أنت و"شاندلر" فى تجديدها. سأنقل حجرة نومى للطابق السفلى، وسوف نشترى مع "كاندس" سريرًا كبيرًا جميلاً. ويمكنك أن تأخذ الدولاب الماهوجنى، إنه قطعة أثاث كلاسيكية جميلة، ويمكن "لكاندس" أن تختار موديل ورق الحائط، سيكون الخيار لها بالكامل.. والستائر! ستائر بيضاء مسحوبة على ما أعتقد.. "رويال"، انظر لى، كيف تتصرف بكل هذه الأنانية فى موضوع بهذه الأهمية؟ "كاندس" تستحق كل الحب الذى يمكن أن تحصل عليه، الأسرة هى كل ما على الأرض، بما أنه لا يوجد رب على الأرض.

حين انتهت "آريا" من هذه الخطبة القوية كانت ترتعد، وكذلك "رويال". سيتذكر فيما بعد مرتعدًا كيف اقترب من الاستسلام. دائمًا ما يكون الاستسلام "لآريا" أسهل من المقاومة.

لكن "رويال" عنيد، ورفض عرض "آريا".. لا، لا! إذا جعلت أمه من زوجته ابنة ثانية، فكأن "رويال" ينام مع أخته. بحق يسوع!

وفى النهاية استسلمت "آريا". لكن فى الصباح التالى عرضت المساعدة فى شراء خاتم خطوبة "كاندس". ومرة ثانية ضغط "رويال" أسنانه ببعضها وشكر أمه فى تهذيب ورفض عرضها.

من حسن الطالع أن "آريا" لم تكن تعرف أو خمنت أن "كاندس" تحسب نفسها حبلى فى ذلك الحين، ولم تعرف "آريا" قط.

مع خوضه فى هذه الأفكار، راح رأسه ينبض ويخفق، جلس "رويال" فى السيارة الشيفروليه الماضية بطيئة تتسكع على أطراف ساحة انتظار المدرسة الثانوية. راح يحدق فى المبنى الطوبى مسطح السقف الشبيه بالمصانع.. عادى كان، بل قبيح، لكن وقت الغروب، فى أول المساء، مع إنارة مصابيح الشارع، بدا المبنى وكأنه يسبح فوق الرصيف الإسفلتى الملطخ بالبقع، وكل نافذة منه مظلمة توحى بالغموض، اللعنة.. ندم "رويال" على

أنه لم يحاول أكثر، كان رياضيًا يتمتع بالشعبية الواسعة: كلاعب كرة بيسبول وكرة قدم وكرة سلة، إذا لم يعمل بعد أوقات المدرسة، كان سيشترك فى كافة الفرق، والحال كما كان، سمح له باللعب كبديل فى أحيان كثيرة، حين كان الفريق يواجه خصمًا صعبًا قاسيًا، فكان رويال يبتعد عن العمل، كان محبوباً، ولم يدرك أنه كان محبوبًا، ولا يعرف ربما بأسلوب آخر للتقدم فى الحياة، كالحالم حتى يفيق، شجعه معلموه بلا شك، إذا كان قد ذهب إلى الجامعة ما كان ليتزوج فى سن التاسعة عشرة.. الكثير من زملاء "رويال" فى المدرسة تزوجوا بالفعل، خاصة الفتيات (سرًا) وكنّ قد حبلن قبل العرس، ويشعرن بالامتنان بالزواج من رجال لديهم وظائف فى شركة دو كيميكال، وباريش بلاستيكس، ونابيسكو، ونياجرا هيدرو، ومعظم زملاء "رويال" من الذكور حصلوا على وظائف فى شلالات نياجرا؛ لأنهم كانوا أعضاء فى نقابات. ولم ينجذب "رويال" قط إلى العمل بالمصانع، العمل "الحقيقى" ثمانى ساعات فى اليوم لخمسة أيام فى الأسبوع، ورسوم تُدفع للنقابة وعقود عمل فكرة العمل حسب عقرب الساعة تجعله يجفل. "رويال برنابى" الذى نال الإعجاب كشخص رياضى، على أدائه فى العزف على الجيتار وفى الغناء للجمهور المحلى، يعمل حسب توقيت الساعة! لن يسمح له كبرياؤه بهذا أبدًا. وكذلك إدراكه الفطرى للأمور.

لو كان ذهب إلى الجامعة. لكن "آريا" لم ترد أن يذهب ابنها الصغير إلى الجامعة، هذا تمادى.. طموح، ما الذى يصيب الرجال منه؟ الموت. كانت "آريا" تتكلم فى إحساس بالمرارة، بعيدًا عن مزاحها اللاذع المعتاد.

ما آلمه، ولم يعترف بهذا لأى مخلوق حى، هو أن يتبع "شاندلر" فى المدرسة. "شاندلر" الذى حصل على درجات رائعة فى كل المواد الدراسية، خاصة الرياضيات والعلوم. "شاندلر" الذى كان تلميذًا جادًا مجتهدًا فى قاعات الدرس، وأصحابه قليلون وأنشطته قليلة لا تشتته عن أهدافه، أحب المعلمون "رويال" بالطبع، لكنهم لم يتمكنوا من مقاومة مقارنته دومًا

"بشاندلر"، وهى المقارنة التى لم تكن يومًا فى صالح "رويال". وما أهمية هذا؟ لماذا يحاول؟ أى شىء يفعله "رويال" من حيث التعليم يتقنه "شاندلر" أكثر منه. وفى بعض الحالات أفضل بكثير. تبأ! ألف "رويال" أن ينسى أداء الواجب المدرسى، ويغيب عن الاختبارات، قال لنفسه إنه حصل على لقب الولد الأكثر وسامة وهذا أفضل من أن يكون "ألفا" الفصل مثل "شاندلر". وسل الفتيات عن هذا.

- "رويال"! تبدو مختلفًا للغاية

أخف التعليقات كان ليس توبيخًا. "كاندس" مررت ذراعيها حول عنق "رويال" وقبلته على وجنته التى كانت دافئة على نحو غير مريح، وبحاجة للحلاقة.

هذا اليوم الطويل! تأخر ساعة عليها، وكانت رائحته رائحة البيرة، لكن "كاندس" لن توبخه بشكل مباشر، فهى مشغولة بخطط الإعداد للعرس. كانت "آنى" شقيقة "كاندس" موجودة، واثنان من أصحاب "كاندس"، والهاتف يرن "وكاندس" فى حالة مزاجية منتعشة، وكأنها رائدة فضاء قبل لحظة إقلاع الصاروخ، حسبما خطر "لرويال".

قبلت "كاندس" "رويال" ثانية، قبلة رطبة على فمه، طريقتها فى التقبيل توحى بالتعجب والظفر، توهج "رويال" بالاحمرار، فالأخريات ينظرن إليهما. إذا كان وحده مع "كاندس" كان ليعانقها بقوة ويدفن وجهه فى شعرها المجعد الملفوف لم ينطق كلمة، أصبحت الكلمات تحيره، المرأة ذات السواد استولت على كل كلماته، وهو لم يكن يومًا صبيًا لبقًا. القبطان "ستو" ودعه وتمنى له الحظ السعيد بمصافحة قوية ليده لم يتمكن "رويال" من ردها بأكثر من أن يجفل.

- لا يمكنك البقاء هنا كثيرًا يا حبيبى؛ فنحن نراجع الطعام.

لم يرغب "رويال" فى معرفة ما تعنيه بقولها، أى طعام هذا الذى له علاقة به و"بكاندس" وزواجهما، أو ما علاقة الزواج به و"بكاندس" وحبهما

لأحدهما الآخر، أو الاعتقاد فى حبهما المتبادل، منذ تلك الليلة فى الربيع الماضى حينما بكت "كاندس" بين ذراعيه وهمست قائلة إنها ستموت إذا لم يكن "رويال" يحبها، وهو مصاب بالارتباك والحيرة.

أحياناً حين يسمع خطيبته وأمه تناقشان بحماس أمور العرس وكأنه أمر مُعرّف فى ذاته مثل كلمة العطلة أو الشلالات، كان "رويال" يشعر بأنه دخيل على الموضوع، عرس فى الكنيسة؟ أهذا ما سيقيمانه؟ (لكن رويال لم يكن متديناً على الإطلاق، لم يحضر إلا بعض المراسم القليلة فى الكنيسة، مراسم ليسوع والحواريين، كنيسة عصفورية اللون فى شارع ١١ ليرضى انداس، ولم تكن لديه إلا فكرة غامضة عن أنه سيقضى مع "كاندس" عطلة لمدة أسبوع، حقاً) عرس الكنيسة هو ما سيقيمانه، هكذا عرف "رويال". عرس صغير مقتصر على الخاصة، لكن ستكون هناك وصيفة للعروس، أو وصيفتان؟ سيحضر ضيوف، وسيقام حفل استقبال فيما بعد فى البيت رقم ١٧٠٣ بشارع بلطيق؟ مفاجأة مدهشة، إذ أن "آريا" لم تدع أى أحد إلى بيتها إذا قدرت على تفادى الدعوة، بخلاف تلاميذ الموسيقى، ثم ها هى فجأة تفتح أبوابها للضيوف.. "آريا" التى احتقرت التقاليد البرجوازية، وكم من المرات أبدت فيها اشمئزازها لأطفالها من "مؤسسة الزواج القديمة"، فها هى ستعزف الأرغن فى عرس ابنها، وها هى تخرج لشراء أول فستان لها منذ أعوام، من متجر ساكند تايم راوند فاشون فى وسط المدينة. "رويال"، هل أخبرتك أمك بآخر الأخبار؟" سألته "كاندس" بصوتها البراق المرتعش "أمى ستحضر.. وآه، حق الله، تصر على أن تحضر صديقها هذا الذى لم يره أحد من قبل".

حرك "رويال" كتفيه فى تعبير عن الانزعاج، كان يعرف أنه من المقدر له أن يشارك "كاندس" فى نقمتها أو قلقها، لكنه لم يكن مستعداً لهذا "أعتقد أنك متعب يا حبيبى.. فى وظيفتك تلك!" تنهدت "كاندس" والتفتت إلى شقيقتها وصاحباتها باحثة بلا شك عن موافقتهن على امتعاضها من وظيفة "رويال" فى حفرة الشيطان.. "كل هؤلاء السائحون الحمقى يتعلقون

بك ويدورون حولك. نصف النساء يملن عليك ليلتقطن صورًا لهنّ معك! وأعرف أن القارب ليس آمناً، فى الذهاب إلى الشلالات لا يمكن أن يكون آمناً، والراتب ليس جيدًا بحيث يعوض المخاطرة التى تخوضها". تصاعدت كلمات "كاندس" كأنها نغمات غاضبة تصدر عن صيحة عصفور، الماسة الصغيرة فى يدها اليسرى لمعت و"كاندس" تحرك يديها حولها وسط إحساسها الغامر بشكل جميل وكأنها دمية. كانت "كاندس" فتاة بالغة الجمال، وتبلغ من العمر عشرين عامًا، لكن سلوكها وإشاراتها تجعلها تبدو فى الخامسة عشرة، وصوتها السوبرانو المبحوح، وإشارتها كلها تشع جمالاً، وكأنها تتوقع فى كل حركة منها استجابة الآخرين لكل هذا الجمال، كما تتحرك الراقصة مع موسيقى تألفها وتعرفها.

ـ "هذه الفتاة العذبة التى أود أن تقابلها.." وصفت "آريا لكاندس" ماكان.. "فتاة من الكنيسة وهى رائعة الجمال، و.. عذبة" وكأن آريا بحثت كثيرًا فى ثنايا عقلها ولم تجد ما هو أكثر لتقوله عن "كاندس".

وثمة شىء لاذع فى عذوبة "كاندس"، كما اكتشف "رويال"، شيئًا لم تعرف به "آريا".. ذات يوم ستندهش "آريا" منه.

الشىء الأكثر إثارة للإعجاب فى "كاندس" هو شعرها الأشقر المتهدل فى تموجات متجعدة على كتفيها والمرفوع بإبر شعر ومشابك شعر على شكل فراشات، وجهها صغير للغاية ويشبه شكل القلب.. ضحكتها ضئيلة مرتفعة، وكان من عاداتها أن تشبك أصابعها فيما يوحى بالحماس الطفولى.. أظافر أصابعها مطلية بلون يتماشى مع لون أحمر الشفاه الذى تضعه.. لون وردى مرجانى.. صوتها عذب غير واثق وكثيرًا ما تغنى بصوت مرتفع فى مراسم الكنيسة بأغانيها المعروفة فى كينجز ديرى ـ وهو متجر الآيس كريم والحليب الأكبر فى شلالات نياجرا "كانت "كاندس" ماكان هى النادلة الأشهر، والتى تحصل على أكبر قدر من البقشيش، فى زيها الرسمى الأصفر النرجسى ذات الياقة والأساور البيضاء، والقبعة البيضاء المنشاة على رأسها، فتذكر الزبائن الأكبر سناً بمن؟ "بيتى جرابل" "دوريس

داى"؟ بعصر آخر، قبل الستينيات، حين بدأت النساء تتشبه بالرجال، وأصبح القبح هو الأساس فى إثبات الشخصية المستقلة.. لا، "كاندس ماكان" ليست من هذا النوع!

حين يخرجان معاً كان "كاندس ورويال" يبدوان زوجًا جذابًا يجذبان نظرات الإعجاب من الغرباء، مما يضايق رويال رغم أنه يعجب "كاندس". "دائمًا ما أفكر فى أننا قد نُكتشف ذات يوم" كذا تقول "كاندس" وهى ترتعد ارتعادة خفيفة. فيمزح "رويال" قائلاً: "نُكتشف ونحن نفعل ماذا يا حبيبتى؟ ومن سيكتشفنا؟" فتضرب "كاندس" بخفة على معصمه وكأنه قال شيئاً بذيئاً.

رن الهاتف.. وأجابت "آنى"، وأخذت "كاندس" السماعة منها وهى تضحك ضحكة عصبية "يا للعجب. سيدة "برنابى".. هدأ صوت "كاندس" وتحلى بالرصانة، فهذه "آريا".

رأى "رويال" "كاندس" و"آنى" تتبادلان النظرات.. حماتى المستقبلية، يا ربى!

استغل "رويال" فرصة تشتت انتباهها ودخل إلى المطبخ الصغير ليصلح صنبورًا يسرب المياه اشتكت "كاندس" منه.. جلب معه أدوات صيانة مفيدة. مثل هذه المهام المنزلية تبث فيه الراحة، خاصة حين يشعر بالعصبية والاضطراب، كان والده محاميًا، مما يعنى أنه كان رجلا بارعًا فى الكلام، والأرجح أنه لم يكن يستعمل يديه، وأحب "رويال" فكرة أنه مختلف عن ذلك الأب المكلل بالعار الذى لم يعرفه يومًا.

بعد الصنبور تفحص "رويال" الثلاجة التى اشتكت "كاندس" من أنها تصدر ضوضاء مزعجة غريبة وفى رائحتها "ما يسوء". كانت ثلاجة واشنطن قديمة حصلا عليها مع الشقة المؤجرة مثل باقى أغراض المطبخ، لم يعثر "رويال"على أى عيب ظاهر فى الثلاجة بخلاف أنها قديمة، والأرجح أن محركها يهتز ويطن مثل كائن حى عجوز فى آخر عمره، كانت فى الثلاجة عبوة من ست علب بيرة من أجله، لكن "رويال" أخرج عبوة من

ألبان كينجز ديرى وملأ لنفسه كوباً كاملاً منها، حليب أبيض ناصع، لم يتوقف عن شربه من الكوب طوال عمره، كانت "آريا" تحمله على تناول ثلاثة أكواب كاملة يومياً أثناء فترة نموه، أجبرت كل أطفالها الثلاثة على ابتلاع ملاعق صغيرة من زيت كبد السمك مخلوطًا بعصير البرتقال على الإفطار، وحين يحتجون ويبدون الاشمئزاز من طعم الزيت تقول "آريا" بصرامة: "للأسنان القوية والعظام القوية.. ثم البقية تأتى".

حاول "رويال" ألا ينصت إلى الأصوات المنبعثة من الحجرة الأخرى، تمنى كثيرًا ألا تناديه ليكلم "آريا". ارتعد صوته وخذله، لا يمكننى الزواج منها، لا أحبها ساعدنى يا ربى.

بالطبع سيتزوج "رويال كاندس". كان يحبها، وهذا كل شىء.

منحها خاتم الخطوبة، والعرس فى الصباح التالى فى الحادية عشرة صباحًا، وجهزا خططاً لقضاء شهر العسل، ووافقت "آريا" عليها. و"كاندس" تحبه. هذا كل شىء.

مع بداية أكتوبر انتقلت "كاندس" إلى هذه الشقة المؤلفة من حجرة نوم واحدة فى مبنى براونستون فى الشارع الخامس حيث سيعيش العروسان، دفعا مقدمًا كبيرًا أول ثلاثة شهور من الإيجار، وكانت "كاندس" وصاحباتها قد عثرن على الشقة، ورآها رويال جيدة. صغيرة وقديمة نوعًا، لكن مقابل سعرها فهى مناسبة. كان الشارع الذى تقع فيه مزدحمًا، ويقع على طريق الحافلات، على مسيرة خمس دقائق من كينجز ديرى حيث تعمل "كاندس"، وعلى بعد خمس دقائق بالسيارة من شلالات نياجرا حيث يعمل "رويال". وأثناء موسم العطلة عن العمل، سيعمل "رويال" على الأرجح فى وكالة "إمباير كولكشن"، التى تدفع عمولات، وعرض عليه الوظيفة صديق لستو فليتشر، وكان يعرف "رويال" ويحبه، لكن الآن اقترب موعد البدء فى وظيفته الجديدة، فأحس "رويال" بالاضطراب منها.. هل لديه ما يكفى من صبر للاتصال بالغرباء على الهاتف، أو المرور على بيوتهم بجرأة لمضايقتهم

لكى يسددوا الديون التى لا يقدرون على الأرجح على سدادها؟ هل رويال من هذا النوع الشبيه بالقراصنة من الأشخاص الذين يقدرون على "إعادة" السيارات أو القوارب أو التليفزيونات أو معاطف الفرو التى تخلف أصحابها عن سداد أقساطها؟ بدأ يتساءل إن كان هذا يناسبه، فى العام الماضى عمل لدى شركة أرمورى بولينج لانز، ووظيفته أحياناً كانت الساقى. ضايقته كثيراً هذه الوظيفة التى تبقيه داخل مكان مغلق، بعد حماس وإثارة وظيفة حفرة الشيطان. فكر كثيرًا فى مستشفى نياجرا العام حيث يمكنه العمل كمساعد، وهى وظيفة بأجر قليل لكن العمل بحجرة الطوارئ يروقه، وركوب سيارة الإسعاف ومساعدة الناس فى وقت الشدة. ثم هناك أكاديمية الشرطة، كم ود أن يصبح شرطيًا، لكنه سيضطر لحمل مسدس وربما يستخدم الأسلحة، وهذه فكرة محترمة، ربما كان "رويال" ليتصل بمنتج اسطوانات من بافالو كان قد منحه كارته بعدما سمعه يعزف على جيتاره ويغنى فى مهرجان الفنون الصيفى فى بروسبكت بارك فى أغسطس، لكن "رويال" هُيئ له ألا شيئًا جادا يمكن أن يتحصل عليه من "تجربة الأداء" والأرجح أنه فقد كارت المنتج. ربما كان ليبحث عن وظيفة فى فندق فخم أو مطعم كبير فى منطقة بافالو الثرية أكثر من نياجرا، وحسبت "كاندس" أنه سيبدو وسيمًا فى زى النادل، لكن الأساس هو قولها إن عليه ترك وظيفة حفرة الشيطان وأن يحصل على وظيفة حقيقية مثل كل الأصحاب المتزوجين الذين يعملون فى المصانع شرقى شلالات نياجرا، أو نورث تونـاواندا، أو بافالو "خاصة حين ننشئ أسرتنا يا "رويال". وسوف أترك العمل فى متجر الألبان".

ابتلع "رويال" جرعة كبيرة من الحليب. آلمه فكه من برودته. أغمض عينيه ورأى من جديد شعاع الشمس الأبيض البراق فى المقبرة، وكأنه نصل السكين يخترق عينيه.. يخترق ما بين ساقيه، المرأة ذات السواد راقدة على ظهرها فى العشب المتلبد وتفتح ذراعيها له إننا نعرف بعضنا، أليس كذلك؟ نعرف بعضنا. فقط لو كان "رويال" متزوجًا بالفعل من "كاندس".. ما كان ليعود أدراجه قط.

لكن "رويال" ما كان ليمارس الحب مع امرأة غريبة فى المقبرة هذا الصباح، أليس كذلك؟ إذا كان متزوجًا من "كاندس"؟

راح "رويال" يفكر فى أنه ربما كان ليقيم فى هذه الشقة الآن، ولولا أن "كاندس" لا تريده أن يقيم فيها؛ كان لينتقل للعيش معها مع بداية الشهر وربما كانت أحواله قد استقرت الآن، لكن بالطبع لم يتزوجا بعد، و"كاندس" قلقة مما قد يخطر للناس.. فى عالمك "كاندس" يعرف الجميع كل شىء ويتلهفون على نقل "الأخبار" والأقارب على الجانبين سيشعرون بالنقمة والعار، حتى "آريا" التى كانت تحترق الأعراف ما كانت لتوافق على هذا.. ثم هنالك السيدة "ماكان" سيئة السمعة كان المعروف عنها أنها "تعيش مع" رجل غير زوجها. كاندس نفسها كانت صارمة فى إخراج "رويال" من الشقة فى ساعة "محترمة". ما الفائدة من الزواج، كذا أرادت "كاندس" أن تعرف، إذا كنا نعيش معًا وننام معًا ونقابل بعضنا وقت الفطور؟

ابتسم "رويال". حقًا؟ ما الفائدة؟

دخلت "كاندس" إلى المطبخ وهى تداعب مشابك شعرها ذات الفراشات. كانت مهتاجة.. مقطبة الجبين. رأى "رويال" فى وجهها وجه الدمية الجميلة تعبير ممتعض كئيب، وكأنها كلب بولدوج بفكها السفلى المسحوب للوراء وفمها المزموم، راحت تتكلم مبهورة الأنفاس عن تغيير "آريا" لرأيها عن شىء ما، وكيف أن ضيوف كثيرين سيحضرون لا محالة، حاول "رويال" أن يكون متعاطفًا معها، لكن كانت كلمات "كاندس" وكأنها من لغة أجنبية لم يسمعها من قبل قط.. كلها حروف من العنف والصرامة. راحت يداها تتحركان حولها كعصافير مهتاجة، والماسة الصغيرة فى يدها تلمع، تمنى "رويال" لو كان مع كاندس وحدهما فى الشقة، وأن تختفى الأخريات جميعاً، وجميع الأشياء، بما فيها المكالمات الهاتفية (راح الهاتف يرن ثانية فى الحجرة الأخرى). يا لهذا اليوم الطويل!

لكن لم تكن "كاندس" فى حالة مزاجية تسمح بلمسها فى هذه اللحظة، بدا أن حوارها مع "آريا" قد أثار غضبها.

قال "رويال" بابتسامته العذبة المثيرة وبصوت "جونى كاش" الذى تفضله "كاندس": "حبيبتى، لماذا لا نهرب الليلة؟ لماذا لا ننسى قرف العرس هذا برمته ونهرب؟"

اتسعت عينا "كاندس" وكأن "رويال" قرصها: "قرف العرس؟! "رويال برنابى".. ما الذى قلته الآن؟"

هز "رويال" كتفيه. بدت له فكرة طيبة للغاية. أو، إذا لم يتمكنا من الفرار، إذا أمكن أن يصبحا معًا وحدهما فى الشقة، هذا هو بيت المستقبل، السرير الكبير من ألواح خشب الصنوبر الكلاسيكية الأمريكية هو سريرهما، وهو هدية العرس التى منحتها لهما "آريا". اخرجوا جميعاً! اخلعوا سماعة الهاتف من مكانها! أراد "رويال" بشدة أن يمسك "بكاندس" من ذراعيها، وأن يرقد معها كما يفعلان أحياناً، لا أن يمارسا الحب، بل يتبادلا القبلات والعناق والاستدفاء والبحث عن الطمأنينة فى ذراع أحدهما الآخر، لا يهم كم المساوئ التى ظهرت بينهما، مثل كلمات أغنية يعزف لحنها فى رأسك.

لكن: كان "رويال" قلقًا من أن رائحة الأرض النفاذة السوداء فى المقبرة ربما كانت فى شعره وفى ثيابه، كان قلقًا من أن تتذوق المرأة الأخرى بين شفتيه.

ارتفع صوت "كاندس" فى حدة: "ماذا دهاك يا "رويال"؟ ما إن دخلت عبر باب الشقة ورأيت وجهك، عرفت".

قال "رويال" فى عجلة: "عرفتِ! ماذا عرفتِ؟"

ـ لا أعرف.. أمر من الأمور اللصيقة بآل "برنابى"، حالة مزاجية غريبة تتلعثم فيها وتهمهم ولا تنظر فيها إلى عينى أحد".

من الأمور اللصيقة بآل "برنابى"؟ لم يسمع "رويال" هذا الكلام من قبل، ثم ألم يكن ينظر إلى "كاندس" فى عينيها لتوه؟

قالت "كاندس" فى تجهم: "أنت! أحياناً أعتقد أنك لا تريد الزواج حتى. أحياناً أعتقد أنك لا تحبنى حتى".

كانت رأس "رويال" توجعه، الحليب البارد دخل إلى عظام جبينه، ألم بليد بارد، وعليه مقاومة دفن وجهه بين يديه.

ـ هل تحبنى؟ لا أعتقد أنك تحبنى.

ظهرت الدموع فى عينى "كاندس". ارتعشت شفتاها ارتعاشة جميلة، وفى الحجرة الأخرى ارتقت الأصوات.. ضحكات مجلجلة، رن الهاتف.

التفتت كاندس لتغادر، لكن رويال أمسك بذراعها. قال بصوت مبحوح: "حبيبتى".

ـ ماذا؟ ماذا؟

ازدرد "رويال" بصعوبة.. أحس بلسانه بارداً مخدراً.. الكلمات يستدعيها من على بعد، وكأنه يجر مركب بضاعة فى قناة من المياه: "حبيبتى، أعتقد أننى لست كذلك، ليس تماماً؟"

"لست.. لست ماذا؟"

هز "رويال" رأسه فى تعاسة. رأى عينى "كاندس" قاسيتين كمكعبات الثلج. وكأن أنفها الصغير اللطيف استدق طرفه وأصبح حاداً، فى تلك اللحظة عرفت.

التقطت "كاندس" عبوة الحليب وألقت ما بقى منها فوق رأس "رويال"، وصرخت وبكت وصفعت وركلت حتى أمسك بها.. "لا يمكنك هذا! لا يمكنك! أكرهك، أكرهك يا «رويال برنابى».. لا يمكنك!"

هذا اليوم الطويل أخيراً.. بلغ نهايته.

-٣-

إذا سألوا عنه قولوا لهم: حدث هذا قبل أن أولد.

لكن "رويال" يعرف أكثر من هذا. وإن لم تكن لديه ذكرى واضحة عن الرجل الذى كان والده.

لا يذكر لونا بارك، لكنه يعرف من "شاندلر" أن الأسرة كانت تعيش يومًا فى "بيت كبير مبنى من الأحجار" فى مواجهة الحديقة، منذ زمن بعيد، لم تكن هناك صور فوتوغرافية للبيت إذ لم تكن هناك صور فوتوغرافية فى ذلك الزمن. ولا صور فوتوغرافية للأب الذى لا اسم له.

حين حاول "رويال" أن يتذكر: يبدو وكأن عقله يتحلل ويتحول إلى بخار، كالرذاذ المتناثر من الشلالات. يتشتت ويتوه فى الرياح.

أثناء صباه فى شارع بلطيق كان يقوم برحلات سرية إلى لونا بارك الواقعة على مسافة أميال قليلة ليرى إن كان لدى رؤيته البيت سيذكره، لكن كل مرة يقترب من المكان يداهمه دوار غريب، ويحس بالوهن فى ركبتيه، وتدور العجلة الأمامية لعجلته فى حدة، ويكاد ينقلب على وجهه فى الشارع.. ولهذا استسلم وعاد. ليس هذا مقدرًا. ماما هى التى تحبك.

أبعد ذكريات "رويال" حين كان فى الرابعة من عمره و"آريا" تسنده وهو يسير ناعسًا مرتبكًا فى طريقه إلى البيت "الجديد" صاعدة سلالم ضيقة تصدر أصوات صرير، وإلى حجرة نومه "الجديدة". سيشارك الحجرة مع شقيقه لمدة الأعوام العشرة التالية. ولن يتساءل عن أى شىء، وسيصبح صبى "آريا" السعيد المتمتع بالصحة الوافرة. وفى البيت الخشبى الطوبى فى رقم ١٧٠٢ بشارع بلطيق وسط بهجات روائح الخشب القديم والشحم والعفن، حيث عربات النقل منقوشة عليها كلمات "بافالو آند شواتواكوا" و"بالتيمور وأوهايو" و"نيويورك سنترال" و"شيناندوا" و"سوسكويهانا".. تمر عابرة فى جماجمهم.

عاد "رويال" إلى مدرسة شارع بلطيق الابتدائية وفى جعبته حكايات عن الشلالات.

الأشباح تخرج من الشلال ليلاً، كذا قال "رويال" "لآريا" فى حماس. بعضها أشباح لهنود، وبعضها لأشخاص بيض.. هو رجل أبيض أخذه الهنود وأجبروه على السباحة فى النهر وحمله النهر من فوق الشلالات، ثم "العروس الشابة حمراء الشعر" التى يبدو أنها بحثت عنه لـ"سبعة أيام وسبع ليالٍ" وحين وجدته أخيرًا وكان قد غرق ومات، إذ قطعته الشلالات إلى قطع.. "رمت بنفسها" فى الشلالات هى الأخرى.

سألته "آريا" فى جفاف.. وهى تصفف شعر "جولييت" الطويل ـ كان بلون القمح وفيه خصلات رفيعة من الشعر الأحمر الداكن: "متى حدث كل هذا يا حبيبى؟"

قال "رويال" وكان فى الفرقة الثالثة الابتدائية وقتها: "منذ (ميت) عام يا ماما.. أعتقد هذا".

ـ ليست (ميت) بل مائة يا رويال.. مائة.

ـ مائة يا ماما، وألف أيضاً.

كان هذا الطفل مثل زاريو.. حبيب ومتلهف على إرضاء الآخرين. إذا كان "لرويال" ذيل قصير مثل الكلب يحركه طوال الوقت.

ضحكت "آريا" ومالت على ابنها لتقبله. تلك الأشياء التى يصدقها الأطفال.. "إذا كان هذا حدث منذ فترة بعيدة هكذا يا "رويال"، فقد ماتت بدورها، فالأشباح لا تعيش أبدًا".

عاد "رويال" إلى البيت وهو فى الصف الرابع الابتدائى ومعه حكاية مختلفة عن الشلالات، هذه المرة كان "شاندلر" و"جولييت" شاهدين.

ـ ماما! أتذكرين الشبح الذى حكيت لك عنه؟

ـ ذلك الشبح يا حبيبى؟ نحن هنا لا نؤمن بالأشباح؟"

قال "رويال" بعينين متسعتين: "إنها تعيش فى هذا الشارع! يقول الناس إنهم يرونها، إنها حقيقية

حدقت "آريا" فى ابنها الصغير مبهور الأنفاس. كانت تناوله كوبًا طويلاً من حليب كينجز ديرى، حليب "كامل الدسم" كما كانت تناوله له دائماً، وسألته فى هدوء: "من أخبرك بهذا؟"

قطب "رويال" جبينه محاولاً التذكر، لم يكن من الأطفال الذين يذكرون معظم ما يدور حولهم بدقة، الأسماء والوجوه والأحداث تقفز إلى رأسه وكأنها نرد على طاولة اللعب، كان يتململ ويضطرب وهو جالس فى مقعده بالفصل، ويتضايق مع الكلمات المطبوعة التى "تتقافز" أمام عينيه، ربما أخبروه تلاميذ أكبر منه سنًا، بشأن المرأة الشبح التى تقيم فى شارع بلطيق، ربما كانت معلمته، ربما كانت أم أحد أصحابه المقربين التى تدعوه عادة إلى بيتها بعد انتهاء المدرسة وتعطيه الحليب والكعك كما تعطى ابنها، وتدع الصبية يشاهدون الكارتون فى التليفزيون، وهو الذى تحرمه "آريا برنابى" على الجانب الآخر من الشارع.

"جولييت".. بالغة السذاجة بين الأطفال، كانت فى الصف الدراسى الأول، وراحت تنصت باهتمام لشقيقها، كانت فتاة متجهمة ضئيلة وجهها "طويل كالخيارة" وعيناها سوداوان صغيرتان كالبازلاء" كما تصفها أمها.. والخطر هو أنه إذا سمعت "جولييت" حكايات عن الأشباح التى تُشاهد فى شارع بلطيق، فسوف ترى أشباحًا فى هذه الليلة نفسها. أما "شاندلر" فى سن المراهقة النحيل كالخيال فمن ديدنه أن يدخل الحجرات ويخرج منها بلا توقف، وها هو فى المطبخ الآن يشهد على هذا المشهد. وفى الركن الذى اختفى فيه كأى كلب شقى هاجم صفائح قمامة الجيران، كان زاريو منتبهًا فى نعاسه. كانت عصر يوم بارد فى نوفمبر لا يميزه أى شىء فى تاريخ أسرة "برنابى" فى شارع بلطيق بخلاف أن "رويال" راح يتلعثم وهو يتكلم عن الشبح.. الشبح الذى أصبح حقيقيًا.. "شبح السيدة".. يسير إلى جوار الشلالات ويخيف الناس لكى يرموا بأنفسهم فى المياه .. قاطعته "آريا" قائلة من بربك يقول هذه الحكايات التافهة للأطفال. احتج "رويال" بلهفة سنوات عمره التسع قائلاً: "ماما.. إنها حكاية حقيقية. إنه شبح السيدة.. يمكنك أن تراها إلى جوار الشلالات".

ضحكت "آريا". كانت ضحكتها قصيرة حادة كأنها سوط يتحرك فى الهواء، لا يمكن لأحد غير طفل ألف قياس حالات "آريا" المزاجية مثل "شاندلر" أن يفسر ضحكتها.. كما أنه لاحظ قبضة يديها المشدودتين.

لكن "شاندلر" لم يكن سريعاً بما يكفى فى الابتعاد. ورغم أن "رويال" هو الذى سرد الحكاية، فقد نزل غضب "آريا" على "شاندلر" حين جذبه نحوه. التفتت "آريا" لتهجم عليه وأمسكت بشعره بيديها وأعادته إلى المطبخ: "أنت! وهذه النظرة المرتسمة على وجهك الضئيل الهزيل! كنت تتجسس".

هب زاريو قائمًا ونبح بقوة، وفى دهشته من الشجار بين "آريا" و"شاندلر"، سكب "رويال" معظم ما فى كوب الحليب على نفسه.

وخلاف هذا كان عصر يوم عادى من شهر نوفمبر فى تاريخ أسرة "برنابى" فى شارع بلطيق.

- ٤ -

بعد عشرة أعوام، أجفل "رويال" حين تذكر ذلك الحليب المسكوب. الصدمة.. والزجاج الذى تناثر لدى قدميه.

"كينجز ديرى". حليب بارد يُقصف فى وجه "رويال برنابى". ابتسم وهو يفكر أنه ربما يحدث هذا له كل عشرة أعوام؟ نسق مجنون ما فى حياته.

ذات مرة قالت "كاندس" "لرويال" و"جولييت" بطريقتها المتحمسة المبهورة: "إنكما محظوظان للغاية! أمكما هى أروع أم فى العالم". تبادل الأخ والأخت النظرات الحيرى.

قالت "جولييت" وهى تتنهد: "نحن نعرف هذا على ما أعتقد".

بعد عشرة أعوام من حادث المطبخ كان "رويال" واقفًا مترددًا عند مدخل البيت رقم ١٧٠٣ شارع بلطيق، سمع موسيقى البيانو تنبعث من

الداخل. هناك من يعزف البيانو بهمة ونشاط، وأدرك أن المعزوفة لموتسارت، ثم سمع وقفة وكأنها نوبة فواق، ثم سمع صوت "آريا" المرتفع المشجع، تدرب أطفال "آريا" على دخول البيت والخروج منه فى هدوء أثناء دروس البيانو، لكن "رويال" وقف عند الشرفة الأمامية فى حالة من الحلم والتشتت، كان يرتدى سروالاً بنيًا مجعدًا، وقميصًا صوفيًا ناعمًا فوق تى شيرت، وقبعة شركة "حفرة الشيطان" للرحلات تنزل على جبينه متهدلة، ولحيته لم يحلقها منذ ثلاثة أيام فلمع شعرها وكأنه برادة الحديد، وعيناه محتقنتان بالدماء وكأنه حكهما بقبضتيه بقوة، لم يغير ثيابه أو يفعل ما هو أكثر من أن يغسل يديه وذراعيه وساعديه منذ صباح الجمعة، والوقت الآن هو عصر يوم الإثنين.. فى وقت متأخر منه.

عار، عار! و"رويال برنابى" هو حامله.

فى الواقع لم يكن "رويال" يشعر بالخزى، ولم يشعر بأقل قدر من الندم، ملأت جنباته الراحة كأنها بالون منتفخ بغاز الهيليوم.. الحرية! يمكنه أن يحلق بعيدًا فى هذه الحرية، لا ليس رجلاً متزوجًا فى التاسعة عشرة من عمره.

بالطبع أحس "رويال" بالأسف على "كاندس". وجهه يحترق ويؤلمه حين يفكر فى الأمر، لقد آلمها، وآخر شىء يريده كان أن يؤلمها. كما أحس بما يشبه الأسف على "آريا" أيضاً، لكن لماذا؟

"كاندس" ستصبح زوجتى يا ماما، وليست زوجتك أنت.

لم يعجب "آريا" أن ترى "شاندلر" ـ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ـوهو "يقابل" صديقة له منفصلة عن زوجها وحبلى، أبدت "آريا" الصدمة والاشمئزاز من هذا "الوضع" وجعلت "شاندلر" يعدها بأنه لن يغرق فى الزواج من امرأة شابة.. ورفضت "آريا" حتى أن تقابلها، لكن سرعان ما رأت "آريا" أن "كاندس ماكان "زوجة "مناسبة جداً" "لرويال".

هذا غريب، لكن من يعرف آريا لن يراه غريباً. ليس لأنها فى أواسط الخمسينات من عمرها ولم تعد عصبية أو يسهل إثارتها كما كانت فى

عمر أحدث من هذا، "فآريا" أصبحت أقل عرضة لحالات الغضب المفاجئ (أو "حالات اللحن المتغير" كما كانت تدعوها وهى تصف حالتها كأنها طبيبة محايدة، وكأن حالات الغضب هى حالة عقلية لا يجب لوم الشخص عليها، وكأنها يصيبها البرق فتركل عابرى السبيل الأبرياء نتيجة لمصابها) لكن ما زال يصعب التنبؤ بحالات "آريا" المزاجية، تمر أيام ترفض فيها التكلم إلى "جولييت" حول أى من موضوعات الأم والابنة الصغيرة والألفة الطبيعية بينهما، مما يراه "رويال" غير منطقى بالمرة. وهو الصبى الذى سُمح له بهامش حرية أكبر أثناء نشأته. كانت "آريا" تضحك على ما يرتكبه "رويال" من أخطاء فى البيت بدافع من إهماله أو كونه أخرق، وهى أخطاء تدفعها إلى الغضب الشديد إذا ارتكبتها "جولييت"، أو "شاندلر" المسكين.

(لحسن حظه لم يعد "شاندلر" يقيم فى البيت. لكنه كان يمر عليهم كثيرًا، وأحيانًا ينام فى سريره القديم، وكأنه بحاجة لتعنيف "آريا" بقدر حاجة "آريا" إليه).

- أهلاً يا "رويال"! كيف الأحوال؟

جار من بيت على جانب الطريق المواجه كان رويال ينظف له سقف بيته مقابل أجر زهيد.. ها هو يصيح على "رويال" الذى لم يعد أمامه خيار غير أن يلوح له ويناديه. افترض "رويال" أن كل من فى الجوار يعرفون إلغاء الوقح للعرس، وإن لم تتم دعوة أحد من شارع بلطيق إلى العرس.

- إذًا فقد كنت فى شهر العسل هذا الأسبوع، أليس كذلك؟

- لا، لم أفعل.

ضحك الجار العجوز ذات الساق العرجاء ضحكة غامضة واختفى عائدًا إلى بيته، أحس "رويال" بوجهه يحترق.

ربما هذه ليست فكرة جيدة؟ العودة إلى البيت سريعًا هكذا، يجب أن يعترف "رويال" لنفسه بأنه يخشى مقابلة "آريا".

بالطبع اتصل "بآريا" مساء الجمعة. على الفور قال لها إن العرس قد "أُلغى" كانت الساعة قد تعدت التاسعة وآريا تتردد فى الرد على الهاتف حين يرن فى وقت متأخر هكذا، لكنها أجابت فى الرنة العاشرة، وأصابتها دهشة عظيمة من أخبار "رويال" حتى أنها سألته أن يكرر ما قاله، وحين فعل "رويال" وقال فى عجلة إنه لن يتزوج "كاندس"، وإنه لا يحب "كاندس" ولا يعتقد أن "كاندس" تحبه، صمتت "آريا" لوقت طويل حتى أن "رويال" خشى أنها ربما تعانى نوبة ما، ثم سمع أنفاسها المبحوحة العميقة وكأنها تحاول ألا تجهش بالبكاء. "آريا" التى تحتقر الدموع! قال "رويال" سريعًا: "ماما؟ "كاندس" قادمة لتقابلك. إنها تفهم لماذا أفعل ما أفعله، إنها منزعجة وغاضبة منى كثيرًا، لكنها تتفهم على ما أعتقد. سامحينى يا ماما، أنا آسف، أنا ابن حرام. ماما.." لكن الصوت كان صوت "جولييت": "رويال".. لقد صعدت الطابق العلوى، لم تخبرنى ما الأمر. رويال، أنت لم تصب بأذى، أليس كذلك؟ "رويال"؟ أنت لا تحتضر؟".

وفى اليوم التالى، يوم السبت.. أرسل "رويال" تلغرافًا إلى "آريا".. تلغرافه الأول.

أمى الحبيبة.. أنا آسف لم يكن أمامى خيار

سوف أشرح لك يومًا. مع حبى.. "رويال"

فور الانفصال عن "كاندس" اختبأ "رويال". ثلاثة أيام وهو هارب - بعيدًا عن مجال اتصال أى أحد، لم يتصل بأحد غيرها، وهو يعرف أن الخبر سينتشر سريعاً، سيعرف كل أقارب وأصحاب "كاندس" بما حدث خلال ساعة. كما تفيض المجارى.. اعتادت "آريا" أن تقول هذا عن الشائعات حين تنتقل من شخص إلى آخر، لا يمكن الثقة بأن المجارى ستفيض فى شلالات نياجرا، بقدر الثقة فى أن الشائعات و"الأخبار السيئة" تنتقل. "رويال" لم يرغب فى التفكير فيما سيقوله الناس عنه، فى صدمة وإحساس بالعار والغضب. حتى أم "كاندس" يُرجح أنها تحضر

نفسها لكى تخنقه، أتصدقون! أن يفعل "رويال برنابى" شيئاً كهذا! عشية عرسه! كان "رويال" يعرف أن "كاندس" ستشعر بمرارة إعادة هدايا العرس والمصيبة المضافة إلى الإهانة.

لن تغفر له أبدًا وهو يعرف.. ما فعله أسوأ من الخيانة الجنسية، إذا كان أخبرها بأمر المرأة ذات السواد كانت لتشعر بالألم والحسرة والاشمئزاز، وكانت تبكى وتهاجمه، وكانت تقول له إنها تكرهه، وإنها لا تريد الزواج منه، لكن فى نهاية الأمر وبسرعة، سوف تغفر له "كاندس" وتتزوجه، لكن ما فعله الآن بوازع من الضمير، وهو يعرف أنه الشىء الصحيح لصالحهما.. فلن تغفره له أبدًا.

هل انتهى درس البيانو؟ كانت الساعة تقارب السادسة، لكن أحياناً ما تتجاوز "آريا" حدود الساعة، كانت معلمة مجتهدة مثابرة ما زالت بعد ثلاثين عامًا من منح دروس البيانو، لديها القدرة على الاندهاش من الأخطاء، كثيرًا ما أحرجت "آريا" أطفالها، خاصة "جولييت" التى كانت تشعر بهذه الأمور أكثر.. لأنها تهتم بدروس البيانو أكثر من اهتمام التلاميذ بها، دائماً ما تشعر بالألم والدهشة والحسرة من المراهقين أصحاب الموهبة المتوسطة الذين يوقفون تعاطى الدروس، أو بناء على قرارات آبائهم بإيقافها، لا علاقة للأمر بالنقود.. "فآريا" قد تُعلم الطلبة أحياناً لشهور دون أخذ أتعاب، كانت تحب الموسيقى ولا يمكنها فهم كيف يتعامل الآخرون معها بإهمال هكذا، هذا كأننا نرمى النقود فى البالوعة وهو تعبير وقح ـ لكن لعله صحيح؟ ـ استخدمه والد أحد تلاميذ "آريا"، حين قرر إيقاف الدروس، عاملت "آريا" ما قاله بسخريتها المتجهمة المعتادة، رمى النقود فى البالوعة.. هذا كل ما نفعله جميعاً. هذه هى الحياة!

فى شارع بلطيق، بين أفراد الطبقة العاملة والجيران من "الطبقة الثرية".. بعضهم يعيشون فى بيوت قديمة متحللة يملؤها الأطفال على آخرها.. كانت المرأة ذات الشعر الأحمر التى خط شعرها البياض المقيمة

فى رقم ١٧٠٢ معروفة بأنها أرملة، وأنها تربى ثلاثة أطفال يتامى الأب وحدها. وأنها تتمتع بالكبرياء والتهذيب وأحياناً الترفع والغرور فى معاملة الجيران. وأنها منعزلة تماماً وغريبة الأطوار، كان معروفاً أن "آريا برنابى" امرأة غريبة لها ظروف خاصة.. "متعلمة".. "موهوبة".. وكان مفهوماً أنها تخشى المتدخلين فى شئونها، حتى الطرقات الودودة على باب بيتها قد تزعجها، كأنها شبح.. تنظر إليك فتصل إلى أعماقك. "مدام" "برنابى".. لا يمكنك أن تناديها بهذا الاسم، إذا فعلت يبدو على وجهها كأنك طعنتها فى القلب.

منذ كان كبيرًا بما يكفى ليلعب مع الأطفال فى البيت المجاور "ورويال" يتمتع بحضور وشعبية فى الشارع.. فهو ولد نصف يتيم مرح دائم السرور. أصبح له أصدقاء فى كل مكان ويلقى الترحيب فى بيوت أصحابه حيث تستجوبه الأمهات أحياناً ("رويال"، يبدو أن أمك لا تخرج كثيرًا.. أليس كذلك؟".. "رويال"، ألا تذكر والدك؟") تتراوح المشاعر بين الغضب من "آريا برنابى" لإحساسها بالسمو والكبرياء، والعطف على مصابها، هل يجب كراهيتها؟ أو الإحساس بالشفقة عليها؟ إنها تعزف البيانو بمهارة وجمال، لكن ليس لديها زوج، أليس كذلك؟ كانت متزوجة من "ديرك برنابى"، لكنها تقيم الآن فى شارع بلطيق، أليس كذلك؟ وأين أسرتها، أين أقاربها؟ لماذا تعيش هى وأولادها فى هذه العزلة؟

حين كان "رويال" طفلاً كانت تمر عليهم مراحل تستغرق شهورًا حين لا تقدر "آريا" على مغادرة المنزل حتى لشراء الطعام.. "أشعر بوهن بالغ، لا أقدر على التنفس، أعرف أننى سأفقد وعيى إذا ركبت تلك الحافلة".. وفى مثل هذه الأوقات يعرض الجيران المساعدة فى هدوء ويصطحبون "شاندلر" و"رويال" إلى متجر "آيه آند بى"، وتكتب "آريا" فى حرص قائمة المشتروات المطلوبة من بقالة.. ويصطحبون الأطفال إلى الطبيب، وإلى طبيب الأسنان، أو لشراء الثياب والأحذية، يجب أن تمتن "آريا" لهذا النوع من الإحسان، لكنها تحتقرهم وتزدريهم فى مرارة "لا تكشفوا أسرار

العائلة".. كذا تحذر أبناءها. (الذين يتعجبون، ما هذه الأسرار؟) "يحبون التدخل لا أكثر، حين يحسون بضعف ينقضون". وحين أجرت "آريا" جراحة طارئة بعد تجاوز سن الخمسين بقليل لتزيل حصوات فى الكلى، دعى الجيران الأطفال لمشاركتهم الطعام، وحين خرجت "آريا" من المستشفى وقضت فترة النقاهة فى البيت، كانوا يرسلون الطعام وما تبقى لديهم من الديوك الرومية (كان الوقت عيد الشكر)، والكعكات والفطائر، عمد "شاندلر" إلى شكرهم فى تهذيب. حتى وإن غمرت "آريا" أحاسيس الازدراء "ثعالب.. قطيع من الثعالب! يروننى "سقطت" يعتقدون أننى أصبحت واحدة منهم" جلد "آريا" البارد الشاحب يلمع. عيناها الخضراوان تلمعان وتتوجهان فى ألم ممزوج بالظفر.. "لكنهم مخطئون، أترون؟ سنريهم".

اعترض "شاندلر" وكان فى العاشرة من عمره فى ذلك الحين وبدأ يلزم الاستقلالية فى التفكير، وقال: "ماما، إنهم يحاولون التصرف بشكل لطيف. يشعرون بالأسف علينا".

ـ "يشعرون بالأسف علينا!" كذا قالت "آريا" فى قسوة.. "كيف يجرءون! قل لهم أن يأسفوا لأنفسهم" حتى فى فراش النقاهة وجلدها شاحب شحوب الموت وصوتها مبحوح، تمكنت "آريا" من جرح ابنها الأكبر.

فى العادة تعفى رويال من الإهانة. ويتعجب لماذا.

- أنت.. على الأقل ما زلت حياً.

ضحك "رويال" فى حرج. قالت "آريا" أقسى الأشياء، أخيرًا غادر تلاميذ البيانو، لم تظهر "آريا" أية مشاعر وهى تخرج بالفتاة إلى الباب الأمامى للبيت وترى ابنها يميل على حاجز الشرفة الأمامية، وطرف قبعته يغطى عينيه المذنبتين.

احّمر وجه الفتاة ـ وهى فى سن المدرسة الثانوية ـ حين رأت رويال، وكأنها تعرفه. غمغمت ما بدا مثل أهلاً يا "رويال" وهى تمر إلى جواره مسرعة.

راحت "آريا" تحدق فيه بعينين متألمتين ناقمتين. ربما كانت تريد ألا تدخل "رويال" إلى البيت، أو ترفض إدخاله، ربما كانت سترمى متعلقاته خارجًا كما رأوا امرأة غاضبة منذ عام وهى ترمى بأغراض زوجها والحى كله يحدق فيها وهى تصرخ: "ملعون! ملعون"

ثم جاء زاريو يتهادى إلى الشرفة وهو ينبح فى حماس، لم ير "رويال" منذ عدة أيام وربما أدرك من التوتر فى البيت أن شيئًا كارثيًا حدث، أصبح كلباً عجوزًا.. بدين الجسد، وشعره البنى المتموج ذبل ونحل، وعيناه أقل صفاءً مما كانت.. لكن يظل زاريو جروًا صغيرًا فى إخلاصه لآل "برنابى"، خاصة "لرويال". طيلة حياته ورويال هو رفيق اللعب، و"آريا" هى التى تطعمه وتبقيه معها حين يغيب الأطفال فى المدرسة. لعق زاريو فى لهفة يد "رويال"، وشب على قدميه الخلفيتين محاولاً تقبيل وجه "رويال". "زاريو.. انزل" لم يتمالك رويال الإحساس بأن إخلاص الكلب المحموم فى غير محله.

التفتت "آريا" فجأة وسارت مبتعدة، لكنها لم توصد الباب فى وجه "رويال".

زاريو.. اللعنة.. قلت انزل.

أحياناً تتوق لأذيتهم. هؤلاء الذين يحبونك كثيرًا.

تبع "رويال" "آريا" إلى المطبخ وهو يحك فكه غير الحليق، الذى أحس كأن نمت له ريشات. ملابسه مجعدة ورائحة إبطه سيئة. وضعت "آريا" براد الشاى على الموقد كما تفعل بعد أمسية طويلة من دروس البيانو، تتحرك ببطء مدروس وكأن مفاصلها توجعها، وعلى هدى مصباح السقف كان وجه "آريا" الطويل الشاحب غير المبتسم هو وجه امرأة لم تعد شابة، لكنها غير مقبلة على التقدم فى العمر. سلوكها صارم وتصرفاتها قاسية.. شعرها دائماً هو الجزء الأكثر لفتاً للانتباه فيها.. كان مجعدًا مفكوكًا، متهدلاً ولكنه مربوط بدبابيس لامعة.. يعلوه شىء من الصدأ وجزء منه

فضى كاليكا، وإن كان من الواضح أنها ترزح تحت عبء الضغوط وغير سعيدة، فقد كانت ترتدى تنورة دروس البيانو الطويلة، وسترة كشمير سوداء منقوشًا عليها شكل بذلة قصيرة، ووشاحًا حريريًا أحمر براقًا.. وهى أشياء اشترتها بدولارات قليلة، ولم تكن حديثة.. من متجر "سيكوند تايم راوند فاشون" فى شارع فيتيران، كانت "آريا برنابى" امرأة تتمتع بكامل كبريائها، وعمودها الفقرى مستقيم ورأسها مرتفع.. وسط هذا الحى من ربات البيوت اللاتى يظهرن على شرفاتهن الأمامية فى المنامات وروب الحمام، والشعر المجعد غير المهندم، لكن "رويال" رأى فمها مزمومًا.. نعم أنا غاضبة.. نعم تماديت كثيرًا هذه المرة.

كانت "آريا" تخطط لحفل العرس فى البيت، أول حدث اجتماعى تخطط له فى حياتها على قدر علم "رويال". وسرق "رويال" هذا منها. من بين أشياء أخرى سرقها منها.

أحس "رويال" أن عليه الاعتراف بالذنب واستجداء المغفرة، لكن شيئًا داخله منعه فى عناد، لم يكن يشعر بالأسف! كان مسرورًا؛ لأنه لم يتزوج من "كاندس ماكان"، أو من غيرها.

رأى "رويال" التلغراف المرسل ويبدو أن "آريا" كومته بين يديها.. وكان مستقرًا فى ركن المطبخ، حاول أن يفكر فى شىء يقوله ولا يكون كذبًا أو فيه نفاق أو شكوى، وكأنها تقرأ أفكاره، قالت "آريا" فى قسوة: "تلغراف.. تلغرافى الأول.. تهانينا "لآريا برنابى".. لقد تسبب ابنك فى فضيحة".

تنهد "رويال". راح يربت على رأس زاريو المتحمس وأحسه "رويال" أنحف مما سبق، والكلب يلهث فى حماس ويلعق يديه.

من خبرته الطويلة كان "رويال" يعرف أنه إذا لم يتكلم سريعاً وبقوة ولم يبذل مجهودًا فى الدفاع عن نفسه، فسوف تصعد "آريا" من هجومها، لن ينسى أبدًا كيف أنه فى صيف عامه الأول بالمدرسة الثانوية، حينما كان يعمل فى شركة سيتى باركس آند ريكرياشن، وحينما كان يتمتع بالشعبية

كلاعب بيسبول فى فريق المدينة وشعره طويل متهدل على كتفيه وحول جبينه رباط رأس.. كيف راحت "آريا" حينها تنتقده باعتباره "هيبيز جريان"، وذات مساء فى هذا المطبخ نفسه انقضت عليه بمقص وأمسكت بشعره الثقيل وقطعت خصلات كبيرة منه قبل أن يتمكن من أن يوقفها، وحتى بعدها راحت تغيظه بلا رحمة.. ابنها الهيبيز الجربان.. "ما كان يجب أن أندهش من أى شىء أحمق تفعلونه أيها الأولاد".

أيها الأولاد.. آلمته هذه الكلمة. قال "رويال": "أيها الأولاد؟ كيف توصلت لهذه الكلمة؟"

ـ هكذا تكسر قلب أمك.. لك أساليبك فى هذا.

ـ وما علاقة "شاندلر" و"جولييت" بما فعلته يا ماما؟ أنا من آلمك"

ـ أنا من آلمك.. ما كل هذا الفخر.. أنانى، جاهل، فاسد.. ذكر مضلل.

أجفل "رويال".. كيف تدافع عن نفسك لاتهامك بأنك ذكر؟.

قالت "آريا" بصوت مرتعش: "إنك مثله.. بذرته فيك، بذرة الألم والدمار.. التخلى عن كل شىء، تحيد وتبتعد عن الناس الذين يحبونك.. الذين يثقون فيك.. آه.. كم أكرهك!" ثم كفت عن الكلام وكأنها أدركت أنها قالت الكثير. التفتت عنه بعيون لا ترى لترفع براد الشاى عن الموقد.

ـ مثل مَنْ يا ماما؟ مثل أبى؟

انتظر "رويال" فى قلق.. كان يعرف أن الأفضل ألا يضغط على "آريا". كانت تصب المياه فى براد الشاى، فسكبت بعضه على المائدة. خشى "رويال" أن تحرق نفسها بيدها المهتزة الممسكة بالبراد، قالت: "لا يمكننى أن أثق بك ثانية قط. وكنت أحبك كثيرًا".

ـ ماما.. بحق يسوع..

ـ أحببتك أكثر من "جولييت" التى كان مقدرًا أن أحبها أكثر من الجميع. "جولييت" طفلتى الصغيرة، ابنتى التى كنت لأموت من أجلها، لكن

لم تستقم الأمور بيننا أبدًا، ليس كما استقامت معك، آه.. منذ البداية كنت رويال ابنى! والآن أكرهك.

ـ بحق يسوع يا ماما.. لا تقصدين ما قلت.

ـ لا تقسم فى حضورى! بذاءة الرعاع.. بذيئة سوقية.

ازدرد "رويال" فى صعوبة وقال: "كيف أنا شبه أبى يا ماما؟ أخبرينى". هزت "آريا" رأسها باقتضاب.. كان وجهها جامداً وكأنها عمياء تسير مسحوبة من يدها.

خيانة الأسرة الخروج عن الأسرة.. هذا ما حدث.

قال "رويال" فى جرأة: "ماما.. لماذا لا تخبريننى عن أبى؟ أعرف أن الرجل ميت، لا يمكنه أن يؤذينا الآن.. أليس كذلك؟" لكن ها هنا اضطرب "رويال" وأصابته الحيرة. الشعور الذى يراوده أحياناً وهو يوجه القارب فى "حفرة الشيطان"، حينما يبالغ بعض الركاب ويصرخون وكأن القارب فى خطر حقيقى من المياه المتقلبة.. وللحظة يتملك الخوف كل من فى القارب ويهيمن عليه، ويخفق قلب رويال بقوة غريبة. تلك النظرة فى وجه "آريا" كانت نظرة رعب.

كف "رويال" عن الكلام. أخذ براد الشاى من يد "آريا" المرتجفة ووضعه ثانية على الموقد. أخيراً.. الآن.. لن تحرق "آريا" نفسها أو تحرقه، تاريخ طويل متنوع درامى هو تاريخ "الحوادث" فى المطبخ، بعضها سببتها آريا، وبعضها تسبب فيها أطفالها.

حاول "رويال" أن يرسم على وجهه أجمل ابتسامات "رويال" المعروفة، نجحت ونفعته طيلة تسعة عشر عامًا مع هذه المرأة، ولا يصدق أنها قد لا تنفعه معها الآن. وبصوت بدا كالاعتذار قال: "أعرف يا ماما.. كان ما فعلت شيئاً وسخ، وأنا.."

وسخ.. أية لغة هذه؟ كنت قاسياً ولديك لا مبالاة الـ.." كفت "آريا" عن الكلام فجأة، خطر "لرويال" أنها على وشك قول كلمة ذكر ثانية عنه.

كنت يائسًا على ما أعتقد، حدث لى شىء ما ذلك اليوم، وكنت أعرف أنه ليس صحيحًا ما كنت أفعله. سيؤلم "كاندس"، وسيؤلمنى، وإذا رزقنا بأطفال..

قالت "آريا" فى غضب: "إذا رزقت بأحفاد، هذا أكبر من أن تفعله أنت على ما أعتقد .

ـ ماذا؟ ماذا تقولين يا ماما؟

ـ على الأقل "كاندس" ليست حبلى. هذا هو الشىء الوحيد الجيد فى الموضوع، إذا كنت هجرتها وهى.."

اعترض "رويال" قائلاً: "ماما.. ما كنت لأهجرها، ما كنت لأفعل شيئاً كهذا أبدًا".

ـ "ما كنت لتفعل؟! حقاً" صبت "آريا" الشاى فى فنجان وهى تثبت بكلتا يديها البراد الخزف.. "لا يصبك الغرور يا رويال برنابى فتعتقد أن "كاندس" لن تتعافى مما حدث، كانت حزينة مساء الجمعة ومحطمة الفؤاد، لكنها لم تكن هستيرية، ودينها سلوى وعزاء لها. "رويال" ليس مسيحيًا.. كذا قالت.. لذا فربما ما حدث أفضل. سوف ترتدى ذلك الفستان الجميل لشخص آخر على ما أعتقد، وقريبًا خلال عام أو عامين". "آريا" تدلى بخطبة من خطبها المتزمتة.. "فتاة بهذا الجمال وتهجرها. فتاة بهذا النقاء والقلب الجميل.. بهذه العذوبة".

قال "رويال" فى اشمئزاز: "بحق المسيح يا ماما! لو أردت زوجة (عذبة) سأتزوج قطعة شيكولاتة على شكل أرنبة، سأنام مع بنت القحبة فانى فارمر"(*).

ـ "رويال. انتبه للسانك".

ـ إنه لسانى وليس لسانك! أريد زوجة أتكلم إليها بحق يسوع، أتكلم إليها وأضحك معها. زوجة أذكى منى وليست أغبى، زوجة أتزوجها حين

(*) خبيرة طهى أمريكية ذاعت شهرتها فى بداية القرن العشرين.

أكون أكبر سناً ومستعداً للزواج. زوجة لا تريد منى أن أحصل على وظيفة (حقيقية) فى مصنع كيماويات قذر يدمر ما لدى من خلايا مخ حقيرة.. ما بقى لى منها. زوجة تكون.." سكت "رويال" والتقط نفساً عميقاً وقال فجأة وقد نزل عليه الإلهام: "موهوبة فى شىء لست موهوباً فيه".

راحت "آريا" تحدق فى "رويال". مرة أخرى اعترتها نظرة الرعب تلك، تحركت شفتاها فى صمت وبدا أنها على وشك فقدان الوعى. خشى "رويال" عليها وقال سريعاً وقد تراجع: "ماما. أعرف أن ما حدث أفضل. أعتقد أن "كاندس" تعرف أيضاً، لكن ما إن بدأت خطط التحضير للعرس كان من الصعب إيقافها، وكأن العرس له حياة مستقلة، وكأنه الغاية مما كنا نفعله، لا أريد أن أؤلمك.. أشياء قليلة هى التى يبدو أنها تسعدك.."

حلقت هذه الكلمات فى الهواء، ليست اتهاماً، بل إقراراً للواقع. تمكنت "آريا" وقد تعافت من صدمتها من أن تطلق ضحكة ساخطة: "آه.. الآن يلومنى! ابنى الذى لم يذنب يلوم أمه".

فكر "رويال" للمرة الأولى أنه لابد أن أمه وأباه كانا يحبان أحدهما الآخر ذات يوم. منذ زمن بعيد حين أقدما على الزواج، ولكم سنة بعد الزواج؟ ثم حدث شىء ما، أراد أن يعرف ما حدث! يجب أن يعرف، لكن نظرة "آريا" عرف أنها لن تخبره الليلة.

ـ "ماما.. لست ألومك على شىء، إنها غلطتى أنا، أعتقد أننى ضعيف وأحب أن أجعل الفتيات يشعرن بالسعادة، حتى لو كانت سعادة غير حقيقية، كأنهن فى حفلات تنكرية".

ـ الحياة خارج الأسرة هى التنكرية".. كذا قالت "آريا" فى لهجة تقريرية.. "يجب أن تعرفوا هذا يا أولاد".

لكن ليس داخل الأسرة؟ حرك "رويال" كتفيه فى ضيق. ها هو زاريو، لا تشغله مسائل أخلاقية أو ميتافيزيقية، بل مجرد بواعث اهتمام الكلاب وقلقها من أن يهجرها سيدها الصغير، زاريو الذى أجاد فهم التوترات فى

البيت، أحياناً قبل أن يدركها السكان، راح يداعب بأنفه يدى"رويال" محاولاً أن يصعد ليقبل وجهه الساخن.. "اللعنة يا زاريو، انزل".تراجع الكلب ونبش بمخالبه فى الأرض وكأن "رويال" ضربه، وبطبيعة الحال كان على "رويال" أن يربت عليه ويؤكد له أن نعم، زاريو محبوب.

نصف العالم بحاجة ماسة إلى الحب. نصف العالم بحاجة ماسة للتحرر من الحب.

ـ ما حدث لى يا ماما..

ـ نعم.. ماذا حدث لك؟ يبدو كأنك تشرب منذ أيام، وتنام فى سيارتك.

كان فى هذا قسوة، وبعيد عن الصواب. لم يتناول "رويال" أكثر من كوبين أو ثلاثة أكواب بيرة هذا اليوم. ولم ينم فى سيارته منذ أول ليلة، ليلة الجمعة.

ـ إننى أدركت أننى غير قادر على الزواج من "كاندس" لأن.. لأننى لا أحبها بقدر ما يمكننى أن أحب امرأة".. هكذا، قال ما لديه. لعق رويال شفتيه وقد قال ما قاله، لم يكن أبدًا ممن يتأملون أنفسهم، دعك من التفكير فيما لدى النفس من إمكانيات.. منذ الصبا وهو يرى المستقبل بنفس الغموض وضعف الذاكرة التى يرى بها الماضى "ما كان من المنصف "لكاندس" أن.."

قالت "آريا" فى قسوة: "حقًا؟ ولماذا؟ لأنك لم تكن مخلصًا للفتاة المسكينة؟"

أحس "رويال" بوجهه يحترق. هل يتكلم فى هذه الأمور مع أمه!.. "أحياناً تحدث أشياء كهذه، أليس كذلك؟ إذا تزوجت صغيرًا تحدث. قد أقابل إنسانة أحبها أكثر من حبى لمن تزوجتها ثم.."

استقامت "آريا" فى وقفتها بطولها البالغ خمسة أقدام وسبع بوصات، امرأة طويلة إلى حد ما فى جيلها، كانت أقصر من "رويال" رغم هذا عليها

أن تمارس سلطتها عليه بتثبيته بنظرة عينيها الخضراوين. آه.. كم تخشى إطلاق هذه النظرة! "شاندلر" "ورويال" و"جوليت"، ولا شك زاريو.. يرتجفون رعبًا من هذه النظرة. "هل تقول يا رويال برنابى إنك قابلت إنسانة أخرى؟" تردد رويال. لا. هذا خطأ.

أبدًا لن يتمكن من التكلم عن المرأة ذات السواد مع "آريا". ولا مع أحد غيرها.

قالت "آريا" فى سخرية: "ألسنا فخورين بأنفسنا! أنت أيها الذكر! لابد أن ممارستك للجنس رائعة.. ما لم يكن ما بين فخذيك سمٌّ". ارتجف "رويال" من الفكرة.. سم بين فخذيه!

أريد أن أحب.. أريد الحب.. حب بجسدى، وليس زائفًا.. ليس ثانية.

أراد "رويال" تغيير الموضوع. راح يتفصد عرقه داخل ثيابه، قالت فى تردد: "يمكن أن أعود للدراسة.. ربما المدرسة الليلية، يمكننى الحصول على دبلومة عليا من المدرسة الثانوية، ثم.."

كانت "آريا" جالسة لدى مائدة المطبخ تحتسى الشاى، يبدو أن لحظة الأزمة مرت، ويمكنها أن تمارس نفوذها بشكل أيسر الآن. ضحكت ضحكة لا تغيب عنها الطيبة: "أنت يا "رويال".. بالكاد تخرجت بدبلومة محلية".

- .. يمكن أن أذهب إلى الجامعة، ربما فى بافالو.. كما فعل "شاندلر".

"شاندلر"! إنه أذكى منك بكثير يا عزيزى.. وأنت تعرف هذا".

- "حقاً".. قالها "رويال" فى برود: "فعلاً قيل لى هذا".

- لطالما عانيت فى المدرسة منذ البداية. أنت ملول وضجر.. تحب الحركة ولست مثل "شاندلر" المسكين، حتى عيناى "شاندلر" ضعيفتان".

عينا "شاندلر.. بربك يا ماما".

ـ حتى "جولييت" أفضل منك كتلميذة يا "رويال". إنها حالمة ومتمردة لكنها ذكية. بينما أنت.."

ضحك "رويال" وهو يحك رأس زاريو بقوة: "ماما.. إنك مشجعة حقاً، تؤمنين بى كثيرًا".

ـ "رويال"، آمنت بك يومًا كفنان، ليس على جيتارك الملعون هذا بل على البيانو. لا توجد آلة موسيقية كالبيانو! كنت تعزف بمهارة واعدة فى سن الثامنة، ثم تمردت عليه، لماذا؟ وكان صوتك جيدًا يسهل تمرينه.. صوت أوبرالى. لكنك لم تهتم. لم تصبر على التعلم. أتعتقد أن أغانى الفولك التى تغنيت بها فى الثانوية تبعث على الفخر؟ أصبح صوتك جافًا وسيئًا مثل ذلك السخيف "توم ديلان".

ـ "بوب ديلان".

جعدت "آريا" وجهها فى اشمئزاز.. "رهيب! على الأقل كان "الإلفيس بريسلى" صوت".

ـ ماما.. كنت تكرهين "بريسلى" أيضًا".

ـ كرهت موسيقاه.. الروك آند رول، إنها همجية وجهل.. موت أمريكا.. أمريكا يأكلها أولادها من الداخل". ارتعدت يد "آريا" وهى ترفع فنجان الشاى، بدأ شعرها المربوط ينفك، قالت فى قسوة: "وأنت!.. فجأة تريد الذهاب إلى الجامعة. كما أردت ثم لم ترد أن تتزوج من تلك الفتاة العذبة البريئة، لماذا بينما تحب العمل فى الشلالات؟"

رأى "رويال" الاتجاه الذى يتحول إليه الحوار، لكن مستحيل أن يبعد "آريا" عن المسار، منذ سنوات سمع "آريا" تقنع "شاندلر" بألا يذهب إلى جامعة بنسلفانيا، حيث حصل على منحة دراسية، لكى يبقى قريبًا من البيت ويحضر فى جامعة بافالو، تعرف كم يتعبك التوتر، ماذا لو حدث لك شىء صعب وأنت بعيد عن البيت.

وطبعًا كان التوتر يؤثر على "شاندلر"، وسيستمر فى التأثير عليه طيلة أربعة أعوام فى الجامعة، لكن ليس فى فيلادلفيا، بل فى بافالو، سيتعين عليه حضور المحاضرات خمسة أيام فى الأسبوع، وأن يقيم فى شارع بلطيق مع الأسرة ويعمل فى وظائف بدوام جزئى ليدفع لنفسه مصروفات التعليم ويساعد فى نفقات الأسرة. الجامعة أصبحت كلمة مرادفة للأنانية والتفاهة. وها هى "آريا" تعود لنفس الموضوع الآن، وتتكلم بترفع وكبرياء: "ومن أين ستحصل على مصروفات الجامعة؟ ليست مجرد نفقات التعليم، بل نفقات أخرى، نفقات خفية، يجب أن تقترض وأن تستدين لأعوام، وإذا لم تتخرج فماذا تفعل؟ تضيع كل هذه النقود.. كأنك تلقيها فى بالوعة".

بالوعة! اضطر "رويال" للابتسام، لا يكاد يمر يوم فى بيت شارع بلطيق دون ذكر البالوعة المخيفة.

ـ ماذا؟ ما المدهش؟ هل أنت أرستقراطى متنكر ووريث ثروة مفقودة؟ اسمع منى يا فتى.

قال "رويال" منزعجًا: "يمكننى أن أعمل، كنت أعمل منذ بلغت الثالثة عشرة. بربك يا ماما!"

ـ لكنك لم تعد فى الثالثة عشرة. لن يكون طريقك مرصوفاً بالورود إلى الأبد يا أستاذ. أتعتقد أن النقود التى تتبرع بها لهذا البيت يمكن أن تدفع ثمن الأكل والسكن وخادمة تعمل أربعًا وعشرين ساعة فى عالمنا الواقعى هذا؟ لا يحدث هذا إلا فى أسرتنا، صدقنى، أختك تلمع لك حذاءك، ولماذا؟ أختك التى تقاوم أى من طلب طلبات أمها لها، تقضى ساعات تحلم وهى تلمع حذاءك حذاء الدراجة البخارية السخيف.. وحذاء راعى البقر، ولماذا؟ لا تسلنى لماذا. إنها تحبك وهذا واضح، ترى كم حالنا رقيق، وأكبر نفقات مالية فى حياة أمك هى أجر تنظيف البيانو وضبطه مرتين سنويًا، وإلا كنا سنصبح فى الشارع نستجدى لنقيم أودنا، لكنكم يا أولاد هكذا جميعاً.. تتصرفون كأن هناك نقودًا مخبأة!" سكتت "آريا" لهثت. هذا من كلام "آريا" المتكرر الكنز المخبوء. طيلة عمره يذكر "رويال"

كيف تلمح "آريا" إلى الثراء كما قد تلمح إلى شىء فاحش ولكنه فى الوقت نفسه مثير.. مثير فاحش، لكن "رويال" يعرف أنه لا طائل من وراء فتح هذا الموضوع، فسوف تتكلم "آريا" فقط عمّا تريد أن تتكلم عنه. كانت ككلب مقوده بين فكيه.. فيدور ويلف ويتقافز فى حرية.

كانت "آريا" تقول فى صرامة: "الشلالات.. حفرة الشيطان.. العمل بالسياحة.. كل هذا يناسبك تمامًا. السائحون كلهم أطفال يريدون التسلية، وأنت لديك هذه الموهبة يا رويال. وكابتن "ستو" هذا واضح أنه يحبك ويفضلك. والحياة فى البيت هنا مع أختك وأنا وزاريو.. إنه يحبك، ما لم تقدم على الزواج بالبقاء هنا منطقى يا "رويال". "آريا" تتحول إلى أسلوب أمومى لطيف.. "كنا سعداء يا "رويال"، أليس كذلك؟ أنت و"شاندلر" و"جولييت" وزاريو وأنا.. ما كان يجب أن تقول إن أشياء قليلة هى التى تسعدنى.. كل شىء يسعدنى يا "رويال". حين تكون أسرتى آمنة" مسحت آريا عينيها مؤكدة كلامها.

السقف يصدر صوت صرير أعلاهم. خطوات أقدام مترددة من صوتها.. "جولييت"؟ حجرتها فوق المطبخ مباشرة. خطر "لرويال" أن "آريا" أمرت "جولييت" بالصعود إذ لم ترد أى تدخل.

هل تحبه "جولييت"؟ ازدرد "رويال" بصعوبة.

شقيقته منزعجة من أنبائه، لسبب ما كانت متلهفة على زواجه، فى البداية وكطابع "جولييت" دائمًا، أعلنت أنها لن تحضر العرس: كانت تكره الاحتفالات "المزيفة المزعجة" لكن لا أحد يريدها، كانت تكره "التزين" و"تزيين شعرها".. فهى "قبيحة على أية حال". لكن "آريا" احتجت على "جولييت"، وفى نهاية المطاف غيرت رأيها.. ومؤخرًا كانت تتوقع العرس وتنتظره بحماس بالغ، وبدلاً من كونه "عبئًا كبيرًا" تحول زواج أخيها إلى مصدر للسعادة العميق "شقيقة جديدة" هى ما تحتاجه "جولييت" بالضبط، على حد قولها. فجأة تبين أن "جولييت" "لطالما أرادت" شقيقة "وربما أصبح عمة قريبًا، أراهن على هذا!" كذا راحت "جولييت" تغيظ "رويال" الذى احمر وجهه بقوة.

لكن الآن "جولييت" محطمة. حين تكلم "رويال" معها ذلك المساء انتهت بالصراخ فيه وإغلاق السماعة فى وجهه.

كيف جرؤت.. آه يا "رويال"، ملعونة روحك فى جهنم.

كم كانوا جميعًا مصممين واثقين، كذا خطر "لرويال".. مصممين على ألا يفقدوا أحدهم.. ألا يستسلموا مقدار شعرة.

راحت "آريا" تراقب" رويال" عن قرب، مالت لتداعب ظهر زاريو كما استمر "رويال" فى الربت على رأس الكلب، ولما استراح من ربت أكثر شخصين يحبهما عليه، قل توتر زاريو. قالت "آريا": "سنتناول أرغفة لحم على العشاء الليلة، مع حلقات بصل وفلفل، وصلصة الطماطم السميكة التى تحضرها تلك، وبطاطس مهروسة بالطبع".

وجبة "رويال" المفضلة.. تساءل إذا كان هذا على سبيل المصادفة.

ـ لا بأس يا ماما. هذا جيد.

ـ ما لم تكن لديك خطط أخرى.

لم يقل "رويال" شيئًا، ثانية سمع ألواح أرضية الطابق العلوى تصدر صريرًا، سوف تغفر له "جولييت" أيضًا. مع مرور الوقت، "رويال" الذى عاد إلى البيت.. رويال الذى لم يغادر يوماً.

ـ تركت رسالة له فى مدرسته، سينضم إلينا "شاندلر". إنه مشغول بشكل مريب ولم نره منذ أيام.. هل ما زال متورطًا مع صديقته يا "رويال"؟ تلك التى.."

كان اسم الشابة هو "ميليندا". كانت متزوجة لكن ليس من "شاندلر" الذى كان يحبها، أحس "رويال" بالأسف على شقيقه الأكبر الذى بدا أنه يهتم دائماً لأمر الآخرين، بمن فيهم "رويال". لماذا تتحمل هذا القرف من ماما؟ كذا سأله "رويال" يومًا، فحدق فيه فى دهشة.. قرف؟ ماذا؟ "رويال"، ماذا؟ لم يكن "شاندلر" يعرف ولو من بعيد عمّ يتكلم "رويال".

ـ "رويال"، خبّرنى: هل كان "شاندلر" يعرف بما سيجرى بينك وبين "كاندس"؟

ـ عرف بماذا؟

ـ بأنكما ستفسخان الخطوبة.

ـ لا لم يعرف.

ـ لكنك تخبره بأسرارك، أليس كذلك؟

ـ أحياناً، لكن ليس هذه المرة".

اهتز ذقن "آريا".. "إذا عرفت أن "شاندلر" كان يعرف! بأن "شاندلر" نصحك بأن.."

ـ "لم يفعل "شاندلر".. أراد "رويال" أن يضيف، ولماذا أسأل "شاندلر" عن الحب والزواج والجنس؟ خطر "لرويال" أن "شاندلر" لم يمارس الحب يومًا مع أية امرأة، ابن الحرام المسكين، هو ابن أمه أكثر من "رويال" .

انتهت "آريا" من الشاى، وجنتاها الشاحبتان يشع منهما الدفء. وبحماس طفولى قالت: "سنتناول عشاءً لطيفًا، نحن الأربعة فقط، عرفت أنك قد تعود، وحضرت أرغفة اللحم هذا الصباح قبل مجىء أول تلاميذى.. لكن إن كنت ستنام معنا يا رويال فأرجوك أن تستحم! يبدو كأنك كنت تنام فى الخلاء، رائحتك كرائحة الخنازير".

ضحك "رويال"، لم يمانع فى إغاظته بهذه الطريقة، وكان قد ألف تغير مزاج "آريا" المفاجئ السريع.

لكن "آريا" لم تتمكن من شم رائحة المرأة ذات السواد فيه، وما جرى منذ أيام. فى الواقع فر "رويال" من المدينة ليقيم مع صديق له من المدرسة الثانوية يقيم فى لاكاوانا مع خزيه مما جرى فى الديار، ظهر فى البلدة الصناعية الملوثة بالدخان جنوبى بافالو حيث لا يعرفه أحد بخلاف صديقه، وليلة السبت خرجا يشربان، وعصر يوم الأحد خرجا إلى حلبة

سباق فورت إيرى ليبعد "رويال" نفسه عن أفكار الذنب، وهناك ربح "رويال" فى نوبة حظ غير متوقعة مبلغ ٦٢ دولاراً فى أول رهان له، وكان أول رهان فى حياة "رويال"، وخسر ٧٨ دولارًا فى الرهان الثانى، وربح ٢٣٠ دولارًا فى الرهان الثالث، ثم وبناء على نصيحة صديقه تهور وراهن على معظم ما ربح على حصان اسمه "الجمال الأسود ٢ وهو جواد صغير احتمال ربحه يبلغ ١ إلى ٨ ليربح ١٣١٢ دولارًا. ألف وثلاثمائة واثنا عشر دولارًا! حظ مبتدئين، كذا قال صديق "رويال" متعجباً، أول مغامرة "لرويال" فى مضمار سباق.

قال "رويال": "ليست خنازير يا ماما بل جياد". لدهشة "آريا" أخرج محفظته المحملة بالبنكنوت وبدأ يحصى النقود على مائدة المطبخ، وفى لحظة تحول سلوكه إلى الاختيال والتباهى. أحس "رويال" بنفسه ينزلق، كسيارة على رصيف يغطيه الثلج.. ستمائة، سبعمائة، ثمانمائة دولار.

أصيبت "آريا" بالصدمة. "رويال"! من أين أتيت بهذه النقود؟"

ـ أخبرتك يا ماما. الجياد.

ـ الجياد؟ مضمار سباق؟

ثم راحت "آريا" تطالع "رويال" وكأنها لم تره من قبل قط.

ـ بعدما ما جرى فى حياتك يا "رويال"، كيف قدرت على فعل شىء كهذا؟ مضمار السباق، فى هذا الوقت..

أعاد "رويال" التفكير فيما فعل وأعاد إلى محفظته ورقة بمائة دولار، هكذا بقى معه فى محفظته ستمائة دولار من أجل "كاندس". وإيجار الشقة مدفوع لثلاثة أشهر مقدمًا، وسوف تبقى "كاندس" فيها. ستستأنف "كاندس" العمل بوظيفتها فى كينجز ديرى حيث كانت البائعة الأشهر، وكما خمنت "آريا" فخلال عام أو اثنين ستخطب "كاندس" مجددًا، وتتزوج هذه المرة.

راحت "آريا" تقول بإلحاح: "رويال"، ألا تسمعنى؟ ما الذى اعتراك فجأة؟ هل كنت تشرب أيضًا؟

ـ لا يا سيدتى" قطب "رويال" جبينه ودفع بالنقود نحو "آريا". أحس بأنه مخمور فجأة، شق عليه اختيار الكلمات الصحيحة. وهو طفل صغير كانت الكلمات المطبوعة تربكه، ومنطق وضعها ووصفها على الصفحة، وهو ما كان الأطفال الآخرون يتقبلونه دون نقاش (أم أن أعينهم تختلف عن عينيه؟) وأحياناً يقلب الكتاب رأساً على عقب أو يحاول قراءة الجمل من الجانب بشكل أفقى. وظن الأطفال الآخرون والمعلمون أن "رويال" يمزح ويريد أن يضحكهم.. طفل دمث مشرق، شعره كتانى جميل.. وعيناه زرقاوان لامعتان.. وهذه الابتسامة السعيدة؟ لا عجب إذاً أن "رويال برنابى" الصغير كان المفضل لدى الجميع.

ـ "آريا". هل لى أن أسألك سؤالاً؟

نادراً ما ينادى "رويال" أمه باسم "آريا" انزعجت لمّا سمعت الكلمة وقالت:

ـ أخشى التفكير فيما ستسأله، وأنت واضح تماماً أنك مخمور.

ـ لماذا أطلقت علىّ اسم "رويال"

لم تتوقع "آريا" السؤال.. الواضح أنه أدهشها.

ـ "رويال". وضعت "آريا" يدها على عينيها وكأنها تحاول التذكر، أخذت نفساً عميقاً وكأنها تنتظر منذ فترة طويلة أن تُسأل هذا السؤال، وحضرت الإجابة "أعتقد:. لابد أن السبب كان هو.. أنك بالنسبى لى ملك، ابنى الأول صاحب السمو".

ـ ماما.. "شاندلر" هو ابنك الأول.

ـ بالطبع.. لم أقصد هذا، لكنك أنت يا حبيبى، رأيتك ابنى الأول، كان أباك.." سكتت "آريا". لكن يدها لم ترتجف وهى تنزلها عن عينيها. نظرتها الخضراء الغائمة لم تحد عن وجه "رويال" مثبتة عليه.

قال "رويال" ببساطة: "فى فورت إيرى قال لى أحدهم أنه كان فيما سبق جواد باسم "رويال مانسيون"، وهو جواد شهير من الأربعينيات".

ضحكت "آريا" فى عصبية: "لا أعرف بهذا، ولا أعرف أى شىء عن الجياد أو السباقات".

قال "رويال": "لا أمانع أن يكون اسمى على اسم جواد، إذا كان جوادًا متميزًا، هناك أسماء أسوأ".

سلوك "رويال" الآن وكأنه على وشك المغادرة.. شىء غريب، فقد حضر لتوه إلى البيت. قال:

ـ المال لك يا ماما. لنفقات العرس، لقد دفعت من نقودك فيه، الكثير.

قالت "آريا" بسرعة: "لا.. لا يمكننى قبول نقودك وهى من سباق".

من وظيفتى الثابتة إذًا.. أنا مدين لك، اتفقنا؟"

ـ لا يا "رويال".

نهضت "آريا". تحدى سلطتها.. سطوتها فى المطبخ عرضة للخطر، حدقت بنهم فى خصمها كأنها تعرضت لضربة وهى نائمة غير مستعدة للرد. دفعت أوراق المائة دولار وتراجع "رويال". سقطت إحدى أوراق البنكنوت على الأرض. حافظ "رويال" على المائدة بينهما. طالعهما زاريو ومؤخرته ترتعش.

ـ إنها نقود ملوثة، لا يمكن أن ألمسها.

ـ ماما.. هى نقود لا أكثر، وبالطبع أنا مدين لك.

ادخرت "آريا" الدولارات والأرباع والملاليم من دروس البيانو على مدى السنوات، إذا كان هناك مبلغ نقدى فى مخبأ سرى، فهو ما ادخرته "آريا" بهمة ومثابرة بالغة فى حساب ادخار بفائدة ربع سنوية متواضعة، أو كما خطر "لرويال"، كانت تخبئه فى درج الدولاب بالطابق العلوى فى حجرة نومها، داهمته هذه القناعة قوية كما تحضر الشخص أعراض الأنفلونزا الأولى.. كم يحب هذه المرأة، أمه، ولم يعد يمكنه العيش دونها.

حك "رويال" رأس زاريو مرة أخيرة. رفع الكلب عينيه فى حزن وإليه.

ـ أخبرى "جولييت" أننى لم أتمكن من البقاء يا ماما. سأتصل بك.

قالت "آريا" فى هدوء: "رويال برنابى".. إذا غادرت هذا البيت فليس مرحبًا بعودتك.. أبدًا".

ـ حسناً يا ماما.

غريب أن "رويال" يغادر دون عشاء، بينما كان جائعًا للغاية، غريب أنه لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة أنه سيغادر فجأة هكذا، بينما جزء منه، جزء "رويال" الحالم، الطفل "رويال"، يريد بشدة أن يبقى، سيغادر دون أن يستحم كما أمرته أمه وكما هو بحاجة ماسة إلى الاستحمام، سيغادر دون الصعود وأخذ أغراضه من حجرته، ثم وفى الصباح التالى حين يعود سيجد متعلقاته متكومة على الشرفة الأمامية، ومبعثرة على الأجناب.. ملابس وأحذية ..أحذية طويلة الرقبة والجيتار بوتر مقطوع، والكتاب التذكارى لخريجى مدرسة شلالات نياجرا الثانوية دفعة ١٩٧٦ وراديو صغير، وجهاز تشغيل أسطوانات وعشرات من الأسطوانات ذات الأغلفة المتهرئة. وداخل أحد أحذية رعاة البقر خاصته سيجد "رويال" لحسرته سبعمائة دولار مربوطة برباط مطاطى رفيع.

ولا حتى زاريو خرج لمقابلته هذه المرة، الباب الأمامى موصد، والستائر تغطى كل النوافذ.

ـ ٥ ـ

ـ خبّرنى عنه.. عن أبينا.

ـ لا أقدر يا "رويال".

ـ بل تقدر يا "شاندلر"، هيا!

ـ وعدتها. أقسمت لها.

متى حدث هذا بحق جهنم؟ ونحن أطفال.. لم نعد أطفالاً.

"رويال"، أنا..

إنه أبى أيضًا، ليس أباك وحدك.. إذا كنت تذكره فأنا لا أذكره. "جولييت" لا تذكره.

"رويال"، وعدت ماما. حين مات حضرت الشرطة وكتبت الصحف عن الموضوع، كنت فى الحادية عشرة من عمرى، وكنت أنت فى الرابعة وجولييت طفلة رضيعة. جعلتنى أمى أعد بأن..

ـ كيف مات؟ حادث سيارة، أليس كذلك؟ فى النهر؟ كانت تمطر وانزلقت السيارة.. ولم يتم العثور على جسده قط.. أليس هذا ما حدث؟ خبّرنى.

ـ قلت لا أقدر! جعلتنى أعدها بألا أتحدث عنه أبدًا، ليس أمامك أو أمام "جولييت". وللناس الآخرين يفترض أن نقول إن هذا حدث قبل أن نولد.

ـ لكن هذا غير صحيح! كنا أطفالاً! وأنت كنت تعرفه! خبّرنى كيف كان أبانا.

ـ لن تغفر لى أبدًا لو..

ـ لن أغفر لك أبدًا يا "شاندلر"! اللعنة.

ـ وعدت "آريا". لا يمكننى التراجع.

لقد استغلتك وأنت بعد صغير. لهذا نحن معزولون هكذا، نشأنا والناس ينظرون إلينا وكأننا "فُرجة"، كالمقعدين الذين لا يقدرون على الرقص.. ويبدو عليهم السعادة أيضًا. الناس يحبوننا بهذه الطريقة، لا يشعرون بالأسف علينا، زناة ملاعين! هذا ما يحدث طيلة حياتى.

ـ "رويال"، ماما لا تريد إلا الخير لنا. هذه طريقتها وأنت تعرف طريقتها، إنها تحبنا، وتريد حمايتنا..

ـ لا أريد الحماية! أريد المعرفة.

ـ لا أحد يمكنه منعك من معرفة ما قد تكتشفه. لكننى لن أكون من يخبرك.

ـ لماذا تكره أبانا هكذا؟ لماذا تخشاه هكذا؟ أى رجل كان؟ أريد أن أعرف.

ـ "رويال"، سنتكلم عن هذا وجهاً لوجه، الأمر مرهق على الهاتف.

ـ لا! إذا كنت لن تخبرنى بأى شىء عنه فلا أريد رؤيتك، لن تزيدنى رؤيتك إلا حيرة.. بينما أعرف أنك تعرف أشياء لا أعرفها أنا.

ـ "رويال"؟ من أين تتصل؟ ولماذا تهتم بحق جهنم؟ من هاتف.

قالت ماما إنك غادرت البيت، ألغيت العرس وغادرت البيت؟ إذا كنت تريد مكانًا للإقامة..

اذهب إلى جهنم.

وفى غضب، وضع "رويال" السماعة.

ـ ٦ ـ

أهى.. تحت الأرض؟"

ـ فعليًا.. أجل.

هذه مفاجأة. "رويال" يربط فى ذهنه المكتبة العامة فى منطقة وسط المدينة بأعمدتها الرومانية وقاعتها المستديرة والمساحة المفتوحة الخاصة بمكتب الاستعارة والإعادة. تحت الأرض لا يناسب الصورة لكنها "صحف قديمة" لما فكر "رويال" فى الأمر، وهى مخزنة فى ملحق "الدوريات" فى الطابق ج.

نظر موظف المكتبة إلى "رويال" فى شك، لكن بتهذيب، ربما استغرب طلب الشاب الذى قضى أقل قدر ممكن فى المكتبات "عم تبحث بالضبط؟" غمغم رويال "قائلاً" رده ثم تراجع.

ما إن غادر "رويال" الطابق الأول والمنطقة جيدة الإضاءة من المكتبة القديمة، وجد نفسه وحيدًا، حذاؤه ذو الرقبة يتسبب فى جلبة مزعجة

على السلم المعدنى الحلزونى، وكأنه حوافر دابة، وبلغت أنفه الرائحة المكتومة، كأنها غبار ممزوج ببالوعات مغمورة بالكامل، أحس للوهلة الأولى بالذعر، عم يبحث بالضبط؟

منذ الفجر والسماء تمطر بلا توقف، أكتوبر الحالم تحول من الطقس المعتدل والشمس الساطعة إلى البرد الخريفى ورائحة مثل رائحة الصحف المبتلة، وعلى بعد فوق بحيرة أونتاريو هزيم الرعد الصاخب، وكأنه قطار بضائع عملاق ينبعث منه البخار. تمنى رويال أن تتوقف العاصفة حتى ينتهى من بحثه فى المكتبة.

وكأن المهمة ستستغرق نصف ساعة أو أقل.

الغضب من شقيقه تجربة جديدة على "رويال". "الغضب" من أى أحد فى واقع الأمر، الطرد من البيت.. الطرد من البيت! ربما سينضم إلى صفوف مشاة البحرية. إنهم يجندون الصبية من أمثاله، ربما يغير اسمه إلى "روى" الأفضل من "رويال" إذا كنت فى التاسعة عشرة من عمرك، ولست ابنًا لأحد، إذا كنت "روى" لن تصفر دائمًا وتبتسم سريعًا وتضع إبهاميك فى حزامك وكأنك نسخة من جيمس دين لكن أدمث خلقًا، ستنظر للكبار ـ الكبار الآخرين ـ فى أعينهم بصراحة وتقول لهم ما تشاء.

ربما.

فى الطابق "ج" أحس "رويال" أنه نزل إلى بطن غواصة، ملحق الدوريات فى مساحة سوداء معتمة كالكهف حيث على الزوار أن يضيئوا ما معهم من كشافات ومصادر للنور، خشى "رويال" أنه قد يجىء شخص ما، أمين المكتبة أو الحارس ويطفئ نور السلم فيتركه عالقًا تحت الأرض. بحق يسوع! لا عجب أنه يتحاشى المكتبات طيلة حياته.

راح رويال يبحث بإصبعه عن المفتاح، نور فلورسنت غائم يتوهج على كافة الأسطح بالتساوى، رائحة البالوعات أقوى هنا. وتلك الرائحة الكريهة

التى تعرف فيها "رويال" على أيام العمل كصبى توصيل لصحيفة الجازيت.. رائحة الصحف المبتلة. "رويال" نسى كم كان يكره تلك الرائحة، وكم كانت متصلة بعجزه كطفل وقلة حيلته، وكم أثرت عميقاً فى روحه.

- لهذا أكرهك.. أحد الأسباب، لقد رحلت وتركت لى هذه الرائحة".

تقدم متجاوزًا كراتين الكتب والدوريات المصفوفة فى صفوف عالية. بعضها تصل إلى كتفه، وبعضها إلى السقف، أغراض مهجورة لا ريب، ابتلت من تسرب المياه إليها وعدم فتحها للقراءة منذ عقود من الزمان، الأرض فى الطابق "ج" خرسانة مسلحة قذرة باردة الملمس.. هنا وهناك كتب ومجلات مفتوحة وكأن هناك من ركلها. تذكر رويال مقبرة شارع بورتاج. معظم الملحق مشغول بأرفف من المعدن موضوعة فى صفوف من الأرض إلى السقف، وممرات ضيقة للمشى فيما بينها، الأرفف مرتبة أبجديًا، لكن يبدو أن ثمة القليل من التنظيم الحقيقى، نسخ ملطخة ببقع المياه مثنية الأطراف من مجلة لايف، تعود إلى الخمسينيات، مختلطة بأعداد جديدة من بافالو فينانشيال نيوس، أما نياجرا فولز جازيت التى يبحث عنها بالأساس فهى على الأرفف فى عدة مواضع، مع صحف من شيكتواجا، ولاكاوانا، ولوكبورت، ونيوفان، هناك من بعثر صفحات من صحيفة لوكبورت يونيون صان آند جورنال على الأرض. وفى كل المواضع التواريخ مختلطة، وكأن وضعها الحالى هو نتاج عاصفة مرت بالمكان. "رويال" يعتقد أنه يريد الأعداد من أوائل عام ١٩٦٢ لكن أين يبدأ البحث؟

المرأة ذات السواد أحضرته ها هنا، أحس بهجمة من الاشمئزاز منها حين لامسته كما لامسته.

سيستغرق "رويال" نصف الساعة لتحديد موقع أى عدد من الجازيت من عام ١٩٦٢ وهذا العدد رأى لخيبة رجائه أنه فى ديسمبر. عدد يوم الأحد، والعنوان الرئيسى لا علاقة له بأبيه، أو بقناة الحب، ترك "رويال" الصحيفة تسقط أرضًا ثانية وجلس القرفصاء.

ـ تبأ.. أنا ظمآن.

لم يشرب كوب بيرة طوال اليوم، كان الوقت أول العصر، سينتظر حتى وقت لاحق.. حين ينجز شيئاً.

كان "رويال" يعرف أن والده ـ "ديرك برنابى" ـ قد انخرط فى قضية قناة الحب الأولى، لكنه لم يعرف أبدًا التفاصيل. تلك القضية الأولى انتهت بالهزيمة، حتى أن "قناة الحب" أصبحت مزحة متداولة محليًا، لكن فيما بعد فى السبعينيات، حين بدأ "رويال" ارتياد المدرسة الثانوية، تجددت القضايا بشأنها، ليس نفس الأشخاص ربما، محامون جدد وموكلون جدد، ظهرت قضايا أخرى، بعضها ضد شركات الكيماويات مثل سوان، وكانت لدى "رويال" فكرة غائمة عن هذه الأمور.. أصحابه وزملاؤه فى المدرسة يتكلمون أحياناً عن أشياء كهذه لأن آباءهم منخرطون فيها، لكن معرفتهم بدورها كانت عشوائية ومشرذمة، أما "رويال" الذى كان نادرًا ما يقرأ الصحف ويحلم وينعس فى أثناء دروس الدراسات الاجتماعية، فلم يتابع أيًا منها عن قرب. قال "شاندلر" إنهم "على ما يرام" فى بيتهم بشارع بلطيق، أو على الأقل هذا ما يتمناه. لم تتكلم آريا أبدًا فى أمور كهذه. إذا ظلل السخام النوافذ وأطر النوافذ، تنظفها بمنشفة ورقية. كانت "آريا" تمسك بالصحف بعيدة عنها على امتداد ذراعيها، وتمر بعينيها على العناوين الرئيسية وعلى وجهها نظرة خوف وازدراء. تتوقع الأسوأ من البشرية، مما يسمح لها بالاندهاش كثيرًا حين لا يتحقق الأسوأ.

ـ أنت على الأقل ما زلت حيًا. ربما توجد حكمة فى هذا. رويال يتعلم.

راح ينبش فى أكوام الجازيت القذرة، وكذلك "بافالو إيفينينج نيوس"، "وبافالو كورير إكسبريس"، التى كانت بالطبع تغطى قضية قناة الحب، أصبحت يدا "رويال" متسختين من حبر الصحف، وجد نفايات فئران، كرات سوداء صغيرة فى حجم البذور، وبقايا حشرات نافقة متحللة ومن حين للآخر حشرة فضية أسطوانية حية تمر على الصفحات سريعًا، مصير الموتى، لكننى لست ميتًا.

أعداد قديمة من الصحف.. ١٩٧٣، ١٩٧١، ١٩٦٨ ..كم كان ساذجاً حين خطر له أن يمر بالمكتبة ويقرأ عن أبيه ويعرف بعض الحقائق المهمة ويغادر، لكن هذه المهمة لم تكن سهلة. الماضى ليس هنا.

وعلى مقربة يسمع صوت قطرات مياه تتساقط بانتظام كل أربع ثوانٍ، لكن حين أنصت "رويال" وجد الثوانى الأربع خمساً، أو أكثر، ثم ثانية تسارعت وتيرة القطرات. ضغط "رويال" أصابعه على أذنيه "اللعنة.. زناة".. تاق "رويال" إلى حفرة الشيطان ولم يمر على توقفه عن العمل بها أسبوع، فى زيه الرسمى ضد الماء، معتمرًا قبعته الشبيهة بالخوذة، الركاب يعتمدون على مساعد القبطان "رويال". كأنه من أفلام كارتون ديزنى، لكن المياه الهادرة تحت الشلالات حقيقية.

لكن أحياناً يشعر "رويال" بأنه غير حقيقى فى هذا المكان، وسط الرذاذ، وسط صرخات الركاب، والقارب المترنح المتمايل. تحلق أفكاره بعيدًا، ويسقط فى حلم يرى فيه نفسه يحرك يديه ورجليه تحت الماء.. الماء الأخضر الزجاجى الجميل فى منطقة هورسشو من الشلالات، شعر "رويال" الطويل خلفه كأعشاب البحر، كان عاريًا وعيناه مفتوحتين على اتساعها، كعينى الجثة المفتوحة.

أجل، رأى "رويال" جثثاً ترفع من شلالات نياجرا، رأى أول "جثة عائمة" فى حياته فى سن الثانية عشرة لم تعرف ماما أبدًا. وكأنه كان ليذكر هذا لأى فرد من أسرته أو حتى لجيرانه من شارع بلطيق. الجثة العائمة هى جثة منتفخة متعفنة مثل كرة من اللحم، ترتفع وتظهر على سطح الماء.

لا، لم يفكر "رويال" كثيرًا فى الأمر فى أن أباه مات فى هذا النهر، لا ليس صبيًا معتل الفكر خبيث الأفكار.

فرك عينيه ثم ورفع بصره ليطالع أعمدة غائمة فى صفحات الصحف، صوت قطرات المياه دخل إلى دمائه وسرى فى عروقه، هناك من

يتحرك فى صمت وراء صف من الأرفف الحديدية، شم رائحته! إحساس دافئ بدأ يتجمع بين ساقيه، مصحوب بالأمل، وبرغم أن ذراعه الحقيقية كانت ثقيلة لا يقدر على رفعها، إلا أنه رأى يده ممتدة للمرأة فى اشتياق.

ـ أفق من ثباتك.. هيا!

هز "رويال" رأسه ليفيق من ثباته.

دفع نفسه بقوة، يخشى السقوط.. يخشى الاستسلام والعودة إلى شارع بلطيق، راح يلهث فى تصميم. عاد إلى الأرفف وتقدم جالسًا القرفصاء متفحصًا كل ورقة فى الرف السفلى، وكل تاريخ، وأحس بفخذيه ينبضان فى ألم. لكن ولحسن حظه وجد نسخًا من الجازيت تعود إلى عامى ١٩٦١و١٩٦٢ .صفحات منها مفقودة لكن معظم الصحيفة سليمة. حمل "رويال" ملء ذراعه منها إلى مائدة خشبية فى ركن الحجرة. بدأ يبحث بالترتيب.

ها هى! أو عنوان لقناة الحب. سبتمبر ١٩٦١.

ـ كنت ما زلت حياً إذًا.

ساعتان وأربعون دقيقة و"رويال" مستمر فى القراءة وإعادة القراءة، تجاوز مرحلة التعب. لا يعرف إن كان منتعشًا أم خائفًا. هناك أكثر بكثير مما كان يعرف، أكثر مما يقدر على التخيل، أحس كأن باباً انفتح فجأة فى السماء، بينما لم يكن يعرف أنه قد يكون فيها باب فى المقام الأول، فتحة واسعة هائلة شع منها الضياء. كما يشع النور أحياناً من بين شقوق فى السحب ولو حتى لدقائق معدودة فوق سماء البحيرات العظمى.. نور يعمى الأبصار، يؤذى، لم يكشف البصيرة بعد، لكنه نور.

ـ ٧ ـ

ذات يوم خرج بالسيارة إلى شارع بورتاج، وهناك وجد الكنيسة الحجرية المهجورة، وهناك كانت المقبرة التى بدت مهجورة لكنها لم تكن مهجورة بالكامل، ركن سيارته ودخل المقبرة كما فعل فى وقت سابق من

الشهر ذات صباح أكتوبرى دافئ، والآن الشهر قارب نهايته وفى وقت متأخر من الخريف، وبرودة رطبة فى الهواء والسماء معتمة محملة بالغيوم, رأى أوراق أشجار أقل على الأغصان، الرياح ذهبت بها.. الرياح شققت أغصان الأشجار، وقلبت أوانى الورد، وقلبت تلك الأعلام الأمريكية الصغيرة المغروسة لدى شواهد قبور المحاربين القدامى، حتى لا تكاد تميز أنها أعلام. عرف "رويال" من المكتبة أن "ديرك برنابى" كان من المحاربين القدامى فى الحرب العالمية الثانية. لا شاهد قبر "لديرك برنابى" لكن إذا كان هناك واحد، فربما كان عليه علم.

هذه المقبرة! تجذب العينين، إنها بديعة، لكن كما هو الأمر فى الأحلام حين تلمع الأشياء وتذوى حين تقترب منها، وأحس "رويال" أن المقبرة حالها رث أكثر مما سبق، وكأن شهورًا بل أعوامًا مرت، وليست مجرد ثلاثة أسابيع .

قضى بعض الوقت يبحث فى المنطقة التى كانت المرأة ذات السواد تشذب العشب فيها، لكن لم ير شاهد قبر واحد يبدو كأن العشب شُذب حوله حديثًا، غصون ساقطة مبعثرة فى كل مكان، آنية طمى مكسورة، جيرانيوم ميت، زهرات بلاستيكية، ولا هو عثر على المكان المخبوء الذى جذبته المرأة إليه، والذى رقدا فيه معاً، لم تكن أى من الأسماء على شواهد القبور مألوفة له، ولا تعنى له شيئاً. "كيرك"، "ريلى"، "ساندرسن"، "أولدز". هى أسماء غرباء كانوا أحياءً منذ عقود مرت، والأحدث بينها كان يعود لعام ١٩٤٣.

لكن "رويال" لم يستسلم، لم يكن مستعدًا للمغادرة. هذا صباح يوم السبت.. فربما يأتى أحد إلى المقبرة ليزور قبرًا، أو لينظف قبرًا، وربما تعود المرأة ذات السواد.. "رويال" لديه الكثير ليخبرها به.

الحجّاج

جنون الرياح يثيرنا، لكننا نعرف أن علينا إدخال الغسيل المنشور الخفّاق.. سريعاً".

البيت الآخر هو الذى نحلم به أحياناً، الطرق على الباب الأمامى، وصوت أمنا المرتفع، والأصوات التى لا نعرفها لضباط الشرطة، والذين نعرف أن صوت أبينا ليس بين أصواتهم. صيحة أمى الحادة المختنقة.

لا .. ابتعدوا .. اذهبوا!

أفاق اثنان منّا من نومهما وجلسا القرفصاء على منبسط السلم، وفى المطبخ حيث كان يقضى ليلته فى سلته المبطنة اللينة، بدأ الجرو زاريو ينبح ويعوى فى قلق.

خالفنا أمر الأم، ولم نصعد الطابق العلوى، وحين غادر ضباط الشرطة كنّا نبكى فى حرقة.

وفى حجرة الأطفال أفاقت "بريدجيت" من نومها، وبدأت الطفلة تبكى.

كان هناك شقيقان. شاندلر فى الحادية عشرة، ورويال فى الرابعة. لا يعرفان أن والدهما مات. وفى الصباح حين حضر ضباط الشرطة إلى المنزل رقم ٢٢ لونا بارك لم يكن قد حُدد بعد أن "ديرك برنابى" قد مات. فقط أن السيارة المسجلة باسمه رُفعت من نهر نياجرا حيث سقطت فيه مخترقة حاجز النهر على طريق بافالو - نياجرا السريع فى وقت ما من صبيحة ١١يونيو ١٩٦٢ ولكن لم يُستخرج أحد من السيارة.

لم يكن هناك شهود على الحادث المزعوم. ولم يتقدم أحد بالشهادة.

ـ حادث".. كذا سيقال عنه، فمن يستطيع إثبات العكس؟

برغم أن جثمان "ديرك برنابى" لم يُستعاد أبداً، فسوف تصدر "شهادة وفاة" من مكتب المقاطعة.

البيت الآخر هو الذى نحلم به أحياناً. نذكر كيف راحت أمنا تغلق الباب بالأقفال بعد مغادرة الشرطة، وقبل أن يعودوا إلى سيارتهم ويبتعدوا بها كانت قد أوصدت الباب. وهى تلهث، هرعنا إليها فى رعب. عيناها تتأرجحان بجموح فى وجهها وشفتاها بيضاوان مثل فم السمكة بعد أن تخلصه من خطاف الصنارة. لم نكن قد بكينا بعد، سيأتى هذا لاحقاً، وهكذا سمحت لنا أمى بالبكاء. حاولت أمى أن تحمل كل منا، ومالت بنا للأمام حتى كدنا نقع، وكأن عمودها الفقرى انكسر. ارتفع صوتها محتداً. هل الباب مغلق؟ هل الباب موصد؟ لا تفتحوا هذا الباب ثانية أبداً.

وهذا ما كان، لم يفتح أى منّا الباب ثانية أبداً.

لم يتم العثور على جثمان "ديرك برنابى" فى نهر نياجرا أبداً.

ولكن: حوالى الساعة ٨ صباح يوم ١١ يونيو ١٩٦٢ كان ثمة تجمع من الحجاج يزورون ضريح سيدتنا سيدة الشلالات، وهى كنيسة رومانية كاثوليكية تقع على بعد ثلاثة أميال شمالى شلالات نياجرا، وقالوا إنهم شاهدوا ما يبدو كـ"رجل يسبح فى النهر مع التيار"، وكان الحجاج من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى واشنطن العاصمة، ,قاموا بهذه الرحلة إلى الكنيسة فى نياجرا فى حافلة مؤجرة، كانوا أربعين، يتراوحون فى العمل من التاسعة والثلاثين إلى السادسة والثمانين، وغالبيتهم من العاجزين أو مرضى إلى حد ما. زعموا أنهم لا يعرفون أى شىء عن "حادث السيارة" فى طريق بافالو ـ نياجرا السريع هذا الصباح، ولا أن أحدًا من حرس السواحل وغيرهم يبحثون فى النهر عن جثة رجل.

ما شاهدوه، أو أقسموا إنهم شاهدوه، هو رجل يسبح بسرعة مع التيار يحمله التيار وسط النهر، وعلى خط مواز للشاطئ، لم يكن السباح يحاول التوجه إلى الشاطئ، وصاح فيه قلة من الحجاج الأقل عجزاً، ولوحوا له بأذرعهم، وركضوا على طول ضفة النهر حتى منعهم عشب الشاطئ من التقدم، لم ينتبه السباح لهم أقل الانتباه. قال بعضهم إن الأمر بدا كأنه "يسبح محاولاً النجاة بحياته" وبدا أنه "خرج من العدم" وسوف "يختفى فى العدم" والحجاج يحدقون فيه فى حسرة.

لم يتم التعرف على الرجل أبداً بالطبع، لا أحد رأى وجهه، فهو بعيد للغاية عن الشاطئ. ولم يكن من الواضح ـ وهذه نقطة مهمة ـ إن كان عارى الجذع أو يرتدى ثيابه. وصف على نحو غامض على أنه "لم يكن شاباً" ولكنه "لم يكن عجوزاً" وكان "شعره أشقر داكنًا".. "شعره كستنائى".. "شعره أشقر مُبيض".. واتفقوا جميعاً على أنه كان "سباحاً ماهراً للغاية".

تم الاتصال بحرس السواحل على اللاسلكى، لكن لم يتم تحديد موقع "الرجل السابح" أبداً.

نشأت وانتقلت من بيت شارع بلطيق، وفى سن الثالثة والعشرين التحقت كمتطوع فى مركز مقاطعة نياجرا للوقاية من الأزمات، أصبحت عاملاً فى مركز إنقاذ الصليب الأحمر بالتطوع، وعضواً فى جمعية السامريين، وهى منظمة لمنع الانتحار، وسوف أعرف أن تقارير مثل التى أفاد بها الحجاج ليست غريبة أو فريدة من نوعها.

يقسم الشهود صدقاً، وأحياناً فى حدة وحماس! إنهم شاهدوا سباحاً، بينما فى الواقع كانوا يرون جثة محمولة سريعاً مع التيار القوى والمضطرب لنهر نياجرا. وفى العادة يزعم هؤلاء الشهود أنهم رأوا سباحاً من البشر بينما ما شاهدوه حقاً ـ كما يظهر من الدليل ـ هو جثة كلب أو شاة غارقة؛ لأن حركة أطراف الجثة الرتيبة التى تتسبب فيها الأمواج تحاكى حركات السباحين.

ومـا لا خلاف عـليـه أن هـؤلاء "الـسـبـاحـين".. "الـسـبـاحـين المهـرة".. يسبحون مع التيار، على خط مواز للشاطئ. أبداً لا ينعطفون أو يحيدون عن مـسـارهم أو يـغـيـرون من نمط حـركـة الأطـراف، أو يـتـوجـهـون إلى الشاطئ. أبداً لا يستجيبون لصياح من يراقبون من الشاطئ، بقوة لا تكل وتصميم بالغ "يسبحون".. ويختفون عن الأعين على بعد.

لماذا؟ شرح هذا أحد العاملين بحرس السواحل.

ـ يريد الناس رؤية سباحين، لا يريدون رؤية جثة. وفى النهر يريدون رؤية الإنسان المماثل لهم كأنه حى، ويسبح، أيًا يكن ما تعرفه عقولهم، فعيونهم لا تراه".

لا أحد استعاد دير"ك برنابى" أو تعرف عليه. ومرت الأعوام.

رهائن

ـ ١ ـ

لماذا؟ لأننى بحاجة لمساعدة الآخرين.

لأننى أحتاج لتقديم المساعدة، وهناك آخرون.

لأننى أحتاج. أحتاج.

لماذا؟

ـ ٢ ـ

التآكل الزمن.... التآكل الزمن

بلغ السابعة والعشرين والزمن مارس ١٩٨٧ الكلمات مطبوعة مكتوبة على السبورة أمام تلاميذ درس العلوم من الفرقة التاسعة فى مدرسة لا سال الثانوية، وفى هذه الحجرة، فى هذه المدرسة العامة فى منطقة وسط مدينة نياجرا، لا يشعر "شاندلر" أنه ينتمى لعمر معين أو لزمن معين على الإطلاق.

شاندلر على وشك تكليف تلاميذه ببحث هذين الاصطلاحين كواجب مدرسى، حين جاءه الاستدعاء: "أستاذ "برنابى".. عذراً. يرجى الاتصال بمركز المقاطعة للوقاية من الأزمات، أعتقد أنها حالة طارئة".

كانت الشابة القادمة من مكتب الناظر مبهورة الأنفاس ويبدو عليها الاهتمام، وتشعر بأنها تحمل أنباء مهمة وعاجلة.

لم تكن المرة الأولى لاستدعاء "شاندلر" من مدرسة "لا سال" من قبل مركز الأزمات، لكن فى العادة تحدث هذه المواقف الطارئة فى أوقات غريبة. فى وقت متأخر من الليل، أو ساعات النهار الأولى، وفى العطلات وإجازة نهاية الأسبوع حين تضعف الإرادة البشرية. غمغم "شاندلر" قائلاً: "شكراً يا "جانيت!". ثم أظهر للتلاميذ الثمانية والعشرين فى الحجرة كيف أن الأستاذ "برنابى" يتعامل بشكل واقعى عملى مع "الطوارئ"، فوضع قطعة الطباشير على طرف السبورة وقال لهم فى هدوئه المألوف وصوته المازح نوعاً إن قلبهم سيتحطم؛ لأنه مضطر للمغادرة قبل انتهاء الحصة لأن شيئا ما طرأ "أتمنى أن تكونوا محل ثقتى. هناك ثمانى دقائق متبقية من ساعة الحصة.. برجاء البقاء فى مقاعدكم حتى يرن الجرس، يمكنك استخدام الوقت المتبقى فى البدء فى الواجب المنزلى وأراكم بإذن الله غداً.. اتفقنا؟" ابتسموا فى جدية ثم أومأوا برءوسهم، كانت حالة طوارئ، ويمكنه الثقة بهم. لثمانى دقائق على الأقل.

بإذن الله.. لماذا يقول "شاندلر" شيئاً كهذا؟ لم يكن ممن يرون المخاطر أو أنفسهم بشكل درامى، ولم يكن يؤمن بالله أو يتكلم عنه بشكل قائم على الإيمان به، أمام تلاميذه البالغين من العمر أربعة عشر عاماً.

حتى رب "آريا".. صاحب حس الدعابة القاسى.

ـ السيد "برنابى" أهناك من قفز فى الشلالات؟

ـ لا أعتقد هذا يا "بيتر"، ليس هذه المرة.

فى الطابق السفلى ومن مكتب الناظر اتصل "شاندلر" بمركز الطوارئ وأعطوه المعلومات ومكان موقع حالة طوارئ من نوع "مسلح/رهائن" على الجانب الشرقى، وخلال دقائق كان فى سيارته فى طريقه شرقاً عبر شارع فولز وشارع عشرة، وميموريال درايف، ثم آكيسون درايف، كل حواسه منتبهة وكأنه غطس فى مياه مثلجة. يشعر كأنه سهم ينطلق.. فى سرعة لا يحيد عن هدفه، بما أن "شاندلر" لا يمكنه أبداً أن يرمى سهماً.. نحو هدفه.

بإذن الله ـ هذه القدرية الملتوية.. قدرية "آريا" أيضاً، فأنت لا تعرف أبداً لدى استدعاء مركز الأزمات لك إن كان موقف الطوارئ هذا لن يعود منه المتطوع النشيط.

أهو تكفير عن الذنوب؟ حياتك هذه، لكن إذا أحببتنى فلماذا تكفر عن الذنوب؟

كان يحب "ميليندا". أحب ابنة ميليندا التى تمنى لو كان والدها على نحو ما، لكنه لم يقدر على الإجابة عن سؤالها.

كفت "آريا" عن السؤال، فى أول موسم لعمل "شاندلر" بشكل نشط كمتطوع مع مركز الأزمات، وعامه الأول كمعلم فى مدارس شلالات نياجرا العامة، أعلنت رفضها الحاد لعمل ابنها الأكبر التطوعى "الطائش الخطر"، ولم تكن "آريا" ممن يصممن على موقفهن بينما تعرف أنها لن تنجح.

هذه الأيام يتعامل "شاندلر" مع الموقف بألا يخبر "ميليندا" كلما أمكنه تفادى إخبارها، وبالطبع بعدم إخبار "آريا".

مسلح/ رهائن" تدخل "شاندلر" فى واحد فقط من هذه المواقف فيما سبق.. رجل مشوش يحمل اثنين من أطفاله رهينين فى بيته، ولم ينته الموقف نهاية سعيدة، واستغرق الموقف شطرًا كبيرًا من الليل.

بدأ عمل "شاندلر" التطوعى حين كان طالباً جامعياً فى أول السبعينيات.. تظاهر ضد الحرب فى فيتنام وقصف كمبوديا، وانضم مع المثاليين الشباب الآخرين إلى حملة طرق الأبواب لتسجيل الأسماء للتصويت فى أحياء بافالو الفقيرة، وساعد فى حملات التبرع بالدماء للصليب الأحمر فى عدة مواقع من بافالو وشلالات نياجرا وضواحيهما، وساعد فى حملات مدرسية من قبل "مياه نظيفة" و"هواء نقى" (وكان أثناء العمل بالصليب الأحمر حين قابل ميليندا أتكينز الممرضة لأول مرة) ثم إنه انجذب إلى العمل بالطوارئ، فى الصليب الأحمر ومركز الوقاية من الأزمات، وجمعية السامريين. مجتمع صغير كثيف من الأشخاص، الذين

سرعان ما يعرفون بعضهم البعض. معظمهم من غير المتزوجين وممن ليس لديهم أطفال. أو الذين كبر أطفالهم ورحلوا عنهم، أو الذين أصابهم أطفالهم بخيبة الأمل على نحو أو آخر، وفى بعض الأحيان، ممن توفى أطفالهم.

غالبية المتطوعين الذين يعرفهم "شاندلر" من المسيحيين، ويهتمون كثيراً بتدينهم. والمسيحى هو الشخص الذى "يفعل الخير" من أجل الآخرين. كان يسوع المسيح متطوعاً لأجل خلاص كل البشرية، ألم يكن كذلك؟ يسوع المسيح لم يكن هياباً فى تدخله فى الأزمات الروحية للإنسانية. الصلب كان تكفيراً عن ذنوب بشرية، واضطر لدفع ثمن تحدى قدرية البشر، لكن البعث كان مكافأته، ورمزًا للجميع، أليس كذلك؟ ينصت "شاندلر" باستغراق لمثل هذه الأفكار التى يبديها تابع طائفة يسوع السابق الذى يرأس الفرع المحلى لجمعية السامريين، لكنه ينصت إليها فى صمت.

قال "لميليندا": "أتمنى لو كنت قادراً على الإيمان، كان هذا ليسهل من كل شىء".

قالت ميليندا: "أنت لا تود أن تحضرك الأشياء بيسر يا شاندلر، بل تريدها على قدر صعوبتها الحالى، كما هى تماماً".

أثناء حياة "شاندلر أصبحت منطقة شلالات نياجرا مدينة صناعية متشعبة منتشرة "غنية" وتتباهى بأن تعدادها تضاعف ليصبح ضعف ما كان عليه فى الأربعينيات، أصبح هناك الآن نحو خمسين ألف وظيفة موفرة فى المنطقة، و.. وتلك حقيقة يتم التركيز عليها كثيراً، وكأنها علامة جودة مميزة.. أعلى تركيز من مصانع الكيماويات فى الولايات المتحدة. شلالات نياجرا التى يعرفها شاندلر، أو كان يعرفها إلى حد ما، تحولت بحيث لم يعد من الممكن التعرف عليها. لونا بارك هى الحى السكنى "التاريخى" الوحيد الذى ظل كما هو، لكنه بدأ يتدهور ويضمحل بدوره.. الأغنياء يعيشون فى أيل جراند، أو ما وراءها، فى ضواحى بافالو الغنية من أمهرست وويليامسفيل. شلال نياجرا والأرض الموازية للنهر القريبة من الشلالات

تحميها الولاية من التنمية التجارية؛ لأنها أرض سائحين مقدسة، تضمن توليد ملايين الدولارات سنوياً.

فى شلالات نياجرا الجديدة هذه حيث الهواء ثقيل والتنفس صعب، أصبحت "الأزمات" مألوفة، مثل الجرائم، نادراً ما ينخرط فى هذه الأزمات أشخاص يزورون الشلالات ممن يرتكبون أفعالاً واعدة مثل الانتحار، بل يضلع فيها أشخاص ممن يعيشون فى الشلالات، وجميعهم تقريباً من الرجال. يتصرفون بناء على غضب لحظى أو يأس أو جنون مبعثه الخمر والمخدرات، فيرتكبون أفعالاً فيها عنف، ومعظمه عنف منزلى، أسلحتهم هى البنادق والسكاكين والمطارق وقبضات الأيدى، وكثيراً ما ينتحرون بعد انتهاء نوبات الغضب، أو يحاولون الانتحار.

ـ مسلح/رهائن" قال العامل فى مركز الأزمات "لشاندلر" إنه لا يوجد شك فى وجود سرقة أو سطو فى الأمر. الدافع عاطفى بالأساس، وهو أخطر الدوافع.

منذ تجاوز مراهقته الخرقاء أصبح "شاندلر" شاباً نحيفاً هزيل العضلات، يبدو عليه السهر الدائم، يتحرك بسرعة كلاعب تنس يواجه خصمًا أقوى منه لكنه ليس مستعداً للاستسلام للهزيمة. وجهه صبيانى كما هو، فيه شىء غير مُعرّف، سهل عليه (وهو يعرف!) أن ينسى، بدأ شعره يتراجع حين بلغ أوائل العشرينات وتراجع شعره الفضى البنى عن صدغيه وكأنه أخف من الهواء.. عيناه حساستان رطبتان، قالت فتاة كان يعرفها فى الجامعة إن عينيه "أعين شبح".. "شابة وعجوز ومليئة بالحكمة" (هل كانت تعنى ما قالته كإطراء؟) وكان "شاندلر" يرتدى نظارة خفيفة اللون تعطيه مظهر الرجل المتمرد المهمل الجذاب الرافض للتحضر، لكن أبطاله من رافضى التحضر، كان من أخوة الطائفة اليسوعية، ولم يكن يرتدى أى ملابس فيها أى نوع من التمرد، إذا طال شعره وتجعد وبلغ ياقة قميصه، فهذا بدافع الإهمال وليس اتباع الموضة. أبداً لا يدع "شاندلر" شعره يصل إلى كتفيه ولا أن يضع رباط رأس حول جبينه، كما فعل

"رويال". "شاندلر" متعجب من تساهل شقيقه الأصغر مع جسده، وإحساس "رويال" بأن على الآخرين أن ينجذبوا إليه، وكانوا بطبيعة الحال ينجذبون إليه. ليس لأن "رويال" فاسد، فلم يكن فاسداً. لكن إذا وقعت فى غرامه الفتيات أو النساء، فكيف تلومه؟ *أنا لست السبب فيما يحدث. لست أنا، بل هنّ* وعلى النقيض، كان "شاندلر" يندهش إذا بدا على امرأة الانجذاب إليه، ولا يسعه إلا الشك فى صدق نيتها، أو فى ذوقها. وكان يرى نفسه صبياً نحيفاً فى الثالثة عشرة بعينين مغرورقتين بالدمع وجلد شاحب وأنف مزكوم بشكل دائم، دائماً ما تحاول أمه أن تقيم ظهره فى وقفته، وتصفف له شعره مبعدة إياه عن وجهه، وتربط أزرار قميصه بشكل صحيح، *و.. أرجوك!..* تمسح له أنفه.

قالت آريا منذ فترة قريبة وهى تحدق فيه فى دهشة: "تقريباً أصبح شاندلر وسيماً". وكأنها ترى ابنها الكبير بشكل جديد، ولا يعجبها بالضبط ما تراه. "لا تدع هذا يتسرب إلى رأسك وأفكارك يا شاندلر!" وضحكت بطريقة آريا المداعبة ورغبتها فى الإغاظة، التى تجعلك تجفل فزعاً إذا تخيلت أنها تقصد بها الإعجاب والحب.

لماذا؟ لأننى أحتاج.

أحتاج تقديم المساعدة بطريقة ما.

دائماً يشعر بأن هذا امتياز، أمنية مجهولة تتحقق.

اليوم تم توجيهه إلى مصنع فى الطرف الشرقى، فى شارع سوان، جزء غير مألوف من المدينة بالنسبة "لشاندلر"، وحين رأى لافتة "شركة نايجرا للغسالات الكهربائية" تعرف إلى المبنى. "شاندلر برنابى" كان يقود سيارته عبر شوارع شلالات نياجرا المتجهمة طيلة حياته مشخص بالغ. أحياناً يبدو وكأنه عاش حياة أخرى ها هنا أيضاً.

قالت آريا لشاندلر مرة بغموض وقت إجراء جراحة حصوة الكلى لها، وحين كانت تخشى ما قد يصيبها بعد الجراحة: "عزيزى، إننى أحبك! أحياناً أعتقد أننى أحبك أكثر من الآخرين، أغفر لى".

ضحك "شاندلر" بعصبية. ماذا هنالك ليغفره؟

اليوم من آخر أيام الشتاء التى يصل صقيعها للعظام، كالمنديل المبتل المتحلل، رياح تهب من الشرق ورائحة الكيماويات المعدنية تلك تغلف داخل فمك، سماء أسبستوسية، أفنية وساحات تغمرها الثلوج، أرصفة قذرة، ثلج مغطى بالسخام، ثلج فى أكوام مسكوبة على الشارع، ثلج موحل.. ثلج وجليد. بدأ قلب "شاندلر" يخفق بسرعة أكبر متحسباً لما سيقع قريباً.

نسى الاتصال "بميليندا" ليخبرها أنه قد يتأخر هذ المساء.

لا.. لم ينس. لم يكن لديه الوقت.

لا.. ليس أنه لم يكن لديه الوقت، ربما كان ليطلب مكالمة أخرى يجريها له صديق أو زميل فى المدرسة، أن يتصل بالنيابة عنه. لكنه لم يفعل.

أحياناً لدى الاقتراب من موقع طوارئ، يشعر "شاندلر" ببصره يغيم من الأطراف، هذه الظاهرة بالغة الغرابة بين الظواهر العصبية.. الإبصار النفقى. وكأن أطراف مجال البصر نفسها تختفى وتتحول إلى ظلام. ظاهرة معروفة هى لدى رجال الإطفاء. رغم أن عمل "شاندلر" فى الأزمات لم يكن بدنياً إلا فيما ندر، ومعظمه لفظى يتمثل فى المشاورة ومنح النصائح وبث الطمأنينة، وكثيراً ما ينصت لا أكثر ويتعاطف مع المتكلم، يتكلم إلى رجل يائس أو امرأة على وشك الانتحار، وفى تلك الحالة يتعرف المرء سريعاً على روح من يكلمه فيعرف أنه إلى جانبه ويريد إنقاذه وألا يدعه يموت، إنه الشخص الذى أعماه اليأس.. يجب أن تقنعه بالاستمرار فى الحياة.

كل ما نريده هو أن نموت أحياناً.. فى خضم تعبنا من جهد الحياة.. لكن هذا الإحساس يمر مثل الطقس.. نحن مثل الطقس.. أترى السماء؟ وهذه السحب؟ إنها تهب فوقنا، ما بين البحيرات.. مثلنا، كل شىء يهب وينتهى أمره فى نهاية المطاف، أليس كذلك؟

هو تفاؤل اعتيادى لأقصى درجة، يمكنك قراءته مكتوباً على عبوات طعام الأطفال، كانت آريا تضحك وتشعر بالشفقة. لكن رويال يؤمن بهذه الكلمات، وخاطر بحياته متعلقاً بها.

"برنابى"، هذا الاسم، أهو اسم من شلالات نياجرا؟

ربما يذكر الكبار البالغين. لكن أبناء الفرقة التاسعة بالمدرسة لا يذكرون، الأطفال المولودون فى عام ١٩٦٣ أو بعدها، ما الذى يعرفونه عن فضيحة عام ١٩٦٢ التى بهتت؟

نادراً ما يفكر فيها "شاندلر" نفسه.

واتته الفرصة، كان بإمكانه مغادرة شلالات نياجرا، تخال أنه كان يفضل العيش فى مكان اسم "برنابى" فيه مجرد اسم، ربما كان يذهب إلى الجامعة فى فيلادلفيا. حصل على منح دراسية فى أماكن أخرى أيضاً. لكنه لم يرغب فى إزعاج "آريا" فى مرحلة صعبة من حياتها (ماذا كانت أزمة "آريا" فى ذلك الحين؟ "شاندلر" لا يتذكر هذا الآن) ولا هو أراد هجر "رويال" و"جولييت" مع أمهما متقلبة المزاج، كانوا بحاجة "لشاندلر" أيضاً، وإن لم تخطر له هذه الفكرة قط.

اذهب إلى جهنم هكذا قال "رويال لشاندلر" وأغلق السماعة.

!نقطعت العلاقات بين الشقيقين منذ ستة أشهر تقريباً. حاول "شاندلر" الاتصال "برويال" ولم ينجح، كم هو سخيف أن يتشاجرا، وليس لهما إلا أحدهما الآخر، لم يتكلم "رويال" إلى شاندلر من قبل بهذه الطريقة قط، وأحس "رويال" بعد المكالمة بالذهول مما قيل.

هذا ظلم، وعد شاندلر "آريا" بأن "يحمى" "رويال" و"جولييت" حين توفى أبوهم، وهذا ما فعله وحاول، كل هذه الأعوام يحاول. ثم الآن انقلب "رويال" عليه ورفض أن يفهم. "رويال" هجر البيت وأصبح يعمل فى المدينة ويعيش وحيداً ويدرس فى فصول ليلية بجامعة "نياجرا". رويال عاد إلى الدراسة! هذا أغرب الأخبار قاطبة. يسمع شاندلر من الحين للآخر أخبار

"شاندلر" عبر شقيقتهما جولييت، وهذا فى السر؛ لأن "آريا" بالطبع ترفض التكلم عن ابنها "العنيد الذى يدمر نفسه".

أراد "شاندلر" سؤال أمه: إلى متى كنت تتوقعين أن يبقى "رويال" غير فضولى حول أبيه؟ و"جولييت"؟ أى أم عقلانية كانت تعرف أنها مسألة وقت لا أكثر.

ـ "عقلانية".. ضحك شاندلر بصوت مرتفع.

زاد من سرعة السيارة وهو يفكر فى هذه الأشياء، الحد الأقصى للسرعة ٣٥ ميلاً فى الساعة، وهو يقارب الخمسين، لا وقت للحوادث. إنه مطلوب فى شارع سوان.

لا أريد الحماية! أريد المعرفة.

تساءل "شاندلر" كم عرف "رويال" إلى الآن، كم سيعرف عن أبيهم قبل أن يحتاج ألا يعرف المزيد.

عار، عارا عار اسمه "برنابى".

بالفعل تغنى الأطفال بهذه الكلمات من وراء ظهر "شاندلر". منذ زمن بعيد، فى المدرسة الابتدائية، وتظاهر بأنه لا يسمع.. ولم يكن من الصبية الذين يسهل دفعهم إلى الغضب أو البكاء.

كحاله وهو شخص بالغ.. يصعب إثارة مشاعره، وليس بسهولة.

سألته "ميليندا" ذات ليلة عن أبيه؛ لأنها بالطبع تعرف، أو تعرف شيئاً ما؛ لأنها ولدت ونشأت فى المدينة، اسم "برنابى" معروف لها. و"شاندلر" قال لها صراحة إنه نادراً ما فكر فى أبيه الراحل، وبدافع من الاحترام لأمه لم يتكلم عنه أبداً، لكنه قادر على الثقة "بميليندا"؛ لأنه يحبها ويؤمن بأنه قادر على الثقة فيها.

ـ حقاً! هل تحبنى؟

ـ "أجل أحبك" لكن كلمات "شاندلر" كانت مترددة، نطقها فى عجب أو لعله كان رهبة وتوجساً.

قال "شاندلر" لها ما يعرفه: إن "ديرك برنابى" توفى تلك الليلة فى نهر نياجرا، وإن لم يتم العثور على جثته ولسنوات قيل إنه أنقذ حياته بطريقة ما، وتمكن من السباحة إلى الشاطئ. "لكن أى ممن يعرفون نهر نياجرا عند ذلك الموضع يعرفون أن هذا مستحيل".. كذا قال "شاندلر".. "إنه مزحة قاسية".

أنصتت "ميليندا"، وإذا كانت تريد سؤال شاندلر إن كان قد ألقى نظرة على موقع الحادث، فهى لم تسأل.

تلقت تدريبها كممرضة على أن تتفهم الألم، حتى الألم غير المحسوس، كانت تفهم أن الألم لا علاج طبى له.. وليس له وجود فى الحياة الواقعية.

لم يتم العثور على جثة "ديرك برنابى" أبداً، لكن الرجل ميت بلا ريب، وصدرت باسمه شهادة وفاة رسمية فى نهاية المطاف. بعد تحقيق شرطى اهتمت به الصحف إلى حد كبير، قيل إن الواقعة كانت "حادثاً"، هو ما رأى "شاندلر" أنه تكييف للأمور. والمعتاد أن مكتب التحقيق فى أسباب الوفاة التابع للمقاطعة دائماً ما يتفادى الحكم بالانتحار كلما أمكنه. فالوفيات فى شلالات نياجرا تعزى عادة إلى "حادث".. أو "قضاء وقدر".. بدافع من التمنى أكثر منه لتجنب إزعاج الناجين، وبدافع من تمنى إخفاء الانتحار عن هذه المنطقة السياحية الشهيرة، حتى حين يتم العثور على رسائل كتبها المنتحرون، لم تكن هذه الرسائل تدخل فى ملفات تحقيق الشرطة.

الخطيئة الأكبر.. أن تقضى على حياتك بيدك.

قال "شاندلر" "لميليندا" إنه يفترض أن غالبية الناس الذين كانوا يعرفون "ديرك برنابى" قد رأوا أنه قتل نفسه بيده، فقد كان يسير بسيارته على سرعة عالية (تجمد عداد السرعة عند ٨٩ ميلاً فى الساعة) وسط عاصفة رعدية قوية، وكان قد خسر مؤخراً قضية مهمة فى المحكمة، وعلى وشك الإفلاس "ثم كانت هناك أشياء أخرى أيضاً. عرفت هذا من قراءة الصحف. لم تكن آريا تسمح بدخول أية صحف إلى البيت فى ذلك الحين،

لكننى حصلت عليها بطريقتى، قرأت كل ما أمكننى قراءته، لكننى نسيت معظمه، أو لا أريد التكلم عنه الآن يا "ميليندا" اتفقنا؟"

قبلته ميليندا فى صمت.

عار.. عارا عار اسمه "برنابى".

تساءل "شاندلر" إن كان "برنابى" اسماً كفيلاً بإقناع "ميليندا" فى نهاية المطاف بالعدول عن الزواج منه، عليه أن يخاطر، فلا خيار أمامه.

منح عامل مركز الأزمات "شاندلر" العنوان.. هو ٣٨٨٤ فى شارع سوان، فيما بعد تقاطعه مع فيتيران وبورتاج، ثم هذا الجزء من شارع سوان الذى تقفله الشرطة فى وجه المرور. أظهر "شاندلر" بطاقة هويته لضابط الشرطة وسمحوا له بالمرور، على بعد ربع ميل من شركة نياجرا للغسالات الكهربية، فى مبنى منخفض السقف من الخشب يقبع منفصلاً فى ساحة انتظار، وفى ممشى السيارات كان هناك ما لا يقل عن اثنتى عشرة عربة شرطة وإسعاف، أوقف "شاندلر" السيارة فى شارع سوان وتقدم إلى الموقع بعيداً عن الأعين قدر المستطاع، وقد اتبع ضابطاً شاباً، وخلف عرباتهم وشاحنات مصنع الغسالات، كان رجال الشرطة راقدين كما يفعلون فى أفلام الإثارة والتشويق.

لكن لم تكن هناك خلفية موسيقية تناسب الموقف ها هنا، لا يوجد أبطال ولا سيناريو. "شاندلر برنابى" استدعته الشرطة لكن قد لا تستعين به. سوف يتخذ الضابط المسئول عن الموقف هذا القرار، لكن "شاندلر" لا يعرف متى، هو متوافر، وصل وحيوه، صافحوا يده وتركوها.

دخل المسلح إلى المصنع قبل أربعين دقيقة تقريباً، وفى ذلك الحين أطلق أول رصاصاته. الاتصالات الأولى بشرطة النجدة (٩١١) لم تتم إلا بعد دقائق من هذا، وأجراها أشخاص سمح لهم المسلح بمغادرة المبنى. "شاندلر" يرى الباب الأمامى المفتوح جزئياً للمبنى ونافذة محطمة على بعد أقدام قليلة منه. النافذة تتخذ شكلاً غريباً، على ارتفاع خمسة أقدام واتساعها لا يزيد على القدم. أطلق المسلح النيران من هذه النافذة كما

قيل "لشاندلر"، لكن يبدو أنه متوقف عن إطلاق النار الآن. "لكن ابق رأسك منخفضاً يا أستاذ، فهمت؟ لا تخاطر" وقال "شاندلر": "أعرف أيها الضابط، لن أفعل".

وكأنه تلقى هذا التوبيخ فيما سبق. مدنى فى موقع الحادث.

صوت فى مكبر للصوت يهز الهواء. صوت مرتفع للغاية، يكاد "شاندلر" لا يميز الكلمات. أستاذ *"مايويزر" .. هل تسمعنى؟ اطلق سراح الآنسة "كاربنتر" فوراً، آكرر.. أطلق سراح الآنسة "كاربنتر" فوراً. اخرج إلى الباب دون أسلحة وارفع يديك، ولن يؤذيك أحد يا أستاذ مايويزر. نحن شرطة مدينة شلالات نياجرا. لقد حاصرنا المبنى. اخرج وارفع يديك ولا تحضر أسلحتك معك يا أستاذ ما"يويزر". آكرر، لا ..* كان ضابط الشرطة يتكلم فى مكبر الصوت محاولاً أن يضفى على كلامه شيئاً من الإحساس بالسيطرة والهدوء.

فى الموقع كان بعض عناصر شرطة المدينة يعرفون "شاندلر" باسم "الأستاذ "برنابى" من مركز الأزمات. جلس محقق فى ثياب مدنية يدعى "رودويل" وكانت ابنته تحضر فصل "شاندلر" فى مدرسة "لا سال" منذ عامين ـ جلس القرفصاء إلى جواره وأطلعه سريعاً على التفاصيل.. المسلح معروف أن معه مسدسًا وبندقية على الأقل، ويعتقدون أنه مشتت والأرجح أنه مخمور أو تعاطى مخدرات، وبعد مطلبه الأول بالخروج آمنًا من البلاد، رفض الاتصال بالشرطة بخلاف صيحات قليلة لا معنى لها.. ولم يرفع سماعة الهاتف فى مكتب مدير الشركة حيث يعتقدون أنه أمن الحجرة ومعه الرهينة، وهى موظفة استقبال شابة.. *أستاذ مايويزر؟ هل تسمعنى؟ أستاذ "مايويزر" نحن نسألك أن تضع أسلحتك أرضًا وأن تظهر عند الباب. نسألك أن تطلق سراح الآنسة كاربنتر فوراً وأن تسمح لها بالمغادرة. هل تسمعنى يا أستاذ "مايويزر"؟*

تمت معرفة الرجل المسلح مؤخراً.. وهو ذكر أبيض يبلغ من العمر ثلاثين عامًا تقريبًا، وطوله متوسط ووزنه نحو مائتى رطل.. عرف عنه أنه

موظف مفصول من الشركة. مايويزر؟ هناك أفراد من عائلة "مايويزر" فى منطقة شارع بلطيق. "مايويزر" هذا أطلق النار على مشرف عمال وأصابه بجرح خطير، وأطلق أعيرة نارية طائشة تجاه الموظفين الفارين، الذين صاح فيهم لكنه لم يطاردهم، وكان فى بادئ الأمر قد اتخذ امرأتين رهينتين، وأبلغ الشرطة أنه يريد "العبور الآمن" إلى خارج البلاد بالطائرة، إلى كوبا.

كوبا! ليست علامة مبشرة.

وكأن "فيدل كاسترو" سيمنح اللجوء السياسى لرجل أطلق النار على رفاقه العمال.

سأل "شاندلر روديل" ما إحساسه نحو ما يحدث، وقال "رودويل" إنه يتمنى ألا تكون الفتاة قد ماتت.

إذا كانت الشرطة تعرف أنها ماتت، كانوا يسعون خلف "مايويزر" على الفور،•سيرمون بالغاز المسيل للدموع ويمشطون المبنى، إذا قاوم مايويزر فسوف يقتلونه. إنه سيناريو بسيط، مثل المأساة الإغريقية. كان شاندلر يعرف من خبراته الماضية أن ثمة خيارات قليلة متاحة أمام المسلح المحاصر، ولا واحدة منها فى صالحه.

لكن إذا كان الانتحار هو الغرض..

القصة لدى تجميع قصاصاتها، تتمثل فى أن "مايويزر" تم فصله من شركة الغسالات الأسبوع الماضى، وظهر عصر هذا اليوم ومعه بندقية ودخل إلى مكتب الاستقبال وطلب رؤية المدير، الذى كان لحسن حظه لم يكن قد عاد بعد من غدائه، وقرر أن يرضى بمشرف العمال، الذى كان على خلاف معه، لكن بعد أن أطلق النار على الرجل رق لحاله وترك الآخرين يحملونه إلى خارج المبنى وهو ينزف بغزارة، ونقلته الإسعاف إلى المستشفى. يبدو أن "مايويزر" لم يعد يعرف ما يريده بعد هذا، وهو أمر غير اعتيادى، كما خطر لشاندلر، فى مثل مواقف اليأس هذه.

سأل "شاندلر" لماذا تم فصل "مايويزر"، وقيل له إن الشرطة لا تعرف السبب على وجه الدقة، كان يشرب الخمر فى أثناء العمل كما قيل.. تمرد؟ وصفه زملاؤه من العمال بأنه "هادئ للغاية ومتجهم" والمرأة الحبلى التى سمح لها بالهرب كانت ترتعد وترتجف بحيث لم تتمكن الشرطة من معرفة الكثير منها، ونقلت إلى المستشفى لتتلقى علاجاً للصدمة.

صوت البوق مستمر بلا كلل.. *أستاذ "مايويزر"؟ أكرر، أستاذ "مايويزر"، المبنى محاصر..*

تساءل "شاندلر" متى سيطلبون منه التدخل. أو إذا كانوا سيطلبون.

هذا هو تشويق وإثارة اللجوء إلى الخنادق والمخابئ، أثناء فترات هدوء القتال، لم تنطلق أعيرة نارية منذ أطلقها مسلح غير مرئى منذ عشرين دقيقة.

الهواء لاذع ها هنا، أحس "شاندلر" بمشقة فى التنفس، لسعته عيناه الحساستان، الرائحة السائدة المنبعثة من دو كيميكالز على قرب، الصانع السابق للنابالم. ولدى جسر بيس الموصل إلى كندا منذ أعوام، كان "شاندلر" أحد المتظاهرين الكثيرين ضد دو كيميكالز، اعتقلت الشرطة القليلين من المتظاهرين العدوانيين، لكن ليس "شاندلر برنابى"، الذى لم يكن أبداً من العدوانيين. تريد أن تعتقد أن الأفعال الفردية تحدث فارقًا، وأن ثمة تبعات فى العالم الواقعى تأتى نتيجة لقرارات أخلاقية الدوافع، وربما كان الأمر كذلك، النابالم مضى على طريق غاز الأعصاب.. برغم أن دو عالجت كارثة العلاقات العامة هذه وعادت للربح مثل باقى المصانع فى شلالات نياجرا.

اشترت دو شركة سوان كيميكالز فى أواخر الستينيات. صفقة بلغ ثمنها عدة ملايين، وكانت مربحة للغاية للشركة التى مقرها شلالات نياجرا التى كانت هدفًا لما يشار إليه الآن بقضايا "البيئة الأولى" ربحت سوان قضية قناة الحب، لكن تغير الزمن.

استمر صوت البوق فى إلحاح.. *أستاذ "مايويزر"؟ إننا نحاصر المبنى.. نريد أن نعرف إن كانت الآنسة "كاربنتر" بخير. اترك أسلحتك واخرج إلى مدخل الباب..*

بحق المسيح.. فليحدث أى شىء.

لا.. لم يكن نافد الصبر. ماذا؟ نافد الصبر؟ فكرة وجوده هنا تحليه بالصبر، كان رجل "أزمات".. وتم تدريبه على احتضان "الأزمة"، ولم يكن محترفاً، إذًا فلابد أن هذه وظيفته، يجب أن يعترف بأنه يحب كونه مجهولاً، وإن كان يدعى السيد "برنابى"، فالاسم ليس اسمه.. ليس هنا، وليس الآن. هذه نعمة وهبة لمن لا يؤمن بالرب، لن تعرف "آريا" أين ابنها، ولن تغضب منه بعد. "رويال" لن يعرف ولن يتحضر للإحساس بالذنب/اتخاذ الموقف الدفاعى إذا حدث شىء له، لن تعرف "جولييت"، وإن كان التليفزيون يغطى الحادث، وهى تشاهد نشرة أخبار المساء، وربما تخمن أن شقيقها الأكبر فى مسرح الأحداث.

ثم هناك "ميليندا".

أجفل "شاندلر" وهو يفكر فيها، كان يجب أن يطلب من صديق أن يتصل بها.

كانت تتوقع حضوره إلى شقتها على الجانب الغربى، فى أى وقت بين السادسة والنصف والسابعة، ستتصل به إذا تأخر ولن يرد أحد على هاتفه، كانا سيحضران العشاء معاً (الليلة، أكل حريف) كما يفعلان كثيراً، وكان "شاندلر" سيلعب مع الطفلة ويقلب صفحات كتاب الأطفال المصور ويساعد فى استحمام الرضيعة، كان "شاندلر" ليقضى الليلة إذا دعت "ميليندا"، إذا أحست أن "شاندلر" بحاجة لدعوته، كانت ممارستهما للحب رفيقة وعابرة، ماضيان فى طريقهما إلى علاقة أوضح ، كأنهما متزلجان على الثلج يدخلان فى حماس وتوجس إلى منطقة من الثلوج يعرفان أنها قد تكون رقيقة لا تتحمل وزنهما.

استسلم! سلم أسلحتك.

أستاذ "مايويزر"، المبنى محاصر.

وهو يتمنى ألا يلاحظ وجوده أحد، خاطر "شاندلر" بالإطلال من وراء الشاحنة، بدا من غير المرجح أن المسلح يراقبه الآن ويطلق عليه النار فى هذه اللحظة، لكن شعر مؤخر عنق "شاندلر" وقف.

لطالما أصر "رويال" على أن عمله فى حفرة الشيطان آمن بنسبة مائة فى المائة، وأنه يبدو خطراً لا أكثر.. أن تنزل بالقارب إلى الشلالات.

دفع "شاندلر" نظارته أعلى أنفه وهو يضيق ما بين عينيه محدقًا، بدأت نبضات قلبه تتسارع وإن كان يعرف (إنه يعرف!) أنه ليس فى خطر حقيقى، ولم يكن كذلك، لم يتغير شىء فى واجهة المبنى الكئيبة. الباب مفتوح كما كان، وما وراء الباب خالٍ. لا حركة عنده أو خلف النافذة المحطمة، وفى الخلفية هليكوبتر الشرطة تطن، بدا أن الزمن معلق متوقف، لكن بالطبع لم يكن كذلك. الشرطة ورجال الإسعاف والطوارئ والإعلام ينتظرون وقوع شىء ما، لكن أين المسلح؟ لقد تسبب فى تحرك كل هذا، وتراجع مع رهينته وحصن نفسه فى حصاره، لم يستجب للبوق الذى يصم الآذان، ولم يجب على الهاتف. لم يرغب "شاندلر" فى التفكير فى أنه ربما توفى "مايويزر" والرهينة الشابة.

ربما مع "مايويزر" سكين وقتل به المرأة فى صمت نسبى، لم تسمع الشرطة صوت أعيرة نارية، ربما قطع معصمه. *"مايويزر"؟ هذا المبنى محاصر، إذا كنت تسمعنى..*

لابد من الإحساس بالشفقة على الرجل الذى كانت تعنى له وظيفته فى شركة غسالات نياجرا الكثير، وهذه منشأة صناعية غير غنية تشغل أقل من ثلاثمائة شخص.

سمع "شاندلر" بعض ضباط الشرطة يتراهنون، إن كان الرجل سيخرج حياً أو محمولاً على محفة، إن كان سيقتل نفسه أم يقتلونه هم.

حضر "شاندلر" فى مواقع أخرى مات فيها رجال، أو أصابتهم نيران الشرطة، وهى ليست تجربة سارة.. ضجيج الأعيرة النارية الرهيب يستغرق ثوانى معدودة ويخترق عقلك عميقاً، إنه ضجيج يتجاوز أى ضجيج، عدوان ميتافيزيقى. مثل صوت الخناجر وهى تقطع العظام. *أتمنى ألا تفعل، لكن أتمنى أكثر ألا تشعر بالاحتياج.* "ميليندا" منحته قبلة. "ميليندا" أمسكت بيديه المرتجفتين. بدا أنها تشعر بأن "شاندلر" ليس ملكها لكى تمسك به بهذه الطريقة، لكنه أراد أن يكون كذلك، وأحست هى بما يريده بدورها، لم يخبرها أكثر مما كانت تحتاج لمعرفته، بالطبع كانت ممرضة، وعملت فى أقسام الطوارئ.

مرتان خلال الشهور الثلاثة الماضية حضر "شاندلر" مواقع قتل فيها رجال أنفسهم، أحدهم استخدم مسدساً فى مواجهة مع الشرطة فى مبنى سكنى فى منطقة وسط المدينة، فى ليلة رأس السنة، والآخر توفى حين رمى بنفسه فى الشلالات الأمريكية عند طرف جزيرة جوت، أمام تجمهر من الأشخاص المشدوهين. (هذا الانتحار كان لطالب رياضيات بجامعة نياجرا يبلغ من العمر ١٨عاماً وليس لديه سجل سابق من المشكلات العاطفية، لكنه تعلق بيديه مذهولاً بحاجز الشلالات المعدنى قرابة الساعة قبل أن يتركه.. احمله على الكلام وإعادة النظر فى موقفه، لكن شاندلر فشل، وعاد أدراجه منهزماً، الموت فى الشلالات، موت ثأرى الطابع أكثر من أى أشكال الموت).

فى الواقع، معظم الوقت الذى اشتغل خلاله "شاندلر" فى مواقف طوارئ لم تنته نهايات درامية، بل انتهت ببساطة، بعد الكثير من الانتظار والإرهاق، مثلاً رجل مخبول حصن نفسه فى شقته مع طفله الأصغر، وراح يصرخ ويبكى ويحطم النوافذ والأثاث لكنه لم يبذل أى جهد فى المقاومة حين اقتحمت الشرطة الشقة واعتقلته، امرأة متوسطة العمر من الهيبيز تعاطت حبوب الهلوسة، وهددت بإحراق نفسها فى مكان عام، لكن بعد أن جذبت انتباه العشرات من المارة وبعد أن سكبت على نفسها الكيروسين، لم

تتمكن من إشعال عود ثقاب، وأخذتها الشرطة وهى تضحك. رجل غير حليق فى ثيابه التحتية هرع إلى ضباط الشرطة وصاح فيهم وسبهم وأراد الشجار حتى الموت، لكن سرعان ما أمسكوا به وألقوه على الرصيف وباعدوا ما بين ساقيه وقيدوا معصميه من الخلف.

وهكذا كانت الأمور، فى بعض المرات وصل "شاندلر" متأخراً، وكانت الدراما قد انتهت، وعاد الجميع إلى بيوتهم.

هذا الإحساس فى المعدة. لم تحدث أى فرق، يا لك من أحمق.. يا لهذا الغرور.

لكن هناك تلك الليلة من آخر شهر يوليو حين كان يوصل "ميليندا" بالسيارة إلى المستشفى لكى تلد، لم يكونا عاشقين وقتها، بل مجرد صديقين، وسألت "ميليندا" "شاندلر" أن يبقى معها لأنها تخشى الوحدة وبقى معها؛ لأنه هو نفسه خائف وحين بدأت الانقباضات ساعدها، وذهب معها إلى المستشفى وظل معها طيلة محنتها التى استمرت سبع ساعات، كانت أهم خبرة فى حياته، لن ينساها أبداً، وأحدث وقتها فرقاً.

أستاذ "مايويزر"؟ التقط السماعة، نريد التكلم إليك يا أستاذ "مايويزر". نريد التأكد من سلامة الآنسة "كاربنتر"..

لا إجابة من المسلح.

سمع "شاندلر" رجال الشرطة يتكلمون معاً فى هدوء، وقد أصابهم الإحساس بالعصبية والغضب، لم يعتقدوا أن مايويزر قد أصيب فى تبادل إطلاق النار، لكن "شاندلر" تساءل إن كان كذلك. ربما المسلح ورهينته ينزفان حتى الموت داخل المبنى؟ "سلامة".. يالغرابة هذه الكلمة، كم بدت غير لائقة وقد خرجت من البوق بصوته المدوى.

أستاذ "مايويزر".. إننا نتصل بك الآن ونسألك أن ترفع سماعة الهاتف، نريد معرفة ما تريده، ما توقعاتك.. أستاذ "مايويزر"؟ هل تسمعنى؟ هذا المبنى محاصر. اطلق سراح الآنسة "كاربنتر" فوراً ولن تتعرض للأذى.

هذه المرة مع إنصات الجميع، سمعوا سباباً مدويًا من داخل المبنى، الصوت متعب وكان مكتوماً ولم يصل بعيداً.

تلى هذا الصمت (على قرب قعقعة قطارات البضائع) توقعوا أن المسلح قد يطلق النيران، لكن لم يحدث شيء.

حينها عرف "شاندلر" اسم المسلح الأول: "ألبرت" ألم يكن يعرف "ألبرت مايويزر"؟ من المدرسة؟ إنه اسم لم يسمعه شاندلر منذ أعوام.

فى واقع الأمر، تخرج "شاندلر" مع "مايويزر" آخر، شقيق أصغر أو ابن عم "لألبرت". لكنه يذكر ألبرت مايويزر كما قد يذكر الصبى الصغير صبيًا أكبر منه سنًا كان يخشاه ويكرهه لكنه معجب به بطريقة المراهقين الغريبة تلك فى الإحساس.

كان آل "مايويزر" يقيمون فى منطقة شارع بلطيق، وإن لم يكن أى منهم من المقربين لآل "برنابى". إنهم كثيرون.. عشيرة كاملة، لكن شاندلر يذكر آل على وجه التحديد. صبى قوى ربع يتمتع بجسد المصارع والشعر الأشقر الداكن الأشبه بألياف البساط، اختار فى الثانوية تخصص فى العمل اليدوى مثل الكثير من الصبية فى مدرسة شلالات نياجرا الثانوية، مزاجه كان يتأرجح بين الصمت المهدد والحركات البهلوانية، أحد هؤلاء الصبية الذين يطرقعون أصابعهم أو يطلقون الريح بصوت مرتفع على سبيل الدعابة، لم يكن آل منضماً لفريق رياضى، بل يلعب كرة السلة مع أصحابه خلف المدرسة والسيجارة مدلاة من بين شفتيه الممتلئتين، كان أصحابه يطلقون عليه "آلى هوب"و "آلى هوب"، وكأنها كلمة تدليل وتعبير عن الحب. وكان "شاندلر" قد فهم أن الفتيات، حتى الفتيات "الصالحات" ينجذبن أحياناً للصبية مثل "آل مايويزر". على الأقل فى البداية.

شىء غريب، لا يمكنه التعبير عنه: أراد مثل هؤلاء الصبية أن يحبوه، أن يغفروا له درجاته المرتفعة وضعف بصره وخطوته المترددة وتلعثمه فى المواقف التى يشعر فيها بالخوف. أراد أن يكون صبيًا مثل آل "مايويزر"

لكى يعترفوا باسمه ويعرفوه.. اسم ذات أهمية فى عالم الفضائح.. اسم إجرامى. برنابى؟ *أهذا أنت؟*

يذكر "شاندلر" أن شخصًا ما من أسرة آل "مايويزر" أو من أسرة "مايويزر" الذين ذهبوا إلى المدرسة مع شاندلر، كان من بين عمال أوكسيكيميكال الذين أصيبوا بالعجز وهم لايزالون بعد فى الثلاثينات والأربعينات، وتم رفع قضية ضد الشركة فى أواسط السبعينيات، مصحوبة بالكثير من الجدل والغضب على المستوى المحلى، يذكر "شاندلر" كلمات مثل "خانونا" و"كذبوا علينا" و"حقوق العمال" و"الأمراض المتعلقة بالعمال" فى عناوين الصحف، ولم تنته القضية التى أنفق عليها ملايين فى صالح العمال. وقد حكم المحلفون بتعويضات مالية كبيرة للرجال المحتضرين أو لأسرهم، لكن قراراتهم كانت تقابل بالطعن فى محكمة الاستئناف، ومع مرور الوقت فقدت وسائل الإعلام اهتمامها بالقضية.

ـ أستاذ "مايويزر"؟ تقدم إلى الباب ويداك مرفوعتان.
لا تحضر أسلحتك معك إلى الباب يا أستاذ مايويزر.

أستاذ مايويزر، الهاتف يرن. التقط السماعة.

حاولت الشرطة الاتصال بزوجة "مايويزر" التى هجرته، لكنهم لم يعثروا عليها فى بيتها أو فى العمل، أطفاله يقيمون مع الجد والجدة فى نورث توناواندا. هل هم بخير؟ يعرف شاندلر أن فى ظروف كهذه ربما يبدأ المسلح نوبة إطلاق النار فى بيته.

تساءل "شاندلر" إذا كان والد "مايويزر" ما زال حياً: الأرجح أنه ليس حياً. لم يعد أى من الرجال الذين انخرطوا فى القضية أحياء على الأرجح، سرطان الرئة وسرطان البنكرياس وسرطان المخ وسرطانُ الكبد وسرطان الجلد، سرطانات تتقدم سريعًا. سرطانات بطيئة، هذا هو الغرض من القضية.. المطالبة بالتعويض لحيوات مضت بالتصوير السريع.. للموت قبل الآوان.

كثيراً ما تم الاستشهاد بقضية "قناة الحب".

لكن ليس اسم برنابى المستهجن.

قالت "ميليندا" أرجوك *يا "شاندلر". أنت لست أباك.*

أحصى "شاندلر" أكثر من عشرين ضابط شرطة فى موقع الطوارئ، بعضهم يرتدى ثياباً واقية وجميعهم مسلحون، وعلى الجانب الآخر من مبنى المصنع كان هناك المزيد، رجال مسلحون مثلهم. ليس أمام "مايويزر" أية فرصة إذا حاول الخروج بإطلاق النار فسوف تخترقه الرصاصات على الفور، تساءل "شاندلر"، وليس للمرة الأولى فى مثل هذه الظروف، كيف يجد الرجل نفسه فى مكان كهذا ذات يوم. جرذ محاصر فى الركن.. لا مفر.

منذ المدرسة الثانوية لم يفكر "شاندلر" فى "مايويزر". افترض أنهم ما زالوا يعيشون فى شارع بلطيق، والآن بلغ الجيل الأصغر مبلغ الرجولة، مثل "آل"، وذهبوا للعمل فى المصانع، وتزوجوا ورزقوا أطفالاً وتم تحديد مسار حياتهم، الأرجح أن "آل" خرج مباشرة من التدريب الفنى فى المدرسة إلى وظيفة فى المصنع، كان معروفًا بما يطلق عليه عاملا ماهرًا، مميزًا عن العمال غير المهرة، من يحصلون على أعلى الأجور هم القائمون بالتخطيط والمصممون، لكن إن كانت المنشأة غير منضمة لنقابة العمال، كما هو مصنع نياجرا للغسالات، فلا تجد الأجور عالية، ولا المعاش ولا التأمين الصحى أو التأمين على الحياة، ويمكن فصل العمال فى أى وقت حسب مزاج صاحب العمل.

بعد ساعتين وخمس وأربعين دقيقة من دخول "مايويزر" إلى المبنى وبدء إطلاق النار، منذ اصطحاب الرجل المصاب إلى المستشفى لم يحدث الكثير، سأل "شاندلر" عدة مرات إن كان يمكنه التكلم إلى مايويزر على مكبر الصوت، وشرح أنه كان زميلاً لمايويزر فى المدرسة، لكن القائد لم يقتنع بأنها فكرة سديدة، وما زالت الشرطة تحاول الاتصال بالزوجة الغائبة، وأشقاء "مايويزر". شخص قريب من "مايويزر". قال شاندلر:

"أشعر بالقرب من آل "مايويزر". أعتقد أننى قادر على حمله على رفع سماعة الهاتف".

(أهذا صحيح؟ لم يكن "شاندلر" واثقًا، وهو يسمع نفسه يقول هذه الكلمات بصوت ملح واثق، أحس أن الأرجح أنه صحيح).

أصبح شاندلر ـ مثل الآخرين ـ عصبياً وقلقًا، بدأ تدفق الأدرينالين يتراجع، مثل جزر بحرى هادئ، تتراجع الموجات وتترك الرمال مليئة بالبقايا والركام. "شاندلر" قلق لأن رأسه بدأت تؤلمه، هذه نقطة ضعفه، أو واحدة منها.. الألم النابض وراء عينيه والإحساس المتزايد بالحسرة واليأس. *لماذا مات. أبى. لماذا.. مثل جرذ محاصر. كنت أحبه! أشتاق إليه.*

لقد خذل "رويال".. "رويال" الذى نادى عليه وتكلم إليه بطريقة لن يكلم "شاندلر" بها من قبل.

"رويال" و"جولييت". كان حاميهما. "آريا" رجته منذ خمسة عشر عامًا، بالطبع وعدها، الأفضل أن يخون الموتى على الأحياء.

فكر "شاندلر" فى "ميليندا" التى لا تعجب "آريا"، وطفلة "ميليندا"، التى لا تعرف "آريا" عنها إلا القليل، تعجب من عداوة أمه لامرأة لم تقابلها قط، لأن طفلة المرأة لن تكون حفيدة "آريا"؟ ربما هذا هو السبب، طفلة ربما يحبها "شاندلر" وليست من صلب "شاندلر" ولا من صلب "آريا".

الأسرة هى كل شىء. كل ما على الأرض.

عربات المحطات التليفزيونية تتوافد منذ وصول "شاندلر"، واصطفت على طول شارع سوان، خلف خط عربات الشرطة يتحرك رجال الإعلام وهم محبطون من قلة الحركة، والحاجة للبقاء على بعد، هؤلاء محترفون ذات طبيعة مختلفة تماماً عمن هم لدى الموقع.. رجال إعلام يرون موقف الطوارئ فرصة، "أخبار" يجب استغلالها، كما أنهم بدورهم عصبيون، لكنهم ينتظرون فى أمل، ها نحن ذا! الآن، سيحدث شىء مثير، والأشخاص الأكثر تطفلاً هم من جاءوا فى عربة مكتوب عليها "إن إف

دبليو دبليو تى فى" ـ قناة الحركة، القناة الرابعة" هذه قناة محلية على صلة بشبكة الـ "إن بى سى". وبينهم مصور يحمل أداة على شكل مدفع البازوكا فوق كتفه، ويصوبها نحو أهداف متحركة مختلفة، وبالتدريج وسريعًا ومع غياب الشمس وحلول الليل بدأت إنارة موقع الأحداث، أضواء مبهرة تعمى الأبصار لها ظل أزرق مخيف، تتوقع أن تسمع معها ألحانًا قوية لجيتار فرقة روك، ثم أضيف نوع من الحدة السينمائية على طبيعة المشهد بسبب الإضاءة، بينما على هدى نور الشمس فى فترة العصر من شهر مارس، تبدو الأشياء غائمة وغير ذات أهمية.

مُراسلة شابة أنيقة تعمل مع "إن إف دبليو دبليو تى فى" فى معطف محاط بحزام ضيق وفم قرمزى وعينين كعينىّ كليوباترا، تحاول مداهنة ضباط الشرطة والعاملين الطبيين لكى يتكلموا فى الميكروفون أمام الكاميرا، لكنها لم تلق نجاحاً يذكر. شاندلر يعرف أن هدف الإعلام هو الحصول على أكبر قدر ممكن من المقابلات المصورة والتغطية بالكاميرا، وفيما بعد يتم إضافة المونتاج وتقطيع المشاهد وتشويهها لكى تضفى طابعاً دراميًا فى أثناء البث من الأستوديو "سيد "شاندلر"؟ أنت رجل الأزمات، أليس كذلك؟ هل لى أن أكلمك؟".. صوت الشابة يتسرب إلى "شاندلر" الذى تراجع ورسم على وجهه ابتسامة مهذبة وقال: "عذراً، لست السيد شاندلر، وآسف، لا أريد التحدث إليك الآن، لا يبدو الوقت مناسبًا".

ـ لكن لم لا؟

ـ لأنه ليس كذلك.

ـ لأن المسلح ما زال بالداخل والرهينة و..

أشاح "شاندلر" بوجهه متمنياً أن يحبطها، تجاوزته إلى غيره.

كديدن المحترفين.. أصبح "شاندلر" يكره العاملين بالإعلام المتلهفين دوماً بسبب تدخلهم واستغلالهم للأحداث، هناك الكثير من الأمور المعروفة التى يمكن قولها عنهم، ويمكن الإحساس بشىء من التعاطف معهم أيضًا، لكنه لا يثق بهم ولا يسعه هذا، فى بداية عمله التطوعى كان

"شاندلر" بسذاجته يعتقد أن التغطية الإعلامية لهذه الحوادث قد تساعد، وربما كانت تعليمية وتوجيهية، لكنه غَيَّر رأيه منذ ذلك الحين، فى العام السابق أجريت مقابلة مع "شاندلر" من قبل محطة "إن إف دبليو دبليو تى فى" لبثها فى نشرة الأخبار المسائية ولم يعجبه بالمرة ما رآه. فكرة أن يتم تعريفه على أنه "شاندلر برنابى" معلم العلوم فى مدرسة "لا سال"، المتطوع فى الأزمات" بدت له فكرة مرعبة، مثل الترويج لنفسه واسمه. كره صوته وابتسامته وسلوكه العصبى وشفافية ووضوح غروره، وأنه نجح فى مسعاه فى ذلك الحين، والأسوأ أن "ميليندا" شاهدته على التليفزيون قبل أن تواتيه فرصة الاتصال بها، وكانت غاضبة، غاضبة أكثر مما توقع.

لكن كان تواضع "شاندلر" صادقًا. يخشى مديح الإعلام له ثم إن يفشل على الملأ بشكل مشين، كان يعرف مقدار السخرية والتعاطف الرخيص الذى قد يتولد عن قتله بالرصاص فى أثناء "إنقاذه" لآخرين.

خاصة وهو فى سن السابعة والعشرين كان يشعر بالتواضع مع السامريين، هذه المنظمة مسيحية بقوة، وهى جمعية لمنع الانتحار بدأت نشاطها فى إنجلترا منذ عشرات الأعوام ولها فروع فى الولايات المتحدة، السامريون كانوا محترفين وغير محترفين، لكنهم جميعاً من المتطوعين، يجب تدريبك والتدريب شاق، يحتاج العمل بخط نياجرا الساخن للأزمات وحده دورة تدريبية من خمسة أسابيع، ولم يكن العمل بها مناسباً للزوجات اللاتى تشعرن بالملل أو المتقاعدين الباحثين عن شىء يشغلون به أوقات الفراغ.

"سيد برنابى؟".. حصلت المذيعة على اسم "شاندلر" ونطقته وهى تشعر بالتمكين والقوة. فجأة أصبحت أمامه وفى يدها الميكروفون وكأنه صولجان، تكلمه بصوت خفيض فيه الكثير من الاحترام: "هل حقاً تعرف ألبرت "مايوزر"، المسلح الذى اتخذ سينثيا "كاربنتر" رهينة وأصاب بالرصاص مشرف العمال فى هذا المصنع..؟" ابتعد "شاندلر" عنها ووجهه مدرج بالحمرة وهو فى غاية الانزعاج.

- "سينثيا كاربنتر" الرهينة، التى لم يكن "شاندلر" قد سمع اسمها بالكامل إلى الآن.

حاول أن يفكر: هل يعرف أى من آل "كاربنتر"؟

بعض أفراد عائلة "كاربنتر" هنا فى موقع الحادث، وبعضهم على مسافة بعيدة، فى أمان. لاحظ "شاندلر" وجود زوجين متقدمين فى العمر فى الخمسينات أو الستينات، يبدو عليهما الذهول والرعب (لكنهما ليسا من آل "مايويزر؟) راح "شاندلر" يفكر أنه - وجهاً لوجه - يمكنه التكلم إلى المسلح وتهدئته، آل "مايويزر" الذى يعرفه (تقريبًا)، أحد الصبية الكبار الذين تبتعد عن طريقهم إذا أمكنك. ليست المشكلة أن آل مايويزر كان سيتكبد عناء تعذيب "شاندلر برنابى" الأصغر منه بأعوام كثيرة، المشكلة أن "مايويزر" وأصحابه يصخبون فى ردهات المدرسة وعلى السلم وفى الكافيتريا. "مايويزر"، أو الصبية من أمثاله، فى حجرة خزائن التلاميذ بعد حصة الألعاب يخلعون ثيابهم للاستحمام ويضجون بالضحك ويتصايحون ويقرصون بعضهم البعض من الذراع ويتدلى قضيب كل منهم مثل سجق أحمر دموى.

إذا استسلم "مايويزر" الآن وأطلق سراح "سينثيا كاربنتر" دون أذيتها، المرجح أن هذا سيلطف من التهم الموجهة إليه، لقد ترك المرأة الحبلى تخرج، إذا لم يمت المشرف ولم يصب بعاهة مستديمة.. تساءل "شاندلر" فيما كان آل مايويزر - وقد أصبح فى سن الثلاثين - يفكر فيه داخل المبنى، أنه محاصر؟ أنه متحكم فى الموقف؟ محاصر لكن (إلى الآن) متحكم فى الوضع؟ لا يتخيل "شاندلر" ما يمكن أن يخبر به رجل نفسه فى موقف يائس كهذا.. أو ما قد يلجأ إليه من أفعال، مع مرور الدقائق، ثم الساعات. لابد من أنه سيبلغ لحظة سيريد فيها التبول بشدة، نقطة حين يصاب بالدوار لأنه لم يأكل، ومن الإرهاق، نقطة يندم فيها للمسيح على ارتكابه هذا الخطأ، وأنه فعل بحياته ما فعله.

سؤال "شاندلر" عن مدى قوة معرفته "بمايويزر" فى المدرسة الثانوية وقال بعد برهة من الصمت: "ليس جيداً، لكن أعتقد أنه يتذكرنى، وأنه سيثق بى، ربما يمكننى إقناعه بالتفاوض على الهاتف".

ما كل هذه الثقة، تساءل "شاندلر" من أين جاءته.

كانت الساعة السادسة مساءً تقريبًا حين حصل "شاندلر" على مكبر الصوت، ثبّت يديه ليمنعها من الاهتزاز. قال له ضابط شرطة أن يتكلم ببطء وبوضوح وأن يبعد عن مرمى أى نيران، لا تتخدع إذا التقط "مايويزر" السماعة وتكلم إليك، ولا تظهر وجهك، حاول أن تحمله على الرد على الهاتف. الهاتف الذى يرن ولا يرد عليه، احمله على ترك الرهينة ويكلمنا. نريد معرفة حال الفتاة.

ـ أجل أعرف.. سأفعل، شكراً لك أيها الضابط.

ازدرد "شاندلر" بصعوبة، تكلم فى مكبر الصوت مرة فيما سبق، لكن الصوت المتذبذب ودرجة ارتفاعه أدهشته لعابه. مثل حلم بالقوة الهائلة التى لا مثيل لها، قرّب "شاندلر" فمه من المكبر وأحس بالدهشة لعظمة صوته، والسلطة التى يحملها ومدى أهميته.

"آل"؟ "آل مايويزر"؟ أنا "شاندلر برنابى"، لقد ذهبنا إلى المدرسة الثانوية معًا.. أنا من حيك، من شارع بلطيق، لست ضابط شرطة يا "آل". أنا مواطن عادى، متطوع. طلبوا منى المساعدة؛ لأننى أعرفك يا "آل"، أتساءل إن كنت تذكرنى؟ أرجوك التقط السماعة يا آل وسوف نتكلم. أريد سماع صوتك. توقف شاندلر عن الكلام. قلبه يخفق فى حماس. أراد الاعتقاد بأن "آل" مايويزر مندهش من هذا الصوت الجديد غير المتوقع، صوت صديق من الماضى. صوت يناديه باسمه الأول ويقول له أرجوك.

عشرة أعوام، ربما أحد عشر عاماً منذ رأى "شاندلر" "ألبرت مايويزر" لآخر مرة، لن يتذكره "مايويزر" أبداً، لكنه كان معه فى نفس مبنى المدرسة. ونشأ معًا فى نفس الحى، ويفيقان من نومهما على نفس صخب عربات القطارات وصفاراتها.

تمنى "شاندلر" ألا يفكر "مايويزر" فى سبب مجيئه الآن.. "ديرك برنابى".. لماذا أصبح مهتمًا به فجأة هذا العصر بعد كل هذه السنوات من الإقامة فى نفس المدينة دون تواصل بينهما؟

"آل"، هلا التقطت السماعة؟ أنا أتصل الآن.

فى واقع الأمر كان هناك من يتصل بالنيابة عن "شاندلر". هناك عدة ضباط شرطة معه داخل الشاحنة ينسقون هذا الإجراء، سمع "شاندلر" الهاتف يرن من الطرف الآخر، تمنى أن تكون "سينثيا كاربنتر" حية. أراد بشدة أن يشعر بقوة الرباط الأخوى مع "آل مايويزر" لكن مايويزر قد أصاب رهينته.

"آل"؟ إننا بحاجة للتحدث، أنت معى؟

تم الاتصال وإعادة الاتصال، كرر "شاندلر" رجاءه الحار، يذكر "آل" من المدرسة الثانوية، وهل يذكره "آل"؟ ويريد مساعدة "آل" الآن، يريد مساعدة "آل" على الاتصال بالشرطة لحل هذا الموقف بأفضل طريقة للجميع، بحيث لا يتأذى أحد، هل "آل" ينصت؟ هل يلتقط آل السماعة؟ إنهم يتصلون ثانية..

اثنتا عشرة رنة ثم فجأة على غير المتوقع، رفع السماعة.

صوت رجل قريب وممتلئ بالريبة فى أذن "شاندلر": "نعم".

اخترقه شاندلر بينما فشلت الشرطة.. نجح "شاندلر".

- "آل؟ ألو"

سيراقب رجال الشرطة المكالمة ويسجلونها، لكن "شاندلر" سيتصرف كأنها مكالمة خاصة وسوف يكون الكلام بينه وبين مايويزر كلاماً حميمًا.

عرف نفسه على أنه متطوع يتبع مركز الأزمات، ذكر أن الشرطة جلبته إلى هنا ليفتح "خطوط الاتصال" ليكتشف كيف يمكن مساعدة "آل" فى هذا الموقف الذى أقحم نفسه فيه، لكن الصوت كان مشروخًا كالحصى يضرب جانب رأس شاندلر: "لا يمكن لأحد مساعدتى، انتهى أمرى" احتج

"شاندلر" قائلاً: لا.. لم يقتل "آل" أحداً، ثم توقف حتى يدع الكلمة تصله. (أهذا حقيقى؟ على قدر علم "شاندلر" ما زال مشرف العمال حياً). قال شاندلر: "لقد تركت امرأة، المرأة الحبلى، وهذا فى صالحك يا "آل". هذا ما يقوله الناس الآن. "وسينثيا كاربنتر" الشابة التى معك الآن، إنها بخير، أليس كذلك؟"

مرت برهة من الصمت ثم غمغمة غير مسموعة.. قال "شاندلر": "آل"؟ لم أسمعك.."

انتظر لثانية أو اثنتين، ثم بدأ يتكلم وكأن شيئًا لم يحدث، لديه معلومات مهمة يذكرها، ويفترض أن "مايويزر" على الجانب الآخر من الخط، كان ينصت بذهن صاف بما يكفى ليميز ما يقال له. قال "شاندلر" لمايويزر إن أبوى الفتاة ينتظران ها هنا، وإنهما منزعجان للغاية، فهل يضع "آل سينثيا كاربنتر" على الهاتف؟ وقال بصوته الهادئ الصادق، صوت الصديق الذى يثق به المرء: "آل، سيحدث هذا فارقاً هائلاً، صدقنى، إذا تعاونت الآن.. يتكلم الناس عن الشىء الكريم الصالح الذى فعلته، حين أطلقت سراح المرأة الأخرى.." قاطعه "مايويزر" فى صوت عنيف محزون: "أبداً، أبداً لا يمكن أن أؤذى امرأة. هل زوجتى موجودة؟"

الزوجة.. لا شك أن هذه الدراما (الغائبة، المبعدة) هى السبب. فى نهاية المطاف كل أشكال الدراما تدور حول الأسرة.

قال "شاندلر": "لم تصل زوجتك بعد يا "آل". إنهم يحاولون الاتصال بها.. هل تعرف أين زوجتك؟" قال "مايويزر" فى سخرية: "وكيف أعرف أين "جلوريا". لا أعرف، حاول الاتصال بأبويها، بحبيبها". استمر مايويزر فى الكلام لبرهة فى لهجة حزينة غاضبة مبدياً أسفه على حاله، وخطر لشاندلر أن هذه علامة مبشرة، من الواضح أن مايويزر لم يقتل زوجته قبل المجئ إلى هنا ليطلق النار فى المصنع، قال "شاندلر": "لكن حتى تصل يا "آل"، أين "سينثيا كاربنتر"؟ لابد أنها خائفة للغاية، ربما هى بحاجة لرعاية طبية، ألا تعتقد أنها ستكون فكرة سديدة لو تركتها تتكلم فى الهاتف؟

أبواها قلقان للغاية ويريدان الاطمئنان عليها.." انتظر "شاندلر" وكرر طلبه، كان يعرف من خبرته السابقة أن التكلم بالمنطق مع الشخص المتحمس أو المشوش مثل محاولة التجديف بقارب صغير وزميلك فى القارب لا يعرف التجديف، يتحرك القارب إذًا فى هذا الاتجاه ثم ذاك، وعليك أن تحافظ على مسارك بإرادة قوية، وإيمان شديد بأن النتاج سيكون "جيدًا"، فلا تتردد ولا تراودك لحظات من الشك أو القلق، كان "شاندلر" يعرف مدى أهمية هذا، إذا وقع شىء ما" لسينثيا كاربنتر" فليست لدى "مايويزر" أية قدرة على التفاوض، يجب أن تكون الرهينة حية "آل"؟ اسمعنى.. الناس قلقون على "سينثيا كاربنتر" كما قلت، يمكنك أن تتخيل هذا، أليس كذلك؟ لذا إذا تركتها تتكلم ولو للحظة.." أحس "شاندلر" بالدوار والابتهاج فى الوقت نفسه، وكأنه يعبر على سلك رفيع فوق الشلالات على ارتفاع بالغ. فوق تجمهر من الغرباء المشدوهين.. يريدونه أن ينجح، لكنهم ينتظرون سقوطه، الأداء على سلك رفيع مرتفع عرضة لخطر التعثر أو السقوط، حركة واحدة خطأ ويتعثر "شاندلر" ويسقط، وسوف يسقط "مايويزر" معه. "آل"؟ هل تسمعنى؟ إذا كنت تسمع.." سمع مايويزر يتكلم إلى غيره لكنه لم يسمع رد الآخر.

لم تكن الشاحنة مكيفة وبدأ شاندلر يعرق.

سينتظر، وسوف يحاول مجدداً ومرة أخرى. طالما الشرطة تسمح له.. هذه مهمته.

حتى أخيرًا بعد دقائق من الإحباط، صاح "مايويزر" ما بدا مثل: "ها هى!" ثم سمع على الخط صوتاً حاداً خائفًا: "آلو؟" كانت "سينثيا كاربنتر". مبهورة الأنفاس، يكاد لا يسمعها، وتقول "لشاندلر" أنها بخير.. "متعبة نوعًا وخائفة".. و"ترجو ألا تطلق الشرطة النار على المبنى" طمأنها "شاندلر" بأن الشرطة لن تطلق النار على المبنى، فسلامتها هى الأساس. قالت "سينثيا كاربنتر" فى يأس: "هذا الرجل لم يؤذنى، أقسم على هذا، تركنى اذهب إلى الحـ.. حمام، لم يؤذنى، أقسم على هذا، لكن يقول".. بدأت تبكى. لم يرغب "شاندلر" فى الاعتقاد بأن "مايويزر" يوجه الآن بندقية إلى رأسها.

أحس للمرة الأولى بالرعب المعوى للموقف، لم يكن خوفاً يخص "مايويزر" الذى كان يعرفه وهو صبى فى المدرسة الثانوية، بل على "سينثيا كاربنتر" الرهينة التى لا يعرفها حتى الآن، ويسمع صوتها ويشعر بتعاطف رهيب معها، فى أكثر لحظات حياتها رعبًا، الأرجح أن "مايويزر" ضربها، مؤكد أنه أرهبها، وهددها بالقتل وهى لا تعرف فى هذه اللحظة إن كانت سيسمح لها بالعيش أكثر من هذا، فكر شاندلر فى شقيقته "جولييت"، وأحس بدفقة من الغضب والكراهية "لمايويزر".

أيا يكن ما ستفعله الشرطة بابن الحرام هذا فهو يستحق.

لكن لا. "مايويزر" أيضًا ضحية يجب أن يشعر "شاندلر" بالتعاطف مع مايويزر أيضاً.

حاول أن يبقى "سينثيا كاربنتر" على الهاتف.. كانت تبكى وتشهق وتعب الهواء لتلتقط أنفاسها.. بث "شاندلر" فى كلامه أكثر ما يقدر عليه من الإحساس بالطمأنينة فى ظل هذه الظروف. أبواها هنا وهما مسروران للغاية لأنها "على ما يرام" ولا، الشرطة لن تطلق النار على المبنى لأن سلامتها هى الأهم.. وسوف يبذلون ما يقدرون عليه من جهد ليطلقوا سراحها، لكنهم بحاجة لمعرفة ما يتوقعه آسرها مقابل إطلاق سراحها. "السيد "مايويزر" لا يكلمنا بشكل مفهوم يا آنسة "كاربنتر". ربما إذا.."

تم أخذ السماعة من "سينثيا كاربنتر" وبدأ "مايويزر" يتكلم فى حماس، أخبر "شاندلر" سيترك الفتاة تغادر إذا جاءت زوجته وبدلت الأماكن معها.. فهو "يريد التكلم فحسب" إلى "جلوريا". كرر "شاندلر" أن "جلوريا" ليست موجودة بعد، وأن الشرطة تحاول الاتصال بها، وحين تفعل فسوف يتكلم "آل" إليها على الهاتف، قال "مايويزر" إن هذا الهاتف لا يكفى، وإنها ستغلق السماعة وإنه يريدها معه، ويريد أن يشرح لها أن ما يحدث هو غلطتها، لأنه أحبها وهى لم تحبه، وإن هذا خطأها وهى تعرف هذا، أنصت "شاندلر" فى تعاطف. ثم فجأة تغير رأى "مايويزر" وقال إنه سيترك الفتاة تغادر فقط إذا تم إطفاء الأنوار بالخارج وإذا تراجعت

الشرطة وتركته يصل إلى سيارته، ووعدته "بالمرور الآمن" خارج المدينة. لا أسلحة ولا حواجز طريق ولا طائرات هليكوبتر. "ستكون الفتاة معى، أترى؟ سأتركها تغادر حين أقدر، ربما فى كندا".

ـ "كندا!" مسح "شاندلر" وجهه المبتل بمنديل ورقى.. "ربما يصعب تدبير هذا.. فهناك الجسر والحدود.."

لم يكن "مايويزر" ينصت إليه، غَيَّر رأيه مرة أخرى، لم يكن عقلانيًا بالمرة، ويتكلم بسرعة وحدة كالأطفال.. هل" مايويزر" مضطرب عقلياً؟ لم يبد مخمورًا لكن ربما مُخدر، نظر "شاندلر" إلى ضباط الشرطة الذين كانوا يراقبونه.. ماذا يقول؟ ماذا يفعل؟ "مايويزر" يصخب ويقول كلاماً مجنوناً. المزيد عن "جلوريا" والأولاد.. المزيد عن معرفة "جلوريا" أن هذا خطأها، لابد أن هذا علامة على اضطراب مايويزر العقلى، إذ يبدو أنه لا يذكر لماذا جاء إلى المصنع، ولا لماذا أطلق النار على رجل، وأنه كان قد خطط لقتل رجل آخر، تركه "شاندلر" يتكلم، كما يبتعد الملاكم عن مرمى لكمات خصمه حتى يشعر بالإرهاق. وحين أصبح يتوقف عن الكلام كثيراً، ويكرر كلامه، تولى "شاندلر" زمام المحادثة. وتزايد إحساسه بأنها مكالمة خاصة حميمية.

كرر "شاندلر" أن الشرطة تحاول الاتصال بالسيدة "مايويزر" لكن فى هذه الأثناء على "آل" أن يتذكر أنه أب أيضًا، ربما هذا يأتى فى المقام الأول، كونه أباً، لديه حياة أطفاله ليفكر فيها.. أسرته ليراعيها.. الناس الذين يحبونه والذين سيتألمون مما سيحدث له لو أصيب، وكيف أنهم يحبونه ولا يريدون أن يلحق به الأذى، وأنه لم يتماد ويمكن إنهاء الموقف وتحويله لصالحه، وسوف يكون هناك محام لحماية حقوق "آل"، أو محام عام إذا لم يكن قادرًا على تحمل أتعاب المحامى، وسوف يخدمه القانون، شاندلر سيتأكد من حدوث هذا بنفسه، راح "شاندلر" يتكلم فى سرعة وقد أحس بالإلهام وإن لم يكن واثقًا تمام الثقة مما يقوله، بخلاف أنه قد بدا وقعه على أذنه جميلا، أحسه معقولاً حقيقيًا، وبدا أن "مايويزر" ينصت،

ويشعر بأنه الآن يمسك بقوة بسماعة الهاتف وينصت باهتمام "يجب أن تبقى حيًا من أجل أطفالك ولكى تبقى ذكرى أبيهم ناصعة يا "آل".. هذا ما يجب أن تفعله. ذكرى الأب يا "آل".. إننى أذكر أباك".

فى هذه اللحظة هُيئ "لشاندلر" أنه يذكر والد "آل مايويزر". ربما كانا يتكلمان.. فى الحى، فى زمن قضية أوكسيكيميكال.. صور العمال الفوتوغرافية فى الصحف، ليس سرطانًا بعد.. ماذا؟ تورم فى الرئة. وربما كانت سرطانًا أيضًا.. سرطان دم؟ شاندلر يذكر: بدا له مايويزر عجوزاً للغاية، أصلع ووجهه متهدم هرم، لكن الأرجح أنه كان فى الخمسين.. رجل مُسمم يموت فى سن مبكرة.

ـ "ماذا قد يحسب أبوك يا "آل"؟ يريدك أن تفعل الشىء الصحيح وأن تدع الفتاة تغادر، أليس كذلك يا "آل"؟ كان والدك يرغب فى هذا".

راح "شاندلر" يتكلم والدموع تلسع عينيه، لكن لابد أنه تكلم لوهلة على نحو مقنع، إذ أنه بعد قليل غمغم "مايويزر" ما بدا مثل: "حسناً". نقطة التغير فى هذا الموقف الساكن. الآن ستحدث الأشياء بسرعة كما يحدث فى مثل هذه المواقف.. مثل ذوبان الثلج.

لدى مدخل الباب المسلطة عليه الأضواء ظهر من بعيد، يتحرك فى تردد، سرت همهمة بين الجميع لكنها سكتت فجأة، الفتاة الشابة، تبدو صغيرة للغاية، ترفع كلتا يديها لتحمى عينيها من الضوء المبهر، تقدمت فى بطء وهى تترنح وكأن الأرض تتمايل تحت قدميها. (كانت حافية القدمين وترتدى جوربها. هذه التفصيلة الغريبة سيذكرها "شاندلر" طويلاً فيما بعد وتختلط عليه كما تختلط العناصر فى الأحلام هل فقد حذاؤه بطريقة ما؟ فى شاحنة الشرطة؟) رفع رجال الشرطة بنادقهم وصوبوها، وهم يحضرون لإطلاق النار فيما وراء الفتاة المذعورة، كانت هذه اللحظة التى ينتظرها الجميع لكنها ليست لحظة تثق بها.. لحظة تليفزيونية أو سينمائية، لكن دون سيناريو. ومع عبور سينثيا كاربنتر الطريق فى قدميها ذات الجوربين، على الممشى الخالى من العشب، كان الجميع يتوقعون

ويخشون أن فى هذه اللحظة ومع مراقبتهم جميعاً لما يحدث، سوف يبدأ المسلح فى إطلاق النار، وربما يطلق النار على أعدائه من حول الفتاة، أو لعله سيصوب على ظهرها. لكنها تقدمت لا تنظر ذات اليمين أو اليسار، تتقدم فى تردد إلى الظل الواقع على أطراف النور حيث أمسكها رجال الشرطة الجالسون القرفصاء ومضوا بها إلى الأمان، وعانقها أبواها الباكيان.

وهكذا انتهى الموقف، انتهت دراما الرهينة.

هكذا انتهت نهاية سعيدة، وربما كانت تنتهى نهاية أخرى.

رمية زهر، كذا خطر "لشاندلر". فى النهاية علاقة ما حدث به ضعيفة.

سيفكر "شاندلر" طويلاً فيما بعد كم كانت "سينثيا كاربنتر" مدهشة! فتاة فى العشرين، تتقدم عبر مجال مكشوف تحيط به الرصاصات والموت وهى ترتعد، ووجهها الشاحب الناعم وكأنه ذاب، وعيناها ملطختان بالسواد وبقايا الكحل وشعرها أشعث، لكنها نجحت، انتصرت، لأنها هى التى سارت مبتعدة لتفر بحياتها ولسوف تصبح حياتها فيما بعد ثمينة عليها.. معجزة مُنحت إياها دون غيرها. وهذه المعجزة ستبقى محفوظة ومسجلة على أشرطة الفيديو إلى الأبد، وبينما لم تقدر على الكلام ستبقى صورة "سينثيا كاربنتر" باقية أبدًا. تعويض بسيط على محنتها على يدى رجل مجنون، وسوف تبقى "سينثيا كاربنتر" فى التراث الشعبى إلى الأبد.

والآن من المتوقع أن يستسلم الرجل المسلح القابع داخل المبنى.

ـ "استسلم".. تخلى عن وسيلة دفاعه أو عن حياته.

استسلم، أو قتل نفسه.

فى حومة حماس لحظة إطلاق سراح الرهينة فقد "شاندلر" اتصاله "بمايويزر". انتهت المكالمة، وحين اتصل ثانية لم يرد أحد. أحس "شاندلر" بالذعر ربما قد أصاب "مايويزر"، وراح يداعب أزرار مكبر الصوت محموماً.

أخذ يعرق بغزارة قميصه الأبيض الذى ارتداه فى ذهابه إلى المدرسة هذا الصباح مبتل من تحت الإبطين وعلى صدره. كان قد خلع ربطة عنقه منذ فترة طويلة ويعتقد أنه رمى بها فى جيبه، لكن ربطة العنق ذهبت.. فقدها، نزل عنقود من العرق أسفل وجنة "شاندلر" وكأنه دمعة لزجة طويلة.. *"آل"؟ معك "شاندلر" ثانية. "آل"، شكراً لك.. شكراً على إطلاق سراح الفتاة..* كان ما قاله غريباً، لكن كان عليه أن يقوله، سيطر على المسلح الذى احتجز امرأة شابة سجينة لديه تحت تهديد السلاح لساعات، سوف يشكره على إطلاق سراحها، وسيكون امتنانه له صادقًا أصيلاً. *"آل"؟ اين أنت، هلا رفعت السماعة؟ إننى أتصل.. لم يرفع السماعة، أعيد الاتصال بالرقم مجدداً لم يجب. "آل" كلمنى! سينتهى هذا الموقف على خير، بعد أن أطلقت سراح الفتاة ويرى الناس أن نواياك جيدة، لكن الآن يجب أن تتخلى عن أسلحتك يا "آل"، مفهوم؟ حتى لا تتأذى يا "آل". يمكنك الخروج، سيحتجزونك لكن لن تصاب بأذى يا آل. فكر فى أسرتك يا آل. اطفالك، أبيك. كان رجلاً شجاعًا، اذكر اباك. ما كان يجب أن يموت شاباً هكذا. كان يرغب فى الحياة يا "آل". اريدك أن تعيش. لم تعد من ضرورة للبقاء فى هذا الحصار يا "آل". أنت ذكى وتعرف هذا، تريدك الشرطة أن تتخلى عن أسلحتك، أن تتركها على الأرض بالداخل وأن تتقدم إلى الباب فى بطء. دعنا نراك يا "آل". أنا هنا، أنا هنا اراقبك، مد يديك وأرفعها إلى حيث نراها. كل شىء على ما يرام يا "آل"، كما ترى تركت الفتاة وفى هذا كل الاختلاف، لم يُقتل أحد، ولم يصب أحد بأذى خطير، والفتاة تقول إنك عاملتها معاملة جيدة..* هكذا راح "شاندلر" يتكلم فى صدق، مع إحساس متزايد باليأس.. لكن لا مجيب.

تم الاتصال به مجدداً، وهذه المرة كان الخط مشغولا.

"آل"؟ أرجوك.. ضع السماعة مكانها، كلمنى.. أريد أن أتكلم إليك بشدة.

كسرعة ذوبان الثلج تحركت الأزمة، لكن يبدو أن "شاندلر" لا يوجهها، يشعر "شاندلر" كيف يفقد تحكمه فى الموقف، ذلك الإحساس بالقوة الذى

أحسه، لدقائق قليلة تمتع بتلك القوة، مثل شعلة صغيرة، لكن الآن الشعلة تترنح وتتراجع، بدأ "شاندلر" يرجوه. *"آل"؟ يمكنك أن تثق بى يا "آل"* . *لقد وعدوا بألا يؤذوك.. وعدوا إذا* .. خمن "شاندلر" أن الشرطة ستمنحه دقائق أخرى، ثم توقف محاولة التفاوض هذه، لم يعد لدى الرجل المحاصر أى شىء ذات قيمة ليتفاوض حوله، بخلاف حياته، وربما بعد هذه الساعات من التوتر والإرهاق والغضب الذى كتمه هؤلاء المحترفون وإحساسهم بالاشمئزاز منه، ربما لم تعد حياة "آل مايويزر" ذات قيمة تذكر، ستبدأ الشرطة فى ضرب حصارها، ويرمون بقنابل الغاز المسيل للدموع وإخراج هذا الرجل المقبور لا محالة. عشرات من الرجال المسلحين و"مايويزر" وحيد، أحس "شاندلر" باليأس يهاجمه، لا يمكنه أن يفشل الآن.

رمية زهر.. لم لا؟ لا علاقة للأمر به.

فى حماية شاحنة الشرطة، تحميه الأنوار التى تذهب بالأبصار، وكذلك الزجاج المضاد للرصاص.. مال "شاندلر" بعنقه للأمام ليطل على الجزء الأمامى من المبنى. قبح خرسانى غسلته الأمطار كثيرًا، على هدى النور الأزرق البراق يبدو المشهد وكأنه ثنائى الأبعاد، له مظهر شىء سيتم تفكيكه فى وقت قريب. يجب أن يتصرف "شاندلر" سريعاً وبشكل حاسم، وإلا سيأخذون منه كل هذه السلطة، وسوف يعود إلى حياته الصغيرة الضئيلة ثانية.

تساءل "شاندلر" أين "مايويزر": هل زحف إلى خارج الحجرة التى حاصر نفسه فيها آمناً لساعات؟ هل تبع سينثيا كاربنتر إلى المدخل الأمامى؟ هل يقف الآن خلف النافذة المحطمة وشظايا الزجاج تطل من حلقها مثل الأسنان؟ كم هو مشحون بالمعانى هذا المشهد.. فى خضم قوة هذه الدراما التى لا معنى لها بالمرة. *الحياة الصغيرة الضئيلة. الحياة الحتمية. الحياة التى تنتظر*. حتى وهو يطل بعينيه أدرك شاندلر أن جانب إبصاره قد ضاق. حتى مع حدة إبصاره التى زادت فى وسط مجاله البصرى، أصيب بالعمى من الأطراف. لكن.. ها هو أصبح وعاءً للطاقة

المجنونة. كان يعرف.. كان يعرف!.. أن دوره هو أن يتكلم إلى "آل مايويزر" وجهاً لوجه.

لينقذ "آل مايويزر". كما أنقذ الرهينة.

هذه الدقائق الطويلة المرهقة منذ ناولوه مكبر الصوت.. منذ بدأت و"شاندلر" جالس فى شاحنة الشرطة، داخل كومة الظلال. قبل أن يتمكن أى أحد من منعه تقدم إلى الخارج.

بصوته الإنسانى الهش الضعيف قال: "آل"؟ هذا أنا "شاندلر".

خرج بجرأة إلى المجال المضاء أمام المبنى، لم يكن أى منهم سريعًا بما يكفى للإمساك به. سمع صيحات واحتجاجات من حوله، لكن "شاندلر" استمر فى التقدم إلى الأمام وقد رفع ذراعيه لأعلى، لم يكن معه سلاح بالطبع، سيكشف نفسه "لآل مايويزر" دون حماية، يعرف أنه يفعل الصواب، *فى سويداء قلبه النقى لن يفشل فى فعل الصواب*، حتى مع مناداة الشرطة عليه ومطالبته باللجوء إلى الاختباء وهم يسبونه، حتى مع تحول كاميرات التليفزيون نحوه، ناداه: "آل"؟ هل يمكن أن أدخل لأكلمك؟ أريد أن أكلمك بشدة.." على بعد أقل من عشرة أقدام من الباب الموارب.. هُيئ "لشاندلر" أنه يرى حركة بالداخل، لكنه لم يكن على يقين، ضاق مجال بصره للغاية، وكأنه ينظر من وراء عدسة تليسكوب، ما رآه كان دائرة صغيرة كثيفة إلى أقصى حد، لكنه لا يعرف حقيقة ما يراه، لا يمكنه أن يمنحه اسمًا، الهدير فى أذنيه يرتقى أعلى وأعلى، تجاوز نقطة اللاعودة، ويقترب سريعًا من الشلالات، عند أطراف وعيه يسمع أصوات تنادى اختبئ! لكنها كانت بعيدة.. صيحات غرباء.. يجب أن يظهر "لآل مايويزر" ألا علاقة له بالغرباء، وكم أنهما على علاقة وثيقة، مثل الأشقاء.. بتاريخهما المشترك.

ثم انبعث صوت انفجار واحد حاد.. طلقة نارية.

على شاشات التليفزيون هذا المساء، *صنع الرجل معجزة وأنقذ حياة ابنتنا، لقد دعونا ودعونا، وأنقذها هو*، هذا ما سيقوله السيد والسيدة

"كاربنتر" عن "شاندلر برنابى". لكن "شاندلر" لن يرى المقابلة التليفزيونية أو المقابلات الأخرى. ولا التغطية الحية لموقع الأحداث التى ظهرت على شاشات القنوات المحلية الثلاث.

* * *

تراجع مد الأدرينالين.. الحطام القديم الاعتيادى لحياة صغيرة ضئيلة انكشف.

قطرات المطر تضرب زجاج السيارة الأمامى، كان عليه السير بطيئاً، على أية حال فالألم ينبض وراء عينيه، تأخر ساعة ونصف الساعة ولم يتصل ولا مرة واحدة. الاتصال بامرأة تحبها، أو تكاد تحبها أو تتمنى أن تحبها.. لتفعل هذا عليك تخيل ما ستقوله لها، و"شاندلر" كان خاليًا من الكلمات.. أرهقه مكبر الصوت. وكأنه قضيب هائل سخيف. نمسك بمثل هذه الآلات فى عجب وننحيها جانباً فى حسرة.

يمضى إلى شارع ألكوت إلى شمال وغرب شارع ١١حيث تستأجر "ميليندا" شقة فى الطابق الثالث لما كان يوماً بيتاً متعدد الطوابق، على بعد خمس دقائق بالسيارة من مستشفى جريس التذكارى حيث تعمل، كانت الساعة تعدت الثامنة مساءً، اليوم بدأ مبكرًا "لشاندلر"، بعد السادسة صباحاً بقليل، فى تلك المرحلة الأخرى من وجوده الذى كان.. الوجود الدمث الموثوق.. الـ"سيد برنابى" الذى يعلم العلوم لتلاميذ الفرقة التاسعة فى مدرسة "لاسال". أجره أقل من أجر حارس المدرسة لكنه يتفهم أنه ليس فى هذا أى شىء شخصى. *السيد "برنابى"، أنت هو العب بأوراقك التى تصل ليديك والزم الصمت.*

سيقولون عن "شاندلر برنابى" إنه كان بطلاً، وإنه أنقذ حياة الفتاة الشابة. لكن "شاندلر" يعرف الحق.

لم يشغل راديو السيارة، ولن يفعل. لا يريد الاستماع إلى الأخبار المحلية. فى الصباح عليه أن يقرأ الصفحة الأولى من الجازيت، فلا مناص من هذا.

أحس بالغثيان والاشمئزاز. آلمته عيناه. هذا عقابه على صعوده إلى الحبل الرفيع.. هذا الفشل.

وهكذا حاول أن يفكر فى الطفلة.

طفلة "ميليندا"، التى لم تكن طفلة "شاندلر" رجل آخر هو والد هذه الطفلة، أنجبها ورحل. قبل مولد الفتاة فى أول الحمل.. لا يفهم "شاندلر" مثل هذا السلوك، لكنه يعرف أنه ليس غريبًا عن المألوف، كان زوج "ميليندا" الذى تطلقت منه منذ وقت قريب طالباً يدرس الطب فى جامعة بافالو، وأصبح الآن متدربًا فى هذه المنطقة، لم يحصل على أى حقوق حضانة للطفلة، ولم يكن يرغب فيها. ستقول" ميليندا" فقط إن الزيجة لم تنجح، وإنها لم تخطئ.

أنت؟ أنت من ارتكب الخطأ؟

إنه حكمى.. أسأت الحكم.

النتيجة كانت ـ حسب كلام "ميليندا" القوى الحازم -إنها لن تخطئ الحكم مرة أخرى.

الطفلة "دانيا". التى كانت "آريا" (وهذا على سخفه حقيقى) تغار منها، بحيث لم يعد "شاندلر" يجرؤ على ذكر الطفلة أو ميليندا أمام أمه.

ـ أحبك.. أتعرفين من أنا؟

لم تكن تعرف بالطبع من هو بالضبط "ديرك برنابى" فى حياة "دانيا"؟

أحس "شاندلر" بشىء من التحسن، وبقدر أقل من القنوط، وهو يفكر فى "دانيا". الجسد الدافئ الصغير ساخن للغاية أحياناً وكأنه حياة كاملة، عمر.. دخل كاملاً إلى هذا الجسد الصغير المضغوط.

العينان مفتوحتان واعيتان بما يدور.. تتحركان فى فضول ويقظة، لا تشبع مما تراه.

تقريباً حين يحمل "دانيا" يشعر بالطفلة تلتهم منه معلومات، فى جوعها لامتصاص العالم بالكامل.

يمكن أن تكون طفلتى.. يمكن أن تحبنى كأب ولست مطالباً بتبرير حياتى.

لكن حين وصل"شاندلر" إلى شقة "ميليندا" لم يعد الأمر كذلك، لا.. بل هو مطالب بتبرير حياته.

الأرجح أنه كان يعرف، يتوقع مثل هذا المشهد، ولهذا لم يتصل.

واجهته "ميليندا" لدى الباب بوجه مشدود غاضب، كانت امرأة قوية ريانة الجسد تكبر "شاندلر" بعامين، وجهها جميل صريح جذاب، وشعرها دون لون مميز، قد يكون بنيًا شاحبًا وقصيرًا ليناسب طول قبعة الممرضات، كانت متوسطة الطول، تبلغ خمسة أقدام وأربع أو خمس بوصات، لكن تبدو صلبة قوية الشخصية، وكأنها أطول قامة، وكأنها وبرغم أنها امرأة شابة حساسة دافئة، يمكنها فى الوقت نفسه أن تفصل نفسها عما يدور فى سرعة مذهلة، لتنأى بنفسها عن موقف يكون فيه الآخرون مغمورون بالمشاعر، قابلها "شاندلر" فى ظروف بالغة الرومانسية.. فى الوحدة، حيث ذهب ليتبرع بالدماء فى مناسبة سنوية للصليب الأحمر، وتبسمت لها نسخة مصابة بالدوار من نفسه، تكاد لا تشبهه، وقالت حالمة للممرضة الشابة الجذابة بينما يحاول محادثتها وهو راقد على المحفة، التى جعلوه يرقد عليها: *عدينى ألا تسحبى دمى كله، لقد وضعت نفسى بين يديك.*

راحت "ميليندا" تقول إنها شاهدته على التليفزيون وإنها رأت ما فعله، وإنها أحست بالخوف الشديد عليه، لكن فيما بعد وهى تفكر فيما حدث أحست بالغضب.. أحست بالاشمئزاز "لقد خاطرت بحياتك من أجل.. من أجل ماذا؟ من أجل من؟ ذلك الغريب؟ شخص تعرفه من المدرسة الثانوية؟ كلام فارغ.. فاشل مثير للشفقة.. هذا ما أنت عليه.. هذا كل ما رانت

عليه! لقد قتل نفسه، وكان يمكن أن يقتلك.. مقابل ماذا؟ مقابل ماذا يا شاندلر؟ قل لى: مقابل ماذا؟"

لم يتوقع "شاندلر" هذه التحية.. آه، فى قلبه كان شخصاً غبياً رومانسياً حالماً، وكان يتمنى شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف وإن كان يعرف "فشاندلر" يعرف: "شاندلر" من داخله عالم لا يشعر بالشفقة أنه لا يستحق.

خرج عن الأسرة.. خيانة. كلام فارغ.

حاول "شاندلر" أن يشرح لكنه لن يعتذر.. قاطعته "ميليندا"، "ميليندا" تعرف ما فى قلبه، قالت بحرارة: "لهذا علاقة بأبيك، أليس كذلك؟ لكننى لا يهمنى تماماً أمر أبيك. لا يمكننى التورط مع رجل لا يهمه أمرى وأمر طفلتى وحياتنا معًا، أكثر من اهتمامه بغريب.. لا يمكننى التورط مع رجل لا يهمه إن عاش أو مات! يرمى بحياته مثل الزهر وكأن لا قيمة لها، تصبح على خير يا "شاندلر". وداعاً".

ثم إنها أبعدته بيدها عن مدخل الباب وأوصدته فى وجهه المذهول.

-٣-

حركة *أُرغم عليها*.. أقسم فى ذلك الحين، فى ربيع عامه الثامن والعشرين فى الحياة، أنه سيتولى زمام حياته بنفسه.

كان فيما سبق يطفو حرًا فى سلبية تامة، مثل شخص نومته الشلالات مغناطيسيًا، أجبرته "ميليندا" على أن يرى.. رفعت فى وجهه مرآة فلم يتمكن "شاندلر" من الإشاحة بوجهه عنها، كما يحمى المرء عينيه من نظرة "ميدوسا" الرهيبة.. أذهلته الحقيقة التى كانت واضحة جلية وفى الوقت نفسه مراوغة يصعب الإمساك بها، ترمى بحياتك كالزهرة وكأن لا قيمة لها.. هذا غريب، لابد أن ميليندا تحبه. فقد بلغت أعماق روحه.

متى بدأت هذه السلبية الغريبة؟ هذا الطفو الحر الذى خلطه بالولاء والإخلاص، أو لعله كان التكفير عن الذنوب. منذ اختفاء أبيه من حياته

ربما (لم ير "شاندلر" جثة أبيه، لم يتم العثور على جثة.. كيف إذًا يؤمن بوفاة أبيه؟) لكنه كان يفخر بأنه شخص عقلانى، حتى الآن هو الأكثر عقلانية فى أسرته، يعتقد أنه قادر على السيطرة وتحمل المسئولية وأنه ناضج. منذ سن الحادية عشرة وهو الابن الوفى لأمه (الأرملة الصعبة). وكان ابناً محباً صبوراً يوفر الحماية لشقيقه (اليتيم غير الناضج) وشقيقته.

عدنى! كذا همست "آريا" وهى تمسك بيديه بين يديها.

امنحنى قلبك! امنحنى قلبك!

منذ المدرسة الثانوية و"شاندلر" لاعب شطرنج واعد وإن كانت تحركاته فى اللعب غريبة. علَّم "جولييت" اللعبة، وفى أيام الشتاء البائسة حين يصبح شقيقه الصغير الذى لا يهدأ ولا يركن لراحة محاصرًا فى البيت فى شارع بلطيق، علم "رويال" اللعب. (نادرًا ما تلعب "آريا" أية ألعاب مع أطفالها، ربما كانت تخشى الخسارة أمامهم). ولم تهتم "جولييت" ولا "رويال" بما يكفى باللعب بمهارة أو فى صبر، بل كانا يلعبان بناء على الحدس، وفى بعض الأحيان يحالفهما الحظ. لم يكن شاندلر ممن يثقون بالحظ. يجد نفسه فى موقف يواجه فيه حركة قد تقضى عليه من خصمه، مضطراً بالتضحية بقطعة شطرنج ثمينة. هذه تعتبر حركة أُرغم عليها.. تضحية على المدى القصير ليربح على المدى البعيد.

سيتولى زمام حياته من الآن فصاعداً.. كفاه الخزى من نفسه ومن الحالة التى ولد عليها.

طيلة ربيع عام ١٩٧٨ راح يتعرف على أشياء فى حياة "ديرك برنابى" وفى موته ليفهم شيئًا يجب أن يفهم آخر، كتب خطابات موجزة عميقة إلى زملاء أبيه فى المحاماة وأصحابه القدامى الذين يعرفهم بالاسم من الصحف، فضلاً هلا قابلتك؟ سيعنى هذا الكثير لى أنا ابن "ديرك برنابى". حاول أن يعرف مكان الزوجين اللذين كانا أهم محورين فى آخر أعوام "ديرك برنابى": "نينا وسام أولشاكر"، وأحس بالأسف حين سمع

أنهما انفصلا فى عام ١٩٦٣نتيجة لضغوط القضية والمحكمة، ويبدو أن "نينا آولشاكر" أخذت أطفالها لتقيم فى مكان بعيد إلى شمال الولاية، على مشارف بلاتسبرج، ولم تدرج رقم هاتفها فى الدليل، حاول أن يتكلم أكثر من مرة إلى الشهود الخبراء الذين شهدوا "لديرك برنابى". تحت القسم فى قضية قناة الحب، وقيل له إن هؤلاء الأشخاص الذين تعرضوا لضغوط فى وقت القضية، قد تم استجوابهم كثيراً بسبب علاقتهم "بديرك برنابى" بعد موته، فلم يعودوا مهتمين بمناقشة الموضوع، حاول أن يتكلم إلى طبيب كان يرأس هيئة الصحة بالمقاطعة عام ١٩٦١ لكن قيل له إن هذا الرجل ميسور الحال "تقاعد فى بالم بيتش وهو فى عزلة عن العالم الخارجى" كما رفض الأطباء الآخرون الذين كانوا فى الهيئة فى ذلك الحين وشهدوا لصالح سوان كيميكالز، أن يتكلموا إلى "شاندلر"، أو طعنوا فى السن للغاية، أو لم يعودوا على قيد الحياة، وأيضاً كان هذا حال المحامين الذين كانوا فى صف المتهم، ومعظمهم ما زالوا يمارسون المحاماة فى شلالات نياجرا وناجحين للغاية، وكذلك كان حال العمدة السابق وين، الذى أصبح مديرًا تنفيذيًا فى الحزب الجمهورى على مستوى الولاية، وقاضى مقاطعة نياجرا السابق ستروتون هويل، الذى أصبح قاضيًا فى ولاية نيويورك، فى محكمة استئناف ألبانى، وحصل على موعد ليتكلم إلى أستاذ فى الكيمياء الحيوية بجامعة ولاية نيويورك فى بافالو، وموعد ليتكلم إلى مادلين سيدمان موظفة الاستقبال لدى "ديرك برنابى"، وموعد مع حاجب المحكمة الذى تقاعد، والذى اعترف "ديرك برنابى" بالذنب فى حادث الاعتداء فى قاعة محكمة القاضى هويل أثناء جلسة المحكمة، وحاول الترتيب للقاءات يتكلم فيها مع رئيس الشرطة فيتش، الذى كان صديقًا "لديرك برنابى"، ومع مأمور المقاطعة، ومع المحققين الذين حققوا فى حادث "ديرك برنابى" المزعوم، لكن لم يرغب أى من هؤلاء الرجال فى مقابلته.

بالطبع.. ماذا تتوقع؟ كان شخصًا بالغًا ويعرف كيف تدور الأمور فى هذا العالم.. عالم سلطة الذكور، عالم التهديد والمؤامرات.

لكن.. بعد رفض تلقى المكالمات من "شاندلر" لأسابيع، اتصل رئيس الشرطة فيتش "بشاندلر" مباشرة ليخبره أن تحقيقات قسم شرطة

شلالات نياجرا فى عام ١٩٦٢ وصلت إلى معلومات كثيرة لا تريد أن تعرفها وقد عفينا أسرتك منها، أترى؟ قيدنا الواقعة على أنها (حادث)، ودفعت شركة التأمين مبلغ التأمين" وقبل أن يتمكن "شاندلر" من الإجابة، أنهى فيتش المكالمة.

حادث.. من المفترض أن يشعر شاندلر بالامتنان على أن الواقعة لم تقيد انتحاراً، أهذا ما كان يقصده؟

- ربما قتلتموه.. قتلتموه جميعاً يا أولاد الحرام.

هكذا خطر له وهو صبى، لفترة من الزمن.. حتى تلاشت الفكرة كما تتلاشى خيالات المراهقة، بدافع من الضرورة.

ستة عشر عامًا.. فقدان الذاكرة.

الآن تعود الذكريات وتجعله يجفل من الألم كإحساس عودة أجزاء من الجسد كانت قد أصيبت بعضة البرد.

أبداً لا تبك.. لا دموع. لا أحد يستحق دموعك.

أمك هى التى تحبك.

كان تفكيره علميًا، ولهذا عرف أنه يحمل جينات أمه وأبيه بالتساوى، يدين بولائه للاثنين وليس واحدًا منهما، ليس واحدًا، لكن اثنين يتنافسان فى روحه.

لكن التسابق كان يميل دائماً لصالح "آريا". الآخر.. أبوه.. مات، اختفى.. الأم نجت وأصبحت هى صاحبة المقام الأول. ورأيها يهم بشدة "شاندلر"، حتى الآن بعد أن بلغ الرشد، كثيراً ما يسقط ضحية لسطوتها، وكأن شيئاً خفياً لا اسم له يربطه بها.

منذ زمن بعيد غنت له، وهزهزته بين ذراعيها، كانت تحبه.

مولودى الأول! دائماً ما تبالغ "آريا" فى كلامها، وكأنها شخصية محكوم عليها بالموت فى أوبرا لفاجنر.. لا يوجد *إلا مولود أول واحد، لا*

أحد يتكلم عن الثانى أو الثالث، لكن شاندلر كان عاقلاً بما يكفى ليعرف أن "آريا" تفضل "رويال" من بين ابنيها.. حاولت، حاولت كثيرًا أن تفضل "جولييت" ابنتها على ابنيها. "شاندلر" المولود الأول وتم استبعاده سريعًا كان يعرف، ولم يمنع نفسه من المعرفة. لكنه كان يحب "آريا" ، وسوف يحبها دوماً. هو ابن أمه بما يكفى لكى يشعر بالامتنان لمجرد أنها ولدته.

قالت "آريا" فى قسوة: "آينشتين يقول إنه لا يعتقد أن الرب يلعب الزهر بهذا الكون، وأنا أقول إن الرب يلعب بالزهر ليعجبكم هذا الكلام أو لتتجاهلوه يا أولاد".

غضبت كثيرًا من "شاندلر" بسبب واقعة الرهينة، من حسن الحظ أنها لم تشاهد بث التليفزيون المباشر على التليفزيون المحلى، بل هرع إليها الجيران ليخبروها، ثم وفى اليوم التالى على صفحات الجازيت. "شاندلر برنابى"، معلم بالمدرسة الثانوية.. "بطل".. "لآريا" رأيها الخاص فى "شاندلر"، كيف يخاطر بحياته لأجل "مايويزر" الذى لا قيمة له.. لكنها غفرت له، كما لن تفعل "ميليندا"، هزت "آريا" رأسها ومسحت عينيها بطريقتها الخاصة بها التى توحى بالضعف الأمومى وازدراء هذا الضعف، ثم ضحكت.

- "طالما أنت حى لكى تتناول العشاء معنا الليلة، فأنا ممتنة لهذا".

لكن "شاندلر" بدأ يتساءل: حقاً؟

لا أحد يتكلم بلسان الموتى غير الأحياء. وأنا ابن "ديرك برنابى"، وأنا حى.

دون مقدمات خرج "شاندلر" بالسيارة ذات يوم إلى إيل جراند ليزور شقيقتى والده اللتين لم يرهما منذ أكثر من ستة عشر عاماً، عمتاه الكبيرتان "كلاريس وسيلفيا" كانت "آريا" تحتقرهما، كانتا أرملتين.. أرملتان ثريتان، قابلهما "شاندلر" كلٍ على انفراد لكنه عرف أن المرآتين المرتابتين، وربما تكلمتا على الهاتف قبل المقابلتين لأن كلامهما إليه كان متشابهاً. قالت "كلاريس" بجمود: "شقيقنا "ديرك" كان رجلاً متهوراً.. مات كما عاش

دون مراعاة للآخرين" وقالت "سيلفيا" بجمود: "شقيقنا "ديرك" كان طفلاً متهورًا فاسدًا، ومات رجلاً متهورًا فاسدًا" وقالت "كلاريس": "لقد أحببنا شقيقنا الصغير. حاولنا ألا نلتفت إلى أنه كان المفضل لدى الجميع. انضم إلى الجيش وخدم بلاده، وكل هذا رائع، وكان محاميًا لامعاً.. ثم" وقالت "سيلفيا": "أحببنا شقيقنا الصغير لكن ثمة ما حدث فى حياته.. أترى إنها لعنة؟".

افترض "شاندلر" أنهما تقصدان قضية قناة الحب، لكن حين سأل قالت "سيلفيا" فى لهجة دفاعية وهى تدفع بمنديل معطر إلى أنفها: "لا يهمنى أن أقول".

"كلاريس" بدورها تكلمت على نحو غامض عن "لعنة" وحين سأل "شاندلر" عن هذه اللعنة قالت عمته بعد لحظة من التردد: "أحب ديرك امرأة حمراء الشعر، أترى؟ كان المفترض أن يتزوج ويقيم فى الجزيرة مع أسرته، وكان المفترض أن يرعانا ويرعى ممتلكاتنا واستثماراتنا، وكل ما يتعلق بشركة "برنابى"، لكن بدلاً من هذا حطم قلب أمه، واستولى على جزء من روحها، ولم يعد أى شىء فى أسرتنا كما كان منذ ذلك الحين.. أطفالنا وأولاد الأعمام كبروا وذهبوا، تفرقوا فى الاتجاهات الأربعة، ولم يختر أى منهم البقاء على الجزيرة معنا، لماذا؟ لأن ذات الشعر الأحمر سلطت لعنة على شقيقنا، زوجها الأول رمى بنفسه فى الشلالات، ثم ومرة أخرى كان مصير زوجها الثانى الموت فى الشلالات، كان هذا مقدرًا. تنبأت به ماما، وهذا ما حدث".

زوجها الأول؟ رمى بنفسه فى الشلالات؟

غادر "شاندلر" إيل جراند وهو يرتجف فى غاية من الإرهاق، وقد أقسم ألا يعود إليها أبدًا.

كان يعرف: "كلاودين برنابى"، جدته، توفت منذ عدة أعوام وهى مريضة طاعنة فى السن، كان يعرف، ليس من "آريا" (التى لا يمكن أن تتكلم عن آل "برنابى") بل من نعى فى صحيفة الجازيت. "كلاودين برنابى" تركت قصر شالوت المملوك للأسرة لصالح كنيسة إيبيسكوبال لاستخدامه

كمدرسة أو دار مسنين. معظم أموالها أيضًا تباعت بها للكنيسة وليس لأطفالها وأحفادها، ورأى "شاندلر" فى هذا صدمة لهم، وإهانة.

عليه الابتسام، الجدة "برنابى" التى رفضت أن تصبح جدتى *"برنابى"* .

ولت أيام قدرة الجدة برنابى على إثارة غضب زوجة ابنها "آريا". يذكر "شاندلر" كيف مالت عليه المرأة العجوز فى بيتهم الأول بلونا بارك، كانت رائحة عطرها نفاذ. نظارة سوداء مثل عيون الخنفساء اللامعة الخرزية، وفم أحمر لامع براق.. شعرها خصلات من الفضة الشقراء وكأنها ليست من هذا العالم، ورائحتها كيماوية، حدق "شاندلر" فيها من وراء مكعباته ليرى وجهًا مميزًا يلوح فوقه شرسًا وقويًا وكأنه قناع. على رأس جدته شىء أسود مخملى مثل العنكبوت، خشى أن يقفز عليه.. الفم المصبوغ بأحمر الشفاه تحرك فى قسوة ليعلن كلمات سيتذكرها "شاندلر" طيلة حياته دون أن يفهمها: سيعيش ليبلغ القرن الحادى والعشرين، *شىء غريب أن يكون صغيرًا هكذا، وإنسانًا فى الوقت نفسه*.

كما لم يفهم لماذا قالت جدته إن "شاندلر" ليس حفيدها (سمع، أو هُيئ له أنه سمع هذه الكلمات، أم لعله تخيلها؟) تركت الجدة "برنابى" الهدايا له، ولم يرغب فى فتحها، وبعد أن غادرت فتحت ماما الهدايا وفكت عنها أربطتها.. ومزقت أكمام القمصان الصغيرة، وأقدام المنامات وهمهمت وضحكت لنفسها، عانقته بشدة حتى كادت تزهق روحه، لكن حين أخذت زجاجة من دولاب بابا وصعدت السلم وأقفلت الباب على نفسها دونه، عاد بعدها "شاندلر" إلى سكون الطابق السفلى وإلى أمان المكعبات التى سيصنع منها أفضل قرية مكعبات شيدها والتى سوف تسقط متحطمة إلى شظايا صغيرة حين يعلن شاندلر: "زلزاااال!" فيضحك بابا.

- ٤ -

الدليل.. إنه ملم بالتعليم العلمى، وكان عليه أن يلم بالتعليم القانونى أيضاً، لأن (كما بدأ يرى) العالم محاكمة منعقدة أبدًا، ومقارعة حجج بالحجج مستمرة بين الخصوم بحثاً عن العدالة (المراوغة المغرية).

- "بحق يسوع.. كانت تجربة مؤلمة، كان القاضى متحيزاً بوضوح، وأبوك منغمسًا تمامًا فى القضية، وفعل ما يمكن للمحامين أن يفعلوه فى موقفه.. فقد أعصابه فى المحكمة. وكانت هذه نهايته.

- "بالطبع كنا مرتابين، لكن لا أحدا تمكن من المعرفة فى ذلك الحين، ما إن صرف "هويل" القضية، ظلت "قناة الحب" مسألة سخيفة لسنوات، كانت مزحة فى عالم المحاماة، وجاءت تنويعات عديدة عليها، كلمة حب.. مزحة قذرة فى بعض الأوساط، لكن اتضحت الأمور بعدها بشكل غير رسمى كما قد يعن لك أن تقول، كان شهود أبيك تحت ضغوط من "سكينر" ومساعديه لكى لا يشهدوا، المرجح أنهم تعرضوا لتهديدات (هل كانت ثمة علاقة أو تدخل من العصابة؟ هذه شلالات نياجرا وبافالو، فهل تسبح السمكة؟ هل تطير العصافير؟ منذ الخمسينيات وهذه منطقة تسيطر عليها العصابات يا ولدى). لذا بالطبع كانوا خاضعين لتهديدات تفادت هيئة الصحة وهيئة التعليم المواجهة المباشرة. دفع الدفاع لـ"الشهود الخبراء" لتميل الكفة لصالحهم، وأبوك المسكين، بحق المسيح، كان هذا عاراً، كنت أعرف "ديرك" منذ الجامعة وأسفت كثيراً لرؤية هذا الرجل يسقط.. قال لى، ولن أنسى ما قاله، فقد كان فى اليوم السابق على صرف هويل للقضية: "هال.. ما يحطم فؤادى هو ما فى الموضوع من إثارة للشفقة" كان يشرب فى كامل صراحته، يمكنك أن تشم هذا فى أنفاسه.. أخيرًا دفعوه لفقدان أعصابه فى المحكمة، وهكذا انتهى كل شىء بالنسبة "لديرك برنابى".

- "كان فعلاً شائنًا. استفاد "هويل" منه وانظر إليه الآن.. ها هو قاضى محكمة استئناف المقاطعة. وابوك مات، منذ متى؟ خمسة عشر عاماً".

- "أبوك! ما زلت لا أصدق أنه رحل.. كان أطيب وأرق صاحب عمل، لم أعمل مع رجل مثله فى رفقه وصلاحه أبدًا، لم يرغب فى أن يعرف الناس كم وضع فى هذه القضية الرهيبة من نقود، وضع فيها روحه، وكان

من الممكن التنبؤ بما جرى، كما يتحطم القطار فى حادث بالصورة البطيئة، ولم يكن أحد قادرًا على إقناعه بالعدول عن القضية، يقول لى: يا "مادلين".. حين يبدو علىّ القلق.. يا "مادلين" إن "ديرك برنابى" لا يعرف معنى الخسارة.. ولم يكن يعرف طيلة حياته وهو ناجح، فأعماه هذا عن حقائق أساسية، مثل طبيعة الناس من حوله، والرجال الذين كانوا رفاقه فى المدرسة وكان يعتقد أنه يعرفهم لم ينصت لأحد من أصحابه المحامين، إذًا لماذا ينصت لى؟ بالطبع لم أقل كلمة لأبيك عن مثل هذه الأشياء، لم يكن هذا مكانى أو مكانتى، حاولت إبعاد "أولشاكر" تلك لكن بطريقة ما عثرت على أبيك، وأحكمت حوله مخالبها.. أترى؟ كان دائماً جنتلمان.. والآخرون.. الآخرون سياسيون. ذلك العمدة.. "وين"! تمت تبرئته منذ أعوام من تهمة الرشوة لكن الجميع يعرفون طبيعته، والآخرون. المحامون، وذلك القاضى المنافق الذى كان لدى أبيك سببًا ليعتقد أنه صديق له. لم يخطر لى أبداً أن والدك قتل نفسه، ولو للحظة.. الآخرون الذين كانوا يعرفونه جيدًا أحسوا بنفس الشعور. لم يكن السيد "برنابى" من هذا النوع.. النوع الذى يقنط وتسوء معه الظروف أكثر وأكثر، كان السيد "برنابى" من النوع الذى يرغب فى المساعدة، فى تحسين الظروف. أتعرف يا "شاندلر"؟ أخبرت شقيقك هذه الأشياء أيضًا، مر من هنا منذ شهور. يطلق على نفسه "روى"، أليس كذلك؟ شقيقك الأصغر على ما أعتقد؟ إنه شاب وسيم، ويدرس بجامعة نياجرا".

- "أجل، كانت أكبر مفاجأة فى حياتى: أبوك يفقد سيطرته على نفسه ويضربنى! فى الوجه مباشرة، كاد يحطم وجهى. لابد أن هذا كان نفس إحساس "مارشيانو" حين لكمه فى أنفه بيمناه، وحطمه وتناثرت منه الدماء، سبق أن حاول آخرون ضربى فى المحكمة، لكن فى العادة يتم مسبقاً تحذير المدعى، ولم أكن معه، أعنى المحامى! فى العادة يوضع المتهم العصبى فى الأصفاد.. إذًا كنت أحترس، لكن لم يسبق أن لكمنى فى وجهى أى من المحامين! وفيما بعد اعتذر السيد "برنابى". اتصل بى على الهاتف وأخبرنى كم هو آسف لما فعله وأرسل لى شيكًا بمبلغ ألفى دولار بتاريخ

اليوم الذى توفى فيه، وملعون أنا لو كنت سأحاول أن أصرفه، لكننى فكرت، ما الأهمية، وصرفته.. فى ذلك الحين كان "ديرك برنابى" قد رحل منذ ستة أشهر، لم أصدق أبداً أنه مات. لكن لا أحد ينجو من السقوط فى الشلالات، لهذا أعتقد أنه لابد من أن وفاته أكيدة. أترى؟ ما أندم عليه هو أننى لم أقل أبداً إننى سامحته، كنت غاضباً للغاية منه حين ضربنى وأنا أؤدى عملى، حين كان وجه هويل الذى يريد أن يلكمه ويحطمه، كنت أشعر بالأسف لهذا، وكنت قد اعتزمت ألا أخبر أباك بأنى سامحته".

- "ماذا أقول يا بنى؟ أنت تعرف أن أباك كان الصديق الأقدم لى فى هذه المدينة، وأعتقد فى العالم كله، كان زميلى فى الأكاديمية، وانضممنا إلى الجيش معاً، وأعمارنا متقاربة وإن ولدنا فى نفس الشهر لكن فى عامين مختلفين، لهذا بالطبع أفتقده كثيرًا فى هذا الوقت من العام.. هو نوع من الألم.. لكن لم تكن ثمة طريقة أساعده بها، كان مثل فراشات النور الجميلة تلك التى تراها ليلاً تطير بمحض حريتها إلى شباك العنكبوت التى لا يعرف فقط كم هى صلبة وشريرة، بل أيضاً لا يعرف بوجودها من الأساس، مثل أبيك الذى طار أعمى تلك الأسابيع الأخيرة من حياته، وكان يشرب، ووصل إلى تلك النقطة التى نبلغها جميعاً فى نهاية المطاف، حين نصبح مثل الأرض المشبعة بالمياه، وتبتلع قليلاً ويسرى السم إلى دمائك؛ لأن كبدك لم يعد قادرًا على الفلترة، بلغته تحذيرات، لكنه لم يلتفت إليها، كان وكأنه رائد فى هذا المجال القانونى. فى ذلك الحين بدا الأمر جنونياً.. الجميع يقولون نفس الأشياء، مثل كيف تعرف إن كان الرجل مريضاً بسبب مكان معيشته أو محل عمله، أم من التدخين؟ (كان الجميع يدخنون) أو من الخمر، أو وراثياً، أو لسوء الحظ، أترى؟ فى ذلك الحين كان الناس يقولون مثل هذه الأشياء، وكانت هذه طريقتهم فى التفكير، تكلم القس بهذا الأسلوب فى التليفزيون، وتكلم الأطباء بهذه الطريقة، حتى السياسيين حصلوا على نقود كثيرة ليتكلموا بهذه الطريقة، ولا يهم لأى حزب ينتمون،

وبالطبع القضاة، ولهذا لا يحتاج الأمر لخيال واسع لترى أن "ديرك" على وشك السقوط، لكن حين حدث هذا كانت صدمة هائلة، كان قد أبعد عنه معظم أصحابه، أصحابنا، أصحابنا المشتركون. وأبعدنى عنه نوعاً ما، ليخبرنى الحقيقة. كل ما قيل عن الهواء والمياه والتربة الملوثة وما إلى هذا، كان شيئًا بالغ السوء، سيئ على السياحة.. بالطبع كرهت ما آلت إليه المدينة، فالهواء رائحته كرائحة المجارير فى بعض الأيام، وعرائس شهر العسل يجيئون من كل الأرجاء ويتوقعون، يتوقعون ماذا؟ لا أعرف.. يتوقعون فردوسًا، بالإضافة للسائحين القادمين من ألمانيا واليابان لرؤية الشلالات ولا يعرفون حال المدينة. بالطبع جاءتنا شكاوى، طيلة السبعينيات ساء الوضع، أناس مثلى، مثل عائلتى.. كنا نعمل فى "صناعة الفنادق المترفة" كما كنا نطلق عليها، منذ زمن بعيد، الآن العمل أصبح اسمه "صناعة السياحة" حمداً للرب أننى خرجت من تحت شباك رينبو جراند فى الوقت المناسب، مثل سفينة تيتانيك كان.. فى أواسط الستينيات حين آلت البلاد كلها إلى الضياع (ما زالت مصيرها الضياع لكن على الأقل انتهى من يمكن استهدافهم بالاغتيال منّا ومن يمكن إلقاء قنابل النابالم الحارقة عليهم) الآن شركة كولبورن، عمل العائلة، متنوعة للغاية، مثل بلدنا العظيم هذا، لدينا هنا فى جادة بافالو وبروسبكت كل من جورنيز إند وموتيل يو آر هير، ولدينا تيستى فريزس وبرج بيزا المائل، ولدينا ملعب البولنج، وديسكو توب هات آند شاور كافيه لدى البحيرة، وفى ألكوت لدينا عدة أماكن على الشاطئ، بالإضافة لبينجو تينت بونانزا، وبانانا رويال، وملعب جولف مصغر! رياضة للحمقى أؤكد لك! لكن السائحين مهووسون بها، واليابانيين يحبونها (يمكنك أن تتبين السبب، أليس كذلك؟) ولهذا سنشيد ملاعب أخرى مثله، وقريتى طعام يابانى فى المنطقة، وديسكو هوليود هافين الذى اقتحمته الشرطة سوف نشتريه. ومتحف الشمع فى نياجرا الذى اشتريناه العام الماضى، و(أبطال وضحايا الشلالات) الذى نجدده، و(اعبر الشلال) حيث تمشى على حبل رفيع فوق المياه وأنت ممسك بقضيب معدنى وينفخ المتفرجون الرياح محاولين

إسقاطك، لدينا أفكار رائعة لأشياء قادرة على جنى النقود من هذا القبيل.. آسف، إذًا تكونت لديك الصورة على ما أعتقد، كنت فى مطعم ماريو ليلة أمس أفكر كم كان والدك يحب ذلك المكان، كان ضعيفاً مثلى أمام ريسوتو السجق الإيطالى، وبيتزا ماريو، وكان يسعد كثيرًا لو عرف أنه لم يتغير الكثير فى ذلك المكان. بخلاف أننا كبرنا سنًا وبعضنا ماتوا، فلم يتغير ماريو بالمرة".

- "ارتكب أبوك خطأ لا يمكن لمشتغل بالمحاماة أن يرتكبه: استهان بقدر التعفن الأخلاقى لدى خصومه، لم يفهم مقدار ما هم عليه من فساد؛ لأنه كان ينظر إليهم ويعتبرهم رجالاً مثله، وكان هذا حقيقيًا إلى حد ما، لكنهم كانوا ـ وما زالوا ـ أشرارًا.. استعانوا بالمحامين والأطباء والعلماء والباحثين ومفتشى الصحة ليمارسوا شرهم بالنيابة عنهم، يقولون للأم إن طفلها مصاب بسرطان دم وراثى وليس بسبب الكيماويات التى تظهر فى الحدائق الخلفية فى قناة الحب، يقولون للرجال والنساء فى الثلاثينات من عمرهم إنهم مصابون بأكباد قابلة للمرض، وكلى قابلة للمرض.. وإنهم ولدوا هكذا، بينما السبب هو ما يغرسونه بأيديهم من خضراوات فى حدائق بيوتهم الصغيرة، تسممهم قناة الحب، أورام فى المخ سببها بلا شك التيتراكلوروإيثانول بينما يعزون الأورام إلى (تسمم من الدرجة الثالثة بأشعة التليفزيون)، والأطفال المصابون بالربو والرئة الضعيفة والمثانة المريضة، مصابون بأمراض خلقية (إذا بحثت عن "خلقية" فى القاموس ستجدها: بدءاً من الميلاد). والنساء يجهضن والأطفال يولدون بقلوب معيبة وأجزاء مفقودة من القولون، وسببها العيوب الخلقية. وحين أمرت الولاية أخيرًا بإجراء اختبارات دم لسكان قناة الحب فى عام ١٩٧١ فى الوحدة، طُلب من الناس الحضور فى الثامنة صباحًا والانتظار اليوم بطوله، وفى الخامسة مساءً كان نصفهم مازال ينتظره. وظهر قصور فى المحقنات وقصور فى عدد الممرضات وكانت ثلاثمائة عينة دماء ملوثة، وجاءت نتائج المعمل غير شاملة وترتيب ملفاتها غير صحيح وبعضنا تعرض للانتقاد؛ لأنه قال إن هؤلاء الأطباء لا يختلفون كثيرًا عن أطباء

النظام النازى الذين أجروا الاختبارات على البشر، لكننى متمسك بهذا الاتهام، قضية التحالف هى نفس قضية والدك لكن بالطبع على نطاق أوسع، لقد قرأت عنّا على ما أعتقد. نحن خمسة محامين متفرغين ومنهم أنا. لدينا محققون لكننا مُمولون، معنا النتائج الجديدة التى توصلت إليها هيئة الصحة بالولاية.. أخيرًا!.. وهى لصالحنا. هناك مائة وعشرون شخصًا نمثلهم فى هذه القضية العمالية. اتحاد ملاك قناة الحب كما يطلقون على أنفسهم الآن.. قناة الحب.. وكأنها علم أحمر يرفرف. يطالبون بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار كحد أدنى للتسوية القضاء متعاطف أكثر مع هذا النوع من القضايا فى عام ١٩٧٨ هذا.. هناك ضغوط على "كارتر" لكى يعلن قناة الحب "منطقة كوارث".. وقتها سوف تدفع الحكومة الفيدرالية التعويض لملاك البيوت.. سيحدث هذا، المسألة مسألة وقت لا أكثر "ديرك برنابى" بطل بالنسبة إلينا، حتى برغم.. إحم.. أخطائه، حين ينتهى الأمر ونفوز أريد تنظيم حفل فى ذكراه، رجل مثله يجب ألا يُنسى.. نظريتى هى أن والدك بدأ ينهار حين عرف كم يبلغ الفساد من تغلغل، كنت صبيًا فى ذلك الحين، ونشأت فى الجانب الشرقى من المدينة، ابى وأعمامى يعملون فى مصانع كيماويات، منها سوان ودو، الحياة الأفضل بواسطة الكيمياء.. دائمًا ما كنت أرى أولاد الزوانى على حقيقتهم، ولم تخدعنى خططهم للترويج الإعلامى، ما زالوا يصنعون تلك الأشياء اللزجة.. النابالم.. إذا دفع لهم أحد المقابل لصنعه، والعلماء الباحثون يعملون الآن على صناعة الأسلحة البيولوجية على بعد أميال قليلة من هذا المكتب.. هل تُعَلّم هذه الدروس فى لا سال يا "شاندلر"؟ ربما يجب عليك هذا إذا كانت مادتك هى العلوم.. هل أعتقد أن "ديرك برنابى" قتل نفسه؟ لا. توفى فى حادث؟ لا. قتلوه أولاد الزوانى، لكنك لن تثبت هذا أبداً".

- ٥ -

رسالة مُعطرة على عنوان "شاندلر برنابى" مدرسة لا سال، مكتوبة بخط اليد، بحبر بنفسجى على ورق خزامى.

عزيزى شاندلر برنابى،

إننى مدينة لك بحياتى، أريد أن أقابلك بشدة وأن أشكرك بنفسى.. جئت إلى مدرستك وانتظرتك بالخارج لكننى ابتعدت بدافع من الخجل. اتمنى الا تسيئ فهمى! لا أريد سوى أن أرى وجهك.. صلاح وجهك الصبوح.. لا الصور الفوتوغرافية، بل الوجه الحقيقى.. ايمكننى هذا؟

لست مرتبطة بالزواج لأى شخص. كنت كذلك منذ فترة قريبة، لكن لم أعد مرتبطة.

صديقتك إلى الأبد،

سينثيا كاربنتر

تنبأ "شاندلر" بـ: مقابلة عاطفية متعثرة، شابة يسهل إبهارها مقدرٌ لها أن تقع فى حبه.. شابة جذابة للغاية مقدرٌ لها أن تعبده باعتباره بطلاً.

على النقيض من ميليندا التى تعرف ما فى قلبه. "ميليندا" التى أوصدت الباب فى وجهه.

أبعد "شاندلر" عنه الرسالة المعطرة القادمة من "سينثيا كاربنتر" وكأنها تذكار.

تذكار من هذا الموسم الغريب من حياته الذى كان فيه المنقذ والأحمق.. المُبجل والمكروه، المعشوق والمُحتقر.. وهذا بقدر متساوٍ فى كل الحالات.

- ٦ -

ثم إن يومًا جاء فى ذلك الفصل، منه ساعة حين أصبحت وحدة "شاندلر" لا تُطاق، حتى أنه اشتاق لمحادثة "رويال". فجأة لم يعد لشاندلر غير رويال. قلبه ممتلئ لحد الانفجار.

لكن "رويال" لا يريد أن يقابله، أليس كذلك؟ رويال "يكرهه".

و"رويال" المقيم فى وسط المدينة ليس لديه هاتف، نصحته "جولييت" أن يقابله. اذهب واطرق بابه، سيدعك تدخل.. أنت تعرف "رويال".

لم يعد "شاندلر" واثقًا من هذا، هل يعرف "رويال"؟

ضحكت "جولييت". "رويال" يسأل من يقابلهم حديثاً أن يطلقوا عليه "روى". ماذا لو سألنا هذا؟ لا يمكننى هذا أبداً! سيبقى لى دوماً "رويال".

فعل "شاندلر" كما اقترحت "جولييت"، ذهب إلى شقة "رويال" فى الشارع الرابع وطرق بحزم الباب، حين فتح "رويال" حدق الشقيقان تبادلا النظرات للحظة دون كلام، ثم قال "رويال" محاولاً الابتسام: "اللعنة، هذا أنت". قال "شاندلر": ""رويال"، أو "روى"؟ هل يمكن أن أدخل؟" احمّر وجه "رويال" وقال: "طبعًا ادخل! لم أكن أتوقع زيارة من أحد".

كان رويال "يقرأ" على مائدة المطبخ ويكتب ملحوظات فى كراسه. بخط يده الطفولى، كان حريصًا فى نقشه للحروف، الكتاب الذى يقرؤه نسخة من مسرحية هاملت لشكسبير، دفع به جانباً وسحب مقعداً "لشاندلر".

رويال" يقرأ هاملت! ابتسم "شاندلر".

كان مطبخًا صغيرًا للغاية، ليس أكبر بكثير من المائدة. عدة أطباق وأكواب وملاعق مغسولة مصفوفة فى عناية على نضد مستعدة لوجبة "رويال" التالية، روائح طهى.. ورائحة غالبة لشىء ناعم لذيذ.. أهو شوفان؟ ووراء باب دولاب منفرج قليلاً لمح شوربة معلبة وزجاجة عصير طماطم وعبوة من الحبوب، رق قلبه لشقيقه الصغير كما قد يرق لطفل يلعب لعبة البيت بشجاعة بعد أن هرب من بيته، ولدهشته رأى "رويال" شقيقه المعلم المدرسى يبدو عليه التشتت وغياب التركيز محمر العينين كما لم يره من قبل. ذقن "شاندلر" غير حليقة مشذبة بإهمال، وأزرار سترته مربوطة على عجلة، يتنفس من فمه بعد أن صعد طابقين على السلم بسرعة. وبدون كلام أخرج "رويال" علبتى بيرة من الثلاجة الصغيرة إلى جانب الموقد ذات الشعلتين وجلس الشقيقان متقابلين على المائدة الفورمايكا التى اشتراها "رويال" ـ كما قال متباهياً ـ بخمسة دولارات من جودويل.

سيجلسان إلى المائدة ويتكلمان فى صدق معاً لعدة ساعات، حينها سيكون الليل قد سجى وتكون عبوة البيرة ذات الست علب قد نفدت.

وفى صوت هامس مرتعش قال "شاندلر لرويال" كل ما عرفه عن أبيهما، فى هذه الأسابيع الأخيرة. ثم قال "رويال لشاندلر" كل ما عرفه عن أبيهما.. فى هذه الشهور الأخيرة.

قال "شاندلر": "بحق يسوع! أحيانًا يبدو لى أنه اختفى منذ يوم أو يومين، ما زال الجرح طازجاً و.." لكن ما الكلمة التى يريدها "شاندلر"؟ هز رأسه فى حيرة.

قال "رويال": "لا، كان منذ فترة طويلة، ليس كما حاولت ماما أن تجعلنا نصدق، يبدو كأن هذا وقع قبل أن أولد".

ـ ليس هذا خطأك يا "رويال". كنت فى الرابعة من عمرك لا أكثر.

الرابعة سن كبيرة بما يكفى لكى أذكر بعض الأشياء، لكننى لا أذكر. أحاول لكن لا أستطيع.

ـ ربما هذا أفضل..

ـ لا تقل هذا! تباً!

مَرَّر "رويال" يديه بتوتر على شعره. رأى "شاندلر" أنه يفكر فى هذا الأمر منذ فترة.. يعذب نفسه به، تكلم فى صوت خفيض متألم، أقرب لأسلوب "شاندلر" أكثر منه أسلوب "رويال": "كل هذا الشتاء وأنا تراودنى أحلام غريبة يا "شاندلر"، أحلام عنه. لكننى لا أذكر هذه الأحلام حتى حين أفيق من نومى. أشعر بها، كما أشعر بالألم فى بطنى، لكن لا ذاكرة تبقى لى منها".

خطر "لشاندلر" أن. أرهقته الأحلام، لكن لا ذكرى منها، مجرد إحساس.. غضب ويأس.

قال "رويال: "ما كان يجب أن يموت بابا. لم يستحق الموت هكذا، بعض الناس يقولون إنه ربما قد قُتل". ارتعد صوت "رويال".

نهض "شاندلر" فى جمود وقد أحس بقلبه يخفق بقوة.

تدرب على ما سيقوله حين يصل بهما الحوار إلى هذه النقطة كان يعرف أنهما سيصلان إلى هذه النقطة.

نظر "رويال" إلى "شاندلر" وضيق حدقتيه وكأنه ينظر إلى نور مبهر، ابتلع آخر جرعة من بيرته الدافئة ومسح فمه بكمه. "أحاول أن أفيق من الحلم، حياتى كلها حلم، أو أيًا كانت. "رويال" الذى كنته، الذى أحبته ماما، الذى أحبه الكثير من الناس، لم أعتقد حينها أننى أتمتع بما يكفى من قوة، لكننى أتمتع بها" غادر "رويال" المطبخ وعاد ومعه شىء وضعه "لشاندلر" ليفحصه.. "لا يمكن أن أستخدم شيئًا كهذا"، هكذا قال، حدق فيه "شاندلر" فى ذهول. مسدس! "رويال" معه مسدس.. مسدس بست طلقات يلمع بلون أزرق زيتى شاحب ومقبضه خشبى قديم، وطوله حوالى تسع بوصات. قال "رويال": "إنه ملك لرئيسى، أعنى أن لديه أكثر من سلاح، وقد أعارنى هذا. لدى ترخيص بحمله، فلا تقلق. أخذنى إلى مركز الشرطة بنفسه. لكن يا "شاندلر".. لن أستخدمه أبدًا".

أحس "شاندلر" بالدوار: "رويال"، يا ربى! هل فيه رصاصات؟"

ـ بالطبع، لكن زناد الأمان مسحوب دائمًا. أترى؟"

أقفله "رويال" ثم فتحه ثانية.. أقفله وفتحه هو أيضاً بحاجة لحلاقة ذقنه، براعم شاحبة صغيرة تبدو على فكيه مثل برادة الحديد.

فكر "شاندلر" فى رعب.. *شرقيقى يحمل الموت بين يديه*.

قال "رويال": "فى مادة الأدب التى آخذها هذه قال البروفيسور إنه إذا ظهر مسدس فى أية مسرحية، فيجب أن يطلق منه إحدى طلقات، لا يمكنك أن تخيب رجاء المشاهدين، لكن فى الحياة الواقعية، لا أصدق هذا".

ـ لا.. ليس فى الحياة الواقعية.

ـ يمكنك الإمساك بالمسدس بين يديك، وكأنه أداة يدوية.. كمطرقة أو كماشة، أداة تستخدم فى الصناعة، لكن لا يجب أن تطلق منه الرصاص.

دفع "شاندلر" يد "رويال" برفق.. "أرجوك يا "رويال" أبعده. تأكد أن مفتاح الأمان يعمل، وأبعده".

ـ "هذا لأوضح لك الأمور لا أكثر يا "شاندلر". أوضح لك ما قد أفعله لو كنت فى حالة من اليأس، لو عرفت أشياء معينة عن أبينا تصيبنى باليأس، إذا كنت تحسب أننى أشعر باليأس" وحين لم يحر "شاندلر" جواباً قال "رويال": "لكننى لست يائساً، هل أنا كذلك؟ ما زالت المسألة نظرية لا أكثر".

ما زال لم يتكلم "شاندلر". سحب نفساً عميقاً.

قال "رويال" وهو يراقبه بإمعان: "لا أعرف من الذى يجب أن أستهدفه على أية حال.. من"؟

ـ من؟ هويل.

ـ من؟

ابتسم "شاندلر".. "وكأننا زوج من البوم.. ووو.. هووو.. أعتقد أننى مخمور".

ضحك "رويال".. "مخمور تحت تأثير ثلاث علب بيرة. لا أحد يسكر من ثلاث علب بيرة".

ـ ومعدتى فارغة هذا ممكن.

ـ شرحت لك لماذا معى مسدس، أليس كذلك؟ أحتاج إليه فى عملى للحماية.

ـ أى عمل؟

ـ "أعمل بدوام جزئى فى إمبارير كوليكشن. وهى وكالة أغراض منزلية، أجول كثيراً فى العمل، وأزور البيوت دون إذن مسبق، أحياناً أستعيد سيارات أو دراجات بخارية، أو تليفزيونات أو غسالات، والعمل فى فرق من رجلين، رئيسى شخصية فريدة من نوعها، هو جندى سابق

بالبحرية وملاكم سابق. يقول إنه لاعب "جوى ماكسيم". وكان يعرف أبانا فى الأيام الخوالى، ليس جيدًا، بل من بعيد، ويقول عنه إنه كان رجلاً محترماً بين الخنازير".

شتت المسدس فى يد "رويال" من انتباه "شاندلر". كلما حدق فيه شاندلر تبين فيه القبح. لكنه ابتسم.. "شقيقى الصغير.. شقيقى الصغير معه مسدس".

ـ "إنه مسدس سميث آند ويسون ٣٨، بست طلقات. ليس لعبة.. يقول رئيسى إذا كنت مسلحًا فأنت مدين لصحتك لكونك مسلحًا". كان "رويال" ممسكاً بالمسدس فى راحة يده، وكأنه يزنه.. "بعض من يعملون لديه تعرضوا للضرب والطعن وطوردوا فى الشوارع وسحبوهم إلى خارج سياراتهم، وأطلقوا عليهم النيران فى الرأس والركبة والمؤخرة، لكن هذا لن يحدث معى؛ لأننى لا أسعى للشجار.. فى أى مكان".

ـ لكن يا "رويال".. مسدس؟ إنك طالب جامعى".

ـ أنا كذلك! ليس بدوام كامل، لكن ربما العام القادم. هذه الوظيفة فى إمباير مؤقتة، أشعر أن علىّ إرسال ما أقدر عليه من نقود إلى ماما، فقد تركتها و"جولييت" دون تحذير مسبق، اشعر وكأننى كنت أفر هرباً بحياتى". رأى "رويال" أن شاندلر مستمر فى التحديق فى المسدس وعلى وجهه تعبير يوحى بالغثيان والذهول، فأبعده وحين عاد كان يبتسم ويمرر مشطًا فى شعره.. "هيا نخرج من هنا".

غادرا مبنى "رويال" القديم وسارا فى خطوات سريعة فى الشارع الرابع كالخروج من غواصة بعد ساعات قيد الأسر. سحب شاندلر نفسًا عميقًا بابتهاج. ها قد صار صديقاً "لرويال" من جديد.. تصالحا! كان يحب رويال، وسوف يحاول نسيان المسدس وما يعنيه وجوده. الرياح القادمة من أونتاريو تهب قوية وسط الضباب على دفقات قادمة من اتجاه الشلالات على بعد ثلاثة أرباع الميل، لتبلل وجهيهما الدافئين.

أكلا فى دوك بار آند جريل، فى قاعة الطعام الفلورسنتية وسط أجواء موسيقى روك الستينيات التى تؤلم طبلة أذن "شاندلر". راح "رويال" يحرك جسده مع النغمة فى غير وعى منه، وإن بدا عليه أنه لا يكاد يسمع هذا الصخب. أصبح كلامهما الآن أقل توتراً وتحفزاً.. يبتسمان من الحين للآخر ويضحكان كصديقين قديمين. سوف يبدو لهما فيما بعد أن هذا موقف جديد، نادر.. أن يكونا فى صحبة أحدهما الآخر خارج البيت فى شارع بلطيق، خارج مجال أمهما. سأل شاندلر عن مناهج رويال فى جامعة نياجرا، وإذا كان رويال يشعر بالوحدة وهو يقيم وحيداً هكذا، وبدا على "رويال" الإحساس بالحرج وهو يقول إن نعم ثم لا، بالطبع يشعر بالوحدة أحيانًا، لكن لا، بصراحة يحب الإقامة وحده، ويشعر أنه شخص بالغ أخيرًا، وأن حياته الجادة تبدأ.. "معرفة ما جرى لبابا.. أتعرف؟ من هنا البداية".

أومأ "شاندلر" برأسه موافقاً وقد رغب فى تصديق ما قيل.

قال "رويال": "أشتاق "لكاندس" أحيانًا، و"ماما" و"جولييت".. لكن ليس الزواج، بالطبع لا أفتقده".

ـ لم تتزوج قط يا "رويال". لا يمكنك أن تفتقد الزواج.

ـ فكرة الزواج، أن أحب إنسانة ما لمدة أربع وعشرين ساعة فى اليوم وأن أكون لها رباً.. فى هذا ضغط كبير".

راح "شاندلر" يفكر فى النقيض، كان يحب هذا الضغط. يحاول تخيل ما سيكون حاله.

قال "رويال" فى رقة: "أخبرتنى "جولييت" بما بينك وبين "ميليندا" وانفصالكما، إنك تفتقدها على ما أعتقد، أليس كذلك؟"

أجفل "شاندلر" وقال: "أفتقدها كثيراً، والطفلة".

هز "رويال" رأسه فى تعجب، وكأن فكرة الطفلة أكبر من أن يفهمها.

ـ لا بأس "بميليندا". من الرائع عموماً أن تكون فى الأسرة ممرضة، كما تقول ماما.

ـ تقول ماما؟

الأمر مضحك، مسح "شاندلر" على فكيه بيده، وأجفل حين اكتشف أنها نمت، أى يوم هذا؟ ألم يحلق ذقنه صباحاً وهو ذاهب للمدرسة؟

مثل الأصدقاء الذين يترددون فى الوداع وإنهاء المقابلة راحا يتكلمان فى أمور عديدة. وإن كانت ليلة الأربعاء، ولدى "شاندلر" حصة يحضر لها لصباح الغد. (كم أصبح مشغولاً، وهو لا يعدو كونه معلمًا مدرسيًا! كان "ديرك برنابى" ليتوقع أكثر من هذا من ابنه). ثم إنه يحتمل أن يتلقى مكالمة أخرى من مركز الأزمات، أو من السامريين، الذى تطوع فيه شاندلر ليعمل معهم أثناء عطلة نهاية الأسبوع. لا يحتمل وحدته مع أفكاره! انشغل بفكرة أنه قد يتصل "بميليندا" وتنتهى المكالمة معه دون أن تكلمه.

لا يمكننى التورط مع رجل لا يهمه إن عاش أو مات!

ليس هذا حقيقيًا. لن يحدث.

على الرغم من تأخر الوقت، فقد تعدت الساعة ١١ مساءً، كان المطعم ممتلئاً وصاخباً ومليئًا بالدخان.. ثمة باب صغير يصل منطقة المطعم بالبار، وهو مكان تجمع لضباط شرطة نياجرا والعاملين بالمستشفى، وخلف الكاونتر لدى منطقة تحضير الطعام، يقبع شاب حليق وجهه مألوف (أهو من أسرة "مايويزر"؟ شخص ما من الحى على أبعد تقدير) عاود النظر مراراً للأخوين "برنابى" فى مجلسيهما، وهما يأكلان، ثم حين حاول "شاندلر" أن يواجهه بعينيه قطب جبينه وأشاح بوجهه بعيداً. كان الشاب يبلغ من الطول ستة أقدام وثلاث بوصات، ولابد أن وزنه لا يقل عن مائتى رطل. لكن حركاته خلف الكاونتر كانت منسقة ورشيقة. أحس "شاندلر" بالفضول حول ماهية الرجل، وقال له "رويال": باد "ستونكروب".

كان والده سرجنت بقسم شرطة شلالات نياجرا تعرض للضرب ذات مرة وتقاعد مبكراً. يقيمون فى جاريسون، وكان باد يسبقنى فى المدرسة بدفعتين وخرج من المدرسة دون أن يتخرج ويعمل هنا طاهياً".

ـ هو الطاهى.

ـ هل أعجبك الطعام الحريف؟ "باد" يطهو الطعام الحريف".

كان "شاندلر" قد التهم طبقاً كبيراً من اللحم الحريف الساخن، وتبعه بطبق من المحار، كان جائعاً حين بدأ يأكل حتى أن يديه كانتا ترتجفان، ولم يلحظ وجود الفلفل الحار ووجد الطعام رائعاً. لكزه "رويال" وقال: "إذا كان الطعام يعجبك فدع باد يعرف بهذا. إنه يتحمل الكثير من خاله صاحب المكان".أشار "شاندلر" للشاب العملاق فى زى الطاهى الأبيض المبقع بمعنى أنه أحب الطعام الحريف، لكن "ستوكروب" وقد تدرج وجهه بالحمرة دون أن يبتسم غادر المكان فجأة واختفى فى المطبخ. ضحك "رويال": "ستونكروب" خجول. قد يحطم رأسك بقبضته، لكن يشق عليه كثيراً أن يتكلم حتى".

وفى الخارج فى الشارع تردد الشقيقان قبل أن يفترقا. كانت سيارة "شاندلر" متوقفة فى اتجاه وشقة "رويال" فى الاتجاه الآخر. الضباب المنبعث من النهر تزايد، السماء غائمة لا ترى زرقتها.. كانا قد تفاديًا الموضوع الحساس، حتى خفض رويال صوته وارتعش صوته قليلاً بحيث يعرف شاندلر مسبقاً ما سيقوله: "شاندلر".. أتعتقد أن فى الموضوع ما زال خفياً؟ أن بابا قد قُتل؟"

التقط "شاندلر" نفساً عميقًا.. "لا".

لا.. لا تعتقد هذا؟" بدت الدهشة على "رويال".

ـ لا يا "رويال". سألتنى وأقول لك لا"

لن يقول "شاندلر" المزيد عن الموضوع، كان قد حّضر هذه الكلمات خصيصًا.

حدق فيه "شاندلر" متفكراً فيما قاله.

تصافحا وافترقا، ونادرًا ما كانا يفعلان وهما يقيمان فى مكان واحد. هل سبق لهما أن تصافحا أبداً؟ شاندلر يشك فى هذا). وبدافع لحظى عانق "رويال".. "رويال"، اتصل بى كثيرًا، وفى أى وقت لنخرج للأكل مرة فى الأسبوع على الأقل معاً. طعام باد ستونكروب الحريف.. اتفقنا؟ أريد أن أسمع أخبارك، اتفقنا؟"

تراجع "رويال" مبتسماً.. عيناه مراوغتان مغرورقتان.

ـ بالطبع يا "شاندلر". اتفقنا".

ـ ٧ ـ

كتب شاندلر الرسائل إلى "ميليندا" ولم يرسلها قط. تلك الليلة كتب لرويال.

عزيزى رويال

لا لن أفعل.

لن أزج بى وبك إلى هوس أخوى مشترك بيننا .

لن أزج بك إلى هذا الجنون.

اكتشاف قاتل/قتلة أبينا .

(وإذا كانوا ما زالوا أحياء).

لن أطلب منك شيئاً كهذا ولن أطالب به نفسى.

رويال.. أحبك.

رسالة لم تُرسل أبداً.. رسالة تذكارية، مثل الرسالة المعطرة القادمة من الفتاة الرهينة.. لم يجب عليها قط.

ـ ٨ ـ

عقد عزمه: سيواجه "آريا" ويطالب بمعرفة كل ما تعرفه عن وفاة أبيه، لمدة ستة عشر عاماً وهو يتوق لقول الاسم المحرم أمامها: "ديرك برنابى". أراد أن يسمع أمه تتكلم عن أبيه فى رفق، بحب. راجع ما سيقوله لها:

ـ "آريا". كنت تحبينه يوماً. لا يمكن أنك كنت تكرهينه.. كان زوجك. أبونا!".

لكن حين مضى شاندلر بالسيارة إلى شارع بلطيق وانتظر لدى الشرفة الأمامية حتى انتهاء درس بيانو آريا، بدأ يتردد. أم أن أعصابه تخونه. كان الوقت مساء يوم السبت فى آخر شهر إبريل. الطقس معتدل

على خلاف المتوقع فى هذا الوقت من العام بالنسبة لشلالات نياجرا. جلس شاندلر على درجات السلم وهو يربت على زاريو الذى خرج ليقابله، وراح يداعب الكلب وراء أذنيه. وبالداخل لدى مؤخرة البيت فى حجرة موسيقى آريا، كان هناك من يعزف مقطوعة "الصباح" لجريج من مسرحية "بير جينت". أنصت شاندلر فى إعجاب بالغ. ليست آريا بل التلميذ. يعزف بطاقة فياضة. عازف بيانو موهوب لكن جامح، شاب. معظم تلاميذ آريا كانوا من المراهقين.. أحياناً يسمع آريا تتكلم إلى طالب وتضحك معه، ويشعر بشىء من الغيرة. هل سبق أن كانت آريا على سجيتها وضاحكته؟ دائماً ما تبدو على وشك الانفجار حين ترى شاندلر. بدافع غريزى ترفع يدها وتعدل من وضع ياقته وتعيد ربط أزرار قميصه. وتمرر يدها فى شعره الأشعث كما تفعل مع فرو زاريو.. "شاندلر، ماذا أفعل معك؟"

دائماً ما اعتقد شاندلر أن آريا لم تحبه. ومؤخراً بدأ يتساءل: بالطبع هى تحب زاريو.

زاريو الجرو الذى جلبه ديرك برنابى لأسرته عشية موته.

زاريو الذى يلهث يتملص مستمتعاً بينما يد "شاندلر" تداعب ما وراء أذنيه، عينا الكلب بلون بنى سخى تلمعان بما داخله من عاطفة.. "إنك تحبنا جميعاً يا زاريو، أليس كذلك؟ ولا تسأل أبداً لماذا" وضع "شاندلر" ذراعه حول الكلب المرتعش ودفن وجهه فى فرائه، كان نبض قلب زاريو متسارعاً وتنفسه سريعاً متلاحقًا. أحس "شاندلر" بالاهتزاز عاطفيًا كما لم يحدث له منذ انتحار "مايويزر": ذلك الطلق النارى الوحيد، ثم الصمت الذى تلاه.

(قريبًا) فكر "شاندلر" *هل أُصبت؟*

لا شك أنه فى ارتباك اللحظة نظر لنفسه، لامس رأسه وشعره، كان رد فعل طبيعى، وكذلك فعل الضباط والعاملون بالإسعاف مثله دون تفكير، *لا، ليس أنا. ليس هذه المرة.*

هل كان يتوقع أن يطلق آل "مايويزر" النار عليه عبر النافذة المكسورة؟ لينهى الموقف.. ليختتمه، لم يسأل أبداً لماذا.

انقطعت القطعة الموسيقية فجأة دون أن تنتهى، مرت فترة قصيرة من الصمت ثم بدأ عازف آخر يعزف، من البداية. كانت هذه هى المعلمة تظهر للتلميذ كيف يجب أن تُعزف القطعة. النغمات قوية دقيقة متدفقة تتضخم كما تفعل لتستحوذ على قلبه. لكن "شاندلر" وجد الموسيقى مزعجة.

بكيت على "ديرك برنابى" سرًا، أليس كذلك؟ لكنك حظرت على أطفالك أن يبكوه، خنتنا فى الحزن.

لابد أن "جولييت" هى التى أخرجت الجيرانيوم فى القدور الفخارية على سور الشرفة. جولييت التى أعادت طلاء درجات السلم القديمة الخشبية الرمادية بلون الصلب، ثمة وسادات مبقعة بفعل الأمطار على هذه المقاعد نادراً ما يجلس الناس عليها. شارع بلطيق حى يجلس فيه السكان فى شرفاتهم الأمامية فى الطقس الدافئ، وأحياناً فى وقت متأخر من الليل، يشربون ويأكلون.. لكن ليس "آريا برنابى" بالطبع، بالنسبة إليها هذا السلوك "مبتذل".. "فج".

لا شىء يزعج "آريا" أكثر من "معرفة الغرباء بأحوالنا".

لا شىء يثير اشمئزازها أكثر من "عرض لؤلؤتك أمام الرعاع".

من المثير للعجب فى حياة "آريا" أنها بينما هى منعزلة هكذا عن جيرانها، وحريصة على الحفاظ على خصوصيتها، كانت تجذب الانتباه إلى نفسها أكثر من أى من سكان شارع بلطيق. خمن "شاندلر" أن كل من هم أكبر من سن معينة يعرفون أرملة من كانت، فالجميع لديهم رأىٌ ما فى "ديرك برنابى". لكن ثمة ما يثير التعاطف (على ما يعتقد "شاندلر") فى كبرياء أمه، فى رفضها للتواضع.. أن تكون "عادية".. نادرًا خلال الستة عشر عامًا التى مضت ما زارت أى من جيرانها، حتى لكى تشكرهم على اهتمامهم بأطفالها فى أثناء تواجدها بالمستشفى.. بل كتبت "آريا" خطابات شكر رسمية على أوراق ناعمة مكلفة الثمن، وأرسلت "جولييت"

لتسلمها، نادراً ما قبلت الدعاوى من آباء تلاميذ البيانو الموهوبين لديها، وكانت ترفض بشدة أن يتناول أطفالها الطعام مع الأصدقاء، دعك من أن يقضوا الليلة عندهم، وكان إعلانها الذى تنطقه بصوت مرتعش هو: "ربما كنّا شبه معدمين، لكننا لا نحتاج للإحسان" وفى صوت فخور يمكن لكل من أطفالها أن يحاكيها: "كنت أنفق على نفسى لفترة طويلة قبل أن أتزوج، وبعد الزواج بكثير".

خانت حزننا.. لماذا؟

تذكر "شاندلر" جدته "ليترل" وعدة أقارب آخرين لم يرهم من قبل قط ولن يرهم فيما بعد، وقد حضروا لشلالات نياجرا للإقامة مع "آريا" فى المرحلة الأولى المدمرة من تحولها إلى أرملة. هؤلاء الناس الطيبون، كلهم من الإناث اللاتى طمحن فى إقناع "آريا" بالعودة معهن إلى تروى، حيث يعتقدون أنها "تنتمى" لماذا تبقى "آريا" فى شلالات نياجرا؟ كانت تكره عائلة "برنابى" من أقاربها الأثرياء ويبدو بوضوح أنهم لا يحبونها، لم يكن لديها هنا أى أصدقاء، ولا سمعة قوية باعتبارها معلمة موسيقى، سينشأ أطفالها تلاحقهم اللعنة قرب الشلالات.. ديارها فى تروى مع عائلتها.

لكن "آريا" كانت تقول فى هدوء: "لا. دارى ودار أطفالى هنا".

"آريا" تعزف البيانو كما تعزف طيلة حياتها، بدقة وقوة وبريق وهشاشة واحتراف. *آليجريتو مولتو فيفاتشى*.. نغمات مرحة تنساب من بين أصابعها كلما أمرتها، يمكنها أن تعزف *مايستوسو*، وكذلك *ترانكيولو* بنفس القدر من البراعة، وحين تضرب المفاتيح الخطأ تتحرك أصابعها بسرعة قدماً، ولا تعرف على وجه اليقين إن كانت أخطأت أم لا.

ابتعد زاريو فجأة عن عناق "شاندلر" وهرول إلى الممشى الجانبى ليرحب بكلب يسير مع رجل يمشى بركبتين متصلبتين وعينين كالبيض النيئ فى وجه هرم "زاريو! مساء الخير".. هكذا قال الرجل بلكنة أجنبية، من الواضح أن الكلبين يعرفان أحدهما الآخر، فقد راحا يتشممان أحدهما الآخر فى حماس. حتى أن زاريو نبح، وهو ما يفعله نادراً، برغم

أنه ليس شابًا، فدائماً ما كان زاريو كلباً متفائلاً، ويرى أفضل ما فى كل الكلاب الأخرى، راح ذيله يهتز كالبندول وعيناه غمرتهما العاطفة. قالت آريا إن زاريو نسخة ظلية منها.. فيه كل ما هو جيد فيها، عاطفى وحساس.. كل هذا فى زاريو.

كان الكلب الزائر من كلاب الصيد ولونه كلون ورنيش الأحذية.. عيناه غائمتان وقدمه الخلفية اليسرى يبدو أنها لا تتحرك، لكنه يهز ذيله فى أمل "أتعرف زاريو؟" كذا سأل "شاندلر" الرجل وأومأ الرجل برأسه مؤكداً، وقال فى شىء من الخجل: "أجل، أعرفه جيداً، وكذلك هوجو. وأعرف صاحبة زاريو، أمك على ما أعتقد؟"

أحس "شاندلر" بشىء كالوخزة أصابت عينيه فى هذه اللحظة.. صاحبته؟ أمك؟

أول مرة يسمع "شاندلر" بأن أمه صديقة لأى أحد من الحى.

وداخل البيت نغمات البيانو تتدفق مثل طيور منتشية.

فى صوت متردد فيه لهجة أجنبية قوية قال الرجل: "أنا "جوزيف بانكوفسكى".. أنت "شاندلر"، أليس كذلك؟ نعم.. أنت معلم العلوم، كما قالت "آريا". أحياناً أقف هنا وأنصت فى الأمسيات الدافئة حين تكون النوافذ مفتوحة.. أمك عازفة بيانو بارعة يسعدنى سماعها، فى عزفها حيوية.."

كانت "بانكوفسكى" يرتدى ثياباً داكنة أنيقة.. سترة صوفية تنزلق على منكبيه الهزيلين وسروالاً داكنًا واسعًا، وحذاء من جلد أسود لامع ذات جودة فائقة ، كان فى أواخر الخمسينات من عمره، وارتفاعه ووزنه معتدلين، ويبدو كأنه كان فيما سبق أضخم من حاله الآن وجهه ـ كما تبين منه "شاندلر" فى اضطراب ـ وكأنه قد خيطت أجزاؤه.. جمجمته وراء جلد رأسه فى هضاب ومنحدرات، يتنفس بصوت مسموع أنفاسه خشنة، عيناه تنظران فى ألم وارتباك إلى "شاندلر" وحوله وإن كان سيدرك بعدها أنه *أراد أن يبهرنى ويترك عندى انطباعاً جيداً.. فأنا ابنها.*

صديق "آريا" يهودى بولندى ولد فى وارسو فى جيتو فيلنا، ومنها خرج إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٦، كان موسيقيًا، عازف فيولين، لكنه لم

يعزف منذ سنوات، أعصابه وأصابعه انتهى أمرهما، راح "بانكوفسكى" يحدق فى أصابعه محاولاً أن يقبضها. كلب الصيد هوجو يشد صرعه يكاد يفلت منه.

أحس "شاندلر" بالرغبة فى سؤاله عما جرى: ١٩٤٦ لكنه كان يعرف أنه لا طائل من هذا فيمكن تخمين ما نجى منه الرجل.

- "أول موسيقى أسمع أمك تعزفها كانت فى يونيو الماضى لدى الممشى الجانبى، وكانت مازوركا لشوبان، كنت أمر ومعى هوجو، وتوقفنا، لم نتمكن من التقدم بعدها، وليس فى نفس المساء لكن فى وقت آخر، سمعنا أختك تغنى، أغنيتين صغيرتين من ميرتن لشومان، بالطبع لم نكن نعرف من هؤلاء الناس.. وكل هذه الموهبة. "جولييت".. اسم شكسبيرى! فتاة خجولة لكن تتمتع بصوت ألتو ممتاز، لكن أنت تعرف هذا بالطبع. فأنت شقيقها".

قطب "شاندلر" جبينه. فى الواقع لم يكن يعرف.

منذ سنوات و"جولييت" ما زالت بعد طفلة حاولت "آريا" تدريب صوتها، كما حاولت تدريب صوت "رويال". لكن "آريا" كانت طلباتها كثيرة، والدروس تنتهى بالدموع والألم، كان "شاندلر" يعرف أن "جولييت" تغنى فى جوقة الفتيات فى المدرسة الثانوية، وكثيرًا ما تغنى سولو كمغنية أساسية للجوقة، لكنه لم يكن يعرف أن "جولييت" تغنى مع "آريا"، أبدًا.

بدافع من التهذيب سأل "شاندلر" إن كان "بانكوفسكى" يقيم بالجوار، وقال الرجل الأكبر سنًا محرجاً: "لست قريبًا جدًا! لكن لست بعيدًا أيضًا!" توهج وجهه المُركبة أجزاؤه. انتهت "آريا" من عزفها على البيانو فجأة، وبدا أن "بانكوفسكى" متلهف على المغادرة، قال متلعثماً: "أرجوك أن تبلغ أمك تحياتى، هلا فعلت يا سيد "شاندلر"، أعنى "شاندلر". شكرًا لك. طابت ليلتك!"

تقدم "بانكوفسكى" فى طريقه بركبتيه المتصلبتين وهو يسحب هوجو خلفه، تبعه كلب الصيد العجوز فى تردد وهو ينظر إلى زاريو الذى نبح

عدة مرات فى تتابع سريع. خطر لشاندلر إنه يحب هذه الكلبة. ليساعده الرب.

حين سأل "شاندلر" عن "جوزيف بانكوفسكى" بدا عليها أيضاً الإحساس بالحرج: "ذلك الرجل، إنه يصلح الأحذية" حاولت "آريا" أن يبدو عليها القليل من الاحتقار، دون أن تواجه "شاندلر" فى عينيه.. "نذهب إلى الحفلات الصيفية فى الحديقة أحيانًا، إنه أرمل. وأطفاله كبروا ورحلوا عنه" توقفت "آريا" عن الكلام وكأنها ستقول كأطفالى، وقال "شاندلر": "يبدو أنه رجل لطيف للغاية.. رجل مثقف مهذب، كان يعزف الفيولين وهو معجب بعزفك على البيانو" ضحكت "آريا" مقللة من شأن كلامه.. "سرد عليك تاريخ حياتهن أليس كذلك؟ الأشخاص الوحيدون يتكلمون كثيراً" قطبت جبينها وهى تطالع أحد أركان الحجرة وكأنها تنظر إلى العدم فى غضب وازدراء.. "كان فى بركيناو، لن يحدث أن يرجع عن كونه فى بركيناو، هناك رقم محفور على معصمه الأيسر. يرتدى قمصانًا طويلة الأكمام، لكن ما زال من الممكن رؤية الرقم" توقفت "آريا" عن الكلام وهى تحك معصمها النحيل.. "قد تتخيل أن بالإمكان إزالة وشم قبيح كهذا إذا حاولت أن تزيله".

اعترض "شاندلر" قائلاً: "إزالة الوشم مؤلمة يا "آريا". ربما لا يمكن إزالته فى كل الحالات".

قالت "آريا" فى حرارة: "كنت لأزيله".

راحت الأم والابن يتنفسان بسرعة وكأنهما يتشاجران، لكن علام؟ ولماذا؟ رجعت "لشاندلر" ذكرى عابرة عن كيف أنه فى هذا المطبخ قبل أعوام هجمت عليه "آريا" دون تحذير وقد تغير مزاجها فجأة لأنه كان يتسلل إلى خارج الحجرة جاسوس.. كذا أطلقت عليه.

جاسوسًا؟

ردت "آريا" على أسئلة "شاندلر" عن جوزيف بانكوفسكى بسؤاله عن صديقته المتزوجة". وقال "شاندلر" إنه لم ير "ميليندا" أو يسمع صوتها منذ اثنى وعشرين يوماً.

أحست "آريا" بالذهول.. "اثنا وعشرون يوماً! إنك تحصى الأيام".

ـ ليس عمداً يا ماما.

تفكرت "آريا" فيما تقوله، فى العادة لا تتكلم عن "ميليندا" إلا بشكل فضفاض، كمن يتحدث عن حالة أو مزاج غامض يصعب إدراكه، مثل الكلام عن الاقتصاد أو التنبؤ بالإنفلونزا الآسيوية. قالت: "أنا واثقة أنها امرأة رائعة.. ممرضة، من الجيد دائمًا أن تكون فى الأسرة ممرضة! لكنها أكبر منك، أليست كذلك؟ ومطلقة. وظروفها صعبة، فقد هجرها زوجها قبل أن تلد!"

كان "شاندلر" يعرف أن الأفضل ألا يدافع عن "ميليندا" أمام أمه، كم من المرات قال *نعم لكنهما تزوجا فى سن صغيرة للغاية، نعم كان هذا خطأ، وكان يريد أن يقول نعم أحبها، لماذا تشعرين بالتهديد منها؟*

استرسلت "آريا" فى كلامها مقطبة الجبين: "إذا كانت تريد إنهاء الصداقة بينكما، فأنا أحترم قرارها. إنها أكثر منك نضجًا. أتفهم غيرتها من عملك بمعالجة الأزمات. وهناك شىء غير طبيعى فى العلاقة بين الرجل والمرأة حين تكون المرأة أكبر سنًا من الرجل، وحين يكون الرجل غير ناضج من الأساس، "رويال" و"كاندس".. كان فى علاقتهما ما يسوء".

ضحك "شاندلر": "ما يسوء؟ أنت من عرفته بها يا "آريا". أنت من عرضت الزواج عليهما من الناحية العملية".

ابتسمت "آريا". توهج وجهها بحمرة خفيفة، كانت تحب أن يغيظها أبناؤها.. وبما أن رويال قد رحل فلابد أن يفعل "شاندلر" هذا.

ـ أمك تخطئ. فهى مجرد إنسانة".

مجرد إنسانة! هذا جديد على "شاندلر".

فيما بعد، حين انتهت زيارة شاندلر وبدا أن "آريا" فى مزاج طيب، تجرأ "شاندلر" على قول إنه ذهب إلى إيل جراند مؤخراً.. "تكلمت إلى كل من عمتاك.. "كلاريس وسيلفيا".

ـ "عمتاك.. كم هذا مريح، منذ متى هاتان المرأتان المروعتان عمتاك؟" كانت "آريا" تتكلم بهدوء وكأنها متعجبة.

ـ عمتى "كلاريس خبرتنى بشىء غريب..

ـ مؤكد أنها فعلت.

ـ "قالت لى.."

وضعت "آريا" يديها على أذنيها.. "أرجوك لا تلطخ سذاجتى وبراءتى يا "شاندلر". أنا مستعدة لأن أصدق.. تلك الشمطاء الحقود التى تكرهنى قالت لك شيئًا بالغ الغرابة".

راحت "آريا" تضحك، أو تحاول الضحك.. تردد "شاندلر". كيف له أن يسأل أمه إن كانت قد تزوجت مرتين؟ إذا كان زوجها الأول قد رمى نفسه فى الشلالات؟ فى الأمر شىء من الإحراج. بل أكثر من الإحراج، العجب. مثل هذه الحكايات القديمة عن العواطف والرومانسية التى تتردد حول الشلالات، وكانت تتردد حولها فى قرن سابق.

بدافع لحظى قال "شاندلر": "ماما؟ هل أنا.. هل كنت.. ابن أبى وابنك؟ أعنى.. لست طفلاً بالتبنى؟"

ـ بالتبنى! ماذا تقول؟!

لم يقصد "شاندلر" أن يذكر التبنى، فى حومة ارتباكه لم يكن يعرف ما يقول.

اقتربت "آريا" محمومة لتلمس معصم "شاندلر"، لتواسيه.. عيناها، وللحظة قبل أن يلمع الاخضرار الغاضب فيهما رقت له. قالت بصوت خفيض عطوف:

حبيبى، بالطبع لست طفلاً بالتبنى، فقد ولدت هنا فى شلالات نياجرا، فى المستشفى. لابد أنك رأيت شهادة ميلادك، وأنا واثقة أنك استخدمتها من قبل، لماذا تقول هذا يا "شاندلر"؟ فى وقت كهذا! أنت شخص بالغ، وتبلغ من العمر سبعة وعشرين عاما.. حبيبى، لم تكن ولادتك سهلة. استغرقت فى الولادة ١١ ساعة و١٢ دقيقة وأذكر ما جرى بوضوح،

من الخطأ القول إن الأم لا تذكر أشياء كهذه، خاصة فى الولادة الأولى، وكنت.. كنت ابنى الأول". تكلمت "آريا" فى حماس، وهى تشد ذراع "شاندلر" وكأنه سيخالفها.. "لن يتغير هذا أبداً".

ـ وأبى..

ـ نحن لا نتكلم عنه، فقد رحل.

ـ أبى كان ديرك برنابى.

أغمضت "آريا" عينيها وقد تصلبت فجأة، صغر حجم فمها واستدق طرفه وكأنه قوقعة مغلقة.. انفكت من رباط شعرها خصلة، ونزلت على طرف عنقها، التقط "شاندلر" نفساً وكأنه يشعر بالانتصار. فى هذا البيت وفى حضور أمه نطق أخيراً اسم "ديرك برنابى".

حين مات كان هذا فى حادث، أليس كذلك؟ قيل إنه حادث؟

لمّا لم تحر "آريا" جواباً، تجرأ "شاندلر" على السؤال: "وماذا عن التأمين على حياة بابا، إذا كان حادثاً؟ ووصيته؟ لابد أن هناك نقوداً تخصه".

غرست "آريا" أطراف أصابعها فى جفنيها، أحس "شاندلر" بغضبها قبل أن تنطق.

ـ لا يمكن أن أقبلها.. نقود دموية.. نقود ملوثة. لا يمكن.

يجب أن يفكر "شاندلر".. أن يستوعب ما قيل، ما الذى تقولينه "آريا"؟

وهى تتكلم مكررة ما قالته فى عصبية، وكأنها تكرر كلمات استذكرتها مرات كثيرة، أحس "شاندلر" بأطراف مجال رؤيته تضيق وتظلم.. تتضاءل: "حاولوا أن يجبرونى على أخذه.. محاموه.. وأسرته. لكننى رفضت، كان يجب أن أرفض، لم يكن بدافع من الكبرياء، فلست متكبرة. حين هجرنا أوصدت قلبى دونه ودون كل آل "برنابى".

لم يصدق "شاندلر" ما تقوله له "آريا". حتى وإن كان جزء من عقله يفكر فى هدوء أن: *بالطبع، كنت أعرف، لابد أن ما حدث هو شىء كهذا* "ماما، ماذا؟ كم من النقود "رفضت"؟

ـ بعت البيت.. هذا البيت السخيف، سكن الصلف والكبر.. كان يجب أن يُباع، ثم انتقلنا إلى هنا.. وكنا سعداء هنا، أليس كذلك؟ أربعتنا وزاريو.. أسرتنا الصغيرة".

ـ "آه يا ماما".

ـ ألم نكن سعداء؟ ألم نعش حياتنا متماسكين؟ حياة أمريكية فيها.." بحثت "آريا" عن الكلمة.. "احترام للذات، لكننى استخدمت بعض النقود الدموية من بيع البيت. كانت لدينا دوماً بعض النقود فى البنك. نقود قليلة فى حالة وقوع طارئة مروعة، الله أعلم ما قد يصيب أى من الأطفال الثلاثة الذين لم يجدوا حماية من هذا العالم، أردت أن أعفيكم من تلك الحياة الأخرى، حياة آل برنابى. أيا كانت حياتنا هنا، فهى لنا".. راحت آريا تتكلم فى رجاء.. "وكنا سعداء يا "شاندلر"، أليس كذلك؟"

ـ كم من النقود أعدت؟"

ـ لا أعرف بالمرة.. رفضت أن يخبرونى. رفضت أن يغرونى يا "شاندلر". لو كنت فى مكانى، أتمنى لو كنت ستفعل الشىء نفسه.

أعوام فى شارع بلطيق.. آل "برنابى" شبه المعدمين ضحك "شاندلر" متشككاً.. هل كان ليفعل الشىء نفسه؟"

ـ "لا".

آه يا "شاندلر". بل كنت ستفعل.. حتى قبل فضيحة قناة الحب، كنت أعرف أن نقود آل "برنابى" ملوثة.

ـ ملوثة! "آريا" إنك تشبهين شخصية من أوبرا درامية وليس هذه الحياة، هذه شلالات نياجرا، وهذه هى الدنيا. كل النقود ملوثة بحق المسيح".

ـ ليس هذا صحيحًا، أنت، معلم المدرسة العامة لابد أن تكون أفكارك أسمى من هذا".

الحقيقة هى أنك أردت أن تعاقبيه. تعاقبين "ديرك برنابى" برفض نقوده.. بعقابنا نحن.. وكأنه من قبره سيرى وسيشعر بالأسف.

- لا.. بل كانت مسألة مبدأ، لو كنت فى مكانى كنت تفعل الشىء نفسه يا "شاندلر"، قل لى نعم كنت لأفعل.

فى ذلك الحين كان رأس "شاندلر" يؤلمه بشدة، رأى فى حياد وانفصال غريب عن نفسه أن بصره ضاق كثيراً، وكأنه فى أحد مواقع حالات الطوارئ، الرؤية النفقية من أعراض الذعر، لكنه ذعر خاضع للتحكم.

- أمى إنى راحل.

فى تلك اللحظة عادت "جولييت" إلى البيت، وكانت تجالس بعض الأطفال فى الحى، خلسة وفى هدوء تام وكأنها قطة صعدت شقيقة "شاندلر" سريعاً السلم دون أن تنطق بأكثر من تحية عابرة، وكأنها تعرف أن آريا كانت لتبعدها، فلا رغبة منها فى مقاطعة المحادثة المحتدمة فى المطبخ مع ابنها.

وقف "شاندلر"مذهولاً، محاولاً أن يفكر.. الحقيقة أننى ابنه، ولا يهمنى أى شىء آخر، عانق آريا وهو يستشعر كم أصبحت ضعيفة. وحين قبلها أحس بجلدها يحرق وجنته، حاول أن يقول إنه سيتصل، وإنه سيمر غداً بعد المدرسة، لكن الكلمات اختنقت فى حلقه. كان يشعر بالضعف دون مبالغة فى الوصف. تبعته "آريا" إلى الباب الأمامى ونادت عليه من الشرفة بصوت ضعيف واهن متحمس كصوت فتاة صغيرة: "حبيبى، قل نعم كنت لتفعل".

رد عليها "شاندلر" فى إهمال من وراء كتفه وهو يستقل سيارته، وكأن هذا أمر عابر وليس حول مئات الآلاف من الدولارات يدور رأسه وهو يحصيها: "بالطبع يا ماما.. أنت تعرفيننى".

أبداً لن يفهم أمه، ولهذا فعليه أن يحبها دون أن يفهمها.

ماما تمسح معصم بابا بفرشاة، وبقوة.. الاثنان بالطابق العلوى فى البيت القديم بلونا بارك، البيت الأول، حيث كان "شاندلر" هو الطفل

الوحيد.. ماما متحمسة وقلقة.. وجه بابا غائم تراه مربوطًا بخيط جراحى، "شاندلر" الطفل الصغير جالس القرفصاء لدى الباب، ثم زحف مقتربًا، مختبئًا عن الشخصين الكبيرين عند طرف السرير، السرير الماهوجنى العملاق.. الحجرة مغمورة بالضوء براقة وإن كانت معتمة يصعب أن تتبين ما فيها، لا يرى وجه الرجل لكنه يعرف أنه بابا. وماما تمسح بالفرشاة على المعصم الدامى، إذ كان فى الجلد ما يضايقها، قطرات من الدماء كالمطر تطايرت فى الهواء وحطت بعضها على "شاندلر". راح يبكى محاولاً إبعاد الفرشاة عن أصابع ماما القوية، وفى أثناء الصراع أفاق من نومه مذهولاً منهكاً.

-٩-

درسنا اليوم هو الشلالات، والتآكل".

على السبورة الأمامية لقاعة درس الأستاذ "برنابى" للصف التاسع كانت توجد خريطة مبسطة وإن كانت دقيقة، لنهر نياجرا، مرسومة بضربات طباشير سريعة بيد الأستاذ "برنابى" (الذى لابد أن فى رأسه خريطة مرسومة كهذه). وما زال مكتوباً على السبورة منذ الأسبوع الماضى:

التآكل الزمن.. التآكل الزمن

الأستاذ "برنابى" يقول مشيراً بالطباشير: "الشلالات هنا حالياً، فى هذه المنطقة، ومدينتنا، لا تزيد مساحتها على ميلين بدءاً من هذا الفصل، لكن الشلالات لم تكن هنا منذ الأبد، ولن تبقى هنا. الشلالات تتحرك".

نبعت الشلالات لدى منبع النهر، شمالى مدينة ليوستون، منذ قرابة اثنى عشر ألف سنة. ليس منذ زمن بعيد بالنسبة لعلم الجيولوجيا، لكن تآكل الأرض يتحرك سريعاً".

"بوصة فى القرن.. أجل، هذا سريع".

"شاندلر برنابى"، معلم المعرفة السرية التى تثير عجب بعض تلاميذه النجباء. الأستاذ "برنابى" معلم العلوم للصف التاسع فى مدرسة شلالات

نياجرا العامة، يجول فى شجاعة وجرأة بين حقبات من الزمن الجيولوجى، وقطعة من الطباشير بين أصابعه وكأنها تعويذة سحرية.

الأستاذ "برنابى"، الذى تشعر بعض فتيات الصف التاسع (وهذا ليس بالسر الخافى على أحد) بالإعجاب نحوه.

الأستاذ "برنابى" مرتسم على وجهه تعبيرات الأستاذ "برنابى". يتكلم بصوت الأستاذ برنابى المألوف.

يقول للمراهقين الصغار، وبعضهم أقرب إلى الطفولة، حقائق مروعة عميقة مؤثرة عن الزمن والأخلاق والانعزال الإنسانى فى هذا الكون الذى لا رب له.. حقائق حول الخسارة والفناء.. عجلة تدور إلى الأبد.

الأستاذ "برنابى" يرسم خطاً بطول بوصة، كم يبدو صغيرًا على السبورة، تكاد تخطئه الأعين "أجل، مجرد بوصة فى القرن، لكنه تآكل بطىء لا يرحم لحوض النهر على مدى أربعين ميلاً. حين تفشل أجهزتنا البشرية فى منع التآكل، فسوف تستمر الشلالات فى حركتها، ذات يوم سوف تكون قد تحركت طيلة المسافة الفاصلة بينها الآن وإيل جراند، متجاوزة توناواندا، ومتجاوزة بافالو، وذات يوم، بعد وقت طويل للغاية من الآن، سوف تصل الشلالات إلى بداية المضيق فإن نهر نياجرا ليس نهراً، بل مضيقًا، يوصل بين بحيرتين عند بحيرة إيرى".

يريد "شاندلر" الاعتقاد بأن بعض تلاميذه يستوعبون هذا، يشعرون بهذا فى أعماقهم الشلالات التى تعلموا أن يعتبروها من المُسلّمات، ليست دائمة؟

صبى متفوق رفع يده، يسأل ماذا سيُطلق على المدينة إذا رحلت الشلالات عنها؟ نياجرا فقط.. دون "شلالات".

يقول "شاندلر": "المرجح أنه لن يُطلق عليها أى شىء، لن يعد هنا أحد يهتم بالاسم، مثل الكتل الثلجية العملاقة التى كانت فى العصر الجليدى، فسوف تتحول مدينتنا ومدن أخرى إلى ركام مخبوء تحت الأشجار الكثيفة، وقد رحل عنها سكانها منذ زمن بعيد، لقد شاهدتم ما يكفى من أفلام

الخيال العلمى لتعرفوا السيناريو المتوقع. الأشياء تفنى، والحضارات تتهدم، والأجناس تنقرض.. من يعرف أين هو؟"

تلاميذه يحدقون فيه، ثمة صمت غير مريح، من يعرف أين؟ تحلق فى الهواء عالقة، لقد أخاف هؤلاء الصغار لثوانٍ عابرة قبل أن يرن الجرس ويطلق سراحهم ويبدو أنه أخاف نفسه أيضا، وضع طباشيره على قائم تحت السبورة لكنها تتحرك وتنزلق وتسقط لتتحطم إلى شظايا تحت قدميه.

-١٠-

لم يتصل بميليندا

يمكنه أن يجد الكبرياء فى امتناعه على الأقل.

لكنه كتب "لميليندا". فهو يعرفها ويعرف نفسه من كتابة هذه الخطابات وإن كان يضعها فى الدرج دون أن يرسلها.

ولم يقرر إرسال بعض الكلمات إلى "ميليندا" إلا بعد مقابلته بجوزيف "بونكوفسكى". كلمات كثيفة كأبيات الشعر:

أنا آسف.

أفكر فيك دائماً.

اجل، أنا مخطئ فى بتقدير حياتى بهذا الثمن الرخيص.

أرجو أن تسامحينى.

كيف يوقعها بغير مع حبى، شاندلر؟ لا يوجد شىء آخر.

كان يكره كلمات "أنا" الكثيرة التى كتبها.. يكره غروره، وحصاره داخل نفسه وكأنه حشرة فى زجاجة. أجل عليه أن يرسل برسالة.. كتب وأعاد كتابة كل سطر عدة مرات، ولم يتمكن من إضافة أى تحسن.

"ميليندا" لم ترد ولم تتصل، لكن بطريقة ما يشعر بالتحفيز.

لن يضايقها، لن يمر بشقتها فى شارع ألكوت، لن يتصل برقمها وينصت إلى الجرس يرن ثم يقفل سريعاً إذا رفعت السماعة.

لن يذهب إلى المستشفى ليرى إذا.. ليرى.

لن يرسل زهوراً معها كارت عليه مع حبى، ش.. كان يعتقد أن الزهور المرسلة إلى امرأة من رجل قد تشعر معها بنوع من الاعتداء الجنسى.

بدلاً من هذا أرسل إليها كروت مختارة بعناية، مشاهد من الشلالات توحى بجمال سماوى بديع، وفى الوقت نفسه وخطورة هذا الجمال.

يمكن أن اتغير.. اعتقد هذا.

أحبك، واحب "دانيا".

هلا منحتنى فرصة أخرى؟

فى أول مايو بحث عن كروت كرتونية رقيقة فيها ممرضات ومرضى، لكنه لم يجد أى كروت من هذا النوع لا تتمتع بالسوقية.. كأحد الرسوم، رجل راقد على ظهره على محفة وممرضة تأخذ الدم من ذراعه.

"ميليندا"! أنا بين يديك تماماً.

رحمة بى.

وأنتظر.

سيدتنا سيدة الشلالات

لم لا؟ لم لا نقدر على الإيمان؟ لابد أن بعض الأشياء التى لا نؤمن بها حقيقية.."

فى ربيع عام ١٨٩١فى شلالات نياجرا كانت تعيش خادمة تعمل فى حلب الماشية، فى الخامسة عشرة من عمرها استقرت وأقامت مع أقارب لها فى المنطقة قادمين من كاونتى كورك بأيرلندا. قيل إن إيمان الفتاة "محايد"، وتؤمن بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة، لكنها لم تكن من المؤمنين المخلصين الذين يحضرون المراسم ويتناولون العشاء الربانى فى أيام غير يوم الأحد.

خلال عام من وصول الفتاة إلى شلالات نياجرا أصابها الاضطراب الشديد.. إذ اعتراها الشحوب والذهول والأرق، فجأة انسحبت من رفقة أقاربها الصاخبين، انجذبت إلى الشلالات لتكفر عن خطيئتها التى كانت خطيئة الجسد، وفعلها فيها ابن صاحب حظيرة الماشية، أقسم الشاب إنه يحب خادمة حلب الأبقار فى أول أيام تعارفهما، ومع الوقت أقسم إنه سيخنقها بيديه اللتين اشتدت من كثرة حلب الأبقار التى كانت تتأوه مشتاقة للحلب كما (كما اعتقد الشاب) تاقت الخادمة لأن يحلبها حبيبها، لأن يقذف فيها.. يدخلها منيه الأبيض ويغطيها وهى تتأوه فى ألم وهى تحرك فخذيها من جانب إلى جانب وتعض بشفتها السفلى بقوة تكفى لغسالة الدماء.

هذه الفتاة العذراء أغراها الشاب، حبلت، ولم تكن السبب فى هذه الخطية، ولكنها حملت تبعاتها فى بطنها التى أصبحت صلبة كالجوزة

(لخزيها لم تحاول إجهاض الطفل غير المرغوب من بطنها.. حاولت، حاولت! تعثرت على عقبيها وضربت نفسها على بطنها، وركضت حتى انهارت لاهثة كالغزال الذبيح، وبهذا أدركت خطيئتها مضاعفة، يحتقرها الرب عن حق) وفى حومة ذهول الألم والحزن وضعف التغذية واحتقار الذات فى الشهر الثالث للحمل، حين منعها عن كل من يعرفونها، ومنعها مالك الحظيرة من أن تطأ أرضه.. تقدمت الفتاة المكللة بالعار على قدميها إلى نهر نياجرا وإلى الشلالات، التى سمعت أن فيها مكانًا للخاطئين يغسلون فيها ذنبهم بتخليص العالم من أنفسهم، أزاحت عنها حذاءها كتائبة تسير فى التراب، كأنها مسحورة وهى تطأ أحجارًا حادة الأطراف، وعشب طويل يصل إلى ضفة النهر المتدفق، أبداً لم تحدق فى مشهد كمشهد النهر والشلالات تبث الضباب كسحب من البخار أحست بها فى حالتها المذهولة "كأنها تغلى ساخنة، مثل جهنم".

اتخذت الخادمة قرارها، وكانت هادئة فى تصرفاتها، سوف تهب نفسها للنهر كى - وكما سمعت عن آخرين كثيرين غيرها - يحملها سريعًا فوق الشلالات. وبهذه الطريقة ستزيح عن أسرتها عبء عارها الذى ستجلبه عليهم، وتبعد هذا الطفل ابن الحرام الذى لا يريده أحد ولن يحبه أحد (بخلاف الخادمة ربما) لكن وهى تطل على سحب الضباب ابتسمت حين رأت عدة أقواس قزح صغيرة تلمع على شعاعات الشمس المضيئة القليلة ومن ورائها السماء الملبدة بالغيوم، وبهذه الابتسامة البريئة أحست بقلبها يخفق ورأت رؤيا فيها فتاة منيرة ترتقى أمامها وتعلو الشلالات الهائلة على بعد أربعين قدمًا، تطفو فى الهواء. قدما هذه السيدة مختفيتان وسط الضباب الذى تولده الشلالات، ورأسها المحاط بهالة من نور يلامس السماء، زلزل قلب الخادمة، وخرت إلى ركبتيها.. مريم المقدسة أم الرب، عليها تعرفت فيها فوراً.. على العذراء بوجهها الجميل المليح وثوبها الملكى الأزرق المتهدل فى طيات جميلة حول جسدها النحيل. كما علموها فى طفولتها فى الكنيسة الكبيرة.. أسلمت الفتاة نفسها لهذه الرؤية دون لحظة من التردد أو الخوف، ودعت بصوت مرتفع

متهدج مريم المقدسة، أم الرب! صل من أجلنا نحن ـ الخاطئين ـ فى ساعة موتنا.. آمين.

ثم توسلت الخادمة إلى مريم العذراء كى تغفر لها، ابتسمت مريم العذراء لها فى رفق وتكلمت بهدوء حتى أن هدير الشلالات حجب كلماتها لكن المشهد وهى تحادث الخادمة كان وكأنها تهمس فى أذنها قائلة: *لا يوجد ما أغفره يا طفلتى. حبى.. تكونين تؤدين إرادة الرب.*

لدى هذه الكلمات أحست الخادمة بالدوار وفقدت الوعى ولم يكتشفوا وجودها لدى ضفة النهر قبل مرور عدة ساعات، واعتراها الهذيان والحمى لأيام، حملوها إلى بيت قريب فى شارع بروسبكت، وعالجها طبيب وأفاقت من ثباتها وهى تبكى فى فرحة، وتلت على منقذيها الرؤية التى وهبتها إياها عذراء الشلالات، وكررت روايتها مرارًا على كل من قد ينصت، على قساوسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الذين تم استدعاؤهم على الفور، ولم تكن الخادمة الأيرلندية قد تعلمت أو تعرف الكتابة، لكن ـ وحسب ادعاء الشهود ـ تكلمت بيقين ووجهها يشع، قائلة ما يؤكد استحالة كذبها. تكاد ترى العذراء فى عينى الخادمة.. كانت تتلو المعجزة التى شهدتها بشكل متفرد ورسالتها الخاصة للمؤمنين، لا يوجد ما أغفره. حبى.. تكونين تؤدين إرادة الرب.

تم تشييد ضريح فى منطقة مليئة بالتلال تقع على مسافة ثلاثة أميال شمالى الشلالات، بمناسبة رؤية الخادمة: كنيسة سيدتنا سيدة الشلالات. ومع الوقت وبعد معجزات كثيرة عن "الاستشفاء" و"تلقى الوحى" قيل إنها وقعت هناك، كبرت الكنيسة، وفى عام ١٩٤٩ تم تشييد تمثال جديد بارتفاع ٣٠ قدمًا لمريم العذراء، وتم تصنيعه فى شركة فيرمونت للرخام، وكان وزنه يتجاوز العشرين طنًا، ووضع فى موضع يمكن رؤيته فيه من على بعد عدة أميال، مثل الرؤية المطلة على مدينة شلالات نياجرا والنهر، *رأيت، وأردت أن تصدق. رأيت، وأشحت بوجهك وضحكت وانصب حمضًا لاذعًا فى فمك، وأحسست بالاشمئزاز والخزى لكن: أردت أن تصدق.. اشفنى.*

الأصوات

- ١ -

هناك لعنة مسلطة على أسرتنا.

لا.. أسرتنا هى اللعنة.

الأصوات! الأصوات القادمة من الشلالات.. فى الشتاء يُغلف الثلج الشلالات وتلمع أقواس قزح عبر الشلال والضباب المجمد كشذرات الزجاج يغطى الأشجار، ويظهر جسر هش من الثلج عبر النهر، يمتد من جزيرة لونا إلى شلالات بريدال فيل، وترغب فى أن تصدق أنك قادر على عبور هذا الجسر وأن تصمت الأصوات، تكاد لا تسمعها، وتحبس أنفاسك حتى تسمع، لكن مع ذوبان الثلج فى أواخر مارس وأول إبريل تعود الأصوات أعلى وأقوى وإن كانت مغرية، وبحلول يونيو مع اقتراب الذكرى السنوية لموته تصبح الأصوات صاخبة نافدة الصبر، تسمعها فى نومك من على بعد من النهر. "جولييت"! "جولييت! "برناابى"! *عار، عار على أسرتك.. تعرفين اسم أسرتك. تعالى إلى أبيك فى الشلالات.*

***

- لا يا زاريو.. لتبق مكانك.

تهمس "جولييت" بتحية الوداع لزاريو الذى نهض من نومه الهادئ الخامل لدى سريرها. تدفن وجهها فى فراء الكلب المألوف وتسمح له بأن يلعق وجهها ويديها ويلهث فى صمت مرتجفًا بحماسه وهو يريد أن تصطحبها معه.. إلى أين؟

فى السكون قبل الفجر.. فى الشفق الأحمر الممطر الذى تحول بطيئاً إلى غيم يغشى الأفق، إلى ضباب.

لابد أن تغادر سريعًا قبل أن تعرف "آريا". قبل أن تتمكن آريا من منعها. لأنها فى فراشها تلك الليلة، وهى تحاول النوم، دفعتها الأصوات بسخريتها منها وتهكمها عليها "برنابى"! "برنابى"! وبينها كان صوته، واقتنعت، أن الصوت الوحيد بينها الهادئ الناعم هو صوته.. *"جولييت"! حان الوقت.*

(أهذا هو صوته؟ تعتقد جولييت هذا).

(وإن ولدت فى وقت متأخر، فذكراها الخاصة به شفافة كالماء المنهمر).

لكن حين تغنى "جولييت" فهى تغنى له. سراً.. له.

أثناء تلاوة الأناشيد تتخيله فى مكان ما وسط الجمهور. ليس فى الصفوف الأولى مع الآباء والأقارب وزملاء الدراسة، بل فى مكان ما وسط الظلام، جالس وحده ينصت باهتمام. وحين تغنى بصوت جميل فهذا لأنه ينصت بكل هذا الاهتمام.

كانت أغنيتها هى "المسيح" فى قاعة الموسيقى، وأثنوا عليها لصوتها وغنائها.. ويا لكل هذا التصفيق.. له!

فتاة خجولة، عيناها ممتلئتان بالعاطفة، تمسح عينيها وهى تراه يبتسم وعلى وجهه ترتسم نظرة الأب الفخور.

فى أوقات أخرى، وعلى غير المتوقع، يرتعش صوتها ويفقد قوته، وتشعر بهذا الإحساس بالذعر، بحلقها على وشك أن ينغلق، وتعرف أن عدم أهمية الغناء لرجل لا تذكره، مات منذ ستة عشر عاماً.

إننا سعداء، لكن فقط طالما الموسيقى مستمرة.

بهذا أقرت "آريا". ولهذا فلابد أن هذا حقٌ.

* * *

(بعد غناء "جولييت" لـ"المسيح" تكلمت مدام "إرينريتش" إليها حول الدراسة بأكاديمية بافالو، حيث تقوم المدام بالتدريس. منحة دراسية لدراسة الغناء.. منحة دراسية "لجولييت برنابى" التى كانت فى السادسة عشرة. جولييت لن تنتقل إلى مدرسة ثانوية أخرى لكن يمكنها الذهاب إلى المدينة مرتين أسبوعيًا بعد الدروس، وهى ليست بالرحلة الطويلة بالحافلة، وسوف تدفع الأكاديمية نفقاتها. فرصة ذهبية! كذا قال معلموها. يتبسمون فى وجه "جولييت برنابى" وكأنما يتوقعون أن تبادلهم الفتاة الخائفة الابتسام).

هل كان لهذا البيت بابا كذا ستسأل ماما، وسوف تقول ماما لا .

هل كان لهذا البيت بابا كذا؟ ستسأل شقيقيها حين تكبر بما يكفى بحيث تشعر باحتياج شديد للمعرفة ويقول "شاندلر" *أجل، لكنه رحل.* وتسأل *لماذا؟ هل يكرهنا؟* ويجيب "شاندلر" إجابة مراوغة: *بل كان حادثًا لا أكثر، على ما أعتقد. مثل الطقس، لا تريدنا ماما أن نتكلم عنه يا "جولييت"، مفهوم؟* ثم جاءت إجابة "رويال" ساخن الوجه بقبضتيه الطفوليتين مشدودتين، وكان يعرف القليل أكثر من "جولييت" لكنه حكم عليه حكمه الصبيانى: *أكرهه! لا افتقده! يسعدنى أنه رحل.*

يتبعها زاريو إلى الدرج، ومخالبه تدق على الأرض بتتابع دقيق، كلب عجوز يتنفس بصعوبة ويتحرك حركات الكلب العجوز ويشعر بقدميه الخلفيتين كأنهما ليست قادرة على الحفاظ على توازنه فى هذه الزاوية المنحدرة، و"جولييت" تتحرك بعزم مبتعدة عنه، إنها جادة فى عدم اصطحابها له وهو لا يريد، ولا يمكنه أن ينبح داخل البيت، فهو كلب مطيع للغاية، ومدرب على ألا ينبح مزاحًا.

ـ زاريو، قلت لك.. ابق مكانك.

تغادر "جولييت" من الباب الأمامى، أبعد باب عن حجرة نوم "آريا" بالطابق العلوى، فى مؤخرة البيت.

أخر أطفال "آريا" فى الخروج.. فى الفرار.

أخر أطفال "آريا" فى حبها، تحبها كثيراً حتى أصبح عبئًا لا يُطاق.. *أنا لست أنت يا أمى. دعينى أذهب!*

حافية القدمين تعدو.. قدماها المخدرتان تشعران بالرصيف والبرد، والعشب المبلل بالندى، والتراب الكثيف الصلب، وكأنها لا تشعر بالخوف بل بالانتعاش. تم اتخاذ القرار ولم تتخذه هى. وسريعًا، فى منامتها القطنية البيضاء الملطخة برائحة الكوابيس ومعطفها المتهرئ فوقها بحزامه المربوط بقوة.

عار، عار.. عار على أسرتك.

ارتكبى الفعلة وانتهى من كل هذا.

فى سكون ما قبل الفجر.. جدران متحركة من الضباب قبل الفجر، حين يكون العالم حالمًا والجرى فيه يجعل منك الحالم والحلم نفسه، منذ زمن بعيد صال وجال فى هذه الأنحاء أرباب الحرب، أرباب الأونجياراس وتوسكاروراس، وكانوا طوال القامة قساة القلب، وأقوى من البشر، لكن الآن رحل هؤلاء الأرباب ولم يبق غير أشباحهم، على شكل الضباب تتحرك متلاشية مراوغة للأعين، قال "شاندلر" إن هذا المشهد دائم التغير.. وإن الشلالات لا تكف عن التغير. الزمن، التآكل. الأرباب الهنود رحلوا، لكن لم يحل محلهم أرباب آخرون.

باستثناء: حافلات النقل العام بمدينة شلالات نياجرا، مضاءة من الداخل كأنها كائنات حية، وتسير وكأنها تحت الماء تمر متأوهة بأصوات عالية، حافلات مكتوب عليها شارع فيرى، وشارع بروسبكت، وشارع عشرة، وباروكاوى آند هايد.. "جولييت" تسير خلسة تحاول الاختباء عن الأعين، تعبر شارع بلطيق إلى الحديقة المهجورة فى هذه الساعة مسربلة فى الضباب.. تركض، تركض! إنها فتاة قوية، رئتاها قويتان من كثرة الغناء. فتاة نحيلة، تبدو دائماً أصغر من سنها، قيل لها ألا تسير وحدها فى حديقة بلطيق، وعنفها شقيقها "رويال"، لكن فى هذه الساعة لا أحد

هناك، وتركض عبر حقل من العشب المبتل، على أطراف ملعب البيسبول الذى بدا لها صغيراً، إذا لم يتم العثور على جثمانها فلن يعرف أحد.. مثل أبيها ترحل، ستقول "آريا" إنها رحلت ولن تعود، ولن تفكر فيها وسوف تنساها، على بعد بلوك من المبانى ثمة قطار بضائع يمر. الصخب المألوف لقعقعة عربات الشحن، هناك ألفة وأريحية فى هذا الصوت المألوف. الأسرة عار، اسم أسرتك، ما لعبتك؟ فى الحلم يتم نقل "جولييت برنابى" إلى الشلالات فى عربة شحن قطار، وهذا بسبب شئ قاله السيد بانكوفسكى. صوت القطارات فى المدينة، صخب عربات الشحن كابوس له ولا يتوقع أن يتفهمه أى شخص أمريكى، لكن "جولييت" قالت إنها تفهمه، فعربات الشحن هى التى ستأخذك ـ إذا كانوا سينقلونك بعيداً ـ مثل الماشية إلى المذبح. والقطار يمضى سريعًا لا يمكنك القفز منه.

السماء فوق نهر نياجرا على بعد ميل هاوية واسعة ملطخة بنور مفاجئ.. ألسنة لهب، ألسنة من النور من الشمس فى الأفق. *لا.. لست خائفة!*

-٢-

الأصوات! الأصوات فى الشلالات التى سمعتها حين كنت طفلة وماما تدفعنى فى عربة بالقرب من الطرف حيث الرذاذ البارد يبلل وجوهنا، جفوننا وشفاهنا، ونلعق شفاهنا ونضحك فى جذل.

شئ لذيذ!

ـ أترين يا "جولييت" يا حبيبتى؟ هذه هى السعادة.

تحبنى أكثر من الآخرين، كذا قالت ماما. كنت ابنتها، ابنته الصغيرة وشقيقاىّ هما الصبيان. كنت فتاة مثل ماما، وشقيقاىّ لا يمكن أن يكونا فتيات، *هذه المرة سأفعلها بشكل صائب.. هذه المرة دون خطيئة.*

غنت لى ماما.. عزفت لى ماما البيانو وغنت لى.. وجلست ماما ووضعتنى على حجرها على البيانو، وعانقتنى بذراعيها بقوة ووضعت

أصابعى الطفولية البدينة على أصابع البيانو وعزفنا معًا، طلبت منى أمى أن أغنى، وكافأتنى ماما بالقبلات حين غنيت بصوتى الطفولى الضئيل.

كانت أوقات سحرية لم تكن هناك غير ماما.

تغنى الفتيات والفتيان يخرجون للعب. القمر منير لامع كالنهار.. نغنى أزرق خزامى.. ديلى ديلى! أخضر خزامى. حين أصبح ملكًا، ديلى ديلى! سوف تصبحين ملكة. وأغنية ماما المفضلة التى تغنيها على البيانو، لكننى فيما أنا فى سريرى فى طريقى للنوم همس يا صغيرتى! حين تهب الرياح سوف يهتز السرير.. حين يهتز الجذع سوف يسقط المهد. وسوف تنزل صغيرتى ومعها مهدها! لكن ماما ضحكت وأظهرت كيف ستمسك بى بين ذراعيها إذا سقطت.

لكن فيما بعد، حين كبرت.. حين حضرت الأصوات إلى الحجرة وقالت ماما لا توجد أى أصوات.. كفاك! وحين صفقت ماما بيديها على أذنى ثم على أذنيها، وفى الصباح التالى إذا قلت إن الأصوات حضرت إلى الأحجرة، تعنفنى ماما، أو تنهض فجأة وتبتعد. ويرعانى أحد شقيقىّ.

لأن ماما كفت عن حبى حين لم أعد صغيرة، كبرت على أن تحملنى بين ذراعيها كالدمية، وكبرت على أن تضعنى على حجرها أمام البيانو، أعتقد أن هذا كان حين كنت صغيرة. حين صحت ماما! فى الليل، ولم ترغب ماما فى سماعى، وعرفت أخيرًا كيف أخبئ هذه الصيحات فى الوسادة. لكن الوسادة تلوثت وهذا لم يعجب ماما وأصاب ماما بالغثيان، مثل البقع الأخرى التى لا يمكننى الامتناع عنها، وأزحف مبتعدة لأختبئ. وحين ينادون علىّ لا أجيب، الأصوات تهمس أحياناً، وأضع أذنى على الجدار لأسمع، أو على إطار النافذة، أو على ألواح الأرض، وحاول "رويال" أن يسمع، لكنه لم يتمكن. "رويال" قال إنه لا يوجد أى شىء، ويجب ألا أخاف، وفى تلك المرة التى نزلت فيها برغم رفض ماما أن أنزل إلى القبو، إلى الظلام، وسقطت على الدرجات الخشبية المنحدرة وجرحت شفتى وزحفت مبتعدة لأختبئ بعيدًا عن الأصوات المختلطة بالرياح وعربات

النقل وكان زاريو هو من وجدنى، لكن زاريو لم يعرف أننى لم أرغب فى ألا يجدونى، فبالنسبة لزاريو كل شىء لعبة، وهكذا لكزنى بأنفه المبتل وقبلنى وداعبنى بلسانه الزلق. نبح زاريو، وهو شىء نادراً ما يفعله داخل البيت، وهكذا وجدونى حيث كنت مكومة على الأرض إلى جوار كومة من أقفاص الأرانب القديمة، صاح شقيقاى "جولييت"! وهرعت ماما لأسفل وهى تشعل مصباحها اليدوى فى وجهى، وأصبت بالعمى فى عينىّ.. صرخت أمى عندما رأت فمى ينزف "جولييت" *ماذا فعلت بنفسك، يا طفلتى الشقية فعلت هذا عن قصد، أليس كذلك؟* وفى عينيها الخضراوين الواسعتين رأيت ماما تريد أن تهزنى، أرادت أن تؤذينى لأننى لم أكن طفلتها فى ذلك الحين، وقد خيبت أملها مرات كثيرة وليست مرة واحدة، لكنها كانت "آريا" وليست امرأة أخرى من الحى من اللاتى يصرخن فى أبنائهن، ويصفعونهم ويضربونهم على مؤخراتهم، كانت "آريا برنابى" معلمة البيانو ولم تكن تضرب أية طفلة، أمسكت يداها بى برفق.. كان صوتها منخفضاً وهى تقول لى إننى يجب ألا أعصاها ثانية، ويجب ألا أنزل إلى هذا المكان القذر ثانية، وإلا فسوف تبعدنى ماما.

انزعجت ماما لأننى كنت أضحك، أو بدر منى صوت كالضحك، كنت متسخة وسروالى الداخلى مبتلا، وسوف أصاب بندبة فى شفتى العليا لن ترحل عنى أبداً، وهكذا ستتحول أعين الناس دائماً إليها وأشعر كم أرغب فى إبعادها عنى كما أزيل عن وجهى بقعة غبار، وسوف يرغبون فى إزالتها بأيديهم عنى لأصبح فتاة جميلة ولست فتاة غريبة ذات شفة عليا شاحبة لامعة، وفيما بعد حين أذهب إلى مدرسة بطليق الابتدائية ويدفعنى "رونى هيرون" على الأرجوحة بقوة وارتفع كثيراً لن يتوقف حين أتوسل إليه وأسقط، ويضرب جانب مقعد الأرجوحة الطائر جانب جبينى الأيسر وأفقد وعيى وأصاب بجرح عميق حتى أغرق فى الدماء، سينقلوننى إلى قسم الطوارئ بمستشفى نياجرا العام، أصاب بهلال صغير فى جبينى وهو شاحب أيضًا ولامع، وتخاف ماما علىّ وتعتقد أننى طفلة مجنونة، طفلة تجرح نفسها عمداً لتؤذى ماما، طفلة تهرب لتختبئ منها فى قذارة القبو

التى لا تحتملها ماما، والأرض التراب التى تفيض حين تمطر السماء، والجدران الحجرية البائسة التى يتسرب منها الوحل وأقفاص الأرانب الصدئة المكسورة ورائحة فضلات الأرانب.

ليست ابنتى، أحياناً أعتقد أنها ليست ابنتى كذا تقول ماما ويقول لها شقيقاىّ إن هذا غير صحيح، وإن "جولييت" شقيقتهما وإن جولييت هى ابنة ماما مثلما هما كذلك.

تعانى "آريا" من الأرق منذ فترة طويلة، والآن فى ربيع ١٩٧٨ الممطر مع اقتراب الذكرى السنوية لموته، وفراغ البيت من ابنيها، يصبح أرقها حاداً كالنار، أبدًا لن تعترف بهذا الضعف، حتى لطبيب، كل أشكال الضعف تملأ "آريا" بالاشمئزاز، واشمئزازها من ذاتها، أطفالها الذين نشأوا فى البيت رقم ١٧٠٣بشارع بلطيق سيتذكرون سماع وقع أقدامها المتلصصة على درجات السلم فى الصباح الباكر، قبل الفجر، يسمعونها فى المطبخ تضع غلاية الشاى على الموقد. وفى الحجرة الباردة غير المضاءة فى آخر البيت وهى تنتظر الماء كى يغلى فتجلس على مقعد البيانو تلامس المفاتيح وتضغط عليها كأنها كاثوليكية رومانية مخلصة، ليست الموسيقى فقط هى التى تسعد "آريا" بل الفكرة لا أكثر، وعد الموسيقى، يمكن أن تكون الموسيقى خلاصك يا "جولييت". سوف تخلصين نفسك من أسوأ ما فيك.. تحلى بالإيمان! لكن بحلول التاسعة مساءً تكون "آريا" متعبة حتى إنها تسقط نائمة على أريكة غرفة المعيشة، وينعس زاريو أمام ركبتيها فيما هى تنصت إلى أوركسترا نيويورك على الراديو التى تنتظرها منذ وقت طويل، ويتبادل أطفالها النظرات المتوترة متساءلين: هل يجب أن نوقظ ماما، أم نتركها نائمة؟ سواء فعلنا هذا أو ذاك فسوف تغضب وتخجل ماما منّا.

هل كان لهذا البيت بابا هكذا سألت حين كبرت بما يكفى لأعرف أن بيوتًا كبيتنا فيها بابا. وقالت لى ماما إن لا، ورأيت فى عينى ماما أننى يجب ألا أضغط ولا أسأل *أين ذهب بابا؟* وتضغط ماما بإصبعها على شفتى وتقول *صه!* وإذا تماديت تقطب ماما جبينها وتقول *هجرنا بابا قبل أن تولدى، رحل ولم يعد ثانية.*

وأشعر بإحساس ثقيل ممض كالماء القذر المتسرب عبر جدران القبو ويخطر على بالى الآن تعرفين. سألت، ثم إنك الآن تعرفين.

- ٣ -

عار، عار. أسرتك عارا

فى الفرقة الأولى بالمدرسة بدا أن الآخرين يعرفون (لكن ماذا يعرفون؟) تقريباً قد تخالين أنهم يعرفون بالفطرة.. عيونهم تتبع "جولييت" فى فضول فى بادئ الأمر، وفيما بعد فى ريبة. وبعدها فى سخرية، ثم أصبح" رويال" فى المدرسة الثانوية، فى مدرسة أخرى، وترك "جولييت" وراءه. وحدها. طفلة حالمة غريبة الأطوار دائمة التلعثم لا أحد يؤنسها غير ندبتين على وجهها الشاحب.. ندبتان! يفكر فيها معلموها ولا يعرفون كيف يتعاملون معها، "برنابى"؟ أهى على قرابة بـ..؟ لأنها أحد الأطفال الذين يتلعثمون فى الفصل، أحياناً، وفى أحيان أخرى تتكلم بشكل طبيعى وبذكاء، وفى أوقات أخرى وعلى غير المتوقع، تتكلم إليهم فى صوت لا يعلو على الهمهمة، فتاة صغيرة حقودة. ليست لطيفة لكن حين تغنى لا تتلعثم أبداً. حين تغنى يصبح صوتها صافيًا جليًا، صوت عذب محبب، وإن كان متردداً غير واثق.

"برناابى"! "برناابى"! أنت!

فى الفناء فى الحى، لا يوجد بروتوكول للاعتناء بالأطفال "غريبى الأطوار" لا تعاطف معهم ولا رحمة.

هذه الطفلة "برنابى"! عارا

تكلمها ولا تسمعك.. تقف إلى جوارها ولا تراك.. تنظر إليك تجدها تخللك وكأنها تنصت إلى شىء بعيد، لجذب انتباهها تصفق بيديك فى وجهها، وتقرصها وتلكزها وتجذب شعرها حتى تبكى، *"برنابى". أبوك دخل بسيارته فى النهر، أبوك كان سيدخل السجن. "برناابى" .. عار عارا* لابد أن أشقاء وشقيقات آخرين قالوا لهم هذا، لابد أن الكبار أخبروا الأشقاء والشقيقات الأكبر (لكن بماذا؟)

وهكذا تحملت الطفولة، ستفكر فى هذه السنوات فيما بعد وكأن من عاشها إنسانة غيرها، فتاة شجاعة عنيدة صغيرة لا تعرفها.

ـ ٤ ـ

قالت عنها "آريا" كذا طفلة . *تمشى بشبحها* .

تتكلم عن ابنتها المراهقة منتقدة إياها وإن كانت فى عينيها نظرة تعاطف وكأنها تتفهم مثل هذا الأسى فى أنثى صغيرة ولا يمكنها إدانتها بالكامل.. تجلس إلى مقعد البيانو تعزف أحد ألحانها المفضلة، "لا كاثيدرال إنجلويت" لديبوسى.. لحن "لا كاثيدرال إنجلويت" العذب.. جمال ساكن مبهور الأنفاس كالشلالات فى الشتاء حين تسكت المياه المتدفقة وكل شىء يعتم ويختفى وسط الضباب. نغمات جهورية مرتفعة تغمرها الحياة بواسطة أصابع "آريا" الرفيعة الماهرة.. هذا غريب، ذات يوم ستتعجب "آريا" من أم تنادى على ابنتها وهى فى الرابعة عشرة من عمرها فى ذلك الحين: "جولييت"! أتسمعين؟ هذه موسيقاك.. روحك، إنك الكاتدرائية الغارقة، لا أحد يمكنه أن يصلك، هذه الموسيقى ولدت لتتغنى بها" فى نغمة مؤلمة كأنها تقول لقد *يئست منك.. ارحلى!*

تبتعد "جولييت"، لكن للطابق العلوى. هى وزاريو يتكومان معاً يغمغمان بصوت خافت.

مع استمرار "آريا" فى عزف لحن ديبوسى بالطابق السفلى.

(لماذا تقول "آريا" أشياء مؤلمة كهذه لجولييت؟ وهى فى واقع الأمر تحبها؟ هل تتخيل هى.. أم الابنة المراهقة الجذابة.. حياة جنسية سرية للابنة؟ هل تتوق لتلك الحياة السرية الجنسية التى فقدتها منذ زمن بعيد حين انخلعت من نفسها كالعشب الضار؟ هل تشعر بالغيرة من ابنتها؟ من هذا الصوت الألتو الدافئ الثرى الذى تريد بشدة أن "تروضه"؟)

شاهده "رويال". شبح "جولييت".

تتبينه أكثر فى النور الكابى بالقرب منها وخلفها، كانعكاس على المياه، ظل يتحرك مع الفتاة التى لا تدرك وجوده فى حركتها المترددة الناعمة.

مثل السائرين نياماً.. كذا تبدو "جولييت" فى أحيان كثيرة.. عيناها ثقيلتا الأجفان، شعرها المتموج المتجاوز كتفيها كاللبدة غير المشذبة، هذا الشعر فيه رائحة شىء رومانسى حزين يجذب إليها الصبية الكبار والرجال، رأى "رويال" ولم يعجبه ما رآه: التعبيرات المندهشة على وجوه الرجال فى حضور "جولييت"، وكأنهم تذكروا شيئاً مهماً فقدوه.

"رويال" فى آخر سنين المراهقة وقد أصبح نشيطاً جنسياً، يسخط على شقيقته أحيانًا!

بالمصادفة يرى "رويال" "جولييت" فى الطريق، أحياناً مع فتيات من المدرسة، لكن فى معظم الأوقات وحدها.. ذاهبة إلى البيت بطريقتها الحالمة المتأملة. حين تراها تتساءل أين عقل "جولييت".. يخمن "رويال" أنها تسمع موسيقى فى رأسها، وتُشكل النغمات فى حلقها، لكن: وحدها فى حديقة بلطيق، يراقبها الرجال خلسة. أو تمشى فى شارع جاريسون (حيث يقيم كل من آل "مايويزر" و"ستونكروب" و"هيرون")، أو وسط أعشاب وبرارى لا تطأها قدم قرب باحة بافالو آند شاوتاوكوا. ومرة أخرى تبع "جولييت" وهى تسير فى درب ضيق ذى رائحة كريهة إلى جوار سور السكة الحديد، تمشى وحدها تغرى بالاقتراب، ولا تدرك بوجودها أكثر من إدراك القطة لنفسها، لكنها تطأ الأرض بإصرار وتتوقف لاستكشاف، ماذا؟ (زهور الهندباء الزرقاء؟ شىء حى يسير على المياه العطنة! أو أهو انعكاس صورة "جولييت" فى المياه الذى تحدق فيه دون أن تدرك ماهيته؟) يقسم "رويال" إنه يرى شبح "جولييت" يطفو خلف شقيقته بالضبط.

"رويال" لا يتخيل هذا، "آريا" هى التى قالت: ثمة شىء غامض وسرى فى "جولييت". شىء وحشى لا يمكن الوثوق به. يشعر "رويال" بطعنة من الحرج، وهو يرى شقيقته فى لحظات حميمية كهذه، لكنه لا يمكنه أن يهجرها، إنه شقيقها ويحبها.. يفهم كم هى ضعيفة هشة، وفى هذا الحى الخشن هكذا لا حكاية لها إلا إياه.

أطفال "برنابى" أيتام الأب.

أمر غريب: لم يجرؤ أحد قط على أن يغيظ أو يهين "رويال برنابى" بشأن اسم عائلته، لكنه يعرف أن "شاندلر" تعرض للمضايقة ذات مرة، وأن "جولييت" تتعرض للمضايقة الآن أحياناً.

"رويال" يشعر بالضيق للتفكير فى هذا الأمر. اسم عائلته؟)

تبع "جولييت" لمسافة قصيرة متعجباً؛ لأنها لم تختلس نظرة خلفها لتلحظ وجوده، يمكن لأى شخص أن يقترب منها من الخلف، أى شخص متوحش! تعبر حقلاً وتعبر خط السكة الحديد وتهبط ضفة تبة مفترشة بالحصى تخرج إلى شارع ٤٨ الذى يعتبر جزءًا من حى سكنى مكون من بيوت طوبية كبيتهم، وهو جزئياً حى تجارى تشغله الدكاكين الصغيرة والحانات ومحطة وقود، يرى أو يتخيل أنه يرى، ظل "جولييت" يسرى إلى جوارها، ويرى رجالاً ينظرون إليها.. رجال فى سنه وأكبر منه، بعضهم كبير بما يكفى ليكون فى سن أبيهما.. إن لم يكن أكبر. أولاد حرام! تسير "جولييت" دون تردد، تنصت إلى موسيقى تنبع من داخل رأسها، حالمة مشتتة.. شفتاها رطبتان مفترقتان قليلاً وثمة ندبة صغيرة على شفتها العليا وأخرى تكاد تكون مرئية على صدغها الأيسر، ثدياها واضحان تحت السترة القطنية الأرجوانية التى ترتديها، والصغيرة للغاية عليها، مثل تنورتها السوداء الواسعة، التى كبرت عليها منذ عام أو أكثر. "رويال" يشعر بالضيق: ألا تلاحظ أمهم مظهر "جولييت" قبل أن تخرج من البيت؟ هل هو الوحيد الذى يرى ذلك؟

"جولييت" تمر بمحطة الوقود حيث يذهب الرجال فى أوائل العشرينات، رجال يعرفهم "رويال"، و"جولييت" لا تدرك تحديقهم بصفاقة فيها، وكيف يلكزون أحدهم الآخر وهى تمر. جولى ـ يت برن ـ ابى.. أوه بيبى! لم يعد "رويال" قادراً على الاحتمال، لحق بأخته وألصق كتفه بكتفها. "رويال"! من أين أتيت؟" ابتسامات "جولييت" التى فزعت قليلاً، كما تطرف القطة بعينها حين تلمسها يد تألفها فى مكان غير مألوف.

يشم "رويال" عبق "جولييت" الذى يعرفه، أوراق الأشجار المبتلة، أو الزهرات المجروحة، يثير الجنون! الأرجح أن "جولييت" لم تغسل شعرها الثقيل المتطاير مع الرياح منذ أيام، أو استحمت.. شعلة من اللهب تمر على عقل "رويال".. من الاحتجاج والغضب، لا يحتمل رؤية شقيقته الصغيرة المثيرة جنسياً غير واعية لهذه الدرجة بنفسها، فى شارع ٤٨ ألا تعرف كيف هم الرجال؟ أليست لديها أية فكرة عن الجنس؟

ـ "جولييت". أين تذهبين بحق الجحيم؟"

ـ إنى ذاهبة إلى البيت.

ـ من الطريق الطويلة.

يحاول "رويال" أن يحافظ على نبرة صوته هادئة، فهو يحب شقيقته الصغيرة، وربما يبالغ فى رد فعله قليلاً، بالنسبة لتقدير الخطر المحدق بها، فهو لا يريد أن يزعجها أو يثير حفيظتها، لكنه قال: "أنا جاد.. يجب أن تفيقى، أترين هؤلاء الرجال؟! إنهم يراقبونك، ألا تعرفين أين أنت؟" وتقول "جولييت" فى ألم: "رويال،" لا تعنفنى.. أعرف أين أنا.. شارع ٤٨ أين أنت؟"

أحد الرجال الذين يراقبون "جولييت برنابى" هو ولد حليق الرأس خاض فى المنطقة المعشوشبة الخضراء التى لا تطأها قدم إلى جوار خط السكة الحديد، وراح يتابع جولييت من على بعد فى السر، وحتى لا يراها شقيقها الغيور حاد البصر "رويال".

ـ ٥ ـ

عار.. عار!

فى أواخر شتاء عام ١٩٧٧ حين بدأ ذوبان الثلج. بدأت أصوات القرود تغمغم وتسخر وتهزأ، حين لم تعد "جولييت" سعيدة بحضور حصصها الدراسية، ومن أغنية روبرت شومان التى كانت تحاول تعلمها ("آن دين سونينشين") وهكذا خرجت فجأة من المدرسة دون إذن لتتغيب عن حصتين

فى فترة بعد الظهر وعن كورس الفتيات الذى يعتبر أهم شىء فى حياتها (التى جرؤت عن التكلم عنها) وحصلت على توصيلة مجانية على طريق النهر (هل كان طلب التوصيلات المجانية من السيارات المارة خطراً على الفتيات فى عمر ١٥عاماً فى السبعينيات بمنطقة شلالات نياجرا بنيويورك؟ ركوب سيارة مع غريب جالس وراء عجلة القيادة يطالع الراكبة إلى جواره بابتسامة كقط يتأمل الآيس كريم) وطلب توصيلة مجانية على طول الضفة المنحدرة أعلى النهر وسط الرياح خلف سور الحراس (ارتفاعه نحو١٨ بوصة) ويجب استبداله (أين على وجه التحديد؟) بعد أن مالت سيارة "ديرك برنابى" ودارت منه لتسقط فى عاصفة من الأمطار قبل خمسة عشر عاماً وتسقط فى النهر.

ـ أنا هنا.. هذا هو المهم.

أبداً لم تذهب إلى هذا المكان من قبل.. مكان محرم، قلبها يخفق فى عنف، فى رفعة.. "آريا" قريبة منها غاضبة منها.

ـ إذا كنت أحبك، أيجب أن أكرهه؟ لن أفعل. هكذا قالت المهم.

على الطريق السريع الواصل بين شلالات نياجرا وبافالو، إلى جانب إيل جراند، تمر السيارات فى تيار متدفق منتظم الوتيرة، كانت فترة متأخرة بعد الظهر ولا توجد أمطار. العربات على الحارة اليمنى الخارجية تمر بالقرب من نهر نياجرا المتدفق، الذى يفصله عن الطريق ضفة مكسوة بالحصى والسور وياردات قليلة من الأرض الطينية المنحدرة.

لم تكن "جولييت" تعرف أين انزلقت سيارة أبيها وخرجت عن الطريق السريع؟ لابد أن هذا حدث فى موضع ما قريب من هنا، السور الفاصل قديم صدئ على امتداده، وكأنه لا توجد أجزاء منه أحدث من غيرها. بالطبع وقع الحادث منذ زمن بعيد.

سقطت السيارة فى النهر فيما بعد نقطة اللاعودة بقليل، حيث تتسارع وتيرة تدفق النهر وتنطلق فى شكل موجات بيضاء هادرة يعلوها

الزبد الثائر، والآن مع ذوبان الجليد الربيعى فارتفاع النهر بالغ وجدت جولييت نفسها تحدق فيه وقد تجمدت فى مكانها. قد تعتقد أنه فى أية لحظة، وبدفاع من الوفرة والتدفق الهادر، قد يعلو النهر عن مستوى ضفته ويغرق الطريق السريع.

تكاد تتخيل ـ كما سبق أن تخيل الهنود فيما سبق ـ أن نهر نياجرا كائن حى.. روح، ثمة رب للنهر، ورب للشلالات. هناك أرباب فى كل مكان لكنهم غير مرئيين، قال "شاندلر" إن الأرباب القدامى كانت لهم شهية البشر وعواطفهم يبدو أنهم لم ينقرضوا أبدًا، بل تغيرت أسماؤهم لا أكثر، إلا أنه لا حاجة لاسم للنهر "التسمية" شىء غبى.. سخيف، لا فائدة منه.. قد تدب الحياة فى النهر وكل ما ستعرفه حينها أن طبيعته لا شىء فيها يمت للبشر بصلة، وأنه لا يمكن لكائن بشرى أن يحتمل أكثر من بضع دقائق، أو ثوانٍ فيه.

ميتة رهيبة، فى مكان كهذا.. وأيضاً وحدك.

أحست "جولييت" بالضعف يعتريها فجأة.. خارت قواها منها، وذهب كبرياؤها، وهى تبتعد عن طريق شلالات نياجرا السريع وتحاول الحصول على توصيلة مجانية ولا تهتم أدنى الاهتمام بمن يراها.. فهمت الرعب، للمرة الأولى.. حدث هذا، هنا مات رجل.. أبى.

كم يبعث على الراحة أن تفكر فى هذه الكلمات! حتى ألم الكلمات الذى تركها ضعيفة مرتبكة، كان باعثاً على الراحة.

وعلى مدى الدقائق القليلة التالية فقدت "جولييت" الإحساس بالموجودات من حولها وكذلك بالزمن، سقطت فى إحدى حالاتها الشبيهة بالثبات، التى تحسها دائماً مع الموسيقى.. حين تغنى، وحين تتنفس بطريقة معينة، حالمة وإن كانت مفتوحة العينين، دون وعى منها انتقلت من جانب إلى آخر، وهى تحافظ على وتيرة معينة. *إذا كنت أحب أمى، يمكننى أن أحب أبى أيضاً. وهو يحتاجنى.*

صوت المياه المتدفقة دخل إلى ثباتها، أحست "جولييت" بإيقاع سرى خافت فى هذا الصوت يبعث على العزاء، السلوى. "جولييت"! "برنابىّ تعالى إلى أبيك فى النهر، لم تسمع أبداً صوتاً بهذا الوضوح. بنغمة فيها من الحث والواقعية التقريرية نفس القدر. انتقلت الشمس من موضعها فى السماء. أصبحت شمساً ضعيفة شاحبة، تنسحب. على الطريق السريع الشاحنات تتباطأ لتلقى بنظرة قريبة على الفتاة الوحيدة ذات الشعر الذى تحركه الرياح وهى تقف بكل هذا الجمود لدى طرف النهر، لكن الفتاة لا تدرك بوجودهم. منتبهة وتركيزها منصب بالكامل على شىء سمعته، الفتاة لا تدرك بالموجودات من حولها.

صوت ذكورى فيه الكثير من الفظاظة.. "يا آنسة.. ماذا تفعلين عندك؟"

توقفت سيارة شرطة عليها اسم قسم شرطة شلالات نياجرا فجأة على جانب الطريق السريع ونادى أحد الضباط على "جولييت" التى يبدو أنها لم تسمعه، إذ كان صوت الرياح يعترضه، الرياح التى لا تكف ولا تهدأ، وشعر "جولييت" يتطاير فى الرياح.. "يا آنسة.. ابق حيث أنت".

صوت ذكورى مرتفع.. صوت اعتاد على إعطاء الأوامر وعلى أن يُطاع دون نقاش.

إذا كانت "جولييت" قد بدأت تسمع، فلم يبد عليها بادرة للسماع فى البداية، فتاة مراهقة عابسة، لا تنصت فى عناد إلى الشرطى وهو يصيح فيها من على مسافة بعد ياردات قليلة ولا تلتفت إليه، وإن كانت ترى الآن رجلاً فى زى رسمى عند طرف مجال رؤيتها، كان يقتْرب منها فى حذر، كما تم تدريبه، لم يرغب فى إخافتها تلقى بنفسها فى النهر.

يا آنسة.. إننى أكلمك، انظرى إلىّ.

انكسر السحر.. بدأت الأصوات تتلاشى بالفعل، تنسحب. التفتت "جولييت" ونزلت عن الضفة وكأنها أخيراً سمعت الصوت السلطوى الفظ،

لكن جفنيها كانا ثقيلان على عينيها، رفضت أن تنظر إليه.. تحرك فمها فى صمت. وقف ضابط الشرطة أمامها تماماً، رجل ضخم فى زيه الرسمى الرمادى كلون الحديد الصلب. رأت فى ترفع قدميه.. رأت حزامه اللامع، وجراب مسدسه.. كان المسدس فى الجراب، رأت الشارة السخيفة، اللامعة بشكل مبالغ وكأنها شارة المأمور فى فيلم هوليوودى، لكنها لم تعترف بوجود وجه، أو عينيه فيه. ليس بعد.

سألها فى فظاظة: لماذا لست فى المدرسة؟ ما الذى تفعلينه فى هذا المكان الخطير؟ ألم تر علامات التحذير من الاقتراب؟ ما اسمك؟

وقفت "جولييت" فى صمت تنظر إلى الأرض، كانت محاصرة لا يمكنها الفرار، لا يمكن الفرار من شرطى. سيحتجزها، فهو مخول من سلطة الولاية الحكومية.

مسحت "جولييت" عينيها بيديها فى إيماءة طفولية، وفى هذه اللحظة أصبحت طفلة، وارتعش فمها. غمغمت بأنها جاءت إلى النهر لتكون وحدها.. "للتفكير فى بعض الأشياء".

"آنستى، ألم ترى اللافتات هنا؟ التحذير: ممنوع سير المشاة" "منطقة خطر".. الأفضل ألا تقتربى من النهر يا آنستى، كان يجب أن تكونى على دراية بهذا".

أومأت "جولييت" برأسها محاولة أن تمنع نفسها من البكاء، لن تبكى! كم أرادت بشدة ألا تخبر هؤلاء الغرباء العدوانيين باسمها.

فى المقعد الخلفى للسيارة يفصلها عن ضابطى الشرطة حاجز من السلك، أرادت أن تسأل هل أنا مقبوض علىّ؟ لكن الحالة المسيطرة هى الكآبة، وقد يفهمان المزحة بمعنى خاطئ.

كانت الشرطة عطوفة على "جولييت" على غير المتوقع. ما إن أسلمت لهم وتركت لهم العنان، الرجل الذى قابلها عند الحاجز راح يخبرها الآن أن لديه ابنة فى سنها، فى مدرسة سانت مارى، أما السائق، وهو الأصغر بينهما، فقد راح يطالعها فى المرآة الأمامية، وقال لها إنها لم تكن فى أمان

بنسبة مائة فى المائة بالنسبة لفتاة مثلها، فى سنها، وجميلة هكذا ووحيدة، لا يجوز لها أن تجول فى أماكن كهذه فى وضح النهار "أتفهمين ما أحاول قوله يا آنسة؟"

كم بدا لها أشبه "برويال"! غمغمت "جولييت": "أجل يا سيدى".

أوصلاها إلى بيتها فى شارع بلطيق، اضطرت لإخبارهما باسمها وعنوانها، رأت على وجهيهما أمارات المعرفة حين نطقت باسم "برنابى".

-٦-

فجأة وسط رطوبة صيف عام ١٩٧٧ الذى امتلأ بالبعوض دخل إلى حياتهم "جوزيف بانكوفسكى" الذى تكلمت عنه "آريا" فى سخرية محببة باسم "رجل إصلاح الأحذية".. "اليهودى الذى يحب الموسيقى" وأحيانًا "اليهودى البولندى الذى معه كل الصيد الأيرلندى".

كان من الصعب الإلمام بطبيعة إحساس "آريا" بالسيد "بانكوفسكى". منعت "جولييت" من أن "تنطق بكلمة" عنه "لشاندلر" و"رويال"سيتأمل شاندلر الوضع ويُضخم من صداقة نشأت بين شخصين "مهجورين".. أما رويال فسوف يغيظها به. وكما حذرت "آريا"، لم تكن فى حالة مزاجية تتحمل معها الإغاظة والتلميحات.

و"جولييت"، التى كانت ترتاح أكثر فى صحبة البالغين وليس مَنْ فى مثل سنها، فلم تقابل قط أحدًا مثل "جوزيف بانكوفسكى". أدهشها، كما لو كان كائنًا من كوكب آخر، لا يمكن أن ترغب فى إطلاع كائن كهذا بأى شىء عن نفسك، لأنك قد تكون غير ذى أهمية فكل ما يهم هو نفسه؛ فى غموضه وصعوبة إدراكه، لكنك لا تجرؤ على أن تكون وقحًا وتسأله أسئلة. ثم هناك وجه الرجل المجروح المخيط الذى يجذب انتباه الغرباء ويجعل الأطفال يحدقون فيه.

والوشم على رسغه الأيسر، لم تسأل "جولييت" قط.

إلا أن "جوزيف بانكوفسكى" لم يكن متكتمًا، كان يتكلم بحرية وسعادة فى موضوعات معينة، كان عصبيًا متحمسًا يتلعثم فى خضم حماسه، لديه

ضعف هى أفلام هوليوود التى تم إنتاجها فى الثلاثينيات والأربعينيات، كان يشاهدها فى ساعة متأخرة على التليفزيون. يعد نفسه مشجعًا، للعبة البيسبول. كان شديد الإيمان بأن آيزنهاور هو الرئيس "الأخير العظيم" للولايات المتحدة (بعد سنوات من موت السيناتور تكلم مرارًا عن جوزيف مكارثى باعتباره "وجه الجوستابو الأمريكى القبيح") وبإنجليزيته ذات اللكنة الثقيلة أحرج "جولييت" حين أخبرها أن غناءها، خاصة الأغنيات الألمانية، تسره كثيرًا. وأن عزف "آريا" "الشجاع" على البيانو يسره كثيرًا. وأن مقابلتهما "منحت الأمل" لحياته.

السيد "بانكوفسكى" أرمل منذ عدة سنوات، يقيم بمفرده فوق متجر إصلاح الأحذية فى ساوث كواى (وهو حى "مختلط" يقع إلى شرق منطقة وسط المدينة). وابناه، وهما ولدان، كبرا ورحلا منذ فترة بعيدة عن منطقة شمالى ولاية نيويورك، وليس له أحفاد، وإن كان كل منهما قد تزوج. "هؤلاء الشباب يشتكون كثيراً قائلين لماذا نجلب أطفالاً إلى هذا العالم الشرير؟ وكأنهم كانوا مكاننا وعاشوا حياة آبائهم فى أوروبا، إنهم يحطمون قلوبنا" وتقول "آريا" فى ضيق فى مثل لحظات الكشف عن الذات هذه: "أليس هذا دور الأطفال؟ أن يحطموا قلوب آبائهم؟"

لكن السيد "بانكوفسكى" كان يفضل الكلام الجاد. كانت هذه نقيصة الرجل بالنسبة "لآريا": لا يمكنه، أو لا يريد، أن يمزح حين يكون المزاح واجبًا وفى محله.

فى بروسبكت بارك حيث يمضيان إلى الحفلات الصيفية المقامة فى الهواء الطلق، تسير "آريا" فى جمود، وقد نفد صبرها فى العثور على مقاعد، وتبقى "جولييت" مع السيد "بانكوفسكى" الذى يسير بطيئًا بقدميه البطيئتين وهو يمسح على عنقه يقول: "شر وخير.. ما هذه الكلمات؟ يسمح الرب بالشر لسبب بسيط هو أن الرب لا يفرق بين الخير والشر. كما لا يفرق الرب بين المفترس والفريسة، إننى لم أفقد أسرتى الأولى الصغيرة أمام الشر بل أمام الأفعال البشرية، وكانت أفعالاً عجيبة لا يمكن

حتى التحدث عنها! أفعال القمل الذى التهمهم فى مخيم الموت. وهكذا يجب أن تمنحوا الرب ما هو للرب وألا تحاولوا التفكير فيما خسرتموه، لأن هذا جنون".

تتظاهر "جولييت" بأنها لم تسمع بعضاً مما قال.

لا، لم تسمع.. كلام الرجل غير موثوق، خاصة حين يتكلم بحرارة وحماس.

ليس ذلك المساء فى بروسبكت بارك، لكن فى مساء آخر، حين كانت "آريا" بعيدة عن مجال السمع.. حين سألت "جولييت" بجرأة أن ترى الوشم الذى على رسغ السيد بانكوفسكى الذى بدا لها ليس أكثر من بقعة حبر بدأت فى التلاشى. لكنها لم تتلاش أبدًا لأنها مغروسة فى جلد الرجل.

B6115

أرادت أن تسأل: لماذا نعيش إذًا ؟ الرب هو المجنون.

ـ ٧ ـ

لكن سراً، أرادت "جولييت" أن تؤمن.. فى يأس أرادت "جولييت" أن تؤمن.

رؤية! مثل هذه الرؤى تحضرها أحياناً، تحضر المسيحيين المتمتعين بوضع خاص.. "المخلصون".

كانت "آريا" قد أخذت "جولييت" إلى أكثر من عشر كنائس فى شلالات نياجرا قبل أن تتم الثانية عشرة من عمرها، وفى هذه الكنائس راقبت "جولييت" الآخرين "المتعبدين" من وراء أصابعها المعقودة التى تخبئ بها وجهها وهى تفكر **هل هم جادون؟ هل هذا حقيقى؟ لماذا لا أشعر بما يشعرون؟** وكانت "جولييت" تتعجب على الأخص من المتعبدين الذين يبكون سروراً، وتنهمر دمعاتهم على وجوههم المتأثرة، وتحاول "آريا" أن تؤمن بدورها، لكن خلال شهور قليلة، أو أسابيع، تمل "آريا" وتضيق ذرعاً، **أشخاص سخفاء. لا يمكننى احترامهم.**

أدركت جوليت منذ سنوات لكونها نشأت فى شلالات نياجرا بأسطورة سيدة الشلالات المحلية، قصة الخادمة الأيرلندية الشابة والعذراء مريم التى ظهرت للخادمة فى ضباب شلالات هورسشو، وهى فى الصف التاسع قامت بحجة (سرية) إلى المقام الواقع على مسافة ثلاثة أميال شمالى المدينة، على قدميها، تأملت مصير الخادمة الذى رعاها الكاثوليكيون الصالحون الذين رعوها فى أثناء الحمل وتبنوا طفلها حين ولد، ووجدوا لها وظيفة فى المصنع المملوك للأسرة. وفى جزء من عقلها كانت "جوليت" متشككة لكن جزءًا آخر منه يدرك بحال الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً التى يعنفها الجميع، حتى أقاربها.. الفتاة التى انجذبت إلى النهر فى محاولة لتطهير العالم منها، لكنها مُنحت بدلاً من هذا رؤية تعتبر من المعجزات.

قالت "آريا" إنه لا يوجد رب، وإن رسله كثيرون.

"جوليت" ابنة "آريا" المخلصة لا تؤمن بالخرافات الكاثوليكية لكن فى وحدتها تتخيل رؤية تحضرها إذا هى كانت مخلصة فى مرادها، فى احتياجها ونيتها الموت.

لن أحتاج للإنقاذ إذا حضرتنى الرؤية، ستكون الرؤية كافية.

تساءلت إذا كان والدها، ديرك برنابى، قد مر برؤية لحظة موته، حين انزلقت سيارته إلى الحاجز وسقطت فى النهر.

وماذا كانت الرؤية؟

تساءلت إذا كان الموت نفسه رؤية؟

لحسن الحظ لم تعرف "آريا" أبداً أن "جوليت" قامت بحجتها إلى مقام سيدتنا سيدة الشلالات. أو "شاندلر"، أو "رويال"، الذى كان ليغيظها ويضايقها.

كان المقام مبعثًا على حسرة الأمل، فى سذاجة توقعت "جوليت" شيئاً مختلفاً للغاية، شيئاً باطنيًا روحانيًا، لكن سيدتنا سيدة الشلالات كانت

مشغولة بالسائحين. حافلات مزدحمة وساحات انتظار هائلة، و"مطعم مركز الحج" ومتجر للتذكارات، وكاميرات الفضوليين، وأشخاص معتلون من مختلف الأعمار ودرجات الإعاقة فى مقاعد متحركة يدفعهم آخرون، والمريدون الجالسون على ركبهم يتلون الصلوات برءوسهم المحنية، فى ضعف واستكانة وتطلع إلى العذراء مريم، القائمة على ارتفاع ثلاثين قدما تعلوهم قبة الكنيسة، التثمال من الرخام الأبيض، تراه من على مسافة أميال.. غريب مخيف وكأنه مانيكان وسط منطقة ريفية مقفرة.. المواد الدعائية الموجهة للجذب السياحى تتباهى بأن المقام وزنه أكثر من عشرين طناً. حدقت "جولييت" فى وجه العذراء الأنثوى الرتيب بعيونها العمياء وابتسامتها الملولة وكأنها امرأة فى إعلان تليفزيونى. "أنت! لست أنت؟".

يا لها من خيانة لرؤية الخادمة التى رأتها عام ١٨٩١ أحست "جولييت" بالغضب بالنيابة عن الفتاة، فتاة مثلها، كانت لا حيلة لها تشعر بالتوق للمساعدة. رأت الفتاة الأيرلندية رؤيتها وسُرقت منها، قلل من قيمتها برغم أنها ضُخمت وتحولت إلى شىء هائل، تماماً كما ولدت الفتاة ابنها ثم أخذوه منها.

لا يوجد ما أغفره. حبى.. تكونين تؤدين إرادة الرب.

فى صباح مغلف بالضباب فى شهر يونيو وهى تتقدم فى طريقها حافية القدمين كأنها تائبة تتقدم إلى النهر لا تفكر "جولييت" فى المقام، ولا فى السائحين والتمثال القبيح المرتفع، بل فى الخادمة، فى شقيقتها المفقودة.. والرؤية الموعودة. تعالى! *تعالى إلى أبيك فى الشلالات.*

ـ ٨ ـ

ـ من هنا..؟

تفيق "آريا" من نومها خائفة وقد شعرت أن ثمة شخصًا معها فى الحجرة، أو هو فى فراشها.

وسط الملاءات المبعثرة (أى زوج؟ وأى عام هذا؟)

قلبها السخيف يخفق بقوة، مثل غالبية المصابين بالأرق المزمن ترقد "آريا" دون أن تنام لساعات، تمر عليها الساعات التى لا نهاية لها، ثم تسقط نائمة لساعة أو ساعتين وكأن خيولا كابوسية تجرها عبر أرض قاحلة صخرية..

هذا اليوم فى شهر يونيو. هذه الأيام.. العار. آه، فقط لو كانت قادرة على النوم نومها المذهول هذا لمدة شهر كامل!

قطار بضائع أيقظها من نومها، قطار بالتيمور أوهايو لعين عرباته تقعقع فى جمجمتها. وشىء ما يحك باب حجرة نومها فى إصرار خجل.. زاريو؟

كانت "آريا" تقول فى غضب "كل سيئ!" لولا أنها تعرف أن هذا الحيوان الذكى الحساس الذى عاش معها ستة عشر عاماً، والذى دربته "آريا" بنفسها، لا يجرؤ على أن يوقظها بسبب أمر تافه.

تجاوزت الساعة السادسة صباحًا بقليل.. صباح معتم ملبد بالغيوم.. طيور قليلة تنادى على أحدها الأخرى فى تردد فى الفناء الخلفى كثيف الأشجار والعشب. للحظة لم تذكر "آريا" إن كان يفترض أن يكون هذا فصلا دافئ المناخ أم باردًا، أو إذا كان كل من ولديها قد هجرها، أم "شاندلر" فقط.

لا. "رويال" غادر بدوره. لكن توجد "جولييت". ابنتها.

ويوجد زاريو، صديقها المقرب، الذى أحس بأنها استيقظت فراح يحك بحماس أكبر فى الباب، وبدأ يئن.

- ٩ -

يوجد بيننا سر.

سنوات وهو يراقبها، ليس بشكل منتظم، وليس كل يوم. لكن كثيراً. "جولييت" لم تنظر إليه وتدرك وجوده قط، وهى تشعر بأن عليها ألا تنظر، يجب ألا تنظر. حذرتها "آريا" من أن "تنظر فى أعين" الغرباء أو آخرين "قد

يؤذون فتاة صغيرة" وهكذا كانت "جولييت" تشيح بعينيها فى خجل، "جولييت" تتعمد الالتفات عنهم، وتعلمت كيف تكون غير عارفة، لا تدرك بوجود الآخرين. تزايد إحساسها بالحياة فى الموسيقى، فى رأسها تعزف الموسيقى بلا توقف، تنبعث من مصدر غامض كالنور المنبعث من مصدر بعيد يدعى "الشمس.. "الشمس".

لكن.. ها هو ذا، الصبى حليق الرأس.. ينتظر.

أدركت "جولييت" بوجوده لأول مرة، وبوجود شىء غريب فيه، شىء خاص يقتصر عليه، حين كانت فى الصف الخامس أو السادس، الإدراك البطىء، التدريجى كتدريجية تغير الفصول، بأنها تراه لفترات قصيرة وهذا فى مناسبات كثيرة، على نفس المسافة منها تقريباً فى كل المرات، يراقبها فى صمت.. فى شارع بلطيق، وشارع ٤٨ وفى شارع فيرى، فى شارع جاريسون (حيث يقيم فى بيت بمساحة الحظيرة عند التقاطع مع شارع فيتيران) أحياناً تراه حين يكون منتظراً لدى موقف الحافلات، فى طريقه للذهاب إلى وسط المدينة. وخارج المكتبة العامة فى وسط المدينة. لعلها تراه أكثر عندما تكون سائرة تجول حالمة فى بلطيق بارك، وهى عائدة إلى البيت من المدرسة.

نادرًا، بل أبدًا فى الواقع، ما رأت "جولييت" الصبى حليق الرأس يراقبها حين تكون مع آخرين، فقط حين تكون وحيدة.

فتى ضخم، كأنه فاقد الحس، قبيح، لا يبتسم.. ترفع بصرها لترى من على بعد ثلاثين قدماً أو أكثر.. شىء ما ثابت وجنونى فى عينيه.

يوجد بيننا سر.

ذات يوم ستعرفين.

* * *

لماذا لم تخبر "جولييت" أحداً ولا "آريا" ولا شاندلر ولا شقيقها "رويال"، بشأن الصبى حليق الرأس؟ ربما كانت تخبر معلمة فى المدرسة أو صديقة لها فى الفصل.

لماذا؟ لم ترغب "جولييت" فى التفكير فى سبب؟

منذ الطفولة وهى يبدو أنها تعرف أن التحدث عن الصبى حليق الرأس إلى شخص آخر يعتبر أمراً لا طائل من ورائه.

لم يقترب منها قط، لم يناد عليها فى سخرية مثل الأولاد الآخرين، لم يضايقها أو يهددها قط.

ذات يوم ستعرفين.

فى العام الماضى رأت "جولييت" الصبى، وقد كبر وأصبح شاباً مفتول العضلات ضخم الجثة، وهذا فى حفلاتها بالمدرسة الثانوية وفى أماكن أخرى، بل إنها حتى (وهذا أمر باعث على الانزعاج أكثر، بالطبع) رأته فى بروفات المدرسة الثانوية، يجلس "ستونكروب" دائماً وحده فى الصف الأخير، فى الظلال، إنه ضخم لكن يمكن أن يُعتبر كأى ولد من المدرسة الثانوية، تريد "جولييت" أن تعتقد أنه لا يكرهها، ولا يريد أن يضايقها أو أن يسخر منها. بينما يغمغم الأولاد الآخرون جولى - يت برنا - بى بأصوات ساخرة تنبعث من أفواههم، لكن الصبى حليق الرأس صامت.. ينتظر.

هذا بدوره، يعتبر سراً، كيف أنه منذ عدة سنوات حين كانت "جولييت" فى الثانية عشرة من عمرها، وفى الصف السابع، تدخل "ستونكروب" حين راحت عصابة من الأولاد الأكبر سناً يضايقون "جولييت" فى طريقها إلى البيت من المدرسة.

كانوا فى الصف التاسع وأسماؤهم على غرار "مايويزر" و"يرهو" و"داماتو" و"شيهان". أغاظوها وضايقوها كالفتيات الأخريات، وليست هى وحدها، لكن "جولييت" أصبحت هدفهم المفضل، لماذا يكرهوننى؟ *هل السبب هو وجهى؟ أم اسم عائلتى؟* كان الأولاد صاخبين ويكرهون أن يبدو على "جولييت برنابى" اللامبالاة لوجودهم، انفصالها الحالم عن المحيطات يستفزهم، طريقتها فى التحديق فى الأرض أو على مسافة بعيدة (أهى

تسمع الموسيقى فى رأسها؟) الندبات على فمها وجبينها يبدو أنها تستفزهم. كانوا صبية ولديهم ندباتهم الخاصة بهم. "جولييت": من عض وجهك؟ ولا تعرف إن كانت فتاة مشوهة، غريبة من نوعها، أم أنها جذابة ومثيرة جنسياً، تحدو أحدهم الآخر على من يقبلها. ذات الندبة! برنا ـ بى! وإن لم يكن فى الفناء كبار معهم يصبحون أكثر قسوة.. تتوهج وجوههم وتلمع أعينهم بجوع وطمع. فى ذلك المساء لم تتمكن "جولييت" من الفرار منهم وأجبروها على دخول زقاق متفرع من شارع بلطيق، على مسافة بلوكين سكنيين من بيتها، أمسك الصبى "مايويزر" بشعر "جولييت"، وأمسك الصبى "هيرون" بياقة كنزتها الجديدة، إذا كانت تسمع الموسيقى فى رأسها وتتخيل صوتها يعلو ويرتقى فى أغنية، فقد أفاقت من ثباتها الآن، على هذه الوجوه الصبيانية المتبسمة من حولها تحاصرها، لماذا لم تتمكن من الصراخ؟ لماذا انغلق حلقها فى ذعر؟ كانت فى حاجة ماسة إلى الفرار لكنها لم تزد عن دفعهم وإبعادهم والضرب فى ضعف على أيديهم المشغولة بمضايقتها، وحين حاولت الجرى منعوها وأحاطوها على شكل دائرة، وراحوا يضحكون فى صخب واستهزاء، يدفعون بعضهم ليقتربوا منها أكثر.. "جولى- يت! برنا- بى"! "برنا-بى"! من عض وجهك؟ وتمزقت كنزة "جولييت"، وسقطت كتبها المدرسية على الأرض وركلتها الأقدام، طالت مدة هذه الهجمة من الصبية عليها أكثر من أى هجوم سابق، وبدأت "جولييت" تشعر بالذعر، تعرف ما يمكن أن يفعله الأولاد بالفتيات، إذا كانت الفتيات وحدهن لا حيلة لهن، لا تعرف بشكل واضح لكنها تعرف.

لكنها راحت تحاول أن تمنع نفسها من البكاء، أبداً لا تعطى أعداءك سبباً للشماتة والسرور. هكذا حذرتها آريا، أبداً لا تكشفى عن دموعك.

ـ أنتم! يا خراء أنت وهو!"

دخل إلى الزقاق وهو يعدو وقبضتاه تتأرجحان.. "باد ستونكروب"، ابن الشرطى، وحمل على الصبية حملة قوية كالثور الهائج، تحرك بسرعة ودون سابق تحذير، أمسك "بكلايد مايويزر" من رأسه بقبضة يده الضخمة

كما يمسك المرء بكرة السلة وضربه برأس "رون هيرون". ضرب "دماتو" بقبضته فكسر أنفه الذى انهمرت منه الدماء. ولكم "شيهام" بين ساقيه، وتلى هذا بركلة فى بطنه. تراجع الصبية متعثرين، مندهشين من هذا الهجوم، ومن شراسته، ومن تمكن منهم من الهروب راح يركض مشتتاً متعثراً. كان "ستونكروب" أثقل وزناً من أضخم الصبية فى الصف التاسع، بأكثر من ثلاثين رطلاً، ووقف يلهث صامتاً أمام "جولييت" التى جلست القرفصاء ، كانت تحجب رأسها بيدها من المهاجمين، كنزتها الوردية المزخرفة بالصوف التى اشترتها بما ادخرت من أجر مجالسة الأطفال تمزقت من عند الرقبة وسقطت منها الأزرار، غمغم "ستونكروب" بما بدا مثل "أولاد قحبة ملاعين.. كان يجب أن أقتلهم" مال على الأرض والتقط أحد أزرار "جولييت". ثم زرًا آخر، كانت أزرارا لامعة وردية اللون، صغيرة فى راحة يد "ستونكروب" الهائلة، وحين رأى أن جولييت راحت فى خوف تحاول أن تمسك بأجزاء كنزتها الممزقة، خلع "ستونكروب" عنه قميصه وناوله لها قائلاً ما بدا مثل: "تفضلى".

أخذت "جولييت" القميص من الصبى حليق الرأس ووضعته عليها فى خدر، قميص رمادى قطنى، ليس نظيفًا، ورطب تحت الإبطين، ضخم على "جولييت" وكأنه خيمة، الكم الأيمن علق على كتفها، وهى تشعر بالإحراج غمغمت "جولييت": "شكرًا" كان الصبى حليق الرأس أكبر من "رويال" بقليل، ويزيد عمره عن الثامنة عشرة بقليل، لكن جذعه المفتول العضلات يجعله يبدو كالرجل البالغ، أحست "جولييت" للحظة (وهى تنظر بعيدًا عنه) بأن جسده مغطى بفراء كالدب. قميصه رائحته رائحة العرق والبصل المقلى. سترتديه "جولييت" إلى البيت وتدخل المنزل رقم ١٧٠٢بشارع بلطيق دون أن تراها أمها اليقظة فى العادة (كانت "آريا" فى مؤخرة البيت مع تلميذة بيانو) وفيما بعد فى وقت متأخر من ذلك المساء ستغسله بيدها برفق وتعلقه ليجف فى حجرتها، وفى اليوم التالى ستعيده ملفوفاً بحقيبة ورقية مكتوب عليها "باد ستوكروب" إذ ستضعه على الشرفة الأمامية لبيته فى ٥٢٢ شارع جاريسون.

ولم يقع اتصال مقرب آخر بين الصبى حليق الرأس و"جوليت برنابى"، ولا تبادلا الكلمات، لأكثر من أربعة أعوام.

ـ ١٠ ـ

ستونكروب! فى حى شارع بلطيق بشلالات نياجرا بنيويورك، وفى أواخر الستينيات بدأ يكتسب سمعته وهو ما زال فى المدرسة الثانوية، كان "ستون كروب" ابن الشرطى. أحيانًا لمن يعرفونه من الأسرة ولأبيه الرقيب فى قسم شرطة شلالات نياجرا، كان "باد جونيور".

لكن لا يمكن أبدًا أن تنادى "ستونكروب" بهذا الاسم، أبداً لا تنادى "ستونكروب" بأى اسم. الأفضل أن تتحاشى "ستونكروب"، ولا تنظر إليه. فأنت لا ترغب فى أن ينظر "ستونكروب" إليك، وأن يسجلك فى وعيه المعتم وإن كان يقظاً فى الوقت نفسه، بنفس عدم رغبتك فى أن تدع أى حيوان مفترس من أى نوع، سمكة قرش مثلاً، أن يسجل وجودك حوله، فى الطفولة تتخذ غريزة البقاء المبكرة هذه فكرة البقاء خفياً.

مع بلوغ سن الثانية عشرة أصبح طول "ستونكروب" حوالى ستة أقدام ووزنه أكثر من مائة وثمانين رطلاً وسوف يستمر فى النمو حتى المراهقة، حتى بين أقاربه من "آل ستونكروب" ضخام الجثة، كان مميزاً، هيئته شبيهة بقطعة سجق مستقيمة مليئة بالدماء على وشك الانفجار من داخل كيسها، ووجهه له نفس اللون الساخن الصارم ابتسامته الطبيعية هى تكشيرة، رأسه يوحى بكثافة واستدامة الحجر الصلب. شعره بلون الأحجار محلوق بقسوة من الخلف والجانبين (على يد حلاق تصادف أنه عمه) كان قصيراً عند مقدم الرأس مشذباً وكأنه حقل ذرة محروث، عيناه صغيرتان باردتان ويقظتان وغريبتان، أسنانه التى حال لونها تتخذ شكل الجاروف، وأنفه أفطس منذ مولده، ولا يمكن أن ينكسر أو أن ينزف تحت تأثير أية لطمة، قيل إن "ستونكروب" حين كان فى المدرسة الابتدائية بدأ يظهر على جسده شعر كثيف، قضيبه ينمو بمعدل أسبوعى، فى حجرة تبديل الملابس الخاصة بالأولاد كان من الواضح أنه سيبقى شبه منتصب دائمًا.. وسرعان

ما عرف الصبية كيف يتفادون النظر إليه مثلما يتفادى الأشخاص فى رعب شخص مسلح بخنجر طويل بينما هم مسلحون بمدية طول نصلها ثلاث بوصات. لكن فى حضور الفتيات كان "ستونكروب" ينسحب، يصبح فى عزلة، أو حياد، وتقول الفتيات عنه إنه يصيبهن بالقشعريرة.

كان "ستونكروب" هو الابن الأصغر للرقيب باد "ستونكروب" من قسم شرطة شلالات نياجرا، وهو ضابط شرطة معروف على المستوى المحلى ويثور حوله الجدل بعد أن تقاعد فى سن صغيرة. كانت عائلة ستونكروب من العشائر الكبيرة فى شلالات نياجرا، وتزوجوا من عائلة "مايويزر" و"أوراين"، لكن التحالفات بين العائلات، خاصة أولاد العم من الصبية، كانت متقلبة الأحوال، فآل "ستونكروب" القاطنون بشارع جاريسون لم يكونوا على علاقة ودية مع "ستونكروب" من شارع ٥٣ أو مع جيرانهم من "مايويزر". وكان "باد جونيور" صديقاً موثوقاً فقط مع من يرغب، لكن دائمًا ما يمكن الثقة فى أنه العدو الغادر على طول الخط. أثناء سنوات المدرسة كان يمشى مع عصابة من الصبية من نفس حجمه تقريبًا، ومن نفس خلفيته وتقلبه المزاجى، لكن فى أكثر الأوقات كان "ستونكروب" صبيًا وحيدًا متأملاً، كان يغيب عن الحصص كثيرًا لكن أبداً لم يحصل على درجة أقل من (سى سالب)، ولم يخطر لأحد المعلمين قط أن يسقطه فى مادته، و"يبقيه" لعام آخر، لكنه كان فى العادة جاداً بل وكئيباً فى قاعات الدرس، كان ينظر إلى الكتب الدراسية وكأنها مكتوبة بلغة أجنبية لا يعرف فيها إلا بعض الكلمات المألوفة التى تقع عليها عيناه من الحين للآخر. وخرج من المدرسة فجأة بعد عيد ميلاده السادس عشر، فى سنته الأولى بالمدرسة الثانوية، لكن قبل الخروج أصر على السماح له بأن يحضر مادة مخصصة للفتيات هى "الاقتصاد المنزلى"، وفى هذه المادة، لدهشة وسرور الفتيات من زميلاته فى المادة ومعلمته، برع "ستونكروب" فى الطهى.

طاهى! لكن لم يضحك أحد.

قيل إن قصبة ستونكروب الهوائية أصيبت فى شجار بالشارع وإنه لهذا السبب كان يتكلم بالغمغمة والهمهمات، وفى الواقع كان صوت

"ستونكروب" صوتًا عميقًا غليظًا لكنه كان يميل للهمهمة بدافع الخجل. وكان "باد سينيور"، أباه، هو الذى تعرض لإصابات خطيرة فى قصبته الهوائية، وكذلك فى أجزاء أخرى من جسده.. فالرقيب تعرض لكمين فى ساحة انتظار ماريو فضرب ضربًا مبرحًا كاد يتسبب فى موته على يد المعتدين، الذين وصفهم بأنهم "زنوج أعماهم المخدر" وكان لهم ثأر ضده (كان هذا هو تقرير الشرطة الرسمى فى الدائرة الشرطية الأولى حيث كُلف بالعمل معظم حياته المهنية، وبين أقاربه من آل ستونكروب كانت ثمة حقائق أخرى معروفة عن الضرب وما استتبعه من آثار بدنية وعقلية). وتقاعد من قسم شرطة شلالات نياجرا مصحوباً بالإشادة وبمعاش الإعاقة الكامل وهو فى سن الثانية والأربعين.

وكان من المتوقع أن ينضم "باد جونيور" إلى العمل بالشرطة مثل أبيه، وكان من بين أقاربه فى العائلة ضباط شرطة وضباط مختصون بمراقبة المجرمين المفرج عنهم وحراس سجون، لكن منذ بلغ سن الحادية عشرة انجذب "ستونكروب" إلى خاله ومطعمه "دوك بار آند دريل" فى الشارع الرابع، وبعد الخروج من المدرسة بدأ يعمل هناك بدوام كامل، كان مطعم دوك بار آند جريل قريباً من دائرة الشرطة الأولى وقريبًا من مبنى مجلس المدينة ويعتبر مكانًا مألوفًا لاجتماع رجال الشرطة والعاملين بالشرطة ومن خرجوا على المعاش من مكتب المحامى العام، ودائماً ما توجد تشكيلة متغيرة من النساء فى مطعم دوك، وكثيرات منهن مطلقات وحيدات، ومع مقدم المساء الباكر يتحول الجو فى البار والمطعم المجاور إلى حالة من الصخب والدخان والمرح. تلعب موسيقى الروك الخمسينية وموسيقى الكاونترى والويسترن بصوت مرتفع، والتليفزيون المستقر فوق البار دائمًا ما يعمل، يبث المباريات الرياضية، وإن لم يتمكن أحد من سماع التعليق. وفى المطبخ بالمطعم، ينصت "ستونكروب" ورفاقه من العاملين لموسيقى روك السبعينيات الصاخبة من راديو صغير، أما العاملون الأكبر سنًا بالمطبخ فيبدو أنهم مولعون "بستونكروب"، ابن أخ صاحب المطعم، والذى

كان مستعداً لتولى المهام التى يطلقون عليها "أعمال الخراء"، من مسح البلاط وإخراج القمامة ومسح الدهون وغسيل الصحون، وكمكافأة له كان الطاهى أحياناً يدعه يحضر الوجبات تحت إشرافه.

بالطبع لم يستحسن أحد من عائلة "ستونكروب" عمل "باد جونيور" كعامل فى مطبخ، هل هذه مزحة؟ صبى بهذا الحجم وليس بليداً ولا "أبله"؟ (المهم، ليس بليداً للغاية، وكان ذكاؤه يبلغ على الأقل ذكاء والده الذى تخرج فى أكاديمية الشرطة وكان عمله كشرطى ذات صلات عملاً مرضياً) وكانت توجد ضغوط مستمرة على "ستونكروب" لكى يتولى عملاً حقيقيًا، أو وظيفة جادة.. وظيفة مناسبة لرجل، ومن خلال أقاربه بدأ يعمل فى شركة "باركس آند ريكرياشن" لكنه كاد يقطع ساقه اليمنى بمنشار، وعمل عامل إنقاذ خلال موسم شتاء رهيب مع مقاطعة نياجرا، وكان يخرج فى شاحنات إزالة الثلوج فى مهام إنقاذ تستغرق عشر ساعات، وكانت إحدى وظائفه التى حصل فيها على أجر جيد هى العمل فى محجر محلى، لكنه كان يكره هذا العمل الشبيه بعمل الموتى، وانتهى به المطاف بالشرب مع الزملاء الأكبر سناً وإن كان تحت السن القانونية للشرب فى ذلك الحين، كان يعود إلى البيت مخموراً أو لا يعود بالمرة، ومع بلوغه سن السابعة عشرة أصبح طول "ستونكروب" أكثر من ستة أقدام وبوصتين، ووزنه مائتين وعشرين رطلاً، وهكذا راح أقاربه يتكلمون عن تدريبه ليصبح ملاكمًا، وبدأ والد "ستونكروب" شبه القعيد باد سنيور فى تخيل "باد جونيور" فى بطولة العالم التالية للوزن الثقيل، وقد أعاد التاج إلى الجنس القوقازى الأبيض الذى يستحقه (لم يظهر بطل عالم أبيض البشرة منذ روكى مارشيانو الذى اعتزل اللعب فى عام ١٩٥٦ لكن "ستونكروب" كان ملاكمًا مترددًا، كان يقبل على الشجار فى الشارع بالغريزة، ويميل إلى توجيه لكمات قوية بيمناه تنبعث من كتفه، وهكذا لم يكن لديه صبر، ولا مهارة، تؤهله لتعلم خطط تنطوى على المراوغة والكر والفر واللكمات السريعة الخاطفة والتحرك الدائم على قدميه، يمكن أن يشعر "ستونكروب" خصمه بالتهديد بحجمه

فقط إذا لم يكن خصمه فى نفس حجمه أو أكبر منه. وفى صالة الرياضة فى شارع فرونت، تدرب دون حماس حقيقى على أول بطولة له (وكان مقرر عقدها فى بافالو)، وأصبح "ستونكروب" كئيبًا عابسًا. أصبحت عيناه محتقنتين دوماً بالدماء، وشفتاه ملتهبتين متضخمتين مشققتين، أصبح يعانى صعوبة فى التنفس من أنفه الذى كان كله من الغضاريف، وأصبح أفطس أكثر من أى وقت، بعد عدة جولات راح يلهث كالثور، وراح مدربه البالغ من العمر ثمانين عاماً يؤنبه كما يؤنب المرء ثوراً: "الملاكمة ليست تلقى اللكمات يا فتى، بل لكم الخصم، أترى؟" وكان "ستونكروب" لا يتمتع باللباقة الكافية للاحتجاج. كان يقف ثابتًا على قدميه صامتًا تمامًا فى الحلبة ويسمح بانهمار اللكمات على رأسه غير المحمى وعلى وجهه وجذعه. جسده الأبيض الكبير المغطى بجلد ثقيل غليظ يوحى بحالة من الترفع والكرامة المجروحة، والتأمل لهذا المصير الغريب، *لا أريد أن ألطم أحداً، أريد أن أطعم الناس.*

وفى أول مباراة له بالبطولة، فى حلبة بافالو، سقط "ستونكروب" خلال خمسين ثانية من الجولة الأولى، وأسقطه ملاكم أسود من الوزن الثقيل عمره ستة عشر عاماً، وأخرجه الحكم المذهول بعد أن عد عليه عشراً.

وهكذا سُمح "لستونكروب" أن يعتزل صالة الألعاب إلى الأبد وأن يعود إلى دوك بار آند جريل، ويعمل لساعات أطول (ما زال خاله يدفع له أكثر بقليل من الحد الأدنى للأجر) أما والد "ستونكروب"، الذى سقط فى دوامة من العجز المتزايد والمرض الخطير الذى قارب أن يكون شللا نصفيًا، فلن يغفر له أبداً، ولن يسأله شيئًا بعد أن عاد للعمل فى المطعم. وحين استقال الطاهى دخل "ستونكروب" مكانه، تعلم تنفيذ الأوامر بسرعة وبثقة متزايدة، وإن كان خلال شهور قليلة مل من قائمة طعام المطعم وقام بتحضير شطائر همبورجر وتشير برجر جديدة، بالإضافة للسجق والبيض المحمر ولحم الخنزير والتوست، وكان يقلى كل شىء فى الشحم الساخن،

وهو فى سن العاشرة كان قد بدأ يحضر وجباته الخاصة فى البيت فى غياب أمه وكانت لديه أفكاره الخاصة عن الطعام، والتى تخالف أفكار العم "دوك". وكان ينسى نفسه فى خضم تركيزه مع رداء الطاهى الغارق فى الشحم وقبعة الطاهى ورأسه المحنى على لوح التقطيع، فكان يضيف البصل المقطع والفلفل الأخضر والفلفل الأحمر إلى قطع اللحم، وجرب كثيراً بطرق مبتكرة فى تجديد لحم الخنزير على الطريقة الكندية، وتحضير السمك المجمد وأجنحة الدجاج والبطاطس المقلية. لقد أصيب خال "ستونكروب" بالانزعاج من استعماله أنواعاً جديدة من المخللات ورقائق البطاطس والكول سلو، وطور شوربة الطماطم الحريفة على طريقته الخاصة، وأضافها إلى قائمة الطعام بالمطعم، وكان يضيف إليها توابل كثيرة وقطعاً من الطماطم الطازجة، كما طور بنفسه أطباقه الإيطالية، وهى بالأساس من الإسباجيتى وكرات اللحم، وبدأ طبق اللحم بالفلفل الأحمر الذى ابتكره يجد له زبائنه. ومع الوقت تطور اهتمام "ستونكروب" بالخضراوات الطازجة أكثر من المجمدة، كما أصبح يفضل الجبن الشيدر عن الجبن الأمريكى الذى يضيفه إلى البرجر، مما جعل هامش ربح "دوك" أقل من السابق، وكانت له أفكاره الخاصة حول لحم الضلوع المشوى، والدجاج المقلى وقطع لحم الخنزير والبازلاء وسمك الهاليبوت المفلطح وطاجن سمك الكود، بل والبطاطس المهروسة، وحين بدأ الزبائن يعلقون أو يشتكون من المذاق الجديد الغريب لبرجر "ستونكروب"، صب عليه خاله جام غضبه: "أيها الأبله الصغير، ما هذا؟ ما هذا القرف؟" ثم قام الرجل الأكبر من "ستونكروب" والأقصر ببعض البوصات والأقل وزنًا بثلاثين رطلاً تقريبًا، بفتح شطيرة برجر ليكشف داخلها وجود شرائح من البصل والفلفل والفلفل الأحمر وسط اللحم، وقضم منها قضمة فى ريبة ثم قضمة أخرى، وأضاف الكاتشاب إلى ما تبقى من اللحم ثم تذوقه ثانية، واختتم كلامه قائلاً: "ليست سيئة، إنها مختلفة نوعاً، لكن ستُضاف إلى قائمة الطعام كطبق خاص.. برجر باد. والمرة القادمة التى تقرر فيها أن تجرب فى مطبخى يا فتى، فالأفضل أن تخبرنى بما ستفعله قبل أن

تقدم عليه وإلا كسرت لك مؤخرتك"، ومسح "ستونكروب" وجهه الأحمر الكئيب وأزاح عنه العرق على رداء الطاهى الذى يرتديه وحرك شفتيه وكأنه يقول: "طظ فيك" فضحك كل من فى المطبخ.

ومع مرور الشهور بدأ "ستونكروب" يكتسب الزبائن الذين يحبون طعامه، وكان من بين أول زبائنه رجال مكتب المحامى العام المتقاعدون والمطلقات.

ومع تدهور صحة "باد" الأب، راح "باد" الابن يقضى وقتًا أطول بعيدًا عن البيت بشارع جاريسون، وحينما لم يكن يعمل فى المطعم كان يجول بالمدينة على امتداد النهر ويذهب إلى بافالو ويعود فى دورة مجنونة لا تتوقف، وكانت لديه سيارة ثاندربيرد مستعملة اشتراها بنية إصلاحها، لكنه أهملها، وأحيانًا كان يجول بالحى على قدميه، ولا يسأل أية فتيات أن يخرجن معه، ولم يكن له اهتمام ظاهر بالفتيات. (الجميع يعرفون هذا. وكان البعض يعتقدون أن لستونكروب حياة سرية) وهو فتى ضخم ذو وجه مفلطح عبوس، وعينين ملطختين وذلك الرأس الحليق الغليظ، فكان "ستونكروب" بحاله هذا يعتبر جذابًا لنوع معين من الزبائن من النساء فى مطعم دوك، وبعضهن يراقبنه وينتظرن خروجه (فى البار) حين يغلق المطبخ فى الحادية عشرة مساءً، أملاً فى أن يأخذن ستونكروب إلى البيت معهن، وبرغم أن أم الصبى حليق الرأس مفقودة منذ أكثر من عشر سنوات، فإن "ستونكروب" كان كثيرًا ما يقال عنه، من قبل مثل هاته النسوة، "الصبى يتيم الأم".. و"الصبى ستونكروب المسكين اليتيم هذا".

وكان والد "ستونكروب" قعيدًا فى البيت، ويرعاه بالأساس شقيقة أكبر منه غير متزوجة، وحين كان فى حالة أفضل، جعل "باد" الأب جميع من بالأسرة يقرون على وثيقة يعدون فيها بعدم إدخاله بيتًا للتمريض، ومن بين "آل ستونكروب"، كما فى غالبية الأسر فى شارع بلطيق، كان مثل هذا الإجراء اليائس نادرًا ما يُتخذ. *الأفضل أن أموت فى البيت مع أشخاص من أسرتى.*

الأفضل لمن، لم يسأل أحد هذا السؤال قط، ثمة بعض الأشياء التى تدعها تمر بدافع من الواجب والإحساس بالذنب.

كان من المُلاحظ أن "ستونكروب" تزايد توتره وأصبح قليل الصبر بشأن تدهور حالة والده. تشاجر مع" باد" الأب لسنوات لكن ربما كان يحب الرجل بعد كل شىء؟ كان "ستونكروب" ولداً غامضاً، تحول إلى رجل أكثر غموضًا. وفى ذلك الحين كان قد ابتعد عن أصحابه القدامى. وأحيانًا كان يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى المطعم ويختفى، وفى مطعم دوك مع تزايد التقدير الموجه لطهوه، ومع انضمام زبائن جدد إلى الزبائن القدامى المنتظمين، أصبحت "لستونكروب" طريقة مميزة فى الخروج من المطبخ غاضبًا إذا أحس بالإهانة من عمه، وقد فصله دوك ثم أعاده للعمل ثم فصله ثانية، لكن كانت توجد مطاعم محلية حريصة على تعيينه وبأجور جيدة، وهكذا سارع "دوك" بإعادته للعمل، وزاد من راتبه على كره منه. ولابد أن إحساس "ستونكروب" بالانتماء إلى العائلة هو السبب فى عودته دائماً إلى دوك بار آند جريل، مثل كلب يُركل كثيرًا ويُطرد ثم يعود إلى سيده الذى يندب مرة بعد مرة على طرده "ابن الحرام الصغير يتصرف من عقله".. كذا يقول "دوك" فى استحسان حاقد، ويضيف: "لكن المطعم ملكى".. ولم يكن رجال عائلة "ستونكروب" معتادين على اللباقة فى الحديث، خاصة فى الحديث الخاص بالعمل، وحين كان "دوك" ينادى ابن أخيه الضخم باسم: "يا ثقب المؤخرة"، و"يا خراء"، و"يا مبولة" و"أيها الشاذ".. كان "ستونكروب" يتفاعل مع الألقاب بحياد، لكن حين يناديه خاله "يا غبى" أو "يا متخلف" أو "يا أبله" أمام شهود، كان ستونكروب يرد بعنف، قد يمزق رداء الطاهى الذى يرتديه ويلقى به أرضاً ويخرج من المطعم. وربما يحطم الأطباق ويقلب أطباق التقديم الكبيرة المليئة بالطعام الساخن، أو الأطباق المكومة عليها القمامة. وذات مرة شوهد "ستونكروب" وهو يمسك بقضيب حديدى ساخن ثقيل من الموقد ويقترب به من الرجل الأكبر سناً وهو ينوى قتله على ما يبدو. واضطرت شرطة شلالات نياجرا لتقييد الصبى حليق الرأس بالقوة.. إذ كان بعض الضباط يتناولون طعامهم فى

المطعم "إذا لم نكن قد أوقفناه، كان الصبى المجنون ليحطم جمجمة "دوك". وسرعان ما أصبحت هذه الواقعة جزءاً من أساطير عائلة ستونكروب، ويعاد تلاوتها كثيراً بشىء من البهجة والسرور.

وذات مساء كان "رويال برنابى" مع أخته جولييت يتناولان العشاء فى مطعم "دوك"، وكانا جالسين إلى مائدة لصق الجدار الخارجى للمطعم، وكان "ستونكروب" يحوم حولهما لدى مدخل باب المطبخ، فى تأمله وفقدانه للإحساس، كانت أمسية فى شهر نوفمبر ١٩٧٧بعد أسابيع قليلة من خروج "رويال" من البيت، كانت "جولييت" قد ذهبت لتزوره فى شقته بالشارع الرابع، الأخ والأخت يتحادثان فى هدوء معًا، قالت "جولييت": "ماما تفتقدك.. تتنهد وكأن قلبها محطم" هز رويال كتفيه. وراح يحاكى إيقاع أغنية روك تعزف فى الجوار بالشوكة والسكين فى يديه، مصاحبًا أغنية بيل هالى الكلاسيكية "شيك راتل آند رول" منذ خرج من البيت فى شارع بلطيق "ورويال" يبدو أكبر سنًا، حتى بالنسبة لنفسه يبدو كأنه أكثر اكتفاءً بالذات، وكتوم أكثر من ذى قبل ولم يكن وحيداً بالقدر الذى حسبه.. قالت جولييت: "أعتقد أننى أفتقدك أيضاً"، وأنزلت رأسها لأسفل وكأنها تشعر بإحراج.

انتهت الأغنية فجأة، فتركت "رويال" دون غطاء.. قال على استحياء: "لا يعنى أننى أحب أى أحد أقل من ذى قبل؛ لأننى لم أعد أعيش معكم، بل يعنى فقط.." كف صوت رويال وهو غير واثق مما يريد أن يقول.

طلب "رويال" طبقاً كبيرًا من الفلفل الحار ووضع فيه بعض قطع المحار، كما طلبت "جولييت" أومليت إسبانى، كان طبق "رويال" وطبق "جولييت" ساخنين، وفى طبق "جولييت"، بالإضافة للأومليت، كانت توجد قطع من الجزر والمقدونس، وشرائح أناناس رفيعة مرتبة كأنها أوراق زهرة، وكان "الأومليت" معالجا بتوابل كثيرة وفيه طماطم كثيرة، وبصل وفلفل أخضر وأحمر.. وبالكاد تمكنت "جولييت" من الانتهاء منه يا لها من وجبة هائلة! كأنها تفتح درجاً مألوفاً فتخرج منه بالونات سحرية كثيرة لا تكاد

تعرف عنها شيئا، كما أرسل الطاهى سلة كبيرة فيها بسكويت مخبوز ساخن من الفرن، وقالت النادلة: "يقول إنها لك، وهى إضافية ودون تكلفة إضافية" طالع "رويال" طبق "جولييت" فى ريبة، وقال بصوت خفيض: "تبدو مُعدة على عجلة. هل هى طيبة المذاق؟"- وقالت "جولييت": "أعتقد أن الأومليت يجب أن يكون طرياً من الداخل.. مطويًا وطريًا من الداخل"، وكانت "آريا" بطهيها المتعجل تعد الأومليت للأسرة بكسر البيض وإلقائها فى المقلاة وتركها تجف حتى يبيض لونها وتتحول إلى ما يشبه الفطيرة المحلاة.. وكثيراً ما كان أومليت "آريا" يشيط ويجف، ونشأ "رويال" على المذاقات البسيطة الخشنة، ولم يكن يثق إلا بالبيض الجاف، بل وحتى مطاطى الملمس.. قالت "جولييت": "هذا أطيب أومليت أتذوقه فى حياتى.. أتريد بعضاً منه؟"

شكراً، لا! سأكتفى برأيك فيه".

رأيا "ستونكروب"، الطاهى حليق الرأس الذى يكبر رويال بعام أو عامين لا أكثر، خرج من المطبخ وجلس إلى مؤخرة المطعم وراء الكاونتر يحضر لتنظيف المشواة، وراح يراقب "رويال" و"جولييت" فى خفاء لكنه الآن يبدو أنه لم يعد ملتفتاً لهما، ونادى "رويال" فى تهذيب: "باد.. هذا الطعام رائع، الوجبتان.. هل أنت من حضرهما؟" وكان قصد "رويال" خيرًا لكن وجه "ستونكروب" الدافئ احتقن بالدماء وكأنه تلقى إهانة، وعاد إلى المطبخ على الفور واغلق الباب وراءه، حدق "رويال" فيه وقد أدهشته نظرة "ستونكروب" الصلبة المتألمة قبل أن يشيح بوجهه عنه بلحظة، وراحت "جولييت" تطوى منشفتها الورقية فى صمت، أكلت ثلثى الأومليت ومعظم قطع البسكويت وكل الخضراوات المرتبة بعذوبة.

غمغم "رويال": "اللعنة.. أعتقد أننى قلت ما يسوء".

أوصل "جولييت" بالسيارة إلى شارع بلطيق، وفى الطريق قال "رويال": "هذا الرجل.. "باد ستونكروب" يبدو غريب الأطوار فى بعض الأوقات، ما رأيك يا "جولييت"؟ غمغمت "جولييت" قائلة إنها ليست واثقة.. قال

"رويال": "وكأن هناك شيئًا بيننا.. لكن.. ماذا؟" راح "رويال" يفكر فى ضيق فى "ستونكروب" حليق الرأس، الذى ترددت الشائعات حول أن جسده كجسد الحصان.. فكر كيف أنه ربما يشعر بشىء نحو شقيقته البالغ وزنها تسعة وثمانين رطلاً، وهى فى الخامسة عشرة من عمرها.

- ١١ -

عار، الاسم عار.. أنت تعرف اسمك.

تعالى إلى أبيك فى الشلالات.

إنها ذكرى وفاته، الأصوات أوضح الآن.. أقل ارتباكاً وأقل تأنيباً، وكأن ما ستفعله "جولييت" قد أنجزته بالفعل، مثل الفتاة الأيرلندية ذات الخمسة عشر عاماً. تائبة مبهورة الأنفاس، أقدامها خدرة على العشب المبتل.

"جولييت! برنا-بى"! تعالى إلينا.

أصبحت الآن لدى الحاجز فوق الشلالات.. يداها تمسكان بالحاجز البارد.. وجهها مبلل بالضباب.. المياه تتدفق بيضاء سريعة كالعضلات على صدر كبير تتحرك عضلاته من تحت الجلد. كم من المرات رأت "جولييت" نهر نياجرا عن قرب ولكنه مختلف فى الفجر قبل بزوغ النهار، السماء الشرقية مكللة بالسحب كالخرسانة المتسخة لكنها فى الوقت نفسه مكسوة بنور ذهبى برونزى، إنها مختلفة، أو جولييت هى المختلفة، رأسها يدور لكنها منتبهة، لكنها تبتسم، تندم على أنها لم تترك رسالة لأسرتها، والآن تأخر الوقت على هذا.

لا مجال للالتفات عن الشلالات.

"برنا - بى! برنا- بى"! تعالى.

الأصوات أكثر تعاطفاً مع الاقتراب، "جولييت" ليست خائفة الآن.. إنها ليست تعيسة، ليست تعاسة ولا حزن ولا الأسى هو ما جاء بها إلى هنا، إنها معرفة أن هذا هو الشىء الصحيح، المكان الصحيح، وهذا هو

الوقت المناسب. الأصوات فى الشلالات ليست تهديدات، وليست عتاباً. تسمعها الآن كالموسيقى، مثل أغنية *كاونترى إتيز أوف زى* التى غنتها مع الأطفال الآخرين فى مدرسة شارع بلطيق الابتدائية ثم اختارتها معلمة الموسيقى لتطرى عليها وإن لم تكن "جولييت" تعرف معنى كلمة إتيز أوف زى، مثل أغنية "*سايلانت نايت هولى نايت راوند يو فيرجن مازر آند تشايلد*" والتى كانت الأجمل بين أغنيات الكريسماس التى غنتها ولكنها لا تعرف معنى راوند يو فيرجن، ولا حتى عبارة (التى سمعتها على أنها عبارة واحدة) *مازر آند تشايلد*، وهناك أغنية "*هيفنلى هوستس*" وأغنية "*هاليلويا*" المستغلقة تماماً عليها، المشفرة، وكأنها عالم رحيب فى ذاتها، من كلام البالغين، تحلى بالإيمان وثقى بالعالم الرحيب وبأنه سيريحك ويحميك، وحاولت "جولييت"، حاولت أن تتحلى بالإيمان، لكنها فشلت. لكن الآن ستخلص نفسها، كما فعل الآخرون وخلصوا أنفسهم فى الشلالات.

لم تكن الساعة قد بلغت السادسة والنصف صباحًا تمامًا بعد، وبخلاف السماء المتجهمة كانت تبدو كساعة الفجر، الضفة المتاخمة للنهر المواجهة لجزيرة جوت، التى ستزدحم بالسائحين خلال ساعات قليلة، خالية الآن، ضباب أصفر ثقيل ينقشع ببطء لكن السحابات المتراكمة تهب غربيًا من الشلالات، ومع تحديق "جولييت" ترى صدعًا فى السماء الشرقية المغطاة بالسحب وتوهجًا فسفوريًا فى النهر وفى نظرتها المخدرة التائهة تتمنى "جولييت" أن تؤمن بأن هذه علامة، بأن هذه الرؤية خاصة بها وحدها، كما شهدت الخادمة الأيرلندية الرؤية منذ زمن بعيد.. لسان برق من أشعة الشمس، ويرتقى من الشلالات كيان عملاق لا هيئة محددة له، كأعمدة من الضباب تتخذ اشكالاً وتتحلل وتعيد تشكيل نفسها باستمرار وهى تتصاعد من الشلال العظيم، ووسط الزئير الذى يصم الآذان فى الشلالات وبصوت يكاد يكون غير مسموع فى الوقت نفسه يبدو غمغمة مميزة: *جولييت! جولييت! تعالى إلىّ لقد حان الوقت.*

تبتسم "جولييت". لقد حان الوقت!

دون أن تبصر ما أمامها تقترب على امتداد الحاجز، وتمسك به بإحكام بكلتا يديها بالغريزة وكأنها كائن محاصر يسعى لبلوغ أكثر الوسائل عملية فى الخروج من المأزق، وكأن هناك بوابة صغيرة كما يحدث فى الحكايات الخرافية، بوابة تفتحها وتخطو عبرها. لكن الحاجز يبلغ ارتفاع الخصر ولا توجد بوابة صغيرة ولهذا فعليها أن ترفع نفسها فوقه بعضلاتها الصغيرة المتوترة لتنفيذ هذا العمل كما يتوتر جسدها وهى تتجهز لغناء أغنية وتغنى من قلبها وتشعر بالخلاص فى الغناء، ويتكسر كل العار شظايا، حتى لعنتها لعنة الاسم تُنسى حان الوقت!

ثم اقترب شخص ما سريعًا منها، بسرعة بالغة حتى أن "جولييت" لم تره وهو يقترب.. يتكلم كلمات لا يمكنها فك شفراتها. إنه يمسك بيدها ويفك أصابعها من حول الحاجز.. لابد أنه.. "رويال"؟ شقيقها يمسك بها على النحو المألوف الذى تعرفه، وكأن له الحق فى هذا! تصارع "جولييت" فى يأس كالقط فى المصيدة، وهو ليس "رويال" بل "ستونكروب" الضخم حليق الرأس، يبلغ حجمه ضعف حجمها ويعلوها ويتلو عليها كلمات تبدو مثل: "لا! تعالى" وخلال ثوانٍ جذب جولييت بعيداً عن الحاجز. وعاد بها من الضفة وإلى العشب. ستونكروب قوى للغاية ولا يتردد فى فرض قوته، وكأن "جولييت" رفعتها قوة كالرياح أو الزلازل، وتلاشت إرادتها الشخصية أمامها، وكأنها ليست أكثر من عصفور تعرض للطمة. تحتج "جولييت" قائلة: "اتركنى لشأنى! لست شقيقى". إنها غاضبة وهذا الشاب ليس له الحق فى التدخل، ولا الحق فى أن يلمسها، يلهث من فمه وكأنه حيوان جريح، لم يحلق منذ فترة والجزء السفلى من وجهه يلمع بما يشبه برادة الحديد الزرقاء، التعبير المرتسم على وجهه هو الإحساس بالحرج، والحسرة والانعزال عن المحيطات والتصميم، لن يتركها وإن قاومته، وراحت تصفعه وتركله. محاولة أن تجرح مفاصل أصابعه بأظفارها.. "دعنى! دعنى لشأنى! لا يحق لك هذا! أنا أكرهك!"

لكن فات الأوان، "بروسبكت" بارك مهجورة. لا أحد يراها، ولا أحد سيمنع "ستونكروب" من رفع "جولييت" كما يرفع المرء طفلة صغيرة عنيدة،

ويسير بها وهى تركله وتحاول أن تضربه بمرفقيها فى ظهره، وذراعاها الهائلتان مقفلتان حولها، وفى استحياء ولكن دون تردد يسير "ستونكروب" ومعه "جولييت" عبر الحديقة، إلى سيارته الثاندربيرد وإلى الأمان.

ـ ١٢ ـ

"**ماما**! أين زاريو؟

ـ فى الفناء الخلفى.

ـ لا.. إنه ليس هنا.

ـ بالطبع هو هنا يا حبيبتى.. لا تكونى سخيفة".

ـ ماما، ليس هنا! لقد رحل.

هذا التوقيت المروع، هذه الأيام، أيام التعاسة والألم. أبدًا لن ينسى آل "برنابى"، تنادى وتصيح زاريو! زاريو وهى تتخيل أن الكلب سيعاود الظهور فى أية لحظة وهو يلهث فى ندم واشتياق لأن تحمله، فى الحى، فى الحديقة وفى منطقة خط السكة الحديد وعلى طول قناة الصرف، وفى شوارع ومماشى جانبية وأزقة تطل فى يأس على أفنية الجيران، تجرؤ على ضرب الأجراس وتوقيف الغرباء على جانب الطريق لتسألهم وترجوهم هل *رأيتم كلبنا المفقود، اسمه زاريو، وهو كلب سبانيل هجين على بيجل، إنه كلب صغير يبلغ من العمر أربع سنوات، وهو كلب ودود لكنه خجول مع الغرباء، ولا يعض لكنه ينبح أحياناً إذا توتر، لقد أفلت من قيده وهرب ونعتقد أنه تائه وتظهر لهم* صور لزاريو، بالنسبة إلينا هو كلب جميل ولكن الغرباء يعتبرونه كلباً أصفر صغيراً لا أكثر لا يميزه شىء، وينسونه على الفور.. *اسمه زاريو، إننا نحبه، ونريد استعادته، إذا رأيته فها* هو رقم *هاتفنا*، حلوقنا جفت من السؤال عليه وعيوننا أحمرت من البكاء.

حتى "آريا" بكت فى رعب من ضياع زاريو.. فى تلك الواقعة المؤلمة الرهيبة، بدا أن "آريا" سمحت لنفسها بأن تدمع.

"آريا" اعتراها الذعر وشحبت من التأثر! الحزن والصدمة والنظرة المجنونة على وجه ماما، وشعرها الأحمر الأشعث غير مصفف، وعلى الهاتف يرتفع صوتها وهى ترجو من تكلمه، لم نر أمنا فى حالة كهذه من قبل وأحسسنا بالخوف عليها وكان خوفنا عليها ولها مختلطاً بخوفنا أن يكون زاريو قد رحل، وأننا لن نرى زاريو ثانية أبداً. ولم نكن نعرف كم نحب هذا الكلب الصغير والآن أصبح حبنا له يؤلم كالحمض الذى يأكل فى لحمنا.

رن تلاميذ "آريا"، تلاميذ البيانو على الجرس الأمامى وذهب أحدنا ليجيب، ويشرح أن ماما ليست على ما يرام وأنها مصابة بصداع ونامت، وتقول إن عليك التدرب على درس الأسبوع الماضى وإنها ستقابلك الأسبوع القادم، وتقول إنها آسفة.

هذه الواقعة المؤلمة.. فى البداية كان زاريو مفقوداً لبعض يوم ثم أصبح زاريو مفقوداً لمدة يوم ثم ليوم وليلة (بخلاف أنه لم يقدر أحدنا على النوم، وظللنا يقظين لزاريو ننتظر عودته على الشرفة الأمامية ونحن نؤمن بأنه قد يعود إلى البيت فى الليل بعد أن يأكله الجوع) وأخيراً أصبح زاريو مفقوداً لمدة ٤٨ ساعة ونزلت دموعنا عليه غزيرة حتى جفت، أو كادت تجف. تجولنا لمسافات أبعد عن البيت فى دوائر مركزية تجاوزت شارع فيتيران، وتجاوزت المدرسة الثانوية، والمستشفى، وشارع ١٦ وإلى منطقة الروائح اللاذعة التى تؤذى العين أكثر من أملاح الدموع التى انهمرت..

زاريو، زاريو! أين أنت، ماذا جرى لك؟ أرجوك عد للبيت.

لم يفكر أى منا أين ذهب الجرو زاريو، من الذى جلب زاريو إلى حياتنا، لم ينطق أى منا باسمه بصوت مسموع.

رحنا ندق الأجراس دون خجل.. نعرض صوره مراراً وتكراراً على الناس، نقاطع النساء وهن يكنسن ديارهن ويرعين أطفالهن ويشاهدن التليفزيون. كلاب الغرباء تتقدم إلينا فى لهفة تتشمم أيدينا الممتدة.. *زاريو! قولوا لنا أين زاريو.*

من بين الأطفال كانت "جولييت" هى التى بكت أكثر من الآخرين.. لا حيلة لها، ولا أمل لديها، تحطم قلبها قلب الفتاة الصغيرة.

- حبيبتى لا تبكى، لن يساعدنا هذا فى شىء، لن يزيد هذا عن أن يمزقنا، إذا كان البكاء يساعد، كان زاريو يعود إلينا قبل الآن".

ها هى "آريا" تحاول بشجاعة أن تحافظ على بعض من الهدوء.. "آريا"، الأم الرئيسة المسئولة عن هذه الأسرة التائهة المهجورة القريبة من انعدام الحال التى تعيش فى بيت رث الحال فى شارع بلطيق. آه.. كم أرادت "آريا" أن تكون قوية ومنفصلة عن ألمها الشخصى، نموذج يُحتذى لأطفالها فى تلك الأزمة.

وجدها أحدنا راقدة مرتدية نصف ثيابها على سريرها. ذراعان بيضاوان رفيعتان تحميان وجهها، تقول فى صوت بطىء متردد إنها لم تكن تعرف ما مشكلتها، وإنها متعبة للغاية، ولا يمكنها أن ترفع رأسها. *إذا لم يعد زاريو فلن أرغب فى الحياة.*

وفيما بعد، سوف تنكر آريا قول مثل هذه الأشياء. وفيما بعد سوف تنكر آريا هيستريا تلك الساعات.

اكتشف أطفالها وداً من بعض الجيران، فى واقع الأمر من غالبية الجيران. والغرباء أيضاً.

تعالوا وادخلوا، إنكم لا تقاطعوننا بالمرة، ونحن نعرف كم هذا مؤلم.. أن تفقد حيوانك الأليف الذى تحبه.. هذا هو الكلب، يا له من شىء عذب صغير.. زاريو! هذا اسم غير مألوف، اسم أجنبى.. لم نره على ما أعتقد لكننا سننتبه له فى حالة إذا مر، وسوف أضع رقم هاتفكم هنا، مؤكد لا تريدون أى شىء تشربونه؟ لا؟

أدخلتنا امرأة عجوز فى شارع فيرى إلى فنائها الخلفى غزير العشب؛ حيث الأدغال المتشابكة كانت توجد هناك مقبرة لأطفالها المفقودين.. بوبو وسبيكلز وسنوبول ولادى. ولكل منهم قبر مصنوع من خشب البرش وأسماؤهم محفورة فى الخشب بمعدات حرق الخشب الخاصة بابنها. حين

ماتت لادى، وهى قطة جميلة طويلة الشعر كانت تقيم معها منذ سبعة عشر عاماً وبعد أن انكمشت لنصف حجمها الطبيعى، قررت أنها لا تحتمل فكرة أن يكون لديها حيوان أليف آخر، فالأمر مؤلم كثيرًا حين يغادرون، *لكن هذا هو مكان سلواى.. هنا، كلنا فى سلام.*

ركضا إلى البيت.. ما زال زاريو مفقوداً.

كانت "آريا" ما زالت نائمة فى سريرها. عيناها مفتوحتان خاويتان.

بدأ "شاندلر" يشعر بالخوف. "شاندلر" هو من سيتصل برقم خدمة الطوارئ.. آلو؟ ما.. ماما ليست على ما يرام.. ما.. ماما تحتاج لمساعدة على ما أعتقد.

جلست "جولييت" القرفصاء إلى جوار "آريا" التى راحت تتنفس أنفاسًا مبهورة، وفمها مفتوح على اتساعه. "جولييت" ذات الأربعة أعوام ما زالت متلهفة على أن تعانق ماما، فوضعت ذراع ماما اللين فوقها، أغمضت عينيها وراحت تمص إصبعها ونامت مع ماما هكذا كما اعتادتا النوم منذ زمن بعيد.

ثم هناك "رويال"، لماذا ركض "رويال" إلى الدور السفلى وأغلق الباب وأوصد الباب على إصبعه الصغير حتى أنه بكى من الألم وراح يتأوه، لماذا أحس "رويال" أنه الملام على رحيل زاريو؟ هل ربطه "رويال" فى إهمال بحبل فى الفناء الخلفى؟ هل صاحت آريا فى "رويال": *إنه خطأك، أنت آخر من رآه، لن أغفر لك أبداً، سوف أبعدك عنا ولن نراك ثانية قط.*

وفى الصباح التالى.. عاد زاريو.

رحل منذ ثلاثة أيام تقريبًا، لكن لم نعرف أبدًا إلى أين ذهب؟ اعترانا الضعف من أثر السعادة! سماع زاريو ينبح فى حماس وتوتر، نبحة غليظة جديدة عليه، وحين داعب أحدنا أذنه التفت إلى يده وهاجمها كما لم يفعل زاريو من قبل حتى تكاد تعتقد أن هذا ليس زاريو، إنه كلب غريب، إلا أن بعد لحظة عاد زاريو إلى سابق عهده، وراح ينبح بخفوت فى حب ويلعق

أيدينا ووجوهنا فى يأس. تبادلنا الأدوار فى حمل الكلب وتقبيل أنفه اللطيف حتى آريا التى اعتراها الذهول وراحت تتحرك ببطء استجمعت شتات نفسها وحاولت أن تفتح علبة طعام للكلب لكن يديها ارتجفتا بشدة، وتولى "شاندلر" الأمر عنها. وانسابت المياه العذبة فى حوض مياه زاريو البلاستيكى الأحمر. وكان فراء الكلب مجعدًا وملبدًا ومليئًا بالطين وذيله المتحمس تجمد من مياه الأرض الآسنة وعليه رائحة مياه الصرف وكأنه كان يتشقلب فى القذارة، وأصرت "آريا" على أن نحميه على الفور لنتخلص من رائحة الموت الملتصقة به، وهذا ما فعلنا، وحممناه فى حوض الغسيل الذى حملناه من القبو وأدخلناه إلى المطبخ، وفيما كُنا نغسل فراء زاريو بالشامبو اكتشفنا أن النهايات الناعمة لبراثنه وإن كانت جافة بعض الشىء من أثر الغضاريف النامية أسفلها، يبدو أنها احترقت، وكأنه كان يتشقلب ويدور بجسده فى نفايات كيماوية، وراح زاريو ينبح وينكمش مبتعداً عن لمساتنا فى بادئ الأمر، وكأنه يخشى أن يعضنا، لكن بعد وهلة هدأ وغُمرت أقدامه فى المياه المليئة بالصابون، وغسلناه ورفعناه برفق من الحوض يقطر ماء ووضعناه فى أوراق جرائد على الأرض وجلسنا القرفصاء إلى جانبه ولففناه فى منشفة كبيرة وعرفانًا بالجميل لعق زاريو أيدينا جميعًا ثانية، خاصة يدا "آريا"، وخلال ثوانٍ معدودة غرق فى نوم جميل، بفرائه المبتل الناعم وكأنه كائن من العظام، يرتجف وينبح فى نومه، غير واعٍ بكل ما حوله وكأنه فى غيبوبة.

وهكذا عاد زاريو إلينا. وسوف تزعم "آريا" أنها لم تقلق عليه بشكل جدى قط، وضحكت فى وجوهنا ووبختنا قائلة: "يا أطفال! قلت لكم إن هذا الكلب اللعين سيعود. لقد جال وخرج ثم عاد. وإذا لم يعد، ما كان ليشكل هذا خسارة كبيرة، إنه مجرد كلب، لن يعيش إلى الأبد، رعاية الحيوان الأليف أشبه بصب النقود فى بالوعة، الأفضل أن تتعقلوا، فالحياة تحطم قلوبكم، وفى المرة القادمة سيكون أمرًا جادًا، فقد تصدمه سيارة أو يسمم نفسه أو يغرق فى مرحاض، ولا أريد أن تتعلقوا بأمكم تبكون وتتمخطون عليها، فلن أسمع منكم، هأنا أحذركم".

-١٣-

هذه العلاقة غير الملائمة!

فجأة فى صيف ١٩٧٨ بدأ يُشاهدان معًا.. "باد ستونكروب" حليق الرأس البالغ من الطول ستة أقدام وبوصتين، المتسرب من التعليم الطاهى فى دوك بار آند جريل، ومعه "جولييت برنابى" البالغة من العمر ستة عشر عامًا، ابنة الراحل "ديرك برنابى". الشاب المتأمل الصامت وفتاة الثانوية الحالمة ذات الصوت الألتو الجميل، شوهدا فى سيارة "ستونكروب" الثاندربيرد السوداء رثة الحال، وشوهدا يسيران معًا (دون أن تكون يده فى يدها، ودون الكثير من الكلمات المتبادلة) عند المنحدر المطل على نهر نياجرا الذى تكثر عنده الرياح، وعلى الشاطئ الرملى فى ألكوت، على مسافة ثلاثين ميلاً عند بحيرة أونتاريو، شوهدا فى ساعات غريبة فى السينما، بعد الظهر، شوهدا فى المراكز التجارية المحلية، وهما يتسوقان معاً (ثياب جديدة "لستونكروب"؟ فجأة بدأ يرتدى قمصانًا رياضية بدلاً من الـ "تى شيرت الذى" لا يغيره، وفى حرارة الصيف التى لا ترحم أصبح يرتدى شورتًا كاكيًا وصندلاً بدلاً من سرواله الطويل المعهود والحذاء طويل الرقبة).

وجرأت أكثر من جارة "لآريا برنابى" على أن تطرق بابها وتسألها عن ابنتها التى تُشاهد وهى مع "ذلك الفتى ستونكروب، من عائلة "ستونكروب" المقيمة فى شارع جاريسون" وتنصت "آريا" بشفاه بيضاء فى تهذيب لهذه المعلومات وتغمغم: "شكرًا لك!" دون أن تدعو الجارة للدخول.

(هل تكلمت "آريا" مع "جولييت"؟ لم تفعل، لم تجرؤ.. أخبار مقابلة ابنتها لولد، أى ولد، دعك من أنه ستونكروب الضخم الخطير، ملأتها رعباً، لكنها تذكر عواطف المراهقة خاصتها، وتعرف كيف أن الأب أو الأم "حسنة النية" يمكنها أن تلهب هذه المشاعر لأقصى حد بقولها الشىء الخطأ فى الوقت غير المناسب. وهناك احتمال، تعزى به "آريا" نفسها، فى *أن أيًا كان ما بينهما فلن يستغرق فترة طويلة، فهو لا يستغرق طويلاً أبدًا*).

"ميليندا أتكينز"، الممرضة بمستشفى جرايس التذكارى، التى تصالح معها "شاندلر" وهو غارق فى حبها، قالت له على استحياء إنها رأت فتاة تشبه أخته "جولييت" كثيرًا فى رفقة "شاب غليظ المظهر ضخم يبلغ ضعف حجمها". ورأت هذين الشخصين غير المتناسبين عند مول نياجرا وهما يحدقان فى نافذة عرض متجر للحيوانات الأليفة.. ينظران إلى مجموعة من القطط الصغيرة، ولا يتكلمان بل يقفان متباعدين لكنهما معاً، سرعان ما قال "شاندلر" إن الفتاة لا يمكن أن تكون أخته، فجولييت غير ناضجة وصغيرة وتخجل من رفقة الصبية والخروج معهم.

بدأ أصدقاء "رويال" يبلغونه برؤية الشخصين غير المتناسبين، مما أثار حفيظة "رويال" ورفضه.. "ستونكروب"! ابن ضابط قسم شرطة شلالات نياجرا الذى تقاعد من العمل فى ظل سحابة من الشائعات التى "حامت" حول وفاة "ديرك برنابى". حين سأل "رويال" "جولييت" عن باد "ستونكروب" توهج وجهها فى إحساس بالذنب وأشاحت بوجهها ثم قالت فى صوت ضئيل عنيد: "باد صديقى". وبهت رويال: باد.. أهذا هو الاسم الذى تطلقينه عليه؟ "باد"؟ "باد" صديقك.. منذ متى؟ بحق المسيح يا "جولييت".. "باد ستونكروب" هو.." بحث "رويال" عن التعريف المناسب لكنه لم يجده، وكأن ستونكروب واقف أمامه يحدق فيه مهددًا.. "ستونكروب. تعرفين تلك العائلة".

قالت "جولييت" وهى ما زالت لا تنظر إلى "رويال".. عائلة "باد" ليست صديقتى، بل "باد" وحده".

"باد" وحده.. حتى هذه حالته المزاجية هذه أصابه الخوف، فقد أحس "رويال" بشىء من الرفق فى كلامها.

قالت "جولييت": ليس "باد" كما يعتقد الناس عنه، إنه خجول وهادئ. يشعر بسعادة فى الطهى للناس الأذكياء بما يكفى لتقدير طعامه، ويحترمنى ويحترم أسرتى.. ليس مثل الآخرين الذين يحتقروننا".

ـ أسرتنا.. ماذا يعرف "ستونكروب" بحق الجحيم عن أسرتنا؟

ـ "سله".

كانت تلك إجابة وجيهة من "جولييت". أحس "رويال" بتحالف شقيقته مع الآخر، مع "ستونكروب". قال بحرارة: "إنه كبير للغاية عليك، وأنت صغيرة جدًا عليه. إنه ينام مع نساء أكبر منه، ينتقيهن من بار خاله" تلاحقت أنفاس "رويال" وهو يشعر بإحساس خانق فى صدره، لم يكن أى من أبناء "آريا" يرتاح فى التكلم عن الجنس إلى شقيقه أو شقيقته، برغم أنهم يعيشون أكثر سنوات التحرر الجنسى فى التاريخ الأمريكى، أو هكذا كان الاعتقاد. اعترت حمرة قوية وجه "جولييت". قالت متلعثمة: "باد" لا يطلب منى أى شىء.. إنه ليس كالرجال الآخرين.. وليس مثلك".

قال "رويال" شاعراً بالألم: "ما معنى هذا الكلام؟"

ينام مع فتاة ويعطيها خاتمًا ثم يفسخ الخطوبة ويحطم قلبها.

ـ إننا نتكلم عنك يا "جولييت". وليس عنى.. بربك!

ـ أتريد أن تعرف أشياء عن "باد"؟ لا يمكنك أن تعرف "باد". إنه ليس كما يبدو من شكله. وإذا لم يكن يريدك أن تعرفه، فلن تعرفه.

ـ "هراء".

لكن "رويال" لم يكن واثقًا من قوله، أزعجه كم كان غير واثق، وكم أحس بالعاطفة فى كلامه.. مثل "آريا" قبل سنوات حين اهتاجت وصبت جام غضبها على أولادها.

قالت "جولييت" بصوت عنيد: "باد" كأنه شخص أعرفه طيلة حياتى.. شخص أثق به. إنه.. صديقى الوحيد".

أحس "رويال" الآن بألم بالغ، وبالارتباك، قال محتجاً: "باد" ليس صديقك الوحيد! أنا صديقك يا جولييت، وأنا شقيقك".

يوجد بيننا سر
بيننا شىء مشترك، أنت وأنا .. ولن يتغير هذا أبداً .

لم يتكلم "ستونكروب" أبداً كلاماً مباشراً، لكن "جولييت" فهمت.

يتواصل الشاب حليق الرأس فى عبارات من الصمت فيها نفس مقدار ما فيها من الكلام فى إيماءات ونظرات وهزات للكتف وهمهمات. يتنهد ويحك رأسه الحليق. دائماً ما يشد بيده ياقة الـ "تى شيرت"، وكأن الملابس الفضفاضة بطبعها ضيق عليه، ابتساماته جانبية وكأنها صادرة عن شخص لا يعرف تمام المعرفة إذا كانت ابتسامته موضع ترحيب أم لا. ثمة بلاغة فى سلوك "ستونكروب" إذا كنت قادراً على قراءة حركاته وأفعاله، ثمة رقة فى روحه برغم كونه أخرق.. مربوط اللسان يوحى بالتهديد للآخرين.

سمح "لجولييت" فى ذلك الصباح الأول الذى قضياه معاً حين حملها وابتعد بها عن الشلالات بسيارته الثاندربيرد المسرعة شمالاً إلى خارج المدينة أن تعرف أنه.. *بيننا شىء مشترك، أنت وأنا .. دائماً ما كان بيننا، وسوف يستمر إلى الأبد. ولن يتغير هذا أبداً .*

بحلول منتصف الصيف بدأ "ستونكروب" يوصل "جولييت" إلى البيت معه، إلى البيت الرمادى الرث فى شارع جاريسون.. فى حى من البيوت الرثة الطوبية الجصة، كان بيت "ستونكروب" منتصبًا فريدًا من نوعه وكأنه سفينة تخوض المحيط، الفناء الأمامى العريض لا يوجد فيه الكثير من العشب ويكسوه الركام. حاول "ستونكروب" أن يبقيه نظيفًا.. خاليًا.. لكن سرعان ما استسلم، كما استسلم للعشب الكثيف فى الفناء الخلفى، الشرفة الأمامية مشغولة بالأثاث وغيرها من الأشياء الملقاة من داخل البيت إلى الخارج، وكذلك بدراجات الأطفال والسكوتر والزلاجات، الكثير من النوافذ الأمامية مشققة وتم إصلاحها بشريط لاصق. السقف فيه

رطوبة دائمة وعفن ويبدو أنه يسرب أمطاراً كثيرة.. قريبًا للغاية من الشلالات، حتى إن أخف الأمطار تقارب فى شدتها العواصف، كثيراً ما تساءلت "جولييت" وهى تمر بهذا البيت: من يعيش فيه؟ ويبدو كأنها تعرف مسبقاً أن هذه الأسرة تختلف كثيراً عن الأسرة المقيمة فى البيت الضيق فى ركن شارع بلطيق فى رقم ١٧٠٣ .

أم "ستونكروب"، التى يطلق عليها بهمهماته المحرجة أمه "رحلت إلى مكان ما فى الجنوب".. "ربما إلى فلوريدا".. قبل زمن بعيد، وحين تعجبت "جولييت" وقالت إنه لابد أن يفتقدها، هز "ستونكروب" رأسه وأشاح بوجهه.

كان تعليقًا فظًا على الأرجح. وغبى.

فيما بعد، ليس بعد دقائق أو ساعات، بل بعد أيام، تكلم "ستونكروب" عن موضوع أمه، وكأنه كان يتفكر فيه كل ذلك الوقت ويدير حواراً مع "جولييت" فى رأسه، فقال وهو يضرب بعنف على أنفه.. "الحال أفضل هكذا من كونها ميتة، أن ترحل، كما فعلت.. قبل.." بحث "ستونكروب" عن نهاية مناسبة للجملة، لكنه لم يصل إلى شىء، تساءلت "جولييت" إن كان يريد أن يقول: *قبل أن يحدث لها ما يسوء*.

كان البيت الرمادى الكبير ملكًا لوالد "ستونكروب" الذى كان يُقال عنه فى البيت "الرقيب" شقيقتها الأكبر فقط وأمه هما من يقولان عنه "باد" الأب.. ويشير "ستونكروب" إلى أبيه باسم "بابا" أو "رجلى العجوز".. "الرجل العجوز". ولم يتكلم "ستونكروب" أبداً عن أبيه دون أن يكشر أو يعبس أو يبتسم، يمسك بياقة الـ "تى شيرت" ويمسك بالشعرات النابتة والحروق على يده يد الطاهى، كان من المستحيل على "جولييت" أن تعرف إن كان "ستونكروب" يحب أباه أم يشعر بالأسف على حاله. سواء كان منزعجاً من حالة والده أو غاضبًا منها.. كثيراً ما بدا الإحساس بالخزى على وجه "ستونكروب"، أو الخزى لأنه غاضب، تساءلت فى ضيق متى ستقابل الرقيب، لكنها تعرف أن الأفضل ألا تسأل.

كان جزء كبير من آل "ستونكروب" يقيمون فى البيت الكبير، بما فى ذلك ستة أطفال أشقياء يفترض أنهم أولاد الأخوة والأخوات الصغار "لستونكروب". كان يوجد شباب فظ غير حليقين فى نفس عمر "ستونكروب" يظهرون فى الطابق السفلى، يتثاءبون ويتمطأون ويحكون إبطهم ويشربون من زجاجات بيرة، ثم يختفون حين يصعدون للطابق العلوى، ولم يبذل "ستونكروب" جهداً فى تقديمهم "لجولييت" وسرعان ما عرفت أن الأفضل أن تبتسم بإشراق وتقول، بطريقة فتاة الثانوية وحماسها: "أهلاً.. أنا "جولييت"، صديقة "باد". وفى أول مرة يجلب "ستونكروب" "جولييت" إلى البيت قدمها إلى عمته آفا، كبرى شقيقات والده وكانت ممرضة وتعتنى بالرقيب.. وفى المرة الثانية التى جلبها إلى البيت فيها قدمها إلى جدته، أم والده البالغة من العمر ثمانين عاماً، على الأقل بعد الكثير من التردد، وبعد الكثير من التنهد والتقطيب ومسح الأنف، قام بتقديم "جولييت" فى الزيارة الثالثة إلى والده، وفى ذلك الحين كانت "جولييت" قد أصيبت ببعض التوتر.

كان عصر يوم دافئ فى شهر يوليو والوقت يقترب من المساء، كانت "جولييت" ترتدى شورتًا أبيض وقميصاً ورديًا ناعمًا شعرها غير المصفف مربوط فى على شكل حصان. تمنت ألا تلمع ندبات وجهها كما يحدث أحياناً فى الطقس الرطب.

كان الرقيب فى الفناء الخلفى غزير العشب، نائما فى الشمس الغاربة إلى جوار الراديو النقال البلاستيكى الذى تنبعث منه موسيقى البوب، على العشب إلى جوار مقعده كانت توجد كومة من القصص المصورة، كابتن مارفل وسبايدر مان، وصفحات براقة من مجلات السيارات والقوارب وإعلاناتها، أحس أنف "جولييت" الحساس بالرائحة.. لحم خنزير وسجائر ودخان وجسد بارد متعب وبول جاف. تحاول ألا تشتتها الموسيقى الصاخبة غير المعقولة (لم تكن حتى موسيقى روك، كانت موسيقى بوب من موسيقى المراهقين فى السبعينيات، أنغام متكررة وإيقاع مسروق من فريق البيتلز)

الرقيب راقد شبه نائم فى مقعد الحديقة المتسخ ورأسه الحليق يسقط على صدره، كان مشهداً صادماً، وكأنه طفل منتفخ.. وجهه ما زال مترهلاً لامعاً وكأنه مبقع بالزيت، ورأسه وكأنه محترق ومبقع. عيناه بليدتان خاويتان وثمة عقد كثيرة تظهر فى عروق ساقيه العاريتين وساعديه. ذراعاه وقدماه رفيعان لكن جذعه ممتلئ منتفخ وكأنه ابتلع شيئاً كبيراً لم يتمكن من هضمه، كان يرتدى شورتاً قذراً وقميصاً داخلياً قذراً وجالساً دون حراك، بل يتنفس بصعوبة حتى اقترب منه "ستونكروب". حين سقط ظل "ستونكروب" الهائل على الرقيب، تململ الرجل فى ضيق ورفع عينيه، وظهر على عينيه اللتين كانتا خاويتين شىء من الخوف.

غمغم "ستونكروب" فى تحية: "بابا.. أنت بخير؟"

طرف الرقيب بعينه وابتسم فى تردد.. افترقت شفتاه لتكشف عن أسنان كبيرة مبقعة مبتلة باللعاب، كرر "ستونكروب" عليه سؤاله عدة مرات بصوت أعلى وهو يميل على أبيه، قبل أن يبدو على الرجل أنه قد سمع.

ـ "بابا؟ كنت نائماً على ما أعتقد".

رأت "جولييت" وهجاً بليداً يعلو رقبة "ستونكروب" ببطء، من النوع الذى تراه أحياناً فى المطعم، حين يعنفه خاله بوقاحة، رق قلبها لصديقها وهو يحاول بصعوبة هكذا، دائماً على ما يبدو يجد "ستونكروب" المشقة فى المحاولة.

قال وهو يميل على أبيه الذى أحمرت أذناه: "أترى؟ معى زائرة يا بابا" وتنحنح "ستونكروب" بصوت مسموع.

وكأنها مغنية تخشى أن تغنى أمام جمهور صعب، وتفشل فى رعب ولكنها مصممة على ألا تفشل، اقتربت "جولييت" منه مبتسمة فى بلاهة وهى تلعق شفتيها الجافتين المشققتين، لم تكن تعرف لماذا جلبها "ستونكروب" إلى هنا، لكن ها هى ستحاول ألا تخذل صديقها. رفعت صوتها لكى يسمعها مع صخب الراديو وقالت: "أ.. أهلاً يا سيد "ستونكروب".. أ.. أنا "جولييت".

يا له من اسم يوحى بالأمل يُباهى به! أمل ومباهاة "آريا".

(لكن: ألم تحاول "جولييت" الانتحار، ألم تكن مراهقة متهورة؟)

انتبه الرقيب لوجود "جولييت"، الفتاة الضئيلة ذات ذيل الحصان التى يفترض أنها طفلة تنتمى لهذا البيت أو هى قريبة لأحد به، طرف بعينه وعبس فى وجهها ثم حدق فيها غير فاهم إذا كانت قد نطقت بكلمات من لغة أجنبية، تساءلت "جولييت" ما الذى يراه العجوز المسكين وهى تتجسد إلى جواره فجأة هكذا.. عيناه لا يرى بهما ونظره ضعيف، وكان قد أوقظ لتوه من القيلولة وأفكاره مشتتة مثل الورق الذى هبت عليه الرياح ففرقته. تكاد "جولييت" ترى والد "ستونكروب" يحاول جمع الأوراق التى تطايرت ليشكل منها شيئاً مفهومًا.

ثم هناك موسيقى البوب على الراديو، ألحان بسيطة متكررة وكأنها ألحان أغانى أطفال مضاف إليها شىء من الإحساس الجنسى وتضخيم الإيقاع وتفخيمه، قال "ستونكروب" فى اشمئزاز: "هذا القرف هو ما يحبه بابا، إنها موسيقى يقدر على سماعها على ما أعتقد".

وبما أن الرقيب استمر فى التحديق فيها فى صمت، لم يكن أمام "جولييت" خيار غير أن تبتسم ثانية بقوة أكبر بتلك الطريقة الأمريكية المشرقة التى تؤلم وجهها وتمد يدها إليه على استحياء: "سيد "ستونكروب"؟ حضرة الرقيب.. أنا سـ.. سعيدة لمقابلتك".

لم يرد الرقيب، نظرت "جولييت" إلى "ستونكروب" فى حسرة.

غمغم "ستونكروب" وخفض صوت الراديو، تعثر فى مفتاح الصوت ثم أغلق الراديو تماماً. تفاعل الرقيب وكأنه طفل متأمل مُهان، فضرب "ستونكروب" بقبضته الضعيفة، فتجاهله الأخير وبعد لحظة ـ و"جولييت" شاهدة على هذا التفاعل ـ ربما كان يشك أن ما حدث قد حدث فعلاً من الأساس. تنحنح "ستونكروب" ثانية ووقف طويلاً أمام والده وقال فى عناد: "هذه "جولييت" يا بابا.. صديقتى جولى- يت".

بدت الريبة على وجه الرقيب، ثم الإحساس بوجود خدعة ما، تحركت شفتاه الرطبتان وكأنه يقول شيئاً بدا مثل: جولى ـ يت؟

لم يلن "ستونكروب". تكاد تراه وكأنه يسند بكتفه صخرة تبلغ ضعف حجمه ويرفعها أعلى منحدر، لأعلى وأعلى وهو يلهث ويئن من الحمل لكنه لا يتراجع: "صديقتى جولييت.. تقيم فى شارع بلطيق".

ـ جولى ـ يت؟" كذا قال الرجل فى ريبة، فى صوت كأنه أوراق جافة تهتز مع الرياح. عرفت جولييت هذا من الحكايات التى قيلت عن الرقيب "باد ستونكروب"، عن أنه ضُرب بقضبان معدنية، وأن قصبته الهوائية تحطمت.. "بـ.. بلطيق؟"

قال "ستونكروب" فى صبر: "هناك حيث تقيم يا بابا، أنت تعرف أين شارع بلطيق" برغم أنه لم يكن من الواضح أن الرقيب يعرف مكانه.. "اسمها جولى-يت برنا-بى يا بابا".

فترة صمت أخرى، بدا أن الرقيب يكافح لتركيز عينيه على جولييت، وبعد بذل جهد بالغ، يبدو أنه جهد عضلى.

كرر "ستونكروب": "جولى-يت برنا-بى" فى نبرة عدوانية وكأنه يغنى الكلمة، فأثر على أعصاب "جولييت" وكأن صوته أوتار بيانو ضربتها يد غليظة، ثم أضاف ليثير انزعاجها: "ابنة "ديرك برنابى" يا بابا".

فجأة انتبه الرقيب وتيقظ، وكأنه رجل أعمى أفاق من نومه، حدق فى صديقة ابنه وفتح فاهه فى دهشة فى مواجهتها وكأنه يريد أن يتكلم بشدة، لكن لا يستطيع.. شىء ما مبتل يزمجر فى حلقه، وفى صوت حازم وصاف فى الوقت نفسه، كرر ستونكروب: "ديرك برنابى.."، "ابنة "ديرك برنابى".. بينما وقفت "جولييت" وجهها مدرج بالحمرة لا تعرف حقيقة ما يدور.

عادة لا يضع "ستونكروب" "جولييت" فى مواقف محرجة. ثمة شىء لا تفهمه، ولا يعجبها.

ـ "ربما يجب أن نغادر يا "باد"؟ يبدو أن والدك ليس.. ليس فى مزاج رائق لـ.."

لكن الرقيب راح يبذل الجهد ليرد على "جولييت"، وراح يطرف بعينه فى مواجهتها بعينيه الرطبتين الخربتين، رفع يداً مهتزة أجبرت "جولييت" نفسها على أن تلامسها، برعدة مندهشة صغيرة، وسحب شفتيه للخلف وكأنه يبتسم. وبجهد بالغ تمكن من أن يقول وهو يضغط على كل حرف يخرج منه وكأنه يلتقط حبات الرمل بملقاط صغير: "برنا-بى".

سألت "جولييت" فى صراحة طفولية: "هل.. كنت تعرف أبى؟ أعتقد أن الكثير من الناس يعرفونه".

لكن الرقيب تراجع فى مقعده فى إرهاق، راح يصدر أصوات أنين وكأنه كان يجرى أعلى مرتفع، وظهر زبد خفيف على شفتيه، رأسه الحليقة الشبيهة برأس الدمية تمايلة على كتفيه. التفت "ستونكروب" ليهتف بكلمة واحدة أو هو اسم واحد، لم تسمعه "جولييت"، لكنها استنتجت فيما بعد أنه لابد كان "آفا" أو "العمة آفا" لأن العمة متوسطة العمر ظهرت وبين شفتيها سيجارة، لتوحى للصديقين الشابين بالمغادرة، نال الرقيب كفايته من الفناء الخلفى هذا اليوم. يجب أن يُرعى الآن بالداخل، حان وقت عشائه، والواضح أنه يجب "يُغير" له.

و"ستونكروب" يأخذ بيد "جولييت" مبتعداً وحين دارا حول البيت وبلغا سيارته فى الممشى الجانبى، سألته "جولييت": "تغيير؟ ماذا يعنى هذا؟"

غمغم "ستونكروب": "تغيير الحفاضة".

استغرقت هذه الزيارة الأولى للرقيب - التى اعتقدت "جولييت" أنها استغرقت ما لا يقل عن ساعة - أقل من عشر دقائق. كانت مرهقة للغاية!

ابتعدا بالسيارة، رأت "جولييت" أن صديقها يعانى من ضيق بالغ، جداول من العرق تنساب على وجهه الضخم الغليظ ورائحة شىء عفن رطب تنبعث منه، بدا غير واعٍ لوجودها، انطلق بالسيارة الثاندربيرد مسرعًا، وتوقف عند تقاطع الطريق فجأة فتوقفت السيارة بقوة محتجة. مررت "جولييت" يدها بمهارة على وجهها المبتل قبل أن تعطى منديلاً "لستونكروب" الذى أخذه منها دون أن ينطق بكلمة.

بعد وهلة قالت "جولييت"، حين لم تجد بدًا من تفادى ما تريد قوله: "أبوك المسكين يا باد! لم أكن أعرف أنه.. أنه مريض لهذه الدرجة".

مضى "ستونكروب" فى طريقه دون أن يعلق بكلمة.

ـ لكنه ليس عجوزاً، أليس كذلك؟ أعنى أنه.." فى حومة ضيقها وارتباكها كادت "جولييت" تقول ليس مثل جدتك، وكانت حقيقة غريبة: هذان الفردان من عائلة "ستونكروب"، الرقيب وأمه البالغة من العمر ثمانين عاماً، ربما كانا فى نفس العمر.

ـ ١٥ ـ

الأصوات! الأصوات المنبعثة من الشلالات كادت ترحل، بعيدة أصبحت كبث محطات الراديو البعيدة.. تدرك ذات يوم أنك لم تسمع هذه المحطات منذ فترة، فتكف عن البحث عنها على مؤشر الراديو.

ـ ١٦ ـ

لست بحاجة لهذا، إذا لم تكونى تريدين هذا.

أجل، لكن "جولييت" أرادت هذا، بما أن كان هذا يعنى له الكثير.

رمقها بنظرة جانبية آملة، جبينه تجعد فى قلق واشتياق، حتى أن "جولييت" لم تتمكن من أن تحمل نفسها على الاحتجاج قائلة لماذا نفعل هذا؟ ما الفائدة منه؟

حسبت إلى حد ما أنه أراد أن تقابل والده كطريقة لمعرفته أكثر، ولهذا فلابد أن تقدمه "لآريا" فى المقابل.

ابتسمت "جولييت" وهى تفكر فى هذه المقابلة. ارتعدت!

فى المجمل سيصطحب "ستونكروب" جولييت إلى البيت الرث فى شارع جاريسون لزيارة الرقيب ثلاث مرات ذلك الصيف، وستعرف "جولييت" على الأقل لماذا جلبها، ولن ترى الرقيب ثانية قط.

فى المرة الثانية، بعد عشرة أيام من الزيارة الأولى، كان الرقيب فى الفناء الخلفى كالسابق، راقد دون حراك على مقعد الحديقة وثمة خرقة مبللة على رأسه، ينصت إلى الراديو، كان صوته مرتفعًا هذه المرة أيضاً، لكنه مضبوط على محطة أخرى على الأقل. ليست موسيقى بوب من التى يسمعها المراهقون بل موسيقى كاونترى وويسترن، ومع اقتراب الشابين لم يلحظهما الرقيب. كانت عيناه مغمضتين وكان يبتسم ويغمغم مع نغمات الراديو فى صوت مرتفع مرتجف. أعاد "ستونكروب" تقديم "جولييت" لأبيه الذى لم يبد عليه أن يذكر من تكون وقال هذه المرة لأبيه إن "جولييت" مغنية وإنها فى نفس قدر جودة أى "مغنى" على الراديو، وبطريقة ما تمكنت "جولييت" من الغناء للرقيب. لابد أنه كان اقتراح "ستونكروب". دائمًا ما ستذكر الفم المفتوح يطالعها بهذا العجب الطفولى وعيناه المحدقتان ثابتتان عليها وهى واقفة أمامه تمسك يدها بيدها الأخرى وكأنها طفلة فى الكورال، وتغنى أغنية غنتها لأول مرة فى حفل مدرسى بالفرقة الخامسة.

وطبقاً "لستونكروب" كانت تلك هى أغنية والده المفضلة:

بلدى هى بلدك

أرض الحرية العذبة!

لك يا بلدى أغنى

ماذا حدث بعدها؟ ماذا كانت الكلمات؟ كانت "جولييت" تشعر بالتوتر البالغ من نظرة العجوز المؤلمة الثابتة عليها ومن نظرة الوله فى عين "ستونكروب". لم تجرؤ "جولييت" يوماً على المواجهة، دعك من الاعتراف بما ترى. لم تكن واثقة من الكلمات لكن مثل أية مطربة محترفة تجاوزت الخطأ فى إلقاء الأغنية بنعومة، وبثقة بالغة لا يمكن معها أن تدرك بوقوع الخطأ، أو حتى تشعر بشك.. استمرت.

أرض العزة ومقصد القاصدين

الأرض التى مات فيها الآباء

من كل حدب وصوب ومن كل سفح وجبل

لتدوى الحرية

فيما بعد فى ذلك المساء فتحت "جولييت" موضوع والد "ستونكروب"، إذ بدا من غير الطبيعى ألا تتكلم عنه، سألت "ستونكروب" عن طبيعة مرض والده على وجه التحديد، هل السبب هو الضرب، هل كان مبرحاً لدرجة أنه أصيب فى مخه، لكن "ستونكروب" لم يكن فى حالة مزاجية تسمح بالكلام عن أبيه، هز كتفيه فى تعاسة، ومسح أنفه بيده فتراجعت "جولييت" سريعًا وسكتت عن الموضوع، لكن بعد أيام قليلة قال لها "ستونكروب" بطريقته الجانبية الغامضة: "ديمنتيا.. إصابة والدى، هذا هو اسمها".

ديمنتيا؟ آه".. كانت جولييت قد سمعت بهذه الحالة المرضية، لكنها لا تعرف أى شىء عنها تقريباً، أهى الشيخوخة أو شىء أسوأ؟ ارتعدت حين فكرت فى الكلمة: ديمنتيا، لابد أن أصل الكلمة هو نفس أصل كلمة روح شريرة(*).

رق قلب "جولييت" "لستونكروب".. لامست ساعده المحترق من الشمس بأصابعها، لكنها لم تقل شيئاً، إذ بدا لها أن لا شيئاً يكفى قوله فى هذا الظرف المؤلم.

تمت زيارة "جولييت" الثالثة إلى بيت آل "ستونكروب"، وهى الزيارة الأخيرة، فى الأسبوع التالى، كان يوم الأحد. وكانت السماء تمطر هذه المرة والرقيب داخل البيت، حيث كانت روائحه أكثر تركيزًا فى الفراغ الداخلى. بدا أنه كان نائماً بعينيه المفتوحتين على الأريكة الرثة المغطاة مقاعدها

(*) روح شريرة أو شيطان Demon، والحقيقة أن أصل كلمة Dementia لاتينى، وهى من شقين: De بمعنى انفصل أو انشق أو رحل mens بمعنى العقل.. والمرض ينجم عن تلف يلحق بالمخ لدى الأشخاص البالغين فى أى من المراحل العمرية وليس بسبب كبر السن على وجه الخصوص ويتصف بتدهور الذاكرة أو القدرة على الانتباه أو التخاطب وغير ذلك من الأعراض.

بمشمع بلاستيكى.. وجهه المترهل الناعم غسلته "العمة آفا" منذ قليل، وذقنه حليق إلى حد ما.. تليفزيون أبيض وأسود يعرض مباراة بيسبول موضوع فى ركن الحجرة، وحين دخل "ستونكروب" تقدم دون كلمة ليغلقه، لمّا أفاق الرقيب من قيلولته لم يحتج على ما فعل، لم تبد عليه أدنى دهشة لوجود ابنه فى الحجرة، ومعه فتاة بشعر على هيئة ذيل حصان ترتدى فستانًا أصفر، فراح يحدق فيها محاولاً التذكر، أجفل "ستونكروب" وغمغم: "مرحباً يا "بابا".. كيف حالك؟" وحين غمغم الرقيب رده الغامض وهو ما زال يحدق فى "جولييتِ"، قال "ستونكروب": "تذكر "جولييت" صديقتى؟" ابتسمت "جولييت" ولكنها لم تقل شيئًا.. كرر "ستونكروب" وأوضح المقاطع على غير العادة على أبيه أن "جولييت" مغنية وأن صوتها جميل كصوت أى "مغنى" فى الراديو أو التليفزيون، وأنها تقيم فى الجوار فى شارع بلطيق، واسمها هو جولى-يت برنا ـ بى. كف "ستونكروب" عن الكلام وتنفس من فمه بغلظة، استمر الرقيب فى التحديق فى "جولييت" وكأنه لا يرى شيئًا غيرها، وفتح فمه وكأنه يمضغ ويمضغ، ويمضغ على شىء طرى غضروفى لا يمكنه ابتلاعه.

أحست بوجهها تعتليه الحمرة فغمغمت "جولييت" مرحبة وحاولت أن تبتسم وكأن هذه زيارة عادية لرجل مقعد عادى، رجل مريض يتعافى من مرضه وسوف يصبح على ما يرام ثانية. كانت قد عقدت العزم على أن تتحمل الزيارة من أجل "ستونكروب"، وبدا أنها تعنى له نفس المقدار من الأهمية على نفس النحو. خمنت لابد يحب أباه للغاية، وتذكرت أباها، الذى لم تعرفه لكنها تفكر فيه على الدوام، *يمكن أن يكون حياً الآن بعد ذلك الحادث. كان يمكن أن يكون حياً هكذا.. حى ميت.*

أصابتها هذه الفكرة بالدوار، وأحست بالحرارة وغياب الهواء ورائحة هذا المكان أكثر فتسلل الخدر إليها.

جلب "ستونكروب" مشروبات باردة.. علبة من صودا الكرز "لجولييت" وبيرة له وأخرى لأبيه، لكن والد ستونكروب لم يعد قادرًا على الشرب من

زجاجة، وحتى الشرب من فنجان صار صعبًا عليه، وهكذا رفع "ستونكروب" الفنجان إلى فم والده ومسح فكيه حين انسكبت البيرة من فمه. كرهت "جولييت" مذاق صودا الكرز الكيميائى الصبغة. تزايد إحساسها بالدوار. آه.. كم تتمنى أن يطلب منها باد الغناء!

"برنا - بى".. تكلم الرقيب فى عجب، وفى رهبة.. شىء ما لمع فى عينيه المحتقنتين بالدماء، صفع الفنجان فسقط من يد ابنه، وبدأ يصرخ فى "جولييت"، يصرخ على الأريكة وكأنه طفل رضيع عملاق اعترته حالة هياج، رأت جلده الأحمر يلمع وأسنانه تلمع وكأنها رءوس رماح. هبت "جولييت" ناهضة وتراجعت إلى الخلف على نحو غريزى مبتعدة عن مجال يد الرقيب العمياء. أبدًا لم تشعر بهذا النوع من الرعب البدائى.. وكل هذه الكراهية فى عين شخص آخر.

كان رد فعل "ستونكروب" دون تردد: أعاد والده براحة يده إلى موضعه وأجلسه على مسند الأريكة وكأنه يبعد ذبابة بيده، غمغم ما بدا مثل: "وغد عجوز".. وخلال ثوانٍ قليلة خرج هو و"جولييت" وتوجها إلى سيارة "ستونكروب".

انطلقا إلى خارج شلالات نياجرا، إلى الشمال متجاوزين ليوستون، ثم تجاوزا فورت نياجرا ومضيا إلى فور مايل كريك، وسارا على الشاطئ الرملى لبحيرة أونتاريو.

- ".. السبب هو السفليس، مشكلته المرضية أعنى "الديمنتيا". يعتقد الناس أن السبب هو الضرب الذى تعرض له، والذى لم يكن على أيدى زنوج، بل على يد رفاقه من رجال الشرطة الذين انقلبوا ضده، لكن السبب هو تلك المرحلة المتأخرة من السفليس التى لم يتلق علاجاً لها.. حينها يتعفن المخ، أترين؟ لا يذكر الأشياء الجديدة، ولن يذكر ما حدث اليوم، لن ترينه ثانية لكن إذا فعلت فلن يذكر أى شىء مما حدث، ربما سيذكر الذكريات القديمة ولبعض الوقت، لكن الأشياء التى وقعت حديثًا لن يذكرها.. وكأنها عقرب ساعة يتحرك لكن دون عقرب للساعات فيها، بل

مجرد العقرب يتحرك دون أى محددات، أفهمت؟ ولا شىء واضح أو محدد فى حركة العقرب".

ـ "يقول الأطباء إنه نسى كيف يدخل دورة المياه.. نسى، ومع الوقت سينسى كيف يأكل. والطعام فى فمه وعلى لسانه لن يعرف ما هو، ثم يبصقه. ويقول الأطباء ألا نندهش حين يحدث هذا".

ـ "لعنة عليه.. لا بأس، بالنسبة لى لم يكن أبدًا رجلاً لطيفًا. لم يكن محترمًا.. هذه هى حقيقته التى رأيتها، وأردتك أن تريها. أردت أن تعرفيه، ثمة سبب لرغبتى فى معرفتك. اعتاد أن يضربنا ونحن أطفال. لم يكن الضرب نادراً فى العائلة، أو فى الحى، والمرجح أنك تعرفين هذا، لكنه كان ابن حرام أصلى لا لبس فيه.. كان يضرب أمى. كانت جميلة فكسر لها وجهها بمضرب البيسبول الخاص بأخى. وفى مرة أخرى خنقها لكننا أوقفناه، ولأنه شرطى فقد أفلت بفعلته، وبأشياء أخرى كثيرة".

"تمت ترقيته فى قسم شرطة شلالات نياجرا؛ لأنه كان ذكياً، ويعرف كيف يغض بصره عن أشياء معينة. أشياء كثيرة اقترفها كبار الضباط بالقسم.. المفترض أن الفساد فى القسم أقل الآن، لكن نفس ابن الحرام الذى كان رئيساً للقسم مستمر فى تولى نفس المنصب، إنه يتقاضى راتباً من العصابات، من عائلة "باليدينو" فى بافالو، وليس هذا سراً، الجميع يعرفون هذا".

كان يضرب هو ورفاقه الزنوج بكعب البنادق لمجرد التسلية، وكاد فتى فى الرابعة عشرة من عمره أن يموت، قالوا إن الأمر متعلق بنشاط عصابى، ربما كان إضرابًا، وكان ذلك فى الوقت الذى ضُرب فيه مارتن لوثر كينج بالرصاص، لكن القضية لم تجد لها صدى هنا، اختفت أسرة الفتى من المنطقة. كانوا يعرفون أنه يجب ألا تضايق رجال الشرطة، اعتاد بابا أن يتباهى بهذا. هذا ما يفعله المرء حين يكون شرطيًا".

ضربنى حتى كبرت على الضرب، ولا أخبر الناس بهذا لكننى كدت أصاب بالعمى فى عينى اليسرى تحت تأثير صفعاته.. انفصال فى

الشبكية.. أنا على ما يرام الآن، وبالكاد ستلاحظين إصابة عينى، أشعر بالامتنان؛ لأننى لم أصب بالعمى، أتفهمين؟ إذا كنت أصبت بالعمى، ما كنت لأصبح طاهياً. دائماً ما أجرح نفسى على أية حال وأحرق نفسى، ما الأهمية.. لا بأس.

ذات مرة أطلق النار على كلب فى الحى كان ينبح كثيراً، وكانت روايته أن الكلب هاجمه فاضطر لأن يطلق عليه الرصاص، وكان هذا فى الوقت الذى قُتل فيه والدك.

هو وذلك الرجل الآخر الذى كان يقود الشاحنة، كان أبى يقود سيارة الشرطة، زجوا به إلى النهر بعد أن انحرف عن الطريق السريع، هكذا مات أبوك، فى النهر، أعتقد أنك تعرفين هذا. هناك من أراد أن يقتل والدك، أتفهمين؟ تم الاتصال بأبى ونفذ العملية"

يقول الناس "ستونكروب".. أعرف تلك النظرة على وجوههم، ليسوا مخطئين ولا يعرفون نصف الحقيقة حتى".

دائمًا ماعرفت، أعنى أننى كنت أعرف شيئًا، فأنا أقيم فى نفس البيت معه، أكملى أنت باقى القصة، أسمعه على الهاتف وأرى كيف لم يقلق يومًا من القبض عليه. من سيقبض عليه؟ أين الدليل؟ نفذ مهاماً أخرى كهذه على الأرجح، ثم بدأ يتصرف بشكل غريب، أكثر غرابة مما يمكن للقسم أن يتحمل، لم يكن أحد يعرف بشأن السفليس. لم يذهب إلى طبيب قط؛ إذ كان يخشى الأطباء والمستشفيات لأقصى حد، ما زال كذلك. نضطر لتقييده حين نصطحبه إلى الطبيب.

بدأ يتصرف بغرابة ويغضب الناس فى القسم، ولهذا ضربوه، كان يجب أن يقتلوه لكنهم لم يفعلوا، كُتب فى الصحف أن أبى تقاعد عن العمل، وامتدحه العمدة ورئيس الشرطة وكل الرجال. شىء مضحك! يجب أن تضحكى عليه، سأقتله بنفسى بالنيابة عنك يا "جولييت".

"أترين؟ أفكر فى هذا منذ فترة طويلة، عمتى آفا وأنا، ناقشنا هذا الموضوع.. أعنى بطريقة ما، أن يموت عن طريق حادث.. أن يتوقف فى

قلبه أثناء نومه، لن يهتم أحد.. كدت أخنقه فى بعض المرات، لكننى لم أتمم ما بدأته، فسوف تترك يدى علامات على عنقه. قد أستخدم وسادة.. ليس قوياً وأنا أقوى منه بكثير. أضغط على وجهه بوسادة لعدة دقائق ويموت، ولن يعرف أحد".

"أما كيف عرفت بشأن والدك، فهو من أخبرنى، حضرت عمتى آفا لترانى وقالت إن أبى يغمغم ويتكلم عن أنه فعل شيئًا خاطئًا. فسألته عما فعل فهز رأسه وكأنه لا يذكر، فسألته عن أبيك فانكمش على نفسه وقال لى نعم كان هو من فعلها، راح يصرخ فى جنون، وقالت عمتى إنه ربما يجب أن نستدعى قسًا ويمكنه الاعتراف للقس، لكننى قلت لعنة عليه، لن يدخل أى قس ملعون إلى بيتنا، فوافقت، وهكذا قال لى.. عن ذلك الشىء الذى فعله".

الرجل الآخر الذى كان يقود الشاحنة مات، لم أتبين الكثير مما قاله أبى. ربما قتل بنفسه الرجل الآخر، لكى يسكته، أو ربما أمر شخصًا آخر بتصفيته.. الرجل الآخر لا أعرف من هو. أعرف أباك فقط، أريد أن أقتله من أجلك.

كف "ستونكروب" عن الكلام، كانت البحيرة بلون أزرق كابى تحتهما.. الموجات بيضاء الزبد تروح وتجىء على شاطئ الحصى والأحجار، أنصتت "جولييت" إلى صديقها فى دهشة، أبداً لم تسمع "ستونكروب" ينطق بأكثر من بعض الكلمات القليلة الغائمة، وها هو الآن يكشف كل ما بداخله لها. كان صادقًا ومتوترًا. فهمت "جولييت" أنه يقدم حياة والده لها هدية، أو يتمنى أن يمنحها هذه الهدية، ستكون أغرب هدية تُعرض عليها فى حياتها. فهمت أن "باد ستونكروب" يحبها، وأن هذا إعلان لحبه.. لا يحبها فقط، كما قد يحب أى شخص أية فتاة، بل يحبها لذاتها، كما قد يحبها شقيق، بدافع من المعرفة لفترة طويلة، من الألفة. وكأنهما نشئا فى بيت واحد.. فى نفس الأسرة.

قالت "جولييت": "لا يا "باد".

لا؟ هل أنت واثقة؟"

أمسكت "جولييت" بيدى "ستونكروب" بين يديها. كانت تبلغ ضعف حجم يديها.. كبيرة العظام والمفاصل بأظافر حال لونها.. يشوبها الطعنات والندبات الحديثة والخدوش القديمة والحروق التى لحقت به جراء سنوات من العمل بالمطبخ، ابتسمت.. لم تر يدين بهذا الجمال من قبل.

ـ "أنا واثقة".

خـاتمة

في ذكرى

ديرك برنابي

١٢ سبتمبر ١٩٧٨

ـ ١ ـ

ـ لا يمكن أن أشارك.. لا تجبرنى.

ليس من طباع "آريا" أن ترجو أحداً. يحدق ابنها "شاندلر" فيها غير مصدق. فيما بعد سيشعر بالذنب (كم يبدو الذنب طبيعيًا للابن الأكبر المخلص "لآريا برنابى"). حين يخبرها لأول مرة بشأن مراسم التأبين المخطط لها لتكريم "ديرك برنابى". إذ أنه، حسبما لدى شاندلر من أسباب، على أحدهم أن يخبرها.. وبسرعة.

"آريا" المسكينة. تحدق فى "شاندلر" وكأنه ينطق كلمات لا معنى لها، ومرعبة فى الوقت نفسه. شحوب الموت فى الوجه.. تمسك بالمقعد، تدور عيناها فى جموح.. خضراء زجاجية.. لا تركز على شىء.

ـ لا يمكننى يا "شاندلر". لا يمكن أن أشارك.

وفيما بعد: "إذا كان أى منكم يحبنى بالفعل فلا تجبرونى على هذا!"

فى الأسابيع التالية، مع اقتراب سبتمبر، ومع ازدياد طموح التجهيزات للاحتفال بذكرى "ديرك برنابى"، ومع كتابة الحدث فى صحيفة نياجرا جازيت، لن تتكلم "آريا" عن الأمر. تنأى عن التحدث عن المستقبل، عن الخريف القادم.

هل أصبح الهاتف يرن أكثر فى البيت ١٧٠٣ بشارع بلطيق؟ ترفض "آريا" أن ترد. لا يحظى بعميق اهتمامها وانتباهها إلا تلاميذ البيانو، والبيانو، الذى تجلس إليه بالساعات الطويلة تعزف هذه المقطوعات..

وبعضها حزين وبعضها قوى مثير.. ألحان حفظتها أصابعها منذ زمن بعيد.

لقد رحلت.. هجرتنى.. لست زوجتك. أنا الآن .. أرملة. لا يمكن لأحد أن يجبرنى.. أبداً!

-٢-

دائمًا ما سيذكر "رويال": كيف أنه فى ذلك العصر من يوم ٢١ سبتمبر توقف بسيارته عند ممشى البيت رقم ١٧٠٢بشارع بطليق، ورأى "آريا" تنتظر مع "جولييت" عند الشرفة الأمامية، مثل تلميذ المدرسة الثانوية الذى يعرف أنه كبر عليه.. يصيح "رويال" فى حماس: "عجباً".

فيما بعد سيسأل "جولييت" لماذا لم تحذره.. لماذا لم تتصل به، وسوف تقول "جولييت"، لكننى لم أكن أعرف حقاً. حتى الدقيقة الأخيرة، لم أعرف أن ماما ستحضر. لم أكن أعرف.

"آريا برنابى" لا ترتدى السواد الأنيق، ولا حتى الأزرق أو الرمادي، بل قميصًا أبيض قطنيًا كان شائعًا فى الخمسينيات، عليه زهور وردية مطرزة موزعة عليه وحزامًا ورديًا حريريًا وقبعة عريضة من القش وقفازًا أبيض ناعمًا، وحذاء أبيض جلديًا، ورغم أن الفصل رسمياً هو الخريف، كان طقس شلالات نياجرا ذلك اليوم دافئًا، مشمساً، صيفياً، هكذا بدا زى "آريا برنابى" الغريب على بالنسبة ليس فى غير محله (هل اشترت الفستان من متجر الملابس المستعملة؟ أم اكتشفت وجوده فى مؤخرة دولابها؟) عالجت "آريا" وجهها المنمش، وجه الفتاة التى بلغت منتصف العمر، لكى يبدو نشيطاً ومتوهجاً، ورفعت "آريا" شعرها الأحمر الحائل لونه بمهارة فى قصة لامعة لتدهش أطفالها.

اندهش لدرجة لم يتمكن معها من الحذر فى سلوكه، أو أن يراعى الجيران الذين قد يسمعونه.. صاح "رويال": "ماما.. هل ستأتين معنا؟"

وهى جالسة إلى جواره فى السيارة قالت "آريا" فى جفاف وترفع: "بالطبع سآتى معكم.. كم سيبدو الوضع غريباً إن لم أحضر".

ـ٣ـ

إنها فى السادسة والخمسين من عمرها. فقدته منذ زمن بعيد.. سبع وخمسون! ومات، اختفى، فى عامها السادس والأربعين، بالنسبة لامرأة تقبل وضعها كإنسانة ملعونة، إن لم يكن محكوماً عليها بالهلاك، عاشت آريا حياة عنيدة تعتمد فيها على ذاتها وتمكنت من تنشئة أطفالها الثلاثة فى نفس مدينة غضبها وحزنها وخزيها.. وأبداً، على قدر رغبتها فى أن يعرف الجميع، أبداً لم ترغب فى أن تنظر خلفها.

تقول "لشاندلر": "قلت "لجوزيف". أنت تعرفه.. "بانكوفسكى".. صاحب الكلب، ترمل مرتين. لكننى لست أرملة. أرفض هذا الوضع. أعتقد أن الأرامل اللاتى يقبلن بهذا الوضع يجب أن ينتحرن على قبر أزواجهن فى الجنازة، ويرحمن الناس".. التقطت أنفاسها وابتسمت ابتسامة شريرة.. "آه.. انظروا لهذه النظرة على وجهه!"

(يتساءل "شاندلر": ما العلاقة القائمة بين "آريا" و"جوزيف بانكوفسكى"؟ سأل "جولييت" التى لابد أنها تعرف.. لكن جولييت تصر على أنها لا تعرف. تشك فى أن "آريا" نفسها تعرف).

"شاندلر" قلق على أن تلومه أمه على مراسم التأبين، بما أنه يعرف من نظم المراسم.. ليس فقط بسبب أنها مراسم تأبين، بل أيضاً بسبب الترويج الذى وجدته وطبيعتها العامة، لكن على غير المتوقع لم تقل آريا شيئاً ينطوى على اللوم، ولم تتهمه بخيانة ثقتها. فى رد فعلها على الأخبار الجديدة أدهشتنا "آريا" جميعاً. فى البداية أحسسنا بالارتياح، ثم بالقلق.

ـ ليس هذا من طبيعة ماما.

ـ ليس هذا من طباع ماما.

ـ ربما يعنى هذا أن..

ربما ماذا؟ لا نعرف على الإطلاق.

لا نعرف على الإطلاق.

حتى "شاندلر" الذى اعتقد أنه يطّلع على التقدم المُحرز فى قضية اتحاد ملاك قناة الحب.

قرأ فى يوليو من عام ١٩٧٨ على الصفحة الأمامية لصحيفة بافالو إيفينينج نيوز مقابلة مع نيل لاتيمور، المحامى الشاب العدوانى الذى تصدر عناوين الصحف القومية فى الفترة الأخيرة حين حكمت هيئة المحلفين لصالح موكليه فى قضية قناة الحب التى أعيد فتحها مؤخراً.. ورأى على الصفحة الأولى، إلى جوار صورة لاتيمور، صورة بتاريخ عام ١٩٦٠"لديرك برنابى".

- "بابا".

فرت الكلمة من "شاندلر" رغمًا عنه. اغرورقت عيناه بالدموع.

تكرر القول بأن قضية قناة الحب "أعيد فتحها" لكن فى الحقيقة فإن قضية عام ١٩٧٨ورغم أنها مبنية على قضية "ديرك برنابى" فى عام ١٩٦٢، فهى أكثر تعقيداً بكثير. انضم إلى القضية عدد أكبر من المشتكين، عن العدد الذى كان فى اتحاد ملاك كولفن هايتس، وكانوا أفضل تنظيمًا من السابق مع صلات سياسية أقوى بالحزب الديمقراطى على المستوى المحلى وقدرة أفضل على بلوغ وسائل الإعلام، وتمت إضافة متهمين من أصحاب المصانع، وأصبح من بينهم باريش بلاستيكس، وهو أحد أكثر المصانع تلويثاً لشلالات نياجرا منذ فترة طويلة، وازداد عدد المحامين والمساعدين على كل من طرفى القضية، وكان مبلغ المائتى مليون دولار الذى ربحه من رفعوا القضية بعد جهد متواصل لأربعة عشر أسبوعاً، مبلغًا كفيلاً بإثارة ذهول "ديرك برنابى".

لكن ها هى صورة "ديرك برنابى" فى الصفحة الأولى. بعينيه الدامعتين راح "شاندلر" يطالعها.

يظهر فى الصورة رجل شاب وسيم فى الثالثة والأربعين من عمره، عريض الوجه واسع الابتسامة، يتمتع بعينين عطوفتين داكنتين بعض الشىء. ترى فى الصورة أنه كان رجلاً اعتاد درجة معينة من الاحترام، وتخمن منها أنه يعرف قدر نفسه كما يعرف قدره الآخرون. لكنه كان يرتدى ثيابًا خفيفة، قميصًا أبيض مرفوع الكم حتى المرفقين. وكان بلا ربطة عنق، أشعث الشعر. الغريب أنه بدا لشاندلر أن هذا الرجل كان معروفاً بأنه محامٍ لا يشق له غبار.. وأن أعداءه كانوا يتمنون موته، تحدث "نيل لاتيمور" عنه وقال إنه "بطل.. "يسبق زمنه بكثير".. "مثالى فى توجهاته".. محام يتمتع بالذكاء والأخلاق وأنه "تعرض للاضطهاد وسيق إلى الموت" على يد تحالف من أصحاب مصانع الكيماويات، والفساد السياسى والقضائى، وبسبب "العمى بخصوص تلوث البيئة" فى الستينيات.

مر "شاندلر" بعينيه فى توتر على باقى المقابلة، لكن لم يجد المزيد عن "ديرك برنابى". اعتراه الضعف من قدر ما أحس من ارتياح، من أن لاتيمور اختار ألا يقول شيئًا عن كون "ديرك برنابى" قد أصيب بالعمى عن "التعفن الأخلاقى" لطبقته، أو عن "انهياره" أثناء المحاكمة. ولم يذكر لاتيمور شيئاً عن احتمال قتل "ديرك برنابى"، وإن كان مجرد احتمال.

- ٤ -

"رويال". لم تفعل هذا، هل فعلت؟

- لم أفعل ماذا؟

- أعرف أنك بالطبع لم تفعل.. لم تتمكن.

- لم أتمكن من ماذا يا "شاندلر"؟

- لا أسألك، ليس هذا بسؤال.. لا يحق لى أن أوجه إليك سؤالاً كهذا، ولا أجد سببًا لهذا.

- هل تسألنى سؤالاً؟

- لا.. لا أسألك.

ـ *لكن إذا كنت تسأل، فما السؤال؟*

هذه المحادثة الغامضة التى لم يخضها "شاندلر" قط مع رويال. والتى لن يخضها مع "رويال". لمّا قرأ فى الصحف عن الاختفاء الغريب فى منتصف الصيف للقاضى "ستروتون هويل". المقيم السابق بشلالات نياجرا والذى انتقل مؤخرًا إلى ألبانى، وقالت زوجته إن "هويل" قد "اختفى".. "ضاع".. فى مكان ما بين المكان المحجوز لسيارة القضاة فى مجمع الولاية وبين بيته فى آفيريل بارك، وتم العثور على سيارته خالية، والمفاتيح فى مكانها، على طريق بالقرب من طريق ولاية نيويورك السريع. وحتى ٢١ سبتمبر كان القاضى "هويل" مفقوداً منذ سبعة أسابيع.

"شاندلر" يعرف دون أن يسأل "رويال": لم يعد "رويال" يعمل فى وكالة إمباير كوليكشن. أصبح طالب فنون متفرغًا فى جامعة نياجرا وأصبح عمله بدوام جزئى فى الحرم الجامعى، كمساعد فى قسم الجيولوجيا، وأثناء الصيف الماضى لم يعمل "رويال" كملاح فى حفرة الشيطان، بل فى الجامعة.. ويخطط لدراسة الجيولوجيا كتخصص رئيسى له، ولم يعد يحمل مسدساً. ولم يعد بحاجة لحمل مسدس، منذ ذلك المساء فى شقته بالشارع الرابع، حين تكلم الأخوان بصراحة. لم يغر أى سلاح رويال، ولم يسأله شاندلر قط عن المسدس، ربما كان ليخطر على بال شاندلر: هل كان يوجد مسدس؟ هل هو حقيقى؟ كان قد شرب الخمر تلك الليلة، وذكراه عنها غائمة.

ـ ٥ ـ

كما قال "ستونكروب" *إنهم لا يعيشون إلى الأبد*

وكان يعنى "ستونكروب" بهذا أن يكون متفائلاً.. الرقيب ابن الحرام المريض هذا لن يعيش إلى الأبد، لكن "جولييت" فسرت تعليقه على أنه يحذرها، أن "آريا" لن تعيش إلى الأبد بدورها، لابد أن تحاول أن تحب "آريا" بينما ما زالت "آريا" على قيد الحياة.

ـ آه يا ماما.. تبدين جميلة.

لا ترد "آريا". لا يبدو أنها سمعت، منذ تعليقها الشجاع بعد أن جلست إلى جوار "رويال" فى الأمام، و"آريا" صامتة فى الطريق إلى وسط المدينة وبروسبكت بوينت.. "جولييت" فى المقعد الخلفى للسيارة القديمة تراقب مؤخرة رأس أمها فى ضيق، تشعر بمزيج من السخط والعطف تجاه "آريا". منذ بداية فصل الخريف الدراسى فى مدرسة شلالات نياجرا الثانوية، ومنذ بدأت تدرس الغناء فى أكاديمية بافالو للموسيقى، تشعر "جولييت" بانفصال عن أمها، ومزيد من الحب تجاهها، وحميمية أقل معها، ومزيد من الغفران. *أنا لست أنت.. أبداً لن أكون أنت ثانية.*

ـ لابد أنه وجه "برنابى" الذى أتمتع به.. لا حاجة إلى بطاقة هوية.

لم يزد "رويال" عن نطق الاسم.. "برنابى".. عند مدخل ساحة الانتظار حتى سمحوا له بالدخول ووجهوه إلى جزء مخصص للضيوف.

ومع العبور إلى بروسبكت بارك حيث ستُعقد مراسم التأبين لدى المبنى الفيكتورى الطابع، أدرك "رويال" و"جولييت" للمرة الأولى كم كانت "آريا" متوترة. حشد أغلبه من الغرباء، مقاعد مرتبة فى صفوف نصف دائرية على العشب، والعشب مشذب منذ قليل وكأن التشذيب لمناسبة خاصة. تمسك "آريا" بكل من طفليها وترجوهما فجأة: "لن يتم التقاط صور فوتوغرافية، أليس كذلك؟ أرجوكما، لن أتحمل هذا ثانية".

يواسيها "رويال": وعد "شاندلر" بعدم التقاط الصور، استخلص وعداً من المنظمين، لا صور دون موافقة "آريا".

لكن "رويال" يتساءل: كيف يمكن لأحد أن يعد بهذا الوعد؟ هل من المعقول أن تتوقع أسرة "ديرك برنابى" الخصوصية فى مناسبة عامة؟ ولا يمكن أن تمر هذه المناسبة دون إثارة الجدل.. مع زخم من المشاعر لكل الجمهور المحلى على الجانبين، بخصوص قضية قناة الحب وقضايا البيئة وتشريعات البيئة على العموم، عمدة شلالات نياجرا الجديد (الذى ربح

الانتخابات ليهزم مرشحى كل من الحزب الجمهورى والديمقراطى) مقرر له أن يلقى كلمة فى المراسم، وكذلك أعضاء فريق عمل المقاطعة للتجديد الحضرى، ورئيس هيئة الصحة بولاية نيويورك، ومسئول عن اتحاد ملاك قناة الحب، كما سيتكلم أصدقاء "ديرك برنابى" من المحامين، وأحدهم من أصدقائه فى الحرب العالمية الثانية، وسوف تتكلم معلمة "ديرك برنابى" للاتينية من مدرسة ماونت سانت جوزيف للفتيان البالغة من العمر تسعة وثمانين عاماً، وسوف تحكى بحب عن "ديرك" كما عرفته تلميذاً فى المدرسة باعتباره "صانع السلام". وسوف يتكلم كلايد كولبورن، صديق "ديرك" القديم، والذى أصبح رجل أعمال محلى ناجحا للغاية، وسوف يعلن عن تأسيسه لمنصب أكاديمى جديد فى جامعة نياجرا باسم "ديرك برنابى"، فى مجال الدراسات البيئية المؤسس حديثاً، ولم يجد المنظمون "نينا أولشاكر"، لكن واحداً أو اثنين آخرين من قضية قناة الحب الأصلية سيتكلمان. وسوف يرأس نيل لاتيمور، الراديكالى اللامع المراسم. وثمة احتمال، ألحت إليه الصحافة المحلية بحماس، لأن يظهر رالف نادر المدافع عن حقوق المستهلكين، إذا سمح له جدول مواعيده، ليتكلم عمّا تركه وراءه "ديرك برنابى".

نادر! الذى لم يعرف "ديرك برنابى" يومًا.. غاض قلب "رويال". يكره هذا، ستكون مناسبة للمزايدات السياسية أكثر منها ذكرى لوالده.

ولكن يعنى هذا التصديق على صحة ما فعله والده وأن عمله كان مهمًا.. أليس كذلك؟

يقول "رويال": "ماما.. انزلى طرف قبعتك، لهذا السبب ترتدين هذه القبعة السخيفة، أليس كذلك؟"

تحتج "جولييت": "قبعة ماما ليست سخيفة! إنها على الموضة وجميلة، وكأنها قبعة من لوحة لرينوار".

ـ "لوحة لرينوار! أرستقراطية للغاية، وهل نحن جميعاً فى هذه اللوحة أم قبعة ماما فقط؟"

تضحك "آريا" فى سقم.. إغاظة "رويال" لها ترفع روحها المعنوية المنخفضة فى العادة، لكن ليس هذا المساء.

أرملة "ديرك برنابى" وأطفاله الثلاثة تمت دعوتهم للتكلم فى ذكراه بالطبع. رفضت "آريا" على الفور لكن حاول كل من أولادها أن يتخيل ما سيقوله أو يفعله.. حتى إن "جولييت" تخيلت أنها ستغنى. (لكن ماذا ستغنى "جولييت"؟ باخ أم شوبرت أم شوبان؟ أو شيئًا أمريكيًا معاصرًا؟ لا تعرف أى نوع من الموسيقى كان يحبها والدها.. هل يهم هذا؟ وكم ستبدو لفتة كهذه مناسبة فى هذا الحدث؟ ومن سيرافق "جولييت" فى الغناء؟ سيشعر الجمهور أن عليهم التصفيق والحفاوة بمجهود عاطفى كهذا منها، لكن هل التصفيق والتهليل فى ذكرى تأبين أمر مناسب؟) وفى نهاية المطاف، رفضوا فى تهذيب.

تتكلم آريا فى تجهم وهى تشير بإصبعها: "هناك.. النسور تنتظر".

بعض المصورين فى المنطقة المحيطة بالمبنى، ليسوا أكثر من خمسة أو ستة، وطاقما تصوير تليفزيونى. تعتقد "جولييت" أنهم بعيدون كل البعد عن الشبه بالنسور، مثل غياب شبه أى شخص غيرهم عن النسور.

-٦-

يقود "شاندلر" سيارته وحده إلى بروسبكت بارك للحاق بأسرته، لا يمكن إلقاء اللوم عليه جراء ترتيب التأبين لكنه يشعر بالمسئولية.

هذه النظرات المتألمة التى ترميه بها "آريا" منذ أسابيع.

لا يمكن أن أشارك فى هذا.. لا تجبرنى.. إذا كنت تحبنى.

تعمق الألم فيها كثيرًا، يرى "شاندلر" هذا الآن، بما أنه يحب "ميليندا" فهو يحب "دانيا" وكأنها طفلته، وهكذا بدأ شاندلر يفهم شيئاً عن حزن أمه منذ ستة عشر عاماً، لم تكره "ديرك برنابى" قط، بل خسارته.

لا يمكنها التكلم عن هذه الخسارة، ولا الاعتراف بها، مصابة بالشلل، ولكن يجب أن تعيش.

مكان انتظار محجوزا يبتسم "شاندلر" لمنحه التميز وهو من آل "برنابى"، للمرة الأولى والأخيرة بلا ريب. أخرج "ميليندا" من السيارة وسوف تجلس مع الأصدقاء وسط الحشد. وهو، من آل "برنابى"، يعتبر من الضيوف المهمين فى هذه المناسبة، أوقف سيارته وسط سيارات الأشخاص المهمين الآخرين وأخرج ربطة العنق التى أحضرها ليرتديها.. هدية من "ميليندا". لونها فضى على أزرق وعليها أشكال هندسية، ربطة عنق حريرية إيطالية راقية، وسره كثيراً أنها أهديت إليه حتى أنه كاد يبكى تأثرًا.

ـ كيف عرفت يا حبيبتى: تريلوبايتس؟

ـ "تريلو.. ماذا؟"

ـ نوعى المفضل من الحفريات.. هذه الأشكال هنا تشبهه". ضحك "شاندلر" من التعبير الذى ارتسم على وجه "ميليندا" حين أدركت أنه يمزح.. "حبيبتى كل ما أقوله هو إننى أحب الربطة.. شكراً لك.

ربطها فى عجلة على قميصه الأزرق المغسول الحائل لونه. ربطة جميلة، كم يحبها.. رأى بدهشة جبينه المقطب فى مرآة السيارة.. عيناه الضيقتان وراء النظارة الملطخة. لكن "ميليندا" تحبه.. وغفرت له.

ربما الحب هو دائماً الغفران، إلى حد ما.

واتت "ميليندا" فرصة للتفكير فى هذا، فى التعجب لأمره، روحه البرنابية، ويمكن أن تكون كروته التى أرسلها هى التى أقنعتها. ضحكت من الكارتون سيئ الرسم للمرضة التى تأخذ الدم من ذراع الرجل منهك القوى.. *الرحمة!*

تعهد "شاندلر" أنه سيتغير. يريد الزواج من "ميليندا" خلال عام وأن يتبنى "دانيا" وينوى الاستقالة من منصبه كمعلم، وأن يدخل كلية الحقوق ويشعر أنه قادر على فعل هذه الأشياء، وأن حياته ستتغير، وسوف يصبح كما يجب أن يكون ابن ديرك برنابى. اليوم، بعد المراسم، حين يصبح وحده مع أسرته.. سيخبرهم.

عبر الحديقة وبدأ يسمع الموسيقى، فشعر "شاندلر" بمزيج من الرهبة والانتعاش، لم يتنبأ يوماً بمقدم يوم كهذا.. أبداً.. وهو صبى ينكمش فى غضب من كيفية نطق الناس لاسم "برنابى" باستهانة، لن ينعته أحد بعد الآن *عار عار اسم عائلة "برنابى عار"*.

لكن هذا جيد، ستغضب "آريا" لكن التأبين شىء جيد، ومهم.. تبرئة "ديرك برنابى" فى مدينته أخيراً.

أولاد حرام.. قتلة.. يمنعون عنه حتى الكرامة.

يتساءل بشأن "ستروتون هويل".. قاضى الولاية الوجيه، لكنه يبدو أنه لن يعرف أبداً.

هذه الموسيقى! فى موقع التأبين، موسيقى نحاسية تعزف مقطوعة حيوية على غير العادة لبورسيل، هذا الموقع من الأماكن المألوفة فى بروسبكت بارك، يستخدم لعقد الحفلات الصيفية وغيرها من المناسبات العامة. "شاندلر" مرتاح، الموسيقى جيدة. مهيبة لكنها ليست متباهية، الجمال المختلط بالشجن، دائماً ما أحب "شاندلر" هذا المبنى الفيكتورى، بسقفه المنحدر وزخارفه البهية، المطلى بدرجات من اللون الأرجوانى وكأنه لوحة فى قصة للأطفال، منذ سنوات بعيدة جلب "ديرك برنابى" أسرته الصغيرة إلى هنا فى حفلة صيفية. جلسوا على العشب، على بطانية، وكانت "آريا" هى الوحيدة التى قرصها البعوض.. ألم تكن هذه أسرتهم آل "برنابى"؟

وفى مناسبة أخرى، فى وقت سابق على هذا، لدرجة أن "شاندلر" بالكاد يذكر، وكأنه يرى تلك الذكرى من الجانب المخالف للتليسكوب.. أخرجت ماما "شاندلر" ليدفع "رويال" فى عربة الأطفال، كان هذا فى بروسبكت بارك أيضًا، على مسافة أقرب من الشلالات. يذكر "شاندلر" الرذاذ البارد المتناثر، كما يذكر "رويال" الرضيع سهل الانقياد، وماما التى كانت جميلة للغاية بشعرها الأحمر الذى يلمع فى الشمس، متمددة على

مقعد بالحديقة فى كسل وترف وكأنها قطة كبيرة نائمة.. *افعل كما قالت ماما! ابتعد.*

توقف "شاندلر" فجأة، حاول أن يتذكر. ماذا؟

وهو يرى الأعلام الأمريكية المصنوعة من مادة صناعية لامعة، تلوح أعلى المبنى ذات الثمانية أركان وترفرف مع النسيم.. غاض قلبه قليلاً. الأجواء الوطنية فى هذا المكان من بروسبكت بارك.. الألعاب النارية فى عيد الرابع من يوليو عند الشلالات.

ـ "شاندلر؟"

إنه "رويال". يمسك بذراع شاندلر مبتسمًا.

على وجه "رويال" الوسيم الغليظ نظرة تقدير، فيما وراء الابتسامة، وراء ابتسامة "رويال" الطيبة السلسة، وكأن الشقيقين يحييان بعضهما على منصة من الجليد العائم فى مكان عام. لا يجروءان على النظر لأسفل لمعرفة إن كان الجليد قد بدأ يتشقق.

ـ خمن من هنا.

عقل "شاندلر" مغلق لا يقدر على التفكير.. لا يمكنه حتى تذكر اسم الناشط المهتم بحقوق المستهلكين الذى وعد بحضوره التأبين.

ثم رأى "شاندلر": "آريا".

اعترته دهشة بدوره لرؤية أمه هنا.. ولا يعرف ماذا يقول، متلعثماً قال: "ماما! تبدين.." (لكن كيف تبدو آريا فى الواقع؟ محمومة، مشتتة، أحمر شفاه قرمزى يحدد فمها الصغير الشاحب. وتصفيفة شعرها، وما هذا الفستان الأنثوى الذى ترتديه؟ يشبه فستان وصيفة العروس) يعانق شاندلر أمه ويجفل مع إصابة طرف قبعتها العريضة لجبينه فوق عينيه تماماً، ويشعر بها تتجمد فى توتر وهى تعانقه. (أجل ماما تلومه، إنه يعرف هذا) ويقول بإلحاح: "ماما، سيكون كل شىء على ما يرام.. سنعتنى بك".

تدفع "آريا شاندلر" لتنكمش فيه وكأنها فى حالتها المخدرة هذه بحاجة للاختفاء.. "ومن سيعتنى بك يا ذكى؟"

ثم ها هى "جولييت".. "جولييت" الجميلة.

أحس "شاندلر" بالارتياح حين رأى شقيقته الصغيرة جذابة هكذا. الفتاة الخجولة المنكمشة التى تعثرت فى سلم القبو لتسقط فى قفص الأرانب الصدئ وجرحت فمها ونزفت.. ونزفت بغزارة وبكت بحرقة، الفتاة الخجولة المنكمشة ذات الوجه المصاب بندبة التى كان يحدق فيها أطفال الجيران. "جولييت" فى السادسة عشرة وأطول مما رآها "شاندلر" من قبل قط، ترتدى حذاء طويل الرقبة على الموضة.. شعرها الأشعث دائماً صففته وربطته بمشابك ووضعت أحمر شفاه، كان يناسبها.. عيناها المثقلتان الحالمتان تركزان على عينيه فى نظرة استغاثة. لكنها تبدو مُتزنة مستقرة، وليست مضطربة، فستانها يشبه غمد السيف وكأنها ملفوفة فيه، من قماش أخضر داكن حتى يكاد يبدو أسود.. جميلاً وجذابًا، فى تناقض مع فستان "آريا" الواسع، وحول عنق "جولييت"عقد زجاجى غامض الطابع لم يره "شاندلر" من قبل وإن اعتقد أنه هدية من صديق (لم يقابل "شاندلر "ستونكروب" وجهاً لوجه قط. لكنه يعرف من يكون "ستونكروب". فى الواقع، يعتقد "شاندلر" أنه رأى "ستونكروب" هنا فى الحديقة، الشاب حليق الرأس يذرع طرف الحشد جيئة وذهاباً، لا يمكنه الجلوس من الاضطراب، وعرف "شاندلر" من "رويال" أن "ستونكروب" استقال من العمل بمطعم خاله للمرة الأخيرة وأصبح يطهو الآن فى مطعم ماريو).

يشد "شاندلر" على يد "جولييت" ليطمئنها: لأن هذه ليست غلطة مروعة.. آل "برنابى" من شارع بلطيق يذهبون إلى مكان عام، عراة مكشوفين على الجميع.

تبتسم "جولييت" "لشاندلر" خلسة وهى تعض على شفتها السفلى: "فات الآوان".

ـ "فات الآوان.."

ـ لعدم الحضور إلى هنا".

مقرر أن يبدأ البرنامج فى الرابعة مساءً، اقتربت الساعة من الرابعة، وما زال الناس يتوافدون.. غالبيتهم من الغرباء، وجوه مألوفة هنا وهناك، وفى حالة هطول الأمطار فسوف يتم عقد المراسم فى قاعة قريبة، لكن السماء صافية إلى حد كبير، وإلى اليسار فقط فوق بيرة أونتاريو ترى سحابات سوداء، يدرك "شاندلر" أنه يغرز أظافره فى راحة يده فى قلق خشية ألا يحضر أحد مراسم تأبين "ديرك برنابى"، لكن يبدو ـ وحمدا لله ـ أن الجمهور أصبح كبيراً. عد بعقله العلمى سريعاً ستة عشر صفاً من المقاعد، وفى كل صف أربعة وعشرون مقعداً، عددها أربعمائة مقعد.

أربعمائة! يشعر "شاندلر" بطعنة من الذعر، توجد مقاعد كثيرة يجب أن تُملأ.

"نيل لاتيمور"، المشتعل نشاطاً بكل ما يتدفق فى عروقه من أدرينالين.. المحامى الناشط المثالى، يحضر ليصافح "شاندلر"، ويكاد يكسر له أصابعه، يريد أن يقدمه لآل "برنابى". لكن "آريا" تقطب جبينها وتشيح بوجهها، تنصت فى انتباه جزئى إلى فرقة الآلات النحاسية. هل يعزفون الآن موسيقى إيفز؟ كوبلاند؟ مقطوعة بطيئة تبدو أمريكية للغاية ومتفائلة للغاية بحيث لا تناسب ذائقة آريا الرفيعة. يتم توزيع البرنامج على الحضور: ديرك برنابى ١٩٧١ ـ ١٩٦٢ .متطوعون شباب من منظمة تدعى تحالف جبهة نيارا يسعون للحصول على توقيعات تضامن على شكوى. يعلقون أزراراً صفراء لامعة كبيرة مكتوبًا عليها **صوتوا لتعديل "المياه النظيفة"** ويظهرون بكثرة فجأة وسط الحشد. لدى لاتيمور طلب أفضى به سراً فى أذن شاندلر، لا بأس، لا خيار أمام "شاندلر" لكن يجب أن يسأل "آريا" الموافقة على التصوير، التى لا يمكن تفاديها، وربما ترد عليه فى لطف. ولدهشة "شاندلر" وافقت "آريا". لكنها لن تتكلم مع المراسلين الصحفيين الذين يلتفون حولهم، ولن تقف للتصوير وحدها. "رويال"!

"جولييت"! "شاندلر"! تعالوا هنا". هذه إحدى مزايا الأمومة القليلة، أن تقدر على استدعاء أطفالها فى مكان عام كما تستدعى الدجاجة فراخها الصغيرة، ويجب أن يطيعوا.

إلى جوار المبنى المحاط بالزهور تقف "آريا" بين ابنيها الطويلين الوسيمين، وذراعاها الرفيعتان حولهما.. و"جولييت" الصغيرة ، تقف أمام "رويال" الأطول، أضواء فلاش وكاميرات تليفزيونية. آل "برنابى" من شارع بلطيق انكشفوا لأقصى حد. سوف تتفادى آريا البحث عن هذه الصور فى الصحف باستثناء واحد.. يستحيل تفادى صورة الصفحة الأولى فى الجازيت حين ستظهر مع أطفالها بوجوه مبتسمة وتحتها التعليق..

أسرة ديرك برنابى تحضر مراسم التأبين فى بروسبكت بارك

هذه العبارة التقريرية البسيطة سيقرؤها ويعيد قراءتها كل آل برنابى وكأنها شعر منظوم ذات جمال مدهش، يحتوى فى طياته على معانٍ خفية.

الفهرس

الرواية

شلالات نياجرا هى صاحبة أعلى صوت فى هذا العمل الملحمى الكبير. تصدمنا "الشلالات" فى أول هديرلها بانتحار "عريس" فيها بسبب اضطرابه النفسى الموزع بالتساوى على الجنس والعلم والدين، فيوجه لطمة موجعة لإيجابية واحترافية الشعب الأمريكى المعهودة.

قالوا عن "الشلالات".. إنها رواية أجيال لكنها فى الوقت نفسه عمل شخصى بامتياز يخص كل من أبطاله كل على حدة، وكأنها متتالية من الروايات القصيرة فى عمل ملحمى كبير، أو أنها متتالية من المشاهد والحلقات لشخصيات فى مختلف مراحل العمر.

قالت "جويس كارول أوتس" فى أحد حواراتها بمناسبة صدور الرواية .. "إن الكتابة لعنة لا أحسد من تلحق به، ولا أتمنى لأحد أن تمسه الكتابة، لأنها ليست بالأمر الهين أو المهمة اليسيرة".

الروائية: الكاتبة الأمريكية جويس كارول أوتس
الجائزة: جائزة "الفيمينا" ٢٠٠٥.

ISBN# 9789774208405
6 221149 015166

٣٠ جنيهًا

الهيئة المصرية العامة للكتاب